الألف كتاب (٥٧٩)

سقوط الأسر الحاكمة

تأليف
إدموند تيلور

ترجمة
علي عزت الأنصاري

مراجعة
الدكتور محمد أنيس

الناشر
مؤسسة سجل العرب
٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٥

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

هذه ترجمة كتاب

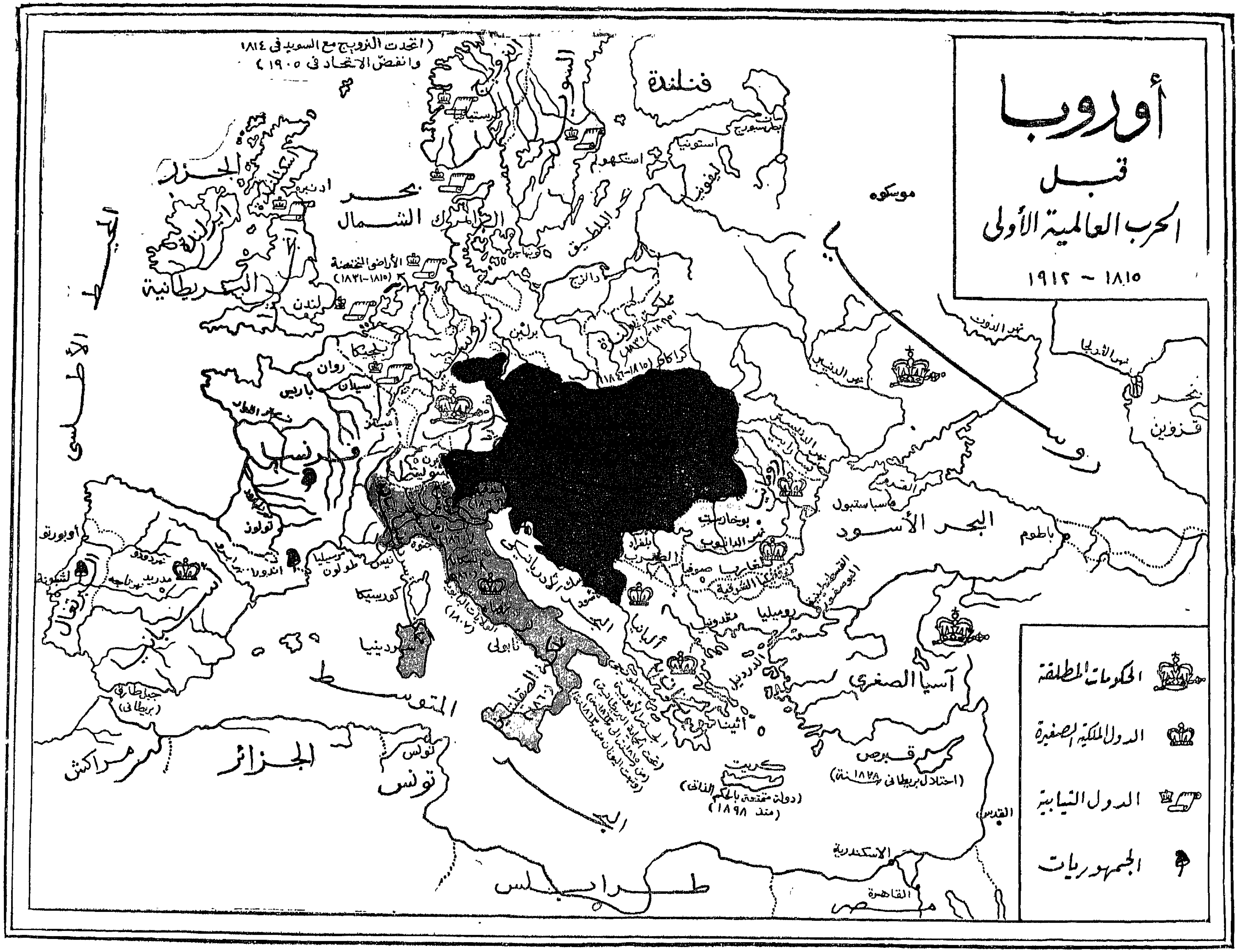
THE FALL OF THE DYNASTIES

تأليف

EDMOND TAYLOR

محتويات الكتاب

فهرست الخرائط والأسر الحاكمة


أوروبا
قبل
الحرب العالمية الأولى
١٨١٥ - ١٩١٢
الحكومات المطلقة
الدول الملكية الصغيرة
الدول النيابية
الجمهوريات
(اتحدت النرويج مع السويد فى ١٨١٤
وانفصل الاتحاد فى ١٩٠٥)
فنلندة
استكهولم
استونيا
موسكو
بحر الشمال
الجزر البريطانية
لندن
بلجيكا
روان
باريس
فرنسا
تولوز
برلين
كراكاو
روسيا
بوخارست
بلغراد
صوفيا
روميليا
مقدونيا
ألبانيا
أثينا
البحر الأسود
سباستبول
باطوم
آسيا الصغرى
قبرص
(احتلال بريطانى فى سنة ١٨٧٨)
كريت
(دولة متمتعة بالحكم الذاتى
(منذ ١٨٩٨)
القدس
الاسكندرية
القاهرة
مصر
طرابلس
تونس
الجزائر
مراكش
كورسيكا
سردينيا
نابولى
البحر المتوسط
المحيط الأطلسى
مدريد

الفصل الأول

سراجيفو

« طلقات الرصاص التى لاتزال
تقرع أسماع العالم » .

من أشهر الصور الفوتوغرافية الحديثة للدوق فرانسيس فرديناند سليل بيت هابسبرج ووريث عمه الذى نيف على الثمانين ــ الإمبراطور فرانسيس جوزيف إمبراطور النمسا والمجر ــ صورته التى يرى فيها وهو ينزل درج قاعة المدينة فى سراجيفو بعد بضع دقائق مضين من الساعة الحادية عشرة من صباح الأحد الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٩١٤ . يرى فى هذه الصورة جسمه الضخم المتين تحت لباسه الرسمى الزاهى الذى تعلوه قبعة مزدانة بالريش ، كما يبدو فيها احتقان وجهه وتورم رقبته البارزة من بنيقته الخانقة . وأما شواربه الكثيفة المثنية فكانت تشبه شوارب خنزير برى . وتخطر بجانبه زوجته صوفى التى لا تدانيه فى منزلته السامية ، وهى سليلة أسرة هوهنبرج ، ولا يخفى ما فى وجهها الممتلئ من الاحتقان وما هى عليه من الاضطراب ، وهما يهمان بدخول العربة التى كانت فى انتظارهما ويبدو على الزوجين معاً شيء من القلق ، ولكنه قلق لا يبلغ حد الرعب . ولم يكن يبدو شيء من الرعب كذلك على أعيان البوسنة الذين كانوا على جانبى الطريق الذى يجتازه الزوجان اللذان أعد القدر لهما ما أعد، وكثير من هؤلاء مسلمون . ومن سخرية الأقدار أنهم دون غيرهم هم الأصدقاء لبيت هابسبرج الكاثوليكى فى هذه المقاطعة الثائرة نصف الشرقية ، الذين خلعوا عن أنفسهم نير الحكم التركى حديثاً . ولكنهم يجأرون بقيام دولة يوجوسلافيا التى لم تكن قد قامت بعد — وهم يعتقدون ألا مهرب للانسان مما قدر عليه . وعقيدتهم هذه كانت تبدو على وجوههم . وقد سجلت آلة التصوير

صورهم وقد رفعوا أيديهم بإزاء قبعاتهم فى شىء من الذعر مع استسلام للقضاء ، كأنما يؤدون التحية الجنائزية لأحد الراحلين .

إن هذا المنظر كله الذى سجله أحد المصورين المجهولين لباق عبر السنين المديدة فى وضوح تام ، حتى كأن الناظر إليه يذكر كابوساً مروعاً سبق أن أقلقه فى إحدى الليالى السالفة ، وقد ينزع الإنسان إلى عدم تصديق مايراه ، إذ يكون هـذا الشعور فى صراع مع ما يخاله قدراً محتماً .. ولا شك فى أن أحد الناس قد يصيح صيحة تحذير قبل فوات الأوان . ولا شك كذلك فى أن أحد الناس قد يحاول القيام بعمل شىء ما . وفى الواقع أن أحد الناس قد عمل شيئاً . ولـكن الذى عمله كان هو الخطأ بعينه ، وكان بعد فوات الأوان . وفى خمس دقائق كان فرانسيس فرديناند وصوفى فى غيبوبة تامة فى عربتهما المسرعة ، ينزفان دم الحياة من إثر الرصاصات التى أطلقها عليهما القاتل .

وهاهى ذى أسرة عريقة — ومعها أسلوبها الـكامل للحياة — أخذت تساقط وسيتلوها غيرها وغيرها وغيرها . ولقد قضى نحبه ما يقرب من تسعة ملايين نسمة فى الحرب العالمية الأولى نتيجة لهاتين الرصاصتين اللتين أطلقتا فى إحدى مدن البلقان المغبرة منذ حوالى نصف قرن ، كما قضى نحبه خمسة عشر مليوناً فى حرب ثانية أشد هولا من سابقتها مترتبة على نتيجة الحرب الأولى . إن زيارة وريث أسرة هابسبرج وزوجه إلى سراجيفو لم تستغرق أكثر من ساعة واحدة وبضع دقائق — وهى مدة عرض شريط سينمائى — ولـكن مأساة هذه الدقائق الستين أو السبعين قد غيرت فعلا كل مجرى التاريخ الحديث . وإن إعادة النظر فى هذه المأساة لتعين على فهم كثير من المآسى المحزنة التى شهدها العالم منذ وقوعها .

إن منظر سراجيفو فى ناحية الجنوب الغربى رائع .. فالجبال المرتفعة ذات..

الانحدار السهل تكاد تحيط بها من كل جانب . ويقسمها قسمين وادى نهر ملجاكا — القليل الغور — الذى يضيق عند حدودها الشرقية حتى يصبح ممرا وعراً يطل عليه الحصن التركى المتهدم الذى سمى باسمه . وفى أعلى هذا المدرج الطبيعى الذى ترتفع جوانبه حوالى ستمائة قدم ، تقع أحياء المسلمين التى تحلق فيها مئات مآذن المساجد ، فوق الفيلات البيضاء التى تحيط بها الحدائق المسورة ، أما المدينة الحديثة البناء فى أسفل هذا المدرج فكأنها ما أقيمت إلا لتزيد من سحرها وبهائها ، هذه هى سراجيفو اليوم وهى — فيما عدا الآثار البسيطة التى خلفتها القذائف التى ألقاها عليها الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية — التى تراءت لفرانيس فرديناند فى مطلع الصباح المشرق ، عندما حملته إلى محطة سكة الحديد عربته المفتوحة ، ترفرف عليها أعلام أسرة هابسبرج ذات اللونين الأسود والذهبى ، يعبث بها النسيم الجبلى العليل .

ولا شك أن المنظر قد ملأ الدوق بهجة وسروراً رغم أنه لم يكن ممن يأسرهم الجمال . ولم يبد من الاهتمام أكثر مما اعتاد إبداءه فى مسرح الأوبرا أو حفلات الرقص فى السراى ، مما كان موضع الشكوى من أهالى فينا المعجبين للفن والمولعين بالمرح . ولكنه بينما كان مستنداً إلى مقعده المكسو بالجلد ليتفضل برؤية المنظر كان وجهه الذى تستشف فيه الكبرياء وحدة الطبع — وكذلك جسمه المتهدل من أثر السنين ، وقد بلغ من العمر الواحدة والخمسين — معبراً عما يشعر به من المرح على غير عادته . والواقع أنه كان لدى فرانسيس فرديناند كل ما يجعله راضياً فى حياته بل ما يجعله راضياً بعض الشىء فى صباح ذلك النهار المشرق من يونيو .. فالمناورات العسكرية الهائلة على الحدود الصربية التى كانت الحجة الرسمية لزيارته للبوسنة — بصفته المفتش العام للقوات المسلحة — تمت على ما يرام على الأقل من وجهة نظر النمسا والمجر ، إذ لم يحدث فيها أى إهمال ،

لا شيء مما يشبه ذلك الحدث المزرى الذى وقع قبل ذلك بشهرين على مقربة من تريست ، إذ قبض هو على أحد الحرس البحريين يدخن لفافة تبغ وراء أحد الأسوار ، فأمر أن يسجن مدة أسبوعين . وكان فرانسيس فرديناند لا يميل للفكاهة كتوماً ، يحب المحافظة على الرسميات ، مع ولع شديد بالنظافة والنظام ، كما يأخذ مأخذ الجد كل ما يتعلق بالمسائل العسكرية والإدارية ، وهو أشبه بألمان بروسيا فى كرههم للاهمال والتراخى (١) مما برع فيه النمساويون .

وكانت حاشية الدوق التى كانت فى النزل القريب من إليدز (Ilidze) العين المعدنية هناك ، هانئة بتمضية الليلة السابقة فيها ، ولم يلقوا هناك أى تقصير أو إهمال . وكانت صوفى التى صحبها وجاء بها على خلاف ما تقضى به التقاليد ، سعيدة بما حظيت به من اهتمام صغار الضباط المقرون بالاحترام . وهذه الزيارة الرسمية إلى سراجيفو رغم ما فيها من إجهاد ونصب ، كانت أدعى إلى الارتياح ، إذ كان للموعد الذى حدثت فيه جانب خاص فى تفكير الدوق ، ربما كان أهم من الجانب السياسى ، إذ كان الخامس والعشرون من شهر يونيه ذكرى يوم من أهم الأيام فى حياته .

فمنذ أربعة عشر عاماً اقترن الدوق فرانسيس فرديناند من النمسا الشرقية (Austria Este) (وهذا أحب الأسماء إليه) من صوفى شوتك ، وهى من أسرة تشيكية نبيلة ، وإن كانت غير ذات جاه عريض . وكانت وصيفة لابنة عمه الدوقة إيزابلا . ولربما كان أولى بها — من وجهة نظر الأسرة الملكية — أن تكون إحدى الوصيفات .

---

(١) يبدو أن هذا أحد عيوب أسرة هابسبرج الإمبراطورية ، وليس أحد العيوب القومية النمساوية ، ومن يزور النمسا اليوم قلما يجد إهمالا فى الجمهورية النمساوية المتقدمة فى الحلقة السابعة من هذا القرن .

« والحب من شأنه أن يفقد الإنسان كل معنى للكرامة » كانت الكلمة التى قالها الإمبراطور فرانسيس جوزيف عندما سمع الخبر. ولم يغفر الإمبراطور طول حياته هذا الاقتران غير اللائق. ولقد لبث سنة كاملة فى مفاوضات قاسية حتى حصل آخر الأمر على موافقة الإمبراطور على القران. ولم يستطع حتى الإمبراطور نفسه أن يخفف من صرامة قانون نظام أسرة هابسبرج المكتوب، الذى يعتبر القانون الأسمى لشئون الأسرة.

وفى إحدى جلسات مجلس البلاط فى قصر هوفبرج العتيق فى الثامن والعشرين من يونيه سنة ١٩٠٠ أجبر فرانسيس فرديناند على أن يتنزل عن جميع الحقوق الوراثية قبل أن يتم بينهما ذلك القران غير المتكافئ. ولم ينس هذه المذلة أبداً. ونظراً إلى حبه لصوفى اضطر إلى ابتلاعها ولكنها ظلت تؤرقه طول حياته. ولم يكن الدوق ممن يخرجون على التقاليد الملكية، بل كان متعالياً متمسكاً بجميع المزايا الملكية وبحقوقه المستمدة من أسرته العريقة بصفة خاصة، رغم زواجه بامرأة من عامة الشعب. ومن العجيب أن هذا الزواج كانت ترفرف عليه السعادة.

وعند ما أصيب فرانسيس فرديناند بذات الرئة، وعده بلاط عمه الإمبراطور فى عداد الموتى — وهى إساءة لم ينسها طول حياته — ظلت صوفى ترعاه دون أدنى ملل، حتى عوفى من مرضه واسترد صحته. وقد أنجبا ثلاثة أبناء. إرنست وماكس وصوفى. وكان الأخيران يدعيان فى الأسرة ماكسل وصوفيرى وكان يعبدهما الدوق.

وكثيراً ما كان الدوق فى غاية السعادة جالساً على أرض الحجرة رغم كل التقاليد يلعب مع أولاده ويستقبل وهو فى هذه الحالة ذوى المكانة من الزائرين.

والويل لزائر منهم لا يحذو حذو صاحب السمو الملكى فيما هو فيه من جلوس ولعب . ويبدو أن قران سليل أسرة هابسبرج — الذى سيؤول إليه الملك — بابنة أحد أفراد الأقلية السلافية التى يزدريها الإمبراطور ، كان ينطوى على نمط من السعادة الشعبية .

والواقع أنه كان أكثر من ذلك . إن ركب الزوجين معاً فى يومهما الأخير كان لا يزال مشهداً للحب بين الزوجين .

والواقع أن هذين الزوجين فى بساطتهما — فرانسيس فرديناند الذى كان أكثر شبهاً بالفلاح البروسى منه بأحد السادة فى عاصمة النمسا ، وصوفى ربة البيت ذات الوجه المربع التى جاوزت سن الشباب والتى لم تكسبها أية مسحة من الجمال قبعتها البالغة الأناقة وبنيقتها العالية الضيقة وهما جالسان على المقعد الخلفى لعربتهما الكبيرة فى طريقهما إلى موعدهما مع الموت . الواقع أن الزوجين كان يربطهما رباط من الحب الرومانتيكى الذى لا يهدأ أواره ولا يقل عن أى رباط من الحب مذكور فى صفحات التاريخ . وكانت الابتسامات التى تبادلها الزوجان عندما كان الركب يقترب من وسط المدينة بين التكبير والتهليل ، حارة وصادقة . إن تدبير الدوق لهذه الرحلة كان إرضاء لصوفى وكانت هى على علم به .

ولم يكن لصوفى مكان فى الحفلات الرسمية التى يقيمها البلاط النمسوى فى فينا والتى ترجع فيها قواعد البروتوكول إلى عهد ماريا تريزا . وفى عام ١٩٠٦ منحها الإمبراطور لقب دوقة هوهنبرج ، ومنذ ذلك الحين سمح لها أن تدعى إلى الحفلات فى قصر شونبرون ، ولم تكن مطلقاً على قدم المساواة مع زوجها .

وقد استخدم أعداء الدوق العديدون كل سلاح من أسلحة البروتوكول للكيد لها وإذلالها . ففى حفلات البلاط مثلا — عندما تقتضى الرسميات أن يكون للمداخل نظام خاص — كانت الأوامر تصدر بألا يفتح للدوقة إلا إحدى الضلفتين ، وترتب على هذا أن فرانسيس فرديناند — وهو رجل حقود لا يسكت عما يصيبه حتى يثأر لنفسه ، فضلا عن رغبته غير الخافية فى أن يموت عمه، وعن نوبات الحزن والغضب التى تعتريه والتى تخشى صوفى أن تؤدى به إلى الجنون — أقام بلاطاً منافساً لبلاط الإمبراطور فى قصره المسمى بلفدير فى أعلى التل الذى يشرف على فينا . ولم تكن الأسر الألمانية والمجرية الإقطاعية ممثلة فى هذا البلاط إلا من قبيل تأدية الواجب. وكان الدوق يكره نبلاء المجر المتغطرسين بسبب نزعتهم الاستقلالية ، وكان يحيط نفسه بخليط عجيب من السلافيين ورجال الكنيسة الرجعيين والألمان الكاثوليك الاشتراكيين . وكان من شأن هذا شطر طبقة النبلاء إلى فريقين ، ومع هذا فلم تحل مشكلة المكانة التى توضع فيها الدوقة بصفة رسمية .

ولم يكن من المحتمل — كما يبدو لنا الآن — أن هذا الموقف الذى ينطوى على كثير من الخطأ ويدعو إلى كثير من التعصب ، كان إحدى الدعامات التى بنى عليها مسرح المأساة العالمية . لقد كانت رغبة الدوق فى توقيع العقاب على شانئيه ، وفى التكفير عن سير صوفى فى آخر المواكب الرسمية ، بينما يكون هو على رأس الموكب، تصحبه دوقة أخرى عالقة بإحدى ذراعيه ، هى التى دعته إلى أن يبتدع له بروتوكولا خاصا . وقد استغل فرصة تعيينه مفتشاً عاماً للقوات المسلحة — وقد عين فى هذه الوظيفة سنة ١٩١٣ — فأراد أن يشهد المناورات القادمة فى إيالة البوسنة والهرسك التى ضمت حديثاً إلى النمسا . ويستطيع بصفته هذه لا بوصفه وريثاً للعرش أن يزور سراجيفو عاصمة الإيالة . ولكنه بطبيعة الحال كان لابد من أن يعامل على أساس مستواه الإمبراطورى . ورأى أن يصحب صوفى فى ذكرى عيد قرانه،

وبهذا تستقبل بوصفها حرم المفتش العام الذى صادف أن كان وريث العرش ، أى أنها تستقبل كملكة .

ولم تكن الدوافع السياسية لزيارة الدوق لسراجيفو أقل تعقيداً من الدوافع الشخصية . إنها كانت متأصلة فى تاريخ أسرة هابسبرج ، وفى الجغرافيا البشرية المعقدة لحوض نهر الطونة . ومع أن هذين الموضوعين يستحقان مزيداً من الدرس إلا أنه يكفى الآن التنويه ببعض جوانبهما البارزة. ومن أوليات الحقائق التى تتجلى بها الأمور أن النمسا — المجر كانت تسمى المملكة الثنائية لأنها لم تكن مكونة من شعب واحد بل من شعبين منفصلين يعد كل منهما من الناحية النظرية دولة ملكية ، ويحكمهما حاكم واحد هو الإمبراطور — الملك ، ويربطهما رباط بسيط أو إدارات ومصالح الإمبراطورية (بما فى ذلك الجيش). وهذا — فى الواقع — تبسيط كبير فى تحديد العلاقة بينهما ، فإن النمسا والمجر أقرب إلى أن تكونا إمبراطوريتين متحدتين من أن تكونا شعبين متحدين . وفى كل منهما جنس له السيادة . ففى النمسا الألمان ، وفى المجر المجريون. ولكل منهماالسيادة على الشعوب الخاضعة له . (ومع أن المجر كانوا هم السادة فى بلادهم ، إلا أنهم لم يمتنعوا عن الشكوى من أن الألمان يظلمونهم ، أو على الأقل يستغلونهم فى سائر أنحاء الإمبراطورية) . وكان معظم الأهالى ينتمون إلى الجنس السلافى (ولو أن فيهم كثيراً من الإيطاليين والرومانيين) ولكنهم قد تفرعوا من أصول مختلفة منه . وبدلاً من أن يتجمعوا فى صعيد واحد تبعثروا فى أنحاء متفرقة من الإمبراطورية مع غيرهم من الأقليات العنصرية الأخرى ، كما تختلط الرسوم فى إحدى الصور المرسومة على النمط السوريالى .

وكان التشيك يقيمون فى المناطق الشمالية من النمسا التى كانت تعرف من قبل

دولة بوهيميا السلافية المستقلة . وكان السلوفاك وهم من ذوى قرابتهم يقيمون شرق هؤلاء ، أى أنهم واقعون تحت نفوذ المجر الشديدى البطش . وكانت المجر تمتلك أيضاً جزءاً كبيراً من دولة يوجوسلافيا الحالية . وهكذا كان بالمجر أقلية من السلافيين والكروات والسلوفاك ، إلا أن بعض السلوفيين وهم من السلافيين من أهل الجنوب كانوا خاضعين لحكم النمسا .

ومن الطبيعى أن تنشأ معظم متاعب أسرة هابسبرج وهم السادة الإقطاعيون من هذا الخليط العجيب من العناصر المتباينة ، وبخاصة من أشد هذه العناصر شكيمة وأكثرهم عناداً ، أى من المجر . وعلى هذا فقد رأوا فى ممالأتهم لبعض رعاياهم السلافيين شيئاً يحد من غطرسة المجر وعنادهم . وقد رأى فرانسيس فرديناند أن يسير مع تيار تقاليد أسرته إلى أبعد مدى . وقد كان يلذ له — إما كرها للمجر وإما اعتقاداً منه أنه مماتقتضيه السياسة — كان يلذ له أن يظهر بمظهر حامى السلاف فى الإمبراطورية . (ولعل اقترانه بإحدى النبيلات التشيكية مما سهل له القيام بهذه المهمة أو لعله أوحى له بها) . ولاشك أن فرانسيس فرديناند كان أبعد نظراً من معظم كبار رجال الحكم النمسويين فى رؤية الحركة الوطنية الأخيرة فى النمو بين الأقليات السلافية وبخاصة بين أهل الجنوب منهم . ولعل الدوق كان يرجو أن يقضى على حلم اليوجوسلافيين فى الحصول على الاستقلال ، ذلك الحلم الذى كان يعمل على تحقيقه عناصر التوسع فى دولة الصرب المتاخمة ، بمنحهم السلاف فى الجنوب الحكم الذاتى فى دولة خاصة بهم داخل الإمبراطورية .

وكان للبوسنة علاقة هامة بل علاقة فعالة بمثل هذه المشروعات . وكان لها دور كبير فى المعترك البلقانى كله . وكانت النمسا تحكم البوسنة وشقيقتها الهرسك منذ سنة ١٨٧٧ التى طرد أهلها المسيحيون (ومعظمهم من الصرب والكروات) ،

سادتهم الأتراك . وكان الأساس القانونى لهذا الوضع مستمداً من معاهدة بين الدول الأوربية عامة كانت تهدف إلى منع هذه الدولة الحديثة من أن تكون نواة للنزاع بين الدول التى وضعتها تحت الحكم النمسوى المجرى فيما يشبه الوصاية (وكانت البوسنة والهرسك تعدان قانونا جزءا من الدولة العثمانية) ثم إن وزراء الإمبراطور أغروه بإصدار الأمر بضمهما إلى إمبراطوريته . وقد أقلق هذا الإجراء الدول العظمى وأثار الوطنيين المتحمسين فى الصرب المستقلة ، الذين كانوا يأملون فى ضم البوسنة والهرسك إليها ، كما أثار حمية دعاة الصربية والسلافية الوطنيين من السكان . وعندما اعتزم الدوق القيام بزيارته الرسمية إلى عاصمة البوسنة ، أحس أن سيكون لها أثر فى تهدئة الأحوال فى البلاد . كما تقابل بالرضا من السلاف الوطنيين فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم إن هذه الزيارة دلت هى والمناورات التى كانت تجرى على الحدود على أن الإمبراطورية لا تسمح بأى هراء، سواء أكان الدعوة الصربية فى بلغراد أم الإضراب السياسى من سلاف الجنوب فى داخل حدودها . كما أنها تظهر — فى شىء من الغرابة — عطف إمبراطور المستقبل على الآمال المشروعة التى لدى السلاف الوطنيين وحبه المعروف لرعايا السلافيين ، كما أن الزيارة كانت مدعاة لإثارة المجر وحنقهم .

هكذا كانت الحال عندما كان الدوق فرانسيس فرديناند وزوجه صوفى يركبان معا عربتهما البطيئة المكشوفة ، فى المنطقة التى كانت فى الواقع منطقة احتلال عسكرى يوم الأحد المشئوم . وكان ارتحال السيارات الملكية والأعلام المرفرفة والجموع المحتشدة الساكنة على جانبى الطريق المتسع الممتد على شاطىء بلجيكا الأيمن عندما دخله موكب الدوق، كان هذا كله هو ما أهداه الدوق للدوقة فى ذكرى زواجهما .

وهذا التاريخ بالنسبة لمعظم أهل البوسنة الذين قدموا ليحيوا — أوليروا — الملك القادم وزوجته — كان موعداً لذكرى غير ذكرى موعد الزواج . فيوم ٢٨ من يونية هو الخامس عشر من يونية حسب التقويم الصربى هو الفيدوفدان، عيد سانت فينوس ، وهو يوم عطلة لدى الجنس السلافى فى البلقان لايدانيه أى عيد آخر . ولقد ظل عدة قرون يوم حداد عام ، إذ كان يذكر القوم بهزيمتهم فى كسوفو سنة ١٣٨٩ التى قضى الأتراك فيها على دولة الصرب واستعبدوا الأهالى المسيحيين . ومنذ سنة ١٩١٢ أصبح ذكرى مجيدة ، إذ أصبح عنوانا لهزيمتهم للأتراك فى حرب البلقان الأولى التى أدت إلى طردهم من أوربا .

وعيد الفيدوفدان شأنه شأن سائر الأعياد التاريخية التى توقع على أوتار القلوب أنغاماً متباينة ، يحييه الأهالى بشتى العواطف المختلفة . وفيه يسرف الأصدقاء الأوفياء فى الشراب حتى يعلو صياحهم وصخبهم ، وحتى يروا فى أدق التحيات المهذبة ، التى يقدمها أحد الغرباء سهاماً موجهة إلى قلوبهم .

وكان فرانسيس فرديناند — وهو أقل الناس ذوقا وأكثر الغرباء فضولا — يعرف أن اليوم الذى اختاره لأولى زياراته لسراجيفو هو عيد فيدوفدان . وكان يعلم كذلك أن البوسنة وعاصمة البوسنة كانتا تحت نير الحكم النمسوى ، كما كانتا تحت نير الحكم التركى مرتعاً خصباً لمؤامرات الوطنيين وفظائعهم (وقد أعادوا مسلكهم الثورى المجيد ضد النازيين فى الحرب العالمية الثانية) . وربما كان معتمداً على ما اشتهر به من أنه حامى السلاف فى الدولة للقضاء على ما عسى أن يكون فى صدورهم من عداوة . إن الأثر الحقيقى لهذا أنه جعل الدوق يبدو خطيراً ومكروها لدى غلاة القومية السلافية . إن المتطرفين يخشون دائماً الخصم المعتدل .

انتحار فى حالة اعتلال العقل : ربما كان أنسب الأحكام على الزيارة إلى

سراجيفو ، لو لم يصحب فرانسيس فرديناند أحب الناس جميعاً إلى قلبه وهى زوجته . وما كان ليصحبها — دون أدنى شك — لو كان يعتقد أن هناك أى خطر يتهددها . وإن عدم إدراكه للشعور العام فى البوسنة ليدل على ضآلة العلاقة الإنسانية بين الأسرة الحاكمة ورعيتها . وكما تقول العبارة الصينية بوضوح إن الأسرة قد فقدت — بعد أن ظلت حاكمة ستمائة عام — رعاية السماء . (إن معظم الأسرات الباقية إلى القرن العشرين قد فقدتها أو هى توشك أن تفقدها ، وهو ماسيراه القارئ فيما بعد) . ولم يكن الأمر مقصوراً على ما بين أسرة هابسبرج ورعيتهم من عزلة ، بل كانت الصلة منعدمة بعض الشىء بين أجهزة الدولة جميعها . ولقد وصل إلى علم السلطات المدنية فى كل من فينا وسراجيفو تحذيرات بوجود مؤامرة تدبر ضد الدوق .

ولقد ذهب بعض المؤرخين فى وقت ما إلى أن بعض هذه السلطات وبخاصة السلطات التى لها اتصال بالمجر تعمدت السماح للدوق أن يقع فى المصيدة ، بل لعلها شجعت على مؤامرة القتل . والآن وقد أصبح من الميسور الحصول على الأدلة السرية ، دل على ما أجمع عليه الخبراء على أن الأمر أبعد عن الدراما ، وإن كان أكثر غرابة من بعض الوجوه . فالسلطات المدنية والعسكرية لم تكن إحداها متصلة بالأخرى . أو على الأقل لم تعر الثانية أى التفات لما قالته الأولى . ولم يرد فرانسيس فرديناند أن يهيىء للحاشية الرسمية مبرراً لتدخلهم فيما أعد لتكريم صوفى ، وأصر على أن تعتبر زيارته أمراً حربياً ليس غير .

وقد أغضبت صلابته البلاط ووزارة المالية النمسوية المجرية المسئولة عن الإدارة

المدنية فى البوسنة . وبلغ من سخط الإمبراطور الذى بلغ الرابعة والثمانين أخذ الدوق لزوجته فى زيارة البوسنة ، أنه خف إلى مصيفه فى اتشل ليتجنب استقبال الزوجين عند عودتهما إلى فينا . وكان للعسكريين نصيب كبير فى هذا الخلاف . ولم يقم المارشال أوسكار پوتيورك حاكم البوسنة العسكرى — وكانت له ما لقومه أهالى أوربا الوسطى من عنجهية — بإبلاغ رئيسه وزير المالية ما اتفق عليه من أمر هذه الزيارة . ولربما كان غير واثق من ولاء الوزير .

وعلى كل حال لم يعر الاهتمام الكافى لما كان يذاع من القلق فى هذه المنطقة . وعلى حد تعبير ا. ج. ب. تيلور المؤرخ البريطانى « لم يصدقوا (پوتيورك ورجاله) إلا بأن سكان المنطقة لا يكادون يزيدون على أن يكونوا خدما للعسكرات » .

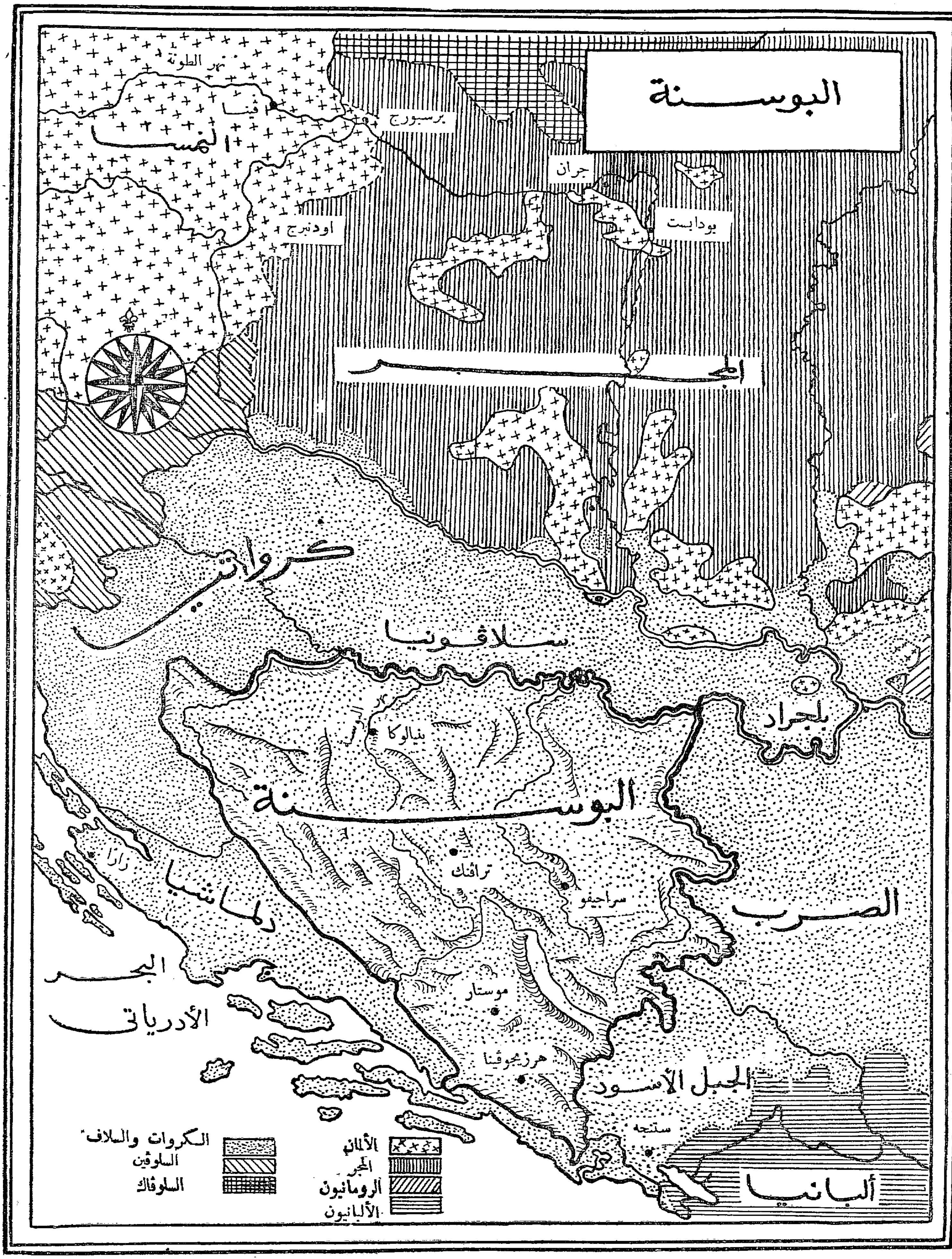
وكانت النتيجة لهذا الازدواج الإدارى أن پوتيورك استقل بمسئولية تأمين الدوق ومن معه دون أن يكون لديه الوسائل الكافية ، إذ قد سحب كثير من الجنود للاشتراك فى مناورات الميدان . وكان عدد قليل من الحراس يقفون على جانبى الطريق يحفظون النظام بين الشعب المحتشد عندما سار موكب الدوق ذى السيارات الست ، حتى وصل إلى شارع فيدوفدان فى سراجيفو بعد العاشرة بقليل .

وجاء أول نذير عندما اجتازت العربة الملكية مصرف النمسا والمجر المجاور لنهر ملجاكا .

كان هاراك الملحق العسكرى للدوق جالساً على المقعد الأمامى بجوار السائق ، وكانت صوفى على المقعد الخلفى إلى اليمين ناحية سور النهر والدوق بجانبها، ويجلس أمامهما پوتيورك معتزا بعظمته دون أن ينم وجهه العسكرى عن أى شىء ، وكان يشرح لهما ما قدمه الجيش من آيات الفن فى سراجيفو ، فى المنشآت العسكرية

ذات اللون الفاقع العظيم المقامة على النهر . وحيثما كانت إصبعه تشير كانت هناك فجوة فى جانب الطريق يقف فيها شاب طويل أسمر قام فى تلك اللحظة بحركة غريبة بكلتا يديه . وفى هذه اللحظة سمع صوت ضئيل لا يزيد على صوت غطاء من الفلين عند فتح قارورة ، ثم أخذت أحداث غريبة لا علاقة لإحداها بالأخرى تقع بعضها بعد بعض . ولقد حسب هاراك — خطأ — أنه سمع رصاصة مرت بجانب رأسه ، وأحست صوفى فعلا أن شيئاً خدش الجانب الخلفى من عنقها ، ورفعت يدها لتلمسه ، ورأى پوتيورك أن شيئاً أسود اللون جاء طائرا من لدن الشاب الأسمر الطويل ، واستقر خلف العربة الملكية . وانفجرت العجلة الأمامية للعربة التى تليها بصوت شديد ، أعقب ذلك خروج عدد من الضباط إلى الشارع . ولم يفهم أحد هؤلاء الضباط فى مبدأ الأمر — وهو مريتزى الملحق العسكرى لبوتيورك — لم يفهم سبباً للدم الذى أخذ يسيل من وجهه ، ثم اندفع خليط من الناس من سور المبنى إلى الجمع المحتشد ، ورفع أحدهم يده إلى فمه ، ثم قفز وتخطى الحاجز واندفع فى النهر . ولوى كثير من الواقفين رقابهم ليروا ما حدث له بين الصخور ، وكان ذلك فى العاشرة والنصف .

وكان الدوق وزوجه فى العربة الملكية معتدلين فى جلستهما . وقال پوتيورك وهو يتطلع إلى الأحداث من فوق رأسيهما إن قنبلة قد أطلقت . ورد فرانسيس رداً عجيباً ، فقال إنه كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل .. ثم أضاف پوتيورك أن ضابطاً فى العربة الثالثة قد أصيب ، ويبدو أنه مريتزى . وأمر فرانسيس بوقف السير والنظر إلى ما وراء عربته . ولم يعارض أحد فى هذا الأمر الجنونى ، بل أطيع الأمر فوراً ، ووقفت العربة الأولى كذلك ، وفى مجرى النهر كان عدد من الجنود يجرون الشاب الأسمر وهو يقىء ، ويضربونه دون وعى منهم بصفحات سيوفهم ، وقد عرفوا دون إبطاء أن اسمه ندجلكو كابرينوفك .


البوسنة
نهر الطونة
ڤينا
النمسا
برسبورج
جران
بودابست
اودنبرج
المجر
كرواتيا
سلاڤونيا
بلجراد
بنيالوكا
البوسنة
ترافنك
سراجيفو
الصرب
زارا
دلماشيا
البحر
الأدرياتي
موستار
هرزيجوڤينا
الجبل الأسود
ستنجه
ألبانيا
الكروات والسلاف
السلوفين
السلوفاك
الألمان
المجر
الرومانيون
الألبانيون

وأنه عامل طباعة عمره تسعة عشر عاما ومن مواليد سراجيفو .

واتضح أن الملازم مريتزى لم يصب إلا إصابة خفيفة، ثم نحيت العربة ذات العجلة المصابة . وهرع الخبراء العسكريون المصاحبون للركب ووصلوا معاً فيما يشبه الإجماع على تفسير للموقف .

كانت الفرقعة الأولى التى قلبت نظام الأمور رأساً على عقب هى صوت قنبلة صغيرة انفجرت عندما تعمد الشاب الأسمر إلقاءها على أحد أعمدة النور ، ولا ريب أن شظية منها — وهى أبسط من أن تلحق بأحد أى ضرر — هى التى خدشت عنق صوفى . أما القنبلة الحقيقية التى أطلقت أولا ، فقد انفجرت بعد ذلك بعشر ثوان ، ولهذا لم تصب العربة المقصودة . هذا ولو أن تنفيذ العملية دل على عدم الخبرة ، إلا أن ما أعد لها كان أدق من أن ينسب إلى أيد محلية .

وأمثال هذه القنبلة كانت معروفة حينذاك فى الصرب، وقد عرف الإرهابيون فيها وقعها الكبير فى جهادهم مع الأتراك . ولم تكن الأحداث القادمة مأمونة العاقبة . وأصدر بوتيورك أمره فوراً بأن تستأنف العربات الباقية سيرها — أكثر سرعة — وألا تقف إلا عند ديوان المدينة . ولو أنه كان حسن التقدير للموقف لأمر بأن تسير بسرعة أكبر وفى عكس الاتجاه . ولم يكن الاستقبال القصير الذى أقيم فى الراثاوس — Rathaus — استقبالا ناجحا . على أن المكان نفسه كان بناء غير فنى أقامه النمسويون على نمط الحمامات التركية ، ويستعمل فى الوقت الحاضر متحفا للصناعات اليدوية. وما كاد عمدة المدينة يبدأ خطابه حتى وجه الدوق إليه الكلام بعنف وقال له بصوت مرتفع : « أيها السيد العمدة ، أجىء هنا لزيارتكم فأجد القنابل تلقى على ، إن هذا أمر فظيع »

ولم يلق الدوق خطابه المرتجل القصير رداً على خطاب خطبة العمدة إلا بعد

أن بذلت الجهود الشاقة لإقناعه بذلك . وقد وصف ابن أحد أعضاء مجلس المدينة — وكان يشهد حفل الاستقبال . وكان طفلا فى ذلك الوقت — الجو الثقيل الخانق الذى ساد الحفل للكاتبة الإنجليزية ربكاوست فى زيارتها لسراجيفو بين الحربين نقتطف من هنا ومن هناك ما تضمنه كتابها « الحمل الأسود والصقر الأشقر » وهو من أمتع كتب السياحة جميعها .

«خيم السكوت علينا جميعاً . لا لأننا كنا فى حضرة (الدوق) ، لأنه لم يكن يمثل لدينا الفكرة البوسنية عن البطل . ولكنا أحسسنا جميعا بالحرج ، لأننا كنا نعلم أنه ملاق حتفه دون أدنى شك ، إذا ما غادر المكان. كنا نعلم شعور الأهالى نحوه ونحو النمسويين ، وأنه إذا ما فشل أحد الناس فى إصابته بقنبلة فسيلقى القنبلة غيره وغيره . . . إن جو الاجتماع كان عجيباً »

وبينما كان الاحتفال قائماً فى قاعة المدينة، كان كابرينوفك يستجوب فى مركز الشرطة ، وهو الشاب الذى كان معداً لقتل الدوق وهو لا يزال حياً يرزق إلى الآن ، رغم السم الذى ابتلعه قبل قفزه من فوق حاجز النهر ، ورغم الضرب الذى أصابه من رجال الشرطة . وكان لديه علم بالوسيلة التى كان يمكن بها إنقاذ حياة الدوق وزوجه ، ولكن لم يكن لدى مستجوبيه الكياسة لانتزاع ذلك منه . وقد ظل يلتزم السكوت التام ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وقبل ترك مكان الحفل كان يلتف بيوتيورك عدد من الرجال ، وكان الدوق يعيب الحاكم العسكرى على ما اتخذ من الإجراءات الفاشلة فى حمايته هو وصحبه ، وسأل فى شىء من السخرية اللاذعة إن كانت هناك محاولات لقتله إبان الجزء الباقى من الزيارة .

وكان رد پوتيورك صريحاً للغاية — أدلى به فيما بعد — « ما كنت آمل

ذلك ، ولـكن رغم كل الاحتياطات لا يمكن أن يحال دون قيام أحد الواقفين على مقربة من العربة بشىء شبيه به » .

وفى رواية أخرى قال پوتيورك وقد نسى ماينبغى من الاحترام بالملـكية : « ماذا ـ أتظن أن شوارع سراجيفو ملأى بالسفاكين؟ » لوأن پوتيورك قال فعلا هذا القول فقد كان ولا شك من الوجهة الفنية على حق . فقد تبين فيما بعد أنه لم يكن هناك غير خمسة قتلة أو ستة أو سبعة على الأكثر فى الشوارع على جانب النهر فى ربع الميل أو حوالى ذلك فيما بين مصرف النمسا والمجر ومجلس المدينة. ولم يفـكر پوتيورك ولا رئيس الشرطة إن كان من الأوفق إلغاء باقى البرنامج المعد للزيارة الذى يقضى بسير الركب إلى آخر المدينة . ولم يقترح پوتيورك اتخاذ إجراء يدرأ الخطر إلا عند ما صمم فرانسيس فرديناند أن يزور المستشفى الحربى للسؤال عن صحة مريتزى قبل زيارة المتحف المفروض زيارته حسب النظام المقرر .

وكان من رأيه أن زيارة المستشفى لا خطر فيها . إذ هى تقتضى العودة من نفس الطريق المجاور للنهر وهو آخر مكان يتوقع القتلة مرور الدوق فيه . ومع ذلك فقد كان من المستحسن السير بمنتهى السرعة وإلغاء باقى برنامج الزيارة بعد زيارة المستشفى ، رغبة فى عقاب سكان سراجيفو عن أحداث الصباح الشائنة .

هذا وليس هناك أمر أدعى لسقوط الأسرة الملـكية النمسوية من موافقة الدوق السريعة على هذا الاقتراح الشائن الذى يقضى بعقاب أهل البوسنة ، الذين يمقتون أسرة هابسبرج ، بحرمانهم من الزيارة . ومع ذلك فلربما كان فى هذا نجاة لحياته لو أنه نفذ على وجه صحيح . لقد جىء بعربة أخرى واعتلاها الدوق وزوجه ، وقد صممت على مصاحبته ، بينما كان الـكونت هاراك يقى بجسمه سيده

الدوق بوقوفه على شماله فى العربة ، مما يلى حاجز النهر فى الجانب الذى ألقيت منه القنبلة . واتخذ رئيس الشرطة وعمدة المدينة مكانهما فى العربة التى على رأس الموكب . وهكذا كان الدوق فى العربة الثانية كما كان فى الصباح . وهكذا انتظم السير بهم بإزاء شاطئ النهر فى نفس طريق الصباح فى اتجاه عكسى .

هل فكر سليل أسرة هابسبرج أن الموت كان على موعد معه على بعد بضعة مئات من الأمتار؟ تذكر الكاتبة ربكاوست وهى على ما يبدو تحب الحيوانات الضارية وتكره أفراد أسرة هابسبرج ، تذكر قصة فظيعة عنه . تحكى أنه كان مثل ابن عمه وصفيه غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا مولعاً إلى حد الجنون بالصيد ، وأنه كان يفخر بأنه اصطاد ثلاثة آلاف غزال . وكان يلذ له أن يذكر أسلوبه الخاص فى صيد الأرانب ، بأن يجعل عمال الصيد الذين يرافقونه يضيقون السبيل على الحيوان حتى يكاد يتجمع عند مقدم بندقيته فيتفوق على غيره من الصيادين .

وتذكر مس وست أن فرديناند لا بد قد شعر فى اللحظة الأخيرة من حياته ما شعر به الصيد وقد ضيق عليه سبيل الفرار .

والواقع أن الرماة الذين اصطفوا بإزاء شاطئ نهر ملجا كا قد تخلوا — من خوف أو من يأس — عن مهمتهم عندما غادر الدوق الذى أرادوا قتله قاعة المدينة ، وهذا أعجب جوانب مأساة سراجيفو .

ومن الممكن أن يقال إن القدر قد حدد مآل فرانسيس فرديناند وصوفى بمجرد دخولهما المدينة . ولكن النهاية كانت مرتبطة بالظروف المواتية . وكانت

عملية القتل تنطوى على حمق مقرون بالتآمر القتال الذى يجمع بين تدبير الفنيين وتنفيذ الهواة . وكان عدد القائمين على التنفيذ ستة من الشباب الذين لم يتدربوا التدريب الكافى على ما عهد إليهم من عمل . وكان من المؤكد أنه إذا خابت بعض حلقات المؤامرة فالمحتمل أن واحدة منها على الأقل سوف تصيب الهدف . وقد كاد هذا الاحتمال أن يذهب سدى إلا إذا حدثت معجزة فى اللحظة الأخيرة . وأما عدم حدوث المعجزة آخر الأمر فكان راجعاً إلى عامل مضاد كان هو الآخر محتملا ومتوقعا . إنه الفوضى «النمسوية» التى كان فرانسيس فرديناند يمقتها .

وعند ما وصلت العربة التى فى المقدمة إلى الجسر اللاتينى — وله الآن اسم آخر — انحرفت إلى اليمين إلى ما كان يسمى حينذاك شارع فرانسيس فرديناند حسب البرنامج المعد للركب . ولم يخبر أحد السائق أن تغييراً قد حصل فى سير الموكب . وسار سائق الدوق فى إثر السائق الأول ، ومع كل فقد كان الزوجان المسكينان بمنجاة من أى خطر لو لم يتدخل پوتيورك ليضع الأمور فى نصابها .

وصاح فى السائق قائلاً « ليس هذا هو الطريق أيها الأحمق ، سر إلى لأمام » .

وتوقف السائق المرتبك لحظة ليتمكن من اتخاذ طريق مخالف لطريقه . وكان وقوفه على مسافة تزيد على مترين من شاب نحيف غائر العينين فى التاسعة عشرة ، خرج فى تلك اللحظة من مقهى ، مضى فيه بعض الوقت ، رغبة فى تهدئة أعصابه . حيث قد اضطرب كل الاضطراب منذ نصف ساعة ، عندما ألقى صديقه كابرينوفك قنبلته ، وأحس ألا أمل له بعد فى الحياة . وكان معه مسدس محشو فى جيبه ، لم يكن لديه أمل فى قدرته على استعماله . ولو أن هذه الفرصة الثانية التى هيأها له القدر أخذت تتراقص أمام ناظريه ، فإنه أخرج المسدس وتذكر تصويبه .

وكان من غير المحتمل أن يخطىء المرمى ، وكان مدى الرماية أقل من عشر أقدام . وإذ كانت صوفى معتدلة فى جلستها لم يكن بين بندقية القاتل والدوق أى حائل . كان واقفاً عند منحنى الطريق إلى اليمين ، وكان هاراك واقفاً إلى يمين العربة يتدلى بجانبه سيفه عديم الفائدة . كانت الساعة حينذاك الحادية عشرة والربع .

أطلق القاتل طلقتين . أصابت الأولى فرانسيس فرديناند واخترقت صدره واستقرت فى العمود الفقرى . وكانت الثانية مصوبة إلى پوتيورك وأصابت صوفى فى بطنها ، وذلك إما لاضطراب يد القاتل وإما لأنها تحركت لتقى بجسمها زوجها . ولبثا كلاهما بضعة ثوان معتدلين فى جلستهما ، وقد ظن پوتيورك أن القاتل لم يصب الهدف عند ما حاول مجاوروه المحتشدون إمساكه وهو يصوب إلى رأسه هو الرصاص . ولما اتجه السائق إلى الطريق الصحيح قفزت العربة إلى الأمام ، وانهارت صوفى ووقعت على الدوق . وقد ظل هو معتدلاً ، ولكن سيلا رفيعاً من الدم القاتم لوث صداره واحتقن الدم على جانبى فمه .

وكان القتل — حتى هذه اللحظة — أشبه بالمأساة الهزلية منه بالمأساة الحقيقية . وكان فيه من السوقية والفوضى ما يرى عادة فى حفلات الثيران . ولكن التربية الصحيحة والحب كفيلان بأن يزيلا ما عاق بالموقف من أوضار . لقد عاش فرانسيس فرديناند وصوفى شوتيك حياتهما فى بلاط لايهتم إلا بالمظاهر البراقة فى عصر من أعظم عصور التاريخ اهتماماً بها . ولكنهما بلغا فى ساعة الموت قمة المجد فى مأساتهما الحزينة .

قال فرانسيس فرديناند لزوجته وهو يحاول أن يحتضنها وهى غير واعية ، بينما كانت العربة مسرعة إلى قصر المحافظ « يا صوفى . ياصوفى . لا تموتى عيشى لأولادنا » ثم كان رده على سؤال وجهه إليه هاراك « إنه لا شىء » .

لقد كرر هذا الردست مرات فى صوت متزن خافت « إنه لا شىء »
وهكذا كان .

ومنذ اكتوبر سنة ١٩١٨ كانت سراجيفو جزءاً من يوجوسلافيا، وهى الآن عاصمة جمهورية بوسنة الشعبية اليوجوسلافية. والدار التى قتل أمامها الدوق وزوجته جعلت متحفاً لتخليد ذكرى القتلة . وأمام المنحنى الذى وقفت عنده العربة يوجد لوح من الرخام الأسود على أعلى الجدران كتب عليه « هنا فى هذا المكان التاريخى أصدر جافريلو برنسيب إعلان الحرية فى ذكرى فيدوفدان — يونية ١٥ (٢٨) سنة ١٩١٤ » .

وإذا ما فكرنا فى جميع أحداث العالم منذ تاريخ اغتيال الدوق ، نجد أن الكلمة المكتوبة تنم عن شعور محلى ؛ ولكن التقدير الموجه إلى برنسيب باعتباره وسيلة القدر ليس فيه شىء من الغلو .

ومن المناسب أن اللوح الرخامى ليس فيه إلا اسمه مجرداً عن كل نعت ، وأن الجسر القديم المقام على نهر ملجاكا يسمى الآن جسر برنسيب . ولم يكن هو مصوب الطلقات القاتلة فحسب ، ولكنه كان وهو طالب لا تتجاوز سنه التاسعة عشرة الرئيس الروحى لمؤامرة القتل والقائد العام لعملية التنفيذ . ولم يكن بطلا شعبياً من أبطال البلقان فحسب ، بل كان أحد أبطال القرن العشرين . لقد كان بعمله هذا رائدا لجيل كامل للمؤامرات وعصر من الاغتيالات .

ومما قاله برنسيب فى محاكمته « أنا لست مجرما لأنى قضيت على رجل ضار » .

وكان برنسيب قوى الإرادة شجاعا غير هياب ، وبهذه الصفات أصبح مثالا فذاً للتعصب السياسى الذى نعرفه معرفة تامة .

وهذا الشاب الذى كان ابن أحد فلاحى هرزيجوفينا لم يكن يعرف فى شبابه إلا الفقر ، ومع هذا فقد كان منذ طفولته الباكرة متعطشاً للتعليم كأن به حمى لا يبرئها إلا العلم .

وكان مريضاً وضعيفاً ، وقد حال مرضه — الذى قد يكون ذات الرئة — دون الانتظام فى المدرسة . ولكنه كان يقرأ بنهم شديد ، ونجح فى السنوات الدراسية إلا السنة النهائية فى بلجراد ، حيث النظام أقل صرامة منه فى النمسا . وألهبت الحياة الحرة فى بلجراد ثورته العارمة ضد الحكم النمسوى ، وانعكست فى قلبه إلى وطنية سلافيه حلت محل عقيدته الأورثوذكسية التى تخلى عنها ، وبذرت قراءاته لباكونين وكربوتكين بذور البطش والتدمير . وأخذ يتصور أنه إرهابى محترف ، حتى إنه قام فى إحدى الأمسيات بزيارة سرية لقبر إرهابى بوسنى فى سراجيفو ليعد أمام قبره بالقيام بعمل مجيد مثله .

والنظرة الأولى إلى مؤامرة سراجيفو تدلنا — رغم نجاحها — على أنها أشبه شىء بمغامرة يقوم بها بعض طلبة المدارس انتهت آخر الأمر إلى مأساة . وكان عدد المتآمرين فى القتل ستة بما فيهم برنسيب نفسه . خمسة منهم من كروات الصربيين وواحد مسلم من البوسنة ، ولم تزد سن أى واحد منهم على تسعة عشر عاما . وكان أحدهم فى السابعة عشرة من عمره . ومنشأ هذه الجريمة نابع من خيال الشباب ، ويرجع إلى مايجرى فى مقاهى مؤسستين فى بلجراد حيث كان يجتمع من سبق نفيه من الصربيين وقدامى العسكريين الذين شهدوا حرب البلقان ،

يديرون بينهم أحاديث السياسة والقتل ، ويشربون كئوساً صغيرة من القهوة التركية ، أو كئوس شراب السليفوفتسى الصربى الحاد ، ليساعدهم على ازدراد ما هو أحد منه من البصل واللحم المجفف النىء . ومن بين رؤساء هاتين المؤسستين النشيطتين (اللتين لهما اتصال بهيئتين سريتين متنافستين) ثلاثة من شباب البوسنة المنفيين .

والواقع أنهم كانوا هاربين من نظام الدراسة النمسوى ، وهم برنسيب وكابرينوفك الذى كان حينذاك موظفاً فى مؤسسة الطباعة الصربية ، والذى كان مكلفاً بإلقاء القنبلة على الدوق ، ونرفكو جرابيز وهو ابن أحد أهالى البوسنة ، وكان فى الثامنة عشرة . وقد ملأ رءوسهم تقدير البطولات من اتصالهم بقدامى المتآمرين ، كما أثيرت حميتهم بما كان يقصه كل منهم على الآخرين حتى يتصوروا أنفسهم بعض القائمين بأعمال البطولة المجيدة كهؤلاء الأبطال الذين خلدوا بطولتهم على مدى الزمن فى مقاومة الحكم التركى .

ولما كانت البوسنة لم تعد خاضعة للحكم التركى ، فلا ريب أن المؤامرات لابد أن توجه إلى الحكام النمسويين الظالمين .

ولم يكن لهم فى أول الأمر هدف واضح . وكانت المؤامرة ـ أية مؤامرة ـ هى ذاتها الهدف . وكان قرار قتل الدوق فكرة طارئة لم يفكروا فيها أول الأمر ـ على ما كان يعتقد الأولاد ـ أوحت بها قصاصة من صحيفة أعلنت عن زيارته لسراجيفو ، ووصلت إلى يد كابرينوفك فى فصل الربيع من سنة ١٩١٤ ، أو بعث بها إليه محرر لإحدى الصحف فى البوسنة ، لم يكتب اسمه .

وأمدهم الأصدقاء من الأنصار الذين سبق اجتماعهم بهم فى المقهى بكل

ما يلزمهم لارتكاب الحادث من قنابل ومسدسات وقارورات السيانيد ، كما علموهم استعمالها . بل منحوا تذاكر مخفضة للسفر بالسكة الحديد إلى حدود النمسا والمجر . ويبدوا أن هناك من كان يفكر فى كل شىء ، كما أعطوا خطابات توصية إلى بعض رجال الحرس الصربى من عشاق الحرية يسهلون لهم التسلل عائدين إلى البوسنة .

ولقد ألف الثلاثة الأصليون — قبل تنفيذ مهمتهم — هيئة سرية صغيرة وأصبح عددهم جميعاً سبعة عشر شخصاً . وكان لكثير منهم خبرة وعلاقة بالشئون السياسية بالبوسنة ، وكان المنظم الأكبر لهذه الهيئة معلم غريب اسمه دانيلو ، كما كان المسئول عن اختيار أعضاء هذه الهيئة للمؤامرات، ولكن الرماة المختارين للأعمال الهامة لم يكن لديهم الخبرة الكافية التى كانت لثلاثى بلغراد ، وكان أحدهم شاباً فى السابعة عشرة ، رسب فى امتحان الرياضة وانتهى تفكيره إلى أنه لم يبق أمامه إلا الانتحار ، فاشترك فى المؤامرة لتكون الوسيلة إلى تخلصه من حياته . واستلم السلاح قبل الموعد بيوم واحد ، وقصد بعد ذلك إلى مقهى لتناول أحد المرطبات مع بعض أصحابه ، وأخذ يفخر أمامهم بالعمل الجرىء الذى سوف يضطلع به ، ولم يعيروا كلامه أى اهتمام .

أما كابرينوفك فكان يسخر من سوء اختيار موعد الجريمة ، وكان ينسب له من الجبن ما منع إعطاءه مسدساً ، ولذلك لم يعط إلا قنبلة . وفى مساء اليوم المعد لارتكاب الحادث قصد إلى المصور ليرسم له صورته تذكاراً منه لذريته ، ثم أرسل بعض الزهور إلى إحدى صديقاته مما أثار فزعها .

وعندما حان موعد ارتكاب الجريمة تصرف هؤلاء التلاميذ المتآمرون — فيما عدا برنسيب — التصرف المنتظر من أمثالهم ، وتصرف كابرينوفك على

الأقل آخر الأمر ، ولو أنه تصرف برعونة وبلا نتيجة . وثلاثة منهم اضطربوا وهربوا عند سماعهم صوت قنبلته الصغيرة . وانتظر جرابيز لحظة ، ثم ولى مسرعاً إلى بيت عمه حيث خبأ قنبلته تحت أحد المقاعد فى حجرة النوم .

ولم يكن أحد منهم مسيطراً على أعصابه إلا برنسيب . وعندما رأى كابرينوفك مقبوضاً عليه فكر لحظة فى أن يرميه بقذوف نارى « حتى لا تزداد الأمور سوءاً » ثم يتبع ذلك بالانتحار . ولكنه تخلى عن فكرته عند ما رأى عربة الدوق جادة فى السير — أسرع من أن تصيبها رصاصة أو قنبلة — وفشل كابرينوفك فى إصابة مرماه . ثم إنه استدار لحظة وجيزة فيما يشبه الإغماء لايدرى مايعمله بعد ذلك ، ثم شرب قهوته ثم وصل — كما ذكرنا من قبل — إلى نفس المكان الذى وقفت فيه العربة الملكية . وضربه الشرطة والجنود حتى أشرف على الموت ، وكسر أحد ضلوعه ، وهشمت إحدى ذراعيه حتى اضطر إلى بترها .

وفى أثناء محاكمة المتآمرين — الذين قبض النمسويون على معظمهم — وقف برنسيب وهو أقواهم شخصية وأرجحهم عقلا ، وصاح فى المحكمة معلناً فى إيجاز أغراض المؤامرة « إن هدفى هو وحدة اليوجوسلافيين جميعاً فى ظل أى نظام سياسى وتحريرهم من حكم النمسا » .

وسأله القاضى : « بأى الوسائل ترى الوصول إلى هدفك ذلك ؟ » وكان جوابه بلا تردد « بالأعمال الإرهابية » .

ونجا برنسيب من الحكم عليه بالإعدام لصغر سنه ، ونجا كذلك سائر المتآمرين ما عدا ستة منهم . وحكم عليه بالسجن عشرين عاماً مع الحكم بقيدين — كانت أحكام القرون الوسطى تتضمنهما عادة — صيامه يوماً فى كل شهر ، وحبسه حبساً منفرداً كل سنة يوم ذكرى ارتكابه الجريمة . وتوفى متأثراً بذات الرئة وسوء

المعاملة فى سجن ذيرسينستاد فى الثامن والعشرين من أبريل سنة ١٩١٨ . لم يمهله القدر بضعة أشهر لا غير ليرى نتيجة الحرب العالمية التى سببتها جريمته .

إذا ألقينا من موقفنا فى الوقت الحاضر نظرة إلى الوراء ، فإننا نرى بوضوح أن الحرب العالمية الأولى جلبت للعالم – على حد تعبير المؤرخ البريطانى توينبى الصادق – « عصراً للمشاكل » لما تتخلص منه المدنية . وكل أزمات نصف القرن الأخير نجد جذورها – سواء بطريق مباشر أو غير مباشر – فى سنة ١٩١٤ وفى سراجيفو . فى الحربين العالميتين والثورة البلشفية وسيادة هتلر وسقوطه والاضطراب الذى لا ينقطع فى الشرقين الأدنى والأقصى ، وتنازع القوى بين البلاد الاشتراكية وبلادنا (يعنى البلاد الغربية) . ويمكن أن يعزى ٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠ وفاة إلى أحد هذه العوامل . وكل من بقى منا على قيد الحياة بعدها لا بد قد أصيب من جرائها بإصابة أو بأخرى ولو من الناحية النفسية على أقل تقدير ، وهذا كله فى غاية الوضوح .

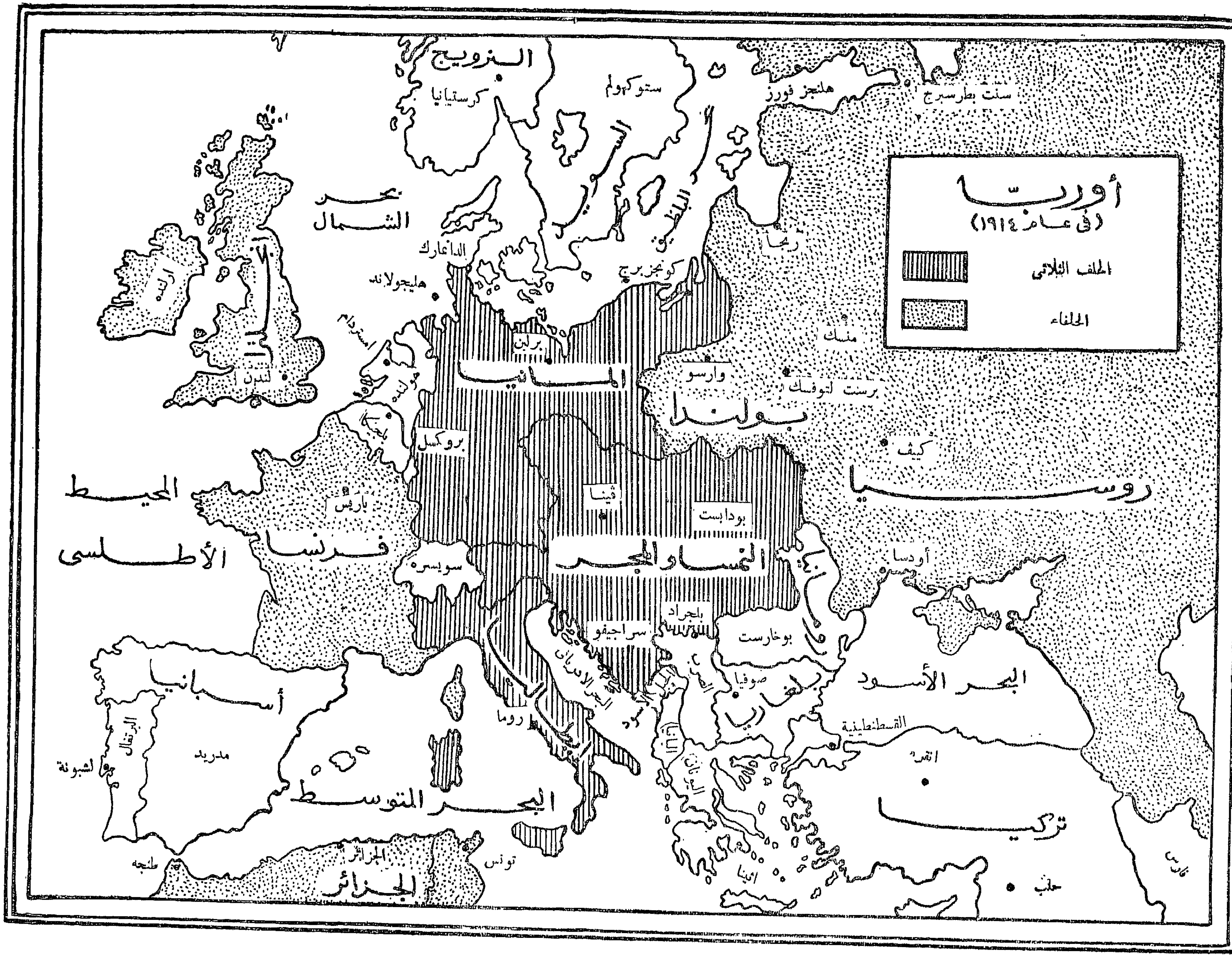
ولكن كيف أدت هذه الجريمة الرومانتيكية الذى ارتكبها شاب متعصب فى التاسعة عشرة إلى كل هذه النتائج البعيدة المدى ؟ .

إن الرد السريع على هذا السؤال هو أن النمسويين اعتقدوا أن برنسيب وزملاءه المتآمرين معه هم عملاء قوة حربية توسعية تمثل قوة ثورية وحربية تهدد الإمبراطورية . ونحن على علم اليوم أن معظم الاتهامات التى بنى عليها الإنذار الوحشى النمسوى إلى الصرب بعد حادثة سراجيفو لم تكن مبنية على أسباب صحيحة ، ولو أن ما انتهى إليه علمنا من حوادث المؤامرات والإرهاب على مستواها العالى – مما لم يخطر ببال الأجيال السابقة – يدلنا على أنه لا بد من وجود النار وراء ذلك الدخان الذى نراه .

إن العامل الحقيقى الذى لا يفسر جريمة سراجيفو فحسب ، بل ماترتب عليها من تغييرات عنيفة ، كانت جذوره أعمق من التنافس بين الإمبريالية الروسية والإمبريالية النمسوية ، ومن المنافسة على السيادة البحرية بين إنجلترا وألمانيا ، ومن السباق الأوربى على التسلح . إن فرانسيس فرديناند وبرنسيب لا يمثلان المصالح القومية المتعارضة فحسب ، بل يمثلان نظامين اجتماعيين متعارضين ، يمثلان عصرين من عصور التاريخ ، ونموذجين للحياة الإنسانية لا يمكن أن يبقى أحدهما مع الآخر . بل كان كلاهما ــ فرانسيس وبرنسيب ــ ونحن أيضاً ــ على وجه ما ــ ضحية لاتجاه ثورى واحد ، هو اضمحلال وانهيار نظام الأسرات الملكية فى أوربا والنظام الاجتماعى الذى يؤيده . وإذا أردنا أن نعبر عن ذلك فى كلمة عامة فإنه قصة تحطيم الأصنام[1] فى القرن العشرين التى يحاول هذا الكتاب أن يقصها .

---

(١) استعمل المؤلف كلمة Götterdä mmerung ومعناها غروب أو زوال الآلهة ، يقصد بها زوال الملوك الذين كنى عنهم بالآلهة . (المترجم).



أوربا
(في عام ١٩١٤)
الحلف الثلاثي
الحلفاء
النرويج
كرستيانيا
ستوكهولم
السويد
هلنجز فورز
سنت بطرسبرج
بحر الشمال
الدانمارك
هليجولاند
كونجزبرج
ريجا
منسك
ايرلنده
لندن
هولنده
برلين
ألمانيا
وارسو
برست لتوفسك
بولندا
بروكسل
كيف
روسيا
المحيط الأطلسى
باريس
فرنسا
فينا
بودابست
النمسا والمجر
سويسره
أودسا
بلجراد
سراجيفو
بوخارست
البحر الأسود
أسبانيا
البرتغال
لشبونة
مدريد
روما
صوفيا
بلغاريا
القسطنطينية
أنقرة
البحر المتوسط
تركيا
الجزائر
طنجة
تونس
أثينا
حلب

في يوم الأحد الأخير من شهر يونيو سنة ١٩١٤، كان شاب أديب من مواليد فينا يقرأ أحد الكتب تحت شجرة القسطل فى بادن عند نهاية فينار فالد، تلك الغابة المرتفعة التى يمتاز بها سهل نهر الدانوب ، على مسيرة بضعة أميال جنوب العاصمة . وكان يضع كتابه جانباً بين الفينة والفينة ليستمتع بالمناظر التى تحيط به ، متعة مشوبة بالاستهزاء . ولا يخفى على الناقد البصير أن هذا المكان الذى تجرى فيه المياه ، كان أحد المناظر الساحرة التى بقيت من عصر سابق . وأما الفيلات المقامة والحديقة المظللة التى كان يحلو لبتهوفن أن يجوس خلالها ، فقد كانت فى منتهى البهاء . وكانت السماء فى غاية الصفاء . والجو دفيئاً ، ولكنه منعش ، وكانت أسراب العذارى والمتزوجات من الطبقة الناعمة فى فينا يسمرن وهن يسرن فى ثيابهن البيضاء فى الطرقات المزدانة بالأزهار . وكانت العربات تجرى فى الطرقات كذلك ، بينما تومض الحلى النحاسية اللامعة المثبتة فيها تحت الشمس ومضات تشبه الإشارات الضوئية . وكانت الموسيقى تعزف فى الكازينو ألحاناً عادية ولكنها تدل على عرفان للجميل الذى أسداه السلف الصالح .

وعلى حين غرة توقفت الموسيقى ، فاستاء كل من كان بالقرب منها فى المنطقة ، وانتبه الأديب ستيفان زيفانج — وكان يومئذ فى الثلاثين — وكف عن القراءة ، وأخذ الموسيقيون — كما وصف هذا المنظر فى مذكراته — يجمعون آلاتهم ويتسللون منصرفين .

وتجمع المتنزهون فى اضطراب حول المبنى يقرأون البلاغ الرسمى عن حادثتى القتل فى سراجيفو أو يتناقشون فيه وهو معلق على أحد الأعمدة .

ولقد أثار شعوراً ما ، ولكنه كما لاحظ زفايج كان شعوراً قصير الأمد مصحوباً بحزن يكاد يوجبه أدب اللياقة .ولم يترك زوال وريث عرش آل هابسبرج — الذى لم يكن متحلياً مطلقاً بالصفات الكريمة — أى إحساس بالحزن على الحرمان منه فى أى قلب من قلوب رعيته المستقبلة . ولم يكن هناك شك بطبيعة الحال فى أن ظروف الموت كانت مؤلمة ، ولكن حوادث القتل فى الأسرات الملكية لم تكن نادرة فى أوربا قبل الحرب الكبرى . حتى لقد قال فرانسيس فرديناند نفسه منذ سنتين عند ما بلغته أخبار مقتل ملك البرتغال « إنهم يصطادوننا كما تصاد العصافير من الأسقف » .

ولربما كان الإحساس بوقع الجريمة أبسط فى سائر أنحاء أوربا . ولم تكن إذاعة الأخبار بين البلاد المختلفة فى ذلك الوقت أسرع من الرسائل التى تنقلها آلات البرق . وملاحق الصحف أيام الآحاد كانت حافلة بالأخبار الجادة ، التى كانت تعنى بها فى تلك الأيام .

وكما كانت الشمس مشرقة ترسل أشعتها فى سراجيفو على مظلة دوقة هوهنبرج ، فقد أرسلت أشعتها كذلك فى سائر أنحاء أوربا على الجموع المحتشدة الوادعة عدة أيام متتالية ، وستظل ترسل أشعتها على من بقى من الأوربيين ، بما ستذكره الأجيال القادمة على أنه أكثر فصول الصيف بهاء وسحراً .

وكانت ترسل أشعتها كذلك على رواد الحمامات فى ملابسهم المزركشة وهم راقدون فى استرخاء فى مقاهى المياه المعدنية بجانب الدانوب وعلى شواطئ الأدرياتيك ، وعلى الباريسيين الذين يتنزهون فى الغابات المجاورة . وعلى أهالى لندن الذين يتنزهون فى هايد بارك ، وعلى أصحاب قبعات القش فى حدائق الجعة المورقة ، وعلى أشرعة السفن التى تمخر مياه البلطيق ، لقد كان اليوم عند معظم هذه الملايين من الناس يوماً صحواً من أوله إلى آخر لحظة فيه .

وأينما وصلت أخبار سراجيفو كانت تقابل بشيء من الجزع . إذ أن برميل البارود فى البلقان كان عنواناً ثابتاً فى الصحف ، ولكنها لم تكن نذيراً بأخطار متوقعة . وفى ميونخ كان أحد طلبة النحت الفاشلين — وقد قدم من فينا رغبة منه فى الانتقال من حياة العدم التى كان فيها — هذا الطالب أحس باضطراب شديد فى أعصابه المتعبة عند سماعه بالخبر ، ولكنه كان مضطرباً كذلك فى فهم المعنى الذى يحمله ذلك الخبر .

وذكر هتلر فى « كفاحى » عن هذه الحادثة « لقد ملئت رعباً خفياً من هذا الانتقام الذى لاتعرف نتيجته . فلقد خر أعظم صديق للسلافيين صريعاً برصاصات السلافيين المتعصبين » .

أما الرجل الثانى الذى أفاد من نفس هذه الرصاصات ، وهو فلاديمير إليك إليانوف الذى كان حينذاك فى الرابعة والأربعين ، والذى كان يعرف فى المنفى باسم لينين ، فقد كان أهدأ فى تقديره ، ولو أنه لم يكن أصدق منه فراسة وبعد نظر .

ولما كان رئيساً للحزب الروسى المتطرف الذى كان أعضاؤه يسمون أنفسهم بالبلشفيين ، فقد كان بحكم عمله هذا ثائراً محترفاً .

ونظراً إلى أن شرطة القيصر لم يقدروا عمله تقديراً صحيحاً ، فقد ظل يزاول نشاطه طيلة أيام شبابه من قواعد خارج روسيا . وكان فى ذلك الحين مقيماً فى قرية نائية فى جاليسيا النمسوية « وهى الآن جزء من بولندا » عند سفح جبال تاترا قريباً من الحدود الروسية . وعلم بحادثة سراجيفو عند عودته من نزهة الأحد التى كان يقوم بها مع بعض المهاجرين الروس . وكان من العقائد الماركسية الأساسية ، أن الحرب لامحالة واقعة بين البلاد الرأسمالية ، وأن الثورة من آثارها

الحتمية ، ولكن لينين كان يشك دائماً فيما يتوقعه أصحابه فى أثناء أحاديثهم من وقوع الثورة ، وكان يحذر من بناء الآمال الكاذبة على اغتيال الدوق .

وكان لينين قد كتب قبل ذلك بسنة إلى أشد الكتاب تمسكاً بآرائهم — الكاتب الروسى ماكسيم جوركى — « من الصعب الاعتقاد بأن فرانسيس جوزيف ونقولا سوف يمنحاننا تلك المتعة » ثم إنه أبدى بعد ذلك فى اعتداده المألوف بآرائه أن جريمة سراجيفو لم تنقض هذا الحكم الذى أصدره .

ويمثل هذا الاعتداد علق الجنرال روز لندن المحرر الحربى فى صحيفة الفيجارو على الحادثة بقوله « ليس هناك ما يوجب القلق » .

وقيل إن غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا قال لبعض خواصه : «لا أتصور أن السيد العجوز (يعنى فرانسيس جوزيف) سيشن الحرب ، ولا شك أنه لا يشن حرباً بسبب الدوق فرانسيس فرديناند » .

وكان التعليق الذى ينطوى على مهارة سياسية على مقتل الدوق هو الذى قاله الأمير فون بيلوف مستشار القيصر السابق « إما أن يكون سبباً فى ارتباك وقلق ، وأما أن يكون سبباً فى اطمئنان وهدوء » .

أما أسمى الكلمات التى قيلت فى هذا المقام — على بساطتها وتعبيرها عن الإنسانية الحقة — ، فهى التى قالها جورج الخامس ملك بريطانيا فى مذكراته « ما أشد الوقع على الإمبراطور الكبير العزيز » .

ووصلت الأخبار إلى فرانسيس جوزيف نفسه وهو جالس فى مصيفه فى بادشل حيث يلتقى الصفوة من أهل فينا حول مياهه . فقد دعى إلى المسرة الكونت إدوار دبار ياوره البالغ من العمر السابعة والسبعين — وذلك لأن الإمبراطور لم

يسمح بمثل آلة المسرة فى مكتبه — وتلقى الرسالة من سراجيفو كتابة كما تقضى بذلك التعليمات القائمة ، ثم عاد الشيخ وهو يلهث وقد غلبه التأثر حتى أعجزه عن الكلام ، ووضع الورقة بيد مرتعدة أمام سيده الإمبراطور الذى خدمه وأحبه طيلة نصف قرن . وظل فرانسيس جوزيف جالساً دون أدنى حركة ، وأطبق عينيه وهو الذى تلقى من القدر إبان عمره المديد البالغ أربعة وثمانين عاماً كثيراً من أمثال هذه الطعنة النجلاء ، وكأنما أفقدته وعيه هذه الطعنة الأخيرة . حتى إذا تكلم أخيراً لم يكن الأسى على فقد ابن أخيه الذى كان يكرهه هو الذى جعله يتكلم بصوت أجش ، ولكنه كان الجزء من القدر الذى جازى الأسرة على خطيئة فرانسيس فرديناند لزواجه غير المتكافئ ، ومحا الوصمة من سلالة الأسرة المجيدة .

وتمتم الإمبراطور كأنما كان يحدث نفسه ، ولا يحدث يار . « هذا فظيع ، إن الله العلى لا يرضى أن يتحداه أحد دون أن ينال جزاءه ، لقد استطاعت القدرة السماوية العليا أن تعيد النظام الذى عجزت لسوء الحظ أن أكون له سنداً » .

وليس هناك تعبير أدل من هذا على الهوة بين عقلية عهدين — بين عقلية جيلنا الذي يتسم بالسهاد السياسى ، وعقلية جيل من الغافلين الذين تعثروا دون أى وعى على صخرة القدر فى صيف سنة ١٩١٤ ، الذى كان يرفرف عليه السلام .

ولما نظر ونستن تشرشل إلى الوراء — إلى العشرين سنة التى عانتها أوربا قبل الحرب ، والتى كان من أبرز الناجين منها — رسم بخطوط حية واضحة صورة بارعة لتلك الأيام الماضية القريبة منا فى حساب الزمن ، البعيدة عنا فى الأحوال والأمزجة . فقال فى «أزمة العالم» .. «قامت الأمم والإمبراطوريات فى عظمة وكبرياء

فى كل جانب ، وعلى رأس كل منها الأمراء والحكام ، توفل فى الثراء العريض الذى كان نتيجة عهد السلم الطويل . وكأنما كان كل شىء مثبتاً فى اطمئنان فى دعامة ضخمة . ووقف النظامان الأوربيان الكبيران كل منهما فى عتاده الحربى فى بريق يعمى العيون ، وصليل يصم الآذان ، ينظر كل منهما إلى الآخر مع ذلك نظرة هادئة . وكانت السياسة الحكيمة الحازمة الرزينة — التى تنطوى على الإخلاص غالباً — هى التى تنسج العلاقات بين الطرفين . ولكن كلمة فى رسالة أو ملحوظة يبديها سفير ، أو عبارة غامضة ملتوية فى أحد مجالس النواب ، أى شىء من هذا كان كافياً أن يقلب النظام القائم فى يوم أو بعض يوم . . إن هذا العالم القديم — فى أفول شمسه — كان يستحق المشاهدة » .

ويجب مع ذلك أن نقدر ما فى بيان تشرشل من سحر . إذ لم يكن منظر الغروب جميلا فى كل الأعين أو من كل زوايا النظر كما ذكر تشرشل ، كما لم تكن السياسة فى ذلك العهد تنطوى على الإخلاص الذى كان يخاله ، وهذا ما سنبينه فيما يلى :

أما فى تأكيد أهمية النظام الملكى فى أوربا قبل الحرب ، فإن السياسى البريطانى لم يكن مغالياً . فقد كان للأمراء والحكام السلطة فى الواقع — إن لم تكن مظاهر العظمة — فى الأحوال السياسية والاجتماعية فى جميع البلاد التى كانت فى ذلك الوقت مركز العالم المتمدين . وفى السنوات العشر الأولى من القرن العشرين كان النظام الملكى الأرستقراطى الذى يسود المجتمع يعتمد على وجود ملك يستمد سلطانه من السماء ، وعلى نخبة من الحكام المختارين غالباً من الطبقة الأرستقراطية التى نتوهم أنها زالت بزوال القرن الثامن عشر ، وهذا النظام لم يظل سائداً فحسب

فى ظل الديمقراطية الوطنية مع تأثره بالحركات القومية أو الجماعية الناشئة ، ولكنه كان فى كثير من أنحاء العالم متغلباً على النظام الذى سيخلفه .

إن مارى أنتوانيت لم تكن هى التى قالت ليلة قيام الثورة الفرنسية ، بل هو نقولا الثانى الذى قال ليلة قيام الثورة الروسية دون أن يعبأ بما أنذره به صديق من الدبلوماسيين « هل تعنى أن على أن أكسب ثقة شعبى أيها السفير أم هم الذين يحاولون كسب ثقتى »

والدنيا الجديدة — إذا ما نظرنا إلى الجانب الظاهر من الدول الدكتاتورية فى أمريكا اللاتينية — كانت فى الأعم الأغلب ديموقراطية وجمهورية . وكذلك كانت فرنسا والبرتغال (بعد ١٩١٠) ، وسويسرا وأندورا وسان مارينو . وكانت بريطانيا وبلجيكا ولكسمبرج والدولتان الإسكندنافيتان — كما هى الآن — دولا نيابية ديموقراطية ، وإن لم تبلغ حينذاك ديموقراطيتها ما بلغته الآن من الناحية الاجتماعية .

وحتى إدوارد السابع ملك إنجلترا اللين العريكة لم ينس يوما ما دمه الملكى الذى جعله فى عزلة عن سائر الخلق ، وأيام أن كان وليا للعهد كما تقول فرجينيا كولز فى كتابها « إدوارد السابع وصحابته » قدم فى حفل راقص على ولى عهد ألمانيا أحد حكام البحار الجنوبية — كالاكوا ملك جزائر الكانيبال . ثم فسر إدوارد الموقف للألمان الغاضبين بأن قال لهم « إما أن يكون هذا الحيوان ملكا وإما أن يكون عبداً أسود . فإذا لم يكن ملكا فلماذا إذن يحتل مكاناً له هنا » .

وفى سائر الأقطار الأخرى ـ القارتين الأوربية الآسيوية ـ لم يكن الملوك والأباطرة

يملكون فحسب ، بل ويحكمون أيضاً. وفيما بين جبال القوج إلى فلاديسفتك ، وبين المتجمد الشمالى إلى الخليج العربى باستثناء المناطق الزراعية البلقانية الثائرة كانوا يحكمون على نحو ما كان يحكم أسلافهم، مستمدين سلطانهم من الحق الإلهى . وإذا ما خفت وطأة استبدادهم فلا تخف إلا قليلا لما يكون فيها من دساتير إسمية وبرلمانات ضعيفة يسهل التأثير فيها . وظلت مبادئ الحكم المطلق قائمة قوية فى بعض أنحاء أوربا حتى وقع الصراع الكبير ، وذلك بفضل من أيدها من محبذى النظام الاستبدادى الحديث .

وقد كتب غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا إلى ابن عمه نقولا الثانى إمبراطور روسيا يحذره من خطر التحالف مع فرنسا الجمهورية قتالة الملوك : « ثق أن لعنة الله شديدة الوطأة على هذه الأمة . إن السماء قد عهدت إلينا — نحن الملوك والأباطرة المسيحيين — بواجب مقدس أن نؤيد نظرية الحق الإلهى الذى يعتمد عليه الملوك » .

ومع هذا فقد كانت ألمانيا الصناعية فى ذلك الوقت فى مقدمة الدول العظمى ثقافياً واجتماعياً ، وكان غليوم نفسه ممثلا متقدماً بدرجة لا مثيل لها للأسرات الإمبراطورية التى كانت دعامة نظام الحكم التقليدى فى أوربا ، وكانت عدتها أربعا : أسرة هوهنزولرن فى ألمانيا وكان تحت حكمها حينذاك الألزاس واللورين وجزء من بولندا. وأسرة هابسبرج فى النمسا والمجر وفيها مجموعة متباينة من الشعوب والأجناس التى تخضع لها من سويسرا إلى ما وراء جبال الكربات ، ومن جبال بافاريا إلى البحر الإدرياتيكى ، وكانت تشمل دولة تشيكوسلوفاكيا الحالية وجزءاً من يوجوسلافيا . وأسرة رومانوف فى روسيا وكانت تشمل بولندا وفنلندا . والعثمانيون فى الإمبراطورية التركية ، وكانت تشمل — غير تركيا الحديثة —

سوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق ، كما كانت تشمل إلى سنة ١٩١٢ ليبيا والأجزاء المهمة من تراقيا ومقدونيا. والإمبراطوريات التى تحكمها هذه الأسرات كانت تخضع لها معظم قوى القارة الحربية والاقتصادية ، وكانوا يحكمون فيما بينهم حوالى ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من الرعايا متعددى الأجناس ، وكان بعض هؤلاء يتمتعون بالاستقلال كالتشيك والبولنديين والفنلنديين.

ويحيط بهذه الإمبراطوريات أسرات أقل مكانة من تلك فى جنوب أوربا وجنوبها الشرقى ذات ولاء لها كثير التحول والتغيير : فى إسبانيا وإيطاليا والصرب وألبانيا والجبل الأسود ورومانيا وبلغاريا واليونان. وكانت إيطاليا مرتبطة بالنمسا والمجر وألمانيا بالتحالف الثلاثى بينما ترتبط رومانيا وتركيا برباط وثيق مع هذه المجموعة من دول وسط أوربا . بينما كانت ألبانيا — بعد سنة ١٩١٣ — وبلغاريا — وهما فى الأصل تتجهان إلى روسيا — ترتبطان برباط غير وثيق . وكانت الصرب والجبل الأسود عميلتين لروسيا حليفة فرنسا . وكانت اليونان يتجاذبها نفوذان متنافسان من ألمانيا وبريطانيا ، شأنها فى ذلك شأن إسبانيا تماما . وفى داخل هذه الدول نفسها كان للملوك سلطان على مجموعات التابعين من الأمراء والدوقات ورؤساء القبائل والبارونات ومن دونهم من الأشراف (وفى ألمانيا كان النظام الإمبراطورى الإقطاعى يشمل ما لا يقل عن اثنتين وعشرين أسرة حاكمة منها الأسرتان الملكيتان فى بافاريا وسكسونيا) ، ولقد نزل الأمراء فى أكثر الدول مدنية عن حقوقهم الإقطاعية إلى الحكومة المركزية، ولكن فى معظم هذه الدول بقى سلطانهم الاجتماعى عظيماً وكذلك المزايا التى تنجم عنه من الناحية العملية. وفى مستهل القرن التاسع عشر عندما قامت الأرستقراطية الصناعية الحديثة التى يمثلها الأسرات البورجوازية مثل أسرة كروب كما يمثلها الطبقة البيروقراطية التى كانت فيما مضى تتحدى طبقة النبلاء القديمة — حدث وفاق من الجانبين .

وتحول التنافس إلى مشاركة ،وهذه المشاركة أدت إلى الامتزاج بينهما. وكلا الفريقين أفادوا مادياً من الحالة الجديدة ، ولكن اتضح أن كليهما خسر خسارة كبرى من الناحية الأدبية. ونزل طبقة النبلاء إلى المستوى الاجتماعى لرواد المقاهى ، والنبلاء حديثو النعمة ــ وقد بهرتهم مظاهر السيادة التى تنعم بها الارستقراطية ــ انغمسوا فى رذائل هذه الطبقه وأخذوا يحاكون استعلاء ذوى الأنساب العريقة، ونسوا تلك الصفات العالية التى شدت من عزائم آبائهم فى ثورة ١٨٤٨ وعزائم أجدادهم فى ثورة سنة ١٧٨٩ . وغطرستهم الناتجة من الثراء زادت بدلا من أن تحد من فخارهم بعراقة النسب ، كما ضاعفت بذاءة حديثى النعمة من وقاحة عباد أصحاب الألقاب . وفى الوقت الذى قويت فيه الدوافع لرفعة بعض الطبقات من الحضيض كانت الطبقات الحاكمة فى أوربا التى تؤيد نظام الأسرات القديم ــ ويؤيدها هذا النظام — لا تستمسك بالاعتقاد القديم وهو أن الفروق بين الطبقات من النظم الإلهية فحسب ، بل كانت تحذو حذو الملوك فى ذلك العهد فى إنكار التفكير الحديث الذى جاء به أمثال نيتشه من العلماء زيادة فى رفع مكانتهم الخاصة . لقد كانت لهذه الأحوال نتائج فى منتهى الغرابة. فمثلاً عندما غرقت تيتانك ــ وكانت فخر البحار فى القرن العشرين ــ بسبب اصطدامها بأحد جبال الثلج فى المحيط الأطلنطى ، نجا معظم ركاب الدرجة الأولى من الرجال والنساء والأطفال فى سفن النجاة التى كان فيها متسع لكثير غيرهم ، ولكن ٥٣ طفلا من ركاب الدرجة الثالثة غرقوا مع السفينة الغارقة — عدا آبائهم . قال أحد الناجين فيما بعد « لقد أيقنت أن الحالة فى منتهى الخطورة عندما رأيت أحد ركاب الدرجة الثالثة فى سطح السفينة الخاص بركاب الدرجة الأولى » .

ولم يعترف جيل آبائنا بالمزايا الطبقية التى نعدها مضحكة أو منافية للانسانية فحسب ، بل كانوا أدق منا نظراً فى رؤية الحدود الاجتماعية التى تفصل بين الطبقات .

وكان المجتمع الأوربى قبل الحرب مقسما إلى درجات : الدرجة الأولى والدرجة الثانية والدرجة الثالثة مثل ركاب سفن الملاحة .

ويقول كورنبرج الذى كتب تاريخ حياة غليوم الثانى والذى كان أحد ضباط الجيش النابهين، « كان من الضرورى لكى يصبح الإنسان ضابطاً بالجيش الروسى أن يدلل على عراقة نسبه . وكان يكفى أن يكون الأب صاحب حانوت ليحول دون ذلك . ولقد كان فى وسع الرجل الطموح أن يصبح مستشاراً تجارياً أو عضواً فى مجلس البلاط . بل قد يحصل على لقب فون «von» . أما أن يكون ملازماً احتياطياً فلم يكن بمثل هذه السهولة » . ولقد بلغ النظام الطبقى آخر مداه فى النمسا والمجر ، حيث كانت الطبقة الحاكمة مقسمة إلى المجتمع الأول والمجتمع الثانى . وكان الأول منهما مقصوراً على النبلاء القدامى ، والثانى يشمل الصفوة من الماليين والإداريين والعلماء والأرستقراطية الحديثة . ومما يدل على استمساك النمسويين بالنظام الاجتماعى تلك الألقاب الفخرية وصفات الشرف التى لا تزال باقية إلى الوقت الحاضر . ويذكر ابن سيجموند فرويد أنه عندما كان فى خدمة الجيش النمسوى قبل الحرب — وكان يسمح له بوصفه هذا أن يتخذ له مسكناً خاصاً فى فينا — أنه أبلغ خادمة المسكن أنه فى انتظار زائرة تشرب الشاى معه . وكان جوابها « أى نعم أيها المتطوع لسنة كاملة . سأضع غطاء نظيفاً على الفراش » .

وهذا الاستقرار الاجتماعى بما يصحبه من تدرج فى الطبقات كان له — بطبيعة الحال — من المزايا ما يعادل ما له من مساوئ . فإن الاطمئنان — أو على الأقل تصور الاطمئنان — الذى كان يشعر به معظم الناس فى أوربا قبل الحرب — باستثناء أفقر الطبقات وبعض الأقليات سيئة الحظ أحقابا طويلة كاليهود فى روسيا والأرمن فى تركيا — لا نكاد نحس به فى جيلنا الحاضر القلق .

والعالم القديم الذى رآه تشرشل إبان مجده الغارب كان له سحره الذى لا ينكر . كما له كان أيضاً جوانب أقل بهاء وسحراً . والحاجة إلى الأعمال البراقة الحية التى تدعم أسلوب الحياة الذى كان يبدو غريباً لعدد متزايد من الناس منحت المجتمع مظهراً براقا . وكانت العشرون سنة السابقة لسنة ١٩١٤ هى الحقبة التى وصل الاستهلاك فيها إلى قمته . إنها كانت حقبة طرائف المأكولات النادرة . وكانت حقبة السلم الطويلة بما صحبها من الثراء الضخم والأعمال الاقتصادية المتزايدة ، كانت دعامة قوية للمظاهر المدنية والمتعة الشخصية. وكانت التحف الأثرية وأنماط اللباس هى التى كانت قبلة أصحاب الثراء ، وكان الاتجاه إلى الأولى من آثار الفن الحديث الذى تشبعت به « المودة الحديثة » تدريجاً. وأما الثانية ونعنى بها أنماط اللباس فكان بعض الفضل فيها راجعاً إلى بول بواريه «تورزى» باريس الجرىء الذى خلص النساء من الأحزمة ، وإلى إدوارد السابع الذى ابتدع زياً رشيقاً سهلاً يناسب رياضته المحببة وأدخله فى زى الرجال .

وكان إدوارد منغمساً فى عدة أنواع من الرياضة الخلوية كالسباق والصيد والقفز فى بساتين مارينباد حيث يتمتع بمياهها المعدنية كل عام فى أثناء الصيف . ولربما كان يحظى بأعظم متعة فى مطعم ماكسيم فى باريس ، وكان يعد فى رأى ابن عمه ليبولد ملك بلجيكا ، وفى رأى سائر المترددين على المكان من ذوى الدماء الزرقاء — كان يعد خبيراً فى أصناف الأطعمة وفى النساء ذوات الدل البعيدات المنال ، اللاتى كن فى نظر المجتمع إذ ذاك نموذج الجنس اللطيف . وقد أرسل إدوارد مرة إلى إحدى هؤلاء الحسناوات — إلى أوتيرو الحسناء — دعوة تمتاز حقاً بالإيجاز الملكى ، وجعل موعد اللقاء الساعة الخامسة كما تبينه عقارب الساعة المثبتة عليها . وقبلت الدعوة ، وكان جزاؤها رحلة لصيد البط عند

ساحل القنال الإنجليزى مما أثار اشمئزازها .

وكان للتقدم العلمى والكشوف التكنولوجية وبخاصة فى أوائل القرن أثر فى الحالة السائدة . ومن الجائز أنه لم يكن لنظرية النسبية التى كشفها أينشتاين الرياضى الألمانى الشاب (نشرت سنة ١٩٠٥) أية أهمية من الناحية العملية . ولكن نفراً من العلماء الممتازين الذين استطاعوا تطبيق نظرياتهم كانوا رواداً للمدنية الحديثة ، وكان أشهر علماء ذلك العصر من ذوى الجهود المختلفة فرويد وماركونى مكتشف اللاسلكى ولويس بلريو ، الذى حاول القيام برحلة جوية دون توقف عبر القنال الإنجليزى فى إحدى الطائرات التى وضع تصميمها إخوان رايت ، وبول إيرلينج الكيميائى النمسوى الذى اكتشف دواء السانفرسان ، وهو أنجح دواء لعلاج الزهرى سنة ١٩١٠ ، إلا أنه جاء متأخراً فلم يستطع شفاء أشهر عمال ذلك العهد من أخطارهم المهنية . (ولقد دفع الدوق أتو النمسوى — الذى كانت إحدى مغامراته أنه قفز من مطعم ساشى فى أثناء مرور إحدى النبيلات الإنجليزيات لا يستر جسمه أى لباس إلا الحزام الذى يتدلى منه سيفه — ثمن الإثم الذى ارتكبه ، بأن اضطر إلى وضع أنف من الجلد يظهر به فى الحفلات العامة) .

والحياة العلمية والفنية فى ذلك العهد كانت نشيطة كذلك وبخاصة لدى الشباب العقلاء الشجعان . وكان يرضى شباب لندن وباريس وفينا ألا يعبأوا بالشيوخ فى ذلك الوقت ، فيشربون الكوكتيل عندما عرف استعماله فى ملاعب التنس .

ولكن كان الشباب الأرستقراطى الأذكياء — الأغنياء — كأصحاب السيدة ديانا كوبر يتمتعون بما هو أندر من ذلك من وسائل اللهو . كانوا يرتجفون من النقد الاجتماعى اللاذع الذى كان يقوم به أمثال شو وويلز ، ولكنهم ،

كانوا يرحبون بالفن الأدبى المستحدث الذى حمل لواءه ريلكه ورمبو الكاتبان الفرنسيان صاحبا النفوذ العظيم ، ودياجيليف وستراوس وشونبرج وكادوا أن يصابوا بالإغماء عندما همت أزادورا دنكان بخلع لباسها ذى الطراز اليونانى الحديث عندما غنت فى حفلاتها الراقصة فى الأكروبوليس .

ومما كتبته السيدة ديانا فى مذكراتها « لقد كان هناك نظرة حديثة إلى كل شىء فى هذه السنوات الأخيرة التى سبقت الحرب الأولى ، وقد أحسسنا بها وحظينا بها » .

ومع هذا فلم تكن المتعة باعثة للمرح دائماً حتى عند أكثر الناس يساراً . ولقد أخذ الشعور بالتفاؤل والأمل الذى خلفته الحقبة الأخيرة من القرن الماضى يفقد قوته . وعند ما زادت النذر وزادت حدة الخلافات الاجتماعية والسياسية ، وعندما أخذت سحب الحرب تتجمع فى سماء البلقان ، وعند ما هوت التيتانك — التى تحدت الغرق — عند الغروب فى البحار الشمالية بينما تتلألأ أنوارها وتوقع فرقتها الموسيقية أنغام القرب إلى السماء . أخذ الشك والتشاؤم ينفذان بخطى سريعة إلى المحيط الحضارى . وهذا العصر رآه البعض إلى آخر لحظة فيه ، عصر النضارة والربيع فى تاريخ العالم ، والشباب فيه هو النعيم بعينه . بينما يراه البعض الآخر من جميع الأسنان ، أنه هو الجحيم بعينه .

وهذا العصر — كغيره من عصور التغير والانتقال — مملوء بالمتناقضات . حظى فيه ألوف الآلوف من الناس برخاء لا عهد لهم به ، وعاش ألوف الألوف فى بؤس لا مثيل له . لقد ازدهر الذوق الجميل ولكن ازدهرت كذلك السوقية الغليظة التى يعجب بها الطبالون والملوك .

وكان فى الجو أصوات تقرع الأسماع فى الصباح وتحول فى نصف الليل .

وكان النظام الاجتماعى متماسكا بشدة ولـكنه كان عرضة لهزات عنيفة قاتلة . والثوريون الذين تنطوى قلوبهم على القتل كانوا مختفين فى أحواض الزهور ، والإرهابيون المعارضون فى — زى الشرطة — يقتفون آثارهم من وراء . من مثل هذه المتناقضات كانت تنسج أكفان هذا العالم القديم . وكانت ظاهرة للعيان فى أوربا فى كل مكان ، ولـكنها أشد وضوحاً وأزهى لوناً فى فينا .

وكلنا يعرف معنى السلام ، ولـكن من العسير على أى فرد منا فى عصرنا الحاضر أن يتصور السلام الطويل الذى حظى به آباؤنا فى رخاء ووفرة . وعندما وقعت حادثة سراجيفو لم تـكن أية حرب قد قامت فى أوربا منذ الحرب الألمانية الفرنسية سنة ١٨٧٠ أى منذ ثلاثين سنة قبلها . وفى الدولة النمسوية التى لم تنتصر فى أية حرب منذ سنة ١٨٤٨، ولم تشترك فى أية حرب منذ سنة ١٨٦٦ عندما قهر الجيش الألمانى بسرعة كبيرة ووحشية شديدة جيشها ، لم يشترك النمسويون من رعايا فرانسيس جوزيف الذين يبلغون الخمسين من عمرهم فى أية حرب طول حياتهم ولم يتخذوا لهم من أية دولة من الدول عدواً لهم . وهذا الشعور قد يكون من مميزات أهل فينا بصفة خاصة. وفى سنة ١٦٨٣ قدمت فينا خدمة جليلة للمسيحية عندما قاومت الحصار التركى المضروب عليها ، والذى — لولا نجاح النمسا فيه — لتعرضت أوربا جميعها إلى غزو أصحاب هذا الدين المخالف لدينهم : إن فينا تذكر هذا النصر بشىء من الفخر .

ولـكن الحدث الذى علق بذاكرة كل أهالى فينا والذى يستحق التسجيل هو الذى وقع بعد انسحاب الأتراك عندما التقط أحد الجنود البولنديين الأذكياء فى ميدان المعركة كيساً به بعض البذور السمراء ذات الرائحة الذكية لاعهد للغرب بها من قبل . ولا يزال على حائط إحدى المقاهى التى أقامها البولندى لوحة من البرونز تخلد ذكرى تلك الحادثة .

وعلى أساس هذه السعادة الحالمة التى أتحف بها البولندى مواطنيه، ابتدع أهالى فينا على مدى الزمان فناً فى أسلوب الحياة ، بل ابتدعوا فى الواقع أسلوباً كاملا للحياة . إن العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين رواد مقاهى فينا قبل سنة ١٩١٤ لا يمكن أن تزدهر إلا إذا ساد العالم السلام . والسلام نفسه فى نظر أهل فينا وفى نظر معظم الأوربيين فى ذلك الوقت لا يمكن أن يتذوقه إلا من يقيم فى جو من الاطمئنان والسكينة له حلاوة سائغة وفيه خير كثير .

والسلام فى الدولة النمسوية (gemütlich) تلك الخاصية النمسوية يعنى الدعة والجمال والتعاطف مجتمعة، بل كان يعنى فوق ذلك المرح والنشاط . ولم يكن الجو الرومانتيكى الذى يحسه النمسويون والذى لا يزال فى نظمهم الغاربة أثراً من آثار مجدهم الحقيقى أوالوهمى، بقدر ما كان أثراً لحالة السلام فى النمسا وفى أوربا ، التى كان للنمسويين فضل استقراره حوالى خمسين سنة . وكان منظر الفرسان الذين يختالون برشاقة فى كثير من الأوبرتات فى العاصمة النمسوية كان فيه من الحماقة، لأن الحرب أصبحت أمراً يدل على الحماقة ، وهذه الحماقة جعلت من الفرسان مناظر للجلبة والمرح للنظارة . ولو نظرنا نحن إلى الوراء لرأينا أن الحياة المطمئنة التى كانت فى أوربا قبل الحرب أشبه شىء بالموكب الجنائزى على حافة الهاوية ، وإن لم يكن شيئاً من ذلك بتاتاً لمن كانوا يحيون هذه الحياة . ولم يلق الناس حينذاك أنفسهم فى معمعة المسرات لينسوا همومهم . إنهم كانوا يرقصون تعبيراً عن شعورهم بالحياة الرغدة التى كانوا يحيونها ، وإظهاراً لوحدتهم . إن المجتمع الذى يكون فيه الرضى طابع الحياة ــ الأمر الوحيد الذى كان طابع هذا العصر ــ لا بد أن يكون المرح فيه هو النظام العام .

والواقع كان هذا النظام مرعياً فى فينا أكثر من غيرها . وقد قدر رجال الإحصاء أن بين كل ثلاثة مواليد فى العاصمة النمسوية قبل الحرب مولوداً غير

شرعى . وهذه الحقيقة الإحصائية نتيجة لجملة عوامل مجتمعة : منها تدهور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى الإمبراطورية، والفوضى النمسوية، وفوق ذلك الإجراءات الرسمية المتصلة بالزواج والطلاق التى كان يرى فيها رعية الإمبراطور عبئاً ثقيلا عليهم . ومن الخطأ أن نستنتج من هذه الحقائق أن فينا كانت مدينة فيها إباحية مطلقة ، ولكنها كانت بلا ريب فى رغد من العيش .

وكان أهالى فينا بوجه عام رغم نظرتهم التقليدية إلى الحياة مولعين بأسباب المسرات البسيطة من طعام وشراب ومغازلة ورقص . وكان الرقص وبخاصة رقص الفالس هو الذى يأسر قلوبهم. وكان أشراف المدينة الذين تبخرت ثروتهم يجوبون مزارعهم طول العام يقيمون حفلات الرقص يحيونها حتى مطلع الفجر ، وكانت هذه هى مسرح الحياة الاجتماعية فى العاصمة . وكانت صالات الرقص العامة ذاخرة دائماً تقريباً بالراقصين من الطبقات الدنيا ، وكان فى أحد هذه المراقص — وكان يزعم أنه أكبر مراقص أوربا — حجرة حضانة خاصة معدة لراحة المشرفات من النساء . وحتى بعد انقضاء عهد المجون فى فينا كان الأهالى قانعين بالدوران فى مقاعدهم الحمراء فى الأرجوحة الكبرى التى تسبح فى الهواء . وقد أقيمت هذه تخليداً لذكرى السنة الخمسين من حكم فرانسيس جوزيف وتقديراً من الأهالى لحبهم الشديد للامبراطور. وظلت تدور دون كلال معبرة عن فخرهم وسرورهم عندما يستمتعون بالنظر إلى مدينتهم المحبوبة .

ولم يكن لدى الطبقة العليا والثراة من أهالى فينا — كما لم يكن لدى أمثالهم فى سائر العواصم الأوربية — ذلك الشعور الخاطئ الذى يمنع من إذاعة ما ينعمون به على من هم أقل منهم حظاً فى عيشتهم الرغدة . ولقد عبر عن ذلك الكاتب جيمس ليفر فى كتابه الممتع « رحلة إدوارد » قال : « لعل العصر

الإدواردى هو آخر عصر فى التاريخ يزعم السعداء فيه أن فى وسعهم إسعاد المحرومين بنشر سعادتهم أمام عيونهم » .

ولقد كان الإفراط فى اللهو إحدى الوسائل التى كانت تفيد منها الطبقة المحظوظة فائدتين : تقوية الروح المعنوية لدى الطبقة الدنيا ، وتقوية مكانتهم بينهم . ويصف لورد هاملتون السفير البريطانى فى فينا قبل الحرب حفلة رقص فى قصر أحد كبار الأرستقراطيين قائلا :

« لقد كان من عادة الأمير س فى مثل هذه المناسبات أن يأمر بمجىء ثلاثمائة شاب من فلاحى مزارعه وارتدائهم ملابس خدم الأسرة . وكان على هؤلاء الشبان القرويين بمنظرهم العجيب فى سراويلهم وجواربهم الغريبة ، أن يقفوا بلا أدنى حركة على جميع درج السلم » .

« وأخف من هذا فى نزعته الإقطاعية وإن كان لا يقل عنه نفقة، ذلك « الغداء الفنيسى » الذى أقامه أحد الثراة البريطانيين فى فندق سافوى بلندن حيث جعل المائدة فى قارب طويل بناه لهذا الغرض ، أرسى إلى أحد جوانب فناء الفندق الذى ملئ بالماء ، بينما كان يسبح بجانبه قوارب صغرى وعدد من البجع . وفى ذلك الوقت بلغ سرور الكتاب الاجتماعيين غايته بالحفل الراقص الذى أقامه بول بواريه فى فندقه الخاص عند فوبورح سانت أنوريه . وقد تحول بهذه المناسبة إلى أحد قصور ألف ليلة يحرسه الزنوج والمغاربة ، وأجسامهم تكاد أن تكون عارية ، وكان من أسباب البهجة فى الحفل ما كان بها من البجع والقردة ، ومن الببغاوات على الأشجار تلك التى كانت تتدلى منها ثمارها المضاءة » .

والملبس كان بطبيعة الحال من أهم المظاهر . وكان ارتداء اللباس المناسب فى الوقت المناسب فى المكان المناسب أهم مقتضيات ذلك العصر .

ولقد كان منتظراً من أحد المدعوين إلى قضاء عطلة الأسبوع مع بعض البريطانيين أن يرتدى اللباس المناسب عند الإفطار ، وفى الكنيسة ، وعند نزهة الصباح ، وعند الغداء وعند نزهة آخر النهار ، وفى حفل الشاى (سترة من القطيفة) ؛ وعند الغداء (برباط رقبة أبيض وسترة طويلة) ، وعلى الضيوف من النساء أن يرتدين جلابيب رقيقة وملابس رسمية تجرر أذيالها فى الغداء ، وكان عليهن أن يحملن مراوح من ريش النعام . ولقيادة السيارات ــ وهى هواية سريعة الانتشار كان بها ولع عظيم حتى سنة ١٩١٤ ــ كان على كلا الجنسين من رجال ونساء أن يلبسوا حلة طويلة وقناعاً ومنظاراً كبيراً . وكان الملبس فى فينا أكثر تنوعاً وأغلى قيمة وبخاصة ملابس ضباط الجيش . وكانت مظاهر اللباس فى سباق مايو فى رنجستراس وفى البريتر أبهى مما يلبس فى معارض بريطانيا أو معرض الجائزة الكبرى فى باريس . وكان المفروض أن يكون الملوك هم القدوة فى مسائل الملبس وأدوات الزينة للرعية . وكان هذا فعلا هو دأب الملوك فى ذلك الوقت .

ولقد كان لغليوم الثانى أزهى مجموعة من الملابس . وكان لإدوارد السابع ملك إنجلترا السبق فى اللباس العادى . ولكن بطل الملابس المعدة كان فى الحق هو فرانسيس جوزيف . واتفق أن غير السويديون قبل الحرب بعدة سنوات نمط زيهم الرسمى حوالى الوقت الذى كان الملك جوستاف أدولفس ملك السويد يزور فينا بمناسبة العيد الذهبى لحكم الإمبراطور فرانسيس جوزيف . فما أن خطا ملك السويد خطوة واحدة ورأى مضيفه واقفاً أمامه فى زى جنرال سويدى حتى قال « يا إلهى ! أفى الزى الحديث ؟ ليس لى الآن حلة من هذا الطراز الحديث » .

وكان السفر أسلوباً آخر مستحدثاً للظهور . فكثيراً ما كان ذوو التيجان يروحون ويجيئون كسائر عباد الله . وقلما تخلف القيصر غليوم الثانى عن السفر

فى يخته إلى كاوز ريجاتا فخر فصل المجتمعات فى بريطانيا . وكان يفوز فى السباق فى بعض الأحيان . وكان للسفر خارج البلاد سحره وبخاصة إذا كان فى الموسم المناسب . فيوليو كان أنسب وقت للذهاب إلى دوفيل وبيارتس والتوكيه ، وأغسطس أنسب وقت لحمامات بادن بادن وماريتباد وويزبادن وغيرها من المصايف الألمانية . أما فى الشتاء بعد انتهاء موسم الصيد والرحلات القروية فكان المولعون (بالمودة) يسافرون إلى الرفييرا الفرنسية وبخاصة إلى مونت كارلو ذات موائد الميسر الشهيرة .

(وقبيل الحرب بمدة وجيزة قصد أحد الرواد إلى سان موريتز التى سرعان ما أصبحت مكاناً يعد الذهاب إليه والانزلاق على منحدراته دليلاعلى الأناقة) .

وكانت تصريحات اجتياز الحدود غير مطلوبة بين معظم الممالك الأوربية ، كما كان من السهل استبدال العملة فى أى مكان . ولا يلقى السائح نظرات مفتشى الجمارك القاسية إذا ماقرع سمعه رنين الجنيهات الذهبية أو الفرنكات أو الماركات عند نقل حاجياته. وهذه الحرية العظيمة فى الانتقال ألهمت بعض الكتاب لتصوير القارة الأوربية قبل حرب سنة ١٩١٤ بأنها قارة ليس لممالكها حدود . والواقع أن الأمر يتوقف كثيراً على شخصية السائح والهدف الذى يتنقل من أجله . ولقد كان هناك بعض التعليمات الصارمة التى كانت تقف فى طريق الأثرياء وأصحاب الألقاب الباحثين عن مواطن اللهو ، ولكن حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ من رعايا الإمبراطور فرانسيس جوزيف الفقراء كانت الفاقة تجبرهم على التسلل خارج دائرة نفوذه عبر السدود المقامة لمنع الهجرة ، بينما كانت الحدود الروسية محفورة بنفس اليقظة التى تحفر بها فى الوقت الحاضر .

وبالرغم من مثل هذه القيود الضرورية ، كان انعدام الفواصل بين الممالك

الأوربية قبل الحرب فى غاية الغرابة ، إذا قيس بما يجرى عليه العمل فى الوقت الحاضر . ولقد فاقت فينا عاصمة الإمبراطورية التى تتكون من جملة أجناس ، والتى تتكلم جملة لغات سائر بلاد أوربا فى هذا الأمر . ويروى ستيفان زفايج كيف فاضت بالدمع عيون الشاعر البلجيكى إميل فرهيرين عند ما تحطم بالون الكونت زبلين فى رحلته الأولى بعد تحليقه فوق كاتدرائية ستراسبورج ، وكيف صاح سكان فينا فرحاً عندما عبر بلوبو الفرنسى القنال بطائرته .

وفى فينا كان فى استطاعة أى إنسان لديه متسع من الوقت وليس لديه إلا ثمن قدح من القهوة أن يقرأ كل يوم لا جميع صحافة النمسا والمجر فحسب ، بل كل الصحف الألمانية والسويسرية وصحيفة التيمز الإنجليزية والتام الفرنسية وعددا متنوعا من الصحف الإيطالية والروسية والأمريكية . كما يستطيع أى شاب مثقف من فينا له شغف بالفنون أن يجد فيها أكبر المجلات الأدبية والفنية ، وأن يلم بأحدث مسرحيات باريس ، وأحدث نظريات الرسم والنحت فى أنحاء العالم . وكان فى وسعه أن يتجاذب أطراف الحديث مع أصحابه عدة ساعات ينقدون شعراء أوربا قبل أن تطبع أشعارهم فى أوطانهم .

وكان الباعث على تقدير أعمال الكتاب والفنيين الأجانب هو ما تتقاه الآداب والفنون عامة فى أوربا فى ذلك الوقت من احترام — وبخاصة فى فينا . ولم يكن الغمز والنقد اللاذع قد بلغا مبلغا كبيراً حينذاك ، وكذلك ازدراء الأدب لم يكن قد عرف بعد . وإذا ما رؤى جستاف ماهلر فى الطريق العام أو عرف وجه رتشارد ستراوس أو آرثر سنتزلر أو هوجو فون هو فمانستال فى أحد المقاهى فهى أحداث هامة يرويها الإنسان لأصدقائه كأنما قد وفق توفيقا كبيراً . وقد يبلغ منتهى السعادة ، إذا ماقابل ممثلا أو ممثلة ، فلا تستطيع اللغة أن تعبر عما فى نفسه

من وقع المقابلة . إنه ليفقد النطق تقديراً وتقديساً لهذا الحادث . وكان المسرح أعظم مايستهوى أهل فينا ، وكأنما كان الممثلون أنصاف آلهة من طبقة فريدة فوق سائر الطبقات فى الدولة النمسوية ، وعندما توفيت شارلوت وولتر ممثلة المأساة العظمى ذرفت الدموع عليها طاهية الأديب زفايج ، رغم أنها لم ترها فى حياتها ولم تدخل مسرحها .

وقبل أن نذرف نحن الدموع لأن تاريخ ميلادنا جاء متأخراً ، ومحل ميلادنا كان فى غير المكان الطيب فلم نحظ بمتع هـذه المدنية المهذبة ، يجدر بنا أن نتدبر التعليق القاسى الذى كتبه أعظم كتاب فينا فى أوج ازدهارها الثقافى ، كتب سجموند فرويد إلى صديقه الألمانى ولهلم فرايس قبل الحرب بمدة وجيزة قال « إن فينا هى فينا . أعنى أنها تثير الاشمئزاز إلى أبعد مدى » .

كان فرويد يكره الانحطاط الأدبى فى أى عهد من العهود أو فى أى مجتمع تجمع فيه العلاقات الجنسية بين القوة والنفاق . وكان مما يزعجه تلك الوحشية البدائية التى كانت تحاليله النفسية تـكشفها فى نفوس من يزعمون أنهم الشباب المتمدين فى القرن العشرين . وكره فرويد لهذه المدينة التى كانت موطنا له ثمانية وسبعين عاما من عمره البالغ ثلاثة وثمانين عاما ، كان راجعاً لأسباب شخصية كما لاحظ ذلك مانس سيربر فى مقاله الممتع ، وقد كان هو أيضاً عانئاً نفسانياً ومن أهالى فينا كذلك. وقبيل الحرب الأخيرة ببضعة أعوام كان فرويد قد بلغ غاية الشهرة فى جميع الأوساط الطبية وموضع تقدير العلماء عامة، ولـكن المشتغلين بالعلم فى فينا — باستثناء عدد قليل منهم — لم يكونوا فى عداد الهوفاهيج (hoffähig) (ومعناها الحرفى من هم أهل للدعوة إلى البلاط الإمبراطورى وبالتالى لا يعدون فى الطبقة الاجتماعية السامية). وعلى هذا الأساس لم يكن لجميع الأرستقراطيين هـذه المكانة السامية . وكانت

الكونتس كارولى زوجة سفير النمسا والمجر فى برلين موضع الرثاء فى الأوساط الدبلوماسية، لأنه لم يكن لديها من مؤهلات النبلاء إلا إثنا عشر مؤهلا من ستة عشر ولهذا لم تكن من الهوفاهيج . ومما روى فى الوقت عينه فى إنجلترا أن الليدى وورويك الاشتراكية فيما بعد ، قالت للكاتبة الشهيرة الينور جلن (إن الأطباء والمحامين من الممكن دعوتهم إلى حفلات الحدائق ، أما إلى حفلات الغداء والعشاء فلا يمكن دعوتهم إليها) . وكان المجتمع فى فينا قاسياً فى معاملته للأطباء . كانت غطرسة الطبقة الأوربية الحاكمة من الناحيتين الاجتماعية والعنصرية — التى أسهمت كثيراً فى الحركات الثورية بعد جيل واحد ، كما أسهمت بنصيب أكبر فى الثورات التى ناهضت الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية — قد بلغت آخر مداها فى عاصمة النمسا قبل سنة ١٩١٤ . وفوق ذلك لم يكن العداء للسامية فى فينا الذى كان يرهق فرويد مذلة وكداً ، لم يكن مقصوراً على الطبقة العليا من المجتمع النمسوى . لقد أفسد جو العاصمة بل أفسد الجو فى الإمبراطورية جميعها. وعندما كان فرويد طفلا صغيراً قبل انتقال والديه إلى فينا رأى ذات مرة رجلا شديد البطش من أعداء السامية ينحى والده جانباً عن طريقه فى موطنه فى إحدى مدن جاليسيا .

يقول — سبربر « إن فينا التى قضى فيها فرويد حياته منذ الرابعة إلى الثانية والثمانين كانت أشد بلاد العالم عداء للسامية »

(ولكن الواقع أن روسيا أشد عداء لها) ومما قاله روزفلت: « إن الشعب الأمريكى ينسب مقته لها إلى ما كان يبلغه من المجازر كالتى حدثت فى كيشينف» قال ذلك بعد المجزرة الوحشية التى قام بها الروس فى جنوب روسيا . هذا ، وإن هتلر الذى عاش فى فينا من ١٩٠٧ إلى ١٩١٣ لم يمد بصره إلى مدى بعيد ، بل رأى على

مقربة منه كل مقومات الفلسفة العنصرية التى صاغ على أساسها أشد مبادئ القرن العشرين قسوة .

وهذه المبادئ كانت على مرأى ومسمع من الناس أجمع فى ذلك الوقت ، وهذا ما اشار إليه وليم جنكنز فى كتابات كارل ليجر وفى خطبه كذلك ، وفيما كتبه أيضاً عمدة فينا المحبوب، أو جورج سكوتر أحد دعاة الوحدة الألمانية . بل لقد رأى أحد مريدى ليجر – أرنست شنيدر – الذى تضاءلت أمام مقترحاته محاولات النازيين لاستئصال الصهيونيين ، بأن دعا علانية إلى وضع جميع اليهود فى سفينة وإغراقهم فى البحار النائية .

ولا شك أن الحركة المعادية للسامية فى فينا – مع ما كان يصحبها من مشاحنات الطلبة الوطنيين التى لا تنقطع فى الجامعات – قد زاد حدتها ماذاقه هتلر من مرارة الحياة إبان إقامته فى العاصمة النمسوية .

وفى الوقت الذى كان فيه فنان المستقبل الشاب الذى نشأ فى لنز يذرع شوارع فينا محاولا بيع لوحاته الساذجة مصحوباً بما عبر عنه بكلمات مؤلمة – الجوع صديقه الحميم – كانت فينا تعانى من أزمة المساكن التى سببتها حركة التصنيع السريعة .

ولقد كان يسكن حوالى ٤٥ فى المائة من سكان فينا سنة ١٩٠٠ فى فى مساكن ذات حجرة أو حجرتين ، وبين كل عشرين شخصاً منهم كان واحد منهم لا مأوى له مطلقاً ، وينام بأجر زهيد فى غير فراشه عندما يكون صاحب الفراش فى محل عمله ، أو فى إحدى الحجرات الدفيئة التى كان يعدها المحسنون .

وأشد من هؤلاء بؤساً من كانوا يقضون ليل الصيف على الحشائش فى الأماكن العامة ، وفى الشتاء فى مجارى المصارف ذات الرطوبة الآسنة ، وهو

ما لحظه هتلر . ولا ريب أن هتلر نفسه قد ذاق مرارة هذه الحياة حقبة من الزمن ، ويعتقد جنكز أن هتلر ربما قد جرب الرقاد هنا أو هناك ، وكم اقشعر الفوررفى أيامه فيما بعد عندما كان يتذكر تلك الكهوف المؤلمة أو يستعيد صورة تلك القذارة المؤذية .

هذا ومع أن مستوى المساكن كان منحطاً فى فينا إلا أن المساكن فى أوربا عموماً تكاد أن تكون كلها غير صالحة .

وعند غروب الشمس فى لندن تغلق الحدائق العامة وتأخذ مواكب الرجال والنساء والأطفال فى الزحف طوال الليل من باب إلى باب بحثاً ، عن مأوى مؤقت إلى الساعة الرابعة والربع صباحاً ، عندما تفتح أبواب الحدائق العامة فيأوون إلى أرضها ومقاعدها مجهدين مكدودين ، لا ينامون إلا لحظات متقطعة تنتهى بقدوم سكان الوست إند فى ملابسهم الأنيقة فى نزهاتهم الصباحية . ولم تكن لهذه المناظر المؤلمة أى أثر فى الضمير الاجتماعى فى ذلك العهد ، إلا كما أثرت فيه الأحوال الاجتماعية المؤلمة التى أخذ ينشرها الكتاب أمثال شو وولز ، كأن ينشروا مثلا أن ثلث عدد العمال كانوا يعتمدون على أموال المحسنين حتى وفاتهم ، أو أن ربع المواليد فى الريف الإنجليزى لم يبلغوا الشهر الثانى عشر من حياتهم . ودولة الرفاهية كان باقياً على قيامها ــ باستثناء بروسيا فى عهد بسمارك ــ مرور جيلين ووقوع حربين .

ولم تتدخل الدولة ــ إذا ما تدخلت ــ إلا نادراً جداً فى استغلال الرأسمالية التى خلفها القرن التاسع عشر ، بما فيها من توزيع غير عادل وغير كاف فى الخيرات ، وما فيها من انحطاط عام فى موارد الدخل . وكانت أجور العمال ــ حتى فى أكثر الأوقات رخاء ــ قليلة جداً لا تتعدى ثلاثين شلناً فى الأسبوع ، فإذا حصل العامل المتزوج

على سبعة ريالات ونصف فى إنجلترا عد أجره كبيراً . وكان مستوى معيشة القرويين والمستأجرين الزراعيين فى معظم أوربا أدنى من ذلك ، مما كان راجعاً إلى حد ما إلى منافسة الغلال واللحوم الواردة من أمريكا .

وكانت الأحوال فى الأرياف فى ذلك العهد سيئة وبخاصة فى روسيا والإمبراطورية النمسوية ، حيث كانت مشكلة المشتغلين بالزراعة قديمة عويصة . وكانت ساعات العمل فى ألمانيا للعمال الزراعيين سنة ١٩١٠ ثمانى عشرة ساعة كما كانت منذ سنة ١٨٢٠ . على أنه فى عهد أسرة هابسبرج لم يجد العمال الزراعيون أى عمل إلا وقت الحصاد . وحالة التأخر الاجتماعى فى هذا العهد الإقطاعى — مما تدل عليه نسبة الأمية العالية — وكانت ٦٣ ٪ فى جاليسيا النمسوية — أصبحت مقلقة (كما فى روسيا) بسبب كثرة الانتقالات المترتبة على التصنيع فى مراحله المتتابعة . وكانت نتيجة ذلك فى النمسا اندفاع مستمر من سكان الريف الذين لا خلاق لهم إلى العاصمة التى تضيق من قبل بمن فيها من السكان . ولم يكن عجيباً أن وصل إلى آذان هتلر فى شبابه بمناسبة عثوره على أعمال يدوية ما كان يقوله بعض صحبه « لا تقبلوا أى شىء : الأمة — كلمة اخترعتها الطبقة الرأسمالية . الوطن — وسيلة الطبقة الوسطى — لاستغلال الطبقة العاملة . القانون — آلة استغلال سواد الشعب . الآداب العامة — المبادئ التى يحولون بها الناس إلى قطيع من الغنم » .

ويبدو على وجه العموم أنه مما يستحق الملاحظة أن طبقة العمال فى فينا قبل الحرب لم تكن ثورية إلى مدى أبعد من ذلك ، فمواكب يوم العمال فى أول مايو عند ما سارت صفوف العمال واضعين الزهور الحمراء فى عروة أزرارهم مستصحبين زوجاتهم وأولادهم ، كانت تثير أعصاب الطبقة الوسطى ، ولكن الرؤساء الديمقراطيين الذين كانوا يقودون الصفوف مثل فكتور أدلر وأوتوباور وكارل رينر كانوا أكثر هدوءا ، وكان يروقهم أن يخاطبوا « بيا أيها الدكتور الرفيق » . وقد أصغى تروتسكى — وكان

منفياً فى ڤينا ا عدة سنوات كما كان عضوا فى الحزب الاجتماعى الديمقراطى – إلخ مناقشاتهم الأكاديمية فى شىء من الازدراء الظاهر ، وهم فى الحجرات الداخلية المملوءة بالدخان فى مقهى السنترال . وفى مذكراته التى كتبها فيما بعد يسخر من هؤلاء الرجال الوادعين لأنهم لم يدركوا أن التاريخ قد وضع قدمه الثقيلة على البناء الذى يشبه عش النمل ، الذى كانوا فيه يسرحون وهم ذاهلون .

ولقد كان تروتسكى صادق النبوءة كما نعهد فيه دائماً . ولكن قدم التاريخ التى داست على النظام لم تؤثر فيه بالوضع الذى تنبأ به هو وأمثاله من الماركسيين . ولم تكن القوى الثورية الاجتماعية التى ألهمها كارل ماركس وأتباعه إبان القرن التاسع عشر ، ولكن حركة التحرير الوطنية داخل الإمبراطورية النمسوية وغيرها من الدول، هى التى قضت على النظام الأوربى الذى خلفه القرن السابع عشر والثامن عشر ، كما أن حكم الإعدام الذى أصدره على هذا النظام غلاة الوطنيين قد يكون قابلا للنقض ، لولا عوامل الفناء السرية القتالة التى كانت تعمل على تقويض نظام الأسرات الملكية فى الدول الأربع ذات الحكومات المطلقة . وقبل أن نتناول قصة انهيارها سنقف برهة لندرس حادثاً وحيداً كشف الأمور على حقيقتها، وكان هو بمثابة النصب القائم الدال على الطريق المؤدية إلى الحرب، كما كان فى الوقت نفسه أحد الآيات الدالة على نقط الضعف القاتلة فى السياسة العالمية التى كان تشرشل شديد الإعجاب بها .

الفصل الثالث

الأسرات المالكة ورجال السياسة

فى الأسبوع الأخير من شهر يوليو سنة ١٩٠٥ كان اليخت الطويل الأبيض الذهبى — هوهنزولرن — الذى ترفرف فوقه الراية الإمبراطورية ذات الصليب الأصفر والشعار المشهور « الله معنا » تمخر عباب خليج بجوركو عند أحد شواطئ فنلندا ، ثم ألقى مرساه فى مياه بحر البلطيق الصافية على مسافة قريبة من يخت آخر للنزهة ألقى مرساه قبل وصوله . ولقد سبق قدوم غليوم الثانى قيصر ألمانيا ، الإمبراطورة وعدد عديد من الضيوف لزيارة ابن عمه نـكى — نقولا الثانى إمبراطور روسيا، الذى كان فى انتظاره هو الإمبراطورة وابنتهما وولى العهد الذى بلغ السنة الأولى من عمره. وقد قدموا على يخت آل رومانوف— ستلابولارس . وهذا اللقاء الذى تم على أنه وقع مصادفة بين عاهلين كانا يبغيان هما ومن معهما من أفراد أسرتيهما ، إلا أنه من عناء الأعمال إنما كان فى الواقع نتيجة إعدادات دبلوماسية سرية سابقة . وتم الاتفاق على الترتيبات الأخيرة بالبرقيات المتبادلة بينهما فى لغتها الرمزية الخاصة بهما عندما كان اليختان فى أعالى البحار .

وكان نص إحدى الرسائل التى التقطتها العين من اليخت هوهنز ولرن « ليس لدى أى إنسان أقل فكرة . يظن كل ضيوفى أن وجهتنا جوتلند ... لدى أخبار هامة لك ، إن وجوه ضيوفى منظر يستحق المشاهدة عندما يرون فجأة يختك أنه لوحة بديعة ... أى الملابس تليق للقائك ؟ ولى » .

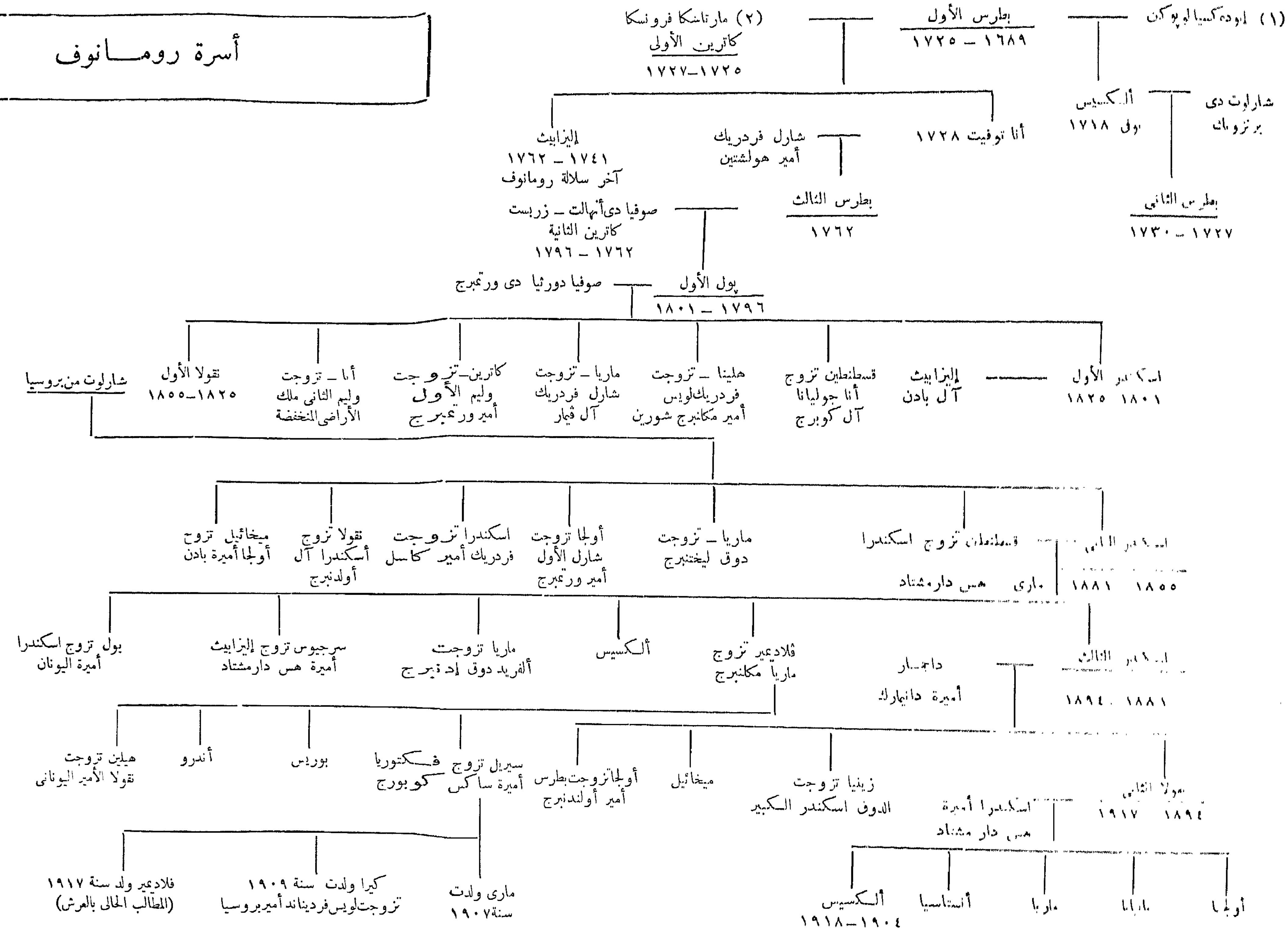
إن هذه البرقية المبتذلة صورة لشخصية الإمبراطور الخاصة . والأسلوب الذى

كتبت به ينبيء عن شخصيته دون غيره. فقد ظهر فيه بمظهر البطولة الكاذبة كمن يهذى ويترنح من كثرة الشراب. وكانت حياته كلها سلسلة من المناظر التمثيلية التى كان يعجب بها وهو يؤديها أمام الحاضرين من السياسيين والملوك الذين لم يكن فى استطاعتهم أن يغمضوا أعينهم لحظة عن حركاته العجيبة ، حتى لا يعاقب القدر هذا المشعوذ بتحقيق إحدى ألاعيبه ، فتنقلب الملهاة إلى مأساة حقيقية . وهذا هو الذى حدث فعلا عام ١٩١٤ . وقد كان اللقاء فى خليج بجوركو أحد النذر .

ولم يكن غليوم فى محاولته لضمان سرية لقائه مع قيصر روسيا مغالياً إلا قليلا. وقد عرف نبأها وزيره المجهد البرنس بيلوف، ولكن أحداً غيره على مستوى رجال السياسة لم يصله نبأ هذا اللقاء . ومن الجانب الروسى لم يكن أى وزير موضع ثقة القيصر، ومع هذا فقد كانت النتائج السياسية للقاء مثيرة . ومع أن حالة التوتر فى أوربا حينذاك لم تبلغ غاية مداها ، فإن كلا من العاهلين كان منتمياً إلى حلف أوربى معاد للآخر . فكانت ألمانيا على رأس التحالف الثلاثى الذى ربط أطماعها القومية بأطماع إيطاليا والنمسا والمجر المنافس التقليدى لروسيا فى البلقان ، وكانت روسيا الحليف الحربى لفرنسا التى كانت لا تزال تبكى على فقد الألزاس واللورين ، والتى تحلم دائماً بالانتقام لحرب السبعين ، وفى مثل هذه الظروف كان أى اتصال شخصى بين هذين العاهلين ما عدا ما تقتضيه الآداب العامة فى الأفراح والمآتم وما شابهها من المناسبات، كان لاشك مما يجعل كل وزراء الخارجية فى أوربا يظنون كل الظنون ويفكرون فى كل الاحتمالات .

ومع هذا فلم يأت غليوم إلى بجوركو ليحظى بنزهة عائلية مع أبناء عمومته الروسيين بعيداً عن محررى الصحف المتطفلين ومحبى الثرثرة المحترفين . لقد جاء

أسرة رومـــانوف



ليصنع التاريخ . لقد جاء ليتفوق على مستشاره العتيق الذى وحد ألمانيا وأجلس جد غليوم على العرش الإمبراطورى ، ثم نال بعد ذلك إعجاب ساسة أوربا بسياسته الحكيمة .

ولقد كان لدى بسمارك ضمان ضد حصار ألمانيا وعدم الاطمئنان على نظام استتباب الأمن فى أوربا بتوقيعه مع روسيا معاهدة سرية بعدم الاعتداء ، والأمل فى سيادة أوربا أو سيادة العالم الذى أساسه الوفاق بين الجنسين السلافى والتيوتونى لا يزال يداعب أقوى العقول وأضعف العقول فى ألمانيا إلى الوقت الحاضر . كما أن اتجاهات السياسة الروسية الخارجية من اسكندر الأول إلى نكيتا خرشوف تبين أن هذه السياسة تداعب عقول الروس كذلك ، وفوق ذلك كانت للتقاليد السياسية فى القرن التاسع عشر التى خلفتها نظم البلاط فى العهود السابقة والخاصة بالاتفاق مع عدو قوى دون علم الصديق أو الحليف جاذبية لا يمكن مقاومتها فى الغالب . وقد ولدت الدبلوماسية والفن فى إيطاليا فى عهد النهضة فى وقت واحد ، واحتفظا فى أثناء تطورها بأوجه شبه متقاربة ، ومع هذا فقد ألقى القيصر الشاب الذى كان ساخطا على سياسة بسمارك الخارجية بالمعاهدة الروسية عندما أنكر سياسة ربان ألمانيا القديم بسبب سوء الحالة الداخلية فى ألمانيا سنة ١٨٩٠ ، وهذا القيصر وهو فى سن الثالثة والأربعين قد سار فى نفس الطريق الذى سلكه مستشاره الحديدى بأسلوبه الملتوى ، ولكنه كان لسوء الحظ أقل منه حكمة ودراية .

هذا وقد تقدم القيصر خطوة فى هذا الاتجاه على سبيل التجربة فى أثناء لقاء سابق مع قيصر روسيا على سطح سفينته هوهنزولرن .

وفى تلك المناسبة قال انقولا « إنى أود لو اتخذت لنفسك منذ الآن لقب أمير

المحيط الهادى وسأكون أنا أمير الأطلنطى » وعندما أقلعت سفينته بعد الاجتماع أمر الهوهنزولرن أن تعبر بالإشارات عن « أن أمير المحيط الأطلنطى يحيى أمير المحيط الهادى » .

ولقد كان غضب غليوم من ابن عمه البريطانى إدوارد السابع دافعاً له على التحول فى سياسته . فمنذ سنة — وقد كان إدوارد حليفاً فعليا لفرنسا فى تحالفهما الودى — كان ضيفاً للقيصر فى اجتماع عقد فى كيل ، وعند ما شهد قوة ألمانيا البحرية الحديثة لم يظهر شيئاً من الحماسة ، بل كانت حركاته خروجا عن اللياقة . ومنذ ذلك اليوم أخذت الصحافة البريطانية تسود صفحاتها بإنذار ألمانيا وتحذيرها عاقبة تحديها لسيادة بريطانيا البحرية . ورغبة من غليوم فى تأديب بريطانيا لازدرائها بالصداقة الألمانية النبيلة ، وفى القضاء على العداء الفرنسى ، أقدم على انتهاج خطة سياسية بسماركية بارعة شجعه عليها البارون هولشتين ذلك العنكبوت العجوز النابه الذى كان يقضى صباحه ومساءه فى جحره الغامض فى وزارة الخارجية الألمانية ينسج فى أنحاء أوربا كلها خيوط المؤامرات ، فكتب إلى قيصر روسيا فى أواخر سنة ١٩٠٤ يقترح عليه عقد معاهدة بينهما تكون أضمن وسيلة لاستتباب السلام فى أوربا . وسيكون من آثارها انضمام فرنسا فعلا على أساس أنها حليفة لروسيا . وهذا المحور المقترح بين سانت بترزبرج وبرلين سيكون فى الواقع حلفاً أوربياً موجهاً ضد بريطانيا العدو الدائم لروسيا فى آسيا .

ولكن كانت النتيجة السريعة التى أعقبت ذلك مخيبة لآمال غليوم ، إذ أن قيصر روسيا أطلع وزراءه على كتاب غليوم . وهؤلاء استطلعوا رأى فرنسا حليفتهم ، فوضع المشروع بهدوء على رف النسيان ، ولكن همسات الاستهزاء كانت على الأفواه فى جميع وزارات الخارجية فى أوربا . وفى يوليو أحس غليوم أن الموقف

الجديد فى أوربا يتطلب محاولة جديدة . لقد هزمت روسيا فى الحرب الروسية اليابانية التى اندلعت نيرانها سنة ١٩٠٤ ، وتدمير الأسطول الروسى فى مضيق سوشيما فى مايو سنة ١٩٠٥ قضى على ما بقى لقيصر روسيا من أمل ، وقد بدأت بوادر الثورة تظهر فى روسيا . ولا شك أن نقولا سيكون تواقا إلى البحث عن أصدقاء .

ولذلك اقترح غليوم على قيصر روسيا أن يقوما بنزهة بحرية فى البلطيق . فلما قبل نقولا أمر وزيره بيلوف أن يحضر مسودة المعاهدة التى أعدت منذ ستة أشهر ويرسلها إليه (كان واضع المعاهدة الحقيقى هو هولشتين ، ولكنه لأمر ما لم يطلع هذه المرة على هذا السر) ، ولقد أبرقت المعاهدة إلى اليخت . ونسخها غليوم بيده وربما غير فى النص فى أحد الموضوعات المحرجة دون إبلاغ مستشاره . وقبيل الاجتماع فى ٢٤ يوليو دخل القيصر مقصورته وسلم أمره إلى الله .

وأخيراً كتب غليوم إلى بيلوف يقول « دعوت فى صلاتى إلى الله إذا شاء ألا يمدنى بعونه ، ألا يمد عدوى بعونه كذلك ، وعندئذ أحسست بقوة بالغة ... وصممت على أن أمضى فيما أنا بسبيله مهما كانت العاقبة » .

وبهذه الروح القوية قصد القيصر إلى اليخت — ستلابولاريس — فى حلة أمير البحر الألمانى ، وشواربه مفتولة فى شكلها الأخاذ ، وعيناه السوداوان فيهما بريق عجيب ، واحتضنه نقولا بترحيب عظيم فى حلة بحار بريطانى ، وبدا من بريق عينيه الزرقاوين الهادئتين ولحيته القصيرة الصفراء أنه قريب الشبه جداً من ابن عمه ولى عهد إنجلترا الذى صار فيما بعد الملك جورج الخامس . وكان استهلال الحديث بارعا . ومما قاله وزير البلاط وقد دمعت عيناه من فرط ما أحس به من عاطفة فياضة « فى هذا الوقت الذى هجرنا فيه العالم كله — نعم — هجرنا فى ازدراء حتى إن أى كلب لا يقبل أن يطلب مناقطعة من العظم ، تأتى أنت ياصاحب الجلالة إلينا صديقاً مخلصاً فتأخذ بيدنا لنستعيد مكانتنا » .

وما كاد ينتهى تبادل التحيات حتى تناول نقولا ذكر إدوارد السابع على حين غفلة ووصفه بأنه « أعظم مفسد وأكبر من يحيك المؤامرات فى العالم » .

وكانت إمبراطورة روسيا إحدى حفيدات الملكة فكتوريا — التى هى أيضاً جدة غليوم — وكان نقولا نفسه ابن اخت الملكة ألكسندرا زوجة إدوارد ، ولكن العلاقات العائلية أصبحت متأثرة بما أبدته بريطانيا من العطف على اليابان حليفتها وبخاصة منذ أكتوبر الماضى . وفى هذا الوقت بينما كانت بعض القوى البحرية الروسية التى فى بحر البلطيق تعبر القناة الإنجليزية ليلا إلى مصيرها المحتوم فى المحيط الهادى ضربت دون قصد إحدى سفن الصيد الإنجليزية (بل وبعض السفن الروسية) بسبب الضباب الكثيف فى دوجربانك . ولاشك أن الحكومة البريطانية والرأى العام البريطانى لم يكونا راضيين عن هذه الحادثة الأليمة المضحكة ، وكادت هذه الأزمة السياسية الكبرى فى العلاقات الروسية ألا تنقضى بسلام .

وكان غليوم بطبيعة الحال يتفق مع قيصر روسيا فيما يشعر به نحو إدوارد . وبشىء من المكر قال لقيصر الروس إن إدوارد « يود أن يكون بينه وبيننا اتفاقية » .

فرد نقولا على الفور قائلا « ما أستطيع أن أقوله إنه لن يحصل على اتفاق منى ولن يكون الاتفاق ضد ألمانيا أو ضدك ما دمت أنا حياً ، وهذا عهد بينى وبينك » .

ثم انتقل نقولا إلى الشكوى من أن فرنسا لم تنتصر له فى حادثة الأجربانك ، ومن عدم سماحها بعبور الأسطول الروسى فى مياه الهندالصينية إذعاناً لأمر إنجلترا . وهنا عمل غليوم على أن ينكأ هذا الجرح بأسلوبه الذى رأى فيه منتهى الدهاء .

وانقضى اليوم على ما يرام ، وفى المساء دعا غليوم قيصر الروس وأسرته إلى

وليمة بسيطة جميلة على سطح الهوهنزولرن ، وكان نقولا بادى المرح دون تكلف ، وكان فى أوج جاذبيته التى كانت تأسر كل من اتصل به فى غير عمل رسمى . وكان غليوم مشدود الأعصاب إلى حد ما بسبب ما يشغل تفكيره من تدبير خططه الملتوية فى الغد . وفى اليوم الثانى بعد أن لبث يستخير الله فى مقصورته ، ذهب إلى سطح ستلابولاريس ، وبعد أن تناولا غداءهما الفاخر كان هذان الملكان الداويان يحاول — كل منهما — أن يتفوق على صاحبه ، وأن يخدع حليفه ، مع أن كلا منهما كان من السهل خداعه ، كما كان كل منهما لا يمكن الاعتماد عليه . ثم عاد البحث إلى خيانة بريطانيا وعدم إمكان الاعتماد على فرنسا ، وهناك لمح غليوم بأن إدوارد يطبخ الآن « اتفاقية أخرى من تلك الاتفاقيات الصغيرة » مع فرنسا دون علم روسيا .

وكان رد قيصر روسيا « هـذا فظيع جداً . ماذا أستطيع أن أفعله فى هذا الموقف العصيب ؟ » فما كان من غليوم إلا أن اقترح عقد اتفاقية صغيرة بينهما .

وهنا تذكر نقولا أن غليوم كان قد أرسل إليه مشروع اتفاق على هذا الأساس منذ بضعة أشهر ولكنه نسى لسوء الحظ أن يأتى به معه إلى اليخت . فأسرع غليوم يطمئن ابن عمه بأن قال له : « لدى صورة منه ومن المصادفات العجيبة أن الصورة أحملها فى جيبى » .

وهذه الحادثة ليس من السهل تصديقها لو لم يقصها الإمبراطور إلى بيلوف فيما بعد . ولعل باقى القصر كان أكثر غرابة . وفيما يلى أهم أحداثها مروية بلغة غليوم التى لا يمكن محاكاتها .

« أمسك القيصر بيدى وأخرجنى من الصالون إلى المقصورة الخاصة التى

كانت لأبيه ، ثم أغلق الأبواب بنفسه « أرنيها . أرجوك » ، ثم اتقدت عيناه الحالمتان . أخرجت المظروف من جيبي وفضضته على مكتب نقولا نفسه ، أمام صورة لوالدة الإمبراطور ووضعتها أمامه فقرأها مثنى وثلاث ورباع . ودعوت الله الكريم دعاء حاراً أن يكون معنا فى هذه الآونة وأن يهدى الملك الشاب الصراط المستقيم » .

« وأعقب ذلك سكون تام إلا همهمة خفيفة من البحر ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة إلى المقصورة الجميلة ، وأمام عيني بدا اليخت فى بياضه الناصع الذى يأخذ بالأبصار ، والراية التى ترفرف عالية فى نسيم الصباح . وبينما كنت أقرأ على الصليب الأصفر الشعار المكتوب « الله معنا » سمعت صوت الإمبراطور بجانبي يردد « عال جداً . أوافق كل الموافقة » .

وكانت ضربات قلبي قوية بحيث أمكنني سماعها ، فجمعت أطراف شجاعتي وقلت دون أن أظهر أى اهتمام : أتحب أن توقعها ؟ ستكون تذكاراً جميلا لهذا اللقاء .

ثم مر على الصفحات المكتوبة مرة ثانية ثم قال « نعم سأوقع » . فأزحت غطاء المحبرة وأعطيته القلم فكتب بيد ثابتة « نقولا » ثم رد إلى القلم . وعندما وقفت احتضنني بين ذراعيه وبدا عليه تأثر عظيم وقال « أحمد الله وأشكر لك » ، ففاضت دموع الفرح من عيني . بل كانت حبات العرق تجرى على جبهتي وفوق ظهرى . ومر بذهنى أنه لاشك أن فردريك وليم الثالث والملكة لويزا وجدى ونقولا الأول كانوا معنا فى تلك الآونة .

ولكى يرضى أرواح الموتى الذين شهدوا التوقيع أسرع غليوم إلى تذكير القيصر أن مثل هذه الوثائق الهامة يجب أن يوقعها بعض الشهود ، وقام أحد

ضيوف القيصر وكان من صغار رجال السلك السياسى واسمه تشرسكى وأبدى الاهتمام بهذا الإجراء من الجانب الألمانى فوقع باسمه تحت توقيع سيده . ورغبة من قيصر روسيا فى أن يوقع من الجانب الروسى رجل له منزلة أسمى أرسل فى طلب الرجل العجوز الذى كان وزير بحريته ـ الأميرال بيريلو وبسط الوثيقة أمامه وقال له «هل تثق بى ياألكسيس ألكسفتش . إذن وقع هنا . هنا تحت توقيعى » .

وبلغ من اضطراب الأميرال لهذا التكريم العجيب الذى أسداه القيصر إليه أن مال على يده فقبلها وقال « أكرمك الله يا سيدى . إنك الملك الذى يحرس روسيا » .

ومعاهدة بجوركو الذى يعدها غليوم نقطة تحول فى التاريخ الحديث كانت أساساً لاتفاق دفاعى بين الإمبراطوريتين ينفذ بمجرد توقيع الصلح بين روسيا واليابان . ووضع القيصر فى المعاهدة شرطاً يقصر منطقة تطبيقها ـ وكانت فى الأصل كل أنحاء العالم ـ على أوربا ، حيث يلتزم كل طرف فيها بنجدة الطرف الآخر عند اعتداء الغير . ونصت المعاهدة فى البند الرابع منها على أن على القيصر أن يدعو فرنسا لتوقيع الاتفاق بمجرد بدأ سريانه .

وفى الخطاب الذى أرسله غليوم إلى قيصر روسيا بعد عودته من اجتماع بجوركو الذى كان يعده حجر الزاوية فى صرح السياسة الأوربية وصفحة جديدة فى كتاب تاريخ العالم ـ حدد دور فرنسا فى النظام الأوربى الحديث بما يلى :

« يجب أن تذكر ماريان (فرنسا) أنها زفت . . إليك وأنها ملزمة بأن ترقد فى فراشك وأن تحتضنك وأن تمنحنى قبلة من وقت إلى آخر . ولكن يجب ألا تتسلل إلى حجرة نوم ذلك الأخطبوط الدساس فى الجزيرة (إدوارد)» ورغم النص على انضمام فرنسا ، كان فى المعاهدة نقض صارخ للاتفاق المعقود مع فرنسا

قبل ذلك بخمسة عشر عاما بأن تؤيدها ضد ألمانيا . فتطبيقا للنص الحرفى فى معاهدة بجوركو تصبح روسيا فى حالة حرب ضد فرنسا إذا ما اعتبرت معتدية على ألمانيا . بيد أن فرنسا وروسيا ملتزمتان السير وفق معاهدة حربية سرية لم تدع الاسنة ١٩١٤ . نص فيها على أنه يجب أن تتحرك جيوش إحدى الدولتين إذا ما تحركت جيوش الدولة الأخرى . وليس من الواضح كيف لم يدرك قيصر روسيا ما فى المعاهدة التى طلب ابن عمه الخبيث أن يوقعها ، ولو أن من العسير أن نعرف إلى أى حد كان تقلبه من جانب إلى جانب راجعاً إلى ضعفه الخلقى أو ضعفه العقلى أو إلى ما يشبه المكر السلبى النسائى . وعلى كل لقد أزعجت هذه المسألة ـ مسألة بجوركو ـ وزراءه عندما اضطر إلى مكاشفتهم بسرها . كان أول مدى لوقعها على نفوس رجال الحكومة فى بطرسبرج أن قالوا « يا للهول سنعد غير أمناء فى نظر الفرنسيين » .

وسرعان ما علم الفرنسيون أن مؤامرة تجرى فى الخفاء عندما علم رجال المخابرات الفرنسيون فى روسيا من الرئيس الفرنسى لمطابخ القيصر ، أنه فى يوم ٢٠ يوليو قد صدر الأمر بنقل أدوات المائدة إلى يخت قيصر روسيا علما بأنها لا تستعمل إلا فى الولائم الملكية ، وبعد عودة نقولا من بجوركو سمع أحد الجواسيس الفرنسيين الأميرال بيلوف يتمتم « لقد وقعت على شىء ما . ولكن الشيطان وحده يعرف ماوقعت عليه » ، ثم إنه أبلغ الخبر إلى فرنسا حيث أثارت اضطرابا شديدا . وأخيرا صدرت التعليمات إلى السفير الروسى فى باريس بأن يبين موقف فرنسا إزاء فكرة عمل معاهدة دفاعية بين فرنسا وروسيا وألمانيا . وكما كان متوقعا أقنع القيصر وزراءه بأن يكتب لغليوم مصمما على إجراء تغيير يجعل اتفاق بجوركى غير نافذ .

ولم يكن موقف غليوم فى برلين بأفضل من ذلك . حتى هولشتين نفسه قد نقد اتفاق بجوركى وقال عنه إنه مسرحية سياسية . وثار بيلوف غاضباً لأن القيصر بعد أن غير الصورة الأصلية لمسودة المعاهدة ـ قصر مداها على أوربا ـ

يوقعها دون أخذ رأى مستشاره . وكانت الدموع وثورات الغضب والنوبات العصبية أحداثاً يومية فى البلاط الإمبراطورى . وقدم بيلوف استقالته فلم يقبلها غليوم ، وأخذ يئن ويبكى كما تبكى الفتاة التى هجرت حبيبها .

وكتب العاهل المنكمش — وقد كان يأمل أن يكون بسمارك زمانه — يستعطف مستشاره الغاضب « أهكذا يعاملنى أعز أصدقائى . إنه ليؤلمنى أشد الألم أن أحس بأنى محطم وأنه لا منجاة لى من أن يصيبنى انهيار عصبى شديد . أرسل لى برقية وقل فيها « قبلت » إذا ما وصلك كتابى هذا لأعلم أنك باق معى . فإن اليوم الذى أقبل فيه استقالتك هو اليوم الذى انتهى فيه ، فكر فى زوجتى وأولادى المساكين » .

وعندما تسرب خطاب قيصر روسيا المضطرب عن معاهدة بجوركى ووصل إلى غليوم زادت أعصابه إرهاقاً . وبعد أن أخذ يثرثر أمام رجاله وينتقد تصرف « الولد الذى فى بطرسبرج » تناول قلمه وأخذ يكتب رجاءه الأخير إلى شريكه المخطئ . وها هى البرقية التى بعث بها إلى نقولا :

« لقد تعاهدنا عهداً دينياً . ووقعناه أمام الله . الذى سمع اليمين الذى أقسمنا على الوفاء به . ولا أزال أعد المعاهدة بيننا قائمة . فإذا كنت تريد بعض التغيير فيها فاقترح لى ما تريد ولكن ما وقعنا عليه قد وقعنا عليه والله على ذلك شهيد » .

ولم يجب نقولا على البرقية . ولم يغفر لغليوم خديعته له ، ولربما زاد ألمه عرفانه بالدور القذر الذى لعبه هو نفسه بسبب ضعفه أو بسبب خيانته ، لقد انتهت علاقات الصداقة التى كانت قائمة بين العاهلين عشر سنوات كاملة واتفاق سنة ١٩٠٧ بين روسيا وإنجلترا الذى يقضى بتطويق ألمانيا وتقسيم أوربا إلى معسكرين دفاعيين متعاونين

أصبح بادياً للعيان . لقد صدق غليوم فى أنه كتب صفحة من التاريخ فى بجور كو، ولكن ما كتبه لم يكن على نحو ما يريد .

ويقول المؤرخ الإيطالى لويجى ألبرتينى « يعزى لرجل كهذا أنه كان سبباً لما حل بالعالم » . إن هذه الملحوظة يمكن أن تنصرف إلى نقولا كذلك . لا شك أن كلا العاهلين يحملان نصيباً ثقيلا من المسئولية عن الكارثة التى مزقت دولتيهما وأصابت غيرهما من الدول .

ولكن ليس من الإنصاف أن نبالغ فى إنصاف غليوم الثانى أو نقولا الثانى على نحو ما فعل الدعاة المتنافسون فيما كتبوا بعد الحرب . إن كلا منهما كان يحاول أن يضمن السلام ، ولكن بتفكيره المضطرب وأسلوبه السىء .

إن النظام الملكى المنهار فى أوربا وما يتصل به من فلسفة العلاقات بين الدول وأسلوب العمل على أساسها هو الذى جعل وقوع الحرب أمراً لا مفر منه وهو الذى قرر القضاء على النظام الاجتماعى المبنى عليه . إن الملكيات التى كانت قائمة قبل سنة ١٩١٤ كانت تسرع الخطى نحو فنائها لنفس الأسباب التى انتهى بفصيلة الديناصور المنقرضة إلى الفناء فى العصر الحجرى . إنها لم تعد صالحة للبقاء فى الوسط الذى كانت تعيش فيه . إن التقدم الصناعى والاجتماعى جعل من الحرب وسيلة فى غاية الخطورة تبلغ بها الشعوب أهدافها القومية . ولكن حكام هذه الشعوب لم تفقه هذه الحقيقة — ونحن لم نفهم هذه الحقيقة إلا بعد خمسين سنة — ولم تتطور خيالهم السياسى الأفكار السياسية أو الوسائل السياسية التى تمكنهم من الوصول إلى أغراضهم دون الالتجاء إلى الحرب (ولا نحن أيضاً) .

ويقول المؤرخ الألمانى مسنر :

« إن الآراء السياسية التى كانت تسيطر على العلاقات السياسية كتوازن القوى

ومناطق الاهتمام والكرامة والسيادة القوميتين كانت لا تقوى على الإرشاد إلى الطريق القويم فى جو مملوء بضباب عدم الثقة . لقد انطفأت الأنوار فى أوربا قبل قيام الحرب بمدة غير وجيزة » .

ولقد ضاعف من فشل «أمراء وحكام» تشرشل وعملائهم فى فض الخلافات بين دولهم ، الأوضاع السيئة التى سببت الاضطرابات الداخلية . وهذه الأوضاع السيئة التى نشأت من الخلاف بين النظم الحكومية القائمة والمطالب المعاصرة ، كانت حادة على نحو ما فى الممالك والإمبراطوريات المختلفة . وقد كانت أحياناً أوضاعاً سياسية واجتماعية وأحياناً إدارية .

إن زيادة الأعباء الإدارية وما يترتب عليها من الارتباك أو الشلل التام كانت عاملا هاماً فى القضاء على النظام القديم . وكانت الثورة أو خشية وقوعها ، مما دفع النظام الملكى المنهار إلى الحرب ، والحرب أو خشية وقوعها تدعو بدورها إلى سلسلة مفرغة من الحروب لا تزال باقية فى عصرنا الحاضر . إن الهدف الأساسى لهذا الكتاب هو أن نتعرف إلى أهم المراحل الهامة أو الدرامية لهذا التطور الظاهر ، وتتبع ارتباط بعضها ببعض . والمنطق الصحيح يدعونا إلى أن نبدأ بثورة ١٩٠٥ فى روسيا المبكرة التى رأينا أنها كانت أحد العوامل التى حملت القيصر على قبوله الاجتماع مع غليوم فى بجوركو .

الفصل الرابع

عام الديك الأحمر ٦٧

كان عيد الغطاس فى ٦ يناير من كل عام أحد أعياد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التى نقلها كبار التجار فى روسيا القديمة من القسطنطينية . وكان عيداً له قداسة أكبر وخطر أعظم من أمثاله من الأعياد .

وكان الاحتفال بهذا العيد فى بطرسبرج قبل الثورة يتم فى شىء من الفخامة البيزنطية ، كما كان يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية . والجانب الهام من الاحتفال العام المسمى ببركة الماء تخليداً لذكرى تعميد المسيح بنهر الأردن كان فخماً ومؤثراً . وفيما يلى الجدران الصفراء القائمة للقصر الشتوى الذى قلما يتخذه قيصر روسيا مقراً رسمياً له ، كانت تقام خيمة مزدانة زاهية الألوان ومنصة على نهر نيفا العميق البطىء الجريان الذى يحسبه الإنسان لسعته جزءاً من البحر ، والذى أقام بطرس الأكبر على شاطئه الكثير المستنقعات عاصمته العظيمة المحبوبة . وفى هذا المكان — فى الفضاء الذى تكسوه الثلوج وعلى جسر النهر العجيب المبنى من حجر الصوان القرمزى الذى يحول دون فيضان النهر وتحت قبة السماء ذات اللون الرصاصى الداكن فى وسط الشتاء — احتشد كبار رجال الكنيسة الروسية الأرثوذكسية ورجال المعية الإمبراطورية فى ملابسهم الحريرية المزركشة والفراء . وفى هذا الثلج عملت فتحة ثم بارك أحد كبار القساوسة صليباً . وفى حركة تقضى بها الطقوس المسيحية القديمة يصحبها أصوات وثنية أسقط الصليب فى المياه السوداء الجارية . وفى ٦ من يناير سنة ١٩٠٥ (بالتقويم الروسى القديم الذى ظل مستعملا فى روسيا إلى سنة ١٩١٨ وبعد التقويم الغربى بثلاثة عشر يوماً) فى حضرة قيصر

روسيا سار الاحتفال التقليدى فى بهائه العادى رغم الأخبار السيئة عن الشرق الأقصى (سقطت بورت آرثر فى يد اليابانيين قبل هذا التاريخ بمدة وجيزة) وانتهى الاحتفال على وقع نغمة محزنة . وفيما يلى بيان لشاهد عيان له قدرة على الوصف الممتع وهو شاب من الغرب — دكتور ليون وبرباولر — مولود فى روسيا لسيدة ثائرة مهاجرة .

ووبرباولر هذا كان قبل الحرب شخصية بارزة فى الأوساط الطبية والثقافية فى جنيف، وفى تاريخ حياته يصف الحفل الذى شاهده من أحد الجسور التى على النهر .

« لقد وقفت الجموع المحتشدة على بعد . وكانت ساكتة تعلوها الكآبة . ثم دقت الأجراس معلنة البركة الإلهية. وعلى حين غرة دوت فرقعة صادرة من مدفع من حصن بطرس وبولس عبر النهر ، وعلا دخان طلقة المدفع على شكل كروى ، وابتدأت التحية بإطلاق المدافع، ولكن طلقات مماثلة دوت فوق منصة الإمبراطور . وكان المدفع محشواً برصاص شرابنيل السام ، وانفجرت القنبلة فوق حاشية الإمبراطور وأتباعه .

« لقد حشا أحد رجال المدفعية المدفع برصاص شرابنيل بدلا من الخراطيش . وصوب نحو القيصر ورجال الكنيسة مدفعه الذى أعده من قبل ولم يصب ، وبينما كانوا ينقلون الموتى فر سائر الموظفين . ولم يظهر الإمبراطور أى هلع عندما ارتدت الرصاصة من الجسر المبنى من حجر الصوان وسقطت عند قدميه ، فقد التقطها ووضعها فى جيبه قائلا سأحتفظ بها تذكاراً .

وقد تكون هذه القصة غير حقيقية . وإذا كان نقولا الثانى التقط تلك الرصاصة لتكون تذكاراً ، فقد كانت تذكاراً لحرب طويلة جداً احتدمت بين حكام روسيا ورعيتهم المظلومة . ولم يكن فى استطاعة القيصر والزائر القادم من

جنيف أن يدركا أن القنبلة التى أطلقت فى احتفال المياه المباركة كانت بداية سلسلة من الثورات الدموية غير المنظمة التى تعرف باسم ثورة سنة ١٩٠٥ ، وهى صورة للثورة التى قضت على الأسرة الملكية بعد ذلك باثنتى عشرة سنة .

لقد اندلعت الثورة فى عنف شديد بعد هذه المؤامرة الفاشلة ضد القيصر . ولكى نفهم أسبابها ونحدد مدى الدور الكبير الذى قامت به فى تهيئة الانقلاب العام فى أوربا ، يجب أن ننظر من قريب إلى شخصية آخر أسرة رومانوف العجيبة المحزنة ، وإلى المنظر الخلفى المكون من أسرته ، وإلى حالة روسيا فى السنة الحادية عشرة من حكمه .

يقول الكاتب الروسى مرجكوفسكى فى مذكراته تعليقاً على ثورة سنة ١٩٠٥ :
« كانت لعنة تجيبة تنتقل فى بيت رومانوف كما فى بيت أتريد تنتقل من جيل إلى جيل . القتل والزنا والدماء والوحل — (هى الفصل الخامس من مأساة تقع أحداثها فى ماخور) ، يقتل بطرس الأول ابنه ،ويقتل اسكندر الأول أباه ، وتقتل كاترين الثانية زوجها ،وعدا هؤلاء الضحايا العظام المشهورين كثر عدد جرائم القتل المؤلمة التى ارتكبتها الحكومة المستبدة ،منها إفان أنتونوفتش الذى قتل خنقاً فى زنزانات شلوسبرج كما تموت الفيران فى الأركان المظلمة . إن المشانق والحبال والسموم كانت المميزات الحقيقية للحكومة المطلقة » .

ونقولا الثانى لم يقتل أحداً فى حياته إلا بضعة آلاف من رعاياه عن طريق تأدية الواجب . وكانت حياته الخاصة — على الأقل فى نظر غير أتباع فرويد — خالصة من أى عيب أبجى . فقد كان ابناً باراً — مخلصاً — إن لم يكن محباً وأباً نموذجياً وملكا حى الضمير . وإذا استثنينا اتصاله الباكر قصير الأمد بالراقصة كسينسكايا — مما كان يعد من أسمى تقاليد الأمراء فى ذلك الحين — كان لنقولا النصيب الأوفر من الاحترام . وكان ذا عقل

بليد يحجبه عن الكافة عزوفه الموروث عن كل ما له صلة بالحقائق الاجتماعية أو السياسية . إنه حاكم مطلق — ويعتقد أن من حقه أن يكون كذلك — كان فى جميع خلاله الشخصية بورجوازيا قحاً . ومع هذا فاللعنة القديمة التى قال مرجكوفسكى إنها حلت فى بيت رومانوف كانت صادقة بل متنبئة بالسنوات الأولى من حكم نقولا الثانى، فإن هذا الإمبراطور الأخير رغم تصرفاته العادية بل غير المتكلفة ، ورغم مزاجه المعتدل وخلقه اللطيف كان يمثل أسرة رومانوف ، إذ كان وارثاً لعدد من أقسى الحكام المستبدين الذين عرفهم التاريخ . وفى النهاية مات فى شىء من المجد الممقوت موت آل رومانوف التقليدى فى جحر مملوء بالدماء .

ومؤسس الأسرة — ميخائيل رومانوف سليل إحدى الأسر النبيلة التى برهنت على كفايتها فى حروبها مع البولنديين — اعتلى العرش الخالى الذى تنازعه كثيرون دون أى عناء، وكان فى الخامسة عشرة من عمره سنة ١٦٧٣ . ويرجع الفضل فى ذلك إلى الحاجة العامة إلى النظام ، وإلى ذلك الشعور الوطنى القوى ضد الغزو الأجنبى بعد « الأوقات العصيبة » التى استمرت ٢٩ عاماً بعد موت إيفان الرهيب. وبعد وقت وجيز جداً كان على ميخائيل أن يعمل بكل قسوة للقضاء على ثورات جديدة قام بها الفلاحون أو القوزاق مما كان يهدد البلاد بالرجوع إلى الفوضى . وقام بمثل دوره خلفاؤه ألكسيس وفيدور الثانى وإيفان . وفى مدة حكمهم بعثوا الحياة فى النظام الإقطاعى بعد وهنه ، وجعلوا له قواعد مرعية ، كما جعلوه وراثياً ، وزادوا نفوذ الملاك على العاملين فى الأرض . وهكذا فى الوقت الذى كانت أوربا الغربية تخرج دون رجعة من ظلام القرون الوسطى رجعت روسيا إلى عهود الظلام ، وهكذا كان آل رومانوف يعملون على توطيد دعائم النظم الرجعية .

وحفيد ميخائيل رومانوف — بطرس الأكبر (١٦٨٢ — ١٧٢٥) — أسس أوشيد غير ذلك كثيرا من النظم الروسية الفريدة . وهذا العملاق — بالمعنى

الحرفي والمعنى المجازى جميعاً — أتم صرح الحكم المطلق الذى وضع أساسه إيفان الرهيب قبله بأكثر من مائة عام. وجعل من روسيا ثكنة حربية شاسعة، وجعل من النبلاء طبقة من الموظفين له خاصة. وجذب روسيا من شعرها من ظلام الشرق ووضعها فى المجتمع الأوربى الحديث. وهو الذى أوجد الانفصال بين التقدم الصناعى والتقدم السياسى فى البلاد، مما كان سبباً لما أصاب روسيا من الكوارث منذ حكمه إلى الوقت الحاضر. وهو الذى أزال بيده لحى كبار ضباط الجيش، فهذه اللحى كانت غير أوربية وغير حديثة. وهكذا كانت موسكو مهد الملكية لروسية ومهد الدولة، فعقد العزم على أن يؤسس على شاطئ البلطيق الذى ضمه حديثاً إلى بلاده عاصمة جديدة تطل على أوربا، التى كان لفنونها وحضارتها وقع عظيم فى نفسه. وكانت الأرض اللينة التى عند مصب نهر نيفا فى رأيه مكاناً مناسباً من الناحية الحربية، فاختار المهندسين الإيطاليين وسخر العمال فى بناء بطرسبرج فى هذا المكان. ومات فى هذا العمل آلاف من الروسيين من المرض أو من الإصابات مما يتكرر كثيراً فى التاريخ الروسى. وأصبحت المدينة أحد آثار بطرس. يشرف عليها — رمزياً — ذلك التمثال الراكب الهائل لمؤسسها فى ميدان سانت إيزاك، الذى خلده فى إحدى قصائده الشهيرة، « الراكب البرونزى » الشاعر بوشكين.

وكانت بطرسبرج فى نظر عامة الشعب العاصمة الأجنبية منذ وقت إنشائها. والثغرة النفسية التى أوجدها بطرس بإدخاله المدنية عن طريق العنف بين الشعب ونظام الحكم كانت تتسع لا تضيق إبان عهود من خلفوه من الأباطرة.

وكان لبطرس الفضل الأكبر — فى تاريخ روسيا الطويل — فى خلق القومية الروسية التوسعية، وفى إنشاء مبادئها الحربية الأساسية. وسبق أن توسعت روسيا من موسكو شرقاً عدة قرون. وقد شجع بطرس هذا الاتجاه التاريخى وأرسل بعثات الاستكشاف التى بلغت بحر بهرنج، كما أشعل نار الحرب الحامية التقليدية

بقوة مع الإمبراطورية التركية للحصول على ثغور على البحار الدفيئة ، ولتحرير السلافيين المسيحيين فى الجنوب الشرقى من أوربا الذين كانوا لا يزالون يئنون من نير الحكم التركى . وقد كانت استراتيجية بطرس فى الجنوب تنطوى على ذلك الحلم الذى ظل يداعب خيال الروس مدى قرنين من الزمان ؛ بأن يستولوا على الدردنيل ، وترفرف رايتهم بنسر رومانوف ذى الرأسين فى ذرى القسطنطينية المحررة ، المركز المقدس للمدنية الروسية .

ولم يكن بطرس رجل خيال أو أحلام ، ولذلك كان أكبر همه التقدم نحو الغرب حيث كانت له أهداف من المستطاع تنفيذها . ففى حرب طويلة لا هوادة فيها أخرج السويديين من القارة ، واحتل الجزء الشرقى من ساحل البلطيق ، وجزءاً من فنلندا ، ونصب حليفاً يكاد أن يكون ألعوبة على عرش بولندا ، وهكذا جعل من روسيا فى بضعة أعوام دولة أوربية عظمى .

ولقد ظل طيلة مدة حكمه واقفاً بالمرصاد لثورات القوزاق والفلاحين ، التى كان يخضعها دون أدنى رحمة بالمؤامرات الحربية أو الأرستقراطية التى كان يدبرها بغاية الشدة . وكان ابنه ووريثه الجرىء ممن وقع فريسة لإحدى هذه المؤمرات . لقد أغرى ولى العهد الشاب بالعودة إلى روسيا على أثر هروبه إلى خارج البلاد ومنحه العفو ، وأعلن على الملأ هذا العفو ، حتى إذا علم الشعب بمدى خيانته قدمه للمحاكمة التى قضت بإعدامه . وبطرس نفسه قد اعتلى العرش مستعينا بانقلاب عسكرى على عزل صوفيا أخته غير الشقيقة . وقد أوقع روسيا — بعدم إدراكه للنتائج — مدى قرن من الزمان فى ثورات يضطلع بها القصر الإمبراطورى ، وفى منازعات حول وراثة العرش بوضعه ذلك المبدأ الذى يقضى بأن للامبراطور الحق فى اختيار خلفه كما كان متبعاً فى روما القديمة .

فقد ثلاثة من ذريته حياتهم فى هذه المؤامرات المستمرة التى ترتبت على هذا القانون العائلى المشئوم . وكان أحدهم بطرس الثالث ، الذى قتله جماعة من النبلاء وضعوا على العرش كاترين زوجته الألمانية المولد التى عرفت فى التاريخ باسم كاترين الثانية أو كاترين العظمى (١٧٢٦ — ١٧٩٦) . وكان حكم كاترين الذى يعد نموذجا للاستنارة والحرية فى القرن الثامن عشر تقلقه المؤامرات والثورات الخطيرة الكثيرة إلى حد غير مألوف . ولقد أورثت خلفاءها مصادر جديدة للسخط وعدم الرضى بالمضى فى غير هوادة فى السياسة التوسعية التى انتهجها بطرس الأكبر . وكان تقسيم بولندا الأول بين روسيا وأسرة هوهنزولرن المتوثبة فى بروسيا فى عهد فردريك الأكبر إحدى ثمار هذه السياسة الفاسدة . وخلف كاترين ابنها بولس (١٧٩٦ — ١٨٠١) وكان هناك شك ملحوظ فيمن هو والده ، ولكنه كان يعتبر نفسه الوريث الشرعى للعرش ، وكان يشعر أن كاترين كانت مغتصبة للعرش — وهو الواقع دون شك . وكان يكره أمه لأنها مغتصبة ويحتقرها لأنها زانية ، ولربما كان يتهمها بأنها قاتلة ، وكان لا يوافق على أنها مستبدة مستنيرة . ولم يكن بولس نفسه إلا مستبداً وقف وقفة المستبد المضطرب المتورط إزاء الحدثين الكبيرين الذين وقعا مدة حكمه : الثورة الفرنسية التى نشبت فى أواخر حكم كاترين الثانية ، وعلاقته بابنه الأكبر اسكندر .

فى عام ١٨٠١ قام القصر بثورة دبرها جماعة من شباب الطبقة الأرستقراطية من أصحاب اسكندر الشخصيين والمتفقين معه فى مبادئه ، وكان فيها القضاء على حياته كرئيس مستبد للدولة ورأس مستبد للأسرة . ولقد اشترط اسكندر بطبيعة الحال ألا تمس حياة والده بأى سوء ، ولكن يبدو أنه لم يستمسك بهذا الشرط بتصميم قوى . واقتحم المتآمرون حجرة نومه وخنقوه . وهكذا خلف أوديب الذى لم يكن بريئاً كل البراءة هاملت الذى تمددت جثته على الأرض .

ومنذ وفاة بولس الأثيمة أصبحت لعنته التى حلت على آل رومانوف غير ذات موضوع . بمعنى أنه منذ ذلك التاريخ كان اعتلاء العرش — اللهم إلا مرة واحدة — يحدث بطريقة منتظمة كريمة . لم يعترض ولد بعد ذلك على والده أو والد على ولده. (أيد بولس نفسه حق اعتلاء العرش بأن ألغى ذلك القانون الخطير الذى وضعه بطرس الأكبر وأحل محله قانوناً صريحاً للوراثة وجعلها حقاً للأكبر سناً) . ومع هذا فإذا أنعمنا النظر وجدنا أن اللعنة قد تغير موضع حلولها ليس غير .

وأصبحت أسرة رومانوف كسائر الأسر الأوربية فى القرن التاسع عشر صالحة للحكم . ولكن القضاء المقدر عليها ظل يعاودها طيلة حكم الأباطرة الذين جاءوا بعد بولس فى العلاقة القائمة بين الإمبراطور ورعيته ، ونتيجة لحياة لبثت حوالى قرنين يسودها جو حزين كجو المأساة الإليزابيثية أو المأساة الإغريقية ، كان يبدو أن سياسة الأسرة تبلورت إلى ما يشبه الجنون الوراثى، الذى أدى آخر الأمر إلى ما أهدرته الدولة نفسها من دماء ، مما لم تكف ثورتان إلى تخفيف حدته.

وبعد أن استهل اسكندر الأول (١٨٠١ — ١٨٢٥) حكمه وسط هالة من الحرية ، وبعد أن خرج من الحروب الفرنسية معتبرا أنه أصلح ملوك أوربا (وكان من رأيه أن الحلف المقدس عبارة عن عصبة ملوك الأمم كما يقول سير برنارد بيرز) ، تحول إلى حاكم مطلق رجعى على شاكلة أبيه (لا شك أن هذا جزاء السماء) ، ومات موتاً طبيعياً فى الوقت الذى صمم فيه الثوار المتآمرون على خنقه أو تهشيم رأسه .

وكان نقولا الأول (١٨٢٥ — ١٨٥٥) أخوه ووريثه أقل منه شأناً وأكثر استبداداً . حاول ذات مرة أن يعلم بوشكين كيف ينظم الشعر ، وكان حكمه من أتفه العهود فى تاريخ روسيا الحديث . وكان أول ما اضطلع به فى بداية حكمه القضاء

على ثورة قامت بها فرق الحرس ، حاول ضباطها الأرستقراطيون ـ وفقا للتقاليد التى يرجع تاريخها إلى العهد الأول من تاريخ الأسرة ـ حاولوا أن يتآمروا ضد اسكندر رغبة فى أن يعتلى العرش أخوه قسطنطين رغم تنازله رسمياً عن حقوقه فى العرش، وهذه الثورة التى تسمى ثورة ديسمبر لأنها حدثت فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٢٥، كانت آخر ثورة قام بها رجال القصر فى تاريخ روسيا، ولكنها نموذج لنوع مستحدث بل خطير الأثر من الفوضى، لأنها كانت إلى حد كبير فاتحة المؤامرات الثورية فى روسيا .

وكان كثير من القادة والمؤيدين من الأحرار بل من الجمهوريين الذين استمدوا آراءهم من مبادئ الثورة الفرنسية ، وكان أحد أهدافها حصول روسيا على دستور للحكم .

واسكندر الثانى (١٨٥٥ — ١٨٨١) كان نوعاً جديداً من أفراد أسرة رومانوف . كان شديد الولاء لأبيه كما كان مؤيداً لمبادئ نقولا الاستبدادية ، وكان ذكياً على خلاف سلفه ، ويصفه سير برنارد بيرز المؤرخ البريطانى لروسيا الحديثة بأنه « محافظ شريف أجبره منطق الحقائق القاهرة على أن يجعل فى مقدمة أعماله تحرير عبيد الأرض » .

ونظام عبيد الأرض كان سبة لروسيا وجرحاً دامياً فى حياتها القومية. وهو المشكلة الاجتماعية الأولى فى ذلك العصر . ولم يكن هناك ماهو أدعى إلى الإصلاح منه ، كما أنه لاشىء أقدر على تبديل الحياة الاجتماعية فى روسيا فى هذا الإصلاح وبخاصة إذا ما نفذ بحزم وبلا هوادة ، وفعلا كان الإصلاح الذى جاء به اسكندر صالحاً ونفذه بحزم .

وهو لم يقض بتحرير فلاحى الأرض فحسب — وهم الذين كانوا مرتبطين بها تابعين لها كأنهم بعض السلع التى كان يملكها صاحب الأرض — ولكنه ملكهم

نصف مساحة الأرض التى كانوا يعملون بها بثمن يدفع للدولة على أقساط تبلغ عدتها تسعة وأربعين قسطاً .

وكان للقانون الذى تم بمقتضاه تحريرهم معيباً من بعض الوجوه ، فبدلا من أن يمنح كل فلاح قطعة من الأرض خاصة به جعل الملكية جماعية لعدد من الفلاحين ، وهكذا بنى أساس الحكم المطلق على مبادئ جماعية لا على مبادئ فردية[١] ، كما يقول المؤرخ بيرز . ولقد نجم عن ذلك نتائج خطيرة فى المستقبل . على أنه لم يعتبر رجعياً حسب المفاهيم التى كانت سائدة فى ذلك العهد . على أن الإصلاح نفسه كان عنيفاً على كل حال .

وفى أثناء حكم اسكندر الذى استمرستة وعشرين عاماً خطت روسيا خطوات سريعة لسدالثغرة التى كانت لا تزال تفصل بينها وبين المجتمعات المتقدمة فى الغرب . وموجةالضغط التى طغت علىغرب أوربا بعد الحركات الثوريةالتى وقعت سنة١٨٤٨ لم تنحسرعنها انحساراً تاماً . أما فى روسيا فحركة التحرر التى لبثت زهاء نصف قرن فى ليل طويل كليل المحيط المتجمد أخذت تظهر من جديد .

ثم إن التى اللعنةحلت على رومانوف عادت من جديد: لقد أخذت الحكومة الاستبدادية بدافع بما تحس به من عدم الثقة وما جبلت عليه من الظلم — أخذت تعامل بمنتهى القسوة النارودنيكى (ومعناها الحرفى رجال الشعب) ، وهم هيئة صغيرة من رجال الرأى من طلبة الجامعات عادة من الجنسين جميعاً ، يثقون ثقة كبيرة فى أن يعيشوا « مع الشعب» ، أى بين الفلاحين يشاركونهم حياتهم الخشنة .

---

(١) لا غرابة فى أن يكون هذا النقدموجهامن المؤرخ البريطانى ، لأن بلاده تسير على النظام الرأسمالى ، ولذلك رأى فيما اتبعته روسيا معيباً لأنه يتعارض مع ما ألفه البريطانيون فى حياتهم الرأسمالية (المترجم)

ويعينونهم على رفع مستواهم ومعرفة حقوقهم الإنسانية . وهى حركة روسية أصيلة ونبيلة إلى مدى بعيد ، وإن كانت غير عملية إلى حد ما ، ولكنها حركة لها أهميتها على كل حال . وكان كثير من أفراد هذه الهيئة من رجال الإصلاح الاجتماعى ، وبعضهم من المصلحين الخياليين الذين لا ضرر منهم ، وقلة منهم كانوا من المهيجين الثوريين . وحتى بين هؤلاء الثوريين من كانوا غير راضين عن أعمال العنف . على أن للجماعة نواة صلبة من المتعصبين الذين جعلت منهم الكرابيج وحجرات التعذيب التى كان شرطة القيصر يستعملونها ، والسجون فى منطقة القطب الشمالى ، ومناجم الملح السيبيرية — جعلت منهم سياسيين متهوسين . وقد نحت لهم الكاتب الروسى الكبير ترجينيف اسماً خاصاً بهم فأسماهم (النيهلستيين Nihilsts) . وكان قدوتهم أو الكتاب الذين يعجبون بكتاباتهم هم : ميخائيل باكونين الكاتب الفوضوى المحترم والداعى إلى الإرهاب ، وسرج نيخاييف الثائر النموذجى الذى أخذ عنه دستوفسكى صورة بطله فى قصته ، وبيتر تكاشيف ، الثائر المفكر صاحب المؤامرات المنظمة ، وهو أحد من كان يدين لهم لينين ديناً أدبياً كبيراً . (أوصى تكاشيف مرة بأن يعدم كل روسى تزيد سنة على خمسة وعشرين عاما لأنه لا يمكن أن يساير الزمن الذى يعيش فيه) .

ثم إن نشاط « الفوضويين » زاد فى حركة أحد أجنحة النارودنيكى بسبب أعمال رجال الشرطة واضطهادهم للعناصر المعتدلة من الثوريين . وأسس المتطرفون منهم بمعونة جماعات المهاجرين جمعية للمؤامرات أسموها إرادة الشعب ، جعلوا القنبلة شعارها . وكانت هذه نواة انبثق منها الحزب الاشتراكى الثورى ، وهو أحد الحزبين الروسيين الكبيرين الثوريين فى القرن العشرين . وفى عهد اسكندر الثانى لم يكن حزب إرادة الشعب يضم إلا بضعة مئات من الأعضاء ، لكنهم كانوا

مسلحين ومدربين على أعمال المؤامرات ، ومنظمين فى عدد من الخلايا ، ويكفى هذه القضاء على كل أمل .

وقد فشلت محاولتان لقتل القيصر ، أما الثالثة التى وقعت فى ١٣ من مارس سنة ١٨٨١ فقد نجحت عقب توقيعه أمراً إمبراطوريا بدستور أبتر يهدف إلى ترضية الأحرار . إذ ألقى أحد الإرهابيين قنبلة على عربة القيصر بينما كانت تخترق شوارع بطرسبرج فى استعراض حربى . وأطل الإمبراطور يبدى اهتمامه ببعض حاشيته من القوزاق الذين أصيبوا . عندئذ ألقى قاتل آخر بولندى قنبلة ثانية وهو يصيح « لم يحن الوقت لكى تحمدوا الله » . وهشمت ساق اسكندر وشوهت وجهه ومزقت بطنه . فقال فى ألفاظ مختلطة « إلى القصر لأموت هناك » . وتجمعت أسرته بما فيهم حفيده نقولا الذى صار فيما بعد نقولا الثانى وكان فى الثانية عشرة من عمره وفى لباس بحار ورأوه يلفظ آخر أنفاسه . وأدى قتل القيصر إلى رجوع روسيا القهقرى إلى ظلام الرجعية الدامس . وقد أخذ الظلام يشتد دون انقطاع حتى حكم ابنه اسكندر الثالث (١٨٨١ — ١٨٩٤) الذى حرم فيه الرقيب أن يطبع لفظ الدستور فى صحف ذلك العهد .

وكان فى طوله ومتانة جسمانه شبيهاً بجده البعيد بطرس الأكبر (مع أن لحيته أكسبته شيئاً من الوقار)، ولكنه كان فى الوقت نفسه يشبه القيصرين السفاكين نقولا الأول وبولس الأول فى أحكامهما السياسية . كما ألغى أو أوقف كثيراً من وجوه الإصلاح التى أتى بها أبوه، كما أخذ يصب جام غضبه على الثوريين .

وفى سنة ١٨٨٧ قبض على طالب إرهابى فى العشرين من عمره فى مؤامرة قام بها حزب إرادة الشعب لقتل القيصر فى يوم ذكرى قتل اسكندر الثانى ، وحكم

بإعدامه . وطلبت أمه تصريحاً بزيارته ، فكتب القيصر على هامش الرجاء الذى قدمته تلك الأم البائسة « أرى أن يسمح لها بزيارة ابنها لتشهد بنفسها أى رجل كان ولدها العظيم » .

وقال الشاب عند محاكمته تفسيراً لما قام به أو لما كان يعتزم القيام به . « فى مثل هذا النظام من الحكم الذى لا يسمح بحرية القول ويقضى على كل محاولة للعمل لصالح الجماعة وتثقيفها بالطرق المشروعة يكون الإرهاب هو الوسيلة الوحيدة الباقية » .

وقد شنق الشاب هو وأربعة من زملائه المتآمرين فى ساحة قلعة شلوسلبرج صباح ٢٠ من مايو سنة ١٨٨٧ . وكان اسمه اسكندر إليانوف ، وكان له أخ فى السابعة عشرة هو فلاديمير الذى صار فيما بعد أحد رجال المؤامرات ، وكان يكتب بتوقيع نيكولاى لينين . ومن الشخصيات التى اشتهرت فيما بعد وكانت من زملاء اسكندر إليانوف ، جوزيف بلزودسكى محرر بولندا . وكان قد قبض عليه فى المؤامرة ضد القيصر ، ولكن أفرج عنه إفراجا مؤقتاً . وقد أصيب لينين بصدمة نفسية شديدة عند ما علم أن أخاه الأكبر الذى كان يحبه ويعجب به قد مات كما يموت المجرمون لجريمة لم يتجاوز التفكير فيها ، وألبس غطاء الرأس الأسود ودقت عنقه فى المشنقة . وقد كانت كذلك صدمة نفسية عنيفة للشاب اسكندر الثالث عندما جاءوا بأبيه الذى كان يحبه ويعجب به إلى قصره كومة ملطخة بالدماء مجللة بالسواد . وكان رد الفريقين واحداً على المأساة الواحدة . فلن يرحم أحد الفريقين الفريق الآخر الذى هو عدوه . (والعدو فكرة غير محددة تسمى الثورة أو تسمى الحكم المطلق بل قد تكون الطبقة العليا) . وكان كل فريق يقدس ذكرى الشهيد الضحية ، ولكنه كان لا يعجبه العمل الذى يؤديه . وتخلى اسكندر عن

سياسة الإصلاح التى بدأها والده . وتخلى لينين عن المبادئ الثورية التى كان أخوه يدين بها ، ممثلة فى مبادئ النارودنيكى أو إرادة الشعب مع ما يصحبها من سياسة الإرهاب، وكان يدين بمبادئ ثورية علمية قاسية تقوم على نظريات كارل ماركس الاقتصادية .

وهذه الصورة الروسية التى كان أساسها الديمقراطية الاجتماعية الماركسية ، والتى تولدت عنها فى فرنسا نظرية جان جوريه فى الاشتراكية الديمقراطية النفعية ، وجهت نحو الصناع الذين فى المدن الكبرى أكثر من تطبيقها على الفلاحين البائسين القلقين الذين كانوا الشغل الشاغل للقائمين بالثورات الروسية التقليدية ، سواء النارودنيكى (حزب إرادة الشعب) أو خلفاؤهم الثوريون الاشتراكيون . ونظراً لأن روسيا كانت أمة زراعية فى الأعم الأغلب إلى أن جاءت الثورة ، لم يكن للديمقراطيين الاشتراكيين الماركسيين إلا نصيب محدود فى الحركة الثورية التى كانت فى روسيا قبل الحرب . ومع هذا فالتصنيع كان يخطو خطوات واسعة فى روسيا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وآذنت شمس لينين أخيراً بالشروق .

وحكم اسكندر الثالث يهيىء لنا دراسة ممتعة لعلاج النظم الاجتماعية والسياسية الفاسدة فى الأزمنة الماضية . فعندما يتعرض نظام الحكم للجراثيم الثورية ، فإنه يفرز أجساماً مضادة ضعيفة لا أثر لها إلا تقوية الجراثيم . والنتيجة التى نجمت عن هذه الحالة هى اللينينية ، أى المبادئ الثورية التى ستعرف فيما بعد باسم اللينينية ، بعد أن جعلتها التجارب الإنسانية والظروف التاريخية أشد بأساً وأعظم أثراً .

وفى الوقت نفسه يتولد عن الحالة القائمة آراء تتعارض مع الاتجاه الثورى، وتضر بمراكزها العصبية ذاتها وتفسد أحكامها وتعجزها عن القيام بالأعمال المنسجمة ، وبذلك تقعدها عن أن تدرأ عنها أعداءها. ولعل أهم من عمل على هذا التسمم الذاتى، فى روسيا رجل مغرور متزمت مستبد برأيه اسمه كونستانتين بوبدونوستسيف ،كان، فى تعصبه الشديد أشبه بلينين .

وكان فى شهرته الغبراء — بل السوداء جدا — يمثل حكم اسكندر كله . وهو الذى ألف معظم الأوامر والقوانين التى أصدرت باسم القيصر . وكان نفوذه بالغ الضرر من حيث كونه مربيا لولى العهد نقولا، وبعد ذلك مستشاره بعد أن اعتلى العرش عند وفاة اسكندر (وفاة طبيعية) سنة ١٨٩٤ .

وكان نقولا الثانى أكبر من لينين بسنتين ،فقد ولد فى ١٨ من مايو سنة ١٨٦٨ . وإذ كان وريثاً لحوالى ثلاثة قرون من المجد الإمبراطورى والمآسى والجرائم ، كان، فى خلايا جسمه قليل من كروموزومات أسرة رومانوف .

وفى ضوء ما لكاترين الثانية من حماقات ؛ ليس من المؤكد أن يكون، فيه شىء من هذه الكروموزومات مطلقا . كما أن فى عروقه قليلا جدا من الدم الروسى الحقيقى . وقد تجرمنت الأسرة إلى حد كبير من قبل مولد كاترين . وكانت أم نقولا ماريا فيدوروفنا أميرة دانيماركية ، هى أخت ألكساندرا ملكة بريطانيا . ولم تكن تربيته تربية قومية ، بل كانت عالمية،وكانت ثقافته خليطاً من كل الثقافات. وكانت هذه هى التربية النموذجية فى الأسرات الملكية فى ذلك الوقت ، مع غلبة العنصر الإنجليزى بفضل الملكة فكتوريا . ومع هذا فلم يكن لغيره من القياصرة ما كان له من روح روسية . وعلاوة على ماله من أخلاق الرجل الإنجليزى القح وآدابه ، كان، له فى كثير من تصرفاته الطباع التى دفعتها العبودية والاستبداد عدة قرون فى النفس الروسية . وكان رقيق الشعور عنيداً شجاعا نقى الطوية . غامضاً صبورا (وكان يوم،

ميلاده عيد أيوب) ذا عقل حالم ، وكان تقيا إلى حد الخرافة (أو مخرفا إلى حد التقوى) متقلباً . ضعيف التأثير ، قليل الثقة فى الخرافات . وكان فى مسلكه أشبه بفلاحى أبيه فى ضعفهم وقناعتهم ، ولم يكن فى ذلك أية غرابة، فالفلاح وولى العهد نشأ كلاهما فى ظل الاستبداد ، إلا أن ولى العهد كان إبان تكوين طباعه أقرب إلى الإمبراطور المستبد .

ومع أن اسكندر الثالث كان محبا للنظام إلى أبعد الحدود إلا أنه كما يبدو لم يعامل ولده بقسوة وفق المعايير الفكتورية . ولكنه كان ضخماً قوى البنية ، شديد الثقة بنفسه ، قوى الإرادة ، جليل المظهر ، مما أثر فى الولد الضعيف الوديع (الذى أشير عليه بألا يظهر للكافة إلا وهو ممتط جواده كلما أمكن ذلك ليخفى مظهره الهزيل) ،حتى إنه كان يشعر دائماً أن أباه قاهره وغالبه على أمره . ولا شك أن رؤيته لمقتل جده من قنبلة ألقاها عليه إرهابى كانت شديدة الأثر على أعصابه . وكان نقولا لطيفا فى حديثه ولا يحب المناقشات الحامية أو المعارضة الصريحة . وقلما حدث الغير إلا بما يخالهم راغبين فى سماعه ،وكان لا يطيق أن يستمع من مستشاريه الذين يحيطون به —على مافيهم من ذلة وانكسار — إلا ما يرغب هو فى سماعه .

جاء فى كتاب رتشارد شارك « أضواء خافتة على روسيا الإمبريالية » « . . . . إن الوزير الذى استقبل بمظاهر كاذبة من العطف عرف من مذكرة جاء بها رسول من قبل الإمبراطور فى اليوم التالى أنه طرد ، بل الأدهى من ذلك عرف من الصحف الصباحية أنه قدم استقالته » .

ومن سوء حظ روسيا وحظ السلم فى أوربا أن نقولا كان حاكماً مطلقا عديم الكفاية، ولكنه كان مغررا به على الدوام. وكان عدد من أصحاب النفوذ متآمرين معاً على السيطرة على عقله ، وكان أهمهم زوجته ألكسندرا فيدورفنا من بيت هس

دارمستاد ، أحد بيوتات الإمارات الصغرى الألمانية ، وكانت نشأتها — فى فترة منها على الأقل — فى قصر كنزنجتن لدى جدتها الملكة فكتوريا .

وكان لألكسندرا شعر كستنائى فاتح ، وعينان ذواتا زرقة قاتمة ، وتقاطيع كلاسيكية جامدة ، كان من شأنها أن تضفى على وجهها جمالا جديراً بالأسر الملكية ، لو لم يكن فيها شىء من البرودة . وكانت تتحرك فى رشاقة متكلفة وكانت مشيتها جامدة ثقيلة شبيهة بمشية البقر . ومع أنها كانت فى الثورة الروسية ما كانت مارى أنتوانيت فى الثورة الفرنسية فى بعض المظاهر السطحية ، إلا أنه لم يكن فيها إلا القليل من صفات سيدة فرساى . وكان من صفاتها الجد والخلق الصالح ، وتمتاز بمالها من مبادئ دينية واجتماعية قوية . ومن صفاتها أنها تقدس القيام بالواجب ، وكل هذه صفات تعرض صاحبها لأعظم الأخطار . وكانت علاقتها بنقولا عجيبة وكذلك كانت شخصيتها . كان فيها كما سترى فيما بعد عنصر غير سليم ، بل عنصر مخيف . ولكن كان بين الزوجين علاقة رومانتيكية قوية منحتهما من العظمة والإخلاص مالازمهما طول حياتهما . إن حياتهما كانت قصة عجيبة ، كأنما اشترك فى تأليفها هانز كرستيان أندرسن وتنسى وليامز .

وقد تقابلا فى سانت بطرسبرج فى حفل زفاف إليزابيث أخت اكسندرا إلى الدوق سرجيوس أحد إخوة اسكندر الثالث . وكانت إكسندرا فى الثانية عشرة من عمرها فى ذلك الحين ، وكان نقولا فى السادسة عشرة ، وكل منهما لم ينس هذه المناسبة ، كما أن أحداً منهما لم ينس صورة صاحبه . ولعل نقولا صمم فى ذلك الحين وفى ذلك المكان على الزواج من ابنة عمه الإنجليزية الخجولة غير الرشيقة إذا بلغ رشده ، وكان يظنها إنجليزية .

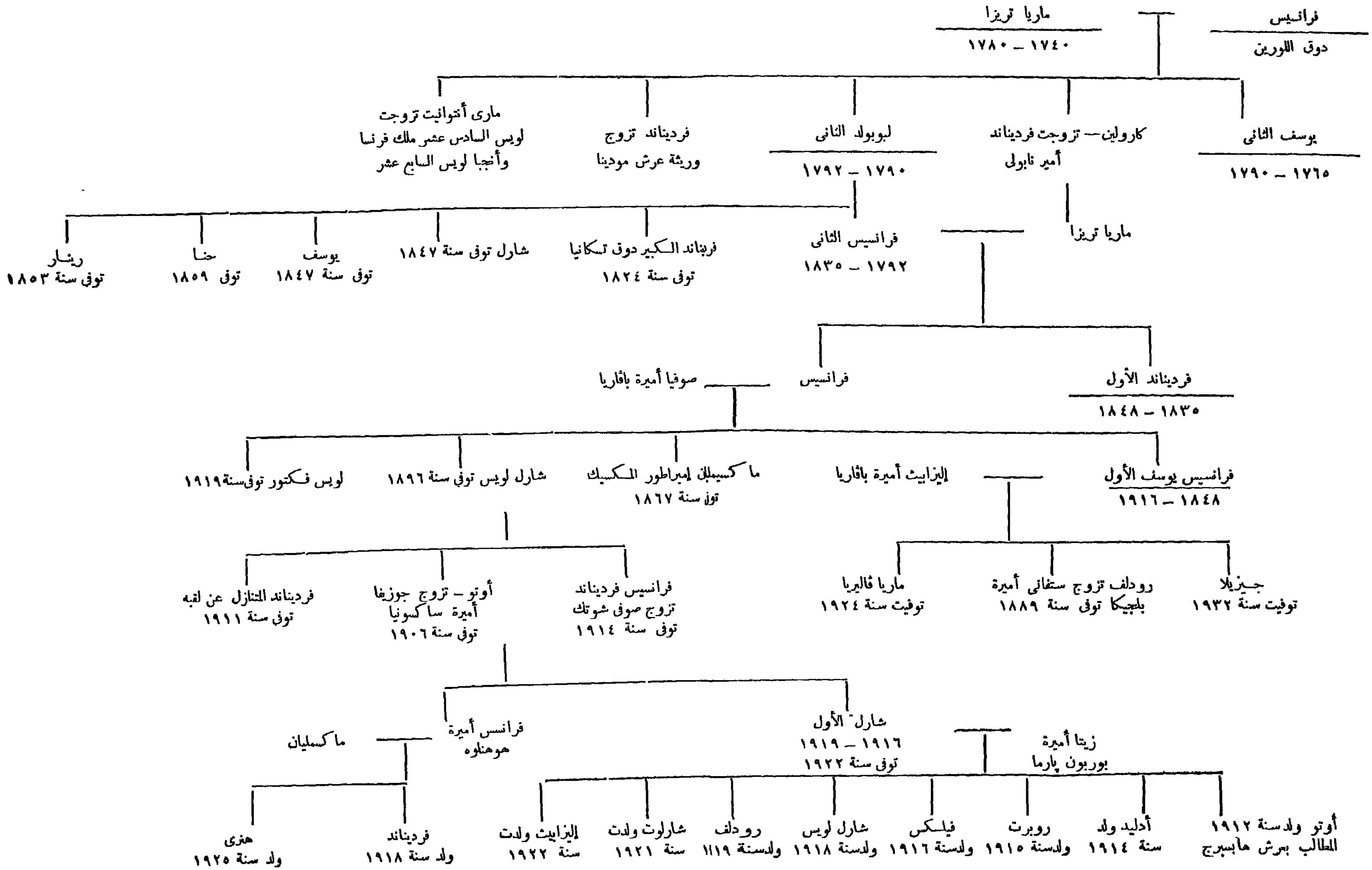
وقد كانت هناك عقبات خطيرة تحول دون القران عندما حان موعد تنفيذه .

فلقد عارض اسكندر الثالث وهو رئيس الدولة المطلق وكبير الأسرة المطلق ، كما عارضت أم نقولا فى هذا القران، وألكسندرا نفسها رغم أنها كانت تحب نقولا من أول نظرة ، إلا أنها كانت غير راضية عن الميل الذى جنح إليه قلبها . إذ رأت فى نقولا شاباً متلافاً ليس له هدف خطير فى الحياة .

ثم إن تنشئتها فى بيت فكتوريا وما راود عواطفها الناضجة من خيال مثالى رومانتيكى (لقد ظلت إلى أن تقدم بها العمر ميالة إلى قصص مارى كوريلى المحترمة)، كانا يثنيانها عن هذا القران التافه الذى لم يكن يهدف إلى غرض نبيل أو أمر جليل . وفوق هذا كان زواجها من نقولا يقتضى التخلى عن ديانتها واعتناق الديانة اليونانية الأرثوذكسية، فلا التفكير السريع ولا الرأى الناضج أقنعها بأن تقبل هذه التضحية أو هذه الهزيمة . ومما قالته ذات مرة لاختها إليزابيث فى شىء من الاعتزاز برأيها عندما تخلت عن ديانتها لزواج الدوق الروسى « ليس الدين قفازا يلبس حيناً ويخلع حيناً آخر » .

وكان من معجزات الحب أن نقولا الضعيف الإرادة المستسلم دائماً للقدر ، صحت عزيمته وقوى تصميمه وتغلب على جميع هذه العقبات. وفى سنة ١٨٩٢ — وكان فى الرابعة والعشرين، وكانت ألكسندرا فى العشرين من عمرها — تحدى إرادة والديه وسافر إلى ألمانيا وتناسى خطاب ألكسندرا الذى كانت بعثت به إليه تقطع علاقتها به إلى الأبد ، وهناك أقنعها بتغيير رأيها . جاء فى مؤلف ا . م ألدنجن من الكتاب القلائل الذين كتبوا عن حياة أقل ضحية فى التاريخ استحقاقاً للعطف والرثاء (الإمبراطورة ألكسندرا) تاريخاً يفيض بالعطف عليها ورقيق الشعور نحوها، هو تاريخ شرحت فيه خضوعها الذى قالت عنه إنه يستحق الثناء من الناحية السيكلوجية، وفسرته تفسيراً جديراً بأن تكتبه ألكسندرا لو أنها هى التى جاءت بهذا التفسير . قالت مس ألدنجن « تقد قبلته أخيراً لأنها تحققت أنها

أسرة هابسبرج لورين



هى — هى دون غيرها — التى تستطيع أن تريه الواجب من الزاوية الوحيدة التى تمكنه من رؤيته . وإن عطفها عليه كان من القوة بحيث تستطيع أن توقظ فيه الخلال الطيبة التى كانت فى سبات وركود . وإنها بزواجها به تستطيع النصيحة والإرشاد . وإنهما فى شعورهما بالسعادة المشتركة يستطيعان أن يقوما بالواجب إلى أبعد مدى . وعندما أنعمت التفكير فى هذه النقاط انتهت إلى أنها لم تخالف ضميرها مثقال ذرة . . . وكانت هذه مشيئة الله وإرادته » .

وليس فى مذكرات نقولا اليومية أية دلالة أو إشارة إلى أن أى شك من الناحية الدينية أو من أية ناحية أخرى فيما تنطوى عليه موافقة ألكسندرا ، أو كانت لديه أية فكرة عن محاولاتها العنيفة لتغيير شخصيته مما لابد قد تناولته فى حديثها معه . . ولقد كتب فى يومياته ببساطة وبأسلوب عادى يعبر عن سروره بخطبتها له « إنه يوم من أيام الجنة لا يمكن أن ينسى . كنت فى حلم سعيد طول اليوم» .

والواقع يمكن أن يقال إنه ظل فى حلم طول حياته ولم يستيقظ ؛ وكذلك كانت ألكسندرا . ثم قرانهما سنة ١٨٩٤ عقب اعتلائه العرش ، ومما كتب نقولا فى يومياته عقب قرانه « كلما انقضى يوم أحمد الله وأشكره من صميم قلبى للسعادة التى غمرنى بها » ، وأضافت ألكسندرا بعد يومين « ما كنت أتصور مطلقاً أن يكون فى الدنيا مثل هذه السعادة ولا مثل ذلك الشعور بالوفاق بين شخصين » .

وفى أثناء الخطبة وقبل القران بدأت تقرأ ما فى يوميات خطيبها ، حتى لا يكون بينهما (تحفظات) ، وربما أضافت بخطها ما عن لها من حين إلى آخر . وأغنية الحب الثنائية التى سجلها القيصر فى مذكراته وفى رسائل القيصرة إليه ظلت

تتردد أنغامها خلال ثلاثة وعشرين سنة من الزوجية ، تتخللها من وقت إلى آخر أغنية جماعية إذ أصبح لهما أربع بنات وولد ضعيف، هو ألكسيس الذى كان المرض الذى ورثه هو النقطة السوداء الوحيدة — الكثيفة — فى النعيم الذى يهنأ به الزوجان الإمبراطوريان .

وفى أيام عزوبته كان نقولا شاباً مرحاً محباً للاجتماع ، يقضى كثيراً من وقته فى الرقص والميسر واللهو مع أصحابه الذكور . وسرعان ما بدله الزواج شخصاً آخر . و لألفة الروحية بين الزوجين مدى السنين أصبحت وحدة نامية بين الزوج والزوجة والأبناء فى عيشة أقرب إلى الحياة الريفية البعيدة عن الأعباء المدنية ، فى قصر جاتشينا خارج العاصمة أو فى زاركو سيلو التى كانت أشبه بفرساى فى حياة كاترين العظمى . ونجحت ألكسندرا بشكل ما فى أن تجعل الأجنحة الخاصة بهما فى القصر أشبه شىء بالكوخ ، الذى يقضى فيه متوسطو الحال من الإنجليز شهر العسل ، وزينته بأثاث مصنوع من الخيزران وزينات من الخرز . وقلما كان نقولا يزور العاصمة . وكان يقضى كل وقت فراغه فى حجرة أولاده ومخدع زوجته وحجرة طعام الأسرة ، التى قلما يدعى إليها الزوار الرسميون ، والتى فيها الأعمال الحكومية محرمة . وكان يقضى الأمسيات عادة فى القراءة — وبخاصة القصص الإنجليزية — على مسمع من ألكسندرا التى كانت لا تهوى مجتمع بطرسبرج ، إذ كانت تراه تافهاً سوقياً غير أدبى ، ولعله كان كذلك فعلا . ونقصت الحفلات الرسمية فى عهد نقولا إلى أدنى حد ، وألكسندرا كانت دعواتها للغداء العادى نادرة كذلك . هذا ولو أنها كانت تردد على الدوام قانون واجبات الحكم المطلق لزوجها المتساهل ، فيبدو أنها كانت هى تمقت كل شىء بما فى ذلك واجبات الدولة المقررة التى كانت تلهيه ولو قليلا عن أسرته . وهكذا نرى أن ألكسندرا ولو أنها قوت وأصلحت خلق زوجها ، إلا أنها شجعت فيه العزلة عن رعيته التى كانت إحدى عيوبه الخطيرة كحاكم للبلاد .

ومن عجب — مع ذلك — أن أكبر نصيب لألكسندرا فى سقوط أسرة رومانوف لم يكن فى محاولتها تقويم أخلاق زوجها بقدر نصيبها الجبار فى تعديل أخلاقها ، وفى محاولتها الملاءمة بين نفسها وبين بلادزوجها وثقافتها، وكانت تبذل الجهود العنيفة لتكون روسية مما كان يثير الضحك . وفى تغييرها عقيدتها اللوثرية الصميمة واعتناقها الدين الأرثوذكسى بما فيه من المظاهر الدنيوية الخلابة ، اتبعت فى الوقت نفسه كل ملحقاتها الإضافية من خرافات ودجل دينى مما يروق النفس السلافية وتقع فريسة سهلة له . وعندما تخلت عن اللبرالية الإنجليزية التى نظرت يوماً ما بعين السخط إلى أسرة زوجها ، لم تكن قد قبلت مبادئ الحكم المطلق فحسب ، بل احتضنتها بحماسة قوية كانت أليق بالعصور الوسطى حتى فى نظر الروسيين . ومما قاله تروتسكى عنها « أنها اتبعت فى شىء من العنف البارد كل تقاليد القرون الوسطى الروسية ومعتقداتها مع أنها أسخف من مثيلاتها فى سائر البلاد فى ذلك العهد . فعلت ذلك فى هذا العهد الذى يبذل الجميع جهوداً جبارة للتخلص منها » . وهى بهذا قد شحنت عقل زوجها بنفوذ قوى خاطئ سبق أن قام بمثله مستشار أبيه العجوز بوبدونوستسيف .

وأستاذ نقولا الذى كان من قبل أستاذاً لأبيه اسكندر الثالث لم يكن رجعياً متحمساً فحسب، بل كان فيلسوف الرجعية .

ولد فى عام ١٨٢٧ وقضى حياته فى الطعن فى الثورة الخاطئة — ثورة سنة ١٧٨٩ الفرنسية . وكان أعداؤه — اتباع المعقول والتقدم والحرية الشخصية والنظم النيابية والمبادئ الدستورية ، وأشدها عداوة عنده سيادة الشعب « المبدأ الخاطئ القائل بأن الشعب مصدر السلطات » . وكان عاجزاً عن أن يرى أو على الأقل أن يفهم ما كان فى الحركة الثورية الروسية من الاهتمام بالاشتراكية العلمية أكثر من الحقوق الإنسانية ، كما كان عاجزاً عن رؤية النمو المستمر فى الفوضوية واللينينية

القادمة ، وما يصحبهما من تشاؤمهما البارد الشبيه بتشاؤمه الذى يستشعره ، والميل الواضح نحو الدكتاتورية ،وإن كان أقل صرامة من ميله إليها .

ولقد كان بوبدونوستسيف هو الذى أنشأ أول تصريح سياسى لنقولا عقب أعياد العرش مباشرة ، وكان فيه لوم شديد ، رداً على إحدى رسائل التهنئة الواردة من أحد المجالس المحلية التى تألفت بناء على قانون الإصلاح الذى أصدره اسكندر الثانى . إذ كان فيها الجرأة على أن تتضمن نقداً مقنعاً لتصرفات الشرطة الظالمة وتوسلا بسيطاً بزيادة اشتراك المجالس المحلية فى الأعمال العامة . وفى هذا الرد وفوق توقيع نقولا كتب بوبدونوستسيف « أحلام سخيفة » كما أضاف أن القيصر متمسك بمبادئ الحكم المطلق « بشدة وبلا تردد » .

ونظرية بوبدونوستسيف فى الحكم المطلق التى اتخذها نقولا مبدأ له بغير منازع كانت تقوم على بعض معميات الدين ، وخلاصتها التى فسرها أحد أتباع بوبدونوستسيف إلى السفير الفرنسى كما يلى :

« إن القيصر قد باركه الرب وأرسله حارساً أعلى للكنيسة وحاكماً أسمى للامبراطورية . وحيث إنه تلقى سلطانه من الله فهو مسئول أمام الله وحده . . . والنظام النيابى مروق وتفكير سخيف » .

وفى روسيا الحديثة إبان القرن العشرين كان لا مفر من أن تدفع المبادئ البيزنطية الحديثة الأحرار إلى صدام خطير مع المحافظين فى أقصى اليسار . وفى سنة ١٩٠٤ أسس عدد من نواب المجالس المحلية الأحرار سراً اتحادا عاماً للتحرير ، وهو حدث تاريخى ينذر بما سيحل فيما بعد بالحكومة الملكية . وحتى من تلقوا تعليمهم فى الغرب من مؤيدى الحكم المطلق من المهندسين والإداريين ورجال

الأعمال الذين يمكن أن يرجوا بتطوير الحكم المطلق المبنى على أسس ومبادئ أقل إيغالا فى القدم، كانوا موضع سخط ولم ينالوا أى تشجيع .

ونقولا الثانى — مدفوعاً بتشجيع ألكسندرا — غلا فى تطبيق مبادئ أستاذه إلى مدى انتحارى باستمساكه بالمعنى الحرفى لحقوقه وواجباته بوصفه ملكا مطلقاً . ولقد شكا بوبدنوستسيف ذات مرة من أن التقاليد المتبعة فى بلاط آل رومانوف كانت تمنعه من اختيار تلميذه، ولكن ما عليه من ذلك . فإن تصرفات نقولا أظهرت أنه قام بواجباته المنزلية بأمانة وصدق . ولما أصبح قيصرا لم ينفذ هذه السياسة على هواه فحسب بل كان لا يثق فى أحد غيره فى تنفيذها . وكان يرى الوكالة من صاحب السلطان مخالفة لمبادئ الحكم . وكان يغار من الموظفين الذين ينجحون نجاحاً كبيراً فى تنفيذ ما أمرهم هو بتنفيذه ، وحاول أن يحكم إمبراطوريته فى القرن العشرين مع ثقل أعباء الحكم فيها وسعة حركة التصنيع إلى حد الفشل وتعقيد العلاقات الخارجية بنفس الأسلوب الذى جرى عليه بطرس الأكبر فى القرن السابع عشر . وصمم على ألا يستعين بسكرتير خاص ، على أن يقوم هو بإغلاق الظروف التى يبعث فيها بالمكاتبات الرسمية . وكان لهذه التصرفات فى أداء الأعمال أكبر الأثر فى الفوضى المزمنة فى الأعمال الحكومية ، بل فى الشلل التام الذى أصابها والذى كان عاملا مهماً فى سقوط أسرة رومانوف سقوطاً لم تقم لها قائمة بعده .

ولم تكن الألاعيب السياسية الأخرى التى بثها بوبدنونستسيف فى عقل نقولا وكيف بها سياسته أخف خطراً فيما يترتب عليها من آثار . منها مسألة الجنسية الروسية العامة التى دخلت فى نطاق تحديد الجنسية السلافية ، إذ رأى هو ونقولا أن أغلبية الشعب المتوطن فى روسيا الأوربية هم الجنس المتفوق فى الإمبراطورية،

وسائر الأجناس الأخرى ولو كانت من العنصر السلافى النقى من العناصر الدنيا ، وبخاصة إذا لم يكونوا تابعين للكنيسة الأرثوذكسية .

ولم تكن العنصرية معترفاً بها بصراحة ، ولكن عدم التسامح الدينى كان من مقومات الدولة الرسمية . بذلت محاولات عديدة للتخلى عن العقيدة الكاثوليكية فى بولندا وعن البروتستانتية فى فنلندا ومحاولات أخرى لتبديل عقيدة فريق من المعتزلة فى سيبيريا عرفوا باسم « المؤمنين القدامى »، والمسلمين فى وسط آسيا . وكان اليهود فى أسفل الدرج، كما كانت مقاومة السامية إحدى النظم الرسمية المتبعة فى الدولة، على أنه كان فى وسع اليهود تجنب الاعتداء عليهم باعتناق الأرثوذكسية .

ومما زاد نقولا صرامة المرسوم الذى أصدرته كاترين فى تخصيص منطقة خاصة لليهود عند الحدود الغربية ، كما كان يتغافل عن قتل اليهود جماعات ، مما كان يتكرر حدوثه كثيراً بما يثيره المتعصبون أو العامة ضدهم من حين إلى حين . وهذه التصرفات جعلت من العسير على هذه الأسرة أن تتبع سياسة مقاومة الجماعات المختلفة بعضها لبعض ، وهى السياسة التى أعانت أسرة هابسبرج والأسرة العثمانية على عدم تفتت إمبراطوريتهما .

وفى نفس الوقت فكر القيصر وأستاذه دون أية مناسبة — فى إنشاء « روما ثالثة » (وكانت بيزنطة هى روما الثانية) : منطقة متسعة من القيادة الروسية تمتد من جبال البلقان إلى بحر الصين .

وبدأ تنفيذ الفكرة بأن تناول حديثه الجاد ضم منشوريا ومنغوليا والتبت وإخضاع الصين لسيادته وإخراج البريطانيين من الهند .

شجع القيصر على هذا التوسع الخيالى عدد من مغامرى الشرق الأقصى ،

كما شجعه ابن عمه غليوم الثانى لأنه كان بطبيعة الحال يفضل تحويل الروس الطامحين فى التوسع إلى الشرق لا إلى الغرب .

ويقول غليوم فى رسالة بعث بها إلى نقولا سنة ١٨٩٥ « إن مهمة روسيا العظيمة لبناء مستقبلها هى فى النهوض بقارة آسيا وحماية أوربا من غزو الجنس الأصفر العظيم ».

وفى مرة أخرى بعث إليه صورة زيتية وضع هو خطوطها الأولى تمثل بوذا يشرف على إيقاد حريق كبير فى الشرق الأقصى ، كما تمثل روسيا وألمانيا حارستين للدين الصحيح . وفى مذكرة تفسيرية كتب غليوم عن هذا الرسم « لقد وضعت تصميم هذا الرسم فى أسبوع عيد الميلاد فى أضواء شجرة عيد الميلاد ».

وهذه الصورة الخيالية للشرق الأقصى هى التى أدت آخر الأمر إلى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ التى أثارها اعتداء الروس على كوريا . وفكرة شهر «حرب قصيرة منتصرة» بتعبير أحد الوزراء الروس ، قد يكون من ورائها منع قيام أية ثورة فى روسيا ، كما أنها تتفق مع موقف روسيا فى ميلها إلى الحروب . ولكن توالى الهزائم الروسية المذلة فى البر والبحر وبخاصة ما صحبها من الأخطاء والفوضى والرشوة كانت هى الضربة القاضية على ما للأسرة الملكية من مكانة . عند ذاك أخذت الاضطرابات والثورات وغيرها من ضروب الفوضى تنتشر فى جميع أنحاء البلاد .

ويعد بعض المؤرخين « يوم الأحد اللعين » التاسع من يناير حسب التقويم الأورثوذكسى مبدأ ثورة سنه ١٩٠٥ ، وقبل ذلك بثلاثة أيام رأى وبربولر السائح الشاب محاولة قتل القيصر فى أثناء الاحتفال ببركة المياه ، وقد رأى أيضاً على القرب المنظر الأخير من هذه المأساة الكبرى .

قال يصف الصورة التى رآها « عندما اتجهت إلى الشارع الموصل إلى

القصر الشتوى ، رأيت طوفاناً من الناس يتقدمون ببطء فى موكب صامت رهيب ما بين أسود وأشهب ، وأسمر وكان الرجال يلبسون قبعات مخروطية ، أما النساء فكانت رءوسهن مغطاة بمناديل قاتمة . كان هؤلاء الناس المجهدون الشاحبو الوجوه هم عمال فى مصانع الحديد ومصانع المطاط ومصانع كرونستاد . آلاف وآلاف من أفراد الطبقة العاملة الذين عانوا عدة أجيال من سوء التغذية، والإفراط فى الشراب والزهرى .

وكان يسير فى المقدمة كاهن فى عباءة سوداء هو البابا الأرثوذكسى . ماشياً بين رجل مسن ذى لحية بيضاء وامرأة فاتنة الجمال تدل ملامحها على أنها يهودية . وكان الكاهن قصيراً ذا لحية سمراء ضعيف البنية صغير السن . وفى يده إيقونة كبيرة عليها صورة المسيح .

وعلى مرأى من القصر الشتوى — ذلك القصر الذى واجهته فى لون الدماء المتجمرة ركع الكاهن فى الثلج هو وأتباعه والصفوف الأمامية من هذا الحشد الكبير ، ثم وقف سير الموكب .

وعلى حين فجأة اندفعت فصيلة من المشاة إلى الميدان واصطفوا أمام الحشد الراكع ، ثم صدر الأمر «استعد ! أطلق النار». وأعقب دوى طلقات القنابل ارتباك هائل . سقطت الصفوف الأمامية ، ووقف غيرهم على أقدامهم وولوا الأدبار ، وكانت اليهودية الحسناء من أوليات الضحايا ، وهرب بولر من أحد الشوارع الضيقة يدفعه الحشد أمامهم . وكان آخر ما رآه منظر القوازق وهم يهجمون بينما تقع كرابيجهم على الجمع المحتشد » .

ويروى غيره من المشاهدين تفاصيل الحادث فى صورة مخالفة . ولا خلاف بين الجميع فى الأحداث الهامة : حشد هائل من العمال (حوالى ٢٠٠٠٠٠ يتقدمون

فى خمسة صفوف مختلفة) تحت قيادة القسيس الأورثوذكسى ، ويتجهون عبر الشوارع الخمسة التى تنتهى كلها إلى القصر الشتوى . والجموع المحتشدة كانت تسير فى نظام وهدوء . وكثير من المتظاهرين كانوا يحملون صور الإمبراطور وينشدون النشيد الإمبراطورى « حفظ الله القيصر » . والجنود بعد أن أصدروا الأمر الذى يقضى به الواجب الرسمى بالتفرق ، أطلقوا الرصاص على الناس الذين قتل منهم ٥٠٠ قتيل على الأقل ، كما وقع على الأرض بضعة آلاف جريح .

والصورة الخلفية لهذه المذبحة التى أقيم على أشلائها حاجز ملطخ بالدماء بين جموع الشعب الروسى والأسرة الملكية تمثل منظراً مألوفاً جديراً بأسرة رومانوف، يجمع بين القتل والفوضى والمكيافيلية . والقسيس الذى كان يقود المشاة واسمه جورج جابون كان سابقاً رجل الدين فى أحد السجون ، واشتهر بأنه منظم العمال، وكان رئيساً لمنظمة خيالية تسمى جمعية المصانع والآلات الروسية ، وكانت تحصل على إعانة من هيئة الشرطة السياسية السرية على أمل إحداث الفرقة فى الحركة العمالية .

وفى مرة أخرى بعد تدبيره إضراباً ناجحاً فى مصنع بوتيلوف للصلب اختاره أتباعه لقيادة مظاهرة كبيرة تتقدم بالتماسات إلى القيصر ، وكانت الالتماسات تشمل عدة مطالب سياسية جريئة ، بل مطالب ثورية إذا نظرنا إليها من زاوية الأسرة القيصرية كحق الحرية وقيام الحياة النيابية . وكانت ضخامة هذه المطالب فى ذاتها مما يهدد النظام العام فى عاصمة البلاد وقت الحرب .

ويعتقد بعض المؤرخين أن جابون هذا ـ وهو صاحب الشخصية الروسية التى تجمع بين المثالية الخيالية ونزعة الجاسوسية التى فطر عليها ـ حمله بعض العملاء الثوريين السريين على المضى فى طريق الثورة إلى مدى أبعد مما كان ينبغى . ولقد روى

أحد كبار رجال الشرطة فى شىء من الاعتزاز إلى باليولوج الذى صار سفيراً لفرنسا فيما بعد ، أنه ساعد جابون فى كتابة التماسه الخطير. ولو كان صادقاً فيما رواه فليست هذه هى المرة الأولى ولا الأخيرة التى يثير فيها الشرطة الحركات الثورية ليلقنوا الشعب درساً قاسياً عند قمعها. وسواء أكان «الأحد اللعين الدموى » من تدبير عملاء الشرطة أم لم يكن من تدبيرهم ، فلقد كان من الممكن تفاديه لو لم تعطل القرارات التى اتخذتها الحكومة فى اليوم السابق، إما عمداً وإما بسبب الفوضى الإدارية فى أعمالها . وكان من الإجراءات الحكيمة التى اتخذت أن القيصر وأسرته انتقلوا من القصر الشتوى إلى زارسكو سلو ، وهو مكان يبعد ستة عشر ميلا عنه ، وبذلك أصبحت مظاهرة العمال لتقديم مطالبهم عديمة الفائدة، وقد أصدرت الحكومة التعليمات أن يذاع هذا الخبر ، ولكن التعليمات لم تنفذ وتظاهر العمال لجهلهم بغياب القيصر . ثم إن الأوامر الحكومية لمنع المظاهرة لم تبلغ ، وعلى هذا الأساس تجمعت المظاهرة فى الضواحى. وسارت سيرها المرسوم .

إن اللعنة التى حلت برومانوف لاتزال قائمة . أما ما انتهى إليه أمر جابون ، فقد نجا من المجزرة ، وهرب من البلاد ، وانضم إلى أحد فروع الحزب الثورى الاشتراكى للمهاجرين ، وأعان على مد رجال ثورة سنة ١٩٠٥ بالمدافع ، واستأنف العلاقة بأصدقائه القدامى من رجال الشرطة وحكم عليه بالإعدام زملاؤه الثوار. وأخيراً مات خنقاً فى أحد البيوت المنعزلة فى فنلندا . ولقد كان ليوم الأحد الدموى أثر فى نفوس جيل من الناس لا فى روسيا وحدها بل فى سائر أنحاء العالم المتمدين. ففى الولايات المتحدة أحس مارك توين — وهو الكاتب المشهور بدماثة الخلق — أحس بدافع قوى إلى أن يدعو فى كتابه الشديد اللهجة « مناجاة القيصر » إلى الثورة وإلى قتل القيصر ، كما وجه شديد اللوم إلى الكتاب الأخلاقيين الذين

لا يرضون عن الأعمال الثورية القاسية التى يعامل بها الحكام المستبدين . كما لاقت مؤلفات أخرى مماثلة فى حججها وتحريضها آذانا مصغية فى عدة من الأشهر بل من السنين التالية .

وبعد وقوع مذبحة القصر الشتوى بوقت قصير — وإلى حد ما نتيجة مرتبة عليها — حدثت مأساة ثانية كان لها أيضاً تأثير بعيد المدى فى العلاقة بين الأسرة والرعية . إذ ألقى أحد الطلبة الثوريين الاشتراكيين قنبلة شديدة على عم القيصر — الدوق سرجيوس ، الحاكم العسكرى لمنطقة موسكو ، عندما كانت عربته تجتاز مدخل قصر الكرملين فمزقت جسمه إربا . وكان سرجيوس معروفا بسوء معاملته لليهود والمتعلمين، ولم يكن محبوباً عند عامة الشعب، فلا عجب أن التقطت على مسافة غير قصيرة من موضع الانفجار بعض الأشلاء البشعة تذكاراً للحادث ، وبيعت فى اليوم التالى فى سوق اللصوص فى موسكو بروبل للقطعة الواحدة على ماذاع بين الكافة فى ذلك الحين .

وتلقى نقولا الأنباء وهو فى أحد قصوره خارج بطرسبرج وهو على أهبة الغداء مع أحد ضيوفه الأمير الشاب فردريك من البيت الإمبراطورى البروسى . ولم تظهر القيصرة حينذاك ، أختها الكبرى إليزابيث كما نعلم أرملة الدوق المقتول . وصمم القيصر على المضى فى الغداء ، بل كان مرحا على ماروواه الأمير فردريك فيما بعد فى أحد خطاباته للمستشار بيلوف . وكذلك كان ضيفه الثانى وصهره الدوق اسكندر، ولم تجر المجزرة على لسان أحد منهم . ومما رواه بيلوف فى مذكراته أن الإخوة كانوا يتسلون بأن يدفع بعضهم بعضاً من الأريكة التى كانوا يجلسون عليها .

وما بدا من دهشة الأمير فردريك يدل على أنه لم يكن من تلاميذ فرويد

ولا من تلاميذ دستوفسكى . وقد لا يكون نقولا على صلة طيبة بعمه الغليظ القلب ، ولكن هزله السمج مع صهره بعد مقتل عمه الشنيع ببضع ساعات لا يدل إلا على عدم الاكتراث . إن القنبلة التى ألقاها القاتل وقعت على مقربة من العرش كما أنها أثارت كوامن ذكريات الطفولة الأليمة . (أما أثر الحادث فى الدوقة إليزابيث وفى القيصرة التى كانت تدين بالأرثوذكسية فكان غير ذلك. لقد قضت معظم الليل فى حجرة قاتل زوجها وهو شاب نحيل يدعى كالاييف ترجوه عبثا أن يطلب المغفرة من الله ومن القيصر) .

ولم يكن نقولا على علم بالدور الذى لعبته رجال شرطته فى مقتل الدوق سرجيوس ولا فى حادث يوم الأحد الدموى ، لأن الحقيقة لا تظهر إلا بعد مرور عدة سنوات . ولقد قوى حادث موسكو نزعته الموروثة من ميل إلى الاعتماد على الجلد والشنق والرصاص لدعم سلطانه المطلق . ومما كتب إلى أمه فى خطاب وصل إلى أيدى البلاشفة ونشروه بعد الحرب (الإرهاب لابد أن يقابل بالإرهاب) .

وظل الطرفان يقف كل منهما موقفاً صارماً إبان الخصومات الثورية سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ . ولكن الخصومة بينهما حينذاك لم تبلغ مابلغته فى المدة مابين ١٩١٧ إلى ١٩٢٠ من الصرامة والشدة . وقد بلغ عدد القتلى من موظفى الحكومة حوالى ١٥٠٠ قتيل فى أثناء الاضطرابات والثورات — ويشمل ذلك من قتل فى السفينة الحربية بوتمكين عند ماتم الاستيلاء عليها — والاضطرابات التى عمت البلاد والتى بلغت أقصى شدتها سنة ١٩٠٥ . ولا يوجد إحصاء رسمى لمن قتل من رجال الثورة أو رمى بالرصاص فى هذه المدة نفسها .

وأشد الاضطرابات التى كان لها الطابع العام للثورة كانت ثورة الفلاحين

التى نشبت بمنتهى العنف فى جميع أنحاء روسيا دون أدنى اتفاق بين الثائرين.
وكانت مراجل غضب الفلاحين تغلى — ٨٠٪ منهم أميون — عدة سنين متوالية.
ولم يكن الإصلاح الزراعى الذى جاء به اسكندر الثانى منفذاً على وجه مرضى.
فأثمان الأرض كانت على أقساط كبيرة، والأرض المقسمة ضعيفة فى أغلب الأحيان.
ثم إن توالى نقص المحصول أدى إلى المجاعة والمرض. وبينما كانت أثمان المحصول منحطة ظلت الضرائب مرتفعة، ولم تكن المجالس النيابية أو الحرية الشخصية موضع اهتمام الفلاحين، وإنما كان يهمهم الأرض والإعفاء من الضرائب وتأديب الموظفين المحليين الذين أذلوهم وأساءوا معاملتهم. فما إن أثارهم الثوار الاشتراكيون بما أذاعوا من نظريات سياسية عرفوا كيف يضربون بها على أوتار قلوبهم، حتى حمل كل منهم بندقيته ومذراته واندفعوا راكبين رءوسهم. وعمت الفوضى مديريات بأكملها وانتشرت فى كل مكان حمى القتل والنهب والسرقة وإشعال الحرائق.
وكان الشعار العام لهذه الجموع الثائرة (الديك الأحمر الديك الأحمر). ومن قلب سيبيريا إلى الحدود الغربية كان هذا الطائر المشئوم ينشر أجنحته فوق مراكز الشرطة وإدارات الضرائب وعلى مخازن الغلال وحظائر الأغنياء من الملاك وقصور النبلاء فى الريف. وفى كثير من أنحاء البلاد كان ينهب كل ما لدى الأغنياء من مال، وكانوا يتعرضون أحياناً للاهانة أو التهديد، ولكن قل وقوع حوادث القتل بينهم. كانت ثورات الفلاحين هذه نوعا من الحرب الطبقية فى القرن العشرين ولكن الكراهية الشديدة بين الطبقات فى روسيا لما تبلغ حينئذ أشد درجات الوحشية.

وفى المدن الروسية لم تكن الحركة الثورية فى الغالب فى مثل هذه القسوة، ولكنها لم تقل عنها خطراً. وتخلت الأحزاب الاشتراكية مؤقتاً عن الخلافات المذهبية التى بينها. وفى بطرسبرج انضم إليها الدستوريون المعتدلون وائتلفوا جميعاً

فى جمعية ضد النظام القائم وأسموها السوفييت ، وأصبحت هذه التسمية هى الشعار الثورى . وفى سائر الأنحاء كان الثوريون الاشتراكيون الذين تمتد جذور حركتهم إلى الفلاحين أخطر أعداء الحكم المطلق . أما فى العاصمة فقد لعب الدور الرئيسى على مسرح الأحداث الديمقراطيون الاشتراكيون الماركسيون بما فيهم البلاشفة من أتباع لينين . ولو أن لينين لم يكن معضداً للحركة من الناحية النظرية . فقد عاد من المنفى ليتمكن من إدماج سوفييت بطرسبرج فى الثورة العامة . ولم يكن نصيب لينين الشخصى فى أحداث سنة ١٩٠٥ مساويا لما قام به شاب من أتباع ماركس المثقفين يدعى ليون تروتسكى ، الذى لمع اسمه لأول مرة فى ذلك الوقت بين ملايين العمال الروسيين . وكان تروتسكى ابن أحد الفلاحين اليهود متوسطى الحال ، وكان متفقاً مع لينين فى كثير من نظرياته ، ولكنه لم يقبل أن ينضم إلى أحد الطرفين فى النزاع الذى نشأ بين البلشفيك والمنشفيك (الأقلية) ، وكان كل من الفريقين لايزال يعتبر من الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ذلك الحين من الناحية النظرية ، كما أنه لم يكن مقربا إلى لينين حينذاك . وكانت سنه إذ ذاك ستة وعشرين عاما ويضع على عينيه نظارتين سميكتين ، وكانت له خصلة غير منتظمة من الشعر ، وكان منظره هذا مادة دسمة للرسم الكاريكاتورى ، ولكنه برهن فيما بعد على أنه يجيد العمل والتفكير والخطابة . وفى أثناء اضطلاعه بوكالة السوفييت فى بطرسبرج (وكان الرئيس محامياً مغموراً من حزب الأقلية) سرعان ما أصبح القائد البارز فى سنة ١٩٠٥ للحركة الثورية فى روسيا . وكان يساعده أحد المهاجرين الأكفاء ويدعى اسكندر هلفاند ، واسمه السرى بارفس . وبينما كان هذا يدبر الدسائس ليجعل الشعب مصدر السلطات نجح فى أن يكون من الناشرين النابهين ورجال المال فى ألمانيا . ثم صار تروتسكى بمعونة بارفس رئيس حركة الأحزاب العام الذى انتشر فى كل أرجاء البلاد بعد توقيع الاتفاقية المهينة مع اليابان فى سبتمبر ، والذى أدى إلى قرب طرد القيصر من العرش .

وكلما كانت الأحداث أشد إنذاراً بالثورة كانت أعمال القمع أشد ضراوة وقسوة . ثم جاءت اللحظة الحاسمة — فى أكتوبر — عندما رأى نقولا أنه إما أن يعين دكتاتوراً حربياً له سلطان مطلق ويكلف بإعادة النظام فى البلاد، وإما أن يسلم برغبات المطالبين بالحياة الدستورية . وكانت الدكتاتورية فى رأيه أخف الطرفين. ولكن الدكتاتور المناسب الوحيد ابن عم القيصر الدوق نقولا نقولافتش لم يقبل، بل قيل إنه هدد بالانتحار إذا هو أجبر على ذلك . ولم يكن أمام القيصر — كما قال لأمه — إلا (أن يمنح كل إنسان مايطلبه) ، وفعلا فعل القيصر ذلك ، ولكنه منح مامنح وهو يضمر شراً . لقد أصدر بياناً رسمياً — وضع معظمه الكونت ويت أحد المحافظين المتزنين — جعل من روسيا دولة فى المرحلة الأولى من الحياة النيابية : الحرية فيها مكفولة ، والانتخابات حرة ، فيها مجلس نيابى له سلطة تشريعية أساسية . وعين ويت أول رئيس للوزراء فى روسيا الحديثة على نمط مايتبع فى البلاد الغربية . وفى نفس الوقت عين الجنرال تريبوف — وهو الرجل الصارم الشديد البطش — محافظا لسانت بطرسبرج ورئيساً للحرس الإمبراطورى ، وجعله بحكم الواقع قائداً للجيش . وبينما كان ويت يعمل بنجاح إلى حد ما لإيقاع التفرقة بين الثائرين ويضم اليه المعتدلين ، كان نقولا وتريبوف يشنان الحملات التأديبية فى البلاد . وكانت إحدى هذه الحملات بالغة القسوة برياسة الجنرال أورلوف فى المنطقة البلطيقية ، ووصف القيصر ما قام به أورلوف هناك (بأنه عمل عظيم) .

وبجانب الضغط الحكومى كان نقولا يجد تشجيعاً من بوبدونوستسيف والأمير فلاديمير مشرسكى على تكوين جماعات موالية للعرش عرفت فيما بعد بجماعة (المائة السود) مهمتها حماية العرش بالضرب والنهب وقتل اليهود . وكان نقولا راضياً جداً عن قتلهم . ومما كتبه لأمه « إن تسعة أعشار المصائب من اليهود » . وكان لمثل هذا تأثير فى الغوغاء ، وتسبب عنه القتل (بالجملة). ومن

كلمات القيصر التى تدل على سذاجته «من العجب العجاب أن هذا القتل الجماعى حدث فى جميع أنحاء روسيا وسيبيريا دون أى ترتيب خاص ». ولقد غرست بعض المبادئ الأساسية للاشتراكية الألمانية فى روسيا عام سنة ١٩٠٥ ، ويعتبر الراديكاليون الروس أمثال مشرسكى الآباء الروحيين لأصحاب النظرية النازية الألمانية مثل جوبلز وروزنبرج .

وفى بعض الظروف كان القيصر ينقاد إلى مستشارين أعجب من هؤلاء بتحريض من زوجته ذات المعتقدات الغريبة . كأمثال الطبيب الروحانى الفرنسى المعروف فى الأوساط الروسية باسم بوبس . وفى إحدى الجلسات التى هيئت له مع القيصر والقيصرة أمكن الطبيب الروحى أن يعقد جلسة روحية . وعرف ما تم في هذه الجلسة على لسان إحدى سيدات البلاط الروسى على النحو الآتى :

أمكن الأستاذ الروحى بقوة إرادته أن يستحضر روح القيصر الصالح اسكندر الثالث . ورغم الرعب الذى استولى على نقولا الثانى سأل أباه فى شىء من البلاهة هل يقاوم حركة التحرر السائدة فى البلاد والتى تهدد العرش أم لا يقاومها . فأجابت الروح « على أى حال يجب أن يقضى على الثورة الآن فى أول قيامها . ولكنها ستقوم قائمتها من جديد ، وستكون ضراوتها متناسبة مع الشدة التى تقاوم بها اليوم ولكن ماذا يهم : كن شجاعاً ياولدى ولا تستسلم » .

وبذل نقولا ما فى وسعه فى تنفيذ تعليمات والده — إذا صدقت الرواية . فحزب السوفييت الذى هجره المعتدلون أعلن أنه خارج على القانون وقبض على تروتسكى وبارفس (وفر لينين إلى فنلندا) . ومن صغار الحزب قبض على شاب ثورى اشتراكى يدعى اسكندر كرينسكى . وعندما أرادت موسكو أن تقوم بثورة

انتقامية غرقت فى بحار من الدماء (قتل أكثر من ألف عامل) ، ولو أن الثوريين الاشتراكيين كانوا فخورين بما أحرزوه من مجد بأن نسفوا المركز العام للشرطة وأعقب ذلك كثير من الأعمال التأديبية فى جميع أنحاء الإمبراطورية بما فيها حركة تطهير المصالح الحكومية التى فقد فيها أكثر من ٧٠٠٠ موظف أعمالهم .

ثم كانت حركات القمع عدة سنين تتناوب مع فترات الهدوء ، وكان يعين وزراء أحرار ثم يعزلون وتتخذ سياسة الإصلاح ثم توقف أو تؤجل وينتخب أعضاء المجلس النيابى (الدوما) ثم يعطل ثم ينتخب ثانية . ويبدو لأول وهلة أن الأحرار المعتدلين خرجوا منتصرين من معركة سنة ١٩٠٥ حيث قد بلغوا غرضهم وهو الحكم النيابى ، ولكن نصرهم كان وهمياً . فقد نالوا رضى اليمينيين باتفاقهم مع الأحزاب الثورية ، ولكنهم كانوا موضع السخط من العمال لأنهم كانوا بعيدين عن الحركة الثورية .

ومع أن الحكم النيابى المتواضع الذى منحه نقولا الثانى كان غير صالح لأن يكون أساساً حديثاً للدولة ، إلا أنه عظيم الأهمية فى إضعاف الحكم المطلق . ونظراً للدماء الكثيرة التى أراقها القيصر حتى يألف الرأى العام النظام الجديد تغيرت فى نظر الشعب الصورة التى رأى هذا النظام ، وكان الشعب يرى أن الإمبراطور ينظر إليهم من عليائه ، لا نظرة صاحب العظمة الواثق من عظمته ، بل نظرة الظالم المستبد الذى يقف الشعب له بالمرصاد .

وفى تحليلنا النهائى للحالة نرى أن المتطرفين وحدهم ــ اليمينيين واليساريين ــ هم الذين أفادوا من هذه الثورة ، ولو أن الأخيرين فقدوا تقدير الشعب مدة من الزمان . فإن هذه التجربة القاسية لم تزدهم صلابة فحسب ، بل أصبحوا أكثر

استعداداً لأية معركة جديدة. وكانت معارضتهم الخفية سواء فى البلاد أوخارجها مساعدة على إيجاد الجو الصالح للتآمر الذى تولدت عنه الحرب العامة فى النهاية .

وكان عام الديك الأحمر هو أيضاً عام أسنان التنين لا للمملكة الروسية وحدها ، بل للسلام فى أوربا وفى العالم أجمع . ولقد ظهرت أولى ثماره ، وليست آخرها بعد فترة وجيزة .

الفصل الخامس

الملكية المتحجرة

هزت ثورة ١٩٠٥ فى روسيا ميزان القوى الأوربى هزاً عنيفاً . وكان لقاء قيصر ألمانيا الفاشل بقيصر روسيا فى بجوركو يوضح بعض آثار هذه الهزة العنيفة على مسرح السياسة السائدة . ولربما كانت آثارها أبلغ وأقوى فى التوازن الداخلى فى سائر إمبراطوريات أوربا المطلقة .

ولقد لبثت روسيا طيلة قرن كامل قلعة للرجعية وممثلة للاستبداد، وكان قياصرة الروس موضع إعجاب سائر الملوك فى بذل كل جهودهم للابقاء على حكمهم المطلق . وكان هؤلاء يحسدونهم على هدوء شعوبهم الذين يبدو عليهم الرضى التام بالحياة جيلاً بعد جيل، ولـكن حان الوقت الذى تحركت فيه هذه الجموع الصامتة ، وأجبر الحاكم العنيد أخيراً على أن يستسلم . إن الثورة التى اندلعت فى روسيا يمكن أن تندلع فى غيرها .

والآن وقد أخذت أنظار روسيا تتجه إلى القسطنطينية بعد أن حالت قوة اليابان الحربية دون توسعها فى الشرق، كان السلطان عبد الحميد الثانى ــ وهو منغمس وسط الحريم اللائى يحطن به ــ يشم ما تحمله الرياح إليه من رائحة التغيير السياسى المنتظر . كما يحس الحيوان الصغير القلق فى قفصه الذهبى بما تحمله إليه هذه الرياح من نذر ، وبما تحمله إليه من آمال . عند ذلك أحس فى رضى رائحة الفساد فى الأسرة الروسية التى عبرت إليه البحر الأسود ، كما اشتم معها أريج المطهرات فى صورة الإصلاح النيابى . وحتى فى ألمانيا ــ النامية المحبة للسلطة ــ مع من فيها من الماركسيين المعتدلين وطبقة ضباطها الموالين، كان غليوم الثانى فى قلق متزايد لما قد تتمخض عنه الثورة فى روسيا . والخطابات الصاخبة التى كان يقذف بها ابن عمه

البائس نقولا أخذت تفقد قوتها إبان الثورة ، وتحولت إلى تحـذيرات ناعمة أو نقد هادئ .

إلا أن الاضطرابات الروسية كان لها فى النمسا والمجر أبلغ الأثر . وبدأ الديموقراطيون الاشتراكيون فى سبتمبر سنة ١٩٠٥ ـ يعضدهم كثير من خطباء الأقلية السلافية ـ دعاية عنيفة، مطالبين بحق الانتخاب العام والإصلاح النيابى (والنظام القائم فيه محـاباة كبيرة لطبقة ملاك الأرض) ، وقامت الإضرابات والمظاهرات والثورات فى عدة أنحاء فى الإمبراطورية . وهذه بلغت ذروتها عندما وصلت إلى فينا آخر الشهر الأخبار بالبيان الذى أصدره قيصر الروس بمنح الروس الحكم النيابى وحق الانتخاب العام . وفى الثانى من نوفمبر وقع اصطدام هائل — وإن لم يقع فيه حوادث كثيرة من القتل — بين العمال المتظاهرين وبين الشرطة فى العاصمة . وفى اليوم التالى مباشرة أعلن فرانسيس جوزيف رعاياه بأنه تفضل وقرر منحهم الحقوق النيابية كاملة — على الأقل فى المنطقة النمسوية من ممتلكاته .

ولقد برهنت الأحداث اللاحقة أن هذا كان أشد قراراته خطراً، ولـكن يبدو أنه لم يكن له حرية الاختيار فيما أقدم عليه . ويبدو جلياً أن الاشتراكيين الذين لم يقدروا قوة موقفهم قاموا فى أواخر الشهر بمظاهرة سلمية اشترك فيهـا حوالى ٢٥٠٫٠٠٠ عامل نمسوى، يضعون على أذرعهم الشارات الحمراء ويسيرون فى صفوف منتظمة ، إلى أن وصلوا إلى بناء المجلس النيـابى . ويبدو أن الضغط الصادر من الطبقات الدنيا على الإمبراطور لم يكن عاملاً قوياً يجبره على عمل بعينه . وهذا الرجل المحنك الذى لاقى من المحاولات الفاشلة لتغيير مجرى التاريخ أكثر من أى رأس متوج منذ عهد الملك كانيوت ،قد أثبت المرة بعد المرة — فى عهده الممتد من مترنيخ إلى ولسن ـ أنه ليس بالحاكم الذى يضطرب فؤاده من رؤية بضعة متظاهرين فى الشوارع . وفى هذه المرة كان لديه من الدوافع الشخصية ما دعاه إلى التسليم

على نحو ما كان يعمله أى فرد من الهابسبرج لو كان فى موضعه . وقد استغل فرانسيس جوزيف ذلك الحاكم المستبد المبجل — الطيب فى بعض جوانبه — كما سنرى فيما بعد — الدستورى المقنع — استغل تعطش رعاياه النابهين إلى الإصلاح النيابى بما شهدوه من النصر الذى أدركه الأحرار فى روسيا فى إذلال الفئة المتخلفة من رعيته — المجر — الذين كانوا يهددونه بالاضطرابات لأسباب رجعية . وكان الأسلوب السياسى الذى اتبعه فى هذا الصدد أشبه بالأسلوب الميكيافلى الذى يليق بأحد حكام القرون الوسطى . إذ أغرى العامة بإذلال النبلاء . ولم يكن هذا التشبيه من قبيل المصادفة من جميع الوجوه . فالنمسا والمجر من الناحية السياسية هى فى معظم النواحى أحد البقايا المتحجرة من القرون الوسطى تعيش فى تاريخ القرن العشرين .

لقد اتسع نطاق البلاد النمسوية حتى صارت إمبراطورية ، ولكنها لم تكن فى يوم من الأيام أمة . وتبلغ مساحتها الممتدة من بحيرة كونستانس على الحدود السويسرية الألمانية إلى جبال الألب فى ترانسلفانيا ، ومن لمبرج (واسمها اليوم لفوف) فى بولندا إلى راجوزا وتريست على البحر الإدرياتيكى ٢٤٠٤٥٦ ميلاً مربعاً . وكانت من حيث مساحتها ثانى دولة فى أوربا ، ومن حيث عدد السكان ثالث دولة فيها ، إذ كانت تضم ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة يتكلمون جملة لغات وجملة لهجات مختلفة . روى المؤرخ الفرنسى بيير رينوفين أن أحد الساسة النمسويين المجريين قال عنها فى شىء من الألم « ثمانية شعوب وسبع عشرة مملكة وعشرون جمعية نيابية ، والعنصر الغالب فى هذا الحشد السياسى كان من الألمان والمجر الذين فى مملكة المجر (وهم أبناء الغزاة القدامى الذين قدموا من منطقة الحشائش فى آسيا) ويبلغ عدد كل من الفريقين عشرة ملايين نسمة ، ويعدون سائر رعايا التاج النمسوى من « الأقليات » ، وهذه التسمية لا ترضى سائر الرعايا الذين يبلغ عددهم

٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من التشيك والسلاف والبولنديين والروثيين والصرب والكروات وباقى العناصر التى تقل عدداً عن هؤلاء، ومجموع هذه أكثر عدداً من الألمان والمجر فى الإمبراطورية . ولو قدر التشيك والسلاف على أنهم جنس واحد لكانوا الأغلبية فى الإمبراطورية ».

والنظام التشريعى الذى يؤلف بين هذه المجموعة التى تشبه الفسيفساء فى كثرتها واختلافها كان منبثقاً عن تفكير عجيب يناقض كل قوانين الوحدة السياسية ، فالنصف النمسوى — ويتكون أصلا من ممتلكات أسرة هابسبرج مع إضافة ما ضم إليها فى عهود متأخرة — لم يكن له اسم خاص به .

ومن الممكن أن يقال إنه ما بين عامى ١٨٦٧ و١٩١٨ لم يكن هناك مملكة تسمى النمسا ، بل كان يعرف رسمياً بأنه الممالك والمقاطعات الممثلة فى المجلس النيابى (ريخسرات) وكانت تشمل ما يطلق عليه اليوم النمسا وبوهيميا (وهى الجزء التشيكى من تشيكوسلوفاكيا) وجاليسيا البولندية وبوكوفينا الرومانية وبعض الأنحاء السلوفينية فى يوجوسلافيا الحالية ومعظم ساحل دالماشيا والجزء الذى تغلب فيه اللغة الإيطالية من ترنتينو ، وكانت المجر تحكم سائر الأفراد والشعوب وتشمل سلوفاكيا وترانسلفانيا وكرواتيا . وكان فى الدولة أربعة مجالس نيابية ، اثنان منها رئيسيان فى فينا وبودابست ، واثنان أقل منهما أهمية فى براج وزغرب عاصمة كرواتيا التى كان لها نظام خاص تحت التاج المجرى . ولم يكن هناك مجلس للامبراطورية كلها ، إذ لم تكن إمبراطورية من الناحية القانونية رغم أن الذى كان يحكمها هو الإمبراطور ، وكان يدير البوسنة وهرزوجوفينا وزارة المالية للنمسا والمجر ، وكان لها أيضاً مجلس نيابى .

وها قد وصلنا إلى المفاهيم والنظم العجيبة للحكم الثنائى ، الذى أثار من البحث

والخلاف بين رجال التشريع الحديث ما أثاره الثالوث المقدس بين رجال الدين في العصور الوسطى .

والحكومة الثنائية فى مفهومها العام — العام جداً — كما نص عليها فى اتفاقية عام ١٨٦٧ تتكون من دولتين ذواتى سيادة تملك كل منهما أقاليم مستقلة خاضعة لها . وترتبطان — برباط غير متماثل — بشخص الحاكم المشترك — ولقبه فى النمسا صاحب الجلالة المقدسة ملك وإمبراطور النمسا والمجر (لقب الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذى كان يطلق على الحكام من أسرة هابسبرج ولم يستعمل منذسنة ١٨٠٦) . وكان فى الدولة وزارات مشتركة للنمسا والمجر للحرب والشئون الخارجية والمالية . ويطلق على كل منها كونخليخ وكينورليخ ، أو كيه يوكيه (أى وزارات ملكية وإمبراطورية) وكان يطلق على المصالح الأخرى كونخليخ — كيزرليخ (ملكية — إمبراطورية) فى النمسا ، وكونخليخ فى المجر . وكان الجيش ملكياً وإمبراطورياً ، وكانت السكك الحديدية إذا ما اجتازت الحدود ، فالعربة التى تحمل المسافر من فينا إلى بودابست كانت ملكية وإمبراطورية إلى حدود المجر ، حتى إذا ما اجتازت الحدود تصبح كيه (ملكية) لا غير ، وبعد ذلك إذا ما كان الجيش مستولياً عليها فإنها تكون كيه يوكيه طوال الرحلة . وهذه العلاقة فى غاية البساطة إذا ما نظرت إليها من الناحية الحسابية ، وعبر عنها الكاتب النمسوى روبرت موزيل بأسلوبه اللاذع . فقد قال إن المواطن النمسوى له صفة المواطن النمسوى مضافاً إليها صفة المواطن المجرى مطروحاً منها صفة المواطن المجرى .

وأبعد النظم عن مقتضيات العقل والمنطق قد لا تكون دائماً أقلها حظاً فى البقاء كما هو الحال فى نظام الملكية البريطانى ، فإذا كان أشد آيات ضعف الحكومة الثنائية هو فى صعوبة تعريفها ، فيمكن أن يقال إنها كانت تسير

إلى الأمام تحت حكم أسرة هابسبرج الملكى ، والملكى الإمبراطورى .

ولكن لسوء الحظ لم تكن التناقضات فى أساليب الحكم فيها إلا انعكاساً للعيوب الأساسية فى بنيانها ، ومن المؤكد أن هذه العيوب هى التى دعت الإمبراطور فرانسيس جوزيف إلى تأديب رعايا المجر بإصدار أحد الإصلاحات الانتخابية ، الذى كان موضع سخطهم كما كان موضع سخطه هو أيضاً . لقد طلب المجريون – مدفوعين بالنعرة القومية المجرية ، ناسين أنهم يكونوا جزءاً من شعب له الأغلبية دونهم — طلبوا إلغاء اللغة الألمانية فى نداءات الجيش الملكى الإمبراطورى ، وهددوا بتحويل الوحدات المجرية الملكية الإمبراطورية إلى وحدات وطنية ملكية ، وهذا معناه قلب نظام الحكم الثنائى من مسألة قانونية إلى مهزلة ، فصمم الإمبراطور — وهو جندى قبل كل شىء —على عدم الموافقة، وأبلغ وزراءه المجريين « أن الجيش ليس موضوعاً للهزل والعبث » .

وفى هذا الجو السياسى الذى خلقه الاضطراب فى روسيا لم يبق لفرانسيس جوزيف إلا سلاح واحد يتقى به خطر انسحاب المجر من الإمبراطورية . وكان فى إمكانه أن يلقى الذعر فى نفوس أصحاب الجلالة الإقطاعيين فى المجر ، الذين كانت سلطتهم مستمدة من قوانين الانتخاب التى لا تسوى بين جميع الطبقات ، بجعل الانتخاب حراً وعاماً . ولكن تعديل قانون الانتخاب قد لا يكون مع ذلك سليم العاقبة ، ولهذا كان من الأهمية بمكان عنده أن يجعل من التعديل سلاحاً يهددهم ، وفى هذا الاتجاه خف لمعونته الديمقراطيون الاشتراكيون ، وإن كان تصرفهم هذا لا يدل على وعى سليم منهم . وإذا ما سلم بمطالب هؤلاء فى نصف الإمبراطورية النمسوى ،وأدخل بعض الإصلاح فى قانون الانتخاب ، فإنه سيلقن المجر درساً فى

المصير الذى ينتظرهم إذا هم حاولوا الخروج على إرادته . ويبدو أن هذه السياسة فيها من العمق ما يستبعد معه صدورها من عقل فرانسيس جوزيف البسيط . ولكن كان عرش الهابسبرج محاطاً بعدد من السياسيين الماكرين . وباتباعه للنصيحة التى قدمها له هؤلاء فى بداية الأزمة الدستورية التى وقعت سنة ١٩٠٥ أمكنه بلوغ هدفه الأول وهو ضمان وحدة الجيش الإمبراطورى . ولكنه فتح بهذا العمل نفسه مجالا متسعاً للاضطرابات الشعبيــة التى وسعت هوة الخلاف فى الإمبراطورية جمعاء .

وإذا ما أريد أن نفهم كيف حدث هذا فلا بد من أن نستعيد بإيجاز قصة أسرة هابسبرج ، كما نستعيد كذلك قصة حكم فرانسيس جوزيف نفسه ، ففى القصتين صفحة رائعة من تاريخ أوربا الحديث . ويتضح لمن يلقى نظرة عليها أن عالمنا فى الوقت الحاضر مبنى إلى مدى أبعد مما نتوهم على الأحداث التى وقعت فى هذين العهدين جميعاً .

وكنيسة كابوشين التى فى وسط فينا هى مدفن أسرة هابسبرج ، وفيها يستقر رفات اثنى عشر إمبراطوراً وخمس عشرة إمبراطورة فى ظلام دامس، تحت إشراف أربع جماجم متوجة تتجه محاجر عيونهم التى لاتبصر إلى قبر فردريك الثالث (مات سنة ١٩٤٣) أول من حمل اللقب من هذه الأسرة. ويبدو الآن لمن ينظر إلى هذه الصورة الرمزية أنها تجمع بين العظمة والتواضع . لقد كانت ممالك الهابسبرج فى بعض العهود هى التى تلى ملك أصحاب المملـكة العامة التى تمثلها الجماجم المتوجة ، وفردريك هذا هو الذى حفـر فى بوابة قصر هوفبرج شعاراً متبجحاً مكتوباً باللاتينية والألمانية ، معناه النمسا مقدر لهـا أن تحكم العالم . ولهذا الشعار فى النمسا اليوم رنين مؤثر خاص فى النمسا المتواضعة المسالمة الجمهورية . ولـكنه لم يكن يوما ما

منطبقا على النمسا . كانت أسرة هابسبرج شيئاً آخر .

ويقول ا . ج . ب تيلور «فى البلاد الأخرى للأسرة الحاكمة قصص فى تاريخ الشعوب . أما فى إمبراطورية آل هابسبرج فالشعوب تعقيد فى تاريخ الأسرة . لم تضطلع أسرة أخرى بأعبائها زمناً أطول منها ولا تركت أثراً فى أوربا أعمق منها » .

ولد أول ملك فى هذه الأسرة عام ١٢١٨ أو قبل ترك شارل آخر الأباطرة عرشه بسبعمائة عام . كان رودلف رأس الأسرة أحد السادة الإقطاعيين ، وكانت أملاكه بضعة مئات من الأفدنة من الأرض ذات الأشجار الباسقة فى الهضبة السويسرية وفى الألزاس وفى جنوب ألمانيا . وهو من سلالة أسرة قديمة اسمها مشتق من اسم إحدى القلاع التى أقيمت فى القرن الحادى عشر « هابسبرج » أو قلعة الصقر . ولا تزال جدران هذا الحصن المتهدم الذى يبلغ سمكها ست أقدام باقية بالقرب من زيورخ فى سويسرة ويمكن زيارتها .

وورث رودولف من أحد أجداده الذين كان أحدهم أميراً لزيوخ منطقة ولدستاد المحمية وهى المقاطعات السويسرية — التى وصف الكاتب القصصى وليم تل حروبها مع سادتها من آل هابسبرج — واختيار رودلف ليكون « ملك الرومانيين » — وهو اللقب الذى كان لحكام ألمانيا وقتئذ — لم يكن لثروته أو لقوته الحربية ، بل لعل اختياره كان لما يعوزه من الثراء ومن القوة الحربية . وكانت هذه التسمية تدعو إلى التفاؤل ، إذ الواقع أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة أصبحت فيما بعد تسمى الإمبراطورية الرومانية الألمانية المقدسة ، منذ أن ركع أتو الأكبر — وهو أحد الملوك الألمان — فى حضرة بابا روما ليضع على رأسه تاج

شارلمان الذهبى وحياه باسم قيصر أوغسطس ، ولكن اللقب أصبح لقباً فارغاً ـ وانقسمت أوربا فى العصور الوسطى إلى مئات من الدويلات الصغيرة المتحاربة ، تأبى أن يكون على رأسها ملكا إلا أن يكون باختيارها .

وهكذا أصبحت رياسة الدولة بالانتخاب. وعندما اختير رودلف رئيساً للدولة ظل العرش يستجدى العون المالى مدة لاتقل عن عشرين عاماً . ولم يكن هناك من يهتم بأن يكون الحاكم لهذا الإقليم المؤذى الذى يضم أربعمائة أمير إقطاعى ، وهو ما عبرت عنهم اليوميات الفرنسية حينذاك بأنهم « الألمان » ، حيث لم يكن هناك من قانون إلا « القوة المسلحة »

واتضح فيما بعد أن رودلف كان أكبر مما قدره الأمراء الألمان . فبعد أن قهر ملك بوهيميا استولى على أوستمارك (وتشمل تقريباً النمسا الحالية ويوجسلافيا)، وبذلك أصبح أكثر ملاك الأرض ثراء فى الإمبراطورية . وبلغ من حرص الأمراء الذين ينتخبون الإمبراطور أنهم أعادوا التاج الإمبراطورى إلى أسرة هابسبرج الذى بقى لها مدة مائتى عام لايتخللها إلا بعض الفترات .

وأخيراً عمد الإمبراطور فردريك الثالث من بيت هابسبرج فى القرن الخامس عشر إلى جعل التاج وراثياً بحيلة بسيطة ،مهد بها لانتخاب ابنه ولياً للعهد فى أثناء حياته ، واتبع خلفاؤه من الأسرة الملكية نفس النظام على أساس أنه تقليد عائلى .

وجاء فردريك بتقليد آخر — وقد كان حاكما غير ممتاز لكنه طموح — أساسه التوسع عن طريق المصاهرة . وأصبح شعار أسرة هابسبرج غير الرسمى ، « دع الغير يشن الحروب . أما أنت أيتها النمسا السعيدة فعليك بالمصاهرة » .

وماكسمليان (١٤٥٩ — ١٥١٩) بن فردريك ـ الذى أضاف بالمصاهرة إلى ملكه الأراضى المنخفضة وجزءاً كبيراً من شرق فرنسا — أكمل هذه السياسة . خطب لوريثه عروساً ذات عقل معتم ولكنها ذات بائنة كبيرة ، هى جان ابنة فرديناند وإزبلا ملكى إسبانيا (ومتسع من الأراضى فيما وراء البحار بفضل كولومبوس) .

كما أن الارتباط بإسبانيا أتى للنمسا بتقاليد البلاط الإسبانى التى تمتاز بمظاهر العظمة والشدة (التى كانت مرعية فى بلاط فرانسيس جوزيف) مما سجله الفنان فيلاسكويز فى لوحاته الفنية. وتلك الأيام هى التى فيها جعل دخان محاكم التفتيش الإسبانية سماء البحر المتوسط حالكة السواد .

وابتداء من عهد ماكسمليان أخذت أسرة هابسبرج تخرج من إطارها الألمانى وتصبح إحدى الأسرات الأوربية. ولكن مكسمليان نفسه — كما صوره ألبرخت دورر فى صورة الرئيس الأعلى ذى الأنف القائم الدقيق — جدير بأن يكون من فينا . فيها ولد وبها دفن، وكان ذكياً ومستهترا حتى ، إن أحد معاصريه ـ نيكولوميكيافلى ـ وصفه بأنه « أكثر الناس إسرافاً فى عصرنا وفى أى عصر آخر » ولكن لا شك فى أن فينا كانت تحبه .

وكان حفيده شارل الخامس (توفى سنة ١٥٥٨) أكثر منه انتساباً لعديد من البلاد . ولد ونشأ فى الأراضى المنخفضة ، وورث من أبيه النمسوى القرنسى الأراضى المنخفضة وفرانش كونتيه (وهى منطقة برجنديا وجورا فى فرنسا الحالية) كما ورث كل ممتلكات أسرة هابسبرج التقليدية . ومن أمه الإسبانية حصل فى الثانية عشرة من عمره على عرش إسبانيا وأكبر إمبراطورية استعمارية فى ذلك الوقت ، وفيها بعض أجزاء من أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى وأجزاء كبيرة مما سمى فيما بعد بالولايات المتحدة .

وكان رجال بلاطه يفخرون فى شىء من عدم الدقة فى التعبير بأن الشمس لا تغرب عن ممتلكاته . والشعار الذى ذكرناه من قبل وهو « أن النمسا مقدر لها أن تحكم العالم » أصبح يمثل رسالة الأسرة بإيجاز .

ثم تطورت الرسالة التى يتضمنها شعار الأسرة فى أيدى آل هابسبرج فيما بعد العصور الوسطى حتى صارت رغبة عارمة فى أن تتسع أملاكهم ، وكان فيها مجدهم وفيها القضاء عليهم كذلك .

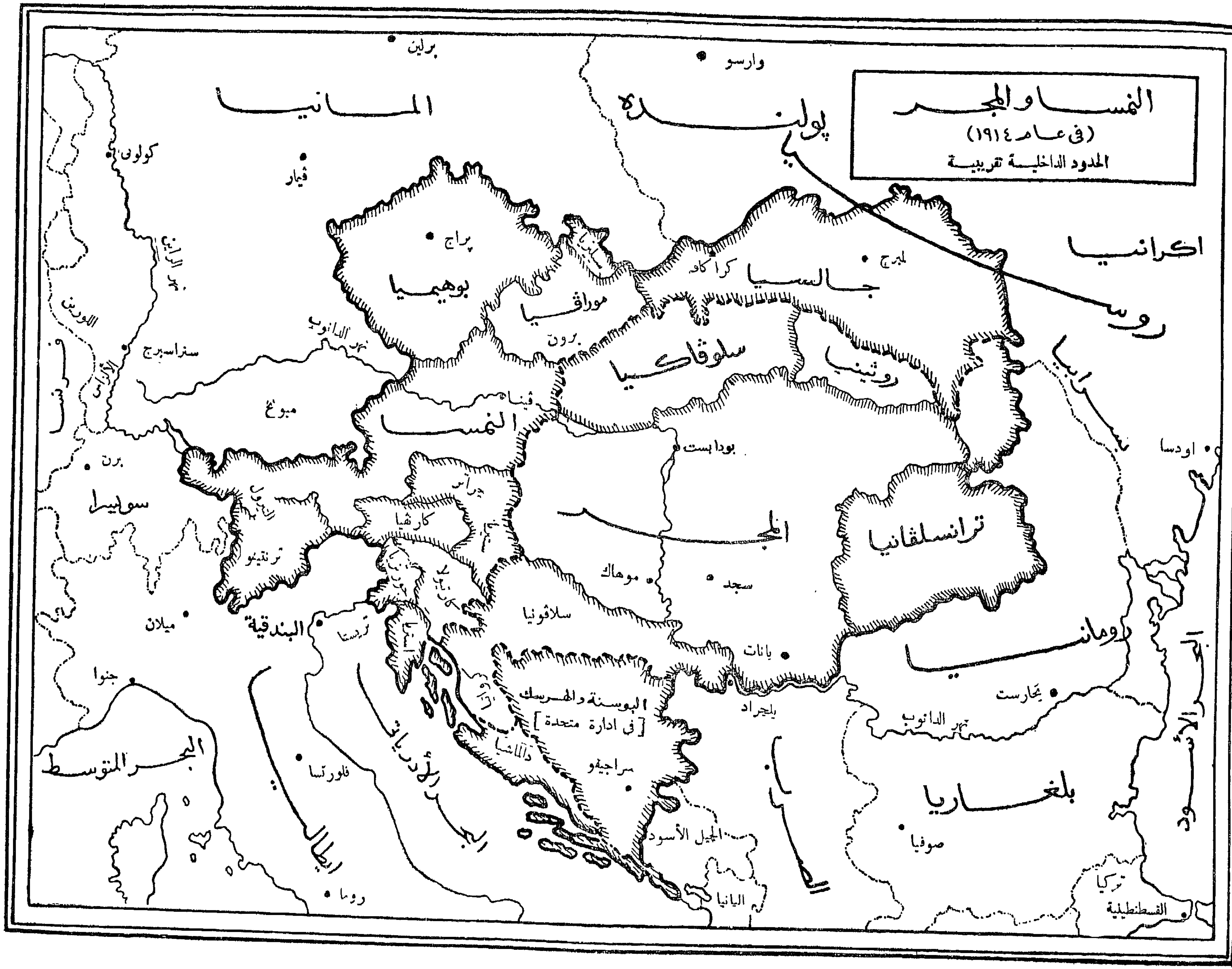
ورغم أن من العسير تسمية آل هابسبرج أسرة من ذوى الذكاء الثاقب ، إلا أن تاريخهم مرتبط بتاريخ الفكر الإنسانى منذ القرن السادس عشر ، بحيث لا يضارعهم فى هذا المضمار أية أسرة أوربية أخرى . ويقول ا ج ب تيلور إن هذه الأسرة كانت فى كل قرن حتى القرن العشرين تتولى رعاية إحدى الحركات الأيديولوجية الكبرى ، حتى صارت رائداً للقضايا القومية الهامة . وقد تكون القضايا التى يدافعون عنها قضايا خاسرة وقد تكون الآراء التى يبشرون بها غير مقبولة . ولكن أسرة هابسبرج لم تكن رجعية بالقدر الذى يصوره بها من يعارضونها فى الرأى . ومأساة هذه الأسرة التى تمتاز بها أنها كانت سابقة للعصر الذى تعيش فيه فى بعض الأمور ومتأخرة عنه فى البعض الآخر . وملوك هذه الأسرة يمثلون الفشل فى سجل التاريخ ، بمعنى أنهم كانوا دائماً يفشلون فى بلوغ أهدافهم الكبرى . ولكنهم يعدون من أروع من حمل لواء الفشل ، بل أمجد من حمل هذا اللواء فى سجل التاريخ .

« فشل مجيد » عبارة الرثاء اللائقة بشارل الخامس أكبر عاهل فى عهد النهضة . لقد ظل هذا الرجل المحب للسلام العميق التفكير القوى الإيمان يجوب أوربا كلها من أقصاها إلى أقصاها ، من الأراضى المنخفضة إلى صقلية ، ومن إسبانيا إلى الدانوب على رأس جيشه لتحقيق أمل القرون الوسطى العظيم فى وحدة أوربية

مسيحية . وكان جهده فى هذا ضائعاً . إنه نجح فعلا فى أن يقى معظم أوربا من الغزو التركى . وهو عمل لا يقدر حق قدره فى الوقت الحاضر ، ولكن انتشار المذهب اللوثرى أحدث خلافاً لا يلتئم بين المذاهب المسيحية . ونشأة الدول القومية أوقع أوربا فى خصومات سياسية لا تنقضى .

وفى الواقع كان انتصار شارل على زميله الفرنسى فرانسيس الأول فى بافيا انتصاراً للقومية العامة على القومية الخاصة . ولكنها كانت الموقعة الوحيدة الهادفة التى شهدتها أوربا فى مدى أربعة قرون متوالية . هذا ولو أن فرانسيس أو هنرى الثامن ملك انجلترا لم يبلغ أحدهما سعة ملكه ، ولكن أسرة كل منهما كانت أعمق جذوراً فى تربة بلادها من أسرته ، كما أن اتساع ملكه جعل من العسير حكمه فى هذا العصر الذى كانت فيه وسائل المواصلات بدائية . فكان لا بد له آخر الأمر من أن يقنع بالقليل من أملاكه . فاعتزل الحكم بعد أن بلغ السادسة والخمسين ، وبعد أن انهكه جهد العمل المتواصل ، وأقام فى مسكن ريفى صغير فى إسبانيا ، متنازلا عن تاجه الإمبراطورى فى أملاك الأسرة فى وسط أوربا إلى أخيه فرديناند . وفى الوقت نفسه تنازل عن تاج إسبانيا إلى ابنه فيليب ، وبهذا شطر إلى شطرين مستقلين متحالفين أكبر قوة موحدة فى أوربا منذ عهد شارلمان . وقصة أسرة هابسبرج الإسبانية قصة المجد الذى أخذ يتدهور حتى انتهى بانتهاء الأسرة عام ١٧٠٠ .

أما فرع الأسرة النمسوى الذى كان يعتبره أبناء عمومته فى إسبانيا من ذوى قرباهم الفقراء ، فقد استمر مدة أطول يؤدى دوره العظيم الذى لا يخلو من المآسى الكثيرة . لقد ظلوا يحملون لواء الدفاع عن أوربا ضد الأتراك أكثر من قرن بعد أن انتهى عهد الحروب الصليبية (ولو أن الحاجة إلى هذه الحروب الصليبية كانت



النمسا والمجر
(في عام ١٩١٤)
الحدود الداخلية تقريبية
برلين
وارسو
ألمانيا
بولندة
كولون
ڤيمار
براج
بوهيميا
مورافيا
برون
كراكاو
لمبرج
جالسيا
اكرانيا
روسيا
ستراسبرج
نهر الدانوب
ميونخ
ڤينا
النمسا
سلوفاكيا
روثينيا
بودابست
برن
سويسرا
كارنثيا
ترنتينو
المجر
ترانسلڤانيا
موهاك
سجد
سلاڤونيا
ميلان
البندقية
تريستا
بانات
رومانيا
اودسا
جنوا
البوسنة والهرسك
[في ادارة متحدة]
بلجراد
بخارست
نهر الدانوب
البحر المتوسط
فلورنسا
البحر الأدرياتي
دلماشيا
سراجيفو
بلغاريا
الجبل الأسود
صوفيا
ايطاليا
روما
البانيا
تركيا
القسطنطينية

أشد منها فى أى وقت آخر [1] ، وقد رد الترك على أعقابهم فى آخر مرة حاولوا فيها الاستيلاء على فينا عام ١٦٨٣ ، وكان جزاء آل هابسبرج من حروبهم ضد الأتراك كبيراً، فضلا عن شرف الاشتراك فى الحروب الصليبية، والعثور على حقيبة اليد التى رددت الأساطير أن الشرقيين قد تركوها فى ميدان الحرب. وفى مقابل حمايتهما من الأتراك عرضت بوهيميا والمجر عرشيهما الخاليين على فرديناند سنة ١٥٢٦ لا على أن يكونا جزءاً من الإمبراطور المقدسة الرومانية الألمانية بل على أساس الضم الشخصى الذى يضمن لهما سيادتهما المستقلة.

وفى القرن السابع عشر أعان الإمبراطور ليوبولد الأول أن التاجين القديمين للمجر وبوهيميا مورافيا (وهى تقريباً تشيكوسلوفاكيا الحديثة) من أملاك أسرة هابسبرج الوراثية ، أسوة بتاج الإمبراطورية المقدسة الذى منح لأوتو الأكبر سنة ٩٦٢ ، وتاج لومبارديا الحديدى الذى لا يقل عنه شأناً . وفى نفس الوقت أخذ ينتقص من حرية التشيك والمجر ، وبذلك بذر بذور الحركات القومية العدائية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ثم إن اتساع الإمبراطورية سبب كثيراً من المتاعب، فهى بابتلاعها مملكة المجر القديمة كانت أشبه بالسمكة الكبيرة إذا ما ابتلعت سمكة أصغر منها قليلا، إنها لا تهضمها ، فضلاً عن بقائها شجى فى حلقها . وبعملها هذا كان لا مفر لها من أن تقر المجر على ضمها لمملكة كرواتيا فى القرن الثانى عشر ، وهى لا تختلف عنها عراقة فى الاستقلال . والواقع أن « مشكلة السلافيين الجنوبيين » وهى من أعقد مسائل القرن العشرين نبتت جذورها فى القرن الثانى على نحو ما عبر عنه جوردون شبرد فى كتابه « الملحمة النمسوية » .

---

(١) هذا رأى المؤلف ولا يخفى ما فيه من غيرة عمياء وتحبيذ فكرة الحروب الصليبية التى لا يقرها المنطق السليم ولا الرأى السديد (المترجم) .

وكذلك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أقام آل هابسبرج من أنفسهم قوامين على الأهداف العلمانية للحركة المناوئة للاصلاح . كما يرجع إليهم الفضل فى أن القوى البروتستانتية المناوئة لم تتعد حدود شمال أوربا وشمالها الشرقى .

وإذا نظرنا من وجهة النظر الإمبراطورى ، نرى – مع ذلك – أن هذا النصر الذى أحرزته الكاثوليكية كان نصراً ضاراً ، حيث وسع شقة الخلاف فى العالم الألمانى . وبعد انتهاء حرب الثلاثين (١٦١٨ – ١٦٤٨) التى دارت رحاها بين الحكام الكاثوليك والبروتستانت إلى أن صارت معظم أوربا الوسطى فى حالة يرثى لها من العدم ، لم يكن التاج الإمبراطورى إلا رمزاً لهذا الفناء .

وكانت ممتلكات آل هابسبرج فى أوائل القرن الثامن عشر لا تزال تمتد من كاليه إلى السهل الروسى ، ومن شمال ألمانيا إلى شمال إيطاليا ، ولكن الإمبراطورية لم يبق من مجدها القديم إلا قوقعة سهلة الكسر .

واضطر آل هابسبرج إلى الاعتماد على أملاك الأسرة الخاصة . ثم إن محاولاتهم فى أن يكونوا سنداً للأرثوذكسية بحد السيف باءت بالفشل حتى فى ممتلكاتهم . وفن المعمار الذى أدخله الجزويت – وهم الحلفاء الدائمون للأسرة – فى البلاد ، كان من دلائل هذا النصر المشكوك فيه ، وهذه التفاهة بل هذه السخافة التى ينطوى عليها هذا الاهتمام بالتجميل لم تكن لتميز واجهات الكنائس فحسب ، بل أصبحت من مميزات المجتمعات الكنسية أيضاً . لقد أصدر ليوبولد الأول قرارا بمنع الغزل والكلام فى أماكن العبادة .

وانقرضت أسرة هابسبرج الأصلية بموت شارل السادس ، ولكن ابنته ماريا تريزا – وهى الإمبراطورة الوحيدة فى الأسرة – تسلسل عنها فرع قوى بزواجها بدوق

اللورين ، الذى أنجب منها ستة عشر فرداً هابسبرجيا لورينيا ، منهم مارى أنتوانيت السيئة الحظ .

وقانون الوراثة(١) ، وهو القانون الخاص الذى أصدره أبوها وأغرى تابعيه أو أجبرهم على قبوله ليجعل وراثتها للعرش قانونية (وكان هذا الحق مقصوراً إلى وقت صدور القانون على الذكور) ، ساعد فى الوقت نفسه على ضم البلاد المستقلة ، التى كانت فى قبضة الحكام الإقطاعيين ، حتى صارت البلاد كلها إمبراطورية موحدة مركزية .

وهذه المرأة الجريئة التى كانت قابضة على حقها فى الملك مع أنه كان موضع نزاع إبان حربين متواليين ، والتى حكمت البلاد فى إخلاص وصدق رغم الخلافات العائلية ، كانت لها الكفاية الجديرة بإحدى بنات فينا ، كما كانت لها ميزة البساطة المشهورة عنها . وعندما أرادت أن تعلن على الملأ ميلاد أحد أحفادها العديدين ، وقفت فى أحد ألواج دار الأوبرا فى فينا وقالت بأعلى صوتها : « ليوبولد أنجب ولداً » .

وخلفها يوسف الثانى (١٧٦٥ – ١٧٩٠) وكان طرازاً جديداً فى هذه الأسرة . كان غيره ينفذ الأفكار ، أما هو فكان يبتدعها ، وكانت أبعد

---

(١) هذا القانون الذى أصدره شارل السادس على أساس أن من صالح الإمبراطورية تغيير قانون الوراثة ليضمن وراثة ابنته ماريا تريزا ، وكان أحق منها ابنة الإمبراطور يوسف الأول ، إذ كان القانون ينص على انتقال الملك كاملا غير منقوص إلى الأولاد الذكور أولا ثم الإناث ابتداء من ابنته . ولم يكن الأمر مقصوراً على حرمان ابنة أخيه الصالح ابنته بل أحدث تغييراً فى قانون أسرة هابسبرج متجاهلا كثيراً من التقاليد وكثيراً من المعاهدات بين التاج والشعوب التابعة للامبراطورية ومخالفاً أيضاً بعض المعتقدات الدولية . وكانت نتيجة ذلك إقحام بيت الملك النمسوى فى سلسلة طويلة من الحروب .

ما تكون عن أسلوب الأسرة فى الابتداع والتفكير . وفى القرن السابع عشر كانت فينا الدعامة الكبرى لمقاومة الإصلاح ، ولكن يوسف حولها فى القرن الثامن عشر إلى أكبر مركز للثقافة ، وكان أطيب الحكام المستبدين وأقلهم استبداداً (نعنى بهم فردريك الأكبر وكاترين العظيمة ويوسف نفسه) ، وكان يروقه أن يعتبر نفسه « إمبراطور الشعب » وعندما منح مدينة فينا المتنزه العام المسمى « بريتر » الذى ظل إلى وقتنا الحاضر المتنزه المحبوب لدى الشعب ، قال فى إهدائه « إلى زملائى من خادمهم الأمين » .

ونفذ يوسف منهجاً شاملا فى الإصلاح ،فألغى رق الأرض والتعذيب البدنى ، وأغضب طبقة النبلاء الإقطاعيين بمبادئه الاقتصادية التى طبقها على الجميع بلا أدنى محاباة . ولربما كان لإلغائه المبادئ الاقتصادية والاجتماعية التى خلفتها القرون الوسطى، ما وقى المجتمع النمسوى من أن تهب عليه زوابع الثورة الفرنسية . ولو كان صهره لويس الخامس عشر فى فرنسا فعل ما فعله هو فلربما نجت فرنسا من ثورتها . ولكنه لم يستطع التغلب على أوضاع أسرته الخاطئة إلا بما زلزل كيان الأسرة ذاتها . قال المؤرخ تيلور « كانت أراضى آل هابسبرج مجموعة من الضيعات المحتكرة لهم لا دولة تحت سلطانهم، ولم يكونوا حكاماً بل كانوا ملاكا» . ومما كتبه عنهم المؤرخ الإنجليزى السابق « إن إمبراطوريتهم تعتمد على التقاليد وعلى الحقوق التى كسبتها الأسرة وعلى المعاهدات الدولية » . ولم يكن مفر من أن يكونوا العدو اللدود للثورة الفرنسية، ولذلك الناشئ الحديث النعمة الكورسيكى المولد نابليون . إن فرانسيس الأول — وهو ابن يوسف — زوج ابنته مارى لويز إلى هذا الذى انتزع عرش فرنسا ، إلا أن هذا لم يكن إلا وسيلة لتهدئة الموقف . وكان فرانسيس دائماً فى الجانب المنهزم فى معظم المعارك الحربية التى خاضها نابليون، واضطر إلى أن ينزل عن أملاكه الألمانية التى كان لقبه مبنياً عليها . وفعلا خلع تاج أتو الأكبر

وتخلى عنه (ويرى التاج اليوم فعلا فى متحف هوفمان) واستبدل بلقبه « الإمبراطور الرومانى الألمانى المقدس » لقب « إمبراطور النمسا » .

وبعد هزيمة نابليون استردت الأسرة كثيراً من أملاكها، ولكنها لم تحاول إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وتولى رعاية شئون الأسرة الإمبراطورية البرنس مترنيخ ، مستشارهم الشديد، عميد الرجعية العتيد وباسمهم حمل لواء الرجعية ونشر تعاليمها . وإليه يرجع الفضل الأكبر فى قيام الحلف المقدس للملوك المسيحيين الذى اقترحه القيصر اسكندر الأول فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٤ ،الذى أصبح حلفاً دفاعياً للابقاء على الأسرات القائمة فى أوربا والمحافظة على البلاد التى تحكمها ،وكانت القومية وهى من المبادئ التى أعلنتها ونشرتها الثورة الفرنسية — هى عدوها اللدود .

وبلغ خوف مترنيخ إلى حد الجنون ، ولم يكن له سبب مفهوم ولم تكن النمسا — أى ما بقى من الإمبراطورية النمسوية — أمة بالمعنى الذى يتبادر إلى الذهن، إذا قيل إن فرنسا أمة أو إنجلترا أو بروسيا أو إسبانيا أو حتى روسيا فى عهد اسكندر الأول . كانت عبارة عن جملة أمم يربطها رباط مصطنع منبثق من نفوذ الأسرة التى استمدت وصايتها من خليط من العادات، ومن تشريع القرون الوسطى الخاص بملكية الأرض . والوطنية ذاتها كانت موضع اتهام فى النمسا فى عهد آل هابسبرج — وإذا ما أثنى أمام فرانسيس الأول على أحد بأنه وطنى بارز رد مستفسراً هل هو وطنى فى جانبى ؟ . والنظر إلى الأمور بهذا الأسلوب مكن اثنين من الأسرة فى القرن العشرين أحدهما الدوق فرانسيس فرديناند أن يكونا رائدين لنمط حديث من الفيدرالية الأوربية ،ولكنه فى القرن التاسع أصبح على الأسرة لا أن تقاوم بالحراب الحركات القومية التى كان السلاف والمجر والإيطاليون يقومون بها فحسب ، بل وكان عليها أن تقيم سداً هزيلا لمقاومة الحركة التى تهدف

إلى الوحدة الألمانية ، التى كانت تضطلع بها أسرة هوهنزولرن الإقطاعية المنافسة لبلوغ مجدهم الإمبراطورى . وكان العبء الأكبر فى هذه الرسالة المزدوجة واقعاً على كاهل فرانسيس يوسف الأول بن فرديناند شقيق فرانسيس الأول المحدود الذكاء . وكان هذا فى آدابه البسيطة وحرصه على أداء الواجب ونفوذه المتزن وبساطته البدائية ووحدة هدفه فى أفقه الضيق ، كان مثالا لقبطان السفينة المشرفة على الغرق . ولئن كان حكم نقولا الثانى فى روسيا يبين ما للتاريخ من حكم صارم ، فإن قصة حياة فرانسيس يوسف تبين ما فى تاريخ البشرية من عظمة ومن أحكام قاسية لا مفر من وقوعها .

وكان الإمبراطور فرانسيس يوسف فى نظر أجدادنا رمزاً للبقاء والدوام من حيث هو إنسان وصاحب نظام قائم . وكل من عرفه من الشباب منذ طفولته حتى صار رجلا مسناً ذا خصلات منثورة من الشعر تتدلى على جانبى وجهه ، يحس كلما رأى هذا الوجه فى الصحف أنه هو بعينه الذى رآه كل مرة دون أدنى تغيير . وهو يعد بعد فكتوريا ملكة بريطانيا الممثل الأول للقيم والتقاليد فى القرن التاسع عشر . وقد ولد بعدها بعشر سنوات وامتد عمره بعدها خمسة عشرة سنة ومدة حكمه كلها ٦٨ سنة . وكان وودرو ولسن رئيساً للولايات المتحدة عندما توفى فرانسيس يوسف سنة ١٩١٦ فى السادسة والستين من عمره .. وكان أندرو جاكسون رئيساً لها سنة ميلاده سنة ١٨٣٠ . وكان مترنيخ وتاليران وولنجتون أحياء عاملين فى ذلك التاريخ . وكان جيته ولافاييت لا يزالان على قيد الحياة ، وكان جده الإمبراطور فرانسيس الأول الذى انتصر عليه نابليون فى أوسترلتز وفاجرام على عرش الإمبراطورية حينذاك .

شهد عام ١٨٣٠ أول انتقاض على ما فرضه مترنيخ على أوربا من إعادة

الوضع الذى كان قائماً قبل حرب نابليون ، إذ قبل ميلاد فرانسيس يوسف ببضعة أسابيع (١٨ أغسطس فى قلعة لاكسنبرج خارج فينا) طرد ابن عمه شارل العاشر البربونى عن عرش فرنسا على أثر ثورة قام بها الشعب ، بينما على ضفاف الدانوب كانت خطوط الدفاع التى أقامها مترنيخ فى غاية القوة ، ولم يسمح بأى رأى تحررى ليعكر الهدوء الشامل الذى كان يرفرف على ربوع الإمبراطورية منذ سنة ١٨١٥. ولا شك أن مترنيخ سمح لإحدى المقاهى فى فينا أن تقدم لروادها بعض الصحف الأجنبية . إلا أن ذلك كان خدمة لرجال الشرطة ليسهل عليهم معرفة من تحوم الشبهة حولهم (وهذا الإجراء كان متبعاً فى دكتاتوريات أوربا الوسطى فى بعض المناسبات) ، وكانت الشرطة ذات كفاية ، وكذلك كانت الهيئة الحاكمة التى أعاد فرانسيس الأول تنظيمها ، وكان كلاهما دعامتى الأسرة والحارسين على النظام الاجتماعى القائم بعد حروب نابليون . وكانت الطبقة المتوسطة فى الإمبراطورية لاهية فى الشراب والطعام والموسيقى ، بينما ابن نابليون دوق ريشتاد الصغير أو نسر النابليونيين المتعصبين يسقى كأس الموت البطىء فى سراى شونبرون .

ولكن فرانسيس يوسف لم يكن ليعامل هذه المعاملة . فقد انشئ تنشئة حربية مع أخيه الأصغر ماكسيمليان (وهو نفس ماكسيمليان الذى قدر له أن يموت ميتته المحزنة فى المكسيك أمام فصيلة من الجنود) فى قلعة هوفبرج العتيقة ذات الرائحة الكريهة تحت إشراف أمهما الدوقة صوفيا ، تلك السيدة الجادة الطموحة التى ليس فى مسلكها أثر من الصفات الفاضلة الرومانتيكية التى اشتهرت بها أسرتها البافارية فيما بعد . ولما كان مترنيخ رئيساً لمجلس الوصاية ، فقد أصبح هو الرئيس الفعلى للامبراطورية سنة ١٨٣٥ ، بعد أن اعتلى العرش عم فرانسيس يوسف فرديناند الأول المعروف بجنونه وضعف أعصابه ، وأشرف على تنشئته الدوق الصغير ليهيئه لاعتلاء العرش بعد عمه . وكان منهج تعليمه على ما ذكره أحد المؤرخين

النمسويين يشمل الدراسات العادية « وقراءة الصحف واللغة البولندية وساعة يقضيها كل أسبوع مع البرنس الأمير مترنيخ » .

ولم يكن فرانسيس يوسف قد بلغ الثامنة عشرة عندما أرسل إلى إيطاليا ليتذوق حياة الجندية . وقد أظهر فيها كفاية عظيمة ، وكان يوم الاختبار ثابت الجنان عند إطلاق الرصاص . وكانت أول مرة سمع فيها الرصاص يدوى فى أذنيه ، و رأى الرجال يخرون صرعى فى القتال ، كانت عند تأديب الثوار الوطنيين . وكان يعمل فى شمال إيطاليا ، حيث ثار الوطنيون المحليون الذين كان يشجعهم البابا الحر بيوس التاسع ويساعدهم جيش أسرة بيدمونت من آل سافوى ، وكانت نتيجة ثورتهم طرد الجيش الإمبراطورى من فينيسيا ومن ميلان .

وكان عام ١٨٤٨ هو العام الذى تقرر فيه مصير الأمور . كانت الحركات الثورية القوية تتجمع وتشتد تحت ستار النظام الكثيف الذى أقامه مترنيخ ، والثورة الفرنسية التى اندلعت فى فرنسا وأطاحت بعرش لويس فيليب كانت مقترنة بعدة ثورات سياسية فى أنحاء أوربا المختلفة ، ففى مارس ثار التشيك والمجر يطالبون بالحكم الذاتى والحياة النيابية الخاصة ببلادهم ، ثم وقع الاضطراب فى فينا نفسها يقوده الطلبة الأحرار ، ويؤيده معظم الأهالى ، وغادر مترنيخ البلاد هاربا فى عربة لغسل الملابس قانعاً بنفيه خارج البلاد ـ ثم هدأت الثورة هدوءا موقتاً عندما أعان الإمبراطور فرديناند ، الذى لا نفوذ له ـ حرية الصحافة ووعد بالحياة النيابية ، ولكن الثورة اتقد أوراها فى مايو إلى مدى لم تبلغه من قبل ، وقبض على أزمة الأمور لجنة للأمن العام فى فينا وفر رجال البلاط إلى إنسبروك ، واستدعى فرانسيس يوسف من خدمة الجيش ولحق بهم هناك . وفى أواخر الصيف عادت الأسرة الإمبراطورية إلى فينا ، ولكن اضطرابا أشد عنفا حدث فيها فاضطرت الأسرة إلى

للهزيمة مرة أخرى ولما يمض على عودتهم إلا زمن وجيز ، وكان هربهم هذه المرة إلى حصن قديم فى أولموتز فى مورافيا .

وكان هذا الانسحاب الذى سقى الأسرة كأس الذل ، هو الطعنة الدامية الأخيرة الموجهة إلى تعليم الدوق السياسى ، الذى لم يهيئه أى شىء ليفهم الحركات التاريخية الكبرى فى ذلك العهد ، والتى كان عليه أن يقاومها جميعاً ، ولهذا أخذ يتلقى الهزيمة تلو الهزيمة فى حياته العامة وحياته الخاصة جميعاً . وسرعان ما كان هروب الأسرة إلى أولموتز نقطة تحول فى حياتها .

وكانت الدوقة صوفيا أم فرانسيس جوزيف — من أهم العملاء المحرضين الإمبراطوريين على مقاومة الثورة ، التى اشتدت وطأتها إبان الأشهر الأخيرة من سنة ١٨٤٨ . ومما قالته فى إحدى اللحظات الحرجة فى أثناء المعركة « أيسر على أن أحتمل فقد ولد من أولادى من هزيمتى أمام عدد من الطلبة » . ونظمت جمعيات سرية لغلاة الملكيين بالاشتراك مع اثنين من أشد أتباع مترنيخ بطشاً ، البرنس ألفرد وندش جرتس القائد الإمبراطورى فى براج الذى أعاد النظام فيها يوماً بأن دمر المدينة بالقنابل ، رغم وعد الإمبراطور وصهره البرنس فردريك شوارتزنبرج ، وهو من الرجعيين ذوى البأس الشديد الذى لا يقل عدم تقديره للمسئولية عن احتقاره للديمقراطية . واستطاعت بمعاونتهما حمل الإمبراطور الضعيف الطيب على التنازل عن العرش لابن أخيه ، ذلك الشاب الذى لم يرتبط بأية وعود أعطاها لرجال الثورة قد تعوقه عن أعمال القمع التى يتطلبها الموقف . وكان منطق هذه الطغمة المتحمسة سليماً على وجه العموم ، إذ قدرت أنه لا بد مستجيب لمآرب شوارتزنبرج وتوجيهاته العنيفة .

وتمت مراسيم التتويج فى قاعة أولموتز القديمة المقبضة دون أى احتفال ، بعد أن

وضعت خطتها فى سرية تامة • وكان جو الحفل أشبه بجو عملية شنق شخصية كبيرة منه بجو حفل عائلى . وكان مظهر فرانسيس يوسف ذلك الشاب الأبيض النحيل الأنيق ـ وفق ذوق ذلك العهد ـ أقرب إلى مظاهر الشباب ، مع تقطيب حاجبيه ليبدو فى صورة الرجل الجاد ، ومط فى شفتيه البارزتين حتى صارتا فى وضع مستقيم . وبينما كان محاطاً بذوى قرباه الذين لم ينقطعوا عن الحديث بصوت غير مسموع ، ومعهم شوارتزنبرج الذى كان يؤدى دور رئيس الاحتفالات ، ركع أمام عمه العجوز الساذج الذى كان من السهل إغراءه بالتنازل عن العرش . وقد مر فرديناند بيده على خد الشاب المضطرب وقال له فى نبرات تدل على البلاهة الملهمة « كن شجاعا . كل شىء على ما يرام » .

ولكن كان لا بد أن ينقضى وقت طويل حتى يصبح كل شىء على مايرام ، حتى بالمعنى المحدود الذى يرضى شوارتزنبرج . فالثورة لم تجتث من إيطاليا . وفى المجر لم تكن وصلت إلى مداها بعد ، وكان فرديناند قبل تنازله قد منح المجر الاستقلال الذاتى والحكم النيابى ، ولكن فرانسيس يوسف ـ بعد تتويجه ـ رفض أن يقر بمنحة سلفه ، مما ترتب عليه رفض البرلمان المجرى الاعتراف به ملكا على المجر متأثراً بالآراء التى أعلنها باترك هنرى ولاجوس كوسوث ، ثم إن وندش جريتز ـ بمعونة الكروات الذين أصيبوا بحمى القومية من سادتهم ـ قام بالثورة واحتل بوادبست ، ولكن القوى المجرية الوطنية تجمعت وألحقت به عدة من الهزائم . وشجع هذا النصر البرلمان المجرى على ألا يعترف بأسرة هابسبرج ويعلن الاستقلال التام .

ومنذ أن قدم أسلاف الماجياريين من أواسط آسيا واستقروا فى سهل الدانوب الخصيب ، ظلوا يحملون بين جوانحهم شعوراً دافقاً بالحرية التى ألفوها فى معيشتهم المتنقلة الأولى ، ورغبة لا تهدأ فى السيطرة . وهكذا كان الماجياريون

مشكلة لأنفسهم ومشكلة لجيرانهم الذين يقلون عنهم حمية وغيرة . ولعلهم كانوا في علاقاتهم بالتاريخ أكثر شبهاً من أي شعب آخر فى أوربا بعلاقة المريض بمرضه المزمن، من تناوب لا ينقطع بين الرضى والسخط وبين العذاب والسيادة الإمبريالية . ففى عام ١٩٥٦ اضطر أحد خلفاء أسرة هابسبرج وكان حارساً للسجن السوفييتى إلى الاستنجاد بالعون الروسى ليقضى على ثورة جامحة تملكت بعض زملائه . وفى سنة ١٨٤٨ اضطر فرانسيس يوسف ـ مستنداً إلى الحلف المقدس ـ إلى أن يستعين بقوة حربية روسية لإخضاع رعيته ، وقد تملكهم شعور مماثل لنيل الحرية الوطنية . وأرسل نقولا الأول ـ مثل نيكيتاخروشوف الذى يبادر دائماً إلى نجدة أى حاكم أو زميل مستبد عند الشدة ـ جيشاً مجهزاً لنجدته .

(لا عجب وهذه السوابق التاريخية ماثلة فى الأذهان أن ثورة سنة ١٩٠٥ فى روسيا وهى المعقل الأخير للرجعية أقلقت الرجعيين فى النمسا والمجر إلى حد بعيد) .

هذا وقد أخمدت الثورة المجرية بفضل قيصر روسيا سنة ١٨٤٨ . ومن قبل أعيد حكم النمسا فى فينيسيا ولومبارديا ، ثم إن حملة جديدة شديدة البطش والقسوة قضت على الآمال المتفتحة لدى الشعب المجرى . وهرب كوسوث إلى أمريكا ، ونجح فى بذر مبادئه السياسية فى تربة الدنيا الجديدة الصالحة . ولكن كثيراً من الوطنيين غيره دفعوا حياتهم ثمناً للحرية كما فعل غيرهم من قبل ، وكما لا بد أن يفعلوا فيما يستقبل من الزمان .

ولما اقترح على شوارتزنبرج أن يعامل المجريين الثائرين بشىء من التسامح مما تقضى به الضرورة والمروءة قال ، فى بساطة أرستقراطية « نعم . نعم إنها فكرة طيبة ، ولكن يجب البدء بشنق بعض الأفراد » .

وفى الجزء الإيطالى الخاضع للنمسا أقامت الشرطة الإمبراطورية مخافر للتعذيب ،

زودتها بجنود قساة من الكروات والتيوتون على جانب المسرح ليخمدوا أى حماس ثورى فى النظارة من عشاق الأوبرا الإيطالية ورواد المسارح . واضطر شارل ألبرت ملك سارديـنيا ووالد فكتور إمانويل الثانى ملك إيطاليا فى المستقبل القريب إلى الاستقالة ، ورجعت إلى الوراء حركة الاستقلال الإيطالية الرائعة عشر سنوات — عشر سنوات لا تزيد .

وبتحريض من شوارتزنبرج وضع فرانسيس يوسف أمام عينيه الدرس الذى وعاه من هربه يوم قيام الثورة، لقد فهم يومئذ أن تيارات التاريخ يمكن ألا يعبأ بها إذا كان لدى الإنسان القوة الكافية . واعتقد أن لديه القوة، وأعلن عن تصميمه على مقاومة الحركة الثورية فى رأس سنة ١٨٥٢ بإصدار ميثاق جديد للامبراطورية، سنداه ولحمته الحكم المركزى المطلق، وبهذا ألغى بجرة قلم كل ما كسبه شعبه وشعوبه فى ثورتين . وبهذا التصرف العملى لم يقبض الإمبراطور على جميع أزمة الحكم فى يده فحسب ، بل ألغى كل الحقوق التى كانت قائمة من قديم الزمن بين الإمبراطور وبين الممالك والأملاك الخاضعة له .

إن مترنيخ نفسه لم يذهب طول حياته إلى مثل هذا المدى البعيد . وبنفس الأسلوب الانتحارى الذى اتبعه نقولا الثانى فى حكم روسيا قام فرانسيس يوسف بتجاريبه الضعيفة فى الحكم المطلق ، التى دعت الثورة إلى أن تشرع أشد أسلحتها فتكا، نعنى بها مهارتها فى دفع خصومها إلى الانتحار الجنونى . ومن سخرية القدر أن فرانسيس يوسف ربما نجا من الهزيمة بسبب فداحة أخطائه . لقد بلغ خطؤه فى فهم الحالة السياسية العامة فى أوربا إلى المدى الذى انتزع عنده سيف الرجعية من يده قبل أن يقطع عنقه به .

ومما كتب الإمبراطور إلى أخيه ماكسيمليان ذات مرة، وكان حاكماً من قبله

على لومبارديا « راقب بيدمونت دائماً . إنها أرض خصيبة لنمو الميول الهدامة ». ورغبة منه فى القضاء على تلك الميول قبل أن يستفحل أوارها كتب فرانسيس يوسف سنة ١٨٥٩ إلى حكومة فكتور إمانول الثانى الشاب إنذاراً تفوق شدته ما أنذرت به الصرب — بعد حادث سراجيفو — بوجوب تخلى سارديniا وبيدمونت عن التسلح . وكان هذا بطبيعة الحال للقضاء على الحركة القومية التى لا تروقه فيهما ، وكان هذا الإنذار وفق مايرجوه رئيس وزراء فكتور إمانويل الكونت كافور ، وكان وطنياً مستنيراً قرأ ما كتبه مكيافيلى وروسو ، وكانت بينه وبين نابليون الثالث محالفة دفاعية تنفذ فى حالة أى اعتداء عليه من النمسا . وكان لنابليون هذا منظر المقامرين الذين يباشرون لعب الميسر فى قوارب نهر المسيسبى ، كما كان له عقليتهم ، وكان تواقاً لأن يعتدى عليه . والالقاء الأخير بين الجيوش النمسوية المجرية وبين الجيوش الفرنسية الإيطالية فى ماجنتا ثم فى سلفرينو لم يكن معركة فاصلة ، ولكن كان فيه تكرار لحروب بونابرت المخضبة بالدماء فى إيطاليا . وخشى مغبتها الإمبراطوران المنزعجان جميعاً (وكان كل منهما على رأس جيشه فى المعركة) ، ثم تم الصلح وبمقتضاه انسلخت لومبارديا من النمسا (ثم توج فكتور إمانويل ملكا على إيطاليا بعد ذلك بسنتين) ورجع فرانسيس يوسف إلى فينا يلعق جروحه ، ومنح رعاياه دستوراً سمحا فى ظاهره ، فضلا عما كان يضمره من سوء النية فى بعض نصوصه .

ثم إن الإمبراطور الذى بلغ حينئذ التاسعة والعشرين من عمره لم يتخل عن محاولاته الشخصية فى الاستبداد فحسب ، بل حاول أن يعمل على مجاراة الحركة الوطنية . وفى سنة ١٨٦٣ حاول أن يكون على رأس حركة الوحدة الألمانية ، فدعا إلى عقد اجتماع لجميع الأمراء الألمان فى فرانكفورت ، ولا شك أن فكرة اقتراح إمبراطور من أسرة هابسبرج لإعادة صورة مشوهة للامبراطورية الرومانية المقدسة

التى كانت لأسلافه ، على أن يكون هو رئيساً لألمانيا الوطنية الحديثة التى اختمرت فيها المبادئ الماركسية ، فضلا عن مبادئ تروتسكى - لا شك أن فكرة كهذه تنطوى على كثير من السخف ، فضلا عما فيها من التحدى . فإن أسرة هوهنزولرن فى بروسيا أعلنت بوضوح عن حقها فى الاضطلاع بمهمة وحدة ألمانيا ، كما قامت أسرة سافوى بمثل هذه المهمة فى إيطاليا ، فضلا عن أن المستشار الألمانى بسمارك كان مصمماً على توحيد ألمانيا بالنار والدماء ، وفى سنة ١٨٦٦ حاول أن يوقع فرانسيس يوسف فى الشباك التى جعلها كافور على مرأى منه وأعلن الحرب. وعندما رأت إيطاليا أن أمامها فرصة للكسب انضمت له ، وحارب معظم الأمراء الألمان بما فيهم أمير بافاريا مع الجانب النمسوى ، ولكن الأسلحة الآلية البروسية الفتاكة تحت قياد الجنرال مولتك أوقعت الهزيمة المنكرة بجيوش الإمبراطور عند سادوفا فى شمال بوهيميا .

وكلفت الهزيمة فرانسيس يوسف ضياع البندقية والمنطقة الغنية التى وراءها . وعندما سمع الإمبراطور السابق أنباء الهزيمة وهو تحت العلاج فى براج قال «ألهذا أجبرونى على التنازل . كان فى وسعى أن أخسر بنفسى هذه الولايات» . بل كان أشد إذلالا لأسرة هابسبرج التى كانت تحمل على رأسها تاج الإمبراطورية الألمانية المقدسة أن تطرد من المجتمع الألمانى، وأن تتم الوحدة الألمانية تحت رعاية أسرة هوهنزولرن المنتصرة .

وكانت الضربة التى أصابت مكانة الإمبراطور ضربة قاصمة تزلزل أى ملك أقوى من الملك فرانسيس يوسف . ثم إن هزيمة سادوفا قلبت ميزان السياسة الداخلية فى الإمبراطورية ، كما قلبت ميزان القوى فى أوربا كلها . ولم يكن هناك ما يمنع وقوع الثورة والحصول على معونة صادقة فى حرب انتقامية ضد بروسيا

إلا بالاتفاق مع المجر ، التى هى أقوى الأقليات التى تتكون منها الإمبراطورية . وكانت نتيجة ذلك معاهدة سنة ١٨٦٧ التى قامت على أساسها الدولة الثنائية التى هى فى الواقع إقرار بسلطان المجر . وهذا الاتفاق الخاسر كان من السماحة بحيث منح المجر دستوراً حرا تتمتع فيه بمزايا كثيرة داخل الإمبراطورية ، ولكنه كان من الرجعية فيما منح المجر من السلطان ، حتى صارت لهم دكتاتورية عنصرية، عدا الرومانيين والسلوفاك والروثينيين والصرب والكروات الذين يقيمون فى أوطانهم مدى أحقاب بعيدة . هذا والصرب والكروات الذين أيدوا العرش سنة ١٨٤٨ أحسوا بخديعة الأسرة لهم ، ورددوا هذا المعنى فى كلامهم . وهذا الاتفاق فى الواقع قضى على السياسة التقليدية التى كانت تقضى بحفظ التوازن بين الأقليات المختلفة فيها وأحلت محلها حكم الأقليات . وكان فرانسيس يوسف يعتزم أصلا إصدار دستور فيدرالى حر بعض الشيء فى نصف الإمبراطورية النمسوى، ولكن خوفا من العدوى أجبره المجريون على إقامة نظام للحكم يضمن وحدة العنصر الألمانى ، بينما يعترف من الناحية النظرية بحقوق متساوية لجميع القوميات التى تتكون منها الإمبراطورية . وكانت النتيجة نفور التشيك وكذلك إلى حد ما نفور سائر العناصر الأخرى فى النمسا .

وفى هذه الظروف كانت الإجراءات الدستورية تنطوى على شيء من الترف له خطره. وقد ظل فرانسيس يوسف يعتقد — وله بعض الحق — أنه ليس من السهل تطبيقها فى كل أنحاء الإمبراطورية، ولذلك كان كبير الإيمان بلزوم المادة الرابعة عشرة التى صمم على أن يتضمنها الدستور النمسوى، والتى تنص على أن للامبراطور عند الضرورة وعلى سبيل الاستثناء إصدار بعض الأوامر دون الرجوع للبرلمان . وعبارة على « سبيل الاستثناء » أصبحت هى السبيل إلى الحكم المثمر ، كما كانت موضع دعابة عند الكتاب . ومما جرى على الألسن أن النمسا لا هى حكومة مطلقة

ولا هى حكومة ديمقراطية بل هى حكومة ضرورة . وعندما حلت سنة ١٨٦٧ كان فرانسيس يوسف قد تغيرت نظريته السياسية من الاستهانة الشديدة بالأمور التى كانت طابعه أيام شوارتزنبرج وأصبح أصلب عوداً من أثر المصائب التى حلت به. ولكن الفشل الذى لازمه فى حياته الطويلة أصبح من مميزات حكمه التى لا تمحى . وإذا صدق هذا فى حياته العامة فإنه كان أصدق فى حياته الخاصة .

كانت قصة زواج فرانسيس يوسف ومتاعبه العائلية من القصص التى ليس من السهل روايتها لأسباب عدة . إنها أولا أشبه شىء بالبحث والتنقيب فى صندوق قديم والعثور على صور قديمة ومذكرات قديمة وخطابات غرام وحب لبعض الجدود، تجدد ذكر مأساة بعيدة بعد أن نسيتها الذاكرة. وإن الإنسان ليصيبه الذعر بل الاضطراب الشديد عندما يكتشف أن هؤلاء الناس الذين غيبتهم القبور والذين ترمقنا عيونهم من خلال صورهم القديمة قد قاسوا ما نقاسيه نحن من عذاب وألم . وثانياً إن القصة التى توحى بها حياة إليزابيث المنسوبة وموتها إلى ما تثيره ذكريات ابنها السيء الحظ رودلف، لا بد أنها تضعف ما قد يعلق بالذهن عن الشخصية الهامة الوحيدة فى هذه المأساة ــ أعنى به فرانسيس يوسف نفسه .

كان فى الثالثة والعشرين عندما لقى إليزابث لأول مرة ،وكانت هى فى السادسة عشرة وهى الإبنة الثانية لماكسيمليان دوق بافاريا . وكان الإمبراطور الشاب موضع نظر كثير من البارونات، ولكن واحدة منهن لم تثر فيه أية عاطفة للحب . وأحب إليزابيث منذ النظرة الأولى . وكانت أمه صوفيا تود لو اقترن بكبرى أميرات بيت ويتلزباك، ولكن لم يعد هناك أى مجال لأية عروش غير إليزابيث بعد أن رآها سنة ١٨٥٣ فى باداشل إحدى العيون المائية التى كان يرتادها علية القوم إذ ذاك . وكان زواجهما فاتناً ، محققاً لما يجول فى خاطر الآلاف المحبين من أحلام ، ومحققاً لا ريب لأحلام الزوجية كذلك . كانت العروس فاتنة ذات قوام

معتدل جميلة التقاطيع حالكة الشعر تسبق (المودة) السائدة بما لا يقل عن نصف قرن . وكان مظهر فرانسيس يوسف فيه رجولة ، وكان رشيقاً فى حلته العسكرية ، كما كان فارساً ماهراً وراقصاً ممتازاً ، مرحا فيه فتنة . وكان سهل الطباع عظيم الخلق .

وكانت إليزابيث الفتاة الموهوبة الذكية التى تفعل ما تمليه عليها الطبيعة المتحررة ، مغرمة بالتجول وحيدة على ظهر جوادها فى الريف البافارى . وكان أمامها امتحان قاس لتكون إمبراطورة فى أسرة هابسبرج . وهى لم تعد لمنزلتها الجديدة ولم تملأ خيالها إلا قراءة الأدب الشعبى . وكثيراً ماسودت مذكراتها بالشعر العاطفى . وكان من العسير عليها أن تلائم بين نفسها وبين الحياة فى قصر هوفبرج وما فيه من تقاليد صارمة . ولقد قضت سنوات من السعادة مع زوجها الفاتن ، ولكن الحياة فى بلاط الهابسبرج ليست قصة خيالية ، ولهذا كانت عاجزة عن تهيئة عاطفتها لقبول الأمر الواقع ، لا كإمبراطورة ولا كزوجة ولا كأم . ورغم عظيم حب زوجها لها لم يستطع أن يقدم لها أية معونة فى هذا السبيل ، وحاول أن يرضيها بكل الوسائل ، حتى إنه أقام لها حماما إنجليزيا فى القصر ، غير أن أعباءه لم تترك لديه وقتاً يخصصه لها ، ولكن خياله كان ضعيفاً ، ويبدو أنه لم يتعلم شيئاً نافعاً من هذه البارونة التى تعيش عيشة صحية . ولكنه كان كعظم الرومانسيين أشبه بالخنزير فى حياته المنزلية . إن خلقه فى حبه كان كعظمته فى حكمه ، كلاهما لا يتجلى إلا فى الأوقات العصيبة .

ولم تكد تبلغ الخامسة والعشرين عندما سافرت لأول مرة إلى الخارج قاصدة ماديرا ، متعللة بضعف صحتها . ومنذ هذا الوقت اشتدت أمراضها العصبية . وأخذت تتنقل بين المصحات والينابيع المعدنية ، وتتبع النظم الصحية فى الغذاء والعلاج .

وكانت مغرمة بالسياحة والشعر القديم والطب النفسى ، كما كانت مشغولة بنفسها أكثر من كل شىء .

وكان قصرها فى كورفو مكاناً لخلوتها وللاسراف الشديد . وكانت من سيدات الصالونات السابقات فى هذا المضمار ، وكان كرمها يتجلى فى الإسراف الشديد وفى إنفاق كل ما خصصه لها زوجها ورعيتها على الخيل والمنازل واليخوت والأطباء وعلى موائد الميسر فى مونت كارلو .

وعندما بلغ سن الأربعين كان الدور الوحيد الذى يؤديه فى حياة زوجته إليزابيث هو دور الوالد المستسلم لنزوات ابنته العنيدة . وقد أداه فعلا على أتم وجه وإلى أبعد الحدود . وبينما كانت إليزابيث تقوم بما لا ينتهى من الرحلات استكمالا لصحتها وإرضاء لشبابها وإشباعا لميولها نحو الجمال ، كان هو يجلس على مكتبه اثنتى عشرة ساعة أو ست عشرة ساعة فى اليوم دون أى ملل ، ينزع الأجزاء غير المستعملة من الخطابات الواردة ليستعملها للكتابة (ربما كان يفعل ذلك ليستعيض به عما تنفقه زوجته) ، ويأكل الأطعمة الخفيفة التى يزدردها مع زجاجة من الجعة . ثم إنها تركت الأعمال المنزلية وواجبات البلاط الاجتماعية ووكلت بها إليه ، وكان يؤديها بمثل الدقة التى يؤدى بها أعماله الرسمية . وكان يذكر كل أعياد الميلاد الخاصة بالأسرة بما فيها أعياد من كان منهم مقيما مع الأسر الملكية الأخرى فى أوربا . ولا يفوته ملاحظة زر واحد علاه الصدأ فى حلة حوذى ، أو طبق وضعه بإهمال أحد الخدم فى وليمة رسميـة . وكان دائم الرعاية لها ساهراً على سعادتها وهو بعيد عنها ، لا ينكر ولعها بالبرقيات غير الموقعة منها . وكانت خطاباته إليها وبخاصة المكتوبة باللغة المجرية — التى كانت فيما يبدو لغة (رفع الكلفة) بينهما — رقيقة مؤثرة ، ولكنها لا تنزل إلى حد الابتذال .

كتب لها سنة ١٨٩٢ « دعيني أفصح لك — لأنى لا أستطيع أن أبين لك — (ولو فعلت لضايقك ذلك كثيراً) إلى أى حد أحبك » .

وبعد ذلك بست سنوات — وكان هو فى الثامنة والستين وهى فى الحادية والستين ولم يبرأ بعد الجرح القديم — كتب لها يقول « إن حاجتى إليك لا تنتهى وأنت دائماً فى فكرى ويؤلمنى ابتعادك عنى . ما أشد ما تحزننى حجراتك الخالية » .

وكانت تهوى الركوب والصيد فى المجر، ولعل حب الانطلاق فى النفس المجرية صادف هوى فى الجانب الأدبى منها . ثم إن الدوقة صوفيا كانت تكره المجريين والإمبراطورة تمقت حماتها . وهذه أسباب كافية جداً للحدب على آمال أهل المجر السياسية ، ولا شك أنها كان لها فى هذه الناحية تأثير على الإمبراطور وبخاصة عام ١٨٦٧ عند إبرام الاتفاق الممقوت . وكان دورها الأكبر فى مأساتنا الكبرى فى وقتنا الحاضر سلبياً ، كما كان أقل بشاعة وأبعد عن أن يكون له أثر مباشر أكثر من الدور الذى قامت به إمبراطورة روسيا زوجة نقولا الثانى ، وإن كان لا يقل عنه خطراً . وبحرمانها زوجها من الدفء الذى يحتاج إليه أكثر من أى رجل آخر حتى تكمل رجولته ، بسبب انغماسه ووحدته فى عمله الرسمى ، قضى عليه عدم نضجها بأن تطغى حياته الرسمية على شخصيته ، وأن يتحول من رجل له إحساسه فى مكتب إلى صنم حكومى . وعندما تقدمت به السن أصبح فيه الجمود وعدم المبالاة وحماسة الجالس على عرش الإمبراطورية البيزنطية المختلفة الشعوب والبلاد . وقد كان ينظر إلى الفوضى السائدة فى الإمبراطورية بعين جامدة لا ترى ونفس خائرة لا تحس .

والغذاء المزيل الذى كان يرد إلى قلب الإمبراطور من قبل زوجته وعلاقته

بهالينعشه ، نقصت قيمته بتوالى المصائب عليه — التى بدأت مبكرة — قبل ما كلفته الشيخوخة ما كلفته من أعبائها . ماتت أولى بناته بينما كان الزوجان الإمبراطوريان يقومان بزيارة رسمية للمجر فى أوليات سنى الزواج . وفى سنة ١٨٦٧ فقد فرانسيس يوسف زميل طفولته العزيز ماكسمليان أخاه الأصغر — الذى أغراه ذلك المغامر الباريسى المخبول على التربع على عرش الإمبراطورية المكسيكية تحت وصاية نابليون الثالث . تلك المهمة التى دفع ثمناً لها حياته وحياة كثير غيره من الرجال . وفى سنة ١٨٨٩ وجد رودلف ولى العهد مقتولا فى مسكن الصيد فى مايرلند بجوار جثة خليلة له فى السابعة عشرة — البارونة مارى فتسيرا . وبحثت كل الاحتمالات والفروض الباعث على هذه المأساة الغامضة ، وكانت أقوى الاحتمالات أن الموت كان نتيجة انتحار ثنائى ، ولكن الباعث على انتحار رودلف لم يكن مقصوراً على أسباب عاطفية . لقد كان صاحب رأى حر وكان جريئاً فى إبداء رأيه ، بل كان ثورياً صريحاً ، وكان كأمه لا يحتمل الحياة فى قصر هوفبرج . ومهما كان سبب موته فإن الصدمة التى أصابت الإمبراطور كانت فى غاية القوة ، لأنها وقعت عقب مشادة بين ولد ووالده ، أثارتها رغبة رودلف فى الزواج بخليلته ، وتطليق زوجته البلجيكية الأميرة ستيفانى .

ولكن أفدح كارثة حلت بفرانسيس يوسف كانت فقده لزوجته إليزابيث ، بطعنة أصابتها من يد فوضى إيطالى وهى على أهبة ركوب سفينته للنزهة فى بحيرة جنيفا سنة ١٨٩٨ . وعندما سمع الإمبراطور الخبر أجهش بالبكاء ، ويروى أنه قال « لن يعلم العالم مقدار حبنا لبعضنا » ، وفى مناسبة أخرى فى لحظة من اللحظات النادرة التى كان يندب فيها حظه ، قال فى أسى شديد «أنا بومة» (طائر معروف بسوء الحظ) وليس فى هذا القول شىء من المبالغة .

ومن الطبيعي أن حياة فرانسيس يوسف لم تكن كلها من عهد شبابه إلى شيخوخته مأساة ليس فيها ما يذود عنه بعض أحزانه . لقد كان في حياته بعض السلوى ، ففي ربع القرن الأخير من حياته كان أهم مارفه حياته ممثلة جذابة اعتزلت التمثيل تدعى كاترينا شرات . وكانت إليزابيث نفسها هي التي عرفته بها وقدمتها إليه وجعلت منها رفيقة له في شيخوخته . وهذا الإجراء من التصرفات الحكيمة التي تتفق مع ظروف الحياة السائدة في فينا حينذاك . ولعلها إحدى الحسنات القليلة التي أدتها إليزابيث لزوجها . وكانت كاترينا ذات مزاج مرح لا تحس بالحرج في تصرفاتها ، وكانت متفوقة في التمثيل والغناء .

وكانت السيدتان صديقتين ، وفي كلتيهما خلة مشتركة هي الإسراف . ومع أن كاترينا لم تكن من أصل رفيع إلا أنها تستحق التقدير ، ويبدو أنها كانت تحب هذا الرجل المبجل المعجب بها ، فكثيراً ما كانت تقدم له تذكارات مادية ملموسة لهذا الحب ، منها صندوق موسيقى تصدح بأنغام البلابل ، مما كان مبعث مرح أحفاده في زياراتهم الكثيرة لجدهم الإمبراطور . ومنها مرآة صغيرة لها إطار مصنوع من حروف هذه الكلمات (صورة الشخص الذي أحبه) وكان هذا موضوعاً دائماً على مكتبه .

وكانت حديقة الفيلا التي تقيم بها كاترينا تفضي إلى حديقة شوينبرن العامة ، وكان فرانسيس يوسف يجتازها ماشياً كل يوم تقريباً ليتناول الإفطار معها وبخاصة بعد موت زوجته . وفي اللحظة التي يصل فيها إليها تكون هي قد استعدت له وقابلته مبتسمة في حلتها الكاملة — ولو أنه كان يستيقظ كل يوم في الخامسة صباحاً — بينما (كنكة) القهوة التي تبعث ببخارها الساخن موضوعة على المائدة بجوار باقة الزهور الناضرة . وبينما هو يشرب قهوته ويتناول وجبته تصب هي في أذنيه من الحديث الممتع ما يهيء له يوماً هادئاً بحديث عائلي ممتع . لقد

كانت ابنة واحد من العامة ، ولو كانت ابنة أحد الملوك وقابلها فرانسيس يوسف قبل ثلاثين سنة من موعد لقائهما، فلربما كان لأوربا تاريخ مخالف لتاريخها المعروف.

وكان فرانسيس يوسف يرفه عن نفسه علاوة على زياراته لكاترينا شرات بشيء واحد هو الصيد . إذ يبلغ عدد ما صاده من الصيد الكبير وجعله فى ممرات قصره فى باداشل للذكرى ٢٢٠٠ رأس ، كان تاريخ آخرها سنة ١٩١١ ، وكان الإمبراطور يومئذ فى الحادية والثمانين . وكان صياداً جديراً بهذا الوصف لا جزاراً مغرما بقتل الحيوان مثل ابن أخيه فرانسيس فرديناند أو غليوم قيصر ألمانيا . وفى جميع الأيام تقريباً كان يستيقظ قبل طلوع الشمس (وكان سيدا بكل ما يحمل اللفظ من معنى) ويلبس حلة الصيد المصنوعة من الجلد وجواربه وحذاءه وقبعته ، ثم يتسلل بخفة حتى لا يوقظ بناته وأحفاده . وكان يتجول بين الجبال مع حارس صيده حتى الحادية عشرة ، ثم يستقر جالساً على مكتبه إلى آخر اليوم . وكان العمل أنجح دواء يقاوم به ما فى حياته من أحزان وما يصادف من فشل .

وكان له ولع بمظاهر العظمة ، ولكن لا يروقه بريق حياة البلاط المتكلف . وكانت الولائم الرسمية فى قصر هوفبرج فى عهده محنة قاسية لضيوفه . وكانت فخامة الأثاث والحلل التى يلبسها الخدم وحسن إعدادهم للخدمة الممتازة والصحاف الصينية والبلورية التاريخية والخمور المعروفة (والشمعدانات) العظيمة المتقدة (ويروى أحد المؤرخين أن كسر أحدها كان يسبب كثيراً من الأحداث الجسام) تجعل أكبر الأمراء يحسون بأنهم محدثون . ولما كان لا يحب إضاعة وقته فى تناول الطعام ، فقد كان يأمر خدمه بتقديم الصحاف التى تبلغ الاثنتى عشرة ورفعها الواحدة بعد الأخرى فى أقل من ساعة ، وكانت الأطباق ترفع عندما ينتهى الإمبراطور من أكله ، وربما رفعت الأطباق من الجانب البعيد من المائدة قبل أن يحظى الضيف بلقمة واحدة . وفى الاستعراضات الحربية كانت آداب المائدة

أبسط ، ولكنها كانت أشد صرامة . طلب غليوم الثانى مرة — وقد دعى إلى حضور استعراض نمسوى هام — من رئيس الخدم شيئاً من الشمبانيا مع الغداء ، ولكن الإمبراطور منع ذلك فى غضب وقال « لا نقطة واحدة . فليشرب جعة إذا أراد » .

وكان الإمبراطور فى النمسا هو الرئيس الأعلى للحكومة والدولة والقائد الأعلى للجيش ،وكان يوصف بأنه أحد الحكام المستبدين المقنعين، وكان يعمل بدهاء عظيم على أن يستر استبداده كلما أمكنه ذلك . وقد وهب الكفاية فى الحكم، ولم يكن يخشى كنقولا الثانى أن يفوض بعض سلطته لغيره . ومع ذلك جعل النظام السياسي المعقد فى الإمبراطورية الإشراف على الإدارة أو حسن تصريف الأمور فى غاية الصعوبة . وكلما تقدمت سن الإمبراطور ضعف اتصاله ووقوفه على أعمال الحكومة الهامة ، وتسربت السلطة من يده إلى كبار الموظفين الذين يحكمون باسم الإمبراطور ؛ وهكذا أصبح الحكم النمسوى المجرى والنظام الحربى الذى كان موضع إعجاب الجميع خليطاً إقطاعياً من الفوضى والمصالح المتضاربة التى لا تخضع للنظام الديمقراطى ولا للنظام الأرستقراطى، وكانت النتيجة التى سنراها فيما يلى من الكتاب أموراً خطيرة وبخاصة فى ميدان الدفاع والعلاقات الخارجية ، ولكنها وصلت إلى درجة أخطر فى المسائل الداخلية .

وكان فرانسيس يوسف يحس بنعرة انتمائه لأسرة هابسبرج بحيث لم يكن يرضيه أن يكون فى مستوى الطبقات الحاكمة من الألمان أو المجر فى الإمبراطورية ، كان يعتقد أن العنصر الرفيع هو أسرته وحدها . وكان يرى أن الأوتوقراطية مبدأ سليم ، ولكن لم يستشعر الجانب الدينى الذى كان لدى نقولا الثانى فى حماية هذا المبدأ . كل ما كان يهمه مكانة أسرته . وفى كل مشكلات الأسرة ما خف منها وما عظم كان يعمل وفق التقاليد بكل دقة .

ومن أوامره المضحكة أن يقوم حرس القصر الإمبراطورى بفروض التحية كلما مرت أمامهم عربة بها مرضعة تحمل رضيعاً من أبناء الأسرة فى غدو أو رواح. وقد حاول أن يمنع زواج فرانسيس فرديناند لعدم التكافؤ بين الزوجين، كما منع طلاق رودلف من قبل، فلما تم القران كان يغضى عن سوء معاملة رجال البلاط لزوجة ولى العهد واحتقارهم لها حتى بعد منحها لقب دوقة هوهنبرج، ذلك لأن اقتران أحد أفراد أسرة هابسبرج من إحدى نساء الشعب يعتبر خطيئة موجهة للأسرة فى نظر الإمبراطور ويجب أن يكفر عن هذه الخطيئة. لقد كان الإمبراطور متعصباً وكان مستبداً فى هذه الأمور.

وأما فى المسائل العامة المتعلقة بالسياسة القومية بما فيها مشكلة « الأقليات » فقد كان فرانسيس يوسف يتصرف إذا لزم الأمر فى منتهى المرونة، ولم يكن شديد العناد إزاء زيادة الشعور القومى الذى كان يبديه رعاياه، ولكن ما كان يعوزه هو الإدراك السياسى ليستطيع التوفيق بين آمالهم التى تتعارض مع ما تستطيع الأسرة أن تؤيده كما أيدت فكرة الوحدة المسيحية فى أوربا. ومن هنا كان الخلاف — بين الإمبراطور وولى عهده وكان فى البلاط وفى الإدارة وفى الجيش — بسبب زواج فرانسيس فرديناند — مجلبة لسوء الطالع من أكثر من جانب واحد.

وإذا كان رأى بعض المدافعين عن أسرة هابسبرج اليوم أن فرانسيس فرديناند وهو شخص مستنير كان فى وسعه أن يجعل من الإمبراطورية وحدة أوربية مثالية لو لم يقض عليه متعصبو البلقان، فإن هذا الرأى يبدو غير صحيح فى جملته. فقد كان مسلكه جنوحا إلى الاستبداد كما كان فى طبعه نزعة إلى الرجعية، حتى ليصعب عليه أن يؤدى هذا الدور لو وكل إليه. لقد كان ذا بديهة حاضرة،

ولا شك أنه كان يحس بأن الضرورة تقضى بإيجاد حل جذرى لمشكلة القوميات التى فى الإمبراطورية ، وكان المظنون أنه كان يحيط نفسه فى قصر بلفدير ببعض المفكرين ذوى الآراء الجريئة التى لم يسبقوا إليها . وكان الدوق فى وقت من الأوقات — مدفوعا بتأثير هؤلاء — مؤيداً لثلاثية الدولة — التى تعنى تحويل الدولة الثنائية إلى اتحاد ثلاثة الدول الوطنية تتكون إحداها — على حساب المجر — بتحرير جزء من السلاف الذين فى الجنوب ، ولكن فرانسيس فرديناند انتهى إلى أن تقديره غير دقيق وغير عملى ، ولكنه كان فى رأى مريديه يتلمس الطريق لبلوغ مايهدف إليه من تكوين دولة فيدرالية متحدة من ولايات متحدة نمسوية حقيقية ، ولو نجح فعلاً فى تكوينها لكان فى ذلك سلامة أسرة هابسبرج بل وسلامة أوربا بأسرها .

وليس من المهم معرفة المدى الذى وصل إليه الدوق فى أثناء سيره فى طريق الإصلاح . ولاشك أنه كان سائراً فى الطريق الصحيح . ولكن لم يكن الإمبراطور مستعدا لقبول ما ينصح به ابن أخيه الجرىء . وفضلا عن تقديره الشخصى لم يكن مؤمناً بعمل تجارب فى أساليب الحكم الحديثة كإقامة النظام الفيدرالى . ولم يمر بخاطره مطلقاً أن فى حيازته حسب تقاليد الأسرة أية وقاية ضد أمراض القومية الحديثة . لقد كان يضع كل ثقته فيما جرب واختبر من وسائل الحيطة الفعالة — درهم من الحزم وأوقية من السماح بالمطالب وحبة من المكر الطيب . بهذه الروح قابل الإمبراطور الشيخ رغبة المجر فى الانفصال ، وعندما ضايقه اليساريون بالمطالبة بالإصلاحات الدستورية رأى أن يضع الاشتراكيين النمسويين فى وضع يعارضون فيه الرجعيين المجريين ، وهكذا أثار فى آخريات أيام حكمه من القوى ما جعلها فى ثورة دائبة .

حضر أحد الصحفيين الأمريكان المقيمين فى فينا إحدى جلسات مجلس النواب النمسوى، وقد تركت الجلسة فى نفسه أثراً لايمحى. وفى كتابه الجليل الممتع « النمسا والمجر » ذكر وصفا للمشهد العجيب الذى رآه .

« كان النواب الخمسمائة تقريباً الذين رأيتهم يدخلون إلى الجلسة أشبه بالمجانين فى منظرهم وتصرفاتهم . كان موضوع البحث حقوق ومزايا إحدى اللغات الثمانية المعترف بها رسمياً وأظنها اللغة الروثينية التى أوصلتهم إلى هذه المرحلة من الاهتمام، وهذا هو المنظر العجيب الذى أذكره . حوالى عشرين شخصاً فى أزياء محترمة يجلس كل منهم على مقعد صغير ، بعضهم يثير غوغاء صاخبة ويفتح ويغلق غطاء مكتبه بعنف، وبعضهم يطلق أصواتاً مزعجة من مزامير فى أيديهم والبعض الآخر يعزف على آلات موسيقية أو يدق على طبول ، وعلى رأس هؤلاء رجل ذو لحية شعثاء فى الخامسة والستين تقريباً يعمل كأنه رئيس الفرقة الموسيقية يرشد هؤلاء وهؤلاء فى قوة الصوت ومقامه .

وعلمت أن الأمر ليس مقصوراً على الحزب الروثينى ، بل لكل حزب ما لهؤلاء من آلات العزف والمزامير والأجراس والطبول » .

ولم تكن الاضطرابات القومية ولا الاحتكاكات العنصرية أحداثاً جديدة فى إمبراطورية الهابسبرج، فإن بذور القومية أخذت تنمو طيلة القرن التاسع عشر فى جميع طبقات الأهالى، والتاج نفسه بما تعود من اتباع سياسة فرق تسد شجع على هذا الاتجاه بما منح من المطالب لبعض العناصر كالتشيك والمجر ، الذين كان فى وسعهم — لما لهم من قوة — أن يسببوا بعض المتاعب الخطيرة للدولة . أو كالبولنديين فى غاليسيا الذين كانوا على استعداد لأن يكونوا حرساً للدولة . وكان من التقاليد التى جرى عليها الهابسبرج أن يبقى على الدوام شيئاً من التنافس بين الأقليات .

ومع هذا فقد أفلت زمام الأمر نهائياً من أيدى ولاة الأمر، ولم تعد النمسا «سجن الشعوب» كما كان يحلو للدعاة من الأعداء أن يسموها ، بل صارت شيئاً فشيئاً أشبه بمستشفى الأمراض العقلية للشعوب المختلفة (ولم تكن النمسا هى المثل الوحيد فى تاريخ الاستبداد الذى يقضى على نفسه من طريق محاولة الإصلاح) ؛ ففى المجر زادت محاولة إجراء انتخابات بريئة الخلاف الحاد بين المجريين أصحاب النفوذ والشعوب الأخرى فيها . وفى النمسا فتح تعميم حق الانتخاب الباب لانتخاب الأميين بكثرة وتحكمهم فى الأمور ، وكان من نتائج ذلك ، الاضطراب الشديد الذى يقع باستمرار فى البرلمان .

ومن العجيب مع كل هذه الاعتبارات أن الحركة الانفصالية كانت ضعيفة فى الدولة الثنائية . ولعل أكبر استثناء لذلك كان بين الألمان أنفسهم . وكان أتباع جورج فون شونرر وغيره من الدعاة يرغبون فى تجزئة الإمبراطورية والانضمام إلى ألمانيا الهوهنزولرنية . ومعظم الأقليات كانوا أميل للبقاء فى حضانة الحكم الهابسبرجى من أن تهضمهم الدولة الروسية أو الدولة الألمانية .

ولقد ظل الأمر كذلك مدة حتى بدا ألا مفر من الوضع القائم ؛ ولكن ما بين سنة ١٩٠٥ و ١٩١٤ حدثت تطورات جديدة فى أوربا كان لها أثر ثورى فى الحركة الوطنية فى النمسا والمجر كما تأثرت هى بدورها بها . وقد حان الوقت أن نولى وجهنا شطر الجنوب الشرقى ونسير فى الطريق الملتوى الذى فى البلقان حتى نصل إلى سراجيفو .

الفصل السادس

تراث الرجل المريض

كانت الأسرة المالكة العثمانية التى نخرها السوس أولى الحكومات المطلقة الكبرى الباقية فى أوربا إبان القرن العشرين، التى انهارت أمام عواصف التطور، وكان انهيارها أشد هولا مما قدره معظم من شهده من المعاصرين. وفى وسعنا الآن أن ندرس كل ماشهده العالم من العواصف والانقلابات منذ انهيارها حتى وقتنا الحاضر، لنقدر تقديراً صحيحاً أهمية هذا الحادث. ومع أن الملكية لم تلغ رسمياً فى تركيا إلا بعد الحرب الكبرى، إلا أن القضاء على الحكم المطلق يرجع إلى ١٩٠٨. ففى الثالث والعشرين من شهر يوليو من تلك السنة استجاب السلطان عبد الحميد الثانى — فى محاولته اليائسة لإنقاذ عرشه — إلى مطالب جماعة من العسكريين الثائرين — المسماة بالشبيبة التركية — وأعلن الدستور. وهذا التعديل أحدث فعلا تغييراً حقيقياً فى مركز القوى، وقضى من الناحية العملية على نظام استبدادى شبه دينى ظل قائماً طيلة تسعة قرون كاملة فى أكبر إمبراطورية تقع غرب حائط الصين الكبرى، وتحتل أجزاءه من ثلاث قارات، من نهر الدانوب إلى المحيط الهندى، ومن القوقاز إلى شواطئ طرابلس.

وتحتفل تركيا الحديثة بذكرى الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٠٨ كل عام باعتباره عيداً قومياً. ويجب أن يرجع هذا التاريخ إلى الوراء لأسباب مختلفة فى التقويم التاريخى للأحداث. فإن من يطلع على مذكرات شهود العيان الغربيين الذى كانوا وقتئذ فى القسطنطينية (اسطنبول) عاصمة الأباطرة البيزنطيين التى فتحها العثمانيون، يحس أنه يعيش لحظة من تلك اللحظات التى تنبىء بانقلاب ثورى، ويخرج فيها التاريخ عن الطريق الذى خطه القدر، وتصبح الأحداث لاتحمل إلا البراءة.

لقد كانت تلك اللحظة فعلا — هى ليلة ٤ أغسطس المشهورة عام ١٧٨٩ عند مبدأ قيام الثورة الفرنسية ، عندما أعلن نواب طبقة النبلاء المجتمعون فى الجمعية التأسيسية من تلقاء أنفسهم نزولهم عن حقوقهم الوراثية . إن ماحدث فى اسطنبول فى يوليو سنة ١٩٠٨ واستمر عدة أيام متتالية لشبيه بهذا فى انطلاق الآمال ويقظة العقول وإعلان الآخاء والإصلاح .

وما إن صدرت الصحف تحمل التصريح الإمبراطورى فى الصباح الباكر للرابع والعشرين من يوليو حتى هرع الأهالى كأنهم استيقظوا من كابوس ثقيل كتم أنفاسهم عدة قرون ، واحتشدوا عند جسر جلطه عند القرن الذهبى وفى ميادين اسطنبول العاصمة السابقة للدولة البيزنطية . ويقول أحد شهود الحادث « سار الرجال والنساء فى موجة مشتركة من الحماسة يعبرون تعبيراً قوياً عن إحساسهم الفياض ، يضحكون تارة ويبكون تارة أخرى. وكان الغوغاء وطبقات الشعب الدنيا يسيرون متقدى العواطف، وعيونهم تفيض بالدمع على وجوههم التى لم يغسلوها ، واشترك فى ذلك أصحاب الحوانيت دون أى اهتمام بما فى حوانيتهم من سلع وبضائع » .

وفى تلك الأيام كانت اسطنبول — وهى عبارة عن مجموعة من المدن والضواحى المبعثرة بين أوربا وآسيا على ضفاف البسفور وبحر مرمرة — هى مقر الحكم لإمبراطورية عظيمة الاتساع . وكانت كما هى اليوم خليط عجيب يجمع بين الشرق والغرب وبين البساطة والعظمة ، ولكن الذى لاشك فيه أنها كانت أكثر ثراء وأشد اصطباغا بالطابع الشرقى مما هى عليه اليوم . وكانت تجمع إلى مافيها من مآذن سامقة وقباب تعلو كل مسجد ، تلك المناطق ذات الجمال التركى بما فيها من دور ضيقة عالية تمتاز بنوافذ خضراء أو زرقاء مصنوعة على طراز شرقى. ويدل منظر شوارعها

حتى فى الأيام العادية على حيوية ونشاط إنسانى عجيب ، ولا غرو فهى عاصمة إمبراطورية مكونة من « أقليات » تمثل جميع أطوار التقدم الحضارى من الدروز سكان جبل لبنان ، إلى البـدو الرحل فى ثيابهم الفضفاضة المهلهلة ، إلى الفلاح الأسمر الأناضولى فى سراويله المنبعجة — وهو الوحيد فى هؤلاء الذى يمثل التركى الحقيقى — إلى ذوى الأناقة الباريسية أو اللندنية فى الطبقة الأرستقراطية من جميع البلاد . ولم تكن هذه الأخلاط فى يوم من الأيام أكثر ظهوراً منها فى يوم هذه الثورة البيضاء . ولقد اشتد الزحام عند الباب العالى ، ذلك البناء الضخم الذى كان يضم الوزارات الحكومية ، وفى ميدان أيا صوفيا أقدم كنيسة فى الشرق المسيحى أقيمت فى القرن السادس على أساس كنيسة القسطنطينية الأصلية وتحولت سنة ١٤٥٣ إلى مسجد إسلامى . وعند كل مكان مناسب كان شباب الضباط الثائرين فى زيهم البروسى الأبيض المثبتة به شارات الحرية ذات اللونين الأحمر والأبيض يخطبون الناس باسم جمعية الاتحاد والترقى التى تألفت لمقاومة الاستبداد الإمبراطورى ، والتى انضم إليها رجال الجيش الذين ندبوا للقضاء على الثورة . وفى حماسة عظيمة أخذوا يبشرون بالحرية والإخاء والمساواة بين جميع رعية السلطان فى الدولة العثمانية الحديثة .

ولم يكن هناك قتال ولا أى اختلال فى النظام العام ، وإنما كانت مظاهر الفرح والسرور فى كل مكان . وفى إبان هذه النشوة العارمة تحول الطاغية المتنازل عن عرشه إلى ملك دستورى من الطراز الغربى ، واسترد محبة الشعب التى ضيعها فى سنى حكمه الثلاثين الموصوم بالهزائم الوطنية العديدة والخيانات الداخلية والخارجية ، والاستبداد القائم على الظلم وإراقة الدماء . وكان حكم عبدالحميد ذا طابع سياسى عجيب كأنما كان يحاول محاكاة الفن الصحفى . وكان قراء الصحف فى الغرب يعرفونه ويسمونه السلطان الأحمر ، وعبد الحميد الملعون ، أو غول يلدز .

ولئن عد عبد الحميد وحشاً فقد كان ذلك لخشيته لا لقسوته . ولكنه من وجهة نظر رعاياه كان يعد ملكا فى غاية القسوة . ولقد دعاه أكثر من مرة خوفه من القتل إلى أن يقتل بعض رجال قصره بمسدسه الذى لا يتخلى عنه مطلقاً ، (وكان يستعمله بمنتهى المهارة حتى وهو فى حالة الذعر التى تفقده الاتزان) وقد أمر بذبح ٨٦٠٠٠ من الأرمن وهو هادئ النفس لاتهامهم بعدم الولاء .

رغم هذه الفظائع وغيرها اقتحم ٦٠٠٠٠ من رعيته فى ٢٦ يوليو أبواب يلدز، ذلك القصر الحصين الجاثم على التل المشرف على المدينة التى تطل عبر المضيق على آسيا — لا ليشنقوه ويصلبوه على إحدى الأشجار ، بل ليقدموا له التحية . وعندما ظهر لهم منكمشاً فى حلته الرسمية الموشاة بالذهب بأنفه الكبير الأقنى وعينيه الملتهبتين ووجنتيه المتقدتين ولحيته ذات الصبغة الصفراء ، حيا الجمهور فى ولاء غير معقول وقد فاضت عيونهم بالدمع عندما أقسم لهم ووعدهم — وهو الذى لم يحفظ عهداً واحداً فى حياته — أن يحافظ على الدستور الذى استخلصه منه الجيش بقوة السلاح قبل ذلك بثلاثة أيام .

وقد وقعت لاشك أحداث لاتقل عن ذلك غرابة فى جميع أنحاء العاصمة، بل فى جميع أنحاء الإمبراطورية الأوربية الإفريقية الآسيوية ، التى كانت أخلاط الأجناس فيها والديانات والثقافات من الكثرة بحيث ترى النمسا والمجر بالنسبة إليها بلاداً متجانسة (كما أن فساد الحكم فى البلاد التركية مما يجعل الحكومة الثنائية بالنسبة إليها حديثة ومنتظمة بل معقولة كذلك) . ويقول أحد المراقبين الأوربيين المعاصرين عن الحادث «بأن القتل قد انقطع كما انقطع النهب والسرقة ... وهرع كثير من دعاة السلام وغيرهم من جميع أنحاء أوربا ليشهدوا الصقر وقد تحول إلى حمامة السلام» . والعداوات القديمة الجماعية التى أذكى نارها عبد الحميد وأسلافه عدة قرون بأعمالهم يبدو أنها تبخرت كما تتبخر أضغاث الأحلام . ومن الملاحظات

التى قررها بعض الشهود المعاصرين ما تتضح غرابته عند النظر إليه فى الوقت الحاضر أكثر من رؤيته فى حينه . كان اليهود والعرب يحتضنون بعضهم البعض، كما تبادل الأرمن المسيحيون قبلات الصلح مع الأكراد المسلمين الذين كانوا يحرصون على قتالهم منذ بضع سنوات ، وتصافح اليونانيون — وهم ذرية البيزنطيين الذين غلبهم الأتراك على أمرهم — تصافحوا مع الأتراك الفاتحين ، وكذلك فعل البلغاريون والمقدونيون . وحضر الضباط الأتراك قداس الذكرى فى الكنائس على أرواح الأرمن المقتولين .

لقد كان الجميع رعية ، ولكنهم فى الواقع كانوا عبيداً للحكومة العثمانية ، وباسم هؤلاء قام ضباط جمعية الاتحاد والترقى — وأغلبهم أتراك مسلمون ممن آمنوا بالثورة الفرنسية — قام هؤلاء ضد رئيسهم الزمنى — السلطان — الذى كان فى الوقت نفسه خليفة للمسلمين وخليفة لنبيهم محمد وظل الله فى الأرض لثلثمائة مليون من المسلمين، ولكن الحقيقة كانت أعمق من ذلك بكثير، وأشد خطراً وأكثر تعقيداً .

لقد لبث الاستبداد العثمانى عدة قرون داء ملتهباً فى كيان أوربا ، وكانت الرجعية واختلال النظام الداخلى فيها أثناء القرن التاسع عشر قد تحول إلى داء شديد الألم ، وإن لم يصل بالدولة إلى درجة الموت . وعندما عالج الشباب التركى سنة ١٩٠٨ هذا الداء بثورتهم الحربية كان علاجهم مؤقتاً ، واقتصر على مظاهر الفرح التى سادت القسطنطينية ، ولكنها أثارت شعوراً قوياً كان سبباً فى عدة ثورات شهدها العالم بعد ذلك . وقبل تحليل ماحدث يحسن أن نرجع إلى بعض الخطوط العريضة فى التاريخ العثمانى، وأن ندرس الدور الذى لعبه عبدالحميد ، أحد عوامل القدر السيئة وأعجبها وأشدها استحقاقاً للرثاء .

لقد ظلت الأسرة العثمانية فى الحكم من سنة ١٢٨٨ إلى ١٩٢٢ ، أى أطول

مدة قضتها الأسرات الحاكمة جميعاً . وظلت حقبة طويلة من الزمان أعظم دولة العالم جميعاً . وفى إبان عصرها الذهبى كانت تشمل أجزاء من الإمبراطوريات المصرية والأشورية والبابلية والفارسية والمقدونية والرومانية والبيزنطية . ومن الناحية الحربية بقيت أقوى الدول جميعاً عدة قرون متوالية ، كما أنها كانت من الدول ذات النظام السياسى العجيب الذى بسطته إلى مدى بعيد وعلى أمد طويل .

والعثمانيون — كأسرة هابسبرج — لم يسمحوا بتوطيد القوميات مطلقاً فى بلادهم .

وكان عثمان (١٢٨٨ — ١٣٢٥) مؤسس الدولة العثمانية ينتمى إلى قبيلة تركية هاجرت فى أواسط آسيا لتستقر فى الأناضول (الجزء الرئيسى من تركيا الحديثة) على حدود الدولة البيزنطية ، حيث كانت خاضعة للسلجوقيين المجاورين ، الذين سبقوا إلى غزو هذه المنطقة ، وكانوا حكاماً فى بغداد . وكانت الإمبراطورية البيزنطية المسيحية تهددهم من جانب كما كانت تغريهم بالفتح من الجانب الآخر ، كما أن الحرمان والطمع جذبا إلى الأناضول كثيراً من الغزاة المسلمين ممن كانوا من الأفاقين أو من الأجراء .

وقد ورث عثمان عن أبيه هذه العدة الحربية ، وكان معظمهم من ذوى قرابته وإن كان كثير منهم من مسلمى البلاد المجاورة . وكلما زادت فتوحات عثمان وخلفاؤه ، زاد عدد المجندين والموظفين فى الدولة من حديثى العهد من المسلمين من البلاد التى خضعت لهم . وبذلك قويت فى جيوش الأتراك الروح الاستعمارية غير الدينية ، كما اشتد اختلاف العناصر التى تتكون منها هذه الجيوش . ثم إن هذه الإمبراطورية العثمانية التى قامت على أساس دينى كرست نفسها ظاهرياً

تنشر الدعوة الإسلامية ، ولكنها كانت فى الواقع تعمل على تقوية نفوذ قادتها ورؤسائها .

ثم إن الحكومة العثمانية قد تحولت من النظام الأخوى الذى يجمع المحاربين الأحرار إلى جماعة من الرقيق فى حكومة استبدادية ، وكان أعضاء هذه الجماعة من الأولاد الذين تأخذهم الحكومة من آبائهم — وهم عادة من المسيحيين — إبان طفولتهم الباكرة ، وتخضعهم لنظام شديد القسوة يكاد ينزع الرحمة من قلوبهم ، ويعدونهم لوظائف الدولة المختلفة . ويرسل هؤلاء بعد تدريب حربى إلى فرق الانكشارية التى ظلت عدة قرون أقوى المحاربين فى جميع بلاد العالم . أما المتعلمون فكانوا يدربون على الأعمال المدنية والبلاط والإدارات الحكومية .

إن نظاماً حكومياً كهذا قد ينجح كما نرى فى نظم مثله قريبة العهد بنا ، ولكن له مساوئ يجدر بالمعجبين بالحكم المطلق أن يدرسوه . وما إن جاء القرن التاسع عشر حتى كانت الانكشارية مصدر تهديد للعرش الذى أسسها . مما اضطر أحد دعاة الإصلاح من السلاطين وهو السلطان محمود جد السلطان عبد الحميد إلى القضاء عليها ، وأمر بإعدام القوة كلها ، وكان عددهم خمسة وعشرين ألفاً . أما الإدارة الحكومية المدنية —ولم يكن لكفايتها نظير فى الغرب زمناً طويلاً — فقد صارت فى القرن العشرين آية للرشوة والإهمال والخيانة .

لقد كان تقدم الدولة العثمانية فى الواقع أسرع من انحدارها . ولقد انتهز أورخان (١٣٢٦ — ١٣٥٩) ابن مؤسس الأسرة الخلاف فى الدولة البيزنطية فوثب واحتل مركزاً منيعاً على الشاطئ الأوربى من الدردنيل ، وفى سنة ١٣٨٩ أتاحت هزيمة الصرب فى كوسوفو للغزاة الأتراك فتح معظم الجنوب الشرقى من أوربا .

وفى سنة ١٤٥٣ استولى محمد الفاتح على اسطنبول عنوة ، ثم هزم البندقية أعظم دولة بحرية فى ذلك الوقت فى البحر المتوسط ، ثم اجتاح ألبانيا والبوسنة ، واستولى على القرم وشواطىء البحر الأسود المجاورة . وباحتلال القسطنطينية ، والقضاء على الأسرة البيزنطية الحاكمة ، أصبحت الأسرة العثمانية صاحبة بيزنطة ، ومنها اقتبست كثيراً من نظمها الإدارية ، كما نقلت عنها كثيراً من مناهج الحياة البيزنطية ، وكثيراً من مساوئها كذلك . (وما يسمى الحمام التركى مثلاً هو نوع من المؤسسات الرومانية التى نقلتها بيزنطة إلى الشرق) ، ووصل الأتراك إلى قمة المجد فى عصر سليمان (١٥٢٠ — ١٥٦٦) وخلفائه عندما دخل فى حوزة الأتراك معظم أوربا الوسطى ، وبخاصة بلاد اليونان والجزر اليونانية ومساحات واسعة من روسيا الجنوبية وشمال إفريقية إلى الجزائر .

واليوم يستطيع كل من يجوب بلاد اليونان وبلاد البلقان من السائحين أن يتعرف على المدن والقرى التى ظلت تحت الحكم التركى إلى أوائل القرن العشرين بجوها الهادىء الذى يخيم عليه الكسل الشرقى . إن ذلك لبعض آثار ليل الاستعمار التركى الطويل ، الذى هو نقطة سوداء فى التاريخ الأوربى . إنه هو الذى تولدت عنه المؤامرات السياسية فى البلقان ، والشرارة التى لمعت فى سراجيفو ، والتى كانت نتيجة للخلاف الشديد بين الاستبداد ومقاوميه ، وبين الخونة والثائرين منهم . ولم يكن الحكم التركى على مايبدو شديد القسوة على المسيحيين — وبعضهم كان يفضله على حكم البندقية ، وما ينطوى عليه من فوضى وفساد ، ولكنه كان فى رأيهم حكماً راكداً ، وبخاصة فى القرنين الأخيرين ، عندما صارت كل الشعوب المحكومة مرتبطة بهيئات سياسية .

وفى أوائل القرن السابع عشر أخذت الأسرة النمسوية ، والأسرة الروسية

بما لديهما من قدرات فنية وسياسية تغير على أطراف الدولة العثمانية . ثم أعقب الثورة الفرنسية يقظة الروح القومية فى أوربا . وكانت اليونان أول دولة خرجت على الحكم التركى ، ثم تلتها دولة الصرب ، وظلت دول البلقان تغلى مراجلها الثورية طيلة القرن التاسع عشر . حتى الأرمن المسيحيون فى آسيا بدأوا يثورون ضد الأتراك .

وفى أوائل التوسع الاستعمارى أخضعت فرنسا الجزائر ، واحتلت إنجلترا مصر ، وفى منتصف القرن كان يداعب أطماع الساسة فى موسكو وفينا أشهى الثمار فى ذلك الوقت ، أعنى بذلك الاستيلاء على المضيقين ، وقد حان قطافها فى ذلك الحين .

وكان الطريق المائى الذى يفصل بين أوربا وآسيا هدفاً حربياً منذ كان التاريخ مختلطاً برواية الرواة . ولقد عبر جاسون هذه المضايق فى طريقه إلى القوقاز بحثاً عن فراء الأغنام التى كان القوقازيون يعلقونها أمام السيول المنهمرة من الجبال لتعلق بها قشور الذهب ويأخذونها .

وبحر مرمرة هو فى الواقع مرفأ طبيعى للسفن لا يوجد خير منه لتمكين الشعب المتسلط على شاطئيه الأوربى والآسيوى من التحكم الكامل على هذا المضيق ذى الموقع الحربى العظيم . وتكاد الأرض تحيط بهذا البحر من كل جانب إلا من بوغازين ضيقين أحدهما الدردنيل من جانب البحر الإيجى ، والبسفور الذى يجرى بإزاء غاليبولى من الجانب الأوربى، حيث كشف علماء الآثار فيها عن موقع عاصمة دولة طروادة . والوصول إلى بحر مرمرة من البحر الأسود عن طريق البوسفور الذى بلغ ضيقه حداً يسمح بإقفاله بالسلاسل ، كما يسمح بربط اسطنبول

الأوربية بسكوتارى الآسيوية حتى صارتا بلدة واحدة . وفى الواقع يستحيل اختراق هذا المضيق عنوة أو بطريقة الحيلة .

وقد زادت أهمية المضايق من الناحية الدولية عندما ظهرت روسيا الحديثة . ويقول المؤرخ البريطانى ماريوت « ما إن تمت لروسيا بعض الوحدة السياسية وعرفت إمكانياتها الاقتصادية لم تصبح مسألة دخول البحر الأسود وحرية الملاحة فيه وحرية الخروج منه إلى البحر الأبيض مهمة فحسب، بل صارت بالغة الأهمية» .

وأصبحت حرية الملاحة فى المضايق ذات أهمية حيوية لروسيا التى تصب مياه نهارها الأربعة وهى : دنيستر والدون والبج وكوبان فى البحر الأسود، وذلك عندما تحولت أوكرانيا من إقليم للمراعى إلى إقليم من أخصب أقاليم العالم لزراعة الحبوب . وكانت معظم الغلال التى يصدرها هذا الإقليم تمر من هذين المضيقين، وكذلك قدر كبير من صادرات روسيا، حتى إن ٦٠ فى المائة من صادراتها عبر البحر الأسود فى مبدأ الحرب العالمية الأولى كانت تمر من هذا الطريق، وهى تقدر بخمسة وأربعين فى المائة من صادرات روسيا كلها . ولكن إذا كانت المضايق لها أهمية حيوية بالنسبة لروسيا، فإن لها نفس هذه الأهمية بالنسبة للدول التى تريد أن تقف فى سبيلها . وعندما ذكر الماركيز كولينكور لنابليون ذات مرة أن مصلحة روسيا تقتضى استيلاءها على الدردنيل، صاح نابليون بملء فيه « القسطنطينية ! مستحيل . هذا يعنى السيادة على العالم » .

ولا ريب أن نابليون كان مغالياً ، ولكن يبدو من وجهة النظر السياسية فى القرن التاسع عشر أن استيلاء إحدى الدول الأوربية الكبرى على المضايق لابد أن يقلب ميزان القوى الأوربية ، وفى هذه الحالة لن يمنع وقوع الحرب إلا أدق وسائل الحماية لنظام التعويضات الدقيق . وكانت المنافسة بين روسيا والنمسا

فى الاستيلاء على المضيقين من الخطورة بحيث قد تؤدى إلى وقوع الحرب ، وكانت أنجع وسيلة إلى تجنب الحرب فى مثل هذه الأحوال الإبقاء على رجل أوربا المريض ، وهو الاسم الذى أطلقه جلادستون السياسى البريطانى على الدولة العثمانية صاحبة هذا الممر الحيوى . وهذه الاتفاقية غير المكتوبة التى كانت بمثابة اتفاق الجنتلمان بين الدول الكبرى بعد الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ، عبرت عنها معاهدة برلين التى نصت على قصر الاعتداء على تركيا على انتقاص بعض أطرافها كالبوسنة أو مصر ، والامتناع عن اتخاذ أى إجراء ينتهى بالسيادة على الأجزاء الباقية .

وكان هذا التفاهم بين الدول على هذا الأساس معقولا لولا وجود نقطتين ضعيفتين فى الموقف . أولاها الرغبة العارمة لدى كل دولة من الدول الكبرى فى أن تعمل بالحيلة أو بالقوة على زيادة نفوذها فى الإمبراطورية العثمانية على حساب الدول الأخرى ، وكان حكام تركيا وبخاصة عبد الحميد يزيدون التوتر بين الدول بالوقيعة بين بعضها البعض . والنقطة الثانية التى كانت تهدد بقاء الحالة على ما هى عليه فى تركيا والتى يتوقف عليها السلام فى أوربا ، انتشار الفساد فيها ، مما كان له أكبر الأثر فى تقويض كيانها .

وكانت الأسرة العثمانية — كالأباطرة البيزنطيين — تحكم مجموعة متباينة من الولايات التى تكاد تنفصل كل منها عن الأخرى ، كما كانت تحكم مجموعة متباينة من الجنسيات . والتركة البيزنطية التى ورثتها تركيا عنها والتى كانت فريسة دائماً للتدخل الاستعمارى الغربى ، كانت مكونة من عدة دوليات شبه مستقلة أقامتها الدول المعاصرة، مثل البندقية وجنوة وبيزا وانكونا ، وكان لكل منها كنائسها ومدارسها وبلاطها ، يشرف عليها رؤساء من البلد الأم .

واتبعت تركيا هذه السياسة فى حكم الأقليات كاليونانيين فى تركيا . بل لقد وقع سليمان مع فرانسيس الأول ملك فرنسا معاهدة تقضى بمنح بعض الامتيازات إلى الفرنسيين . وفضلا عن أن هذا كان سابقة احتذتها الدول الأخرى ليكون لها حق حماية الأقليات فى الدولة العثمانية ، كما فعلت روسيا بالنسبة للبلغاريين وسلاف البلقان . ولقد كان لهذا النظام الفضل الأكبر فى منع ترابط الشعوب المختلفة فى الإمبراطورية حتى يكون منها دولة واحدة .

ومن ناحية أخرى ، لم يؤد التسامح الدينى الذى كان سلاطين آل عثمان يظهرونه نحو المسيحيين وغيرهم من الأقليات فى إمبراطوريتهم إلى تكوين ما يشبه نظام الكومنولث . وكانت الصخرة التى تحطمت عليها وشائج الإخاء سياسة الأسرة التقليدية فى استغلال الإسلام لتحقيق أهداف سياسية ، وذلك بالجمع بين الخلافة الدينية ورياسة الدولة فى يد واحدة .

وكان تمسك السلطان بأنه ظل الله فى الأرض مع تمسكه بالرياسة الزمنية للدولة التى كانت فيها الأقليات المسيحية أكثر عدداً من الأكثرية المسلمة ، خطأ كبيراً . وترتب على ذلك أن المسيحيين وقفوا منه موقفاً عدائياً ، كما أن الخليفة وقع تحت سلطة رجال الدين .

ولعل أهم ما سبب انهيار السلطنة العثمانية نظام الحريم فى السلطنة . ففى فجر تاريخ الدولة العثمانية كانت النساء السافرات هن القرينات المحترمات الأحرار لأزواجهن المحاربين ، وبازدياد الثراء الذى سببته الانتصارات التركية تحولن من رفيقات لأزواجهن إلى متعة لهم ، ثم إلى أدوات للمتعة . ثم إن الوفرة العظيمة فى عدد الرقيق من النساء اللاتى كن أغلى مغانم الحرب دعت إلى اتساع رقعة الفجور . وكان للسلاطين وكبار قوادهم عدد كبير من المحظيات ، ومن هنا نشأ

نظام الحريم فى الدولة . ولا شك أنه كان لهذا النظام بعض الفائدة كما كان من وجهة نظر من يملكون الحريم — أمراً مستحباً . وكان فيه تسلية للسلاطين ، وأضفى شيئاً من الفخامة على حكمهم ، كما كان فيه تشجيع لقوادهم . ولكنه على مرور الزمن أصبح غير خاضع لأى قيد ، وسار سرطانا اجتماعياً قضى على الحاكم والدولة .

ولاريب أن نظام الحريم استمد بعض مقوماته من بيزنطة ، التى كان لأباطرتها اهتمام كبير به ، واقتبسه الأتراك منهم ، كرئيس البنات وراعى الببغاوات وكبير رعاة البلابل .

وابتداء من القرن الرابع عشر كف السلاطين عن الزواج الشرعى بالملكات — وبهذا لم يكن ملكات — واعتمدوا على إمائهم فى ملذاتهم وإنجاب أبنائهم ، ومع أن سليمان أقام حفلا لقرانه بإحدى إمائه ركسلانا المسيحية ، فإن هذا لم يغير من الوضع ، وكان سلطان ركسلانا المطلق على سيدها فاتحة « حكم النساء » فى تركيا ، الذى استمر مائة وثلاثين عاماً من تاريخ البلاد .

وهكذا استمر نظام الحريم عدة قرون هو النظام الذى يحكم البلاد ، وكان بالنسبة إلى السلاطين هو النظام الذى يدور عليه محور حياتهم . لقد حاط رقابهم بأغلال فى طفولتهم لم يستطيعوا الفكاك منها طول حياتهم ، وانتقل عبء الحروب إلى المرتزقة من الجنود ، كما تحول عبء الحكم والإدارة إلى الوزراء الأجانب من الرقيق . بينما كان السلاطين المترفون الضعفاء يفرون من مسئولياتهم إلى أحضان الحريم ، وكانت الزلفى إليهن والاهتمام بهن مما يضعف إرادة السلاطين ويذهب بمضائهم وعزيمتهم فى هذا الجو الآثم . وهكذا لم يكن فجور الرجال هو الطابع الغالب فى جناح الحريم ولكنه كان طموح النساء .

ونظراً إلى نظام الحريم أوجد فى الدولة مجتمعاً كاملا للرق ، فقد أدى إلى عواقب وخيمة . والعدد الهائل من الرقيق — إبان حكم عبد المجيد والد السلطان الأحمر — وكانت عدتهم ٩٠٠ امرأة فى الحريم، يقوم بالخدمة لديهن عدد لا يحصى من الخدم (منهم ٣٠٠ طاه) وعديد من الأغوات والحراس البيض والسود كان يعتمد فى نيل الحظوة والمكانة على تقدير السلطان، ولهذا كانت الحريم فى حروب مستمرة لنيل هـذه الحظوة . وكن يستخدمن أدنأ الوسائل لبلوغ هذه المكانة من ملق ورشوة وتجسس وغيبة وامتداح ما للسلطان من عيوب ليسهل عليهن استغلالها والإفادة منها . وفى هذه البيئة وفى هذا الجو كان سلاطين المستقبل يقضون أيام شبابهم الى تتكون فيها شخصياتهم .

وبينما كانت النسوة يعملن على استغلال السلاطين مع أنهن من الإماء ، كان الأغوات السود رؤساء هؤلاء النسوة يستخدمونهن فى إخضاع السلاطين لنفوذهم. وسهل عليهم هذا ما كان لهم من حق فى ضربهن بالكرباج لحملهن على إرضاء السلاطين ، وكان كبير الأغوات وهو عادة ضخم الجسم عظيم النفوذ أجهل رجل فى الدولة . وهذا النفوذ غير المباشر الذى كان الأغوات أصبح نفوذاً مباشراً لهم على الأمراء عندما تولوا تعليمهم إبان طفولتهم بالقدر الضئيل الذى تسمح به ثقافتهم التافهة، ولربما اختلف مستوى ثقافتهم من حين إلى آخر ولكنه لم يكن مطلقاً مما يليق بالأمراء . على أن الأغوات الذين عهد إليهم بتعليمهم حتى الحادية عشرة من عمرهم كانوا يشجعون على إبقائهم أشد جهلا منهم . وفى عصر عبد الحميد كانت مدرسة الأمراء فى الحريم تقوم بشىء من التعليم ، فقد كانت تلقى عليهم بعض الروايات المحرفة عن أعمال البطولة، وتعلمهم شيئاً من اللغة الفرنسية والموسيقى وقراءة القرآن . وسمح للممتازين منهم بالاطلاع على قدامى الشعراء من العرب والفرس . أما المواد التى أولى أن تدرس لحاكم المستقبل كالتاريخ والسياسة فقد كانت ممنوعة منعاً باتاً .

لقد كان فى الحريم فعلا دراسة طبية ذات منهج طويل يستغرق أربعة عشر عاماً، يشمل الموضوعات الثقافية كما يشمل تصفيف الشعر، ولكن هذا المنهج كان للحشم لا للأمراء، وكان طالبته من النمسويين والمجر والروس واليونان والشراكسة والأرمن والألمان والسويسريين. لقد كان هؤلاء جميعاً من الرقيق ولكنهم لم يكونوا مطلقاً من الأتراك.

ونظام الحريم فوق عجزه عن أن يجيء بحكام لهم صفات ممتازة كاد ألا ينجح فى أن يجيء بعدد كاف للمحافظة على نظام الوراثة ممن ينتقل إليهم الملك. إذ كان المنتظر أن الحاكم الذى لديه مئات من النسوة لا يخشى أن يكون عقيما، ولكن الانغماس فى النشاط الجنسى كان يجعل السلاطين عاقرين أو عنينين. وكان عبد المجيد رغم كثرة العقاقير عنينا فى الواحدة والثلاثين، وحتى إذا قدر لهم أن ينجبوا فما أسرع ما يترك الولد العالم الذى دخل فيه.

وفى المنافسة الشديدة التى كانت تسود جو الحريم كان هناك هدفان. ومع أنه لم يكن للسلطان فى العادة زوجة إلا أنه كان له أربع محظيات، وكان لأولى المحظيات مكانة فى الدولة، ولكن كان مركز المحظية مزعزعا؛ وعلى هذا فالمنزلة الوطيدة كانت للسلطانة الوالدة، فهذه هى رئيسة الحريم، وولادتها للسلطان القادم ضمن لها مركزها مدى الحياة، وعلى هذا فهدف كل امرأة ذات طموح أن تحمل ولداً ليكون سلطاناً فى المستقبل، وكان هدف سائر النساء أن تمنع غيرها من الحمل ومن أن يتبوأ العرش غير ابنها.

والأخطار التى يتعرض لها سلطان المستقبل تبدأ كما رأينا قبل ميلاده. وكان هم كل امرأة حامل أن تبقى حملها سراً مع ما فى ذلك من الصعوبة بين هذا العدد العديد من النساء المتنافسات فى الحريم. حتى إذا تم وضعه فالمشكلة الثانية أن تقيه

أمه من «الحوادث» ، وهو أمر ليس يسيراً ، ويدل على ذلك أن من بين الثلاثين ولداً الذين أنجبهم عبد المجيد مات نصفهم فى إبان طفولتهم .

وكان على الأمراء أن يتخلصوا لا من غيرة الحريم فحسب بل من غيرة إخوتهم غير الأشقاء ، ذلك لأن ولاية العرش فى السلطنة لم تكن لأكبر الأبناء بل كانت للأرشد فالأرشد من الإخوة . وكان السلطان لهذا السبب عديم الثقة بأخوته لأنهم على استعداد دائماً لأن يجلوه عن العرش بكافة الوسائل . ولما ارتقى بايزيد عرش السلطنة سنة ١٣٨٩ حل المشكلة بقتل أخيه الأصغر ، وقد راقت هذه السياسة جميع من خلفوه فاتبعوا السياسة عينها عدة قرون .

وكل من بقى على قيد الحياة من أولياء العرش من الأمراء ظلوا إبان شبابهم سجناء الحريم ليس لهم أية صلة بالعالم الخارجى ولا نصيب لهم من التعليم الأولى . ولم يكن ولى العرش عدة قرون إلا رجلا مسنا جاهلا أنهكه النشاط الجنسى ، لا يحسن إلا مخالطة النساء والأغوات الذين ينشئونهم على الخوف والكره وعدم الثقة بالعالم . ولقد ظل نظام الحريم عدة قرون المصدر الثابت للحكم الفاسد ، كما كان فى القرن التاسع عشر جهازاً صالحاً لحدوث الثورات .

ولقد أخذ التقدم التكنولوجى والأفكار السياسية الغربية تغزو المجتمع التركى فى مستوياته المختلفة . أما بين حريم السلطان فالإصلاح الوحيد الذى أدخله والد السلطان عبد الحميد هو أنه أدخل فى الحريم السرير ذا الأعمدة الأربعة .

فى هذا السرير ولد عبد الحميد نفسه سنة ١٨٤٢ وبدأ حياته بما لا يبشر بنجاح حتى فى مستوى الحريم . كانت أمه شركسية مريضة بذات الرئة مكروهة أكثر من أية امرأة أخرى لما استشعرت من زهو لإنجاب ولى العهد المرتقب .

ولم تتحسن صحتها مطلقاً بعد ولادة عبد الحميد ، وكان هذا سبباً لضعفه جسمانياً وعقلياً ، إذ كانت تحتجزه معها فى حجرة المرض إلى يوم وفاتها ، وكان يومئذ فى السابعة من عمره ، ولم يكن محبوباً لدى إخوته وأخواته لأنهم كانوا يتهمونه بالثرثرة والنميمة، ولم يكن أبوه محباً له بل كان يغدق الحب على مراد أخيه . وكان ضعيف البنية ضئيل الجسم ميالا للانزواء ، وكان هذا السلطان الأحمر كما عرف بعد ذلك ذا أنف كبير وجفون ثقيلة غير جذاب مما آلمه أشد الألم طول حياته .

ونال عبد الحميد ـ أو بعبارة أصح ـ لم ينل قسطه من التعليم فى الحريم . وكانت السياسة والتاريخ بطبيعة الحال من الممنوعات ، وكل ما حصل عليه من المعرفة كان نتيجة لرغبته الطبيعية فى المعرفة وما التقطه من هنا وهناك من أسئلته العديدة . ومما قرره معلموه ـ وهم ساخطون ـ أنه كان شديد الاهتمام بكل ما له علاقة بالدولة مما تعد دراسته غير لائقة بالأمراء الذين سوف يتولون حكومتها . ثم إنه أظهر براعة واهتماماً بكل ما له علاقة بالأرقام والحساب مما لم يعهد فى السلاطين السابقين ، وكان أساتذته يصرفونه عن ذلك ، ولكنه نجح فى تعليم نفسه باطلاعه على حسابات الأغا الذى فى عهدته حسابات مالية الحريم ، وبلغ من نجاحه أنه أمكنه أن يضارب فى البورصة وأن يجمع ثروة مقدارها ٣٥٠ ألف ريال قبل أن يعتلى العرش ، ثم إنه حذق قدراً من اللغة الفرنسية فى السادسة عشرة من عمره باستماعه لما كان يلقى من الفرنسية على إحدى أخواته .

وكل الذى تعلمه من الحريم ـ سلطان المستقبل ـ الخداع والخوف . تعلم الخداع والدس من النساء والخوف من الأغوات ، وكان من حسن حظه أنه عهد به عند وفاة أمه إلى إحدى « محظيات » أبيه وكانت ذات ذكاء خارق ، ربما كان من

أسباب ما أظهر من نجابة بعد ذلك ، ثم إنه كون صداقة متينة مع والدة عمه السلطانة الوالدة ، وكانت أولى سيدات الحريم كما كانت عظيمة الخبرة بدسائسه .

وبفضل شفقة هاتين السيدتين نشأ عبد الحميد نشأة فيها شيء من الاستقامة ، ولربما كان عاجزاً عن الحب ولكنه كان محباً للنساء . وعندما ورث الحريم الإمبراطورى كان ظريفاً عظيم الرعاية . وكانت ميوله الجنسية معتدلة على خلاف من سبقوه من السلاطين ، ولقد خاص فى شبابه من ربقة الحريم بأن عاق قلبه بسيدة أوربية بلجيكية .

وعاش عبد الحميد منذ أن كان طفلا فى خوف دائم ، إذ كانت تتراءى له أشباح وليدة الخيال وتروعه . وكان يفزعه المرض (مرض أمه) والكهرباء ، حتى إنه بعد ارتقائه العرش قبل بصعوبة إدخال الأسلاك الكهربية فى قصره باستثناء المسرة ، وكان أخشى ما يخشاه الجموع المحتشدة من الناس ، وكان الأغوات مصدر فزع له فى أثناء نومه ، وكان يرى فيهم صورة المتطلع إلى قتله ، وزاد فزعه بمرور الأيام زيادة مروعة . وعندما أحس بعدم الأمان فى قصره المشرف على البحر اختار للاقامة منطقة يلدز المشرفة على البسفور وشيد فيها قصراً جديداً ذا أسوار عالية منيعة ، وجمع فيه من الطيور والقردة والطواويس ما تنبه أصواتها الحراس عند الخطر . وكان كثير التنقل بين أسرة نومه لتضليل من يحاول الفتك به . وكان يحاول التحقق هو ومن ترافقه من السرايا من خلو المكان من أى شيء أو أى شخص قابع تحت سرير نومه ، وكانت نوافذ مطابخ السلطان محاطة بالأعمدة الحديدية ، وكانت الوجبات تحمل إليه فى أوان محكمة الإغلاق ، وكان على رئيس البلاط أن يتذوق الطعام قبل أن يذوقه السلطان ، وكانت الأبقار التى فى فناء القصر تحت المراقبة حتى لا يعبث أحد بالألبان التى تقدم للسلطان .

وعندما يكون السلطان راكباً فى موكب رسمى يصطحب أحد أبنائه لعل هذا الإجراء يحول — من الناحية النفسية — دون ارتكاب جريمة القتل ضد السلطان . ولكى يقنع نفسه أنه متمتع بالحرية وسط هذا السجن أقام فى حديقة القصر عدداً من المقاهى لنفسه خاصة . وكان من عاداته أنه يتمشى بين الحين والحين إلى إحدى هذه المقاهى ويجلس إلى إحدى الموائد ويصفق بيديه فى طلب فنجان من القهوة ، ولربما وضع شيئاً من النقود على المائدة ، مع أن الذى أعد القهوة هو « قهوجى باشا » السراى . وكانت نزهاته الأخرى زيادة على ألعابه بين الحريم، التجديف فى البحيرة الصناعية والركوب فى حدائق القصر والحفر فى الخشب والضرب على البيانو وقراءة مغامرات شارلوك هولمز .

وكان جبن عبد الحميد وهلعه من أسباب ضيقه وآلامه . وكان أشبه بزميليه الأوربيين ، نقولا الثانى وغليوم الثانى ، من حيث الجبن ، رغم محاولته ستر هذا الجبن، ولكنه لم يكن يفقد أعصابه من خشية المستقبل . وكان رجعياً بطبيعته، حتى إنه فى عصر متسم بالتطور السريع لم يكن يمثل النظام القديم فحسب ، بل حاول أن يرجع عقارب الساعة إلى عصر سابق لم يشهده . ولكنه لم يكن كصاحبيه ضعيفاً أو واقعاً تحت تأثير الخرافات . وكانت أعصابه متعبة ولكن إرادته كانت حديدية وكان تقديره السريع للأحداث السياسية يدل على براعته بالنسبة إلى مستوى تعليمه. ونظام الحريم الذى أدخل فيه الإصلاح اثنان من السلاطين علم عبد الحميد منذ الصغر أن يقاوم التقدم الاجتماعى بقوانين فيها إذلال للروح الوطنية . وكان مصمماً على أن يسترد السلطة المطلقة، ولكن ذكاءه ألهمه بمقاومة التقدم بالتقدم . ولذلك كان يرحب بما أدخل من الفن الحديث ليقاوم به الإصلاح السياسى. وقد وضع فى مكتبه مصوراً للامبراطورية العثمانية فى عهد سليمان ليتذكر عصرها الذهبى الذاهب،

ولكنه كان على علم بأن الجزء الباقى من الإمبراطورية لا يسلم من الاستعمار أو السطو إلا بالحيلة، وبإغراء بعض الأعداء بالبعض الآخر .

ولقد كان فى المناورات التى قام بها للوصول إلى العرش دليل على كفايته . ففى سنة ١٨٧٦ قامت ثورة فى القصر أثارتها جمعية الشباب العثمانيين — وهم الذين صاروا فيما بعد جماعة الشباب التركى — وخلعوا باسم الإصلاحات الدستورية السلطان عبد العزيز عم عبد الحميد . وكان المرشح للعرش أخوه الأكبر مراد، وكانت سنه إذ ذاك أربعة وثلاثين عاما . وكان ضعيفاً سكيراً . وكان الشائع أن أخاه عبد الحميد كان يشجعه على ارتكاب الرذائل . وانضح جنونه بعد ثلاثة أشهر من توليته، وخلع وارتقى عبد الحميد العرش بمعونة رجال الثورة بعد أن أقنعهم أنه محب للاصلاح . أما العم فقد انتحر، وأما مراد فقد كان مسجوناً بين الحريم، ولكنه يعامل معاملة حسنة، حتى إن السلطان الجديد كان شديد الحرص على أن يمده دائماً بما يطلبه من الخمور .

وبعد ارتقاء عبد الحميد عرش السلطنة ببضعة أشهر، أصدر فى الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٦ الدستور الذى كان شباب الأتراك ومؤيدوهم يطالبون به، وكان موعد إصداره موعداً موفقاً بسبب انعقاد مؤتمر دولى فى القسطنطينية فى ذلك الوقت، ولم تدع إليه الدولة العثمانية، ولكنها كانت المضيفة له على غير إرادتها . دعا إلى انعقاده دزرائيلى رئيس وزراء الملكة فكتوريا على أثر المذابح التركية التى حدثت فى بلغاريا لغرضين فى نفسه كان أحدهما حماية الأقليات المسيحية، والثانى منع روسيا من الاستيلاء على الدردنيل فى إحدى نوبات الغضب على الأتراك .

وكان أعضاء المؤتمر المجتمعون فى السفارة الروسية على وشك توجيه إنذار للباب العالى بطلب الاستقلال الذاتى لمسيحيى بلغاريا والبوسنة، عندما أعلنت طلقات

المدفعية التركية صدور أول دستور فى التاريخ العثمانى. وكانت طلقات المدافع مؤذنة بانتهاء المؤتمر، وقد منح الدستور جميع رعية السلطان — على الورق — كل الضمانات التى يطمعون فيها ، ولم يكن بعد هذا الإجراء محل لأى عمل دولى .

وبعد أسبوعين حزم الساسة الأوربيون أمتعتهم ورحلوا إلى بلادهم . ونفذ عبد الحميد الدستور بطريقة ملتوية ، إذ عدل بعض مواد الدستور ، ونفى واضع الدستور وهو مدحت باشا رئيس وزرائه الحر الذى وصل إلى العرش بمعونته ؛ وبإقصاء مدحت صار الدستور فى حكم الأمر الملغى . وأثار هذا التصرف الآسيوى الذى ينطوى على عدم الوفاء بالعهد ضمير أوربا وبخاصة فينا وبطرسبرج . ورغم المنافسة التى كانت بين العاصمتين فى شئون البلقان استطاع قيصر روسيا أن ينتزع وعداً من ابن عمه فرانسيس يوسف بعدم التدخل إذا ماحاولت روسيا عقاب التركى المخادع . وفى أبريل سنة ١٨٧٧ أخذت فعلا فى تنفيذ العقاب .

وبعد أقل من سنة من بدء قيام الحرب وصلت الجيوش الروسية إلى سان ستفانو على مسيرة سبعة أميال من القسطنطينية ، حيث أجبرت تركيا على توقيع معاهدة الصلح فى ٣ من مارس سنة ١٨٧٨ حتى كادت أن تخرجها كلية من أوربا والتى قضت بمنح الاستقلال التام إلى رومانيا والصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك . كما قضت بوضع بلغاريا تحت النفوذ الروسى بعد ضم أجزاء من البلاد التركية وجزء كبير من مقدونيا إليها .

وكان المفروض أن تكون شروط المعاهدة سرية ، ولكن عبد الحميد عمد إلى تسرب بعض تفاصيلها إلى لندن وفينا ظناً منه أنها قد تكون مزعجة لهما . (ولاشك أن تربيته وتدريبه على النميمة فى أثناء طفولته مما دفعه إلى هذا) وفعلا غيرت النمسا رأيها فيما تم بينها وبين قيصر روسيا من الاتفاق ، وبدأت جيوشها

تتقدم لتوقف تقدم الروس . وعندما سمعت الملكة فكتوريا بتقدم الروس نحو بحر مرمرة قالت الملكة « لابد أن يخرج الروس ، ولا ينبغى أن يتملك الروس القسطنطينية » .

وتقدم الإنجليز بعتادهم ووقفوا من الروس على مرمى المدافع، وظلوا فى موقفهم هذا طيلة ستة أشهر، ولم يحتل الروس كل المنطقة التى حددتها معاهدة سان ستفانو . واضطرت تحت ضغط الدول الأوربية إلى إحالة المعاهدة إلى مؤتمر برلين الذى انعقد تحت رياسة بسمارك فى يونيو ويوليو سنة ١٨٧٨ ، وقد سبق انعقاد المؤتمر اتفاق بين تركيا وبريطانيا حصلت فيه هذه على قبرص ، وفى مقابل قبرص رد دزرائيلى إلى تركيا أكثر من نصف ما نزلت عنه فى معاهدة سان ستفانو ، إذ ظلت البوسنة والهرسك — رغم تسليمهما للنمسا — تحت حكمها نيابة عن تركيا ، كما بقيت بلغاريا تحت سيادة تركيا الاسمية .

وكان أهم مما عمله مؤتمر برلين لتركيا ما عملته تركيا فى المؤتمر لأوربا . نعم إن الاتفاق على أن تترك الدولة العثمانية حاكمة على المضايق حال دون وقوع حرب أوربية، ولكن مهارة عبد الحميد السياسية فى إثارة ما بين روسيا والنمسا من منافسة جعل هذه المنافسة بينهما فى غاية الخطورة . بل لعل ترك البوسنة والهرسك للنمسا كان شديد الأثر فى العلاقة بين النمسا والصرب . ثم إن سياسة الدنيا القديمة أظهرت مقدرتها فى خلق مالا يسهل إصلاحه وتأجيل ما لابد من حدوثه، ويمكن أن يقال إن عبد الحميد كانت له اليد العليا فى أحد جوانب الموقف . فالعداوة المتأججة بين روسيا والنمسا نتيجة للحرب الروسية التركية واتفاقية برلين قضت على الاتفاق الثلاثى بين البيوت الملكية فى روسيا والنمسا وألمانيا ، ذلك الاتفاق الذى كان وليداً ضعيفاً للحلف المقدس الذى قام به بسمارك سنة ١٨٧٣ . وهكذا صدع السلطان التحالف بين هؤلاء الملوك ، كما أصاب فى الصميم ما يدعون من حقهم .

الإلهى فى الحكم، وهو ما كان عبد الحميد نفسه عظيم الإيمان به. ولا شك أنه كان فى غفلة عن هذا ، كما كان الملوك الآخرون غافلين عن أن العلة التى تصيب الأسرة العثمانية قد تعدى أسراتهم كذلك.

على أن تدهور الحالة السياسية فى الداخل — التى كانت من أعظم دلائل الانحلال فى الأسرة العثمانية — ومحاولة السياسة الخارجية العثمانية تقوية الخصومة بين الدول الأجنبية — كل ذلك كان ظاهراً لكل ذى عينين . وما إن انتهت الحرب الروسية ،وقبل أن تخمد الأزمة الناجمة عنها ، عاد عبد الحميد إلى محاولة إعادة الحكم المطلق فى البلاد .

ولقد صرح عندما حل البرلمان القصير الأجل بأنه أخطأ إذ تصرف كما تصرف والده . ومما قاله « إنى منذ الآن سوف أحذو حذو جدى السلطان محمود ، الذى كان يفهم أن البطش وحده هو الذى يذعن له الشعب الذى وضع الله أمره بين يدى» .

ولم يقتنع عبد الحميد مثل نقولا الثانى ومن كان على غراره من عشاق الاستبداد بأن يضع خطوط السياسة العامة للدولة ، بل كان يتدخل فى كل التفاصيل الصغيرة لهذه السياسة ، وكان يقوم بأعمال وزير داخليته ووزير خارجيته . وكانت النتيجة أنه لم يكن ينتهى من عمله ، رغم أنه كان يستيقظ فى الرابعة صباحاً ويعمل حتى ساعة متأخرة من الليل . وكان يرى من غير اللائق بمقام السلطان أن يتحدث مع الوزراء أو الموظفين ، فكان إما أن يلقى الأوامر ويتلقاها هؤلاء فى صمت وإما أن يصغى هو لحديثهم فلا يرد عليهم إلا بإشارة من يده أو موافقة من رأسه . وكان على الموظفين أن يترجموا إشاراته بالرضا أو بالرفض إلى أوامر قد يختلط فيها أوامر السلطان بأوامر الموظفين .

وكان عبد الحميد بطبيعته غير ميال للقسوة ، ولم يكن لديه الميل لإيقاع الأذى برعيته ، ولكنه الخوف هو الذى كان يدفعه إلى ارتكاب أعمال القسوة . حتى إنه

كان يضطر إلى سماع — من خلال فتحات النوافذ — محاكمة بعض من كانوا يريدون قتله ومشاهدة تعذيبهم . ولكنه لم يكن يتساهل مع من يجترئ على أخف اعتداء على كرامته الملكية . ولقد قيل إنه أمر بقتل إحدى الفتيات المحظيات لأنها غازلت أحد أولاده . إن عبد الحميد لم يكن بطبعه متعصباً سياسياً ، ولكنه ربما كان أخطر من ذلك .. كان دعياً سياسياً مولعاً بمظاهر الاستبداد .

ورغبة من السلطان فى أن يجتث جذور الحرية منع تدريس التاريخ والآداب فى المدارس . ثم إنه أغرى مدحت باشا وهو من غلاة الأحرار فى الدولة بالعودة من منفاه ، مع وعده بمنحه أسمى الوظائف ، ثم أرسله حاكماً على سورية وعمل على قتله هناك . ومع أنه لم يكن من غلاة المتدينين فقد أخذ يقرب رجال الدين بعد الحرب الروسية ويظهر الاهتمام العظيم بالطقوس الدينية بوصفه خليفة للمسلمين . وقد شهد القرن التاسع عشر شيئاً من الإصلاح الدينى كما شهد أيضاً انقياداً للخرافات والتعصب مما يرى فى عهود التأخر والرجعية . هذا إلى تشجيع فكرة الجامعة الإسلامية التى كانت تداعب عقول ثلثمائة مليون مسلم تحت إمرة الخليفة الذى كان فى الوقت نفسه رأس الدولة العثمانية .

وهناك بعض الشبه بين محاولة عبد الحميد لتقوية أسرته باحتضانها فكرة الجامعة الإسلامية واحتضان أسرة هابسبرج فى القرن السابع عشر لحركة الإصلاح الكاثوليكى ، وإن كانت الحركة الأولى أضعف من الثانية . واتضح أن سيف الإسلام كان سلاحاً ذا حدين فى المسائل الداخلية والمسائل الخارجية جميعاً . فعندما حدثت الثورة الوطنية فى مصر طلبت الدول الأوربية الكبرى إلى عبد الحميد — باعتبار أن له السيادة على مصر — إخضاع الثورة ، ولكنه نظراً لأنه خليفة المسلمين لم يكن فى وسعه أن يؤدب الثوار المسلمين متحيزاً للمستعمرين المسيحيين فامتنع ،

وعلى ذلك احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨١ . وعلى أثر ذلك ولى عبد الحميد وجهه — وهو من أنصار إنجلترا — من هذه الساعة نحو ألمانيا، واستقبل بعثة حربية ألمانية لتنظيم الجيش التركى ، ومنح الشركات الألمانية كثيراً من التسهيلات التى كان أعظمها المشروع المالى الألمانى لمد سكة حديد من برلين إلى بغداد . وفى سنة ١٨٨٩ زار غليوم الثانى الدولة العثمانية زيارة رسمية ليؤكد أواصر الصداقة بين البلدين، وكان لهذه الزيارة أثر فى زيادة نفوذ ألمانيا الاقتصادى والسياسى فى البلقان وآسيا الصغرى ، مما دعا إلى توتر العلاقة بين ألمانيا وبريطانيا وتهيئة الجو للحرب الأوربية . وهذا التوتر بين الدولتين (لم يكن حاداً حتى سنة ١٩٠٦) زادت حدته عند اكتشاف الجيولوجيين الألمان للبترول فيما بين النهرين، وبسبب الزيارة الثانية التى قام بها غليوم سنة ١٨٩٨ لتركيا . وفى أثناء جولته فى فلسطين وسوريا وضع أكليلا من الزهر على ضريح صلاح الدين ، وظهر فى دمشق فى ملابس العرب ، وأشاد بالصداقة التى كانت بين هارون الرشيد وشارلمان، وأعلن أن الجيوش الألمانية فى خدمة صديقه السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين دفاعاً عن الإسلام (علماً بأن الملكة فكتوريا وهى إمبراطورة الهند لها من الرعية أكثر من مائة مليون مسلم لم تكن مرتاحة لما أعلنه حفيدها فى هذا الأسلوب الثقيل) .

على أن استغلال عبد الحميد للدين فى إجراءاته الاستبدادية قاده إلى أحط عمل قام به فى مدة حكمه — أعنى به المجازر الأرمنية ، فرغبة منه فى تأديب الأرمن لحركتهم الوطنية التى ظهرت بينهم فى المنطقة الجبلية التى تتاخم حدود القوقاز ، استخدم السلطان سنة ١٨٩١ الأكراد فى وظائف ملحقة بالشرطة للقضاء على الثورة . وكان الأكراد وأغلبهم مسلمون على غير وفاق مع الأرمن عدة قرون متوالية . فكان اختيار هؤلاء فى المنطقة الأرمنية لتتبع الثوار الأرمن إيذاناً لا شك فيه بوقوع حرب دينية عنصرية بين الفريقين .

وكانت المذابح بطبيعة الحال من جانب واحد ، نظراً إلى أن الأرمن لم يكونوا مسلحين . وأمكن الأكراد أن يحتجزوا سنة ١٨٩٤ ألفين من الرجال والنساء والأطفال فى إحدى الكنائس وأحرقوا أجسامهم وهم على قيد الحياة .

واحتجاجاً على إحجام أوربا عن وقف هذه الفظائع (وكانت صداقة السلطان مع القيصر هى التى أوقفت أوربا على الحياد) — استولى الأرمن على البنك العثمانى فى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ . وأيقظ هذا العمل الشعور الأوربى ، ولكن قبل أن تتخذ أوربا أى إجراء أصدر عبد الحميد أمراً انتقامياً بذبح جميع الأرمن فى العاصمة وفى أزمير وغيرهما من البلاد ممن نجوا من الحادث السابق . وكان أمره هذا سرياً ، ولكن التنفيذ تم على وجه رسمى . فقام الرعاع بإرشاد الشرطة بقتل كل أرمنى أو كل من يشتبه فيه بأنه أرمنى، واستمر هذا الإجراء أربعة أيام ، قتل فى العاصمة وحدها منهم سبعة آلاف ، وكان عدد من قتل من الأرمن ما بين ١٨٩١و١٩٠٠ موضع شك ، ولكن يذهب البعض إلى أن القتلى كانوا أكثر من ٣٠٠٠٠٠ . ولا شك أن عملاء السلطان قد قاموا بأفظع حرب إبادة فيما بين عهد جنكيز خان وهذا . ولا شك أن أوامر عبد الحميد لم يكن الدافع إليها الدين وحده فى قتل الأرمن ، فإنه كان يمقت فيهم الروح الوطنية ، وكان يعلم — وله بعض الحق — أن ثوار الأرمن كانوا يدبرون كل وسيله لقتله .

وما كادت جذوة الثورة الوطنية تنطفىء فى إرمينيا بما أسيل فيها من دماء ، حتى قامت ثورة مسيحية فى كريت سنة ١٨٩٨ ، ونجح الجيش التركى الحديث فى هزيمة القوة اليونانية التى قدمت لمعونة الثوار ، رغم أن الجزيرة كانت تحت نوع من الوصايا الأوربية ، فإن أنباء النصر دعمت بعض الوقت عرش الخلافة المهتز . ثم إن قلق الخليفة كان له ما يبرره عند ما قامت بعض الفرق البلغارية

والمقدونية من المتطوعين الثوريين فى البلقان وانضموا للجيوش المهاجمة فى مقدونيا فى أوائل القرن العشرين، تساعدهم بصفة سرية حكومات الصرب واليونان والجبل الأسود وبلغاريا .

ولم تحل شيخوخة السلطان وقد بلغ الخمسين سنة ١٩٠٧ دون قدرته على الحكم وعلى المخادعة ، ولكنه كان مصاباً دون أن يدرى بتصلب الشرايين ، وهو من الأمراض التى تكون عادة نتيجة للاستبداد الشديد . وكان يحد من وصول الأنباء إليه والتى لا غنى لأى حاكم مستبد عنها الموظفون أو رجال الحاشية بوسائلهم الدنيئة بما لهم وحدهم من حق الوصول إلى حجرته الخاصة ، ولم يكن الوزراء هم المسئولون عن الحكم ، ولكن الحكم كان فى أيدى الأغوات و « الفقراء » والمغامرين من الرجال . وكان أقوى هؤلاء سكرتير السلطان ، وهو رجل ذكى جرىء يسمى عزت باشا . ونظراً إلى أن هذه الجماعة وحدها هى المتسلطة على أذن السلطان ، أمكنهم أن يقنعوا عزت باشا بسياستهم ، فأصبح فى قبضتهم وهو يظن أنه سيد الجماعة .

وهكذا كانت الثغرة الوحيدة التى كانت فى السياج المضروب حول السلطان ضارة به لا نافعة له . وكانت طبيعته القلقة وخوفه من القتل مدعاة لتعيين ٢٠٠٠٠ جاسوس ، وهو عدد هائل حتى بالنسبة للأتراك أنفسهم ، وكان مصمماً على قراءة التقارير اليومية بنفسه ، وكان عددها يزداد تبعاً لازدياد استبداده فى البلاد ، ولم يكن يتقيد بمن يلخصها له ، وكان غارقاً فى التقارير بحيث تعجز عن أكبر مؤامرة كانت تحاك ضده ، لا من الأقليات ولا من الأجانب ، بل من بين رجاله الأتراك أنفسهم ، وبخاصة من الضباط الأتراك الذين كان كل الاعتماد عليهم حماية الأسرة الملكية . ولم تكن جماعة شباب الأتراك أصلا منظمة ، وإنما

كانوا يمثلون تيار رأى — مع تيارات كثيرة تحتية ، وهم من حيث المبادئ كانوا خلفاً لشباب الأتراك الذين كانوا فى أول عهد عبد الحميد ، وإن كانوا أكثر غلواً فى السياسة وفى التحرر ، ولم يكونوا من غلاة الثوريين ، ولذلك كان معظمهم راضين بحكومة دستورية على رأسها الأسرة العثمانية . على أن ميولهم الثورية جعلتهم زملاء لكل الثوار فى سائر البلاد الذين يعزى إليهم ما انتهت إليه الحالة السياسية فى ذلك العصر — وظهرت أعمق جذور الحركة الثورية التركية بابتهاجهم بثورة روسيا سنة ١٩٠٥ التى أقلقت السلطان كثيراً . ولقد تشجعوا كثيراً ، كما تشجع زملاؤهم فى النمسا وألمانيا وغيرها بهزيمة الحكم المطلق فى روسيا . بل ظهر تحمسهم بشكل واضح لانتصار القومية اليابانية على الإمبريالية الروسية التى حاربت الثورة .

وكان من الحركات الثورية الهامة السرية حركة شباب الأتراك التى قامت بها منظمة ثورية فى الجيش ، وسمت نفسها « الوطن » ، وكان أعضاؤها يؤمنون إيماناً قوياً بالحياة النيابية وبالحكومة الدستورية وبالتعليم وبإصلاح الحياة التركية ثقافياً واجتماعياً وتقوية الروح الوطنية أكثر من أى شىء آخر . وهذا اللفظ ليس له مدلول واضح يعرف به ما يهدف إليه هؤلاء الثائرون الأتراك . وكان أشبه شىء بلفظ الوطنية فى الدولة النمسوية ، له مدلول غامض ، ولكن أهم مايتضمنه مدلول اللفظ كره الاعتداء الأوربى أو السيادة على بعض أجزاء الدولة ، ولم تكن هذه المنظمة «الوطن» عدوة لكل ماهوغربى كدعاة القومية الإسلامية، بل كانت ترحب بالآراء الغربية والفنون الغربية . بل كان لكثرة أعضائها إعجاب شديد بكل ماهو غربى ، وكانوا مع ذلك يأخذون على السلطان أنه يمنح

الغربيين حقوقاً على الأراضى العثمانية أو يقبل تدخل المحاسبين الأجانب فى مالية الدولة لصالح الدائنين الأجانب، وتنازله عن كريت رغم انتصار الجيوش التركية . وكانوا شغوفين بأن يكون للبلاد جيش حديث، ولكنهم كانوا يمقتون عنجهية المعلمين الألمان الذين جاءوا ليساعدوهم على بلوغ هذا الهدف .

وكانت فلسفة « الوطن » ممثلة أحسن تمثيل فى الشخصية النارية التى كانت لأحد قادتها الشباب المتحمسين . وكان أحد ضباط السوارى، رشيق القوام جميل الهندام اسمه مصطفى رياض ولكنه يعرف باسم مصطفى كمال لدلالة هذا الاسم الأخير على صفة الكمال ، ومصطفى كمال الذى يذكره التاريخ الآن باسم ثالث هو أتاتورك انضم إلى جماعة الوطن ، عندما كان فى كلية أركان الحرب فى اسطنبول . وعند تخرجه سنة ١٩٠٤ قبض عليه بتهمة نقد نظام الحكم، ولكنه أقنع المحققين بعد شهرين بأن يطلبوا من السلطان إطلاق سراحه . ونقل إلى دمشق وهناك نظم خلايا منظمة الوطن ، ثم نقل سنة ١٩٠٧ إلى سالونيكا ، وكانت حينذاك أهم منطقة للحركة الثورية فى الإمبراطورية العثمانية . وهناك حول « الوطن » إلى جمعية أخطر وأكثر أهمية حولها إلى جمعية الاتحاد والترقى .

وهذه الجمعية هى التى كانت تمثل الشعور السائد بين الشباب التركى. وكانت ينتمى إليها كل شباب الضباط فى مقدونيا ، وكان رئيسها البارز يدعى أنوربك وهو شاب عظيم الاهتمام بمظهره وهندامه ، ولم تكن الجمعية مقصورة على العسكريين ، بل كان يتصل بها كثير من المهاجرين النابهين فى باريس. وكانت مبادئها أشبه بمبادئ « الوطن » ، ولكنها تشبعت بآراء القرن الثامن عشر واتجاهاته السياسية مع المبادئ الوطنية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر . وكثير من أعضائها كانوا ينتمون إلى الحركة الماسونية ، ولا شك أن مبادئ

الماسونية الحرة أمدتها بالقوة والعزيمة فى حركاتها الثورية ، ومن المحتمل أن يكون بعض الماسونيين الأجانب راضين عن هدم سلطان الخليفة على رعيته . ومن الثابت أن القنصل الإيطالى فى سالونيكا كانت له يد فى المؤامرة .

وتمشياً مع سياسة اللجنة التى تتفق ونظام الماسونية كانت تقبل الجمعية أعضاء من جميع الجنسيات والعقائد . وكان من زعمائها يونانيون وأرمن ويهود وأتراك ، وكانت لها علاقات سرية بالأقليات الثورية فى مقدونيا ، وكانت تدين صراحة بمبدأ الولاء للدولة ، على أن تتمتع كل طائفة فيها بالحقوق المدنية والحقوق السياسية فى ظل حاكم دستورى . ومع أن أعضاء الجمعية كانوا يعرفون فى الخارج بأنهم أتراك ، إلا أنهم لايرون أنهم كذلك . يقول أحد الكتاب الأتراك الحديثين إن تسمية العثمانى بالتركى كانت تعد إهانة له . وأخيراً توالت نذر عديدة خارجية بالاعتداء ، وهذه هى التى آذنت بقيام ثورة ١٩٠٨ . وقد كانت أشد هذه النذر وقعاً ذلك اللقاء الذى تم بين قيصر روسيا وعمه إدوارد السابع ملك بريطانيا فى بحر البلطيق ، وتم فى هذا اللقاء اتفاق بين العاهلين أنهى — أو على الأقل — ضيق المنافسة بين الدولتين فى آسيا والشرق الأدنى — تلك المنافسة التى كان لها الفضل فى بقاء الدولة العثمانية — ثم إنها قضت نهائياً على سياسة عبد الحميد .. سياسة « فرق تسد » . إن ثوار سالونيكا قرروا أن الوقت قد حان لإنقاذ الوطن مهما كانت الظروف .

وفى أوائل يوليو سنة ١٩٠٨ كان أنور بك على رأس فصيلة من العثمانيين عدتها ١٥٠ جندياً مقرها فى مقدونيا الشرقية عند الحدود بين اليونان ويوغوسلافيا وأعان الثورة ، واستولى زميل له من المتآمرين فى مكان آخر فى مقدونيا على مافى خزانة الفصيلة وهرب هو وجنوده إلى التلال وانضم إلى الثوار المسيحيين الذين

أرسل هو لإخماد ثورتهم، وبعد عدة أيام قتل الثوار قائد الحامية الموالى للحكومة في مناستر (وهى الآن أحد مدن يوغوسلافيا) واتخذوها مقراً رئيسياً لهم. كما جاءت فرقة من الأناضول وكان يظن فيها الولاء وانضمت إلى الثوار. وهكذا بعد أن قضى السلطان حياته يتقى المؤامرات الوهمية والحقيقية، وجد الجيش الثالث جميعه ثائراً وممهداً بالتقدم إلى العاصمة. ولما أرسلت جمعية الاتحاد والترقى إنذارها النهائى فى الثالث والعشرين من يوليو لم يجد عبد الحميد أية قوة معه، ولما لم يجد أمامه أية فرصة للقضاء على الثورة قرر — على طريقته — الانضمام إليها.

ولم يشترك شباب لأتراك فى الحكومة الجديدة، واكتفوا بإقصاء أذناب عبد الحميد ليستبدل بهم سياسيون وموظفون موالون للاصلاح المنشود. وسمحوا للسلطان بالاحتفاظ بقصر يلدز وبه ما به من الحريم، ولكنهم أغلقوا مسرحه الخاص وخفضوا عدد الحاشية من ٢٩٠ إلى ٣٠، وتركوا له ٧٥ موسيقياً لفرقته الموسيقية بعد أن كانوا ٣٠٠، ثم إنهم قضوا على كل جواسيسه.

وعبد الحميد من جانبه بذل مجهوداً صادقاً ليقوم بدور الملك الدستورى، وفى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٨ حضر أول اجتماع للمجلس النيابى الجديد وجلس فى مقصورته الملكية، بينما تلى سكرتير له خطاب الافتتاح المملوء بالآمال الخالصة شعارات الحرية الصحيحة، ومع ذلك لم تدم أيام السلام بين الوطنيين الأحرار فى سالونيكا والملك المستبد المتقاعد الذى ظل خليفة للمسلمين إلا بضعة أشهر، فما زال لدى الدساس العجوز من الحيل ما يلقنه لصغار رجاله. ففى أوائل الربيع سنة ١٩٠٩ أثارت « الأخوة الإسلامية » — وهى جمعية سرية قامت لمناوأة الثورة دون أن يحمل عبد الحميد نصيباً من مسئولية قيامها — أثارت المجندين

الحديثين ضد ضباطهم من شباب الأتراك فى ثكنات الجيش الرئيسية فى العاصمة ، واشترك فى الاضطرابات جمع من الغوغاء المتعصبين تحت قيادة رجال الدين أو جواسيس السلطان السابقين ، وكانت الغلبة لهذه الثورة المضادة فى اسطنبول لبضعة أيام ، اختفى فيها نشاط جمعية الاتحاد والترقى ، وكاد الحكم المطلق يعود ثانياً إلى البلاد ، رغم أن حكمة عبد الحميد منعته من أن يشترك فى هذه الحركة .

ومع هذا ففى الثالث والعشرين من أبريل اتخذت سبيلها إلى المدينة قوة من شباب الأتراك فى سالونيكا بقيادة أنور بك ويشترك فيها مصطفى كمال . وبعد يومين خلع عبد الحميد ووضع على العرش أخوه الخامل محمد الخامس . وتقبل السلطان المخلوع الخبر فى يلدز من مندوب جمعية الاتحاد والترقى وقد ضعف احتماله وتضاءل قوامه ، ولكنه شد فى أول الأمر من عزمه وتدثر بجلال الملك ، وأبلغه الجنرال أسعد قائد الوفد الذى قدم إليه فقال « بناء على ما أفتى به مفتى الإسلام قد خلعك الشعب وتتحمل الجمعية الوطنية حماية شخصك وحماية أسرتك ، وليس هناك ما تخشاه » .

ورد عبد الحميد فى استسلام « هذا هو القدر المكتوب » وبعد لحظات أخذ يردد فى عبارات هستيرية رجاءه فى أن يبقى حياً . وعندما عاد الوفد فى المساء يحمل إليه تحديد إقامته فى سالونيكا أغمى عليه ، وعند إفاقته أبلغ بأن عليه أن يرحل فوراً هو وأسرته ، كما أبلغ أن الشعب سمح له بثلاث زوجات وأربع سريات وأربعة أغوات وأربعة عشر خادماً ، وأن حظه أحسن من كثير من الحكام المستبدين .

وثورة شباب الأتراك كان مقدراً أن يكون لها ثمرة ثانية فى العشرينات من القرن العشرين ، ذوت الثمرة الأولى منهما قبل نضجها . لقد انتهى الحكم المطلق بانتهاء عبد الحميد ولكن حل محله حكم الهيئة الحاكمة التى مارست الحكم

استنادا إلى حزب الحرية والتقدم الذى نشأ من الجمعية السرية المسماة باسم الحزب نفسه . وكانت المعارضة والنقد مباحين من الناحية النظرية ، ولكنهما كانا يقاومان بأساليب كانت سائدة فى عهد السلطان الأحمر . وهيئة الجواسيس التى كانت تستخدم فى عهد عبد الحميد استخدمت فى هذا العهد ، والسجون التى أخليت بعد ثورة يوليو امتلأت بالمسجونين بسرعة عظيمة ، ولم يكن السجناء مقصورين على من قاوموا ثورة يوليو وحدهم . وقد كان هناك تشجيع على حركة التقدم ولكنه لم يكن متناسباً مع الاستبداد الذى قامت به الجماعة باسمه . ولعل أبقى إصلاح ينسب للحكم الجديد جمع الكلاب الضالة التى كانت تزدحم بها شوارع اسطنبول وطردها إلى جزيرة فى بحر مرمرة حيث انتهى أمرها إلى الفناء .

ومن أول الأمر كان هناك تناقض خفى بين « العثمانية » الديمقراطية التى يدين بها شباب الأتراك ، وبين الشعور المستحدث بالقومية التركية الذى كان أعمق دافع إلى نشاطهم . أما الأخوة الثورية بين المتآمرين الأتراك وزملائهم المقدونيين فلم تعمر طويلاً بعد نجاح الثورة . ولما أحس رجال الحكم الجديد بالاضطراب المستمر بين الشعوب التى تتكون منها الإمبراطورية ، كالاضطراب الدائم فى بلاد العرب وفى ألبانيا ، ولما أقلقتهم الدسائس التى كانت تحيكها الدول الكبرى باستمرارضدهم ، اتبعوا سياسة القمع القديمة والضغط على القوميات . بل لقد أحيوا مبادئ عبد الحميد فى الجامعة الإسلامية وقاموا بذبح الأرمن مثله . ثم إن هذه الهيئة الحاكمة كانت تمارس سلطانها فى الشئون الخارجية بجرأة وجهالة وبروح حربية ، كما تتصرف بنفس الأسلوب فى المسائل الداخلية ، وهكذا نجحت فى تأليب جميع القوى البلقانية ضد الإمبراطورية العثمانية ، وهيأت المسرح لقيام حرب البلقان سنة ١٩١٢ . ولم يكن فى هذا مساهمة يسيرة فى النزاع الأوربى العام الذى نشب

بعد عامين من هذا التاريخ . ولم تكن تضحية شباب الأتراك بمبادئهم هى التى ساعدت على قيام الحرب العالمية ، بل لعل العامل الأقوى كان تهديدهم للابقاء على هذه المبادئ . ولقد كان أمل الدول العظمى أن يبقى الرجل المريض حياً ، ولكنها لم تكن راغبة فى أن تراه فى صحة جيدة . ولما كان برء الرجل المريض متوقعاً دفعت ثورة ١٩٠٨ دولتين كبيرتين هما النمسا وروسيا على الانقضاض على الرجل المريض ونهبه فى إبان مرضه وتجزه ، ولكن مخالب الدولتين اشتبكت بعضها فى بعض فى أثناء هذا الانقضاض .

الفصل السابع

إرهاص بالكارثة القادمة

كانت إحدى نتائج ثورة شباب الأتراك — بل أبلغها ضرراً — المؤتمر النمسوى الروسى الذى عقد فى ٥—٦ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ فى قلعة بوشلاو فى مورافيا (وهى الآن جزء من تشيكوسلوفاكيا). وكان الاجتماع من الناحية الرسمية لا يعدو أن يكون وليمة سياسية خاصة أقامها صاحب القلعة الكونت ليوبولد برشتولد سفير النمسا والمجر فى ذلك الحين لدى روسيا . وهو الذى لعب دوراً فى السياسة الدولية بعد عدة أعوام فى ظروف أشد غرابة .

وكان هذا الاجتماع — يعد من وجهة نظر الصحفيين المعاصرين فى الصحف حينذاك — أمراً غامضاً بل موضع نقد شديد . وأول كلمة وردت عنه جاءت من وزارة خارجية النمسا والمجر عند ما أبلغ مراسلى الصحف أن وزير خارجية النمسا البارون إيرنتال وزميله الروسى الكونت إزفولسكى الذى كان يستشفى بالمياه المعدنية فى كارلسباد سيكونان ضيفا وزارة الخارجية النمسوية . وكانت مثل هذه الكياسة السياسية نادرة الحدوث فى فينا فى ذلك الحين ، حيث كانت التقاليد فى عهد مترنيخ لا تزال مرعية ، فأدى ذلك إلى أن الصحافة فهمت أن فى الجو حدثاً هاماً. ومع هذا ، فلما سمح لمراسلى الصحف بدخول القلعة بعد انتظارهم يومين كاملين يتجولون فيها خارج الأسوار ويرقبون الوزيرين بعيون متلهفة ، أعطوا بلاغا للنشر ليس فيه إلا بيانات قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع وظهرت النقطة الهامة فى الموضوع فى إحدى الفقرات ، وكانت حول ماعقد من أمل على نظام الحكم الجديد فى تركيا فى أن يكون عاملاً على استتباب

السلام فى أوربا ، كما تضمنت أن الوزيرين كانا متفقين على وجوب اتخاذ« موقف انتظار ودى نحو هذا النظام » .

وقد أجيب بعد مدة وجيزة عن السؤال الذى كان يدور فى خلد رجال الصحافة — وإن لم يذكروه صراحة — وهو لماذا لا يصدر البلاغ إذا كان ما جاء فيه ، هو كل ما تريد الحكومتان أن تعلناه . ولكن اجتماع بوشلاو ظل إلى حد ما أحد الأحداث الغامضة فى الحقبة التى سبقت الحرب العالمية ، ولو أن مجال الخلاف فى ماهية هذا الحدث كان ضيق الحدود . وكان اجتماع بوشلاو أشبه شىء باللقاء الفاشل الذى تم فى بجوركو سنة ١٩٠٥ ، فكأنه لافتة فى الطريق المؤدية إلى الحرب ، كما كان دلالة على عوامل الانهيار التى كانت تنخر فى أسس نظام الحكم فى أوربا (وقد كان فيه أيضاً الدليل الواضح على التناقض الممقوت بين الخلافات الدولية فى ذلك الحين وبين الجهود المضنية التى كانت تبذلها الحكومات المستبدة المتداعية) .

ولم يكن لقاء بوشلاو مشهداً مسرحياً كاللقاء الذى تم بين نقولا الثانى وغليوم الثانى . إن الأزمة الأوربية التى نتجت عن لقاء بوشلاو كانت من تدبير رجلين من رجال السياسة المدربين اللذين استخدما مهارتهما الفنية وعملا فى إطار من الأيديولوجية التى يعرفها معظم وكلاهما ، بما فى ذلك الديموقراطيات الأوربية الغربية فى ذلك الوقت .

وكان إزفولسكى ذو الوجه المستدير والعينين الزرقاوين والشوارب الدالة على التفكير يود أن يظهر بمظهر القروى الساذج ، وكان فى الواقع رجلا مطلعاً لديه دراية لا بأس بها بالمسائل الدولية ، ولكن ينقصه الإقدام والتفكير ، لأن القيصر لم يكن يسمح لوزرائه بشىء من ذلك . وكانت أكبر نقائصه تحفظه التام وبلادة تفكيره وقناعته العجيبة . وكان اللقاء مع النمسويين من تدبيره ، أو هكذا ظن

أنه كذلك . وبناء على مشورته وبعد شيء من التردد قام القيصر بجولة فى أوربا ليعرف رأى الموقعين على معاهدة برلين فى تعديل المادة ٢٧ فيها ، حيث ظل خروج الأسطول الروسى ممنوعا من البحر الأسود بناء عليها منذ سنة ١٨٨٧ .

وكان ما يجول فى خاطر روسيا هو أن تخفيف قيود المعاهدة ليس إلا حيلة قد تؤدى مع غيرها من الأعمال إلى تحقيق حلمها القديم ، بالوصول إلى اسطنبول والاستيلاء على المضيقين . وأعادت هزيمتها أمام اليابان إليها هذا الحلم ، كما أن ثورة ١٩٠٥ جعلت إزفولسكى – وهو من غلاة المؤيدين للحكم المطلق – يفكر فى ميدان خارجى ينتصر فيه ليرفع من منزلة القيصر داخل البلاد . ثم إن ثورة شباب الأتراك كانت فى رأى إزفولسكى مدعاة لزيادة الاهتمام بخططه . وكان يعتقد أن لدى شباب الأتراك من المشروعات الداخلية الكثيرة فى ذلك الوقت ما يضعف مقاومتهم لأى ضغط إجماعى يأتيهم من الخارج. وإذا نجحت إصلاحاتهم فإن الدولة التركية تستعيد قوتها وتفلت الفرصة الذهبية من الروس . واستنتج إزفولسكى أن إيرنتال سوف يقره على خطته . وكان يعلم أيضاً أن النمسا يهمها تعديل معاهدة برلين لتتمكن من ضم البوسنة والهرسك – وقد كانت هذه المعاهدة هى التى أقرت احتلالها للولايتين سنة ١٨٧٨ – قبل أن تطلب الحكومة التركية الجديدة إعادتهما إليها . وقد احتفظت الحكومة التركية لهما بمقعدين فى المجلس النيابى ، بل ذهب شباب الأتراك إلى إجراء انتخابات فيهما .

فالظروف إذن كانت جد مناسبة – فى رأى إزفولسكى – لاتفاق روسيا والنمسا بمعزل عن سائر حلفائهما ورغم ما بينهما من تنافس فى البلقان . وحتى قبل ثورة شباب الأتراك كتب إزفولسكى إلى إيرنتال مشيراً إلى إمكان إجراء الاتفاق بين الدولتين ، ولم يلق منه أى اعتراض على ذلك .

ومن سوء حظ إزفولسكى بل ومن سوء حظ أوربا كذلك ، أنه لم يدرك تمام الإدراك عمق سياسة إيرنتال ،رغم أنه عمل من قبل سفيراً لبلاده فى روسيا ، وكان يعرفه معرفة تامة . وكان وزير خارجية النمسا صلبا قصير النظر تعلو رأسه خصلة شعثاء من الشعر تجعله قريب الشبه بأعيان الريف . وكان ذكياً بل كان أذكى ساسة ذلك العهد . كما كان فى بعض النواحى لايراعى إلا ولاذمة بصاحبه إزفولسكى من الغرور، وكان يثق ثقة عظيمة برسالة الإمبراطورية النمسوية كما يثق برسالة دولته . وكان مخه كالغدة المريضة يفرز من الآراء مالاسبيل إلى مدها . وكان أعداؤه يتهمونه بأن له عقلا « تلمودياً » — وهو فى الواقع حفيد تاجر حبوب يهودى. ولأصحاب هذا الطراز من العقول القدرة على قلب الأوضاع وتغيير الحقائق . إنهم يستطيعون أن يروا فى التدليس أسمى صورة من صور الحق ، وفى الحرب أنها الوجه الصاخب من أوجه السلام .

ومنذ ولى إيرنتال وزارة الخارجية سنة ١٩٠٦ كانت السياسة فى البلقان أهم مايشغله . وكانت مجالا للأفكار المعقدة الملتوية التى لا يستطيع إدراك كنهها أى مفكر فى العصر الحاضر . وعلى عكس ما كان يعتقد إزفولسكى، لم تصبح سياسة النمسا ترمى إلى التوسع فى البلقان إلى سالونيكا كما كانت من قبل . وفى رأى إيرنتال كان التطلع إلى امتلاك بعض البلاد فى البلقان ضربا من تفكير السذج ، لأن بلاد البلقان تستوطنها الجنسيات السلافية ، وليس فى طاقة النمسا أن تحتمل ضم أقليات سلافية جديدة . وإذا أراد إيرنتال أن يقوم بتعديل فى اتفاقية برلين وأن يطلب ضم البوسنة والهرسك، فلن يكون ذلك لزيادة التوسع على حساب تركيا . بل سيكون ذلك توسعاً للصرب على حساب النمسا والمجر .

ومن المفيد إلقاء نظرة شاملة على الموقف السياسى فى البلقان فى عصر إيرنتال. إن أهم مايجب إبرازه فى هذه المنطقة هو أن مراحل الثورة ضد الاستعمار كانت تغلى فى جميع أنحائها

فى مبدأ القرن العشرين فيما يشبه ما يحدث الآن فى الشرق الأدنى وفى بعض أنحاء إفريقية . وقد تم الجانب الأول من هذه الثورة — الجانب المتصل بمقاومة الاستعمار — فى أواخر القرن التاسع عشر . فقد كانت المستعمرات المسيحية فى البلقان ثائرة ضد الإمبريالية الإسلامية الآسيوية ، وأجبرت الدولة التركية على الاعتراف باستقلال اليونان والصرب والجبل الأسود . وكانت البوسنة وبلغاريا تحت السيادة التركية الاسمية ، ولكن البوسنة كانت فعلا تحت الحكم النمسوى ، بينما كانت بلغاريا مستقلة من الناحية الفعلية . وكان الألبانيون والمقدونيون وهم من الجنس السلافى القريب للجنس البلغارى وبضعة آلاف من الرعايا المسيحيين للحكم التركى ، ولكن تحريرهم لم يكن إلا مسألة أيام .

وفى سنة ١٩٠٨ ظهر الجانب الثانى من حركة البلقان الثورية . وهى حركة التوسع القومى التى كانت ترمى إلى تحديد القومية . وعلى نحو ما يجرى الآن فى إفريقية وفى الشرق الأوسط لم يقع الصدام بين البلاد الحديثة التحرر وبين البلاد الإمبريالية كالنمسا وإيطاليا أوعدوها تركيا بل بين بعضها البعض . فالصرب وبلغاريا واليونان كانت تطالب بأقاليم مازالت فى يد العثمانيين أو آلت إلى إحداها مما أدى إلى اشتباك المصالح أوتعارض حركات التحرير كالذى يحدث من التعارض بين فكرة القومية العربية والجامعة الإسلامية والجامعة الإفريقية .

وكانت أشد هذه القوميات نشاطاً حركة القومية الصربية التى كانت تهدف إلى وحدة كل الصربيين من أهالى جنوب شرقى أوربا ، بل لقد كان لبعض المفكرين من الجرأة فى أن يطمعوا فى إنشاء كومنولث يوغسلافى يضم كل العنصر السلافى فى الجنوب . وكان منشأ هذه الفكرة بطبيعة الحال من الصرب التى كان لديها الأمل فى أن تتولى قيادة هيئة فيدرالية للسلاف الذين فى جنوب أوربا . وقيام دولة الصرب على حدود النمسا هو فى ذاته مثال للوجود القومى الحر . وكان لها أثر فى عدم

استقرار سلاف الجنوب العديدين الواقعين تحت نير حكم أسرة هابسبرج . ولكن الصرب لم يكن يرضيها أن تكون هى مثالاً فحسب . بل أخذت العناصر القوية فى هذه المملكة الجبلية فى الدعاية لإثارة إخوانهم فى الجنسية ، وتشجيع القيام ضد السلطة الإمبراطورية . وهذه الحماسة الصربية « واليوغوسلافية » زادت حدتها بعد سنة ١٩٠٤ عندما قتل جماعة من الضباط الصربيين الملك الموالى للحكومة النمسوية اسكندر أبرينوفتش وزوجته دراجا، وأجلسوا مكانه بطرس كاراجيرجفتش ، وهو أصدق وطنية من صاحبه ، وأصبحت هذه الدولة المتخلفة التى يبلغ تعدادها أربعة ملايين نفس والتى تؤازرها روسيا ، قوة تهدد كيان دولة النمسا والمجر ذات الخمسين مليوناً من الأنفس .

أرادت السلطات النمسوية أن تجبر الصرب على أن تخفف من ثورتها بأن تفرض عليها أعباء مالية . وكان ذلك فيما عرف « بحرب الخنازير » سنة ١٩٠٦ عندما فرضت ضريبة باهظة على الخنازير الصربية التى تجتاز حدود النمسا إلى المصانع النمسوية، ومع أن النمسا كانت المستوردة الوحيدة لهذه السلعة إلا أنه لم يكتب للنمسا النصر فى هذه الحرب، فلما ولى إيرنتال وزارة الخارجية أظهر كياسة فى دعوته إلى مراجعة أسس العلاقات بين النمسا وبين جارتها الصغيره التى فى الجنوب .

وفى أثناء انعقاد مجلس الوزراء فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ صرح وزير الخارجية الجديد قائلا : « إن السياسة التى اتبعناها لحمل الصرب على أن تكون تابعة لنا سياسياً واقتصادياً ومعاملتها على أساس أنها كمية مهملة — إن سياستنا هذه قد فشلت . فإذا قام نزاع بين الصرب والنمسا فلا يستفيد من هذا النزاع إلا طرف ثالث . وعلى هذا يجب أن نسعى ونرجو أن تسير الأمور الكرواتية والدلماشية والبوسنية بحيث تكون آمال شعب الصرب متعلقة بالنمسا ».

ومع أن إيرنتال لم يكن واضحاً غاية الوضوح ، إلا أنه أظهر أنه ليس معادياً للصرب . ويبدو أن تفكيره كان شبيهاً بآراء بعض أنصار الدوق فرانسيس فرديناند الذين كان من رأيهم حسن التفاهم مع بلغراد ، على أساس أن فيه تهدئة لعناصر سلاف الجنوب فى الإمبراطورية ، بل كانوا يأملون من ورائه قبول الصرب اتحاداً فيدرالياً مع النمسا يكون على رأسه أحد أفراد أسرة هابسبرج .

ولما كان من المعروف أن الصربيين يطمعون فى الاستيلاء على البوسنة والهرسك ولا يرضيهم ضمهما للنمسا والمجر ، فقد كان من المنتظر أن تقضى سياسة إيرنتال ـ الذى يطمع فى تحسين العلاقة مع الصرب ـ إرجاء الضم حتى يتم التفاهم على هذا الأمر مع بلغراد . ولكن منطق إيرنتال متقلب حسب الظروف ، حتى لقد صرح مرة — كما يقول أحد الموظفين الموالين له فى وزارة الخارجية « إن ضم البوسنة والهرسك شرط أساسى لضمان الحل الموفق للمسألة الصربية » . بينما انسحاب النمسا من هناك سيكون نوعا من الانتحار السياسى (هاراكيرى) .

وأخيراً انتهى تفكير وزير خارجية فرانسيس يوسف ـ الذى كان يرى أنه هو بسمارك منطقة الدانوب أو مترنيخ القرن العشرين ـ إلى أن خير وسيلة لدعم علاقة الود بين الصرب والكروات وبين النمسا هى التقرب إلى بلغاريا وهى المملكة التى لا تربطها بها أية علاقة ودية ، بينما تربطها بالصرب جملة علاقات أقلها العلاقة الودية القوية .

ومما كتبه إيرنتال فى مذكراته : « إن عليهم أن يجتثوا الشر من جذوره ، وأن يقضوا على حلم الوحدة الصربية ولا يفكروا فى ذلك مستقبلا » .

ثم أعقب ذلك بما يدلل به على أن النزاع بين بلغراد والصرب لا مفر منه ، قال : « إذا نحن أيدنا بلغاريا رجعانا منها بلغاريا الكبرى على حساب الصرب ، فقد وضعنا

الأساس اللازم للاستيلاء على الجزء الباقى منها عندما يكون طالع السعد فى أوجه فى أوربا » .

إنه يتطلع إلى استقلال ألبانيا (تحت حمايته طبعاً) وصداقة الجبل الأسود و « بلغاريا الكبرى التى يربطها بنا رابطة اعترافها بالجميل الذى أسديناه إليها » .

ومن العسير فهم هذا الهراء وترجمته إلى لغة عصرية ما لم نحلل ونبسط أسلوب تفكيره وننتهى إلى إدانته . إن السياسة التى يقترحها لا تدل على غباء ، ولكنها سياسة ضارة وملتوية معاً . ثم إنها تكاد أن تكون على النقيض من السياسة التى كان يدعو إليها من قبل . إن منطقه الذى يفكر على مقتضاه يدله على أن الإمبراطورية تهددها فكرة الجامعة الصربية التى تثيرها الصرب من وراء الحدود ، وتغذيها عوامل الطموح الصربى مما لا يهدأ إلا بالإضرار بالنمسا والمجر . ولكى يؤمن حدود الإمبراطورية يجب أن يجتث الشر (أى الصرب المستقلة) من أساسه . وأفضل وسيلة لبلوغ هذا الهدف هى تشجيع بلغاريا على التوسع على حساب الصرب ، حتى إذا اندلعت نيران الحرب بينهما فسيكون النصر حليف بلغاريا للمعونة التى أسدتها النمسا إليها ، وستضم قدراً كبيراً من المملكة الصربية . وستكون هزيمة الصرب وبالا عليها وستضم النمسا إليها ما يتبقى منها عند سنوح أول فرصة مناسبة — أى عندما يكون لدى الدول الكبرى ما يشغلها عن التدخل (بهذا الإجراء سيخضع للنمسا مليون صربى أو أكثر ، رغم تحذير إيرنتال نفسه خطأ هذه السياسة) . وهكذا ستؤمن الدولة الثنائية حدودها الجنوبية ، وسيكون بجانبها بلغاريا الكبرى التى تعترف بجميلها ، وألبانيا المستقلة (التى اقترح إيرنتال تخليصها من الحكم التركى واستقلالها الذاتى) والجبل الأسود الصديق . ولن يكون لديها عدد يعكر صفوها — من الخارج على الأقل — من الصربيين الذين فى الجنوب .

هذا بعض ما يدور فى رأس إيرنتال الذى لا يهدأ كالقردة التى تتنقل من غصن إلى غصن فى الغابات الاستوائية . وهو مشغول بالمحادثات التى جرت فى بوشلاو . ومن المؤسف أن دلالاتها تختلف عما يتصوره إزفولسكى ، الذى يرى بلغاريا والصرب فى حماية روسيا . وكان الاجتماع فى قلعة بروشتولد يسوده الود والبساطة . كما كان يجمع بين الجو الرسمى والجو الاجتماعى المألوف . ولم يجد إزفولسكى أى حرج فى أن يعرج على موضوع محبب إلى نفسه وقد سره ماسمعه من مضيفيه النمسويين (أو ما ظن أنه سمعه منهم) .

إنه لا يوجد من ناحيتهم أى اعتراض على فتح المضيقين أمام الأسطول الروسى . وقد أثار النمسويون فى مقابل موضوع المضيقين البوسنة والهرسك . وسألوا فى صراحة غير مألوفة عن موقف روسيا إذا ماضمت النمسا هاتين الولايتين .

وكان رد إزفولسكى — الذى قيل إنه لا يتفوه بأية كلمة تسىء إلى محادثيه — رداً غامضاً بأنه لا يرى أى اعتراض « ولكن لابد من إيجاد الوسيلة المناسبة لهذه المسألة » .

وزيادة على ماجرى من الحديث فى أوقات تناول وجبات الطعام قضى الوزيران ست ساعات فى حديث بينهما وهما يتمشيان فى الحديقة أولا ، ثم فى المكتب الصغير المزدحم الذى فى القلعة . ولم يسجل أى شىء رسمى عن هذا الاجتماع إلا ذلك البلاغ البسيط الذى بلغ للصحف . ولم يكن هذا ضرباً من السياسة السرية بل كان من قبيل ما يسمى سياسة « الجنتلمان » ، وعندما ذهب إزفولسكى من بوشلاو إلى بافاريا ليقضى عطلته فى جبال الألب كان يبدو عليه شدة ارتياحه لتصرفه . ومن الغريب أنه فى شدة التهور والغفلة : لقد كان معروفاً بين

زملائه فى جميع أنحاء أوربا بمهارته فى دس الـكلمات الهامة فى ثنايا الـكلام العادى حتى تمر دون أن تلفت انتباه المستمع إليها .

وبعد ذلك بشهر — أى فى الخامس من أكتوبر عندما وصل إلى باريس بعد نزهته فى بافاريا انفجرت القنبلة الزمنية التى أعدت فى بوشلاو ، وأعلنت وكالات الأنباء من فينا أن ضم النمسا للبوسنة والهرسك مسألة منتهية، وأضافت البلاغات أن بلغاريا التابعة اسمياً لتركيا حسب معاهدة برلين أعلنت استقلالها بموافقة النمسا دون استشارة روسيا أختها السلافية الـكبرى . وهذه هى المرة الثانية التى تجرح فيها كرامة روسيا فى البلقان .

وفى سنة ١٩٠٨ كان « برميل البارود فى البلقان » هى العبارة التى تعددت إذاعتها فى جميع صحف أوربا . وكان كل عمل يحدث من جانب واحد فى هذه المنطقة — لاشك — يثير أزمة دولية . وكان السخط فى الصرب قوياً حيث تبدد حلمها بالوحدة السلافية وأعلنت بلغراد تعبئة ١٢٠٠٠٠ مقاتل . وكان وقع الأزمة فى روسيا مماثلا لما فى الصرب .

وملأ العطف على الصربيين المظلومين قلوب إخوانهم فى روسيا وأحزن نفوسهم، وسرى فى جميع العواصم الأوربية الحديث بما يفيد توقع نشوب الحرب فى أية لحظة .

لقد أصبح إزفولسكى فى مركز حرج . لقد ملأت النمسا سمع العالم بأن روسيا بمساعدة إزفولسكى وافقت على ما فعلته النمسا . بل لقد ذهب وزير خارجية النمسا إلى وضع إعلان فى مكتبه لتخليد « ذكرى الحادثات العظيمة الأهمية للنمسا التى تضمنت موافقة إزفولسكى على ضم البوسنة والهرسك » . وكان من العسير فى تلك

الظروف أن يحتج إزفولسكى على هـذا الـكلام . ولم يجد تفسيره له فى سانت بطرسبرج آذانا مصغية . وأخبر القيصر دون الوزراء بما يعتزم القيام به . كان أمله الوحيد أن يؤكد مطالبته بالتعويض الذى وعد به فى بوشلاو . وقد دعا بأعلى صوته مطالبا بعقد مؤتمر للموقعين على معاهدة برلين لبحث مسألة البوسنة . وكان يعتقد أنه سيكون للمؤتمر فائدتان : إذلال النمسا ، وإعادة بحث مشكلة المضيقين .

وفى لندن ـ حيث انطلق إزفولسكى من باريس ـ لم تقابل بارتياح فـكرة السماح للأسطول الروسى بارتياد البحر المتوسط ، وهو طريق بريطانيا الرئيسى للهند . وكل ما حصل عليه السياسى الروسى من الإنجليز إجابات أدبية فيها هروب من الموضوع ، أما فى باريس فالترضية الوحيدة التى حظى بها فى إحدى المقابلات السياسية الرائعة ، هى سماع رئيس الوزراء الفرنسى كلمنسو يحيى السفير النمسوى المضطرب بصوت مرتفع قائلا : « حسناً ما أسرع انتهاؤك من وضع النار فى أربعة أركان أوربا ! »

وإذ أحس إزفولسكى بخديعته ويأسه قصد إلى برلين . وكان القيصر غاضبا بسبب لعبة سفير حليفته النمسا ، وسب « ذلك اليهودى إيرنتال لانفراده بالعمل » . ثم قال « لماذا أكون أنا آخر من يعلم فى أوربا » . وكان غليوم يود ألا يتورط فى المنافسة التى بين روسيا والنمسا فى البلقان وقد تورط من قبل . وكان يؤلمه ذكرى زيارته لتركيا كما يؤلمه ذكرى أحاديثه الملتهبة فى أثناء تلك الزيارة .. والآن تختطف حليفته إقليمين من أصدقائه الأتراك .

وشرح صدر إزفولسكى دعوة للغداء وصلته من قيصر ألمانيا ، ولـكنه ظل مغتبطاً طول الوقت ، ثم خرج الإمبراطور من القصر بعد الظهيرة بوقت قليل . ولم يتمكن من التحدث فى مشكلاته إطلاقا ، وكان مضيفه يقصر حديثه على المسائل التافهة . ولما قابل مستشار القيصر وأنبأه أنه فى ضيق شديد لم يتأثر بيلوف بكلامه .

ولم يكن فى وسعه أن يعمل شيئاً له، وإنما نصحه أن يكبح جماح الصربيين الثائرين.

ولما وصل إلى سانت بطرسبرج حيث يجب أن يعود ، أخذ يمطر الدول الأوربية بوابل من المذكرات . وبلغ التوتر أقصاه فى ديسمبر عند ما توقع الجميع غزو الصرب . وفى ذلك الوقت كتب نقولا لغليوم أن يكبح جماح حليفته .

ومما كتبه له « يجب أن تدرك الموقف الدقيق الذى أكون فيه لوأن النمسا أعلنت الحرب على الصرب . لحفظ السلام لابد أن أختار واحدة من اثنتين : إما إرضاء ضميرى وإما إرضاء العواطف الجامحة لشعبى » .

وكتب نقولا لفرانسيس جوزيف يشكو من نفاق إيرنتال .

ولم يتأثر إمبراطور النمسا ، ولم يفقه سبباً لما يشغل بال الروس . إنهم وافقوا على الضم . ألم يوافقوا عليه ؟. لقد اتخذ الإجراء لوقف ثورة الصربيين على الدولة الثنائية . إن التوسع لا يهم النمسا مطلقاً . لقد أبلغه إيرنتال مؤكداً له ألا خطر مطلقاً من هذا الضم ، وإلا لم يكن ليوافق عليه . ثم إنه أجاب على خطاب قيصر روسيا بهذه الكلمة الفاترة :

« عندما أبلغنا وزير خارجيتكم أن ليس لدى روسيا اعتراض على الضم لم يتوهم وزرائى أن هذا التصريح صادر منه لا من الحكومة الإمبراطورية . وأنه لم يصرح له بالإدلاء به » .

وفى يناير سنة ١٩٠٩ كانت جيوش النمسا وروسيا مستعدة للقتال، وعرضت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا أن تتدخل، ودعت ألمانيا لتشترك فى تهدئة الجو، ولكن بيلوف كان له رأى آخر .

كان المستشار الألمانى فى الستين ، ولم يكن موضع ثقة القيصر فى الأيام

الأخيرة ، ويعلم أن أيامه الباقية فى العمل قليلة ويرحب بالفرصة التى تهيأت له ليظهر فى دور باهر على مسرح التاريخ . وكان محبوباً ذكياً أنيقاً موهوباً بسرعة الخاطر . وكان من تلاميذ بسمارك . وكان أهم ما يعجبه فيه تكريس حياته لتقوية بروسيا، وكان من مفاخره أنه يتخذه قدوة له فى تصرفاته السياسية .

وقد قضى معظم حياته فى الأعمال السياسية، وارتقى بكفايته من كاتب فى إدارة التشريع إلى أن صار رأس الإدارة الخارجية الإمبراطورية قبل أن يكون مستشاراً. وكان على رأس الهيئة السياسية ، كما كان كل من إزفولسكى وايرنتال ولكنه كان أفضل منهما فى معالجة المسائل السياسية . وكان أكثر منهما استقامة وأحد ذهناً ، ولكنه لايبلغ منزلة بسمارك فى تقدير الخط الذى يكمن وراء النصر .

قال للقيصر مرة على سبيل الفخر « إنى اعتمدت على كفايتى وقوتى فى ضبط الأمور حتى لايحدث الاصطدام بين القطار الروسى والقطار النمسوى» .

وكان الموقف فريداً لإظهار الدقة والحصافة ، دون اهتمام كبير بمستقبل الأمور . كانت روسيا غير مستعدة للحرب بعد أن أنهكتها الاضطرابات الداخلية، ولم تفق بعد من حربها مع اليابان . وأبدت لها حليفتاها إنجلترا وفرنسا أنهما تعدان نزاعها مع النمسا على الصرب لايتطلب منهما إلا تأييداً سياسيا ليس غير .

وما إن اعترفت تركيا بالضم نتيجة لضغط ألمانيا وإرشاد النمسا لها ، حتى صب إيرنتال على الدول وابلاً من المذكرات لايطلب فيها اعتراف الصرب باغتصاب الأقاليم الشقيقة فحسب، بل يطلب منها توقيع تعهد بحسن السلوك مستقبلا وعدم الاحتجاج والسكف عن الاعتداء على الدولة الثنائية ودوام حسن الجوار، فضلا عن تحذير بالغ الشدة أرسل إلى روسيا فى ذلك الحين .

ثم جاء دور ألمانيا فى العمل . ففى ٢١ من مارس سنة ١٩٠٩ ذهب السفير الألمانى فى سان بطرسبرج إلى وزارة الخارجية ومعه تعليمات صارمة من برلين ، وكان يطلب تأكيداً من روسيا بقبولها المذكرة النمسوية وموافقتها دون أى تحفظ على إلغاء المادة الخامسة والعشرين من معاهدة برلين ، ويطلب من السيد إزفولسكى رداً صريحاً إما بلا وإما بنعم .

وقرر مجلس الوزراء الذى انعقد على جناح السرعة أنه ليس أمامهم إلا ازدراء الإنذار . وأجبرت روسيا على احترام الأمر الواقع فى البوسنة والتنحى عن مسألة الصرب كأنما هى ثعبان سام . (وبعد أسبوع قبلت الصرب المطالب المزرية التى وجهتها النمسا إليها) .

وقال إزفولسكى للسفير البريطانى « إنها جرعة مرة، ولكن المشروع الألمانى النمسوى كله أعد بعناية ونفذ فى الوقت المناسب . وبعد أربع سنوات أو خمس ستسترد روسيا قوتها وتستطيع أن تتصرف تصرفاً آخر » .

وكان بيلوف راضياً عن النتيجة التى وصل إليها بقعقعة سيفه . وأجبر أوربا بالتهديد بالحرب على أن تغفر للنمسا جريمة السلب التى اقترفتها فى البلقان ، وأظهر لروسيا أن حليفاتها ليست أهلا للاعتماد عليهن . ثم إنه أعلن مفاخراً « أن قوة ألمانيا البرية كسرت حلقات الحصار الذى كان يحيط بها » .

ونظراً إلى أن مصالح إنجلترا وفرنسا الحيوية لم تهدد ، فقد حولتا نظرها إلى جهة أخرى بينما كانت المعاهدة التى وقعتاها تنتهك حرمتها .

وبهذه المناسبة قالت صحيفة التيمز تهون من أمر الأزمة فى كلمة قصيرة « هكذا يمكن أن نثق كل الوثوق بأن خطر الحرب قد زال » . وتذكرنا هذه الكلمة

باللباقة التى قوبلت بها أحداث ميونخ بعد عشرين عاما من هذا التاريخ. لقد زدت الدول حينذاك على ماحدث بكلمة عابرة .

نعم زال خطر الحرب ، ولـكن الوسيلة التى جاءت الأزمـة عن طريقها والأسلوب الذى قضى به على الأزمة ، كليهما يجعل كل مفـكر فى أوربا يرتعد فرقا . وفعلا لقد ارتعد بعض الناس من أجل السلام الذى يعتمد على الملوك والوزراء ، الذين كانوا يتصرفون فى شئون دول العالم الـكبرى على طريقة حكام القرن الثامن عشر ، الذين يستمدون سلطانهم من الحق الإلهى ، ويتقاتلون للاستيلاء على إحدى المقاطعات ، أو يريقون دماء شعوبهم انتقاماً لـكرامة سفير أهين .

أما النتائج المـادية للأزمة الدولية التى تسببت عن تلك الوليمة التى أقيمت فى القلعة المورافية . فمن العسير المبالغة فيما ترتب عليها من النتائج .

وكانت إحدى هذه النتائج — وليست بأقلها شأناً — نقل إزفولسكى من وزارة الخارجية الروسية سفيراً لروسيا فى باريس ، وهناك ظل يعمل إبان بضعة السنوات الحرجة فى حماسة قوية فى تضييق وثاق التحالف الإنجليزى الفرنسى الروسى حول عنق ألمـانيا والنمسا ، بينما كان مساعدوه يغرون الصحف عن طريق الرشوة على العمل على زيادة التوتر والتعصب بين الشعب الفرنسى ، وفى هاتين المهمتين كان يعمل مع ضباط أو موظفين فرنسيين فى الجيش أو فى وزارة الخارجية أو فى الشرطة . وبينما كان إزفولسكى يعمل عمله هذا فى باريس ، كان خلفه فى سان بطرسبرج سازانوف — المرءوس السابق له ، والذى كان يرى فيه القدرة الحسنة على محاكاته فى تصرفاته — يثير ضد النمسا جميع أنواع الحروب الروسية الظاهرة والمستترة فى البلقان .

وقد كتب سازانوف سنة ١٩١٠ إلى وزيره فى بلغراد — هارتوج —

أن النمسا رغم زمالتها لألمانيا فى الأسلحة فى حالة ضعف شديدة . . . وممتلكات الصرب التى هى موعودة بها تقع الآن فى مدار دولة النمسا . وفى هذه الظروف يكون من الأهمية بمكان عند الصرب أن تبذل كل جهد حتى تستعد لمواجهة الحرب القادمة التى لا شك فى وقوعها .

وفى الصرب نفسها كان رد فعل الأزمة شديداً كما كان متوقعاً ، وسنرى مقدار ذلك فى فصل قادم . ولم يخف وقعها فى دولتى الحلف الثنائى إبان التوتر والمصادمات الكثيرة .

وتنبأ المؤرخ الفرنسى ألبرت سوريل فقال « عند ما يغادر التركى فراش الرجل المريض ، فسوف تحل النمسا محله فيه » . مع أن الرجل المريض ظل فى فراشه رغم قيام الشبان الأتراك بثورتهم . إلا أنه فى سنة ١٩٠٨ سارت النمسا نحو عنبر المرضى ، ومن المؤسف أنه لم يكن هناك حجر صحى يمنع انتشار العدوى .

ولكن فى ألمانيا كان لأقوال إزفولسكى غير الحصيفة ، ودفاع إيرنتال عن نفسه — ذلك الدفاع الفاشل — أسوأ العواقب . وإذ نسى بيلوف نصيحة بسمارك بألا يربط عجلة السياسة الروسية الأنيقة بالقاطرة النمسوية العتيقة ، رسم بموافقة القيصر ومشاركته سياسة النمسا الانتحارية فى البلقان .

ولقد تبدل الطابع الحربى للاتفاق بين دولتى الوسط تبدلا كاملاً . فإن القرار الذى اتخذته ألمانيا لمساعدة النمسا ، إذا غزت الصرب وتدخلت روسيا ، لا شك قد وضع ألمانيا من الناحية الحربية فى وضع ضاربها . فإن لروسيا حليفة هى فرنسا . وهذه ولو أنها غير ملزمة فى جميع الأحوال قد تساعدها بإعلانها الحرب على الدولة الثنائية ، وفى هذه الحالة ، فى أى اتجاه توجه ألمانيا ضرباتها الأولى ؟.

هذا هو السؤال الذى وجهه الجنرال هوتزندورف كبير المجلس الحربى النمسوى فى مكاتبات متبادلة بينه وبين الجنرال مولتك الألمانى فى يناير سنة ١٩٠٩ . وكان رد مولتك فى غاية الصراحة القاسية « إن خطته تقضى بأن يلقى أولاً بالقوات الألمانية الرئيسية على فرنسا » .

وهكذا تحولت المعاهدة الدفاعية التى عقدها بسمارك — على ما ذكره صحفى ألمانى جرىء — «إلى معاهدة هجومية تكفلت بها ألمانيا — بكل فرسانها ومعداتها الحربية وقواتها البحرية — أن تريق دماءها من أجل سياسة النمسا فى البلقان» . وأسوأ من هذا أن قرار توجيه الضربة الأولى إلى فرنسا ، قضى على كل أمل فى قصر العمليات الحربية إذا وقعت على الجنوب الشرقى من أوربا . ذلك لأن أية حرب بلقانية تقتضى اشتراك النمسا وروسيا فيها ستصير تلقائياً حرباً أوربية عامة . وإذا كانت الضربة التى توجه إلى فرنسا ذات القوة الحربية الحديثة لا أمل فى نجاحها إلا إذا نفذت بمنتهى السرعة ، فإن خطة مولتك الحربية المبنية على خطة شليفن المشهورة[1] تقتضى عدم التأخر فى سير الحملات الحربية وتوجيهها رأساً عبر الحدود الفرنسية . فإذا ما تحركت الجيوش فلن يكون من الممكن وقفها إلى أجل دون تعريض الخطة إلى الخطر .

وعامل الوقت يقدر فعلا قبل سير الحملة أية حركة سياسية من شأنها وقف الحرب بعد ما تصل الأزمة إلى درجة معينة . وفى عصرنا الحاضر قصر الوقت بين إعلان حالة الحرب وقيام الحرب الفعلية إلى حسبان الوقت اللازم لوصول

---

(١) وضعت خطة شليفن الذى كان رئيس الهيئة العامة للجيوش الألمانية سنة ١٨٩٩ ثم نقحت ووضعت فى وضعها النهائى فى مدى السنوات الست التالية . وهى تستدعى الهجوم الألمانى الكبير على شمال فرنسا عن طريق بلجيكا التى ينتهك حيادها وبذلك يكون مؤكداً محاصرة معظم الجيش الفرنسى وهزيمته فى موقعة فاصلة . (المؤلف)

قذائف القتال . ولكن قبل سنة ١٩١٤ كانت الجيوش تجتمع على رءوس الطرق وتسير إلى مواقع القتال بآلات تدفع دفعاً إلى ساحة الحرب ، بينما أحذية المشاة وآلات المدفعية تسير وئيدة فى طرقات القرى الملتوية النائمة . وكان بين حدوث الأزمة السياسة وقيام الحرب الفعلية فسحة من الوقت ، كانت على ضيقها تسمح بقيام رسل السلام بمجهوداتهم الأخيرة. ثم إن قادة الجيوش الألمانية وهم يدرسون فى مدى عشرين عاماً أسلوب الهجوم السريع قد ضيقوا الثغرة بين إعلان الحرب وتنفيذها .

ولكى ندرك قسوة الموقف يجب أن نختبر عن قرب شخصية غليوم الثانى السيد الأعلى للحرب ،وهو الذى يدير ولو نظرياً عمليات الحرب الألمانية الدقيقة ، كما يجب علينا كذلك أن نتفهم تلك الاتجاهات الحديثة المشئومة فى ذلك المجتمع المندفع الذى أوجده وأوجدها .

الفصل الثامن

غليوم الثاني على حافة الهاوية

كان على البيانو فى حجرة الاستقبال فى كثير من البيوت الألمانية قبل الحرب صورة لغليوم الثانى فى إطار من الفضة ، ومهورة بتوقيعه بخط دارج يدل على شىء من العصبية . والصورة تعبر عن العظمة فى لباس القائد الأكبر للبحرية الألمانية وهو ممسك بتلسكوب كبير تحت ذراعه اليسرى . ويبدو شىء من العبوس فى وجهه وقد برزت ذقنه وفتل شواربه على النمط العسكرى ، ووضع يده اليمنى على الشريط الذهبى الذى يزين الحزام ، ويده اليسرى ممسكة بمقبض سيفه . وعلى صدره عدة صفوف من الأوسمة وعدة من الأشرطة تحيط بكتفيه . وأصغر نقطة فى الصورة تدل على أنه الإمبراطور ، وتنطق بوضوح بأنه هنا يقف الرجل الذى كان شعاره « إلى الأمام بأقصى سرعة » .

ولكن الصورة الفوتوغرافية مهما كانت رسمية لا تخفى الحقيقة إخفاء تاماً . فحافة القبعة تخفى شعر القيصر الذى دب إليه الشيب ، ولا يمكن أن تصرف النظر عن ارتخاء المنطقة التى فى أسفل فكه مهما حاول شدها بإبراز ذقنه إلى الأمام . ووقفته المسرحية والتلسكوب فى يده يبدو منها أنها حيلة لإخفاء التواء ذراعه اليسرى ، والعين الخبيرة ترى فى النقطة السوداء صورة ناطقة لآثار جرح قديم . وكذلك كان وراء التصرفات والثرثرة التى جعلت من غليوم «طفل أوربا المزعج» مايرينا الطفل الكسيح فى أيامه السالفة وهو يحاول لفت نظر أمه إليه وهى تولى وجهها عنه فى عناد وخجل وألم شديد ، ومع ذلك فإن عينيه المعبرتين هما أهم مايلفت النظر فى هذه الصورة المفضلة ، ففى نظرته المستقرة بل المغناطيسية ما يكذب كل مايراد من الصورة أن تعبر عنه أو تنطق به ، وتحت قناع الرضى والتحدى يكمن الشك

القاتل . ومن خلال النظرة التى تدل على العزم والرجولة يشم الإنسان رائحة الرعب الواضح . وأمير البحار يرى واقفاً فى مكان القائد للباخرة فى أبهى حلة له ، وكل الآلات تتحرك طوعية لأوامره ، ولكن دفة السفينة مشلولة الحركة من أثر اصطدام مروع ، والآن فقط ابتدأ يدرك ذلك .

وسواء أكان القيصر يعرف الحقيقة أم لا يعرفها — وهناك ماهو أدل من الصورة على أنه يعرف الحقيقة — فإن التشبيه البحرى السابق ينطبق على الحالة انطباقاً لا بأس به . ولقد كانت ألمانيا الإمبريالية فى الواقع إبان سنوات السلام الأخيرة أشبه شىء بسفينة تسير بأقصى سرعتها نحو الدمار وقد أفلتت من قيادة ربانها . أو على رأى المؤرخ البريطانى الذى استعمل فى وصفه تشبيهاً مستعاراً من اليابسة — أنها كالقاطرة التى جرت دون قائد يقودها . ومن المعروف على وجه التقريب متى حدث الانهيار الجزئى فى نظام الحكم فى الإمبراطورية . ويبدو أن الحادث الفاصل وقع بعد أزمة البوسنة سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ ، وكان النجاح الظاهر لسياسة اليد الحديدية الألمانية الذى حدد نهاية الأزمة هو فى ذاته عامل له أهميته .

ولا شك أن غليوم يقع عليه بعض اللوم ، فإن روحه الحربية واعتداده وعبارات الفخر التى يتحدث بها على الدوام كل ذلك كانت له صورة بارزة فى النفوس . ولربما كانت الصورة خاطئة ومضللة . فلقد كان غليوم فظاً غليظاً ولكنه كان أبعد ما يكون عن رجل الحرب الذى صوره خيال قراء الصحف فى إنجلترا وفرنسا وروسيا ، ولكن هذا الخطأ طبيعى ولو أنه كان نتيجة للدعاية المتعصبة فى هذه الدول . ومنذ أن ولى العرش فى التاسعة والعشرين من عمره كانت روحه الحربية تسىء إلى رجال الملوك فى أوربا وتلقى الرعب فى وزارات الخارجية .

أهدى الإمبراطور غليوم مرة — فى أول عهده — إلى السفارة الألمانية

فى باريس صورة زيتية له فى الحلة السوداء لقائد فرقة شاهر عصا المارشالية ، وكان فيها من التحدى ما جعل أحد القادة الفرنسيين البارزين يقول عند رؤيتها « إن هذه الصورة هى إعلان للحرب » .

وكان رده على التصريح الذى صدر عن مؤتمر لاهاى للسلام سنة ١٨٩٨ أنه قال :

« أيمكن أن نتصور قائداً أعلى للجيوش يسرح جيوشه المنتصرة ويعرض بعمله هذا بلاده لأن تكون طعمة للفوضويين والغوغاء» . وقال فى فرصة أخرى بمناسبة هذا المؤتمر نفسه « إنى أثق بالله وبسيفى المسلول ، وإنى . . . . . . على كل قرارات المؤتمرات الدولية » .

وعند ما أعلن إميل لوبيه رئيس جمهورية فرنسا استعداده لاستقبال القيصر فى باريس متحديا الأفكار التعصبية المعارضة ، رد القيصر على هذه النية الكريمة بخطاب ألقاه على جيشه جاء فى ختامه «إن أمر اليوم : حافظ على بارودك جافاً وعلى سيفك حاداً ، ولتكن يدك دائماً على مقبض سيفك . » وأهم من هذا كله الخطاب الذى لا ينسى مطلقاً ، والذى وجهه إلى أسطوله البحرى الذى أقلع سنة ١٩٠٠ لإخماد ثورة البوكسير فى الصين ، وللانتقام للمذبحة التى قام بها المتعصبون هناك ضد سفراء الغرب بما فيهم السفير الألمانى :

« لا تؤووا أحداً . ولا تسجنوا أحداً . بل كما خلد الهون ذكرهم منذ ألف سنة بقيادة مليكهم أتلا ، ولا يزال صدى ذكرهم مصدر فزع فى كل سمع . كذا فليتردد ذكر الألمان فى التاريخ الصينى مدى ألف عام . ولتتصرفوا حتى لا يجرؤ الصينيون مطلقاً على أن يسيئوا معاملة الألمان » .

وقد لا يكون من الإنصاف أن يلصق رجال الدعاية من الحلفاء وصمة الهون بالألمان فى أثناء الحربين العالميتين ، لأن القيصر ألقى ذلك الخطاب بمناسبة الحملة الاستعمارية التى اشتركت فيها ألمانيا مع القوات الغربية دفاعاً عن المصالح الغربية والمدنية الغربية . ولكن هذه القصة تمثل الوقع السيىء لكلمات القيصر التى يلقيها فتسىء إلى العالم أجمع[1] .

وكان من سوء حظ ألمانيا أن يجىء مثل هذا الحاكم فى وقت يكون فيه ظهور حاكم عنيف على المسرح العالى مدعاة لسخط الدولة القديمة الوطيدة الأركان . وكان من سوء حظ غليوم أن تكون كل كلمة ألقاها مفاخراً أو مهدداً ، يدعمها حيازته لأفضل الجيوش عتاداً وأحسنها نظاماً ، ولقوة بحرية لا تفضلها إلا البحرية البريطانية ، ولسياسة تجارية متسعة تهدد جميع المصالح التجارية العالمية ، ولنسبة عالية فى المواليد . وأخيراً كان من سوء حظ العالم أن يحل حكم غليوم ورغبة ألمانيا فى سيادة أوربا دون إراقة الدماء فى الوقت الذى اختل فيه ميزان الأمور فى المجتمع الألمانى ، وزالت كل الضوابط وزادت حدة المطالب . وأصبح لبعض الهيئات السياسية والاجتماعية قوة عظيمة غير خاضعة لأى نظام . وكانت أحرج حقبة لهذه الثورة — كما ذكرنا من قبل — المدة ما بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٤ . ولكى نفهم فهماً صحيحاً أحداث هذه الحقبة يجب أن ندرس منشأ أسرة هوهنزولرن وتاريخها وتاريخ مستنقعات پومرانيا التى صارت فى أقل من ثلاثة قرون إحدى القوى العالمية — بروسيا .

---

(١) مما يذكر من الأمثلة على كلام القيصر الذى يسرف فى النطق ، أنه قال مرة لطبيب الأسنان الأمريكى الذى يعالجه « لا تهتم بما يصيبنى من ألم . أنا لا أشعر مطلقاً بالألم » (المؤلف)

بلغت أسرة هوهنزولرن شهرة عريضة، وصارت صاحبة أملاك واسعة على رأس دولة أقامتها من العدم. إن مملكة بروسيا من صنعها، وتاريخ الأسرة وتاريخ بروسيا شيء واحد.

وقبيل القرن السادس عشر كان لفظ بروسيا يعني الأراضي الواقعة في الشمال الغربي من بولندا فيما وراء حدود الإمبراطورية. وتم الاستيلاء عليها بالانتصار على شعب وثني على بحر البلطيق يسمى بالبروسي في القرن الثالث عشر، واستعمر هذه الأراضي جماعة من فرسان الألمان الصليبيين. والهوهنزولرن أسرة من الإقطاعيين كان مقرهم الأصلي في سوابيا غير بعيد عن مقر آل هابسبرج. وفي القرن الخامس عشر ارتقوا عدة درجات في السلم الإقطاعي حتى صاروا رؤساء مقاطعة براندنبرج في شمال ألمانيا. وكان جزاؤهم على اعتناقهم مذهب الإصلاح الديني استيلاءهم على المنطقة التي عرف اسمها بمملكة الهوهنزلرن. وفي سنة ١٥٢٥ حرر أحد أفراد الأسرة أراضي الفرسان التيوتونيين وضمها إلى أملاكه وهي التي صارت دوقية بروسيا الوراثية.

وفي القرن السابع عشر كانت لأسرة هوهنزولرن أوسع الممتلكات في الإمبراطورية بعد الهابسبورج. ولو أن ممتلكاتهم هذه كانت مبعثرة، ويتكون بعضها من مساحات رملية أو مستنقعات أو غابات من الصنوبر. وكان شرق نهر الألب أراض منها قليلة السكان، بها بعض السلافيين الذين قهروهم، ممن كانوا أقل منهم مدنية وأبعد منهم عن حياة البلاط والأمراء. تلك كانت نشأت الهوهنزولرن والأساس الواهي الذي شيدوا عليه ملكهم الكبير.

وتمكن أربعة من أفراد أسرة الهوهنزولرن الطموحين من تأسيس القوة

البروسية الحديثة فى الحقبة مابين أواسط القرن السابع عشر والثورة الفرنسية :

ووحد فردريك وليم (١٦٢٠ — ١٦٨٨) شطرى ممتلكات الأسرة — براندنبرج وبروسيا — فى دولة مستقلة رغم عدم اتحاد حدودها . ثم جاء خلفه فردريك الأول وأقنع الإمبراطور بالاعتراف ببروسيادولة ملكية. ثم إن فردريك وليم الأول أعد الجيش البروسى ليكون عدة بروسيا القادرة دائما على إحراز النصر ، ثم إن ابنه فردريك الأعظم استخدم فعلا هذه العدة وأمكنه بالإقدام والكفاية أن يهزم جيوش أوربا المجتمعة . ووحد أجزاء مملكته المتفرقة فى دولة واحدةقوية. وهيأ لها أساساً للصناعةفيها بانتزاعه مناجم سيليزيا للفحم من ماريا تريزا إمبراطورة النمسا .

والروح الحربية كانت إحدى صفات أسرة هوهنزولرن منذ نشأتها. لأن القوة وحدها هى الدعامة الوحيدة التى يستند إليها فى جمع شتات دولة متفرقة فى جميع مقوماتها، ليس لها تاريخ ولا ثروة وكادألا يكون لها شعب . (وكان على الهوهنزولرن أن يشجعوا الهجرة لتعمير البلاد) ومن أقوال فردريك وليم الأول « إن كل رعيتى ولدوا جنوداً » . قال ذلك عندما أعلن الخدمة العسكرية الإلزامية فى بروسيا ، وهذا الموقف جدير بالحاكم الذى خلق رعيته بدلا من أن يكونوا سبباً فى وجوده.

والروح العسكرية لم تؤثر بطابعها فى كفاية الجيش البروسى فحسب ، بل كان لها أثر فى التعليم البروسى التقليدى، وبالتالى فى الخلق البروسى .

وفى أثناء شبابه كان الأمير الهوهنزولرنى الذى سيصبح عما قليل فردريك الأكبر يعيش عيشة بوهيمية مع ميل للفنون . صبه أبوه فى قالب جديد ، أحيانا بالحبس ،وأحيانا بإعدام أحد زملائه أمام عينيه . وكانت آثار حياته الفنية ظاهرة فى

علاقته بعد ذلك بفولتير والحفلات الموسيقية . ولكنه فى شبابه لم ينس مطلقاً أن كل حاكم من أسرة هوهنزولرن ليس له فى حياته إلا هدف واحد وشاغل واحد وملهاة واحدة — تنشئة بروسيا .

وقصة تعليم فردريك لاتبين لنا قسوة التقاليد البروسية فحسب بل تكلفها وشذوذها . وكانت بروسيا فى أعين حكامها والصفوة من أبنائها معقد آمالهم أكثر منها مثلهم الأعلى . وكانت خدمتها واجباً مفروضاً عليهم أكثر منها تطوعا واختياراً . وكان فردريك الأعظم نفسه فريسة لهذه التقاليد .

ومما جاء على لسانه فى إحدى اللحظات الحرجة فى حياته أنه قال « سأحتفظ بقوتى أويفنى كل شيء ولو أدى هذا إلى أن يندثر اسم بروسيا ويهلك معى » .

وكان لهذه الكلمات صدى سيء فى القرن العشرين ، وكانت دلالتها على وجوب القيام بما لا يمكن تحقيقه هى فى الواقع المظهر المتكرر للتاريخ الألمانى فى القرن العشرين .

وتوفى فردريك قبل قيام الثورة الفرنسية بثلاثة أعوام ،ولما حاول خلفاؤه إرضاء نابليون أولا ثم الخضوع له ثانياً فقد مهدوا السبيل لوضع ألمانيا فى قبضة هذا المغامر الماكر . وكان نابليون دون قصد هو العامل الأساسى فى قيام الوحدة الألمانية ، فإنه أخضع مالا يقل عن مائة دويلة ألمانية . كما أن جيوش الاحتلال الفرنسية هى التى ولدت القومية الألمانية .

وكانت عبارة « ليحيا العنصر التيوتونى » هى الصيحة الجامعة التى قادت الشعب الألمانى فى حرب التحرير ضد نابليون . ومع هذا ، فبعد مؤتمر فينا لم يبق هذا الشعار متفقا مع روح العصر بما تضمنه من فكرة الوحدة الألمانية والإصلاح النيابى .

ثم صارت بروسيا عضوا فى الحلف المقدس، وقنعت أسرة هوهنزولرن بمكانتها بعد أسرة هابسبرج الإمبراطورية . وعندما دعا الأحرار الألمان إلى عقد مجلس نيابى فى فرانكفورت سنة ١٨٤٨ متجاهلين الملوك الألمان العديدين وقدموا إلى ملك بروسيا تاج الوحدة الألمانية المعترف بها لم يقبله . وقال ملك بروسيا ماقيمة تاج يهبه إلى جماعة من الأساتذة الثائرين يدعون تمثيل إرادة الشعب ؟ وأعقب هذا حل مجلس فرانكفورت النيابى ووقوع ثورات قصيرة الأجل فى عدة ولايات ألمانية بما فيها بروسيا قضى عليها وأعيد إلى ألمانيا النظام القديم ، ولكن إلى أجل قصير . فقد أعانت القوى المادية والنظرية جميعاً على السير فى اتجاه الوحدة الألمانية . فالروابط الاقتصادية والشبكة الممتازة من سكة الحديد يزيد قوتها وحدة الجمارك فى جميع ألمانيا باستثناء النمسا، جعلت من بروسيا نمطا فريداً ، باعتبارها أكبر الدول الألمانية وأكثرها سكانا وأفضلها صناعة ، الأمر الذى بوأها مكان الصدارة ، وعقد لها لواء القيادة السياسية .

والذى أتم وحدة ألمانيا كان من أسرة هوهنزولرن ، كان جد القيصر غليوم الثانى ، وقد نسجت خيوط الوحدة على النمط البروسى ، من عل دون أية إشارة إلى إرادة الشعب، بين نيران ثلاث حروب ولمجد بروسيا الأعظم .

وكان غليوم الأول فى الرابعة والستين عندما اعتلى عرش بروسيا . وكان على شاكلة أفراد الأسرة جاداً مقتصداً متشبعاً بالروح العسكرية ،معتقداً أن بروسيا التى افتقدت مكانها على رأس ألمانيا لم تبلغ هذه المكانة إلا بالقوة ، وأن القوة لاتكون إلا فى جيش قوى . ولم يكن من الميسور أن يهضم البرلمان البروسى الإصلاحات العسكرية إلا فى إبان حكم مستبد استمر أربعة أعوام كاملة . ولم يكن الحاكم المستبد إلا المستشار الحديدى بسمارك الذى استدعى للقيام بهذا العمل

سنة ١٨٦٢ ، وقد لبث ثمانية وعشرين عاما صاحب السلطان الأعلى على بروسيا وألمانيا وعلى مليكه وعلى السياسة الأوربية . وكان هدف هذا الرجل العقل الجاف، البروسي دماً ولحماً ، فى غاية الوضوح مما قاله يوماً فى البرلمان إن المسائل الهامة فى وقتنا لا تحل بالخطب ولا بقرارات الأغلبية ،إنما تحل بالحديد والنار . وقدقضى بسمارك ست سنوات وخاض ثلاث حروب ليصل إلى هدفه .

وبعد ضياع أمل النمسا فى الزعامة على ألمانيا بعد هزيمتها فى سادوفا قام الحكم الائتلافى لشمال ألمانيا دون النمسا تحت زعامة بروسيا، ثم اتسع نطاقه بانضمام بعض الدوقيات الألمانية والدانماركية. وقد شمل الائتلاف إحدى وعشرين دولة ألمانية ، ولكن كان من الضرورى أن تتنازل الدول الأربع الألمانية الجنوبية عن كبريائها ، وكانت هذه لاتعد الزعامة البروسية نعمة خالصة .

وكان بسمارك يعتقد — ولا يخفى اعتقاده هذا — أن مشقة الخلاف بين الولايات الألمانية الشمالية والولايات الألمانية الجنوبية لايزيلها إلا « حرب قومية ضد الشعب المجاور لنا صاحب الفتوحات القديمة (فرنسا) » . وعرف كيف يستفيد من صدور أحد التقارير فى إحدى الصحف وهو ما يعرف « ببلاغ من إمز » بأن قام ببعض المناورات التى أغرى بها نابليون الثالث بإعلان الحرب على بروسيا ، فأسرعت كل الولايات الألمانية للدفاع عن بروسيا فى حرب قومية . وبعد ثلاثة أشهر كانت الجيوش الألمانية المنتصرة تحاصر باريس حيث أعلنت جمهورية فرنسا . وحظيت القوة الألمانية والوحدة الألمانية فى القيادة البروسية بتقدير عظيم خالد على الأيام فى فرساى فى الثامن عشر من يناير سنة ١٨٧١ ، حيث أعلن قيام الإمبراطورية الألمانية ، التى تضم جميع الولايات الألمانية وولايتى الإلزاس واللورين المضمومتين حديثاً من فرنسا فى بهو المرايا للويس الرابع عشر ، كما أعلن ملك بروسيا القيصر غليوم الأول إمبراطوراً لألمانيا .

وعندما حظيت أسرة هوهنزولرن بالتاج الإمبراطورى على أساس النظام الوراثى فيها احتفظت أيضاً بتاج بروسيا الملكى . ولم يحاولوا ذلك مع أية أسرة من الأسر الملكية فى الولايات الألمانية الصغرى . وبقيت هذه الولايات كما سنرى فيما بعد عنصراً هاماً فى نظام المجتمع الألمانى .

وكان الرائح الألمانى الذى خطط بسمارك قواعده دولة ائتلافية ، أراد أن يكون أساس دستورها إيجاد التوازن بين السيادة فى الملكيات الأربع والدوقيات الخمس الكبرى ، وثلاث عشرة دوقية أخرى ، والمدن الحرة التى فى الدولة وبين الدولة الموحدة . وكانت الولايات ممثلة فى المجلس الائتلافى (بندزرات) الذى له حق إصدار القوانين وتعديل الدستور بأغلبية ثلثى أعضائه .

وكان لبروسيا فيه — نظراً لأنها أكثر الولايات سكاناً — سبع عشر عضواً من مجموع الأعضاء الذين تبلغ عدتهم ٥٨ عضواً ، حتى إن هذا المجلس تحول تدريجياً إلى جمعية ممتازة للمناقشة . واحتفظت الولايات كل منها بدستورها ومجلسها النيابى وقوانينها الانتخابية وضرائبها المحلية ، كما كانت تدير شئونها التعليمية والدينية ، وتخلت للحكومة الائتلافية — التى يرأسها ملك بروسيا الذى هو إمبراطور ألمانيا فى نفس الوقت عن المسائل السياسية والجيش والبحرية والمواصلات والتجارة الخارجية ، كما كانت الضرائب أيضاً فى أيدى الحكومة الائتلافية .

وفى الريخستاج يجتمع ممثلو الشعب وهم ينتخبون بالاقتراع العام (ليس عاماً تماماً فبعض قوانين الانتخاب فيها محاباة للمحافظين والزراع) ، وليس للريخستاج إلا سلطان محدود على الحكومة الإمبراطورية ، لايتجاوز اختصاصه رفض إقرار مصروفات تزيد على المصروفات الدائمة التى أقرها الدستور .

وللقيصر السلطة التنفيذية العليا . وهو القائد الأعلى للقوات الإمبراطورية البرية والبحرية . ويتولى الحكم عن طريق مستشاره الذى له حق تعيينه وإقالته والذى هو مسئول أمامه وحده . وواجب المستشار أن يكون الوسيط بين القيصر والريخستاج . وكان ينجح عادة فى حصوله على موافقة الريخستاج بما يثير من الخلاف بين الأحزاب المحافظة الثلاثة . وكان يمثل المعارضة فى المجلس الديمقراطيون الاشتراكيون ونواب الطوائف القليلة العـــدد كالداعاركيين والبولنديين وأهالى الإلزاس واللورين . والأحزاب فى المجلس كانت تمثل المصالح أكثر من تمثيلها للعقيدة والرأى .

وكان موقفها على الجملة ينطوى على احترام الحكومة . ومع كل ذلك كان للمستشار أن يحل المجلس إذا رأى منه ما يضايقه . وكثيراً ما استعمل حقه هذا كما فعل سنة ١٩٠٦ عندما عارض الكاثوليك والاشتراكيون نظامه الاستعمارى وأبوا الموافقة على الاعتماد الذى طلب إقراره من المجلس .

ويقول إميل لودفيج المؤرخ الألمانى أن الدستور البروسى والدستور الألمانى مملوءان بالمتناقضات ، والمسئولية تتأرجح بين الملك ورئيس الحكومة المستشار ، ثم ترتد إلى الملك ثم تختفى نهائيا من خلال الثغرات التى لا يعرف كنهها . والواقع أنه لا أحد فى بروسيا ولا فى ألمانيا يعد مسئولا بالمعنى السائد اليوم فى جميع البلاد الأوربية . ويؤكد إميل لودفيج أن الملك الإمبراطور يتحمل المسئولية ، ويقول « إن المسئولية الوحيدة التى تحد من سلطانه هى من حق المجلس فى عدم الموافقة على المصروفات » .

ولاشك أن الغموض فى الدستور الألمانى وما يتيح لأصحاب السلطان من التهرب من المسئولية قد عرض الحكام فى القرنين التاسع عشر والعشرين إلى

إلى الجرى وراء مطامع كانت من طبيعة الحكم الاستبدادى فى القرن الثامن عشر . ولم تكن الحقوق التقليدية التى كسبتها أسرة هوهنزولرن ، ولا نشأة الإمبراطور غليوم الثانى التى ربى عليها لتثنيه عن المطامع . وإن فشله فى هذا الميدان قد جر أسوأ النتائج عليه وعلى ألمانيا .

وإمبراطور المستقبل غليوم الثانى الذى عمد باسم فردريك ولهلم فكتور ألبرت ولد فى بوتسدام سنة ١٨٥٩ ، وكان أبوه فردريك أكبر أبناء ولى العهد . وبدأ فرتز الصغير — وهو الاسم الذى كان يدعى به فى الأسرة — حياة حزينة لا تبشر بالخير ، وكانت أمه الأميرة فكتوريا ابنة فكتوريا ملكة بريطانيا يخجلها أن يكون ابنها الأول ذلك الطفل المريض . وكانت غير راضية عن علاج الأطباء الألمان الذين عجزوا عن شفاء ذراعه الأيسر المشلول ، كما كانت غير راضية كذلك عن السلوك غير الإنجليزى ، الذى كان سائداً فى أسرة زوجها . ولم يكن القران غير متكافئ ، فقد كان لفردريك آماله . ولكن ابنة الملكة فكتوريا تكاد ألا يبهر عيونها أن زوجها قد يحظى يوماً ما بتاج بروسيا ، وهى إحدى الدول الأوربية الحديثة ، بل أهم دولة فى ألمانيا .

وكان غليوم فى الثانية من عمره عند ما ارتقى جده ولى العهد عرش بروسيا باسم غليوم الأول . وكان فى الثانية عشرة عند ما وقف جده نفسه فى قصر عدوه المهزوم فى فرساى ، وأصبح إمبراطوراً لألمانيا . وهكذا رأى قصة الوحدة الألمانية تمثل أمام عينيه بأحداثها القميئة ، وكان بطل القصة بطبيعة الحال ملك بروسيا المحارب — بطل سادوفا وسيدان — غليوم الأول . وكان منظر هذا الجد الفارع المنتصب القامة هو الشعلة المتقدة فى طفولة الصبى الحزينة .

وكان غليوم يستاء من والديه ، وبخاصة أمه ، التى كانت تخص بمحبتها

أولادها الأصحاء . ولا شك أن عدم حبها له كان له أثر فى شعوره العدائى ، الذى ظهر فيما بعد نحو بريطانيا .

ولقد كان اعتزاز غليوم بروحه الحربية ، بعد أن صار قيصر ألمانيا ، كان محاولة منه أن يقوم على مسرح القرن العشرين بما يتخيله عن أمجاد جده الحربية ، التى ملأ بها صحيفة طفولته البائسة .

ولقد كان لمحاولاته العنيفة للتغلب على ضعفه الجسمانى والتحكم فى أعصابه المريضة حتى يصبح شاباً قوياً عنيداً — كما يرجو سلفه ، وبخاصة جده — أثر فى إخفاء خلقه الحقيقى . لقد تعلم أن يقضم على أسنانه — كأى شاب بروسى — فى أثناء علاجه القاسى بالكهرباء ، الذى لم يأت بثمرة فى شفاء ذراعه ، كما تدرب على خطى الأوز مع فرقة الحرس . ولكن النجاح النسبى الذى تكللت به جهوده كان مشجعاً له للأسف الشديد على ما أظهر فى التغالى والغرور فيما بعد (وكما يحدث دائماً فى مثل هذه الأحوال يوجد تحت الغشاء القوى مخلوق ضعيف واهن القوى) . وكان يعتقد أنه ضحية لأمه « الإنجليزية » ولآراء أبيه التحررية ، وأرسل للمدرسة العليا فى كاسل للدراسة مع بعض الشباب العاديين . ولما كان الغرور لا يغنى عن العمل شيئاً ، فقد كان ترتيبه العاشر من سبعة عشر طالباً تخرجوا فيها .

هذا ومع أن كفايته العقلية كانت فوق المتوسط بكثير ، إلا أن أساتذته تنفسوا الصعداء عند ما انتقل بعد دراسة القانون والاقتصاد السياسى — لمدة سنتين فى جامعة بون — إلى الحياة العسكرية فى وظيفة أحد ضباط الحرس .

وكانت أسعد أوقاته تلك التى يقضيها فى حجرة المائدة مع زملائه الضباط

فى ميدان استعراض الجيش راكباً على رأس فرقته . وكان من أكثر ما يعتز به من الذكريات وقوفه وهو فى الثامنة عشرة من عمره أمام الإمبراطور الشيخ فى الحلة التى منحت له حديثاً — حلة فرقة النسر الأسود — يقسم «أن يحمى شرف البيت الملكى ويحرس الحقوق الملكية » .

وكان من البين تماماً أنه عقد العزم على أن يبر بقسمه . ذكر إميل لودفيج أنه كان من عادة غليوم ـ وهو ولى للعهد ـ أن يهدى صوره فى عيد ميلاده ، وأنه أرسل صورة فوتوغرافية له إلى إنجلترا وكتب تحت الصورة « انتظر الفرصة المناسبة » .

ولم يرق هذا التصرف والديه ، وكان والده يضيق بمهام ولى العهد التافهة ، كما كانت أمه غير راضية عن جرأته الآخذة فى الازدياد .

وفى الثالثة والعشرين من عمره اقترن غليوم بالأميرة أوغسطا فكتوريا من شلزفج هولشتين . وكانت رشيقة جميلة ، نشأت على التقوى والبساطة ، منكرة للذات ، من الطراز الذى ينال إعجاب رب البيت البروسى .

وقد أنجبت لغليوم ستة أولاد نشئوا التنشئة الهوهنزولرنية التقليدية ، وهم : فردريك ولهلم الذى كان عليه ـ بصفته ولياً للعهد ـ أن يقوم بدور هام فى الحياة العامة الألمانية ، أيتل فردريك ، أدالبرت ، أوجستس ولهلم ، أسكار ، جواشيم ، وبنت واحدة تسمى فكتوريا لويس ، التى كانت تهدى والدها فى عيد ميلاده خفاً مزركشاً ، ومساحات للأقلام ، ومؤشرات لبيان مكان القراءة من الكتاب .

وكان عيد ميلاد غليوم فى السابع والعشرين من يناير عيداً تحتفل به الحاشية.

كل عام . وكان عادة بدء الموسم فى برلين . وفيه يرفرف العلم الطويل السنجابى فوق القصر الملكى فى العاصمة للدلالة على أن الإمبراطور فى القصر .

وكان مقر الأسرة أولاً قصر الرخام ، ثم القصر الجديد فى بوتسدام المحاط بالحدائق . ثم كان من عاداته الخروج كثيراً إلى مزارعه المجاورة ، ومواطن الصيد حيث ينغمس فى هوايته المفضلة ، يتبعه زوجه وأولاده والمربيات ورجال الحاشية . وهناك تذبح الغزلان والخنازير والطيور البرية . والمكان المفضل عنده بيت الصيد فى رومنتن شرقى بروسيا . وهو عبارة عن كوخ كبير مبنى من الخشب ومزدان بالرسوم الجميلة والفن القوطى الحديث .

وبعد ارتقائه عرش الإمبراطورية أعد حلة رسمية للصيد يعرضها لجميع ضيوفه فى رومنتن : سترة خضراء ذات أكمام ، وأحذية طويلة ، وحزام من الجلد تتدلى منه سكين للصيد ، وقبعة من الصوف محلاة بالريش .

ومع أنه كان ينتقد خاله إدوارد السابع ويشبهه « بالطاووس العجوز السخيف » ، إلا أنه كان هو نفسه شديد الاهتمام بملابسه . وكان فى خوان ملابسه — الذى يقوم بخدمته اثنا عشر عاملا — أكثر من مائتى حلة حربية . وكان أشبه بصاحبه القائد النازى جورنج ، الذى كان مغرماً بتقليده فى اعتقاده الذى لا يتزعزع عنه فى أهمية مناسبة اللباس للظرف الذى يلبس فيه . فبينما يشاهد تمثيل قصة الهولاندى الطائر يلبس حلة أمير البحر . وفى فلسطين — ما لم يرتد لباس البدو — كان يلبس عباءة يزينها صليب الصليبيين ، وكان من العسير جداً صرفه ذات يوم عن ارتداء ملابس قائد رومانى لافتتاح متحف للآثار .

وكان غليوم فى حياته العائلية الهانئة أيام ولايته للعهد أو بعد اعتلائه العرش

يعيش حياة الطبقة الوسطى ، التى ترى فى كل بلاط ملكى حينذاك . وكان يذكر زوجته التى كانت توزع وقتها بين أولادها وأعمالها بأنها «الجوهرة المضيئة فى حياته ، وجماع الفضائل التى تزدان بها أميرة ألمانية » . وأما الأمسيات التى تقضى فى الوسط العائلى ففيها الجو التيوتونى الثقيل . فالقيصرة مشغولة بحياكة الملابس ،والقيصر بقراءة البلاغات ومقتطفات الصحف ، بصوت مرتفع أحياناً ، بينما الوصيفات وموظفو البلاط يكتمون تثاؤبهم من حين إلى آخر .

ومن الكلمات التى تسمع كثيراً وتلقى بأسلوب بروسى من الزوج لزوجته « أنت لاتفهمين هذه الأمور » .

وقد كان يسره أحياناً أن يهرب من هذه الحياة كلما أمكنه ذلك . ولربما لم يكن من الخير أن مبادئ غليوم الدينية — ويقظة القيصرة — قد حالت دون تخلصه من متاعب الحياة الزوجية ، ولو أنه فعل فلربما كان حكمه أقل اضطراباً وأكثر استقراراً .

وكان يفضل وهو فى دور الشباب الجو المناسب فى نادى الحرس . حيث كان يهرب من التدريب القاسى الذى يقوم به استعداداً لحياته المستقبلة تحت قيادة بسمارك . وكان يبدو أن هذا التدريب لن ينقطع ، وأن الإمبراطور الشيخ سيبقى على قيد الحياة بعد ولده والد غليوم .

وفى سنة ١٨٨٧ أصيب ولى العهد المسكين بالسرطان فى حنجرته . ولما عاد مسرعا من سان ريمو فى إيطاليا — حيث كان يرجو أن يحتفظ بالحياة — ليحضر وفاة الإمبراطور الشيخ ، كان قدفقدالنطق،وسار فى الجنازة راكباً عربةمقفلة ، بينما كان غليوم نافد الصبر مسرعاً على رأس الأمراء كلهم مخترقا صفوف المشيعين .

ولم يطل انتظار غليوم ، ولما توفى والده فى ١٥ من يونيو سنة ١٨٨٨ ، أى بعد ثلاثة أشهر ، كان هو مستعداً . لقد احتل القصر برجاله فى اليوم السابق ، وعندما توفى الملك كان الحراس يستجوبون كل داخل إلى القصر وكل خارج منه . وكان يخشى أن تنقل أمه أوراقاً هامة لتضمن حفظها فى إنجلترا ، وأمر أن يكشف على جسم والده المتوفى لبحث أسباب الوفاة إذلالاً لأمه ، لأنها كانت تنكر إلى اللحظة الأخيرة أن زوجها كان مصاباً بالسرطان .

وبدأ عهد غليوم ببلاغين معبرين عن روح غليوم . كان الأول منهما موجهاً إلى الجيش وفيه هذه الكلمات « ستقسمون فوراً على الولاء والخضوع لى . وإنى أعد بأنى سأذكر دائماً أن عيون أجدادى ستنظر إلى من الدار الباقية ، وسوف أكون مسئولا أمامهم عن مجد الجيش وشرفه » . والبلاغ الثانى نشر فى اليوم التالى موجهاً إلى الشعب الألمانى ويضرب على الوتر نفسه . جاء فى البلاغ « أما وقد دعيت لأعتلى عرش آبائى ، فإنى بعيون تتطلع إلى الله أقبض على صولجان الملك » . لقد تحدد أسلوب غليوم فى القول . إن أسلوبه يقتضى ورود لفظ الجلالة كثيراً فى سياق كلامه ، وغليوم الذى يقارن جده بشارلمان لا يشك فى قداسة تاجه ، وليس عجيباً أن يكرر ذكر الحق الإلهى للملوك . بل هو طبيعى أن يضرب على هذا الوتر دائماً . إنه حديث عهد بالحكم . إن الحكم المطلق يجرى فى شرايين أسرة هابسبرج ستة قرون ، إن رضاء الله عليه كان من الوضوح بحيث لا يحتاج الأمر إلى ترداد ذلك .

أما قيصر ألمانيا فقد كان يشعر براحة أكثر إذا ما ظهر للملأ ومعه حليفه السماوى — وكما فى صور النهضة — كانت ترى صورة ذى الجلال عادة فى الثلث العلوى من المنظر الخلفى فى الغمامة نفسها كما كان يراها أجداده المبجلون ، بينما غليوم وسيفه

فى يده يذبح التنين فى المنظر الأمامى من الصورة . وبعد انقضاء مدة من حكمه أصبح القيصر مقتنعاً بصلته الوثيقة بالله القادر، حتى كان يقرأ القداس يوم الأحد . وربما كان يلقى الوعظ الدينى على ضيوفه وهم يستمعون إليه على ظهر السفينة هوهنزولرن وهم فى غاية الملل .

وكانت لغليوم نظرية تتضمن أن معظم ما بلغه العالم من تقدم هو من عمل عشرة من ذوى العبقريات الجبارة اختارهم الله لهذا العالم خاصة . حامورابى وموسى وإبراهيم وهوميروس وشارلمان ولوثر وشكسبير وجيته وكانت والقيصر غليوم الأول . وما من شك فى أنه كان يعد نفسه من هذه المجموعة المختارة .

قال القيصر يوماً فى خطبة ألقاها فى كونجزبرج « نظراً إلى أنى أعد نفسى منفذاً لمشيئة الله ، فإنى ماض فى طريقى دون اعتداد بأحداث الساعة أوآرائها» . ومع أن غليوم كان فى بعض النواحى رجلا عظيم التدين ، إلا أن العبارات التى كان يلقيها لم تكشف عن الشريك الأكبر فى علاقته الفريدة مع الله . ويقول كورنبرج كاتب تاريخ حياة غليوم إنه كان حريصاً دائماً على كتابة ضمير الغائب الذى يشير إلى الله بحروف كبيرة ، وكتابة ما جاء على لسانه بحروف كبيرة كذلك .

ولم يكتف غليوم بأن يدين بمبدأ الحق الإلهى الذى عفى عليه الزمن متحدياً بذلك دستور ألمانيا ودستور بروسيا جميعاً . بل حمله معنى جديداً فى الاستبداد يشبه مبدأ وحدة السلطان الذى كان يدين به لويس الرابع عشر .

ومما كتبه فى الكتاب الذهبى لمدينة ميونيخ فى أثناء زيارته لبافاريا سنة ١٨٩١ « إن إرادة الملك هى القانون الأسمى » .

وحذر يوماً بعض رعاياه الساخطين بأن قال « لو فكرت يوماً مدينة برلين فى أن تثور ضد مليكها ، فإن الحرس سيثأرون برماحهم لخروج الشعب عن طاعة مليكه » .

ومن الطبيعى أن غليوم لا يقيم وزناً لا للنظام النيابى ولا للنواب الذين يشير إليهم فى حديثه بأنهم « بوم أغبياء » .

ومن الغريب أن أعنف معارضة للاستبداد الهوهنزولرنى داخل البرلمان وخارجه لم تكن من الاشتراكيين ، بل جاءت من اليمين . أى من الأقربين الذين هم طبقة البروسيين ، وفوق ذلك من الأسرات الحاكمة والنبلاء فى الدول الألمانية الصغرى . وكانت حاشية الأمراء بعض بقايا الماضى التى كانت لا شك تعوق تقدم الديمقراطية الألمانية . ولكنها كانت رائدة للحضارة الألمانية والوحدة الألمانية .

وفى عام ١٩٠٠ وجه لويتبولد الوصى على عرش بافاريا تحذيراً للقيصر جاء فيه « إن بافاريا لتحتج على ما وجه إليها من لوم ومن أنه ينبغى لها أن ترى من النعم عليها قبولها فى الرايخ الألمانى ... إننا نود أن ينظر إلينا لا باعتبارنا قصراً بل إخوة راشدين » .

ولم تكن المنازعات بين غليوم وزملائه ملوك ألمانيا الآخرين متعلقة دائماً بالمبادئ العليا، فما يذكره رعايا دوق مكلمبرج شتريلتز ولا يغفرونه للسيد الأكبر أنه ضرب مؤخرة حاكمهم الشاب ضربة فيها شىء من الهزل ، وفيها أيضاً شىء من العظمة الإمبراطورية . وأرادوا أن يذكروه أن الفضل الإلهى الذى يستمد الإمبراطور منه سلطانه ليس احتكاراً مقصوراً على أسرته .

وكان غليوم — كابن عمه نقولا الثانى وصديقه عبد الحميد الثانى — مؤمناً كل الإيمان بحكمه الشخصى ، وكان كذلك بسمارك . ولكن القيصر ومستشاره لم يكن لهما عقل واحد . وكان لابد أن يقع النزاع بين حاكم بروسيا المطلق والإمبراطور الشاب الذى باسمه يمارس هذا الحاكم المستبد سلطانه . وأخيراً انتهى الأمر فى مارس سنة ١٨٩٠ حول حق القيصر فى تخطى المستشار عند اتصاله بالوزراء . وبعد أزمة شديدة ظلت قائمة عشرة أيام حمل المستشار على الاستقالة .

وجاء فى أحد أحاديث غليوم المعبرة عن زهوه بالانتصار أنه قال « لقد وقع على كاهلى واجب إدارة شئون الدولة . إن منهج العمل لا يزال كما كان ! إلى الأمام بأقصى سرعة » .

ولو نطق بمثل هذا الكلام الفخم حاكم مسئول فقد لا تقابل بالاحترام كلماته . ولكن غليوم كان هاوياً . لديه ما لدى الهواة من كره للعمل والاضطلاع بالمسئولية . وقد درس وحلل كثير من كتاب السيرة خواصه الخلقية ، ومنها عقدة الكره ، الذى تحول فى نفسه من كره لأمه إلى كره لإنجلترا ، وصفيره الذى لا يقطع فى الظلام . ويؤيد ذلك ما نشر بعد ذلك من الأدلة . كما أن المذكرات التى نشرت سنة ١٩٥٩ لأمير البحر جورج ألكسندر فون مولر تشير إلى اضطرابه المرضى وما لديه من عدم الاتزان وضبط النفس والعجز عن القيام بالعمل بشكل منتظم . وعنوان مذكرات مولر « هل حكم القيصر » يدل على مرمى الكاتب من هذه المذكرات . وقد عاشره حوالى خمسة عشر عاماً وصفه خلالها بأنه رجل يعيش فى وحدة ، ليس له أصدقاء مخلصون ، ولا يستطيع أن يعيش مالم يكن محاطاً بجيش من المتملقين والمعجبين .

وكان القيصر يتولى الحكم فى جو يحوطه بالرعاية كأنه الممثلة الأولى القلقة

فى إحدى المسرحيات . وقد صور هذا الجو أحد أصدقاء القيصر الحميمين — الكونت أيلنبرج — وهو سياسى وشاعر ومغن ومحدث لبق ، ويكبر الإمبراطور باثنتى عشرة سنة . وكان من العجب العثور على صورة له يرى فيها ملتحياً ذا عينين فاتنتين ، فقد كان معروفاً برخاوته وسحره الآثم (سحر لم يؤثر فى بسمارك الذى قال عنه إن له عينين يفسدان أشهى طعام) .

ومما سجله فى مذكراته عن علاقاته الباكرة بغليوم قال : كان حبه لى قوياً .. وكان غنائى له يسره إلى حد الجنون » .

وكانت المشاعر الرقيقة الدافقة التى كانت ظاهرة بشكل واضح فى العلاقة بين غليوم وأيلنبرج وأحياناً بينه وبين بيلوف هى اللون الغالب فى الصداقات الاجتماعية فى ذلك الحين . وحكمك على القيصر يتوقف على نظرتك إليه بعين المعالج أو بعين الناقد . وعلى كل حال فإن أقسى نقاده يقررون أن هذه الصداقات التى كانت للامبراطور كانت بريئة كما كانت من طراز خاص .

وقد حاول كثير من كبار الشخصيات تفادى المادة ١٧٥ من القانون الجنائى التى تتعلق بما اشتهر فترة من الزمان بأنه « الرذيلة الألمانية » ، ولكن منذ سنة ١٩٠٦ قامت حملة صحفية موجهة تدعو إلى الإصلاح الأخلاقى . واتهم أيلنبرج فى عدة جرائم أوقعه فيها بعض أعدائه . وأخيراً اتهم فى سنة ١٩٠٨ بالشذوذ الجنسى . وإذ كان ضعيفاً طول حياته ، فقد نقل فى نقالة إلى ساحة المحكمة حيث عرضت علاقته بصياد بافارى يرجع تاريخها إلى عشرين عاماً مضت ، على أنها أحد أمثلة نقائصه . وعلى أثر هذه المحاكمة تخلى غليوم عنه نهائياً ، وقد كان يتهمه الكثير بأنه كان عظيم الأثر فى ما كان عليه غليوم من حبه فض النزاع الدولى بالطريق السلمى .

ويعزى سبب فضيحة أيلنبرج إلى دس زميل له من البطانة التى تحيط بغليوم واسمه فون هولشتين الذى خلف بسمارك فى وزارة الخارجية منذ سنة ١٩٠٦ .

وكان هولشتين هذا وزيراً، ولكن لم يكن له أى اختصاص رسمى . وكان يتخذ مجلسه فى حجرة مظلمة فيها على ما يقال ملف خاص لكل من له صفة فى برلين . وقد اتخذ مكتبه الخفى هذا مختاراً ليجعل منه مركزاً للدسائس ويشرف منه على جميع علاقات ألمانيا الخارجية .

وجرى العرف على أن يكون هولشتين هو أول من يقابله السفراء والوزراء المفوضون الذى يقدمون إلى برلين . وكانت خطاباته وبرقياته موضع اهتمام ، كما أن كثيراً من التقارير كانت توجه خاصة « للبارون هولشتين » . وكان من المتعذر الوصول إلى كثير من المكاتبات الرسمية لأنها فى مكتبه المقفل . وكان لا يتقيد بالعادات الاجتماعية ولا تهمه الأوضاع الرسمية ، وكان يقابل القيصر مرة واحدة لأنه كان يخشى المسئولية كما تخشى الحشرة النور ، وكان يخطط السياسة العامة مع حاشيته القليلة العدد فى مخزن للنبيذ ، فإذا خرج فلا يسير إلا مسلحاً ، وكثيراً ما يتدرب على استعمال المسدس بعد أوقات العمل . وكان أيلنبرج صديقاً له لبضعة سنوات ، ظل فى أثنائها الوسيط بينه وبين القيصر . ولكن هولشتين كرهه آخر الأمر لأنه لم يكن الذليل الخاضع الذى يجب أن يكون ، ثم إنه عرف بكل تأكيد أن أيلنبرج كان المسئول عن فصله سنة ١٩٠٦ .

كان أيلنبرج يمثل رجال الحاشية المتطفلين الذين يستمدون السلطان من صاحبه بطرقهم غير الشريفة . وكان هولشتين من الطراز البدائى فى القرن العشرين — أعنى رجل الدولة الذى ليست له سلطه رسمية — ولكنه يصرف الأمور بقدرة عظيمة . لأنه يملك وحده المعلومات الخاصة التى تنبنى عليها

القرارات الهامة فى الدولة الحديثة . وفى أيام مترنيخ كان رؤساء الحكومات بل والملوك يستطيعون العمل بسهولة كما يعمل وزراؤهم ، وكان هؤلاء الوزراء يخضعون لإرادتهم موظفى التخطيط ومديرى البحوث وخبراءهم الخصوصيين . ولكن بعد عهد بسمارك ظهر عصر تحتم فيه استخدام الخبراء ، وكان الحكام — سواء ممن يتولون بالحق الإلهى أو كانوا يستمدون سلطانهم من إرادة الشعب — يستطيعون إصدار القرارات ، ولكن الأمر أخذ يتبدل شيئاً فشيئاً حتى صار الخبراء هم الذين يصنعون هذه القرارات . ومشكلة وضع رقابة على الخبراء — وهى المشكلة الحادة فى الوقت الحاضر — كانت حادة كذلك مع كل حاكم مطلق فى مستهل القرن العشرين . وكان يبدو على ملوك ورؤساء العهد الماضى الغباء ، لا لأنهم كانوا أغبياء فحسب ، بل لأنهم كانوا يدعون من البراعة العلمية ما لا يمكن أن يكون لهم .

وموقف القيصر فى أزمة سنة ١٩٠٥ المراكشية تمثل العلاقة الحقيقية بين الرئيس الاسمى والخبراء السياسيين الذين لا يخالهم إلا منفذين لسياسته السامية كانت ألمانيا طرفاً فى المعاهدة الدولية التى تقرر فيها وضع مراكش السياسى . وعندما حصلت فرنسا فى مقابل منح إنجلترا حرية العمل فى مصر على تأييد إنجلترا ليكون لها السيادة على مراكش ، كان للألمان حق قانونى فى إجراء يؤديه القيصر ، ولو أنه لم يكن فى هذه المناسبة راغباً رغبة صادقة فى تأديته . وفى ٣١ من مارس سنة ١٩١٥ أخذ ينفذ — فى شىء من التردد — مشورة مستشاريه ، وعبر البحر المتوسط ونزل فى طنجة ثم امتطى جواداً عربياً وأعلن تأييد ألمانيا لاستقلال مراكش ، على أن يرعى سلطانها المصالح الألمانية بها . وهذه الإهانة التى وجهت إلى فرنسا وضع خطتها بيلوف وهولشتين لغرضين : الأول أن يعلم العالم أجمع أن ألمانيا لا يمكن تجاهلها إذا أريد تقسيم الأسلاب بين الدول .

والثانى ، وهو الأهم ، إلقاء الرعب فى قلب فرنسا عندما تدرك عدم الاعتماد على الحلف القائم بينهما ، وكانت روسيا حليفة فرنسا رهينة الحرب فى أقصى الشرق . إن تلك اللحظة كانت ملائمة لتوكيد شرف ألمانيا ورفع مكانتها الأدبية .

وكان القيصر فى حاجة إلى شىء من الإقناع ، ولم يكن لديه الرغبة فى معاداة فرنسا . وكان يبدو أن المسألة فيها بعض الخطر ، ولم يكن القيصر ممن لا يعبأون بأمر سلامتهم . وفى ذلك اليوم العصيب كان البحر مضطرباً ، ونزل هو إلى السفينة المضطربة فى وجل شديد . ولما وصل إلى الشاطئ مبتلا وفى إعياء شديد وجد أنه سيذهب إلى طنجة على جواد يبعث هياجه على عدم الارتياح له ، ثم إن ذراعه الضعيف جعله لا يرتاح للخيول الغريبة . وزاد من اضطرابه وجود حشد ممن يبدو عليهم أنهم من الرعاع الذين وصفهم رجال مخابراته بأنهم فوضويون إسبانيون . وبينما كان العرب يطلقون بنادقهم للترحيب به كان هو يلقى خطابه لا للسلطان ، ولكن لعم السلطان ، ثم عاد بأسرع ما يستطيع إلى سفينته .

ولم يفد الشعور العالمى إلا قليلا جداً فى تهدئته ، كما لم يفد الخطاب الذى بعث به إليه بيلوف وفيه يقول :

« كنت أرتعد خوفا ، ولما وصلتنى الأخبار أن جلالتكم قد غادرت طنجة فى أمان أصابنى الإعياء ، فجلست أبكى على مكتبى أشكر الله » وعندما قال الإمبراطور فى شىء من الامتعاض إنه لا يفهم شيئاً من هذا الموضوع ، رد بيلوف أن ذلك كان ضرورياً لتنفيذ سياسته (أى سياسة بيلوف) . لقد رمى القفاز يتحدى بذلك الفرنسيين ، وأراد أن يرى إن كان نتيجة ذلك إعلان الحرب .

ولعل أبرز ما يمثل تعقيد مركز القوى فى ألمانيا فى أثناء حكم غليوم العلاقة بين الرئيس الأعلى للحرب وبين جيشه . لقد كان آل هوهنزولرن فى القرن الثامن

عشر هم فعلا رؤساء مجالسهم الحربية . وكانوا فى بعض الأحيان هم مدربو الجيش، ونشأ غليوم فى جو يجعل له القيادة ، وكان لديه فى أثناء شبابه معلومات لا بأس بها فى الفنون الحربية والقيادة والإدارة على مستوى فصائل الجيش ، واستعد ليتولى — وقد صار القيصر — أعباء القيادة العامة بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنى . وقد قال مرة لأحد قواده « أنا لست فى حاجة إلى قيادة عامة . إنى أستطيع القيام بجميع الأعباء بما لدى من مساعدين » .

ولم توافق القيادة العامة بطبيعة الحال على رأى القيصر، وهى أرستقراطية فنية داخل أرستقراطية ، وكان ولعه بإدخال إصلاحات حديثة فى الجيش مصدراً لكثير من المتاعب، وكان تدخله فى المناورات سبباً فى كثير من المضايقات ، حتى إن الهيئة العامة ادعت وجود مرض معد فى المركز العام للجيش لتمنعه من الحضور . وهذه القصة لها مغزاها ، وعلى قدر رغبة القيصر فى القيام بدور الملك الجندى كان إصرار الهيئة العليا على عدم الاعتراف للقائد الأعلى بأى قسط من الإجراءات الهامة ، إذا كانت لها نتائج حيوية منتظرة .

وكل محاولات غليوم للحكم على أساس مبادئ القرن الثامن عشر الاستبدادية أمكن تغييرها بشىء من التحايل، وأحياناً كانت تلغى بما جد فى أثناء حكمه من مصادر جديدة للقوة . منها القوة التى أسسها رأس المال المحتكر الذى كان نتيجة لزيادة التصنيع فى ألمانيا بعد وحدتها . إذ أصبحت بلاداً صناعية على مستوى بريطانيا والولايات المتحدة ، وها هو ذا وصف لمعامل كروب فى إسن التى هى أعظم نقطة فى الاقتصاد الألمانى : مدينة عظيمة داخل مدينة ، بشوارعها الخاصة ، وشرطتها الخاصة، وإدارة المطافئ وقوانين التجارة فيها، إن فيها ١٥٠ كيلومتراً من الطرق الحديدية، وستين مبنى للمصانع ، وثمانية آلاف وخمسمائة آلة، وسبع محطات كهربية، ومائة وأربعين

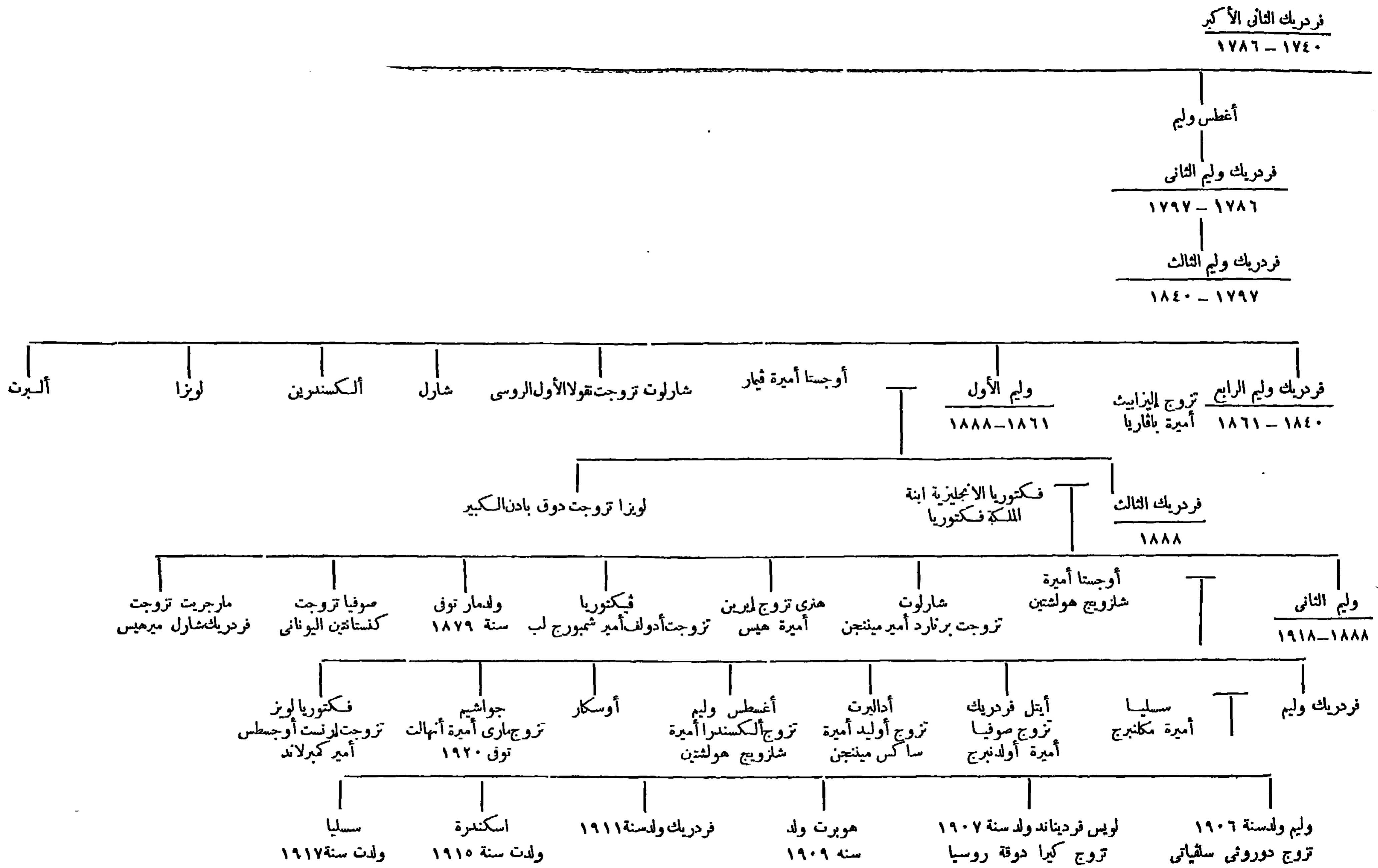
كيلومتراً من الأسلاك الكهربية تحت الأرض، وستة وأربعين كيلومترا ظاهرة .
وبها أكثر من ٤١٠٠٠ عامل » .

والمالك الوحيد لهذا العمل الهائل ـ أكبر مصدر المدافع والأسلحة للجيش الألمانى — هو فردريك كروب رئيس الأسرة التى لا تسبقها إلا أسرة هوهنزولرن فى الدور الذى تلعبه فى بناء مستقبل ألمانيا حينذاك . ويشتغل فى مصانع إسن وسائر مصانع كروب ٧٨٣٣٤ عاملا وعاملة . وكان السادة المشرفون على هذه الصناعة فى بعض تصرفاتهم أدق فهماً للروح الاجتماعية ممن عاصروهم من غلاة المستغلين فى الولايات المتحدة الذين كانوا موضع المؤاخذة من تدى روزفلت ، وهم على الأقل قبلوا دون كثير من التذمر الإصلاح الذى أدخله بسمارك الذى جعل للعامل البروسى ـ من الناحية المادية ـ أكثر عمال أوربا حظوة بالمزايا والحقوق . وكان تركيز القوة الاقتصادية من جهة أخرى ـ دون إصدار أى قانون للحد من ذلك ـ فى أيدى بضع عائلات أو جماعات — لبعضها ارتباط وثيق بالبعض الآخر — قد بلغ ذروته فى ألمانيا قبل الحرب ، وهذه الحالة التى وصل إليها النظام الرأسمالى فى ألمانيا وفى أوربا ـ والتى كانت موضع نقد شديد من الماركسيين وغيرهم من النقاد بما فيهم لينين أمدت المعارضين للرأسمالية بمصدر كبير لنقدها إلى الوقت الحاضر (وكثير من أوجه النقد لا يمكن درؤه لو أن النظام الرأسمالى السائد اليوم فى الديمقراطيات الغربية كان على ما هو عليه أيام وجه النقد إليه) .

ولقد كان كل ما قيل عن صناع المدافع فى الفن الشعبى (الفاسكلور) الماركسى فى الفترة ما بين الحربين العالميتين موجهاً إلى ألمانيا فى عهد غليوم (ووراء القصص الأسطورية توجد الحقيقة) .

وفى سنة ١٩١٣ مثلاً أثار النائب الاشتراكى ليبكنخت عاصفة هوجاء فى

أســـــرة هوهـــنزولـــــــرن



مجلس النواب الألمانى بما قدمه من الفضائح التى كانت سبباً فى التوتر الذى يسود العلاقات الأوربية فى ذلك الوقت .

لقد رسم صورة مثيرة لرشوة أكبر مصنع للآلات الحربية فى العالم لموظفى وزارة الحربية ، وانتقال بعض الوثائق الرسمية الهامة بطرق خفية إلى خزانة المدير المساعد لمصانع كروب ، واشتراك صحيفة مصورة فى ليبزج مع ممثلين للهيئة الحربية وموردى الذخائر لتحبيذ إصدار قانون ينظم عمليات استيلاء حربية جديدة ، وإمداد مدير مصنع أسلحة للصحيفة الألمانية دى پوست بأشنع التهم ضد فرنسا ، ثم بعد أن أثيرت فرنسا بما كتب فى الصحف الألمانية مد الصحافة الفرنسية بما يثير فى ألمانيا الرغبة فى إشعال نار الحرب .

وهناك عامل آخر لا يلفت النظر كثيراً ، وهو أن القرارات النهائية للسياسة الوطنية التى تصدر عن القيصر نتيجة إرادته العليا هى من أثر ضغط بعض « الجماعات الوطنية . (وإن لم تكن توصف بذلك فى تلك الأيام ، فهو وصف نراه بالطبع ملائماً لمفاهيم الحياة العامة خلال جيلنا) ، وكان هناك كثير من المنظمات القوية التى تعمل لتحقيق أهداف عريضة ، وأهمها جماعة الجامعة الألمانية ، والجمعية الاستعمارية ، وجمعية البحرية فى المقدمة منها ، مؤيدة بالطبع بالقوات البحرية والأسلحة الثقيلة التى كان يتزعمها وزير البحرية الأميرال الفريد فون تربتز .

ولقد أصبح هذا الرجل ذو الشخصية الهامة المهيمن على الحكومة الألمانية بضع سنوات بعد سنة ١٨٩٧ . ولم يكن من العسير عليه أن يقنع القيصر بأن البحرية القوية من مستلزمات الدولة القوية . وأمكنه أن يحظى بدعاية قوية فى المجتمعات الألمانية ، ليقنع الشعب الألمانى بحاجته إلى بحرية قوية . وكان شعار الجمعية البحرية « إن مستقبلنا أصبح على الماء » سبباً فى إصدار القانون البحرى لسنة ١٩٠٠ ، الذى هيأ ألمانيا البحرية إلى الحرب . وبفضل تربتس وأصحابه أصبح

القيصر — دون أن يتنبه للموقف — مسوقاً إلى موقف العداء من إنجلترا. وبذلك أصبح حصار ألمانيا حصاراً كاملاً.

وتشبه العلاقة بين إنجلترا وألمانيا فى السنوات ١٩٠٠ — ١٩١٤ العلاقة بين روسيا والولايات المتحدة بعد الحرب الثانية. ولم يكن القيصر — ولا معظم الألمان — راغباً فى الحرب مع إنجلترا ولا فى حرب باردة معها. إنها لم تكن تطمع إلا فى المساواة بها. ولكن مساواة ألمانيا فى البحر هى فى الواقع طردها من سيادتها البحرية، وهى ترى هذه السيادة أمراً حيوياً لبقاء الإمبراطورية البريطانية. ويقول المؤرخ الألمانى لودفيج دهيو: « إن مساواة ألمانيا بإنجلترا فى البحر معناه طرد الثانية من مقامها المقدور فى هذا الميدان ».

وكان الإنجليز يعتبرون سيادتهم على البحر ورقابة الخطوط البحرية مسألة حيوية لإمبراطوريتهم. ثم يستطرد دهيو قائلا « إن الأحداث التى دعت إلى الحرب العالمية الأولى لم تكن إلا غطاء يحجب المصالح الحيوية المتعارضة، كالهالة التى تحيط بالقمر فى الليل المشبع بالرطوبة ».

وما إن أعلن البرنامج البحرى الكبير لسنة ١٩٠٠ حتى توالت الأحداث الهامة بعضها فى أثر بعض. ثم إن هذه الأحداث قد زاد من خطورتها تدخل ألمانيا السياسى والتجارى فى تركيا، وعطف الألمان الصريح على البوير فى حرب إفريقية الجنوبية، وولع غليوم بالملاهى الخاصة فى الأماكن العامة، وكرهه العتيد لإدوارد السابع — وقد قال هذا عنه إنه « أعظم شخصية فاشلة فى التاريخ » — وشعوره العدائى نحو إنجلترا. ومع أن القيصر كثيراً ما كان يهزأ بعجرفة الإنجليز، إلا أنه كان يفخر برتبته الفخرية فى البحرية البريطانية. وقد أزعج مرة وكيل وزارة الخارجية البريطانية سير تشارلس هاردنج فى أثناء مناقشة حامية حول القوة البحرية بأن قال له «أنا أميرال بريطانى وأفهم هذه المسائل أكثر من موظف مدنى مثلك».

وكان موقف غليوم من إنجلترا يشبه موقف الأمريكيين الذين لا يحبون الإنجليز، ومن الملاحظ أنه كان يساير الأمريكيين رغم خفتهم وعدم تكلفهم وآرائهم المشوشة عن الديمقراطية، أكثر مما يفعل مع الأرستقراطيين من الإنجليز. لقد أبدى القيصر بعد نزاعه مع الرئيس روزفلت بشأن عرض ألمانيا لعضلاتها عند شاطئ فنزويلا — أبدى إعجابه بخصمه الذى قال عنه « لقد أظهر أقوى شجاعة أدبية من كل من أعرفهم من الناس » . بل كان غليوم يدعو أصحاب الملايين من الأمريكيين لزيارة قصره الإمبراطورى ويتحدث أمامهم مفاخراً بأجداده، بينما كانوا هم يتحدثون عن ملايينهم . لقد كان للثراء الواسع تأثير فى نفسه، وكان يحلم فى أثناء شبابه بإقامة مؤسسات كبيرة للاحسان .

كتب غليوم مرة إلى صديقه بولتنى بيجلو ابن أحد رجال السياسة الأمريكيين ممن كان له به صلة فى أيام الطفولة قال : « أتمنى أن يكون لدى أحد أصحاب الملايين منكم الفكرة العظيمة بأن يوصى لى بثروته عندما تحضره الوفاة » . ولم يمنع شعور غليوم الودى نحو الدولارات الأمريكية وأصحابها ولا احترامه لبحرية الولايات المتحدة من أن يلقى نظرته الاستعمارية كثيراً على الدنيا الجديدة .

(وفى مساء إعلان الحرب العالمية الأولى داعبته فكرة عجيبة لتهدئة التوتر الأوربى بأن يقيم ولايات متحدة أوربية — ولو على نظام لا يتفق تماماً مع النظام الذى وضعه جان مونت — تتحالف مع بريطانيا ضد الولايات المتحدة الأمريكية) .

وقد جدت مرحلة حديثة غير سعيدة تبلورت فيها الخلافات الأوربية بتوقيع الاتفاق الإنجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤ ، وكذلك بوقوع الأزمة المراكشية سنة ١٩٠٥، التى تفاقمت بزيارة القيصر ميناء طنجة ، والتى أيدت فيها إنجلترا حليفتها الجديدة ضد ألمانيا ، وباللقاء القصير بين الإمبراطور وقيصر روسيا فى بجوركو ، وبالاتفاق البريطانى الروسى الذى وقع سنة ١٩٠٧ ، وبمحادثات ريفال التى أعقبت ذلك

الاتفاق فى سنة١٩٠٨ ، وبأزمة البوسنة سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ التى انتهت ـ رغم دلالتها الظاهرة على انتصار السياسة الألمانية ـ بأن أظهرت ألمانيا بمظهر المشاكس الذى لا يحتمل فى نظر أوربا . وحتى قبل انتهاء أزمة البوسنة ظهرت أزمة جديدة كان لها أثر كبير فى العلاقات البريطانية الألمانية وفى حياة أسر هوهنزولرن .

ففى صباح الثامن والعشرين من أكتوبر سنة١٩٠٨ ألقى سفير ألمانيا فى لندن الكونت ولف مترنيخ بصحيفة الديلى تلغراف بيد مرتعدة ، وقال لأحد موظفيه « الآن يجب أن نرحل ».وفى نفس الوقت صدم آلاف من قراء الصحيفة بما نشر وهم يتناولون سمك الرنجة المقدد فى إفطارهم ، وكان كثيرون آخرون ناقمين يتحدثون عما أفسد عليهم إفطارهم العادى .

وفى إحدى مقابلاته لزائر إنجليزى ، رغب القيصر فى أن يذيع على الملأ آراءه المتضمنة حبه وحب أسرته للانجليز ، فأراد أن يظهر عاطفته لهم بمثل هذه الألفاظ اللائقة . «أنتم أيها الإنجليز أشبه بالثيران الهائجة ترون اللون الأحمر فى كل مكان . ماذا جرى لكم حتى تجمعوا كل هذه الاتهامات ضدنا . ماذا أستطيع أن أفعله أكثر مما فعلت ؟. لقد وقفت دائماً موقف الصداقة من إنجلترا » .

وبمناسبة حرب البوير التى اعترف فيها بأن الرأى العام الألمانى كان معادياً لإنجلترا ،استعان القيصر بصورة لجدته الملكة فكتوريا تسر إليه قلقها من الحرب القائمة ،فرسم غليوم ـ بوصفه حفيداً محباً للملكة ـ خطة غزو لهزيمة البوير وقدمها للهيئة الحربية الألمانية قبل إرسالها للعاصمة الإنجليزية .

وقال القيصر لمحدثه « دعنى أعبر عن هذا الاتفاق العجيب. إن مشروعى يكاد ينطبق تماما على مشروع اللورد روبرتس . والآن دعنى أسألك: أليس هذا مسلك الرجل الذى يتمنى الخير لإنجلترا . أرجو أن يكون رد إنجلترا رداً حسناً » .

بل إن موجة النقد التى ظهرت فى الصحافة الألمانية لمحاولة القيصر الصاخبة القيام بدوره الشخصى فى السياسة ، كانت أسوأ من ثورة الغضب التى كانت فى إنجلترا بسبب هذه المقابلة المشئومة . ولأول مرة ثار الرأى العام فى أوربا ، وكان دائماً هادئاً غير ثائر . حتى إن أحد فنانى الكاريكاتور الجريئين صور الإمبراطور السابق غليوم الأول يشفع عند الله لحفيده ، على أساس أنه جلس على العرش بفضل الله . (إشارة إلى أحد خطب القيصر) فكانت إجابة الله « إنك تريد الآن أن تنسب الخطأ إلى » .

والواقع أنه لم يكن فى ألمانيا فى عهد غليوم من يقع عليه اللوم ، لأنه لم يكن هناك أى مسئول عن أى عمل من الأعمال ، وذلك لأن الديمقواطية النيابية والحكم المطلق أفسدا النظام المؤدى إلى اتخاذ القرارات النهائية فى آخر مراحله . وكان القيصر يفخر — على مارواه المؤرخ الفرنسى موريس موريه — بأنه لم يطلع مطلقاً على الدستور الألمانى .

والكفاية البروسية فى نظام الإدارة الحكومية الألمانية انتهت إلى ضياع المسئولية على أعلى مستوى فى الحكم . وقصة صحيفة الديلى تلغراف مثل طريف فى هذا الشأن . لقد دبر غليوم نفسه اللقاء بمعونة أحد ضباط الجيش الإنجليزى ، وكان قد وجه إليه دعوة فى أحد الأيام فى أسكتلندة . ولكنه كان قد أرسل النص إلى بياوف ليعلق عليه قبل نشره . غير أن هذا لم يهتم بقراءته — أو لعله كان مسروراً إذ رأى القيصر قد ضيع أمل الاتفاق مع إنجلترا — وسلمه إلى وزارة الخارجية دون تعليق .

وهناك أخذت المذكرة تتنقل من مكتب إلى آخر ، ولم يستطع أحد أن يوجه أى نقد لكلام الرئيس الأعلى . وأخيراً عاد النص إلى غليوم — الذى أرسله دون أى اعتراض عليه إلى إنجلترا — وعنده بعض الأمل فى أنه مقبل على عصر يسود فيه حسن التفاهم بين ألمانيا وإنجلترا ويستقر فيه السلام .

وعندما اكتشف غليوم غلطته بادر إلى القيام برحلة صيد تاركا بيلوف يواجه العاصفة . ويبدو أن المستشار كان يعوزه الإخلاص . ولما وصلت الضجة إلى ذروتها فى المجالس التشريعيين وكثر اللغط بين أوساط الأمراء حول وجوب إجبار القيصر على التنازل عن العرش ، أشار بيلوف من طرف خفى إلى «أن اللوم واقع على القيصر وأنه سيرعى مستقبلاً — حتى فى حديثه الخاص — التحفظ الضرورى لاستقرار السياسة وسلطان العرش » .

ولم يغتفر القيصر لبيلوف ماعده عدم ولاء منه ، واستغنى عن خدماته فى سنة ١٩٠٩ ، وترك الحادث أثراً عميقاً فى نفسه . وزادت حدة الأزمة السياسية بما أصاب غليوم من الأسى بمناسبة فضيحة أيلنبرج ، وبالمأساة المؤلمة التى حدثت فى إحدى رحلات الصيد ، إذ مات فيها فجاءة الكونت هولزن هيسلر ـ ٥٦ سنة ـ رئيس الهيئة الإمبراطورية الحربية ، وكان محبوبا جداً لروحه المرحة .

وعند عودة القيصر إلى بوتسدام سنة ١٩٠٨ لزم فراشه منهار الأعصاب ، وأبلغ أسرته أنه يعتزم التنازل عن العرش لابنه ولى العهد البرنس فرديك وليم . إلا أن الإمبراطورة وولى العهد صرفاه عن هذه الطعنة الموجهة للأسرة . ولكنه لم يبرأ مطلقا من وقع أحداث المحن التى لاقاها فى سنة ١٩٠٨ ، وتزعزعت ثقته بنفسه إلى حد لم يبرأ منه مدى حياته .

ثم ابتدأ عهد اعتزاله السيكولوجى ، الذى كان يتخلله كثيراً اختلافات شديدة واعتراضات نفسية . وهذا ما قرره الأميرال مولر الذى كان على اتصال دائم بالقيصر . هذا ويشير ولى العهد فى مذكراته إلى تردد والده المستمر وعدم قدرته على اتخاذ أى قرار .

وبعد اعتزال بيلوف كان تذبذب السياسة الخارجية الألمانية وما ترتب عليها

من الدوافع المتعارضة فى غاية الغرابة ، وكان من الملاحظ تماماً عدم وجود اليد المسيطرة على أمور الدولة . ولم يكن لدى المستشار الجديد بتمان هولفج القدرة على مقاومة وزير الخارجية ألفريد فاختر ، وكان رجلا عنيفاً شديد البطش . ثم إن رجال الحرب وعلى رأسهم فون تربتس زادت قوتهم عما كانوا عليه من قبل إلى حد كبير . وزاد نفوذهم على القيصر بمعونة ولى العهد ، حتى إن القيصر أصبح يغار من ابنه الأكبر ،فأرسله إلى المنفى سنة١٩١٢ . وكان ولى العهد يلقب بكلب الصيد بسبب نحافته ومظهره الأرستقراطى أكثر اتزانا وأشد تقديراً للمسئوليةمن والده ، ولكن آراءه السياسية كانت قريبة الشبه جداً من آراء غير المسئولين من مؤيدى الجامعة الألمانية والبحرية الألمانية .

وقد نشر مقالات تؤكد قيمة الحرب من الناحية الأدبية، وترفض فكرة السلام العالمى باعتبارها « فكرة قبيحةغير ألمانية » ،وأخذ خضوع القيصر نفسه يزداد لجماعة الجامعة الألمانية (وهذا راجع إلى حدما إلى صداقته مع الشعوبى الإنجليزى هوستن ستيوارت تشيمبرلين الذى كان لآرائه فيما بعد تأثير على هتلر) . وصارت السياسة الخارجية الألمانية أكثر توسعاً فى كل ميدان وعلى كل مستوى : فى التنافس التجارى والمنافسة الاستعمارية ومناطق النفوذ ، وفوق كل شىء فى سباق التسلح . (وذلك لأن ألمانيا وقد جاءت متأخرة فى ميدان المنافسة الاستعمارية لم تكن راضية عن قسطها الضئيل فى أفريقيا والصين والمحيط الهادى) .

وأخذت سنوات السلام القليلة الأخيرة فى أوربا تتحول باستمرار إلى نوع من الحرب الباردة — وكانت تسمى حينذاك بالحرب الجافة — بين مجموعتى القوى : الحلف الثلاثى (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) والاتفاق الثلاثى (إنجلترا وفرنسا وروسيا)، ثم أخذت الأزمات تتتابع واحدة فى أثر الأخرى وكل منها تقرب أوربا إلى حافة حرب طاحنة . فحادثة أغادير عام ١٩١١ يوم تحدت ألمانيا للمرة الثانية مطامع

فرنسا الاستعمارية فى مراكش ، وانتخاب ريمون بوانكاريه رئيساً لجمهورية فرنسا — وهو الزعيم المطالب بضم المقاطعات التى أخذت منها — ومضاعفة منهج البحرية الألمانية، ومدمدة التجنيد فى فرنسا إلى ثلاث سنوات ، والمؤامرات الجريئة النمسوية والروسية التى أقحمت على حربى البلقان سنة ١٩١٢ و١٩١٣ — كل هذه كانت بعض معالم الطريق الخطيرة التى كانت تؤدى إلى الحرب . ولم يكن أقل منها خطراً التغيرات التى حدثت فى الرأى الأوربى والتى صحبت تلبد الجو السياسى .. ولقد علق الأوربيون آمالهم فى مستهل القرن الجديد — كما نفعل نحن الآن — على تخفيف برامج التسليح . إلا أن هذه الآمال أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً لتفسح طريقاً أمام الخوف ، ثم أخيراً ، الاعتقاد بأن سباق التسلح فى أوربا سيجعل وقوع التصادم بين الكتلتين أمراً لا مفر منه . وبدلا من بذل كل الجهود لمنع الحرب كان هم حكام أوربا وقادتها فى سنة ١٩١٤ التأكد عند وقوع الحرب فعلا أن تكون فى الوقت المناسب، وأن تكون نهايتها موفقة بالنسبة للتقديرات الحربية حسب وجهة نظر كل من الفريقين .

وربما كانت الهيئة الحاكمة فى ألمانيا أكثر صراحة من الحكام فى الدول الأخرى فى إظهار سخريتها، ولكن ليس من المؤكد أنها كانت فى الواقع أكثر سخرية. لقد أطلق كارل كراوس الكاتب الساخر النمسوى حكمه القاسى فى كلمة يصف فيها ألمانيا فى عهد غليوم — قبل عهد هتلر بجيل واحد قال « إنها البربرية مضاءة بالنيون » وكان حكما صادقاً ، ولكن إذا كان النيون أكثر وهجاً فى ألمانيا منه فى أى بلد آخر، وكان البرابرة أكثر صخبا، فلقد كان النكوص إلى البربرية هو الاتجاه العام فى أوربا . وسنرى ذلك أكثر وضوحاً إذا ألقينا نظرة أخيرة قصيرة على المناطق الظليلة فى أوربا — بعيداً عن متناول ضوء النيون — حيث وضعت المواد المعدة للانفجار .

الفصل التاسع

حافظ وقبر الحكم المطلق

إن الظاهر الذى ينبئ عن التقدم ، والباطن الذى ينبئ عن الفساد ، وهو ما اتسمت به المدنية الأوربية فى السنوات الأخيرة التى سبقت الحرب العظمى ، تجلى – كما لو كان متوقعاً – بشكل غير مألوف فى روسيا أشد الدول الأوربية تخلفاً. ولقد كانت الفترة من سنة ١٩٠٧ إلى ١٩١٤ أكثر حقب التاريخ الروسى رخاء ، كما كانت فى بعض جوانبها من أعظمها ازدهاراً. ففيها خطت العلوم والفنون الصناعية خطوات سريعة، وسارت الصناعة قدماً إلى الأمام ، وتوطدت أسس التوسع الاقتصادى ، وزاد الإنتاج الزراعى زيادة هائلة ، وأدخلت النظم الحديثة فى الجيش وأصلح التعليم ، كما أعيد بناء النظام الإدارى على أسس صحيحة ، حتى الاستبداد القيصرى نفسه بعد المقاومة العنيفة للثورات التى حدثت سنة ١٩٠٥ أصبح خفيف الوطأة بعض الشىء. ثم إن مجلس النواب الذى قام على أساس الدستور الجديد رغم ضعف سلطانه – كان فى وجوده تلطيف للحياة الروسية العامة ، ومنح روسيا على الأقل صورة شبيهة بنظام الكومنولث فى القرن العشرين. ولم تكن محاولة روسيا اللحاق بالقرن العشرين حضارياً وسياسياً ومادياً محاولة كاذبة ، ولكنها كانت سائرة فى طريق خاطئ ، إذ كانت الدوافع التقدمية فى المجتمع الروسى حقيقية إلى حد كاف ولكنها لم تكن حاسمة. ولقد كان هناك رجلان يمثلان الاتجاهين المتنافسين لتقرير ما يستقر عليه الأمر فى روسيا تحت حكم القيصر. وكان كل من الرجلين بأسلوبه الخاص يؤثر فى الحياة العامة ، كما كان كل منهما معبراً عن اتجاهات تاريخية هامة.

كان بيتر ستوليبين الذى ولى رياسة الوزراء من نوفمبر سنة ١٩٠٦ إلى مقتله

فى سبتمبر سنة ١٩١١ ، أهم عامل على بعث سلطان الملكية بعد أزمة سنة ١٩٠٥ . وهذا الرجل الضخم ذو اللحية السوداء والملامح القوية الصريحة لم يكن تماماً من المحافظين المستنيرين ، ولكنه كان أميناً ومفكراً . وكان يهدف إلى تقوية الحكومة أكثر منه إلى إصلاحها . وأيام أن كان محافظاً لأحد الأقاليم فى سنة ١٩٠٥ أخمد الاضطرابات التى نشبت فى محافظته بعنف شديد . وكان وزيراً للداخلية فى الوقت الذى أخمدت فيه الحكومة الثورة . ومع هذا فقد رحب بدستور سنة ١٩٠٥ ، ربما لأنه أتاح فرصة أكبر لذوى الكفايات المخلصين مثله لخدمة القيصر . هذا وفى أثناء خمسة الأعوام الذى تولى فيها رئاسة الوزراء لم يسمح بأى وهن يصيب الحكومة أو يضعف شوكتها . ومع أنه لم يكن برلمانياً بطبعه أو بعقيدته، إلا أنه كان محبوباً ومحل احترام المجلس النيابى حتى من أعضائه الأحرار ، بسبب إيمانه الصادق وتقديره للعلاقات الإنسانية . ولم يكن ستوليبن إلا متوسط الذكاء، وخير ما يقال عن نظرته السياسية إنها كانت مبنية على مفاهيم الرأسمالية المعاصرة لا على مفاهيمها القديمة ، ولكنه كان يمتاز بشىء كانت روسيا فى تلك الأيام فى أشد الحاجة إليه — وهو الخلق، رغم تعرضه للنقد من جانب اليساريين والرجعيين. وهو الذى منح الفلاحين الروس حق انسحابهم من الجمعيات القروية وامتلاك أرضهم ، وكان هذا أهم إصلاح اجتماعى منذ تحرير عبيد الأرض . حتى إنه فى سنة ١٩١٤ كان تسعة ملايين من الفلاحين يعملون فى أرضهم التى يملكونها فى روسيا . وأخذت جذوة الثورة فى الخمود فى ريف البلاد .

وإذا كان فى وسع أحد إنقاذ الحكومة الروسية بعد سنة ١٩٠٥ كان هو ستوليبن . ولم يكن لينين أو غيره من القادة الثوريين خصمه فى التاريخ الروسى — ومنافسه المنتصر إلى حد ما عليه — بل كان راسبوتين الذى ظهر — كشخصية عامة — فى الوقت الذى ظهر فيه ستوليبن . ولو أنه

لم يبلغ ذروة انتصاره إلا بعد وفاته . وكما كان ستوليبن رمز ما بقى من حيوية لدى الحكومة المطلقة والعامل الأول على عودة سلطانها ، كان راسبوتين رمز شؤم على انحطاطها والعامل النهائى على انهيارها . كان أحدهما المعالج القانونى وكان الآخر الطبيب المزيف غير المسئول . كان ستوليبن من أنصار المحافظة على الحالة السياسية المعقولة التى تبقى على القيم القديمة مع تعديل فى التصرفات تبعاً لتغير الظروف . بينما كان راسبوتين يمثل الراديكالية المقلوبة التى تهرب من الحقائق القائمة، لأنها تخشاها وتدوس على التقاليد وتستبدل بها الخرافات ، ومن العسير أن يصدق المرء أن شخصية رهيبة مثل راسبوتين تقوم بدور هام فى التاريخ — حتى فى تاريخ دولة متخلفة كروسيا فى عهد القياصرة — ولكنه قام به .

إن صور جريجورى راسبوتين التى تتداولها الأيدى الآن تبدو لعين السياسى الخبير فى الستينات من القرن العشرين أن فيها شيئاً ما لا يرضى . إنها تصور رجلا قوياً متوسط الطول يلبس سترة ريفية وسراويل متسعة وحذاء ثقيلا . وله أنف ضخم منتفخ وشعر طويل قاتم مفروق فى وسطه ولحيته خشنة سوداء . ويحملق فى آلة التصوير بعينين واسعتين قويتين . (وتصف المذكرات المعاصرة عينيه بأنهما زرقاوان نافذتان ، وإنسان العين فيهما يضيق إلى أقل الحدود عندما يركز صاحبها النظر على شىء ما) والفكرة العامة التى تنطبع فى الذهن عنه هو أنه رجل مطبوع على الخبث ويتظاهر بما ليس فيه .

ويصل الإنسان إلى نفس هذه الفكرة الغريبة عن أخلاق راسبوتين مما كتب عن أسرة رومانوف فى أواخر أيامهم . ويختلف المؤرخون فى مقدار إسهامه فى القضاء النهائى على حكم القياصرة . ويجمع غالبيتهم على أن دوره كان رئيسياً . ولكنهم متفقون جميعاً على مساوئه الخلقية ونقائصه . ويبدو أن راسبوتين كان مخادعا ولصاً ومستغلا وسكيراً وكافراً فاجراً . وكان كالقرد فى دعارته، وكالعنزة فى

رائحتها الكريهة . وقدنزع خصلة من لحية أبيه مرة فى مشاجرة عامة . وكان برأسه أثر لجرح ينسبه تروتسكى إلى إحدى حوادث سرقة الخيول .

ومن المحتمل أنه كان يعطف سراً على بعض عقائد الكنيسة الشرقية المنافية للمسيحية الصحيحة ، وليس من المستبعد أنه كان يخطط للاستيلاء على عرش القياصرة . وكان قليل الاستحمام — على الأقل فى مستهل حياته العامة . وكان يغمس يديه فى الحساء ولاسيا حساء السمك .

وبينما كان لدى أعداء الحكومة الروسية ومؤيديها ما يحملهم على إبراز صورة راسبوتين أشد سواداً من حقيقته ، وأحيانا أكبر من حقيقته ، فإن كل الشواهد تدل على أنه كان رجلا وضيعاً إلى أبعد الحدود . وليس أكبر ما تضيق به النفس من صورة راسبوتين أنها تغلو فى تصويره فى منتهى الدناءة — ولو أنه فعلا كذلك — ولكن تجزها عن بيان نوع دناءته . إن فظاظته وانغماسه فى الشهوات من عيوبه الطبيعية . ولكن كان ذلك أيضاً مما يرى الاستعانة به لرسم الصورة التى تراد أن تكون له عند الكافة .

وكان راسبوتين فى أول الأمر أقل تخصصاً فى الدين منه فى العرافة ومداواة الأمراض . (وكانت مقدرته على شفاء الأمراض — ولو أنها تعتمد أساساً على الإيحاء العقلى — لم تكن كلها من قبيل الخداع) وهذه الحرفة قديمة ألحق بها الزمن والتقاليد كثيراً من الزيادات ، ولا بد للقيام بها من استعداد خاص لها كالتجوال الدينى . وبعد حصول المتجول على شىء من القداسة فى أثناء تجواله ، ينظر إليه كأحد القديسين والوعاظ الدينيين الذين ذكرهم دستوفسكى فى كتاباته .

وجو القرون الوسطى الدينى — مع وسوسة الشيطان — والذى أحاط ما يمكن أن يسمى حياة راسبوتين الدينية ، قد أخفى حياته الأخرى . فإن راسبوتين لم يكن

بذلك الواعظ الزمنى الذى يعمل على هامش السياسة . بل إنه كان رجل سياسة . وعمله السياسى كعمله الدينى لم يكن عملا سلبيا ولم يكن قانونياً . ولكن رغم الحيل العجيبة التى كان يقوم بها ، كانت حياته من طراز لم يكن من العسير إدراك كنهه . فهو أولا وبالذات أحد القواد السياسيين — وعلى الأقل قد أصبح كذلك — وكان شغله الشاغل : الحصول على النفوذ واستخدامه. وكان الغموض بعض رأس ماله . لكن الغموض الذى استغله كثيراً كان غموضاً سياسيا وحديثاً نسبياً. كان يمثل الفلاح الروسى البرىء الذى مجده تولستوى وأنصار الاشتراكية الأوائل — وابن عم الجماهير التى استمد منها الزعماء فى كل بلد فى القرن العشرين الفكرة المختلطة بين السوقية والديمقراطية . ويمكن أن يقال إن راسبوتين جسم فكرة الفرد فى روسيا القيصرية ومثل هو هذا الدور . لقد أوغل يده فى الحساء وحك بها مؤخرته لنفس السبب الذى جعل نيكيتا خروشوف يخلع حذاءه .

وقد يكون من المفيد هنا أن نوجز المراحل الرئيسية فى حياة راسبوتين ابتداء من فلاح عادى إلى قديس من صنعه هو، ومن رجل دين محترف إلى قائد سياسى . ولد هذا القديس سنة ١٨٧٢ فى بكروفسكى إحدى قرى سيبيريا على مقربة من توبلسك وراء جبال الأورال. وكان والده إفيم فلاحاً وتاجر خيول. ولم يكن لأسرته لقب مثل كثير من الأسرات الروسية ، واخيراً اتخذ جريجورى لنفسه لقب نوفيك، وأطلق عليه جيرانه لقب راسبوتين أيام شبابه . وهى تعنى «دنىء» وكان كل شىء يبرر منحه هذا اللقب.ومنذ شبابه الباكر أظهر راسبوتين حيوية جنسية قوية.(قالت مرة زوجته وهى فلاحة سيبيرية قوية . عندما سمعت عن كثرة النساء اللاتى يجرين وراءه ويلتففن حوله فى بطرسبرج ، إن جريجورى يستطيع أن يعنى بهن جميعاً » وكان فى الوقت نفسه شديد التدين، بل يبدو مخلصاً فى تدينه مع نزعة إلى التأمل فى الناحية الدينية . وكان الحل المعتاد لمشكلته فى روسيا أن يكبح إغراء

الجسد بدخول الدير . ولكن فى حالة راسبوتين يوجد حائل كبير دون ذلك . جاء فى شهادة أحد ضباط الشرطة فى روسيا أن راسبوتين كان على علم بميوله السقيمة الشريرة التى ظهرت فى أثناء شبابه، وهو يقدر أنه لا يصلح لحياة الدير المنعزلة، فلو دخل أحد الأديرة فما أسرع أن يطرد منه .

وبدلا من أن يصبح راهباً أصبح راسبوتين قديساً . لقد قام مرتين بالحج التقليدى للأرض المقدسة وطاف بالبلاد الروسية كلها . وأقام الصلاة فى أشهر كنائسها. ولاشك أنه اتجه كذلك إلى أماكن أقل قداسة استجابة لإغراء الجسد ، مقنعاً نفسه أنه كان بهذا الاتجاه ينقذ نفسه من خطر أكبر . وأحس أن روحه كانت فى مسيس الحاجة إلى الراحة النفسية ، حتى إنه فى محاولته إراحة ضميره — وخلاص غيره — انتهى إلى نظرية التكفير عن طريق الندم ، وهذه النظرية إذا وضعت فى ألفاظ صريحة — وهو ما كان راسبوتين يتجنبه — فمعناها أن الإنسان إذا أراد الخلاص فمن الضرورى أن يأثم أولا .. على الأقل يجب أن يكون متواضعاً قلباً وقالباً . ولا يوجد من هو أكثر تواضعاً من الآثم النادم . وعلى ذلك فيأيها الإخوة — والأخوات — هيا بنا نذل أنفسنا بارتكاب الإثم . ويظهر أثر جماعة الكليستى الملحدة الخارجة على القانون المنغمسة فى الملذات الجنسية المنتشرة سراً فى منطقة راسبوتين بسيبيريا ، فى فكرته ، ولكنه استطاع أن يخفيها خوفا من العقاب أو الازدراء .

وكان ينشر فكرته بجعل نفسه القدوة التى تحتذى . وهذه الرسالة الكبرى التى نصب نفسه لها كان لابد لها من الانتشار — وبخاصة فى روسيا فى عهد القياصرة . وهذه الشعبية التى كانت لرسالته ، كانت عاملا هاما على زيادة نفوذه فى البلاد .

وفى سنة ١٩٠٣ قدم راسبوتين إلى بطرسبرج وكان فى الواحدة والثلاثين من عمره ، وظهر فيها بمظهر السكير الفاجر التائب . وكان له زوجة وثلاثة أطفال ولكنه تركهم فى سيبيريا . وبدا عليه الهزال والتقشف لكثرة تجواله . وكانت قذارته الظاهرة وملابسه الرثة وعيناه المتقدتان شاهدة على ندمه وتوبته . وعمل خادماً فى أكاديمية دينية عصرية ، وسرعان ما وجد نفسه فى رعاية بعض ذوى النفوذ . منهم هرموجن مطران ساراتوف ، وراهب يدعى إليودور ، كان يعد قديساً متصوفاً فى بعض بيوتات العاصمة . وبفضل هذه الصلات تعرف إلى الدوقة ميلتزا ، وكان لها ولع بالمنجمين والوسطاء وغيرهم من المتصلين بالحياة الكنسية . وثبتت شهرته فى شفاء الأمراض لما نجح فى شفاء أحد كلاب الصيد للدوق نقولا بعد يأس الأطباء البيطريين إذ ذاك فى شفائه . كما كان موفقاً فى شفاء الآدميين من المرضى — وبخاصة السيدات — الذين يخضعون لأوامره . وذاع صيته لما تحققت بعض نبوءاته . ومما تنبأ به أن القيصرة التى لم تكن تنجب إلا بناتاً ستنجب ولداً ذكراً فى عام ١٩٠٤ (وقد حدث) .

ولعل تقديم راسبوتين إلى القيصر والقيصرة كان عن طريق الدوقة ميلتزا ، ولو أن أخا زوجها الدوق نقولا هو الذى هيأ ظروف التقديم . وكانت هذه أولى المحاولات التى كان يقوم بها كثير من مدبرى المكائد لزيادة نفوذ راسبوتين طمعاً فى تقوية نفوذهم . وكانت الحياة العائلية الداخلية للقيصر والقيصرة لها ما يشبه الحاجز السحرى الذى يقيها دسائس الحاشية ، ولكن قلقهما على صحة ولى العهد — مع جهلهما واعتقادهما بالخرافات — جعل منهما ضحية سهلة التأثر بالطب المزيف ، وبخاصة إذا كان صادراً من أرباب الملابس الكهنوتية .

وكان راسبوتين يستغل الظروف إلى أبعد الحدود . وكانت أولى زياراته

للقصر الإمبراطورى فى تزارسكوسيلو فى نوفمبر سنة ١٩٠٥ . ودعى إلى الزيارة بعد عودته من رحلته إلى مسقط رأسه فى إحدى قرى سيبيريا . وسرعان ما عاد فعلا إلى العاصمة . وكانت القيصرة تعتقد فى قدرته على وقف النزيف الذى يصيب ولدها ، ويحفظ حياته من هذا الخطر الذى يهددها . وإذا كان لديها أية ذرة من الشك فقد زالت فى سنة ١٩١٢ عندما أشرف ولى العهد على الموت بسبب نزيف داخلى وشفى بعد وصول برقية من هذا القديس يعد فيها بشفاء الصبى . وكثيراً ما أنقذه من آلام مبرحة بحديثه التليفونى معه . ولا شك أن كثيراً من أعراض المرض مبالغ فيها — ربما نتيجة لما يشعر به الصبى دون وعى منه من اهتمام والديه — وراسبوتين لابد له — كسائر المعالجين الزائفين — من قوة خارقة على العلاج . وكان يستعين فى بعض المناسبات فوق طرق علاجه الأخرى بأدوية سرية من التبت ، يستعيرها من زميل زائف مثله . وقد تلقى بعض الوقت دروساً من منوم مغناطيسى محترف . ولم تكن القيصرة بطبيعة الحال على علم بوسائل العلاج الطبيعية . وكانت ترى أن نجاح راسبوتين فى علاج ولدها معجز ، ولا يأتى بالمعجزات إلا القديسون . ولذلك كان من الواضح أن الرجل قديس . وكان القيصر ميالا إلى أن يشاركها هذا الاعتقاد .

ومع هذا كان راسبوتين أكثر من قديس . لقد كان أيضاً — كما قلنا من قبل — رمزاً فريداً لطبقة من الناس .

ويقول باسيل ماكلاكوف القانونى المحافظ والمؤرخ « كان راسبوتين فى نظر القيصر والقيصرة الممثل الصادق للشعب (الحقيقى) ، وهم الفئة المغايرة للمجتمع الراقى (لاعبى البردج) كما كان القيصر يسميهم ، ثم إنه نبى أو قديس بعثه الله لسعادتهم ، وباتباع القيصر مشورته يضمن إلى جانبه الله والشعب . ومن ذا الذى فى وسعه القضاء على هذا النفوذ ؟ » .

وربما كان القول بأن راسبوتين يمثل الشعب الحقيقى أو عامة الشعب، فيه شىء من المغالاة، ولكنه ليس بعيداً كل البعد عن الواقع. فهو لم يكن يمثل العامل الذى يعمل فى المصانع المنشأة فى المدن. وهو عنصر حديث آخذ فى النمو نظراً للزيادة السريعة فى التقدم الصناعى. ولكنه كان فلاحاً قحاً حتى عندما كان يبالغ فى تمثيل دوره هذا، مما كان له أهمية سياسية عظمى.

والفلاحون كانوا من الناحية العددية أهم الطبقات فى روسيا، وظلوا كذلك إلى قيام الثورة. وكانوا من وجهة نظر الدولة القيصرية أقل الطبقات ميلا لها وتعلقاً بها. وكانت نظرة الفلاح العادى إلى الطبقة الممتازة من الروس أشبه بنظرة أهل المستعمرات إلى الشعب المستعمر.

فالنبلاء فى رأيهم — كما يقول راسبوتين — ليسوا روساً حقيقيين، ولم يكن لديهم ذرة من الثقة لا فى محصلى الضرائب ورجال الشرطة فحسب، بل كانوا لا يثقون كذلك فى سكان المدن من أولى الرأى الأحرار والثوريين، ولا فى النابهين من أعيان الريف.

ولقد شخص راسبوتين تشخيصاً صحيحاً الخلاف الأساسى فى المجتمع الروسى — بل كانت حياته هو على نحو ما ممثلة لهذا الخلاف — وكثيراً ما لفت إليه نظر القيصر. وكان من رأيه أن تكون الأسرة القيصرية أقل تمثيلا للنبلاء وأكثر تمثيلا لطبقة الفلاحين، كما يجب عليها أن تقرب الشعب من العرش خلافاً للشعار النارودنيكى القديم.

وكانت معظم نصائحه متعلقة بالعلاقات العامة ولم يكن ذلك مما يؤخذ عليه. ولو كان التلفزيون موجوداً عام ١٩١٢ وكان فى وسع القرى النائية مشاهدة هذا « القديس » وهو يضفى دعواته على (ماما وبابا) كما كان يسمى القيصر والقيصرة،

فلربما تغير مصير أسرة رومانوف . (كانت نصائح راسبوتين أحياناً قيمة وملائمة . وكما سنرى فيما بعد حاول تحذير القيصر من الاشتراك فى الحرب فى يوليو سنة ١٩١٤ ، وكان يفخر بأنه حافظ على السلام عامى ١٩٠٩ و ١٩١٢ وكان هذا مبالغة منه . ولكن يبدو مؤكداً أنه ظل عدة أعوام يدعو إلى سياسة خارجية سلمية حازمة — وهى خير نصيحة تلقاها نقولا فى أهم ما يشغل الناس فى ذلك الوقت . ويبدو أن راسبوتين كان له موقف طيب فى استنكار مناهضة العناصر السامية . وهى إحدى مساوئ الحكم القيصرى فى روسيا) .

ولا نزاع فى أن لراسبوتين مواهب طبيعية عظيمة ، بل وربما مناقب أخلاقية حط هو من شأنها كثيراً . ولا شك فى أنه كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه يرعى أهم مصالح أسرة رومانوف . وكانت ومضات الحكمة والإخلاص هى التى جعلت زيفه عاملا من عوامل الهدم والدمار .

وقد كانت هناك علاقة ما بين اختلال شخصيته وحالة الفوضى السائدة فى روسيا القيصرية ، وهى التى جعلت منه عاملا هائلا من عوامل الفساد فى البلاد . وكان القيصر والقيصرة فى مقدمة ضحايا كيميائه المميتة ، وإن لم يكونا أشد ضحاياه براءة وحسن نية . وكان لنقولا كغيره من الضعفاء أمثاله ولع آثم بالنفوذ يحاول ستره عن الأعين . وكان يود أن يقال له إن هذا واجب مقدس عليه ، وإنه لم يسلك إلا السبيل المباشر إلى تحقيقه . واشتدت حاجته إلى إقناع الكافة بذلك بعد ثورة عام ١٩٠٥، عند ما قبل أن يكون — على الأقل بالاسم — ملكا دستوريا، وأن ينزل عن شىء من سلطانه إلى مجلس نيابى منتخب .

ولقد قال راسبوتين — الذى لا حد لفهمه فى الحصول على القوة والنفوذ — للقيصر ما يود سماعه . قال له بوصفه رجلا من رجال الدين « إن الحكم المطلق

هو نظام أمر به الخالق »، وتقولا مسئول عن المحافظة عليه أمام الحاكم الأعلى . كما أكد بوصفه أحد أفراد الشعب أن الفلاحين يبجلون حاكمهم المطلق ، وهم يخلصون الإخلاص كله للحكم المطلق ، ولا يكنون إلا الاحتقار والكراهية للثوريين والمصلحين من كل صنف .

وعلى هذا فمن الضروري ـ بل إنه يتفق مع القانون ـ ألا يرعى القيصر الدستور، وأن يرجع إلى نظم الحكم المطلق كما كان الحال فى عهد أبيه .

ومبدأ الاستبداد الشعبي أو التقدم عن طريق الرجعية — وهو شبيه بمبدأ راسبوتين الخاص بالخلاص عن طريق الإثم — كان له أثر قوى على روح تقولا المعنوية ، لكنه كان أخطر دواء عقلي يمكن أن يوصف لعلاجه ، فلم يكن تقولا بالحاكم الذى يسيء استعمال القوة ، وإنما هو شخص لا يعرف مطلقاً كيف يستعملها . وكلما زاد ما يقبض عليه من القوة زاد ما يفلت من بين أصابعه منها .

ولم يكن نفوذ راسبوتين على القيصرة اسكندرة مشئوماً فحسب ، بل كان لا شك سيئاً من الناحيتين السياسية والنفسية كذلك .

كتبت للقديس سنة ١٩٠٩ « إنى أقبل يديك واعتمد برأسى على كتفيك المحبوبتين . إنى أحس بنشوة شديدة حينذاك . وإنى لا أتمنى إلا شيئاً واحداً وهو أن أنام وأبقى كذلك إلى الأبد على كتفيك وبين ذراعيك » .

وهذا كلام غير لائق حتى فى نظر من يقرأون ما كتبته مارى كوريلى . ولا عجب أن قابلت الطبقة الراقية فى بطرسبرج هذا الكلام بدهشة شديدة عند ما سقطت خطابات القيصرة من بين أصابع راسبوتين ، ونتيجة لإهمال رجال الرقابة

على المطبوعات طبعت ونشرت . ويعتقد معظم المؤرخين المعتدلين أن العلاقة بين حفيدة الملكة فكتوريا وابن تاجر الخيول ، كانت علاقة علاجية وليست شهوانية . وفى سجلات العلاج النفسانى سوابق كثيرة من هذا النوع من العلاقات .

ولا ريب أن اسكندرا نفسها ما كانت تدرى أن فى شعورها نحو راسبوتين عنصراً شهوانياً شديداً . والمسألة — على وجه التحديد — هى أنها كتبت ما كتبت بكل براءة لأنها حفيدة الملكة فكتوريا .

ومع ذلك لكى نفهم بدقة دور راسبوتين فى حياة اسكندرا ، فمن الضرورى أن نضع نصب أعيننا العقدة التى تتأثر بها إحدى نواحى خلقها ، والخواص التى كانت لمنزلتها الاجتماعية الفريدة . فوراء تكريس نفسها لأعباء الأسرة والواجب ، كانت طموحة إلى أبعد الحدود . وكان عليها — ككثير من النساء الطموحات ، وبخاصة فى ذلك العصر — أن تحقق أطماعها عن طريق زوجها وأولادها . وكانت مثل كثير من النساء تسيطر على زوجها فى البيت ، بينما تدفعه باستمرار إلى إبراز شخصيته خارجه . وإذا كانت الزوجة الريفية تصر على أن يدخل زوجها مكتب رئيسه ويطالب بترقية ، فإن اسكندرا كانت تبقى فى حجرتها ، وتقوم بدور الرئيس الذى كان عليه أن يقوم هو به . ولو كانت تقصر اهتمامها على المسائل العامة ، فلا ضير عليها فى ذلك ، وما دامت هى أم الحاكم المطلق فى المستقبل القريب ، فلها القيام برعاية ولى العهد ألكسيس وريث الحكم المطلق ، الذى ورثه نقولا نفسه عن أجداده . ولكن كانت اسكندرا لا تستطيع أن تتدخل فى شئون زوجها دون الاعتداء على نفس العقيدة التى تبرر بها تدخلها . وهنا المجال لتدخل راسبوتين . فبصفته رسول الله وممثل الشعب ، كان فى وسعه دون أن يخل بواجب الاحترام اللازم أن يقدم اقتراحاته للقيصر .

وكان فى استطاعة اسكندرا — دون أن تظهر بمظهر المعتدى على حقوق زوجها — أن تؤثر فى تصرفاته الخاصة بالحكم بالإغراء وبالاتصال، وأحياناً بتفسير ما للقديس من توصيات سياسية .

كتبت اسكندرا فى أحد خطاباتها للقيصر « ... استمع إلى . وهذا يعنى صديقنا راسبوتين » . وفى خطاب آخر « ... على أن تزيد ثقتك فى صديقنا » . وفى خطاب آخر كتبت للقيصر « لكن أنت الرئيس . أطع زوجتك الصغيرة الصامدة ، وصديقنا » . وأخيراً هذه الدرة المعبرة عن العلاقة الزوجية « آه . يا بنى كم أتمنى أن نكون معاً ... فكر أكثر فى راسبوتين .... آه دعنى أزيدك نصحاً وإرشاداً » .

هذه الخطابات التى اقتبست منها هذه العبارات كتبت إبان الحرب عندما أخذت العلاقة الثلاثية العجيبة شكلها النهائى .

وفى مبدأ الأمر كان كل من القديس والقيصرة أقل صراحة فيما يبذلانه من جهود فى التأثير على نقولا ، ذلك الرجل الحاكم المتردد . ولكن الخطة وضعت من مبدأ الأمر . فهم راسبوتين ما يطلب منه ، وأمد اسكندرا بمبررات تدخلها فى أمور الدولة ، كما استغل نفوذه عليها فى الوقت نفسه ليصل إلى أهدافه . وكانت العلاقة العاطفية بين اسكندرا وراسبوتين أكثر تعقيداً ، مما دلت عليه الظواهر . ففى بعض الأمور كان سلطانه عليها تاماً . ولكنه كان فى نفس الوقت الوسيلة التى لا تستغنى عنها لتسيطر . فكان من الطبيعى أن تحبه لذلك ولغير ذلك من الأسباب ، كما كانت تحب مخلصة — ولكن بأسلوب آخر — زوجها الذى لم يصبح عاطفياً ، والذى مكنها ضعفه من حكم الإمبراطورية . وفى الأمور العاطفية

كانت اسكندرا تنظر إلى راسبوتين نظرة الطفلة المملوءة بالخوف والولاء ، مثلما كان نقولا ينظر إليها . ولـكن فى الأمور السياسية كان ثلاثتهم شركاء فى لعبة الحـكم ، وكان نقولا شريكا لهما ، كما كان ضحيتهما . ولم يكن واحد من الثلاثة بريئاً حسن النية دائماً ، كما لم يكن واحد منهم ساخراً على الدوام .

وكان ضمن تروس عجلة الحكم التى أقامها راسبوتين واسكندرا ، سيدة كانت مشمولة برعاية اسكندرا اسمها أنا فيروبوفا أقل منهما أهمية ، ولـكن لا يمكن الاستغناء عنها فى إدارة الحكم، وهى ضخمة الجسم رثة اللباس ذات ضفائر ثقيلة من الشعر فوق رأسها، ذات عينين غير براقتين. وكانت أنا ابنة أحد كبار موظفى البلاط سيئة الحظ فى زواجها . وأخيرا نزلت لدى أحد ذوى قرباها فى تزارسكوسيلو فى دار خصصت لها على مقربة من القصر الإمبراطورى .

وكانت أنا وهى نموذج آخر لطفيلية برزت من جحر عائلى فاسد ، الصديقة الحميمة لاسكندرا خارج المحيط العائلى . وكانت هذه الصداقة الشاذة تشبه افتتان اسكندرا براسبوتين . وأنا نفسها كانت مفتونة براسبوتين . بل كانت أكثر استسلاما له من اسكندرا — وإن كانت مثلها فى مأمن من نزعات العاطفة — وفضلا عن انضمامها لاسكندرا فى التنويه بقداسة « صديقنا » كانت تسهم بنهم شديد فى سلب نقولا الآثار القليلة الباقية من رجولته . (وهذا بطبيعة الحال لا ينفى أنها « تعبد » القيصر — إلى الحد الذى يصيب اسكندرا بألم الغيرة الشديد) .

وكان أهم عمل لأنا — على مستوى الأعمال — أنها كانت الصلة بين راسبوتين والقيصرة — وإذا لم يستطع هو أن يجىء إلى القصر كل يوم ، فأنا

تستطيع أن تحضر، وكم من مرة حضرت فعلا . وبفضلها كان يقع الاتصال يومياً . فإذا كانت المقابلة الشخصية ضرورية فى غير المواعيد المخصصة للزيارة ،فإن القيصرة كانت تقابل راسبوتين فى بيت أنا . وكان لها مزايا أخرى . . فقد كان هناك مالا يحصى من المطالب والاقتراحات البسيطة وبخاصة ما يتعلق بالشئون المالية بالقديس ، مما لا يستطيع راسبوتين القيام بها ما لم يخلع دوره الدينى . وكانت أنا تقوم بها له . وهناك ما يحمل على الاعتقاد أن أنا كانت تدفع راسبوتين من وقت إلى آخر على أن يخبر القيصرة — لأسباب تتعلق بعلاقتها الزوجية — بما تود أن تسمعه منه ، وكانت أنا تعد — فى رأى من يعرفونها — امرأة بليدة إلى حد بعيد . ولكن لا بد أنها كانت على قسط كبير من الدهاء ، فإنه يتطلب منها مكرا شديداً أن تظهر بمظهر السذاجة الذى قد ينطلى على راسبوتين نفسه . وبينما كانت تخدم بإخلاص صاحبيها فإنها لم تكن تنسى مصالحها الخاصة . حتى من يعطف عليهم راسبوتين كان عليهم أن يخطبوا ودها إذا ما أرادوا أن تخصهم القيصرة بعطفها ، ومن ثم يحصلون على عطف القيصر .

ولم يكتف راسبوتين والقيصرة بنفوذهما فى سياسة الدولة على أعلى مستوى ، فعملا على خلق تنظيم خاص سياسى لتنفيذ إرادتهما ، وكان «حزب الإمبراطورة» يعمل على أساس الرعاية والوساطة ، وكان راسبوتين يحصل على الوظائف ومراتب الشرف لمريديه ومقاولات أميرية أو معلومات خاصة لأتباعه الماليين ، وكانت صحابته فى آخر أيامه تشمل الوزراء — وشملت فى الواقع رئيسى وزارة — ومطارنة وضباطاً وقواد جيش ، كما شملت اثنين من رجال المصارف وجواهرجياً يهودياً من الإقليم ، صار بفضل راسبوتين من المرابين السريين للطبقة العليا فى بطرسبرج وصاحب ناد للميسر .

وكان الجنرال فلاديمير سوخوملينوف وزير الحرب المرتشى وزوجته الصغيرة

الجيلة ذات السمعة القذرة من أعضاء الجماعة ـ وكان الكونت سرجيوس ويته رئيس الوزراء عند قيام ثورة سنة ١٩٠٥ هو العقل المدبر السياسى لهم . ووضع ضابط قديم من ضباط الشرطة يدعى ستيفن بلتسكى ، وكان فى وقت ما من الشخصيات البارزة فى الجماعة ، ووضع هذا الضابط لحساب راسبوتين فى كشوف مصاريف أوكرانيا السرية ثلاثة آلاف روبل أى نحو ثمانمائة جنيه شهرياً .

وقام راسبوتين بمهمته كرئيس سياسى بعزم قوى . فإذا كان أحد الأعمال الهامة أو العقود الدسمة الخاصة ببعض أفراد الجماعة يخشى ضياعه حصر فكره فى المشكلة، مستعيناً بعدة قارورات من الماديرا ـ الشراب المفضل لديه ـ وأخذ حماماً بخارياً وكتب لنفسه مذكرة يضعها على وسادة نومه (وكان قبل تعلمه الكتابة يستعين بعلامات يحفرها على عصا لتساعده على الذكرى) ، حتى إذا أقبل الصباح تناول المذكرة وقال « لقد صحت إرادتى » ثم طلب أنا فيروبوفا بالمسرة لتنبئ القيصرة حتى تدلى هذه بتعلياتها إلى القيصر .

ولكى ينفض راسبوتين عنه عناء العمل كان يسهر مع أصحابه سهراته الحمراء ، ثم يعتلى سريره يتمرغ عليه مع عدد مذهل من النساء . وعلى خلاف ما يروى كان قليل من هؤلاء النسوة من الطبقة الأرستقراطية ، ولكن « كشف الأسماء » الذى يشمل أسماء من يقعن فى شباكه إذا جاز لنا استعمال هذا اللفظ ، كان يشمل سيدات مزدانة بالفراء والجواهر من الطبقة الأرستقراطية ، وزوجات بعض أرباب الأعمال المحترمين أو الموظفين جئن ليعملن على رعاية مصالح أزواجهن . ولقد أقام راسبوتين مرة بمناسبة عيد ميلاد له سهرة حمراء فى مسكنه فى بطرسبرج كادت أن تنتهى بمأساة ، عندما حضر زوجا اثنين ممن لا يكففن عن الشراب طول الليل ، ودخلا المسكن فى الصباح وفى يد كل منهما سيف مسلول . (وأمكن الحرس المكلفين بحراسة القديس أن يحولوا دون دخولهما بعض الوقت ، تمكن فيه من الهرب هو وضيوفه من السلم الخلفى).

وفى مناسبة أخرى أحدث راسبوتين جلبة كبيرة فى أحد حمامات سيبيريا عندما استصحب عدة موظفات فى الكنيسة من بطرسبرج لتدليك جسمه — وكان هذا نوعا من الرياضة الروحية كما قال فيما بعد لبعض الصحفيين. ومع أن راسبوتين كان يفضل نساء الطبقات الراقية لأنهن — كما يقول — أزكى رائحة، إلا أنه لم يفقد الاتصال بنساء الطبقات الدنيا. وكانت تقارير الشرطة تذكر خروج سيل لا ينقطع من العاهرات الصاخبات البذيئات والمومسات والخادمات وغيرهن من حجرة نومه الصغيرة المجاورة لحجرة طعامه فى سكنه.

ولم يكن من اليسير حمل القيصرة ولا أنا فيروبوفا — رغم مشاهدتها بعض هذه المناظر — على الاعتقاد أو الإقرار بأن القديس كان يسلك مسلكا منافياً لقداسته، وكانت القيصرة تقول « إنهن يقرأن الإنجيل ويقبلن كل إنسان من باب التحية والسلام»، محاولة بذلك نفى التهم البذيئة التى كانت تنسب إلى صديقها. وعندما اتهمت مرضعة ولى العهد راسبوتين بأنه خدعها نفت القيصرة قولها على أنه أضغاث أحلام. أما أصحاب راسبوتين القدامى والراهب إليودور وهرموجن التقى السليم النية، فهؤلاء أقل صلابة فى الدفاع عنه أمام القرائن القوية.

وعندما اقتنع الراهب زنيا بالأدلة الدامغة، دعا هرموجن راسبوتين وانتزع منه اعترافا، ثم صاح الراهب قائلا « إنك تهشم سفينتنا المقدسة »، وضرب راسبوتين على رأسه بصليبه الكنسى. وعقابا له جعله يقسم أمام الأيقونة المقدسة أنه لن يمس أية أنثى مستقبلا. وفى اليوم التالى سمع راسبوتين يصيح بشكل هستيرى « أنقذونى» (ولربما نبهه تفكيره فى أثناء الليل إلى ماجره إليه قسمه أمام هرموجن) وحاول أن يحظى بمعونة إليودور، ولكن عندما عاد إلى حجرة هرموجن أولاه ظهره وقال « لا محل للتحلل من القسم أبدا ».

ولم يبلغ إفراطه الجنسى ولا نفوذه السياسى ذروته إلا بعد قيام الحرب العالمية

الأولى . وسيكتب فى الوقت المناسب الفترة العجيبة المشئومة من تاريخ روسيا التى يمكن أن تسمى عهد راسبوتين . وقد حجبها عن الأعين موت ستوليپن بعض الوقت . وكان صعوده إلى قمة قوته تدريجياً فلم يلحظه أحد . ومع أن ذكره السىء كان على كل لسان فى سنة ١٩١١ إلا أنه لم يكن فى ذلك الحين معدوداً من النكبات القومية . ولو بقى ستوليپن على قيد الحياة فربما لم يكن كذلك. فلم يتأثر رئيس الوزراء ذلك الرجل السليم العقل القوى الشكيمة بما أثر به راسبوتين على غيره من الجنسين . وقد رفض مرة بشىء من الخشونة اقتراحا من القيصر بأن يدعو راسبوتين لعلاج ابنته التى أصيبت من جراء قنبلة ألقيت على والدها سنة ١٩٠٦، وأخيراً عندما طلب مقابلته وحاول تنويمه تنويماً مغناطيسياً لم يوفق . . . وفى سنة ١٩١١ عندما تكاثرت تقارير الشرطة عن تصرفاته الخاطئة وسلوكه الآثم أمر ستوليپن أن ينفيه من العاصمة . ولم يكن القيصر راضياً . وغضبت القيصرة ولكن الأمر لم ينقض ، ونفى راسبوتين . وتصرفه هذا جعل القيصرة بطبيعة الحال من أكبر أعدائه .

ومن المصادفات العجيبة أن راسبوتين ومعه أنا فيروبوفا وصلا إلى كييف عندما حل بها القيصر وستوليپن لحضور حفل رسمى فى نوفمبر ١٩١١ . وبينما كان رئيس الوزراء يخترق شوارع المدينة خلف عربة القيصر قيل إن راسبوتين صاح فجأة بأعلى صوته « الموت وراءه ! الموت يعدو وراءه ! » .

وفى الليلة التالية أصيب ستوليپن بطلق نارى من يد إرهابى فى دار أوبرا المدينة على مرأى من القيصر وابنتيه الكبيرتين. لقد كانت جريمة من أخطر الجرائم السياسية فى التاريخ الحديث — لأنها أزالت العقبة الإلهية الوحيدة من طريق راسبوتين ، ولكنها أمدت بحجة ذات سلاحين المؤرخين الذى يعتقدون أن

القيادة الفردية القديمة الكفاية هي التي تشيد الدور النهائي في التاريخ . وإنه لحق أن تاريخ روسيا — وتاريخ العالم معه — ربما تغير لو طالت حياة ستولپين . ولكن كل الظروف كانت ضد بقائه على قيد الحياة . إن القوى المظلمة التي كانت تسوق روسيا إلى مصيرها الخطر كانت أقوى من أن تقضي عليها رجل واحد ، وقد أفلتت من يدي ستولپين قبل وفاته كل فرصة واتته للقضاء عليها . وكل جهوده للاصلاح كانت تغفل رؤية معظم مناطق الفساد الخطيرة . وفشل ستولپين كان جزءا من قصة الفشل الذي لحق بالدنيا القديمة كلها . وعوامل الفساد الاجتماعي التي كانت سبباً في وفاته — على الأقل بطريق غير مباشر — كانت في الوقت نفسه تهدم أسس المدنية — كما تهدم معها فرص السلام الدائم — في كثير من من أنحاء أوربا .

الفصل العاشر

قتل وفوضى وخداع

إن الدلائل المؤيدة بالمواثيق المكتوبة عن بعض نواحى « الحرب الجافة » — التى تذكرنا « بالحرب الباردة » فى أيامنا — التى سبقت حرب سنة ١٩١٤ قليلة قلة محسوسة ، ولايزال بعضها مطوياً فى الملفات السرية ، وكثير منها لا شك قد أتلف عن عمد ، وأغلب الظن أن جزءا غير يسير منها لم يدون مطلقاً ، ومع ذلك فقد أخذت المعلومات تتجمع شيئاً فشيئاً فى ربع القرن الأخير . وفى ضوء ما شاهده جيلنا الحاضر نستطيع أن نرى أكثر من آبائنا ، وأن نقيم بصدق أكثر مما يمكن أن يعبر عنه بالمنظر الخلفى للحرب الأولى المملوءة بالمؤامرات . وبعض الأحداث البارزة حينذاك ربما بولغ فى تأثيرها بقصد الدعاية ، ولكن الزيادة المطردة فى الجاسوسية والتدمير ، وحوادث العنف السرية والغش العام فى أوربا بين سنتى ١٩٠٠ و١٩١٤ كانت ظاهرة تستوجب الدراسة العميقة . وإنا لعلى علم بالأمثلة القريبة إلى وقتنا الحاضر . عندما يقلد رجال الشرطة الوسائل التى يتبعها المجرمون ، ويتخذ الثوريون مظاهر رجال الشرطة ، فإن هذا يكون من أعراض المدنية المختلة أو المنحلة .

وهذه الأعراض التى كانت عاملا هاماً فى القضاء على نظام الحكم الملكى فى أوربا ظهرت بوضوح قبل سنة ١٩١٤ ، وبشكل سيىء جداً فى بلاد النمسا وروسيا ، وأكثر من هذا فى جهود كل من الإمبراطوريتين المتنافستين لاستغلال كل منهما الحركات الثورية فى الأخرى . والخصومة القائمة بين الإدارتين السريتين فى أسرة هابسبرج ورومانوف لعبت دوراً هاماً فى إيجاد جو موبوء ، ترعرعت فيه

جذور الحرب الأوربية . وعندما وصل الطرفان المتنازعان إلى الدرجة الواضحة التي دفعت كلا منهما إلى مؤامرات البلقان فيه فقد أشعلت فعلا نار الحرب .

وتمدنا فضيحة جاسوسية ظهرت فى النمسا قبيل الحرب بمدة وجيزة بموضوع تاريخى نبدأ به فى سرد الأحداث . نشرت الصحافة النمسوية يوم ٢٩ من مايو سنة ١٩١٣ أن الجنرال ألفرد ردل — وكان يومئذ الرئيس العام للجيش الثامن فى براج — انتحر من خمسة أيام . لقد ضبط — كما اعترفت السلطات باشمئزاز — يبيع أسراراً حربية لدولة أجنبية — اتضح طبعاً أنها روسيا . وزيادة على خطورة هذا الموضوع من وجهة النظر الحربية — كان ردل مأجوراً من روسيا مدة سبع سنوات على الأقل — فقد استهوى رجال الصحافة إلى حد غير مألوف . وقد تصرف هذا الضحية سيىء الحظ وعملاء العدو الذين قاموا برشوته ، وضباط المخابرات الذين اكتشفوا خيانته ، تصرفوا كلهم تصرفا يتفق مع أدق تقاليد الجاسوسية . وقد أكد صدق الرواية لدى الجمهور الأمثلة الكثيرة التى يراها فى الحياة أو على الشاشة . وكانت التفاصيل جميعها كاملة : من القصافة الصغيرة التى توقع أمهر المجرمين — وقد كانت فى قضية ردل مبراة سقطت عفوا فى عربة — إلى الزيارة الليلية التى قام بها بعض الضباط الزملاء ذوى الوجوه المتحجرة ، والمسدس الملقى بإهمال ، والسهر الطويل خارج حجرة نوم الخائن فى انتظار إطلاق النار . وهذا الانتحار الرسمى الذى تم محافظة على الشرف العسكرى أدى إلى القطيعة بين رئيس الهيئة النمسوية كنراد كونرندورف الذى وافق عليه ، ورئيسه السابق الدوق فرانسيس فرديناند ، وكان فرديناند وريث العرش النمسوى له أحطاؤه . ولكنه بوصفه كاثوليكياً متديناً فى عصر تختلط فيه الحقيقة بالخيال هاله أن يرى دولة كاثوليكية شريكة فى جريمة انتحار ، ولما كان ممن يضطلعون بعمل رئيسى بالدولة النمسوية ناله لوم شديد ، عندما اكتشف أن ردل سمح له

بالانتحار قبل الإدلاء بمعلوماته عن نظام الجاسوسية الروسية . وتحت ما تضمنته قضية ردل من مظاهر رومانتيكية كاذبة ، لم تكن قضية منحطة فحسب، بل كانت غير موفقة فى موضوعها سياسياً وأدبياً. ولو لم يكن لهذه القضية أغوار سحيقة لم تكتشف بعد ، لا يسع الإنسان إلا أن يرى ردل فى منزلة عالية من حب الظهور ، كما يراه نسيج وحده فى الدور الذى قام به . وهو فى الواقع لم يكن يمثل الطراز النمسوى أو الفينى للجيل الذى يعيش فيه ، ولكن يبدو أن وراء جريمته حفرة ليس لها قرار من التفاهة ، التى هى أخص أخطاء المجتمع الهابسبرجى فى تلك الأيام . وليس من الممكن أن نقول إن ردل كان أحمق ضعيف الخلق ، إنما يبدوا أنه مثال فريد للفوضى الأخلاقية . وحسبما وصل إليه علمنا لم يكن بطبعه متهماً بالهدم أو بأية نقيصة أخرى . كما لم يكن واقعاً تحت تأثير العواطف أو الدافع القوى الذى يدفعه لخيانة وطنه ، وهذا هدف غامض لدى معظم رعايا فرانسيس يوسف ، أو الحنث بالقسم الذى أداه للامبراطور .

لقد كان مصابا بالشذوذ الجنسى . والروسى الذى جنده أو أوقعه كان نبيلاً روسياً له علاقات كثيرة بالرجال الذين يعشقون (المودة) فى ذلك العهد . ولكن العلاقة المشوبة التى بينهما يبدو أنها لا تزيد على اتفاق فى الاهتمام بلعبة التنس أو جمع طوابع البريد . إنها لم تكن إلا مناسبة للجمع بينهما . وربما كان فى الأمر تهديد بأمر ما لابتزاز بعض المال . ولكن ليس من المحتمل أن يكون الأمر ملزما قبل وقوع أول عمل ينطوى على الخيانة . وكان الجيش النمسوى يتساهل إلى حد ما فى أخطاء ضباطه الخاصة طالما أنها متصلة بالجنس . ومع ذلك فالرذيلة التى ابتلى بها ردل كلفته مالاً كثيراً . كان له خليل من الذكور ضابط فى الجيش حسن الهندام ، ولكنه طائش مبذر أذاع عنه أنه من ذوى قرباه ، وكان سبباً

فى كثرة ديونه . وكان ردل نفسه يحب ركوب السيارات ذات المظهر الجميل وأن يظهر فى مستوى أعلى من حقيقته . وكان أجر الخيانة طيباً . ولكنه لم يخرجه عن الوسط اللائق بالمهمة الموكولة إليه . وكان ردل يتقاضى مرتبا من الروس يظهر أنه لم يكن يتجاوز بضع مئات من الدولارات شهريا — عدا بعض المكافآت — وكانت تسلم إليه بالصورة المزرية التى يرشو بها مقاول عام أحد المهندسين المحليين . وكان مرتبه السرى يرسل إليه فى ظرف كبير فى أوقات محددة إلى أحد صناديق البريد فى فينا ، من قرية معينة على الحدود الروسية ، وكان هذا التصرف من أسباب اكتشاف الجريمة .

وكان هناك خلاف فى مدى أهمية الأسرار التى أفشاها ردل ، ولكنها كانت أسراراً هامة على أبسط تقدير . كان منها وثيقة على مستوى عال من الأسرار الحزبية — كانت تعرف بالخطة الثالثة فى هجوم النمسا الخاطف على الصرب — ومعلومات حربية مفصلة ذات أهمية عظمى ، كالوصف الدقيق لبرزميل ، القلعة النمسوية الكبرى التى فى غاليسيا . وأخيراً وليس آخراً ، ما يهم الروس معرفته عن نظام الجاسوسية النمسوية ، والأنشطة المضادة للجاسوسية .

ولقد كان ردل منذ سنة ١٩٠٠ إلى ما قبيل إلقاء القبض عليه الرئيس النمسوى لمقاومة الجاسوسية ، ومما أداه من الخدمات إلى رؤسائه فى أعماله السرية ، ما كشفه لهم من شخصية الخائن الروسى الكبير — وقد كان من ضباط الهيئة الحربية الروسية — وقد أخذ يبيع معلومات حربية هامة الى الملحق الحربى النمسوى فى وارسو (وقد شجع هذا الروسى رؤساؤه على ارتكاب جريمة الانتحار المشرفة التى ارتكبها ردل فيما بعد) . ولم تذع هذه المعلومات للكافة فى ذلك الوقت ، ولكن الذى عرف بصفة عامة أو كان موضع تخمين ، كان كافياً لزعزعة الثقة العامة فى الحكومة الإمبراطورية ، بل فى الأسرة نفسها .

وفى الوقت نفسه كان دعاة الحرب فى الجيش النمسوى والحكومة النمسوية يرون أن تجسس الروس على النمسا عمل عدائى. ويطالبون بالانتقام الشديد واستبعاد مسألة الصرب فوراً ، لإمكان توجيه الجيش النمسوى بكامل قوته نحو الروسيا إذا حان الوقت المناسب . ولم يكن هذا الإجراء منطقياً من جميع الوجوه . ولكن له مايبرره ، وبخاصة إذا أدركنا وقع فضائح الجاسوسية الكبرى على السياسة الخارجية فى البلاد الأخرى ، كالولايات المتحدة وروسيا السوفييتية . والتجسس أحد جوانب معركة القوى بين الأمم منذ وجودها . وإذا كان محصوراً فى حدود معقولة فإنه لايعكر صفو العلاقات الدولية إلا كما تعكر الدعارة أو الجريمة النظام الأساسى للمجتمع . ولكن إذا خرجت الجريمة أو الدعارة عن النطاق المعقول فإنها تصبح مرضاً اجتماعياً خطيراً، فكذلك الجاسوسية ، إذا ما اتسع نطاقها أو قام القائمون بها متجاهلين التقاليد التى تقضى بها العلاقات الدولية ، فإنها تعد — بحق — نوعاً من الاعتداء . ولذلك كان النشاط الروسى المبنى على خيانة ردل هو قضية من هذا النوع الأخير .

ولربما كان لدى الإدارة السرية الروسية فكرة غامضة عن المسئوليات الهائلة التى جلبتها على نفسها ، باتخاذها رئيس الهيئة السرية النمسوية عميلا لها . لقد عرض الكولونيل باتيوشين القائم برياسة الإدارة الحربية فى روسيا — بسبب الإهمال أو البطء — زميله النمسوى إلى أخطار قاسية وغير ضرورية ، ولكنه احتمل أخطاراً أجسم فى سبيل وقايته . وتقول بعض المصادر المعقولة المعاصرة إن باتيوشين كان يدل ردل بانتظام على كبار الجواسيس الروس الذين كانوا يقومون بالتجسس فى البلاد النمسوية ، ليتمكن من القبض عليهم، فتقوم سيرته على الكفاية المقدرة . وهذه التضحية المتعمدة ببعض المواطنين، لها سوابق فى تاريخ الجاسوسية . ولكن الروس نفذوها فى قضية ردل على نطاق لم يسبق له مثيل ، وبمنتهى القسوة .

وفى القطاع الصغير الهام من الدولة القيصرية الذى تمثله إدارة الكولونيل باتيوشين للجاسوسية الحربية ، يمكن أن يقال دون أدنى مبالغة ، إن إحدى دعامات المدنية الهامة قد انهارت ، وإنه قد حدث رجوع إلى القيم القديمة فى عهود البربرية. وأخطر من هذا أن هذا الانهيار لم يكن مقصوراً على قطاع واحد ، بل شمل كل مايسمى قطاع الشرطة فى روسيا القيصرية ، وكل الأجهزة الدبلوماسية القيصرية التى تتفق مع الشرطة فى الرأى . وهذه البربرية الحكومية تستحق دراسة أعمق . ولكن قد ترينا بوضوح أكثر دراساتنا لما سبق من رجوع المثل العليا القهقرى ، بعد أن استقرت بعد سنة ١٩٠٥ بين الثوريين المعارضين للحكومة القيصرية ، وبخاصة بين من قدر لهم أن يخلفوها آخر الأمر ، ونعنى بهم البلاشفة .

ويرجع اسم « البلشفيك » الى مؤتمر الحزب الديمقراطى الاجتماعى الروسى . (المكون من الماركسيين الثوريين) الذى عقد فى لندن فى سنة ١٩٠٣ . والشعبة التى كان لينين يرأسها — الذى هرب سنة ١٩٠٠ إلى غرب أوربا بعد مدة قضاها فى السجن وفى المنفى فى سيبيريا — كانت تنال الأغلبية (بولشنستفو بالروسية) فى كل أمر كان موضع مناقشة . وخلال المسائل الفنية كانت هناك مسائل أساسية أمام الحزب . . أيسير الحزب وفق الخطوط البرلمانية المألوفة أم يجب أن يكون الحزب جماعة منظمة للقتال تحت قيادة ثوريين محترفين مثل لينين نفسه ؟ . وهل الحزب يعتقد بحق أن الثورة العنيفة هى الطريق الذى لا مفر منه إلى الاشتراكية ، أم يكتفى بمجرد الشقشقة بالمبادئ الاشتراكية كمعظم الاشتراكيين فى الغرب ؟ . وأخيراً هل يقبل مبدأ لينين أم لايقبله — ذلك المبدأ الذى يقضى بأنه عند نجاح الثورة يجب إقامة دكتاتورية الطبقة العاملة المطلقة ، حتى يمكن إقامة القطاع الاشتراكى

وكان بين الماركسيين الروس خلاف فى الرأى . وزاد من حدة الخلاف .

أنه بينما نال لينين أغلبية المندوبين الذين تمكنوا من الوصول إلى لندن ، كان خصومه المنشفيك (الأقلية) يمثلون بلا شك الأغلبية فى الحزب ككل . وكان هناك جماعة ثالثة فى الماركسية الروسية ، وهذه تنتظم الديمقراطيين الاشتراكيين اليهود الذين يدعون « البوند » ، وهذه الجماعة أقرب إلى المنشفيك من البلشفيك فى مبادئهم .

وبعد ثورة سنة ١٩٠٥ اتسعت شقة الخلاف بين البلشفيك والمنشفيك ، عندما أصبحت نظرية لينين فى الثورة بمرور الزمن أكثر صرامة وأشد عنفاً . ولم يكن لينين حسبما كان يجول فى خاطره إلا مطبقا مبادئ الماركسية الصحيحة ، أو كان على الأكثر متوسعاً فيها إلى آخر ما تحتمل تلك المبادئ . وكان فى الواقع يضع أسس فلسفة جديدة ، كان مقدراً لها فيما بعد أن تعرف — بعد أن استبدل بجزء منها عامل غامض قوى — باسم اللينينية . ولكى تفهم هذه الفلسفة يجب أن تدرس شخصية منشئها . ولو أن لينين نفسه سوف ينكر بلا شك هذا بكل إباء .

ولينين من أعظم العجائب البشرية فى جميع العصور ، لا لأنه مجموعة من المتناقضات فحسب ، بل لأن هذه المتناقضات فى أخلاقه امتزجت بحيث تحولت إلى انسجام عجيب فى العمل والفكر . بل لقد كان فى تركيبه البدنى شىء من التناقض . ولقد كان فى نظرات هذا السلافى — الضئيل الجسم، المتين التركيب، برأسه المتكور الأصلع منذ الشباب، وأنفه المنبعجة ، وعظام خديه البارزة التترية ، وعينيه البغية المقلقة ، ولحيته وشاربه القصيرين الحمراوين — ما يدل على الثورى الراجح العقل . ولكن كان فيه كثير من أثر البيئة التى نشأ فيها .

أما ملابس لينين — زهيدة الثمن، القديمة أحياناً، النظيفة دائماً — فتضفى عليه طابع

البورجوازيين. وفى أثناء مدة نفيه — من سن الثلاثين إلى السابعة والأربعين — كان أغلب مايرى فى قبعة عريضة منه فى سترة العامل وقبعته .

ولقد كان لينين فى حياته أو مظهره فى ميونخ أو جنيف أو لندن أو باريس أو زيورخ يشبه البورجوازيين . وكان يقضى أيام الأسبوع فى المكتبة أو التأليف . أما أيام الآحاد فكان يقضيها هو وزوجته نادجدا كونستانتينوفنا كروبسكايا فى التنزه على الدراجات فى الضواحى ، أوسائرين خارج المدينة، يحملان أكياساً خفيفة . وكان يقضى فى بعض الأحيان وقتاً طويلا يلعب الشطرنج فى مقهى مجاور مع أحد الأصدقاء ،ولكنه كان حريصاً على تجنب أمكنة الاجتماع البوهيمية فى مقهى روتوند الشهير ، ومنطقة فنانى الشاطئ الشمالى فى باريس ، حيث كان كثير من المهاجرين الروس يجتمعون ليلا ونهاراً يدخنون ويشربون ويتجادلون جدالا لا ينتهى فى السياسة والفن .

ولم يكن فى حياة لينين الشخصية المستقيمة الجادة إلا هنة عجيبة واحدة ، وكانت بارزة إلى حد بعيد . وهى علاقته بثائرة فرنسية المولد أسمت نفسها إنيسا أرماند (وهناك شىء من الغموض فى أصل هذه المرأة . فالبعض يدعوها إليزابيث بيشو دربنفيل . والبعض يدعوها إنيس ستفان) وكانت إنيسا هذه قد تربت فى روسيا على يد عمة لها ، كانت مربية لدى إحدى العائلات الروسية الغنية . وكانت تصغر لينين بخمس سنوات . وكانت ممشوقة القد جميلة شقراء ، وإن كانت ملامحها تدل على البرود . (وكانت كروبسكايا زوجة لينين بسيطة المظهر، يعوزها تلك الفتنة المعروفة فى أوساط المهاجرين الماركسيين).وكانت إنيسا قد هجرت زوجها ،وهو رجل ميسور الحال من أصحاب الأملاك على قدر من رجاحة التفكير ، بعد أن أنجبت له خمسة أطفال ، وكانت قد انضمت للبلاشفة فى أثناء ثورة ١٩٠٥ وربما قبلها . وقد حكم

عليها بالسجن ونفيت إلى سيبيريا، ثم هربت سنة ١٩٠٩ إلى الغرب، ولا يعرف على وجه التحقيق أول لقاء لها بلينين ، ولكنها منذ سنة ١٩١٠ إلى انتهاء مدة نفيها ظلت داخلة فى إطار حياته . (وقد عادت معه إلى روسيا فى القطار المقفل المشهور، وتوفيت بعد إصابتها بالكوليرا فى القوقاز فى أثناء الحرب الأهلية) وكانت دائمة التردد على مسكنه ، وكثيراً ما رؤيت مع زوجته أو معه فى نزهته أيام الأحد .

وكانت كروبسكايا تعامل إنيسا معاملة الأخت الصغرى . وبعد وفاتها كانت تتجنب ذكرها أو تذكرها فى شىء من الود والمحبة . وكان رأى نينا جورفنكل — التى كتبت موجزاً عن حياة لينين جزء مما جاء فيه مبنى على اتصالاتها ببعض صحابته فى أثناء المنفى — أن إنيسا كانت هدف حبه العظيم .

ولاشك فى أنه كان فى صداقتها عنصر رومانتيكى وروسى قوى ، ففضلا عن مساعدتها له فى مكاتباته الفنية ، خففت ثقل أوقات فراغه بمقطوعات من شوبان وبتهوفن على البيانو، وكان لهما اهتمام مشترك بالأدب ، وكان هذا فى قصة روسية ذات شهرة تسمى « ما العمل » .وقد اختار لينين عنوان القصة ، وهى عن امرأة ثورية تعيش حياتها المتحررة المثالية مع رجلين ولكن فى شرف مع كليهما ، وكانت تشرح لهما مشكلاتها ولا تجد وقتاً تقضيه مع غيرهما ، وحسب رواية مدام جورفنكل قرأ لينين هذا المؤلف الثورى المعبر عن الإحساس الشعبى ما لا يقل عن خمس مرات . ولقد أوحى هذا المؤلف إلى إنيسا تأليف رسالة فى الحب المطلق .

ويظهر بشكل واضح خلق لينين فى رده على خطاب لها خاص بالكتاب الذى كانت تزمع إصداره، إذ لامها بنغمة تنطوى على الغرور كما لو كان يوبخ بعض المارقين من الحزب قال :

(أنت تكتبين « حتى العاطفة قصيرة البقاء أو الارتباط أكثر نقاء وأبلغ شاعرية من القبلات الخالية من الحب بين الأزواج العاديين » . هل هذا التباين منطق حقيقة ؟ ولماذا العاطفة لا الحب ؟ ولماذا قصيرة البقاء ؟ ألم يكن من الأفضل فى هذا الكتيب الشعبى المقارنة بين الزواج العادى الخالى من الحب الذى يتم بين البورجوازيين والفلاحين والمثقفين وبين الزواج المثالى المقرون بالحب الذى يتم بين الطبقة العاملة ؟) .

هذا هو لينين المعروف — الثورى الشديد التعصب . صاحب الدعاية الدقيقة المنظمة . العاقل الذى يفخر فوق كل شىء بأنه من العاملين . ولكن الإنسان يرى وراء ذلك المثالى ، المكبوت الذى يحتقر « العاطفة المجردة فى مقابل الحب » ويتطلع إلى ماهو « باق » لا إلى ماهو « زائل » ، كما يرى فيه الرجل المتدين الذى يعتقد فى مراسيم الزواج المدنى ، كما يعتقد فيما يروقه فى رجل الطبقة العاملة من قدرة على الحب واستحقاق للحب ، وهو صورة القرن العشرين لرجل الطبيعة الذى ابتدعه خيال روسو . وأخيراً نرى ازدراءه للضعف البشرى ، الذى ربما أثاره فى نفسه ذكرى انصراف من يظن بينهم الحرية والإنسانية من الأصدقاء من أسرته ، عندما قبض على أخيه — وهو مادعا لينين إلى أن يتنكر لإنسانيته .

واللينينية — وهى جماع ماللينين من آراء وأعمال — لا الجثة المحنطة من نظرية لينين التى نشرت بعد وفاته — تنقل كل الخلافات التى تدور حول شخصيته إلى المستوى السياسى . لقد زادت حدتها ثم وضعت فى إطارها العملى عندما اتجهت الدعوة الناجمة عن الإرادة البلشفية إلى الحياة البطولية . وكان هؤلاء المفكرون الريفيون قصيرو النظر المنكمشو الأكتاف ، لايقلون نزوعا إلى الخطأ عند تنفيذ أفكارهم عمليا من رجال الطبقة الوسطى المعاصرين ، أمثال روزفلت وتشرشل

أو سسل رودس . ومع هذا فبفضل تكوين أفكارهم على نمط ماركس لم يكونوا مؤمنين بالعمل للعمل نفسه ، بل لعله لأمر أكثر خطراً — كانوا متحمسين للعمل المنتج . لعلهم كانوا معجبين بالعمل إلى حد التقديس .

وكانت المؤامرات فى روسيا القيصرية شرطاً أساسيا لنجاح الأعمال الثورية ، أو هكذا كان البلاشفة يعتقدون . ولكى يكون الإنسان ثورياً محترفاً لابد أن يكون قديراً فى تدبير المؤامرات . وانكب لينين فى عمد وإصرار بل فى غبطة على عمله . وكل خطاباته ومقالاته فى الصحف فيها نصائح فنية فى تحضير واستعمال المداد السرى ، وعمل القنابل ، والانتصار فى حرب الشوارع ، وغير ذلك من الموضوعات المماثلة . وفى أثناء ثورة سنة ١٩٠٥ كاد لينين أن يقضى على الخلاف بين الثوريين والماركسيين فى روسيا ودعاة الإرهاب ، كالثوريين الاشتراكيين والفوضويين . بل إنه أدهش بعض ذوى العقول الممتازة من الإرهابيين بتنظيم عمليات السطو على المصارف ، وبما قام به من عمليات النهب الأخرى — مما سماه نزع الملكية ليحصل على نفقات الحزب .

غير أن مؤتمر الديمقراطيين الاشتراكيين الروس الذى ضم البلشفيك والمنشفيك ، الذى عقد فى استكهلم فى سنة ١٩٠٧ حرم عملية « السطو » بعد ذلك ، ولكنه أخطأ فى السماح للينين أن ينشئ المكتب الفنى الحربى ليتولى الدفاع ضد هجمات فرق اليمين المتطرفة . وعلى أساس هذه الرخصة الممنوحة له أخذ لينين وكثير ممن يثق فيهم من الضباط الذين بقوا فى روسيا — ينظمون عمليات نزع الملكية على مستوى أوسع وأجرأ ، مستعينين بفرق كانت تسمى «البويفيكى» ، وهؤلاء كانوا من الوجهة الرسمية غير تابعين للحزب أو مؤتمرين بأمره . ولتأكيد هذا الاتجاه وجه ما يحصل عليه من مال من هذا الطريق إلى الصرف على تقوية نظام فريقه لا إلى خزينة الحزب .

وهؤلاء البويفيكى الذين قاموا أيضاً بعمليات سطو جريئة فى موسكو وفى العاصمة نفسها، كانوا أكثر نشاطاً فى القوقاز ، حيث كانوا يعملون تحت إشراف أحد أهالى جورجيا البارزين ، الذى كان من قبل أحد رجال الدين، واسمه يوسف فيساريونوفتش جوجاشفيلى ، واسمه الثورى كوبا ، واسمه فيما يصدر عنه من مقالات ستالين . وكان ستالين يشترك أحياناً فى عمليات السطو . كما كان مشتركا فى مؤتمر استكلهم الذى عدهم خارجين على القانون — ولكن القائد الحربى كان شابا من جورجيا قوياً جريئاً أحول ، واسمه بتروسيان كامو ، وكان له دور هام فى الحركة الثورية الروسية .

ودرب كامو فرقة من المحكوم عليهم من المقيمين فى الجبال ، تبلغ عدتهم بضع مئات ، وفقههم — إلى حد ما — فى مبادئ الماركسية . وكان بعضهم غير مرتاحين بعض الشىء إلى الناحية المادية . ولكنهم يستطيعون أن ينجحوا — ونجحوا فعلا — فى عمل كمين للانقضاض على ضحيتهم وعلى إلقاء القنابل . وقام كامو على رأسهم بعدة انقضاضات على القطارات والمصارف ومراكز الشرطة ، وعدة مناوشات على رءوس التلال . وقد قبض عليه عدة مرات واستجوب مع التعذيب الشديد . وحكم عليه مرتين بالشنق ، وأجبر مرة على أن يحفر قبره بيديه. وأفلت مرة من الإعدام بادعاء الجنون ، ونجح فى هذه الخدعة أربع سنوات . وأخيراً هرب من مستشفى الأمراض العقلية للمسجونين فى القوقاز إلى فرنسا .

وكان كامو فى غير وقت العمل الرسمى شخصاً ظريفاً متحمساً ، ينظر إلى لينين نظرة الطالب إلى أستاذه الكبير . وكان لينين وكروبسكايا يقدران حبه لهما . وكان أثيرا لدى والدة كروبسكايا . وعند ما كان لينين مختبئاً فى فنلندا

بعد فشل ثورة سنة ١٩٠٥ . كان كامو يقضى عدة ساعات فى مطبخ السيدة العجوز يأكل اللوز ويفخر بالببغاوات التى استأنسها عند ما كان فى السجن . ثم كان يعلق إلى جسمه جعبة مملوءة بالمسدسات والقنابل ، ويعود فوراً إلى بطرسبرج فى مأمورية سرية . وقصت كروبسكايا كيف أشاع كامو الذعر مرة بين صحابته من المهاجرين، عند ما كان لينين فى فنلندا، بأن مشى أمامهم فى زهو لابساً ملابسه القوقازية ، وحاملا تحت إبطه طرداً مستديراً لم يشك أحد ممن رأوه فى أنه قنبلة . واتضح أنه بطيخة أرسلتها إليه عمته من القوقاز ، وهربها عبر الحدود لإهدائها إلى لينين .

وأشهر ما قام به كامو نهب عربة المسرح فى تفلس ، قام به تحت إشراف ستالين شخصياً فى يونية سنة ١٩٠٧ ، وكان فيها مائة ألف ريال من العملة الروسية ، وكانت تجتاز شوارع المدينة إلى المصرف فى حراسة حرس حربى وعدد من جنود القوزاق . فألقى رجال كامو قنبلة على العربة من سطح أحد المنازل ، ثم هاجموها بالمسدسات والقنابل اليدوية . واستولوا على النقود وهربوا بها وهرب كامو ببعضها إلى برلين .

وقد لاقوا بطبيعة الحال بعض الصعاب فى مبادلة الأوراق المالية التى غنموها ، فقد أصدر الروس منشورات بأرقام الأوراق المسروقة . وقبض على ماكسيم لتفينوف الذى صار فيما بعد مدير العلاقات الخارجية السوفييتية ، وهو يحاول ترويج هذه الأوراق فى باريس . وفكر أحد زملاء لينين — وهو أحد العقول المفكرة وراء عملية النهب — فى إخفاء أرقام الأوراق التى كانت مع كامو .

وللقيام بهذه المهمة ، أو فى محاولة إضافة جريمة التدليس إلى جريمة السرقة للحصول على المال، اشترى بعض الوكلاء البلشفيك بعض الأوراق المرقومة من ألمانيا

واستطاع جواسيس الحزب رشوة الشرطة الألمانية ، فتغاضوا عن الجريمة . ولكن كامو قبض عليه ومعه الأوراق التى نهبها فى تفليس . وبينما كان يتوقع النفى نصحه أحد المحامين الألمان بادعاء الجنون .

وأظهرت تحقيقات الشرطة فى برلين أن البلاشفة استغلوا بطريقة مضللة قاسية زملاءهم البروسيين السليمى النية . والأوراق المعلمة التى أريد بها التدليس صدرت بدون علم الديمقراطيين الألمان إلى صحبتهم فى برلين ، وكانت هناك دلائل على أن كامو كانت لديه نية « الاستيلاء » على مصرف مندلسون فى برلين .

وأخيراً انتهى لينين إلا أن فرقة البويفيكى خرجوا عن طاعته ، ولذلك عمد إلى حل الجماعة . ويبدو أنه أحس أن كراسين يرى أن المؤمرات جزء من برامجه . وفى سنة ١٩٠٩ اختلف الرجلان ، وانقطع كراسين عن مزاولة أعماله الثورية . حتى إذا عاد إلى حظيرة البلاشفة سنة ١٩١٧ ، كان سفيراً لهم فى لندن وباريس .

ورغم قطع صلته بكراسين والقضاء على البويفيكى لم يتخل لينين كلية عن عقيدته ، وهى أن سلب المصارف إجراء قانونى من مستلزمات الثورة .

وفى سنة ١٩١٢ أرسل كامو — الذى هرب من السجن سنة ١٩١١ — فى مهمة سرية إلى البلقان لشراء أسلحة ، ثم دعاه للعودة إلى روسيا لعملية استيلاء جزئية ، ولكنها كانت غير موفقة .واستمر فى استغلال أشخاص عديدين ممن لا وزن لهم ، وكان من بينهم أناس يعرف أنهم يخدمون جهات أخرى .

وكان من مبادئه ما عبر عنه مرة (على ما رواه الكاتب دافيد شوب)

فى قوله « بأن اللجنة المركزية يجب أن تكون مكونة من كتاب موهوبين ومنظمين مقتدرين ، وبعض الأفاقين الأذكياء » .

وهذه القاعدة كانت تنطبق على اللجنة البلشفية المركزية . التى كان عدد الجواسيس فيها لا يقلون عن ستة أشخاص .

وكانت نظرة لينين الساخرة للأمور وقسوته وتصرفاته الدكتاتورية فى إدارة شئون الحزب ، مما عدها الديمقراطيون الروس والديمقراطيون فى الغرب مخالفة للمثل العليا الاشتراكية الحقة . ومما قاله عنه شارل رباپورت الاشتراكى الفرنسى الروسى ، الذى صار فيما بعد أحد مشاهير الصحفيين الشيوعيين « لا يوجد حزب تحت سيطرة هذا القيصر الاشتراكى الديمقراطى ، الذى يعد نفسه الماركسى الأعلى ، وليس هو فى الواقع إلا مغامراً كبيراً . حتى تروتسكى المعجب القديم بلينين الذى نفض يديه من النزاع بين البلشفيك والمنشفيك ، لم يستطع التغاضى عن بعض تصرفات لينين » . ومما كتبه إلى أحد رؤساء المنشفيك « إن صرح اللينينية الآن لا يعتمد إلا على المغالطات ، ويحمل فى ثناياه جراثيم انحلاله » .

ومن العجيب أن الاشتراكيين الأوربيين المعاصرين لم يتناولوا بالنقد مايعد اليوم من أهم تصرفات لينين التى تستوجب المؤاخذة ، وهو سفره من باريس إلى غاليسيا النمسوية سنة ١٩١٢ .

وفى كراكاو — أول بلد نزل فيها هو وكروبسكايا وإنيسا أرماند — وفى پورونين، كان قريباً من الحدود الروسية . وسواء أكان ذلك للاتصال صراحة بممثلى البلشفيك فى روسيا — وكان هذا مباحاً قانوناً منذ سنة ١٩٠٧ — أم لتهريب الدعايات السرية

والتعليمات للجماعات السرية ، فقد كانت غاليسيا قاعدة أفضل من باريس أو من جنيف . وكانت أيضاً أكثر أنحاء أوربا حساسية ، وبخاصة بعد قضية ردل . وكانت هيئة الشرطة وهيئة الجيش فى الدولة الثنائية قويتى المراقبة على كل ما يرد أو يصدر عبر الحدود الروسية . هذا ولو أنهم أقل شكا من الروس ، فإن هؤلاء الحراس للامبراطورية -التى لا تزال تحترم فيها تقاليد مترنيخ - لم يشتهروا لا بعطفهم على الحرية ولا بسذاجتهم وضعفهم .

ولا شك فى أن لينين كان فى حاجة إلى تصريح من السلطات النمسوية قبل أن ينزل غاليسيا هو وزوجه ومساعدوه .

والذى حصل له على التصريح ، صديق من أعجب أصدقائه — ديمقراطى اشتراكى بولندى — متمتع بالجنسية النمسوية . واسمه يعقوب فويرستنبرج ، وهو الذى أدى فيما بعد دوراً هاماً فى حياة لينين .

وكان منطق النمسويين — وهو منطق صحيح — أن السماح للمهاجرين البلاشفة بإقامة قاعدة لهم للعمل — وهو ما لم يتعدوه فعلا — على حدود روسيا ، سيساعدهم فى حربهم الباردة مع روسيا . وتقدير النمسا لمركز غاليسيا الحربى دلت عليه المساعدة التى منحت فريقاً آخر من الثوريين المنفيين من روسيا الذين تلقوا بمعونة بعض أصدقائهم فى هيئة الحرب النمسوية تدريباً فى حرب العصابات فى بعض المعسكرات السرية فى غاليسيا . وكان النمسويون على اتصال كذلك بجماعة الوطنيين السريين فى أوكرانيا . ومهما كان تقدير فائدة البولشفيك ، فقد كان بعيد الاحتمال جداً — على أساس ما نعلمه من عقلية الإدارة النمسوية — أن يكون مسموحاً لهم بالعمل عبر الحدود الروسية إلا تحت رقابة نمسوية متيقظة . وعلى الأقل منع عمليات النهب والاستيلاء من أن تتم عند الحدود . ولعل النمسويين

كانو أيضاً فى حاجة إلى مراقبة الإدارة السرية الروسية حتى لا تدس بعض عملائها بين من يسمح لهم بزيارة لينين من الزوار القانونيين أو السريين .

ولا شك فى أن السلطات النمسوية ربما قامت بمراقبة النشاط الثورى للينين دون علمه . من المحتمل ذلك وإن كان أقرب إلى عدم الاحتمال . وتصوير لينين بأنه من عملاء الإمبراطور فرانسيس يوسف أكثر سخفاً من محاولة تصويره فيما بعد بأنه من عملاء غليوم الثانى ، علماً بأن لينين لم يكن يوماً عميلا لأحد أو لأى شىء إلا ما يحلم به دائماً من القيام بالثورة . وهناك احتمال قوى بأنه فى سبيل تحقيق أحلامه هذه عمل فى الهيئة السرية النمسوية ضد روسيا ، وإلى هذا الحد يحمل لينين قدراً متواضعاً من المسئولية — هو والحكومات المطلقة وتجار الأسلحة — مسئولية الحرب العالمية الأولى .

وكان فى روسيا صحيفة يومية واحدة لها مشترك واحد — هو القيصر . تصدرها وزارة الداخلية . ولم يكن بها إلا أنباء عن نشاط الشرطة السياسية ، والإدارة الجنائية للمسجونين السياسيين . وكان بها كل شىء مهم يعرفه وزير الداخلية نفسه ، ولكن كان عليها رقابة شديدة شأنها شأن سائر الصحف الروسية فى العهد القيصرى . وبعض أنباء الشرطة كانت تعتبر غير لائقة للنشر حتى ولو كانت فى صور مرتبة ليطلع عليها القيصر دون غيره .

وكان يقوم بهذه الرقابة — بطبيعة الحال — رجال الشرطة أنفسهم ، أى ضباط الشرطة السرية السياسية (الأخرانا) ، وكانت التقارير تكتب لوزير الداخلية اسمياً ولكن الأخرانا كانت هيئة مستقلة وكانت إحدى الإدارات السرية الروسية العديدة . فإذا تركنا الإدارات غير الرسمية والإدارات الحربية — مؤقتاً — فإن الإدارة العامة للشرطة التى كانت خاضعة لوزير الداخلية ،

يتبعها بعض الإدارات السرية ، وشرطة البلاط القيصرى المسئولة عن حماية القيصر وأسرته لها فرع سرى هام يستعين بعدد من الجواسيس . وزيادة فى التعقيد كانت الأخرانا — الشرطة السرية السياسية — تتبع نظام اللامركزية ، وكان لها فروع فى كثير من المدن الروسية الكبرى وفى العواصم الأجنبية ، ولكل من هذه الفروع شبكة من المخبرين السريين الخاصة بها .

والأخرانا كانت موجودة — فى شكل ما — منذ عهد القيصر بطرس الأكبر . ولكن اتساع رقعة أعمالها بدأ بعد مقتل اسكندر الثانى فى عام ١٨٨١ ومنذ سنة ١٩٠٥ أخذت تتسع اتساعاً هائلا . وما حلت سنة ١٩١٤ حتى قيل إنها تستخدم ٢٠٫٠٠٠ ضابط وعميل، وكانت ميزانيتها حوالى مليونى ريال سنوياً خصص بعضها للصحافة والدعاية . وكان لها — إذا لزم الأمر — أن تصرف على ميزانية سرية تبلغ خمسة ملايين ريال خاضعة لأوامر القيصر الخاصة . وقد تبدو هذه المبالغ قليلة بمعايير الوقت الحاضر ، ولكنها كانت فى الواقع مبالغ طائلة فى مجتمع يبلغ مرتب الموظف فى المخابرات السرية ١٥ ريالا فقط فى الشهر .

وحاولت الأخرانا — كسائر إدارات الشرطة السياسية السرية فى أوربا فى ذلك الوقت ، كإدارة الأمن الفرنسية العامة مثلا — أن يكون لها مخبرون سريون فى مختلف المنظمات الثورية . وكانت منفردة فى اتساع مدى نشاطها وفى تشجيع مخبريها على أن يكون لهم دور هام فى الجماعات التى يتغلغلون فيها ، ولو أدى ذلك بهم إلى الخروج على القانون .

وقد ذكر الجنرال جراسيموف — وكان أحد رؤساء الأخرانا السابقين من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٠٩ — أنه لم يكن لديه يوماً ما أقل من ١٢٠ عميلا سرياً فى المنظمات الثورية اليسارية . وأضاف فى شىء من المكر السيىء أن معظمهم

لا يزالون يعملون فى الحكومة السوفيتية . وكان من أهم رجال الأخرانا السريين أحد عمال المعادن وأحد منظمى العمال ويدعى رومان مالينوفسكى ، كان جاسوساً أولا على المنشفيك ، ثم انضم بموافقة الشرطة إلى البلاشفة ، وسرعان ما احتضنه لينين . وكانت سيرته فى الحزب ملفتة للنظر ، كان أحد الشياطين الأذكياء فى اللجنة البلشفية المركزية ، وأخذ يرقى حتى صار زعيم البلاشفة فى البرلمان الإمبراطورى ، ويقال إن الأخرانا سهلت انتخابه نائباً بأن قبضت على كبار منافسيه . وعينه لينين مديراً لبطرسبرج ومحرراً لصحيفة برافدا البلشفية ، وكان يعرض على لينين وعلى رؤسائه فى الأخرانا نسخا منها دلالة على الولاء والإخلاص .

وبمعونة مالينوفسكى كان لدى الأخرانا أنباء هامة عن خطط البلاشفة الثورية ونشاطهم ، ولكن رغم أنها كانت تقبض من حين إلى آخر على بعض منظمى حزب البلاشفة السريين ، فإنها لم تستعن بمعلوماتها الخاصة على إضعاف الحزب . بل على النقيض من ذلك عملت على تقدمه ، لا لتزيد من نفوذ رجلها مالينوفسكى فحسب ، بل لأنها كانت تعتبر البلاشفة — بحق — أحد عوامل التفرقة فى صفوف الماركسيين الروس . وتقول بعض المصادر إن الأخرانا مكنت لينين — استجابة لاقتراح مالينوفسكى — من الحصول على الأغلبية فى مؤتمر للحزب عقد فى براج سنة ١٩١٢ بالقبض على ثلاثة من خصومه البارزين . والارتباط بين الأخرانا وأعدائها البلشفيين لم يكن عن طريق مالينوفسكى وحده ، بل عن طريق عدد كبير من العملاء الصغار أيضا الذين يلعبون على حبلين ، وكان ارتباطا وثيقاً ، حتى إنه ترك أثراً لا يمحى فى الاتجاهات العملية لدى الهيئتين ؛ فخوف البلاشفة من الجواسيس الذى اشتد بدرجة مريعة فى عهد ستالين كان دون شك بعض ميراث الأخرانا .

ولم تكن علاقة الأخرانا بالجماعات الإرهابية أقل غموضاً من علاقتها

بالديمقراطيين الاشتراكيين . ولقد كان رئيس فرق الاغتيال الثورية الاشتراكية — وهو رجل ملتح ينم مظهره عن الشر واسمه إفنو أزيو — عميل الأخرانا . ولا شك فى أنه قد وضع فى المركز القيادى المناسب ، فما كانت أعظم منظمة إرهابية فى روسيا لتستطيع الشروع فى قتل أحد قبل أن تحصل الأخرانا على تحذير سابق . وكان لهذه الخطة — بلا شك — شىء واحد يؤخذ عليها،وهو أنه إذا لم يسمح لأزيو بعدد معقول من حوادث القتل فإن شهرته المهنية تتزعزع ، ويستبدله الإرهابيون به من هو أقدر منه وأكفأ على القتل . ومن جهة أخرى كان هناك شعور لدى بعض دوائر الشرطة بأن أزيو قد أعطى مجالا أوسع فى سنة ١٩٠٤، عندما أعان على تدبير قتل — من أقامه بعمله — وزير الداخلية بليف . وزاد هذا الشعور عمقاً فى السنة التالية عندما ألقى زملاء أزيو القنابل على عم القيصر الدوق سرجى فى موسكو . ومن الإنصاف القول بأن أزيو كان غير ملوم فى هذه الحادثة المروعة . إذ أنه أبلغ عنها فى الوقت المناسب لمنعها ، ولكن الأخرانا، خشية افتضاح أمر عميل لها — إذا هى كانت صريحة فى التبليغ — أدلت إلى الإدارة المحلية بتحذير غامض لا يفهم منه أى مدلول .

وعندما أبلغ أزيو فيما بعد عن مؤامرة بقتل القيصر نفسه صمم الجنرال جراسيموف أن يتولى الأمر بنفسه خشية وقوع أى خطأ من صاحبه المعروف بكفايته ، والمعروف أيضاً باحتمال وقوعه فى الخطأ .

وقد فشلت المؤامرة بفضل مراقبته الدقيقة دون أن يحدث أى ضرر للقيصر ولا لأزيو . وأخيراً انكشف أمره ، ولكنه لم يقدم للمحاكمة . ولما أصبح الاتهام قوياً أعانته الأخرانا على الهرب خارج البلاد، وبقى فى عزلته الهادئة حتى مات سنة ١٩١٨ .

واستخدام الإرهابيين فى عمليتين متعارضتين عمل يقوم على الخبث والخداع وبخاصة فى روسيا ، حيث المزاج الوطنى يسمح بعلاقات معقدة ومستورة بمهارة بين الولاء المطلق والخيانة التامة . وربما كان فى المنظمات الثورية من عملاء الأخرانا — وأزيو كان واحداً منهم — من لا يعرفون أى الطرفين كانوا يخونونه ، أو يخونونه أكثر . وزادت الشكوك فى هذا المجال بسبب تشعب الفرق التى فى الأخرانا واختلافها فيمن هو أولى بالإبقاء على حياته، إذا كان لا بد من التضحية بشخص للتستر على العميل فى الجمعية الإرهابية. وقد منعت التعليمات الصادرة سنة ١٩٠٧ العملاء من رجال الأخرانا من الاشتراك فى الأعمال الإرهابية دون أن يصرح لهم بذلك رؤساؤهم. لقد أدت هذه التعليمات إلى تقليل الأخطاء التى كانت تحدث ، ولكنها لم تحل نهائياً مشكلات الشرطة الخلقية والعملية، الذين يحاولون حماية الدولة بالتآمر عليها مع أعدائها .

ومساوئ هذا النظام بدت بشكل واضح عند مقتل رئيس الوزراء بيتر ستولبين سنة ١٩١١ ، وقد أصيب على مرأى من القيصر فى أثناء أحد الاحتفالات فى دار الأوبرا فى كييف .

وكان فرع الأخرانا الخاص بهذه المدينة قد بلغه تحذيرا عن مؤامرة لقتل ستولبين من أحد عملائه السابقين — اسمه ديمترى بوجروف — كان على اتصال بالدوائر الثورية ، ولم تر الأخرانا القبض على الإرهابيين الذى عينهم بوجروف أملا منهم فى أن يقفوا منه على تفاصيل خطتهم . وأحالت التحذير إلى وزارة الداخلية التى أمرت باتخاذ احتياطات شديدة فى قوى الأمن لوقاية القيصر وكبار المسئولين المقرر زيارتهم لكييف .

ووضعت الشرطة نطاقاً من القوة حول دار الأوبرا ، زودتهم بعدد من

المخبرين، وفتشت كل بطاقات الدعوة وبطاقات المرور بكل دقة ، حتى لقد بدا أنه أى إرهابى لا يمكن تصور وصوله إلى المبنى ، ولكن بوجروف — الذى سمح له بأن يدلى إلى رئيس الأخرانا المحلى بموجز عن الترتيبات النهائية التى قام بها أصحابه — استل من جيبه مسدساً عندما وقع نظره على رئيس الوزراء وأراده قتيلا .

ومن آن لآخر كانت الأخرانا تنظم تهريب بعض العملاء وكسر السجون لتغطيتهم . ومع أنها كانت تتمسك بأن المبلغين عن الحوادث سلبيون علموا بها عن طريق السماع ، إلا أن المؤكد أن كثيراً منهم كانوا عملاءها بأدق ما يحمل هذا اللفظ من معنى . ومع أن لجنة التحقيق التى باشرت عملها فى عهد كرنسكى لم تجد دليلا ثابتاً على أن الآخرانا هى التى أثارت المظاهرات فى الشوارع وأهاجت الاضطرابات، إلا أن هناك أدلة كثيرة على أنها فعلت ذلك وبخاصة فى ثورة موسكو سنة ١٩٠٥ ، وفى الهياج العنيف الذى حدث فى كرونستاد وفيبرج .

وفى ثورة سنة ١٩٠٥ كانت الأخرانا تعمل باتفاق تام مع اليمينيين المتطرفين المناهضين للارهابيين ، وكان رؤساؤها لا يقرون قتل السياسيين الأحرار الذين لم يوافقوا على فعلهم ، والذى كانت فرق المائة السود اليمينية تقوم به ، ولكنهم تعاونوا معهم فى تنظيم مذابح اليهود بالجملة ، التى كانت أهم سبب لقيام الفرق المتطرفة .

وأظهر مثل على هذا التعاون ـ بل لعله أكبر دليل على الرجعية الأدبية التى أثارتها ثورة سنة ١٩٠٥ ما حدث فى كييف سنة ١٩١١ . فإن المنظمات الوطنية ـ أى المتطرفة ـ اتهمت يهودياً يدعى مندل بيليس بقتل صبى مسيحى للحصول على دمه للقيام ببعض الشعائر الدينية .

ولما كان الدليل على الجريمة الذى قدمه الوطنيون المحليون ضعيفاً ، طلبت

الإدارة المحلية فى كييف مساعدة بطرسبرج ، واهتم وزير العدل ـ شسلوفيتوف ـ شخصياً بالموضوع،فلم يكفه أن بين لسلطة الاتهام أنه يتوقع ثبوت التهمة ، بل عمل على أن ترسل الأخرانا عدداً من العملاء إلى كييف ليساعدوا على جمع أدلة الاتهام، وليعملوا ـ على ما يظهر ـ على التأثير فى المحلفين .

وفى مذكرته إلى القيصر أكد أن المحقق فى كييف وصل إلى علمه من مصدر لا يرقى إليه الشك ما يؤكد ثبوت التهمة على بيليس • وجلبت الأخرانا بمصاريف من خزانتها السرية أحد المتعصبين الدينيين المجهولين من طشقند النائية ليكون شاهداً ماهراً فى المحاكمة ، وكان هذا الشاهد أحد البابوات الأرثوذكس ويدعى برابيتيس،وكان حجة فى التاريخ اليهودى،فقرر فى ثقة فى المحكمة أن القتل لاتدعو إليه كثير من النصوص الدينية السرية فحسب،ولكن العهدالقديم يباركه . ورغم الكلام الذى لا معنى له ، والذى كان على المحلفين أن يستمعوا اله،أو بسبب هذا الكلام أعلن المحلفون أخيراً براءة المتهم .

وفى أحد مجالس التحقيق الذى عقدفى سنة ١٩١٧،عندما اعترف شسلوفيتوف بدوره فى التهمة ، سأل أحد المحلفين وزير العدل السابق سؤالا عميقاً ولكنه فى الموضوع «ألم تدرك أن اتهام بيليس هو فى الوقت نفسه اتهام لعقيدة الملايين من مواطنينا ؟. ألم تلحظ أن هذا الاتهام فضيحة لروسيا لأنها ـ فى القرن العشرين ـ جعلت منه أساسا لمحاكمة جديرة بالقرون الوسطى ؟ »

فأجاب شسلوفيتوف قائلا : « لا » .

ومع ذلك فهذا الحارس على القانون ، المخدوع غير النزيه، لم يكن من الغابات المتعصبين . لقد كان من رجال القانون البارزين، وكان مهذباً ، وكان فيما مضى رجلا متمدينا ، وكما كان قبل سنة ١٩٠٥ من

وعارض بكل شجاعة أكثر من مرة المؤسسة القيصرية التى طبعت أعمال لجنة سنة ١٩١٧ وكتب تعليقاً فطنا عليها .

ويقول عنه ماكلاكوف وهو يعرفه شخصياً « تحول شسلوفيتوف إلى يمينى لما هالته الفوضى المنتشرة فى البلاد،وصمم على أن يهدم تقاليد نظامنا القضائى وأن يخضعه للرقابة السياسية ، لقد أرهب القضاء وصار أكبر هدام للعدالة » .

لقد كانت روسيا منذ نشأتها إلى الآن دولة الشرطة ، ولا شك فى أن الشرطة القيصرية ، السرية منها أو العادية ، كانت مستودع الأعمال والتقاليد البربرية ، تتوارثها الأجيال مع شىء من التهذيب القليل منذ عهد إيفان الرهيب . ومع هذا فلم يكن الذين فتحوا أبواب البربرية على مصاريعها فى روسيا فى القرن العشرين هم قدامى الروس — الحفريات الأدبية المطمورة فى الطبقات المظلمة من الإدارة القيصرية — كما فى سائر الحكومات الاستبدادية المتفككة ، بل هم الرجعيون الذين جعلوا من أنفسهم برابرة أمثال شسلوفيتوف . ولقد رأينا نفس الظاهرة تتكرر مراراً منذ ذلك الحين ، غير مقصورة على البلاد التى تحكمها الأسرات الملكية .

ولم يكن تغلغل الشرطة فى الحكومة الروسية ورجال المخابرات فى الشئون الخارجية أقل منه فى الشئون الداخلية . وكانت الأخرانا نشيطة بصفة خاصة فى باريس التى كانت مركزاً كبيراً لنشاط المهاجرين الثوريين ، وكان كبير العملاء ملحقاً فى العادة بالسفارة الروسية بدرجة مستشار فيها ولم يكن مسئولا أمام السفير ، ولكن كان مسموحاً له بالاتصال برؤسائه عن طريق الحقيبة الدبلوماسية . وكان التعاون قائماً بين الأخرانا وإدارة الأمن الفرنسية فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية ، وقد ساعدت إدارة الأمن أحد أفراد الأخرانا على إقامة منظمة

فرنسية روسية خاصة ـ تحت ستار أنها وكالة سرية خاصة ـ للتجسس على المهاجرين . كما أقامت الأخرانا ـ دون احتجاج من الحكومة الفرنسية ـ فرعاً من المنظمات الروسية « الوطنية » يسمى « جماعة إنقاذ الوطن » ، وكان يعمل متعاوناً مع المتطرفين اليمينيين الفرنسيين .

ولكى تقضى الأخرانا على احتجاج الاشتراكيين والأحرار الفرنسيين على نشاطها فى الأرض الفرنسية ، عمدت إلى رشوة الصحف الفرنسية ورجال الصحافة من أحزاب اليمين، الذين كانوا على استعداد للسير على المنهج الروسى . واستنادا على تقرير عن الأخرانا ظهر فى سنة ١٩١٩ كتبه أحد موظفيها السابقين يدعى أجافونوف أنها أمدت بالمال نادياً للصحافة فى باريس كما دفعت إعانات منتظمة لعدة صحف فرنسية، منها الإكو والجالوا والفيجارو، وقد حصلت الفيجارو شهريا على ما رواه أجافونوف على ٢٤٠٠٠ روبل أى حوالى ١٠٠٠٠ ريال من الأخرانا .

وعندما عين أزفولسكى سفيراً فى باريس عقد اتفاقاً مع الحكومة الفرنسية للتأثير فى الرأى العام الفرنسى ، وهو أمر يعد ذا صبغة رسمية أكثر من أعمال الأخرانا السرية ، ولكنه ليس أبعد منها عن مجال الدس والمؤامرات . وبهذا فتح الروس اعتمادات خاصة من ميزانية القيصر السرية تدفع للحكومة الفرنسية لتقوم بشراء ضمائر الصحفيين الفرنسيين وأقلامهم لصالح الدولتين . وقد أشار خطاب أرسله رئيس وزراء روسيا فى أكتوبر سنة ١٩١٢ إلى زميله رئيس وزراء فرنسا ـ وكان يومئذ هو المسيو بوانكاريه ـ إلى إحدى مزايا الخطة المقترحة : (إنها سوف تكبح جماح « ذوى الشهية والمنافسة » فى الصحافة الفرنسية ، الذين علم الروس من خلال تجاربهم القاسية أنهم كانوا على استعداد لأن يثوروا عندما يتصلون مباشرة بالصحف الأجنبية) .

وكان لهذه الخطة مزية أخرى لم تصرح بها الهيئات الروسية ، ولكن في استطاعة المسيو بوانكاريه أن يستنتجها. وكان إزفولسكي ينظر إلى بوانكاريه ـ الوطني الغيور على مصالح وطنه ـ كأنما هو مبعوث السماء ليكون قطب السياسة الخارجية الروسية في فرنسا . ومما جاء على لسانه تحذيراً لبطرسبرج قبل الإنتخابات الفرنسية في سنة ١٩١٣ «إذا فشل بوانكاريه فإن فشله يكون نكبة علينا» وكان أحد الأغراض السرية للحملة الصحافية التي كانت روسيا ترى تمويلها هو محاربة « عناصر السلام» أو العناصر المعادية لبوانكاريه في الحياة الفرنسية العامة. كتب إزفولسكي مرة لرئيسه في سانت بطرسبرج يقول : « لاتنس أن على بوانكاريه أن يقاوم عناصر قوية جداً في حزبه ، وهم الذين يقفون موقفاً عدائياً في أغلب الأحوال من روسيا . ويدعون في صراحة أن فرنسا يجب ألا تنزلق إلى حرب تشتعل بسبب مشكلات البلقان » . وقد أثرت الدعاية الروسية في مساعدة بوانكاريه في معاركه ضد العناصر القوية في حزبه ، وبالتالي في نجاحه في حياته السياسية ، وكان الأمر يصل إلى أداء رشوة شخصية إليه كأداء الرشوة إلى الصحفيين الذين يأخذون النقود .

ورغم هذه الصلة غير الشريفة فإن بوانكاريه ـ وهو عادة رجل ليس من السهل إرضاؤه — استقبل أحد موظفي الخزانة الروسية وتم الاتفاق بينهما وبين إزفولسكي على أن تدفع روسيا سراً مبلغ ٣٠٠ر٠٠٠ فرنك ذهبا(٦٠ر٠٠٠ ريال)، وعين موظف من وزارة الداخلية الفرنسية ليعمل مع الروس في هذا الشأن، وكان لابد من مرور وقت طويل حتى يتفقوا على تفاصيل العمل . وكان من رأى الموظفين الروس أن زملاءهم الفرنسيين كانوا مسرفين في الأموال الروسية ، حيث اقترحوا منح ٦٠٠ ريال شهريا ولمدة ثلاثة أشهر لمحرري بعض الصحف اليومية غير الواسعة الانتشار ، ممن لهم علاقات قوية ببعض أصحاب أو صاحبات عدد من السياسيين.

الفرنسيين . ولما قامت الحرب البلقانية الأولى فى أكتوبر من سنة ١٩١٢ بلغ من خوف إزفولسكى من نشوب حرب أوربية عامة ، أن ضعفت حماسته ، وألح على أن يعطى الفرنسيون ٢٠٫٠٠٠ ريال دون بحث دقيق فى وجوه صرف هذا المبلغ .

وفى السنة التالية لم توافق سانت بطرسبرج على إرسال ٢٠٠٠٠ ريال أخرى للتغلب على حملة متوقعة من الجناح الأيمن على قانون التجنيد الجديد ، الذى جعل التجنيد ثلاث سنوات ، ولتدعيم الوزارة الفرنسية فى مركزها الحرج . إلا أن إزفولسكى تدخل لتيسير الأمر بأن اقترح ألا تنفق المنحة فى الأغراض الفرنسية المتفق عليها فحسب ، بل ولتدعيم « مصالحنا فى مشكلات البلقان مثلا » .

وعمل إزفولسكى — بطبيعة الحال — بالاشتراك مع من هم على شاكلته من السياسيين الفرنسيين والهيئة الفرنسية العليا ، وعدد من السياسيين الذين يشاركون بوانكاريه وطنيته التى لا تلين . وكان منهم ميلران الذى كان رئيس الجمهورية الفرنسية قبل بوانكاريه ثم وزيراً للحربية ، ودلكاسيه الذى كان وزيراً للبحرية من ١٩١١ — ١٩١٣ . ثم سفيراً لفرنسا فى سان بطرسبرج حتى قبيل الحرب العالمية الأولى .

وكتب إزفولسكى سنة ١٩١٢ « لو وقعت الأزمة — لا قدر الله — فسيتخذ القرار الثلاثة الكبار الأقوياء الذين يترأسون الوزارة : بوانكاريه وميلران ودلكاسين . ومن حسن الحظ أننا سنتعامل مع هؤلاء الثلاثة » .

ورغبة فى التأكد من أن القادة الثلاثة الفرنسيين متمسكون بالموقف المقرر ، لم يكن لدى السفير الروسى أى مانع من استخدام نفوذه — بما فى ذلك النفوذ الذى حظى به بفضل سخاء القيصر والأخرانا — على الصحف كالماتان ، لإضعاف

نفوذ منافسيهم الأقل وطنية أو الأكثر اعتدالا (وكما هى العادة فى مثل هذه المؤامرات لم يكن المتآمرون صريحين مع بعضهم البعض، ولم يكن إزفولسكى واثقاً من پوانكاريه الثقة التى يرتاح لها . وكان فى بعض الأحيان يهمل إبلاغ حلفائه الفرنسيين عن النشاط الروسى فى البلقان، مع أنه كان ذا أهمية حيوية لجميع أعضاء المحالفة).

ولقد نشر السوفييت بعد الثورة ما دعوه بحق الكتاب الأسود لمخابرات إزفولسكى السياسية، وكان المراد من نشره الكشف عن السياسة السرية التى كانت سبباً فى انهيار الدنيا القديمة . ولاشك فى أن التهمة قاسية، ولكن ربما كان تعليلها فى غاية القوة .

لم يكن إزفولسكى يمارس سياسة سرية فى باريس، ولكنه كان يقوم بمؤامرة سياسية . وكانت الوسائل التى يلجأ اليها ، كما كانت الأغراض التى يسعى لتحقيقها كلها شريرة . ولم يكن هو ولا پوانكاريه يتآمران على إشعال نار حرب أوربية ، ولكن نظراً إلى أن علاقاتهما كانت تشكل نوعا من التآمر المستمر الخافى عن الرأى العام وغير الخاضع للاشراف النيابى فى كلتا الدولتين، فقد كان لهذا أثر كبير فى قيام الحرب وتعذر تجنبها بأى حال . وسموم المؤامرات التى تولدت عن الحكم الروسى المتداعى أفسدت العلاقات بين روسيا وحلفائها ، كما أفسدت العلاقات بين الحلفاء أيضاً والمعارضة الثورية فى البلاد . وفضلا عن نتائجها الأدبية السيئة ، فإن هذه المؤامرات والمؤامرات المضادة لها كانت من عوامل انحلال الحكومة فى الدولة القيصرية وتفتيت سلطان الحكومة .

وكما عجز القيصر عن القبض على زمام الأخرانا ، لم تستطع الأخرانا السيطرة على عملائها، ولو أنها كانت مسيطرة على بعضهم ممن كان لينين يظن أنهم رجاله .

وكان الوزير فى سان بطرسبرج ـ المسئول رسمياً عن إدارة الشئون الخارجية الروسية ـ خاضعاً لمرءوسه سفير روسيا فى فرنسا ، ولكن سفارة باريس لم تستطع — ولو من الناحية الشكلية — أن تكون الهيئة المركزية للأعمال الروسية السياسية المنتظمة .

ولربما كانت السياسة القيصرية بما تستعين به من شبكات الجاسوسية والدعاية أقل اهتماما بتحرى الخطأ والصواب من معظم البلاد الأوربية قبل الحرب ، ولكن الخطأ الأكبر كان عدم الاضطلاع بالمسئولية الذى كان يتغلغل — ربما اضطراراً — فى جميع التنظيمات التى يتطلب العمل فيها سلسلة من الأوامر — وبخاصة الأوامر المتعددة . والمؤامرات لا تسمح لليد اليمنى أن ترى ما تفعل اليد اليسرى . وفى بعض الأحايين يكون هذا مفيداً ، ولكن فى أحيان أخرى قد يكون خطراً ، ومثال ذلك عندما تشعل اليد اليسرى عود ثقاب بينما تكون اليد اليمنى ممسكة ببعض المفرقعات . لقد كانت تصرفات روسيا الدبلوماسية وشبه الدبلوماسية فى البلقان بين سنة ١٩٠٩ و ١٩١٤ مثلا رائعاً للوصف المذكور .

والذى وضع سياسة روسيا الحديثة فى الجنوب الشرقى من أوربا كان إزفولسكى قبل مغادرته سان بطرسبرج . ويبدو أنه رأى فيها نوعا من الانتقام السياسى لما أوقعته النمسا وألمانيا من الإذلال لروسيا بعد أزمة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ .

ولم يفقه القيصر ولا سازونوف وزير الخارجية الروسية الجديد — على ما يظهر — ما فى هذه السياسة من روح عدوانية ، ولكن السفير الروسى فى بلغراد — هارتوج — كان — بلا ريب — على علم بها . كان من أنصار الجامعة السلافية ، وقد اختاره إزفولسكى لهذه الوظيفة الجديدة . وقد كان الغرض الظاهر من هذه السياسة هو تحسين العلاقات بين الصرب وبلغاريا وما ينجم عن هذا من استقرار فى البلقان . أما الغرض الحقيقى . على الأقل فى تفكير هارتوج — فكان :

أبسط من هذا ، وقد عبر عنه فى ملحق سرى للمعاهدة الدفاعية التى وقعت بين هاتين الدولتين المتنافستين فى مارس من سنة ١٩١٢، وكان الغرض من هذا الملحق سلخ مقدونيا التركية وتقسيمها بين بلغاريا والصرب . ونص أحد بنودها على أن تحكيم القيصر يجب أن يقبل فى أى خلاف خاص بأملاك الدولتين . وهو إجراء أملاه شىء من بعد النظر بسبب ما هو معروف عن أحوال البلقان .

وعند ماعلم بوانكاريه فى زيارة رسمية له لروسيا فى أغسطس سنة ١٩١٢ بالنص الكامل لهذه المعاهدة وما أضيف اليها من اتفاق حربى ، انفجر قائلا لسازونوف « إن هذه الاتفاقية لا تطابق النص الذى سلم لى . والحق إنه اتفاق على الحرب . وفضلا عن ذلك فإن المعاهدة لا تشمل بذور الحرب ضد تركيا فحسب ، بل ضد النمسا كذلك » .

وأراد سازونوف أن يطمئنه بإبلاغه أن روسيا لها الحق فى منع أى عدوان من جانب حلفاء البلقان، وهى لا تحجم عن تنفيذ ذلك. وبالرغم من ذلك فقد وسعت الصرب وبلغاريا نطاق تحالفهما بضم اليونان والجبل الأسود إلى الحلف ، وذلك على أثر هزيمة تركيا فى الحرب الإيطالية (التى بدأت بالغزو الإيطالى لطرابلس سنة ١٩١١) ، وشنتا الحرب فى سنة ١٩١٢ دون أن تستعمل روسيا حق الفيتو ، ودون أن يبدى بوانكاريه أية علامة من علامات الاستياء .

ولقد كان الرئيس الفرنسى صادق الفراسة فى ناحية ما، ولكنه كان مبالغاً فى الخطر من ناحية أخرى . لقد سببت الحرب البلقانية أزمة أوربية عنيفة وأتاحت لقيصر ألمانيا فرصة لإسماع العالم صليل سيوفه ، وجعلت الموقف العام فى أوربا أخطر منه فى أى وقت آخر . ولكن الحرب التى تسببت عن هذا الموقف لم تكن إلا الحرب الثانية التى اشتعلت فى البلقان . وانتهت الحرب الأولى بهزيمة تركيا وطردها فعلا من أوربا ، ولكن الحلفاء المنتصرين — كما كان متوقعاً — أخذوا

يتنازعون الغنيمة . فأغارت بلغاريا على الصرب واليونان . وأغارت رومانيا ـ التى لم تشترك فى النزاع الأول ـ على بلغاريا، واشتركت تركيا بطبيعة الحال فى الحرب طمعاً فى استرداد بعض خسائرها . وفى نهاية الحرب كانت تركيا قد خسرت فعلا جزءاً كبيراً من أملاكها وكسبت بلغاريا والجبل الأسود ورومانيا، ولاسيما اليونان ـ بعض الأراضى . وزاد سكان الصرب مليون نسمة، ولكن حلمها فى الحصول على ميناء على البحر الأدرياتى تبخر بإصرار النمسا على إنشاء دولة ألبانيا. لقد تغيرت الخريطة البلقانية ولكن الجو السياسى فى البلقان لم يتغير . كل فرد فى البلقان يكره الآخر ولربما يكرهه أكثر من أى وقت مضى .

وكانت أخطر آثار الحروب البلقانية غير مباشرة ، فألمانيا ـ خوفاً من وقوع هجوم جديد على تركيا ينتهى بالقضاء عليها ـ أخذت تتقرب من النمسا ، التى أثارت سياستها فى البلقان شيئاً من القلق . وأرسلت بالاتفاق مع شباب الأتراك قائداً ألمانيا — ليمان فون ساندرز ، لتنظيم الجيش التركى على أسس حديثة . وهذا الإجراء أحنق وأخاف روسيا . فلو أن الجيش الألمانى — فى حالة تغاضى الحكومة التركية الضعيفة — توطد مركزه على ضفاف الدردنيل فلن يكون فى هذا وقوف أمام مطامع روسيا فحسب، بل سيكون فيه تهديد لسلامتها. وفى المجلس الإمبراطورى الذى عقد فى سان بطرسبرج فى ٢١ من فبراير سنة ١٩١٤ كان آخر ما استقر عليه رأى المجلس هو ألا سبيل إلى تحقق أهداف روسيا التاريخية إلا بحرب أوربية عامة ، وهى الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على المضيقين، ومع ذلك — فقد قدر المجلس — أن روسيا لا تكون مستعدة الاستعداد الكافى لأن تشتبك فى حرب كبرى إلا بعد عامين أو ثلاثة. ومع أن هذا التقدير لم يعدل من سياسة روسيا فى البلقان، إلا أنه أدخل فيها جانباً واقعياً، وبخاصة فى بلغراد. ومن الأسف أن هذا لم يكن صحيحاً إلا فى السياسة الروسية الرسمية ، أى سياسة اليد اليمنى .

أما سياسة اليد اليسرى فقد ظلت هوجاء كعادتها — وبخاصة فى بلغراد .

ولقد ظل هارتوج الوزير الروسى يعمل عدة سنين بكلتا يديه ليؤلف بين البلاد البلقانية ضد تركيا ، ولتشجيع الآمال الصربية فى وحدة سلاف الجنوب تحت القيادة الصربية ضد سياسة النمسا . فباليد اليمنى كان يحاول الوصول إلى هذه الأغراض باتصالاته السياسية العادية — بالملك بطرس وولى العهد اسكندر وبالحكومة الصربية. وباليد اليسرى — وبخاصة عن طريق الكولونيل أرتامانوف ملحقه الحربى — كان يمنح معونات مالية وشبه حربية وغير ذلك إلى منظمات خاصة فى الظاهر ، وهى فى الواقع منظمات شبه رسمية لما كان يسمى من باب التعمية المواطنين الصربيين . (وفى نظر النمسويين والترك والبلغار هم أمبرياليون صربيون) .

وكان أخطر هذه الجماعات الثائرة التى يؤيدها الروس فى الصرب جمعية سرية تسمى نفسها الاتحاد أو الموت ، ولكن اسمها الذى اشتهرت به اليد السوداء نظراً لعقليتها وتنظيماتها المبنية على الدس والمؤامرات. وبناء على قانون هذه الجمعية تهدف اليد السوداء إلى وحدة « جميع الصربيين » بما فيهم بطبيعة الحال صربيو مقدونيا التركية ومقدونيا البلغارية والمقيمون منهم فى البوسنة أو فى الدولة الثنائية . ويقتضى نشاطها فى الوطن الضغط الشديد لتهيئة الدوائر الرسمية الصربية والرأى العام الصربى للرسالة الصربية المرموقة، على أساس « بيدمونت سلاف الجنوب » أى أداء الدور الذى لعبته سافوى فى الوحدة الإيطالية بوحدة سلاف الجنوب. وفيما وراء حدود الصرب كانت اليد السوداء تسعى إلى بلوغ أهدافها بالعنف المصحوب بالإرهاب ، مع ازدراء ما كانوا يسمونه الدعاية العقلية . وبمثل هذا المنهج كانت تعمل اليد السوداء على أساس الخطط التى تنطوى على المؤامرات ، ولو أن ولع البلقانيين بالمؤامرات لذاتها كان سبباً لبعض أعمالها المحزنة، وكان الأعضاء يعرف

بعضهم بعضا بأرقامهم، وكانوا يقسمون أغلظ الأيمان على التكتم الشديد وعلى الطاعة العمياء . وكانوا يرعون الطقوس التى استعاروها من الجمعيات الماسونية ومن منظمات الكاربونارى الإيطالية فى القرن التاسع عشر ومن مصادر أخرى . ورغم هذه المظاهر المسرحية كانت اليدالسودا، منظمة جدية ،أعضاؤها رجال من ذوى الحزم والنفوذ، وكانوا شديدىالتعصب، ولكن التعصبالسياسى فى البلقان لم يكن عجيباً أو منتقداً· وكان الجيش ممثلا فى الجمعية تمثيلا قوياً، ولم يكن رئيسها إلا الكولونيل دراجوتين ديمتريشفيك رئيس المخابرات الحربية فى الجيش الصربى . وقد لبثت اليد السوداء حقبة طويلة ملحقاً غير رسمى للجيش الصربى، وإلى درجة أقل كانت ملحقاً أيضاً لإدارة الشئون الخارجية الصربية. وديمتريشفيك — الذى كان يدعى فى ميدان المؤامرات باسم أبيس — كان من عادته أن يخلط بين عمله فى الجيش وعمله فى اليد السوداء بلا اهتمام، حتى لا يعرف زملاؤه ولا أعضاء الجمعية ولا رؤساؤه فى الجيش أى عمل يعمله . وأمكنه بخلط عمله هنا بعمله هناك أن يقوم بأعمال جسيمة لكل من الجهتين دون أن يتعرض للمراقبة من أية واحدة منهما — وكان هذا يروق له كثيراً .

وأبيس — اسم أنسب له وأفضل من اسمه الطويل — كان رجلا عريض الكتفين ضخم العنق كبير الرأس، كث الشارب على نمط ضباط الجيش الصربى فى ذلك العهد . وكان شجاعاً وقد ينقلب إلى وحش ولكنه من نمط ضباط الجيش البيروقراطيين، ويبدو من صورته أنه ليس حاد الذكاء ومن المحتمل أنه كان كذلك . ولكنه كان دؤوبا على العمل وذا شخصية قوية . وكان متفوقاً فى التخطيط للحروب، كما كان ممتازاً فى حرب العصابات وأنواع أخرى غيرها، ولا يبدو عنيه أنه واسع الخيال، كما يبدو أن حماسته الوطنية ذات طابع عادى .

ومما قاله أبيس بعد الحكم عليه بالإعدام فى سنة ١٩١٧ فى تهمة غامضة بالخيانة « إنى أموت بريئاً ومعتقداً أن موتى من أجل الصرب لأسباب أسمى » . وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن لدى أبيس أسباباً خاصة — وهى مناسبة فى رأيه — للاسهام فى تنفيذ حكم الإعدام فيه . ولكن استعماله لهذه العبارة التقليدية فى مثل هذا الوقت العصيب فيه شىء من التظاهر .

ولم يكن لأبيس خارج دائرة عمله أو دائرة أعماله إلا اهتمامات قليلة ، وكانت حياته الخاصة عادية ومعتدلة . ويذكر ابن أخيه أنه محبوب فى الوسط العائلى . وليس فى مسلكه — على ما يبدو — ما يجعله جديراً بالقيام بدور النجم التاريخى الشرير ، ولكن الظروف هى التى جعلت منه الرجل الذى عهدنا .

والسفارة الروسية كانت عاملا هاماً فى هذا المقام . فقبل حرب البلقان ، وفى أثناء اشتعالها — وهى الحرب التى كان لليد السوداء دور هام فيها وهو تنظيم حرب العصابات وراء خطوط العدو — كان الروس يمدون هذه المنظمات بالمعونة المالية والمعونة السياسية ، وكذلك ساعدها اسكندر ولى العهد . ولم يكن الاتصال الوثيق قائماً بين الملحق الحربى الروسى وحده وبين أبيس وقتاً طويلا ، بل كان هذا الاتصال قائماً بين أبيس والسفير هارتويج ، ولا توجد دلالة على أن أموالا روسية وصلت إلى يده ، ولكن الروس كانوا يعدونه صديقهم الخاص ، إن لم يكن أحد عملائهم . ومن الطبيعى أن يعملوا على تقوية نفوذه .

وكان نجاحهم — بما صحبه من أعمال اليد السوداء فى مقدونيا — باهراً وقد زادت حروب البلقان من مقام طبقة ضباط الصرب ، كما زادت من شجاعتهم وإقدامهم . وكان هذا بخاصة شأن من كان ينتمى إلى اليد السوداء منهم وأولهم أبيس .

لقد أصبح أبيس شخصية هامة فى الحياة السياسية الصربية، وبلغ من أهميته

أنه اختلف مع ولى العهد ومع رئيس الحكومة ، وكان خلافه مع ولى العهد -على إحدى الروايات — أن اسكندر لم يغفرله ضنه عليه برياسة اللجنة التنفيذية لليد السودا . واشترك أبيس فى مؤامرة قتل آخر ملوك أسرة أبرينوفتش . وكان حبه للأسرة التى ساعد على ارتقائها العرش غير حماسى (ولوأن محاولة وصفه بأنه جمهورى النزعة أو ثورى ماركسى لم تكن مقنعة). وقد اتهم بأنه كان على وشك القيام بانقلاب ضد الحكومة عند قيام الحرب .

ولهذه الأسباب جميعاً وبسبب الفوضى فى البلقان التى جاءت على أثر الحروب البلقانية ، والتى أخرجته من مسرح الأحداث التى كان يجيدها — أخذ هارتويج ابتداء من سنة ١٩١٤ يصغى إلى النصائح التى كان يتلقاها من سان بطرسبرج والتى قضت عليه أن يبتعد عن أبيس .

ومع ذلك لبث أرتمانوف الملحق الحربى يرى زميله وصديقه الصربى كل يوم تقريباً . ومن الطبيعى أنهما كانا يقومان بعمل سرى مشترك عبر الحدود النمسوية بمعونة سلسلة من مفتشى الجمارك الصربية وحرس الحدود الذين كانوا من عملاء أبيس . وكانت مساهمة أرتمانوف فى المهمة تقتضى دفع ٨٠٠ ريال — وهو مبلغ مغر بالنسبة لمستوى الأحوال فى البلقان — لتمويل الشبكة السرية التى أقامها أبيس فى دولة النمسا والمجر ، وبخاصة فى البوسنة . وكان عملاؤه يتصيدون الأخبار الحربية ، ولكنهم كانوا يعملون كذلك فى الدعاية لأعمال إرهابية — كأن يوزعوا مثلا النشرة الشهرية لليد السوداء التى كانت تسمى بيدمونت . ومما يدعو إلى العجب حقاً — من وجهة نظر دستور اليد السوداء ، أنهم لم يشجعوا الأعمال الإرهابية المحلية . وحسبما كان متبعاً مع شركاء أبيس السابقين كان أرتمانوف على علم تام بالجانب السرى من المشروع . وليس من غير المؤكد أنه كان يبلغ ذلك إلى سان بطرسبرج ، وإلى هارتويج . وعلى كل حال لو أن أى

موظف روسى أبدى دهشته لهذه النار الموضوعة بجانب فتحة برميل البارود البلقانى، لأجاب أرتمانوف أنه ليس إلا جندياً بسيطاً يقوم بواجبه فى جمع المعلومات الحربية المتعلقة بأحد أعداء دولته الأقوياء ، ولا شك فى أن أبيس كان يعيد إليه من وقت إلى آخر بعض التقارير الهامة من وجهة النظر الحربية ، وعند ذلك يستطيع أرتمانوف أن يرسل إلى رؤسائه خرائط للنمسا مؤشراً عليها بالأعلام الروسية والصربية ، مما يدل على التقدم المستمر لإدارة المخابرات الصربية التى كان يعمل على تقدمها .

ومن الآن سنسير فى ميادين ملغمة . إن بعض الجدل القديم الذى دار حول أسباب جريمة سراجيفو قد انتهى عند ما ظهرت للمؤرخين معلومات جديدة فى الموضوع ، ولكن لا يزال هناك شىء من الغموض فى بعض التفصيلات الهامة يكفى لبقاء خلاف فى الرأى .

والرأى القائل بأن الاغتيال كان أصلا مؤامرة محلية نشأت تلقائياً فى عقول برنسيب الشاب وبعض زملائه ، وساعدتها بعض العناصر الوطنية غير المسئولة مساعدة مرتجلة — لا يمكن رفضه رفضاً باتاً . كما لا يرفض الرأى المقابل الذى يتلخص فى أن قتل ولى عهد عرش آل هابسبرج كان موضع دراسة عميقة على مستوى حكومى عال فى بلغراد أو فى سان بطرسبرج ، ولكن أكثر الآراء إقناعاً — على الأقل للصحفى الذى كانت لديه الفرصة للتحرى ودراسة حوادث القتل السياسى التى وقعت فى أوربا فى أوقات لاحقة — هو الرأى الوسط بين الرأيين السابقين المتطرفين، والذى يعتمد على ما انتهى إليه المؤرخ الإيطالى لويجى ألبرتينى بعد دراسة عميقة للوثائق ولآراء الشهود .

وبناء على هذا الرأى يكون أبيس هو الذى دبر مقتل فرانسيس فرديناند

وصوفى هو هنبرج فى سراجيفو. وقد اعترف بهذا هو اعترافاً مطولا سلمه إلى القاضى فى أثناء محاكمته فى سالونيكا (قاعدة الجيش الصربى فى أثناء الحرب). وإذا كان ما نشر بتصريح من الحكومة الصربية فى عام ١٩٥٣ على أنه النص المزعوم للاعتراف يحتوى على أجزاء توهم أنه دعاية من الرئيس تيتو — فإن هذا لا ينفى أن به أجزاء مطابقة للحقيقة. وفضلا عن هذا، فهناك شهادة الكثيرين الذين أدلى إليهم أبيس بأحاديث حول هذا الموضوع.

لقد قال أبيس إلى أحد الضباط الذى كان يصحبه فى العربة إلى المكان الذى تنتظره فيه الفرقة المكلفة بإطلاق النار « يبدو لى الآن كما يجب أن يتضح لك أيضاً أنى اليوم سأقتل بالبنادق الصربية دون غيرها لأنى أنا الذى دبرت جريمة سراجيفو ».

وهناك عدة دلائل مستمدة من الظروف تؤيد هذه الشهادة المباشرة. ومن جهة أخرى توجد دلائل كثيرة تدل — إن لم تكن تقطع — على أنه كان يتصرف دون موافقة الهيئات الصربية العليا، وربما دون أن يدرك أن هذا العمل قد يجر إلى حرب أوربية. ومن المشكوك فيه أنه كان يمتنع حتى لو كان مدركاً نتائج عمله.

إذن ماذا كان الدافع لدبه؟. إن أكبر دافع هو أن أبيس كان يعتقد أن فرانسيس فرديناند عدو خطير لما تهدف إليه اليد السوداء بين وحدة السلاف. فإذا ما ولى العرش بعد عمه العجوز فقد يقوم الإصلاح الذى يقضى على ما يسبب سخط الصربيين والكروات من رعايا الدولة الثنائية الذين يقيمون فى البوسنة وغيرها فلا يرغبون حينئذ فى الانضمام إلى الصرب، فمن المهم إذن أن يموت ولى العهد قبل الإمبراطور العجوز، وكانت زيارته لسراجيفو هى التى هيأت له الفرص لعمل ترتيبات قتله.

والجامعة الصربية — أو اليوغوسلافية الناشئة — كانت جذورها عميقة في البوسنة والهرسك اللتين انضمتا حديثاً . وفى سنة ١٩١٤ بدئ فى مقاومة هذا الشعور فى كرواتيا التى تحكمها المجر . وكان الرأى العام فى الصرب المستقلة يعطف على المضطهدين فى النمسا . ويجب ألا يغيب عن البال كذلك أنه بعد ضم البوسنة إلى النمسا — وهو فى ذاته تحد للشعور الصربى — كانت سياسة إيرنتال فى نظر كثير من الصربيين الوطنيين إهانة موجهة إلى شعورهم الوطنى ، ولم يكن جميع الصربيين أو الصربيين الكروات داخل الدولة الثنائية أو خارجها يحملون الروح العدائية التى كانت لدى أمثال برنسيب أو أبيس ، والتى كانت تدفعهم إلى تحقيق مطامعهم أو الدفاع عن شرفهم أو حماية استقلالهم . وكان من المعقول أن يكون كثير من الصربيين الكروات سواء فى الصرب أو فى النمسا والمجر راضين — ولو مؤقتاً — عن الإصلاح الذى كان فرديناند يحاول القيام به (وإن كان من المشكوك فيه نجاحه فى تنفيذه) .

وعلى هذا فلو كان الرأى الذى أبداه أبيس هو الرأى الصحيح — كما يبدو محتملا — فإن جريمة سراجيفو تتفق مع نمط الجرائم الوطنية السياسية الذى أصبح معروفاً لدينا . لقد كانت هى الجريمة التى تعبر عن سخط الأقلية المتحمسة لتحول دون التوفيق وجمع الكلمة ، حتى تحمل الأكثرية المعتدلة على اعتناق وجهة نظر الفريق المتطرف .

وفوق كل هذا كانت سراجيفو — من حيث فكرتها ، والدافع إليها — أحد نماذج الهيئة السرية التى كان الغرض الأصلى منها محجوباً حتى عن الذين قاموا بتنفيذها . ولم يكن برنسيب وشركاؤه الطلبة إلا ضحايا مثل ضحايا الجريمة أنفسهم ؛ فإن أبيس — الذى أناب عنه أحد الضباط الذين يثق فيهم — لم يقم

بمعونة فريق برنسيب فحسب أو يمدهم بالسلاح أو يوصيهم ، وإنما وجههم إلى العمل الذى طلبه منهم .

وهؤلاء الأولاد ، سواء نظرنا إليهم على أنهم أبطال أو مجرمون ، كانوا من ذوى النية الحسنة، دفعوا أو خدعوا بأحد المثل العليا الوطنية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر . وأبيس الذى كان يشاطرهم مثلهم الأعلى لم يشاركهم فى عملهم ، ولم ينظر إليهم على أنهم أداة أو بيادق فى شطرنج المؤامرة . ربما كانت حماستهم الساذجة لا تفيده فى شىء .وكان يرجو أن يحجب شغفهم بمثلهم العليا ، التخطيط الفنى الذى دبر هذا العمل .

وكان أبيس فى حاجة إلى إخفاء دوره فى هذه الجريمة عن حكومته بخاصة . وهذا هو السبب الذى جعله يستخدم هواة بدلاً من قتلة محترفين ممن هم لا شك تحت تصرفه فى البوسنة . ولقد كانت سراجيفو نتيجة مؤامرة هيئة سرية غير مسئولة ،ولم يكن أبيس فى ملابسه الحربية يوم أرسل فريق برنسيب فى هذه المهمة الخطيرة . بل لم يكن من المؤكد أنه كان يعمل بوصفه عضو اليد السوداء وطبقاً لبعض الروايات ، عندما علمت اللجنة التنفيذية لليد السوداء بالغرض الذى أرسل أبيس جماعة برنسيب من أجله ، أمرته بناء على رأى الأغلبية بأن يستدعيهم (ولو أن أمراً كهذا كان قد صدر فعلا لأهمله أبيس) .

ورئيس الحكومة الصربية — وهو عدو أبيس — علم بمؤامرة القتل من أحد المخبرين السريين الذين أدخلوا فى عضوية اليد السوداء واتخذ فعلا الإجراءات الرسمية لوقف تنفيذها . وأرسلت التعليمات إلى السفير الصربى فى فينا عن طريق البرق لتحذير الحكومة النمسوية . ولم يكن فى التحذير ما يستدل منه على دور اليد السوداء ، أو يشير إلى وقائع تساعد على القبض على القتلة قبل تنفيذ المؤامرة ،

وإلا فقد حكم رئيس الحكومة الصربية والسفير الصربى على نفسيهما بالموت . ومن باب المصادفات أو على أى أساس آخر أفسد السفير الصربى التعليمات الواردة إليه من بلغراد بسبب أسلوب التحذير الغامض . والموظف النمسوى الذى أرسل إليه وهو وزير المالية المسئول عن حكومة البوسنة لم يقدر ما فى التحذير من خطر ، مع أنه وجهه الوجهة الصحيحة ، إلا أن الفوضى الإدارية فى حكومة هابسبرج المنحلة والروتين الحكومى اتفقا مع النظام المتخلف فى الحكومة الصربية الحديثة .

وإن أعمق مشكلة مستعصية على الحل فى سراجيفو هى مقدار نصيب روسيا المباشر فى القتل . هل كان هارتويج الوزير الروسى أو أرتمانوف الملحق الحربى يعلمان مقدماً بالخطة التى كان أبيس يضعها . وهنا يقرر ألبرتينى مؤكداً أنه من غير المحتمل مطلقاً أن هارتويج كان على علم بمؤامرة القتل . أما أرتمانوف فله قصة أخرى ، قصة غريبة جداً ومتناقضة . فإحدى الشهادات تقرر أنه لم يكن يعرف أن أبيس كان يدبر القتل فحسب ، بل طلب موافقة سان بطرسبرج وحصل على هذه الموافقة . وبعد الحرب وبعد الثورة الروسية التقى ألبرتينى — وسعيه لمعرفة أسباب الحرب أشبه بإحدى القصص البوليسية — بأرتمانوف بعد إحالته على الاستيداع فى يوغوسلافيا ، وسأله إن كانت له يد فى إشعال نار الحرب . ولا بد أن هذا اللقاء كان لقاء عجيباً . واعترف أرتمانوف بتعاونه الوثيق مع أبيس ، ولكنه نفى أنه استشير فى القتل ، وقال إنه كان بعيداً عن بلغراد فى أجازة قضاها فى سويسرة وإيطاليا قبل وقوع الجريمة . وتأييداً لهذا القول سجل هذا المؤرخ الإيطالى المدقق يومياته فى يونيه ويوليو سنة ١٩١٤ وليس بها إشارة إلى مأساة سراجيفو ، ولم يكن فيها من إشارة لذلك اليوم

المشئوم – يوم ٢٤ يوليو – إلا العبارة الموجزة « إنذار نمسوى للصرب » ، وبعدها كتبة أرتمانوف، من مصروفاته اليومية « قهوة ٢ ليرة » .

وعاد ألبرتينى من المقابلة غير مقتنع بما قيل له . واقتنع بأن الجنرال ليس حاد الذكاء ، وأنه ليس على خلق عظيم ، وظل مدة لا يفقه معنى لغياب أرتمانوف المستمر من بلغراد بعد الجريمة ، وفى أول المدة العصيبة التى خلقتها هذه الجريمة . والواقع أنه كان غياباً طويلا عجيباً . قد يكون على قيد الحياة من يعلم القصة كلها ، إنه الملحق الحربى الروسى اسكندر ورشوفسكى الذى حل محل أرتمانوف فى أثناء غيابه . ويقول صديق له بولندى يسمى بورزينسكى فى مذكراته التى طبعت فى إيطاليا سنة ١٩٢٦ إن حادث القتل (فى سراجيفو) دبر بمعونة الملحق الحربى الروسى فى بلغراد الكابتن ورشوفسكى . وورشوفسكى هذا عين بعد ذلك وزيراً للحربية فى وزارة كرينسكى . وهو شاب أعرفه معرفة تامة من مدة طويلة ، وقد أخبرنى بكل صراحة عن أصل المؤامرة ووسائل الاستعداد لها وتنفيذها » .

ومن سوء الحظ أن ورشوفسكى لو كان على قيد الحياة اليوم لا يحتمل أن يزيدنا علماً بهذا الموضوع . وآخر ما نعلمه عنه أنه كان يشغل وظيفة كبيرة فى الجيش الأحمر ، وهو نبأ غريب فى حد ذاته .

وآخر ما انتهى إليه ألبرتينى أن أرتمانوف علم بالمؤامرة ولم يعمل شيئاً لمنعها . ولا يعتقد المؤرخ الإيطالى — على خلاف كثير من المصادر — أن أرتمانوف أكد لأبيس أن الصرب لا يمكن أن يعتمد على معونة روسيا الحربية إذا ما أدت هذه الجريمة إلى نشوب الحرب مع النمسا .

أما مسألة إبلاغ أرتمانوف أو ورشوفسكى مشروع القتل لأى فرد فى سان

بطرسبرج فلا تزال موضع بحث ودراسة ، وربما بلغ أحدهما أو كلاهما الموضوع للجنرال سوكملينوف وزير حربية روسيا ، الذى لم ير إبلاغه للقيصر لأسباب لديه . ولعل من تلقى الخبر — لو كان هناك من تلقاه — كان رجلا من غير رجال الحكم ذا شخصية قوية غير رسمية فى روسيا . كأن يكون دوقاً كبيراً من دوقات الحرب ، وقد يكون دوقة منهم كذلك ، وقد يكون قد ضاع بين متاهات الحكومة الروسية الواسعة . كل شىء جائز ، بل من المعقول أيضاً أن أرتمانوف قرر بقاء الموضوع كله سراً بينه وبين صديقه أبيس . إن انهيار روسيا فى عهد أسرة رومانوف أدبياً وإدارياً قد بلغ مداه فى منتصف سنة ١٩١٤ . ليس فقط عندما أمكن اليد اليسرى أن تقوم بأخطر الأعمال دون علم اليد اليمنى ، بل عندما كانت إحدى أصابع اليد اليسرى تجذب وحدها مستقلة عن سائر أصابع اليد ، الزناد الذى أشعل نار الحرب العالمية .

وشبيهاً بهذه الخيانة ، برهن سفاحو سراجيفو ودسائس أزلوفسكى ومؤامرات الأخرانا ، أنه وراء الفراغ المحلى فى السلطة فى الجنوب الشرقى من أوربا — بسبب عجز أو ضعف إمبراطورية آل هابسبرج أو الإمبراطورية العثمانية — فراغ فى المسئولية يخيم على مساحة أوسع . لقد أخذت الحكومة المسئولة تنهار تحت ضغط عوامل العصر الحديث ، كما أخذت المدنيات أيضاً فى الانهيار فى البلاد ذات الحكم المطلق وفى بلدان بعض حليفاتها المتمتعة بشىء من الحكم النيابى . (والحكومات النيابية لم توجد مطلقاً فى البلقان — على الأقل لعدة قرون) . لقد كان الانهيار — فى الواقع — محدوداً ، والرجوع إلى البربرية كان مقصوراً على بضع بلاد ، والتقهقر إلى عهد الفوضى حل فى قطاعات معينة . ولقد ظل الفلاسفة يتفلسفون ، وعمال الرصاص فى أعمالهم دائبون . والقطر على طرقاتها سائرة ، ورسائل البريد إلى أصحابها واصلة ، والضرائب مجلوبة ، والسكارى إلى

السجون مسوقة ، والعاهرات بطاقاتهن بالتصريح ممهورة . إنما شيء واحد هو الذى تأثر ، ذلك هو المركز الرئيسى الذى يقبض على أزمة الأمور فى الدولة .

وكم كان الأمر محزناً — لا بسبب حادثة سراجيفو وحدها — ولكن كما سنرى فيما بعد من فشل السياسة العالمية القديمة فى منع الأزمة التى تولدت عنها . وجرت إلى الحرب الأوربية العامة التى لم يكن أى إنسان راضياً عنها أو راغباً فيها .

الفصل الحادى عشر

فشل السياسة

إذا كان هناك شيء واحد تفوق فيه آل هابسبرج وأمجادوه فهو دفن موتاهم . إن الأسرات الأخرى تستغل حفلات التتويج أو القران أو اليوبيل لتجدد بهاء صورتها العامة وتقوى روح الولاء عند رعيتها . أما آل هابسبرج فقد كان جل اهتمامهم موجهاً نحو الجنازات،وحتى فى الأوقات العادية كانت وفاة أحد أباطرة الأسرة أو أحد أولياء العهد أو أى عضو قريب من أفرادها هى الفرصة المناسبة لاحتفال جنائزى فخم موحش رهيب. لقد هيأت مأساة سراجيفو الفرصة للدولة لاحتفال بأمجادها على مستوى فرعونى عظيم ،وعلى نمط سياسى فريد . ومع أن فرانسيس فرديناند لم يكن يوماً ما محبوباً لدى الشعب، إلا أن موته فى ميدان الشرف من رصاصة قاتل ثورى — ذلك الموت الذى زاد من قسوته اقترانه بموت زوجته وهى بجانبه — قد أيقظ ما خمد من وطنية النمسويين الموالين . وهز ضمائر عدد عديد من بين جماعات الأقلية فى الإمبراطورية، ممن يدينون بالحرية أو تقرير المصير أو القومية السلافية الجنوبية ، ولا يؤمنون بالقتل (لا يزال معظم الشعوب فى بلاد الدنيا القديمة — ما عدا روسيا والبلقان — متأخرة فى هذه الناحية) .

ولم يكن وقع هذه الجريمة على ضمائر الأسر الحاكمة أمراً هيناً ، وهى التى يحكم رباطها نظرية الحق الإلهى . ومنذ عام ١٨٤٨ فقدت الروابط العائلية بين الأسرات الحاكمة فى أوربا وكذلك عناصر الأيديولوجية المشتركة التى يعتنقونها أهميتها كعوامل سياسية ، ولكنها كانت لا تزال مرعية فى سنة ١٩١٤

ولربما كان فى إمكان مترنيخ جديد أن يستغل هذه الموضوعات التى كانت سائدة فى دبلوماسية القرن التاسع عشر ، ليكسب للنمسا تأييداً لرغبتها فى توقيع العقاب على الصرب، نظير اشتراكها فى الجريمة ، وإخماد الأعمال العدوانية التى قد تنجم عن ذلك .

ولربما أعان على السياسة المترنيخية الجديدة إعداد موكب جنائزى رسمى للدوق الشهيد ، يشترك فيه فى فينا اشتراكا جاداً جميع الرءوس المتوجة فى أوربا ، بل ربما على الأقل قد قضى على حالة التوتر التى كانت بين الدول ، التى سببتها حادثة سراجيفو . وربما أعانت بريطانيا أو أية دولة أخرى على إيجاد حل لمنع وقوع الأزمة القادمة .

ومما يؤسف له أن الإمبراطورية ـ رغم ما لديها من الدبلوماسيين الذين يعتنقون مبادئ مترنيخ ـ لم يكن لديها من له مهاراته فى وضع الأمور فى نصابها . بل لم يكن فيها مدير جنائزى ذو كفاية . وإن التناقض والعجز اللذين أوديا بحياة فرديناند ، وبعثا به إلى مقره الأخير تلك الرحلة القميئة الخالية من مظاهر الاحترام ، لم يكن أمراً ينتظره هو وسائر أفراد أسرة هابسبرج العتيدة ، بل لم يكن ينتظره النظام الملكى القديم فى أوربا مع كل مظاهر المدنية التى بنيت على أساسه .

ووصلت رفات فرانسيس فرديناند ودوقة هوهنبرج فينا فى الساعة العاشرة فى الثانى من يوليو ، واستقبل الرفات الدوق تشارلز الوارث الجديد للعرش ، وابن أخى الدوق المقتول ، كما استقبله ضباط الحرس فى فينا الذين شيعوه إلى كنيسة هوفبرج ، حيث وضع صندوقا الميتين الواحد بجوار الآخر . ولكنهما لم يكونا فى مستوى

واحد . وزين صندوق الدوق بما يتناسب مع مقامه ودرجته بتاج ولاية العهد وقبعة القائدوسيفه، ولم يكن على صندوق الدوقة إلا مروحة وقفاز، وهمامن مخلفات العهد الذى كانت فيه وصيفة لإحدى الأميرات .

وفى اليوم التالى سمح للشعب بأن يرى جثمانى القتيلين .

وعند الساعة الثانية عشرة أقفلت الأبواب على عجل ، وبقى الصندوقان فى الكنيسة حتى أقيمت الصلاة الدينية فى الساعة الرابعة على روح الميتين . وقد حضر الإمبراطور الصلاة ، ولكن أحداً من الملوك أو من ممثليهم لم يحضر . ولو أن طاقات الزهور التى أرسلوها أغنت عماقات الإمبراطور والبلاط تقديمه من الزهور فى هذه المناسبة .

ولم يسمح للملوك بالحضور على أساس العذر الرسمى بأن الإمبراطور لا تمكنه صحته إلا من احتمال احتفال قصير . وعندما أراد غليوم الحضور « كصديق » أشير عليه بلباقة أن جماعة من الفوضويين السفاحين يتآمرون على حياته . (وأعلن رسمياً أن عدم حضور قيصر ألمانيا راجع إلى إصابته بمرض اللمباجو) وكان بجوار صندوق الموتى باقة من الورد الأبيض ممهورة بأسماء صوفى وماكسى وإرنست ، ولكن أبناء الزوجين المتوفين لم يحضروا . ولم تدق الأجراس، ولم يسر حملة الشموع وراء النعشين فى الموكب . وكان فرانسيس فرديناند قد أوصى بأن يرقد جثمانه بجوار جثمان زوجته فى قلعتهما على نهر الدانوب عند أرتستتن، لأنه كان يعلم أنه لا يسمح لزوجته صوفى شوتك — أن ترقد بجواره فى مقبرة كابوشين ، حيث ينتظر قدومه فيها ١٣٧ من أعضاء الأسرة العظيمة بما فيهم ولى العهد رودلف الذى انتحر .

وكانت فينا ساخطة على هذا الإجراء الذى لا يليق. وعرف كل الناس صاحب الذنب المسئول عن ذلك : الأمير منتنوفو حامل أختام الإمبراطور (ولم يكن معروفا بين كل الكافة أن الإمبراطور العجوز أقر الخطة التى وضعها منتنوفو). وكان عدم رضاء منتنوفو عن صوفى أقرب إلى الكره - ربما لأنه كان هو نفسه وليد زواج غير متكافئ فى أسرة هابسبرج. فقد كان ابنا لزوجة نابليون الثانية مارى لويز ،التى تزوجت للمرة الثانية بعد انفصالها من زوجها ونفيه إلى إلبا .

ولكنه فشل فى تقديره ، فما إن وصل الموكب إلى العاصمة التى كان يسعى إليها الظلام حتى اندفع ما يزيد على مائة ألف من أبناء الطبقة الأرستقراطية النمسوية والمجرية بملابسهم الرسمية واشتركوا فى الاحتفال .

ولو كان أى فرد من أفراد الحاشية الصغيرة التى رافقت الموتى فى القطار إلى المقر الأخير على علم بما سوف يحل بالعالم بسبب نكبة سيراجيفو، لكانت الرحلة إلى أرتستتن فى نظره حلماً مزعجاً لا يمكن تصوره . فى الساعة الثانية صباحا عند وصول القطار إلى محطة پوشلان الصغيرة حيث ينقل الصندوقان فى القوارب عبر الدانوب، هبت عاصفة شديدة حملت كل إنسان على دخول حجرة الانتظار الصغيرة الرطبة . واشتد البرق الخاطف والرعد القاصف حتى أصبح الليل مزعجاً . وكل من أحسوا بما أرسلته السماء عليهم من خوف بدائى لم يتمكنوا من أن يهربوا منه بشراب أو بسبب، لأنهم كانوا فى جوار الجثتين المبجلتين. وعندما حمل النعشان فى باكورة الصباح الأغبش إلى القارب ، قصف الرعد للمرة الأخيرة، فوثبت الخيل ثم وقعت، وكادت أن تقع عند ذاك مأساة مروعة .

وظلت السياسة النمسوية تتأرجح دون قرار حاسم أكثر من أسبوع بعد مأساة سراجيفو . وأخذت فينا ترغى وتزبد من القلق . وزاد الشعور المعارض

للقومية الصربية ، يقويه مايكتب فى معظم الصحف . وقامت عدة مظاهرات أمام السفارة الصربية حيث رأى الشعب فى تنكيس العلم الصربى شيئاً من الرياء المثير . وعاد فرانسيس يوسف إلى مقره الصيفى فى أشل بعد الجنازة ببضعة أيام ، وبقى فيها لم تحركه الاضطرابات التى فى العاصمة .

سئل ياور الإمبراطور الكونت بار يوم وقوع الجريمة « لاشك فى أن الإمبراطور يعتقد أن جريمة اليوم قد يكون لها نتائج سياسية ؟ » .

وأجاب السيد العظيم « أبدا ... ولماذا ؟ ماهذا إلا أحد الأحداث المؤلمة التى تتكرر وقوعها فى عهد الإمبراطور . لاأظن أنه لاينظر إلى المأساة إلا هذه النظرة » .

ومن المحتمل جداً أن الإمبراطور الذى يتمتع بحضور البديهة ـ رغم موضعه الخطير فى الأيام الأخيرة ـ لم يبحث السياسة العليا مع ياوره الذى كان فى سنه ، والذى كان النوم أحب مايصرف فيه وقت فراغه .

وكان كل من زار الإمبراطور فى الأيام الأولى من يوليو يرى رغم ـ عدم تأثره بموت ابن أخيه ـ أنه كان يشارك فينا الشعور العام بأن الأمور لايمكن أن تظل هكذا . وأسر إلى السفير الألمانى بأنه يرى مستقبلا شديد الظلام . واستناداً إلى كل ما نعلمه من خلق فرانسيس يوسف ، لم يكن له إلا مطمع واحد ، وهو قضاء الأيام الباقية من حياته فى سلام . لم يكن حسن الحظ فيما خاض من الحروب ، وكان فوق هذا رجلا مسناً متعباً . إلا أن الثورة وتفكك الإمبراطورية هما النتيجة الحتمية — فيما يبدو — إذا لم توقع النمسا العقاب على الصرب .

قال الإمبراطور لكبير قواد الجيش الجنرال فراند كنرادفون هوتز ندورف « لو كان مقدراً سقوط الإمبراطورية فليكن سقوطها كريماً » . وكان يحاول

انتزاع أمر من الإمبراطور باتخاذ إجراءات حربية ضد الصرب ، وكان من رأى الإمبراطور - يعضده رئيس وزراء النمسا والمجر - التريث على الأقل حتى تثبت الجريمة على الصرب بصفة قاطعة. (إن موظف وزارة الخارجية صاحب الضمير الحى الذى أوفد ليحقق فى اشتراك الصرب فى الجريمة ، قرر فى الثالث عشر من يوليو فى عبارة سيظل نادما عليها طول حياته « لا يوجد أى شىء يدل — أو فيه أية دلالة على الاتهام — على أن الحكومة الصربية تعرف شيئاً عن الجريمة أو الأعمال التحضيرية لارتكابها أو حيازة أسلحتها » .

ومع هذا، كان الجنرال كنراد يحاول الخروج من هذا المأزق ، وهيأت له الأحداث الفرصة الوحيدة — الأخيرة فيما يعتقد — للقضاء على الصرب ولاسترداد هيبة الإمبراطورية . ولقد فشلت خطته مرتين قبل ذلك . إلا أنه قال إن خطة سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ كانت مكشوفة . أما فى سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ « كانت الظروف فى صالحنا . إننا نقامر اليوم » ولكن لابد من المقامرة ، إذ إن الوقت كان يعمل فى غير صالح الإمبراطورية .

وكان كنراد - رجل الحرب الصريح - فى مقدمة رجال الحرب النمسويين ، كما كان أقوى الشخصيات فى الإمبراطورية . وأكبر شريك له ليوبولد برشتولد (بولدى عند أصحابه) أزهد الناس فى الحروب ، وكان أرستقراطياً مالكاً لخيل السباق، عالما بمحاسن النساء مدنياً، حائزاً للصفات الساحرة، يجمع بين الغرور والمظاهر الخلابة ، وكثيراً ما صوره المصورون المعاصرون فى قبعته الحريرية العالية . وكانت ضآلة تفكيره وضعف خلقه أخطر على العالم مما لسلفه إيرنتال من التواء فى تصرفه . لقد كان صورة مشوهة لعدم كفاية رجل السياسة فى ذلك الوقت . وتعيينه وزير خارجية للنمسا والمجر فى سنة ١٩١٢ كان دليلا — لا يقل فى مدلوله عن خيانة ردل —

على أن إمبراطورية آل هابسبرج كانت فعلا فى أخريات أيامها .

وكان كنراد مصدراً لإزعاج برشتولد عدة سنوات، بما كان يبعث إليه بمذكرات سرية فى موضوع اعتداء الصرب، ولكن بعد حربى البلقان ـ اللتين كانت للنمسا فيهما مكانة غير مشرفة، وتعرض فيهما وزير الخارجية إلى نقد شديد ـ أصبح متفقاً مع كنراد فى الرأى ، مما ارتاح له رجال الحرب الذين كانوا يشغلون وظائف وزارة الخارجية ، والذين كانوا يقلدون جنون بولدى فى شرب القهوة المثلجة ، فى جميع أوقات النهار . هذا وقد قويت عزيمة برشتولد الذى لا يميل للحرب بما وصل إليه من تقارير دلته على أن ألمانيا الحليفة التى كانت تتهرب فى أثناء حروب البلقان غيرت اتجاهها وأصبحت على استعداد للمعاونة .

و بعد حادث القتل بقليل، قال سفير ألمانيا فى فينا الهرتشرشكى إلى موظف نمسوى كبير « إذا قبلتم هذا وأنتم صاغرون فأنتم لا تستحقون . . . » وفضلا عن ذلك قابل أحد الصحفيين الألمان ـ وكان من خطباء مجلس النواب ـ مدير مكتب الكونت برشتولد وتحدث معه كثيراً، مبيناً له أن وزارة الخارجية فى برلين والجيش والبحرية كل أولئك يرون أن فكرة حرب تأديبية ضد روسيا أصبحت مقبولة الآن أكثر منها منذ سنة مضت . وأكد له أن القيصر غليوم ما كان يحجم عن مساعدة النمسا لو أن ما قيل له بالطريقة الصحيحة ، وأنه سيسير هذه المرة « إلى آخر شوط فى مدى الحرب » .

وكان فرانسيس يوسف أيضاً فى حاجة لأن يكون الحديث إليه بالطريقة الصحيحة . ولكنه كان أبعد عن سهولة الاقتناع بالرأى المعارض من غليوم . . حاول كنراد مرة أن يقنعه بأن حرب الصرب لا مفر منها ، ولما قابله فى الخامس من يوليو وجده فى حالة من الشك مؤثرة فى تفكيره . وقال الرجل العجوز

متسائلا « حسناً ولكن كيف نشن الحرب إذا كان الجميع سوف يهجمون علينا، وبخاصة روسيا ؟ »

فقال كونراد « ولكن أليس لدينا تأكيد من ألمانيا ؟ » .

الإمبراطور منزعجاً وقد بدا الشك فى عينيه «هل أنت واثق من ألمانيا؟» —

وللحصول على جواب لا لبس فيه عن هذا السؤال ، سافر الكونت اسكندر هويوس مدير مكتب برشتولد إلى برلين يحمل مذكرة عن الحالة فى البلقان وخطاباً إلى القيصر ممهوراً بتوقيع الإمبراطور .

وكانت العاصمة الألمانية يوم الأحد الخامس من يوليو بلداً خالياً . كل الناس فى أجازة « لو أن سراجيفو حدثت من شهر مضى فى إبان الموسم الاجتماعى لدى العواصم الأوربية الكبرى . فلربما كانت مباحثات المسئولين فى الحكومات المختلفة ، سواء المتحالفات منها وغير المتحالفات أيسر ، وكانت الفرصة أنسب لحفظ السلام . إن عادة العمل فى المجالات العالية الرسمية التى لا تزال تتأثر بالتقاليد الأرستقراطية فى الراحة والفراغ من العمل ، قد أبطأت كثيراً — ما أسماه المؤرخ الفرنسى دانيل هاليفى — من سرعة التاريخ — الناجمة عن التقدم التكنولوجى والاجتماعى فى القرنين الماضيين ، وأصبحت لا تتناسب مع زيادة تطور الطبقات العاملة ، وكان وزير الخارجية فى الخارج يمضى شهر العسل ، وكان تربتز يستشفى فى سويسرا ، وذهب رئيس الهيئة الحربية للعلاج فى كارلسباد ، وكان المستشار فى الريف ، لكنه عاد فى نفس اليوم .

... تسدام ، وكان يشهد سباق القوارب

فى كيل يوم مأساة سراجيفو ، والأنباء المفجعة بمقتل صاحبه أفسدت جو السباق ، ودعت إلى عودة القيصر إلى العاصمة .

وعندما سمع القيصر أن رسولا خاصاً قدم من فينا يحمل وثائق هامة ، أمر بأن يحمل السفير النمسوى الأوراق إليه فى بوتسدام وأن يبقى للغداء معه .

وجرت المحادثات فى القصر الجديد لآل هوهنزولرن وفق التقاليد الكلاسيكية فى الدبلوماسية غير الرسمية سهلة ولطيفة ، وأخيراً مميتة .

وبينما كان القيصر يستعد للسفر فى اليوم التالى فى رحلته الصيفية السنوية فى البحار الشمالية ، استقبل الكونت ماريشى زوجييني فى أدب ينم عن الصداقة مع شيء من التحفظ ، يزيد على ماتعود أن يقابله به . وعندما أخذ يقرأ الرسائل الواردة إليه من فينا ، وكأنها رسائل متعلقة ببعض الأعمال ، حرص على أن يعلق بصوت مسموع بتحفظات على عبارة فى الخطاب الخاص الوارد إليه من ابن عمه الذى جاء فيه . « محو الصرب باعتبارها أحد عوامل القوى فى البلقان » .

فعلق القيصر عليها قائلا « إن هذا يقتضى مضاعفات فى السياسة الأوربية » . وعلى هذا لا يستطيع أن يدلى برد صريح ما لم يستشر مستشاره (بتمان هولفيج) وكان زوجييني رجلا محبوباً ابن العريكة ، كما كان رجلا دبلوماسياً يفهم غليوم ، وعندما كان يحس بما يخيب الرجاء فى موقف غليوم كان حريصاً على أن يخفيه عن أعين الناس .

والغداء — الذى حضرته القيصرة وبعض الأصدقاء — كان أمراً ساراً . وكان الحديث — كما علمنا — يتناول موضوعات عامة ، وكان القيصر لطيفاً ، ويبدو أن ما أكل أو شرب أو قيل كان له تأثير سيء على سياسة التحفظ التى كانت عند القيصر .

وكانت عادة القيصر إذا كان الجو صحواً أن يروح عن ضيوفه ، وأحياناً ينجز بعض أعماله — فى الحديقة . ولذلك رافق السفير النمسوى لشرب الشاى والتدخين فيها . وبينما كانت القيصرة ووصيفتها فى ركن بعيد ، واختفى الضيوف بشكل ما ، جلس الرجلان على أحد مقاعد الإمبراطور واستأنفا حديثهما المشئوم . لقد غير الغداء نظرة القيصر إلى الأشياء . لقد صار أكثر تحمساً وأقل تمسكا بالتقاليد النيابية. ودون أن ينتظر قدوم مستشاره الذى يعلم علم اليقين أن آراءه متفقة مع آرائه ، أكد للسفير — بناء على الرسالة الرسمية التى جاء بها — « أنه إذا وصلت الأمور إلى حد الحرب بين النمسا والمجر وروسيا فنحن واثقون أن ألمانيا التى تحافظ دائماً على الولاء لحليفها ستبقى إلى جانبنا » . ومع أنه لم يذكر فى أية رسالة مما ورد من النمسا شىء عن الإجراءات موضع التفكير التى تتخذ ضد الصرب ، فقد أضاف القيصر نفس العبارة الواردة فى تقرير السفير :

« وقد فهم جيداً أن صاحب الجلالة الإمبراطورية والعظمة الملكية — مع حبه المعروف للسلام — سيجد من الصعوبة الهجوم على الصرب ، ولكن إذا كنا مصممين على وجوب اتخاذ إجراءات حربية ضد الصرب فهو (القيصر) لاشك سوف يحزن إذا لم نستغل الفرصة الحاضرة التى تلائمنا كل الملاءمة » .

وعند الأصيل — عندما طالت الظلال فى البستان — أخذ القيصر يتجول تحت الأشجار مع بتمان هولفيج ، الذى استدعاه من ضيعته ، وأنبأه بما جرى بينه وبين السفير النمسوى من حديث . وإذا كان للمستشار اعتراضات فإنه لم يعلنها ، ولم يكن لدى وزير الحربية ولا رؤساء الجيش ولا وزير البحرية الذى رآه غليوم فى اليوم التالى قبل سفره إلى كيل أى اعتراض .

وقال لرجل البحرية « أنا لا أعتقد فى أية تطورات حربية جدية . إن قيصر

روسيا لن ينضم إلى قاتلى الملوك . فضلا عن أنه لا فرنسا ولا روسيا مستعدة للحرب » ورغبة منه فى ألا يخالق شيئاً من القلق رجا ـ بناء على نصيحة المستشار ـ أن يسافر .

وهكذا بعد أن فرغ من المسائل العادية أقلع فى سفينته ليغيب ثلاثة أسابيع بعيداً عن العاصمة دون أن يستشعر القلق ، حيث علق فى ميزان القدر أرواح عشرة ملايين نسمة لا يعلمون ما يجرى لمد يد المعونة لإعداد حملة تسوية تأديبية لم يسأل عن طبيعتها ، وحاول أن يغمض عينيه حتى لا يرى نتيجتها . لقد تنفست وزارة الخارجية ورجال الجيش الصعداء .

وعندما عاد إلى فينا الـكونت هويوس ومعه الأمر العام الصادر من غليوم ، تنهد فرانسيس يوسف وقال « لن نستطيع بعد الرجوع . إنها ستكون حرباً طاحنة » .

قليل من القادة الأوربيين أو المراقبين لسير الأمور من كان له صدق نبوءته . .

لقد بلغ السفير الإنجليزى فى فينا السير موريس بونسن شدة كره النمسا للصرب ، فى الوقت الذى عاد فيه هويوس من مهمته المميتة . وفى حديث بين بونسن والسفير الروسى جاء « يشك المستر شبوكو إذا كانت العداوة متغلغلة فى صميم الشعب النمسوى » . إن البلاد لا يمكن أن تندفع إلى الحرب ، لأن الحرب « التى تـكون مقصورة عليها وعلى الصرب مستحيلة ، فإن روسيا ستـكون مجبرة على خوض غمار الحرب دفاعا عن الصرب » .

وكتب سير آرثر نيكلسون وكيل الخارجية البريطانية الدائم تعليقاً على الرسالة قال :

« أشك فى أن تتخذ النمسا أى إجراء جدى، وأعتقد أن العاصفة سوف تهدأ . إن مستر شبوكو رجل بعيد النظر، وإنى أقدر كل رأى يبديه » .

ربما كان بونسن سياسياً مظلم العقل ولكن نيكلسن لم يكن كذلك. إن نظام كتابة التقارير الدبلوماسية بما فيها من عموميات مشوشة ، وتجريدات غير واضحة ، وسذاجة فنية واجتماعية ، كان ولا يزال إلى حد كبير يجرى فى القرن العشرين على ما كان يجرى عليه قديما .

وأسوأ من هذا ، أنه نظراً لطول مـدة السلام ، لا يكاد يوجد أحد ممن يقامرون بأرواح جيل كامل له دراية بفظائع الحروب. إن فرانسيس يوسف يذكر ويلات ميدان القتال فى سلفرينو ، ولكن معظم معاصريه فى البلاد الأوربية لا يعرفون المآسى الإنسانية والاجتماعية فى الحروب الحديثة، كما يجهلون معداتها الفنية.

أما الملايين المجهولة الاسم الذين لا يعرفون موعدهم القريب مع الموت ، فلم يسمع لهم صوت فى الأيام الأولى من يوليو . ويبدو أن صدى حادث سراجيفو لم يبق له أثر فى آذان عامة الشعوب فى أوربا . بل كثير من الناس الذين لهم اتصال ببواطن الأمور شاركوا هؤلاء أملهم السعيد .

كتبت مارجوت أسكويث حرم رئيس وزراء بريطانيا فى مذكرات تاريخ ميلادها « إن الموسم اللندنى فى سنة ١٩١٤ خيب آمالى . ولم يكن فيه شىء يسر إليزابيث (ابنتها) ، وكان يهمنى أن تجد قليلا من الهدوء والمرح . وقد بعثت بها وحدها فى الخامس والعشرين من يوليو لتقيم مع المسز جورج كيبل فى البيت الذى حصلوا عليه فى هولندة » وحتى سير جورج بوكانان سفير بريطانيا فى روسيا كتب فى مذكراته «ها قد مضت ستة أسابيع على حادثة سراجيفو ، والمأمول أن تكون النمسا قد تخلت عن فكرة الحملة التأديبية . لقد منحت أجازة وحصلت على تذاكر السفر إلى إنجلترا » .

كانت لندن تختنق من الحر فى ذلك الوقت، وكان قراء الصحف اللاهثون أميل إلى قراءة أخبار السباق منهم إلى قراءة الأخبار السياسية التى تصور يوماً بعد يوم الجانب المظلم من حياة إنجلترا فى ذلك الوقت — المسألة الإيرلندية. وفى باريس كانت الصحف تسلى قراءها بأجمل تسلية ممكنة : « جريمة عاطفية ذات مغزى سياسى » فى أبدع أسلوب لذلك العهد . وكانت بطلتها زوجة وزير المالية السابق جوزيف كايو ، إذ رأت أنه من الضرورى زيارة جاستون كالمت رئيس جريدة الفيجارو الوطنية والقضاء عليه ، لتمنعه من نشر الخطابات التى كتبها زوجها لصديقته — وهو نوع من الكياسة الزوجية التى ضمنت لها البراءة من المحلفين الفرنسيين ذوى المروءة .

وكانت الحكومة الفرنسية ذاتها هائئة بجهلها لما يكتبه القدر ويعده فى هدوء ولكن فى دقة شيطانية ، بين رشفات القهوة فى وزارة الخارجية الألمانية . وفى يوم ١٥ من يوليو سافر المسيو پوانكاريه رئيس جمهورية فرنسا مصحوباً بالرئيس رينيه ڤيفيانى إلى سان بطرسبرج ، ليقوما بزيارة رسمية قاما بإعدادها من قبل . فى هذا الوقت كان الإنذار النمسوى النهائى إلى الصرب ، قد قارب صيغته النهائية ، ولم يكن يعرف إلا قلة من الناس الصيغة النهائية التى سيكتب بها هذا الإنذار . وقد تبين هذا للعالم من الاندفاع الشديد على البيع فى بورصة فينا بعد ١٢ من يوليو ، وربما كان أكثر المضاربات جنوناً تلك التى أجراها فى بورصة باريس بين ١٢ و ١٥ من يوليو أحد المضاربين النمسويين المشهورين .

ويبدو أن إدارات الخارجية الأوربية لم تقرأ الصفحات المالية فى صحفها . وربما لم تقرأ الأخبار العادية كذلك . وإنه لمن غير المعقول مطلقاً ألا يكون أى ملحق فى السفارة الفرنسية أو الإنجليزية أو الروسية فى فينا فى ذلك الوقت

صديقاً لزوجة وزير نمسوى أو رئيس مصلحة أو مدير مكتب لا يكون صديقاً مشتركاً مع أحد كبار الموظفين النمسويين لإحدى المغنيات فى الأوبرا ، كما كان من غير المعقول كذلك ألا تعرف إحدى هؤلاء السيدات ما يجرى حولها،أو أنها من الحرص بحيث لا يتسرب منها شيء من الأنباء .

وعندما أطلقت القنبلة أخيراً فى الثالث والعشرين من يوليو كان الساسة قليلي الدهشة لأن الكاتبة القصصية إلينور جلين وكانت فى ذروة شهرتها ، علقت بمنتهى القسوة على أخلاق السفير النمسوى لخروجه مندفعاً من اجتماع عطلة الأسبوع فى أحد القصور بجوار باريس ، حيث كان بعض الأصدقاء مجتمعين . ويروى أنتونى جلين فى تاريخ ميلاد جدته الممتع أن سائق عربتها عندما نشر اختفاء السفير على أنه دليل على قرب وقوع الحرب « أخذ كل واحد يفتش بلهفة فى الصحف ماذا يعنى السائق ومع أية دولة تقوم الحرب » .

ونظرة إلى الوراء إلى ما كان يحدث خلف الكواليس فى فينا وبلغراد ، بينما كانت سائر البلاد الأوربية مسترسلة فى كسلها العادى ، قد تساعد فى هذا المجال . فمنذ اللحظة التى قرر فيها القيصر تعضيده غير المقيد بأى شرط، صممت حكومة النمسا والمجر أن تقوما بعمل حربى ضد الصرب ، ولم يكن وزراء الإمبراطور وكبار مستشاريه الحربيين متفقين فى الرأى على نوع هذا العمل الحربى . وكان من رأى كنراد الحرب العقلية مع أقل ما يمكن من التحذير للعدو . ولكن الكونت كولومان تزا رئيس وزراء المجر ، العظيم النفوذ الأرستقراطى ، الكث اللحية ، الرفيع فى مستوى معيشته ، الصائب الرأى إلى حد كبير ، كان يخشى أن هذه الخطة قد تدعو إلى دخول روسيا فى الحرب . وكان رأى برشتولد ، وهو الرأى الذى تغلب آخر الأمر — التوفيق بين

سياستين متعارضتين . واقترح ماسبق أن اقترحه السفير الألمانى يوم ١٤ من يوليو إرسال مذكرة للحكومة الصربية فى أسلوب يجعل قبول الصرب لها ضرباً من المستحيل . وفى نفس الوقت ترك الباب مفتوحاً قليلا ليسمح بحل غير الحرب إذا ما أظهرت الصرب فى اللحظة الأخيرة ما يدل على التعقل . وعند العمل على إثارة الصرب يجب أن تبذل كل الجهود لتجنب ما يثير غضب روسيا أو فرنسا . ولهذا رؤى أن يؤجل إنذار النمسا إلى بلغراد إلى أن يعود رئيس جمهورية فرنسا إلى بلاده بعد زيارته لروسيا . ولن يكون هناك فرصة لوجود أخوة حربية « يقسم بها فى ســان بطرسبرج على الغزو بتأثير بوانكاريه وإزفولسكى وكبار الدوقات » .

وقع حادث مؤلم فى بلغراد ربما كان سبباً فى زيادة الخطر الذى ينطوى عليه اقتراح برشتولد . ففى العاشر من يوليو استدعى البارون فلاديمير فون جيزل السفير النمسوى فى بلغراد للمشاورة ثم عاد إلى مقر عمله . وفى الساعة التاسعة مساء وصلته دعوة غير منتظرة من السفير الروسى هارتويج . وقال السفير الروسى إنه جاء لتقديم عزائه بمناسبة « الجريمة الفظيعة » (سراجيفو) وأن لديه مسائل أخرى يود أن يتحدث فيها . ولن نعرف مطلقاً هذه المسائل . وفى الساعة ٩٫٢٠ بينما كان جيزل يفسر موقف النمسا نحو الصرب تفسيراً كاذباً فيه شيء من التهدئة ، سقط هارتويج فجأة على الأرض فاقد الوعى وفارق الحياة ، وعندما فحصه طبيبه بعد ذلك بدقائق ظهر أنه كان يشكو من التهاب من مدة طويلة ، وتلا هذا منظر مؤلم عند وصول لودملا ابنة هارتويج . لقد رفضت بشدة العطف الذى أبداه لها أفراد أسرة جيزل . وأخذت تفتش فى زوايا الحجرة وتشم زجاجة العطور التى كانت فى الحجرة وتحدق فى بعض الزهريات اليابانية الموجودة فيها . لم يدخن والدها إلا لفافتين روسيتين من الطباق ، ولكن ابنته لفت أعقابهما

ووضعتهما فى حقيبتها . وسألت سؤالا لا يخفى ما فيه من اتهام . قالت ألم يأكل أو يشرب والدها شيئاً ؟ وفى حالة التوتر التى كانت سائدة فى الجو حينذاك انتشرت الإشاعة بأن جيزل وضع له السم ، بل اتهمته الإشاعات بأنه جلب معه من فينا كرسياً كهربياً يقتل فى الحال من يجلس عليه .

وكان هارتويج يعرف معرفة تامة اليد السوداء الصربية ووسائل العمل فيها . (ومن عجب أن النمسويين لا يعرفون شيئاً عن هذا الموضوع ، ولو أن السفير الفرنسى كان قد أبرق إلى حكومته عن دور اليد السوداء فى سراجيفو) ومن المعتقد — كما ذكرنا فى فصل سابق — أنه فصم علاقته مع رأس الجماعة الكولونيل أبيس ، وأنه أخذ يضع الفرامل لوقف نشاط القومية الصربية بعد أن كان يشجعها من قبل . لقد كان نفوذه فى الحكومة الصربية عظيما . فلو كانت نظرته إلى المشكلة البلقانية قد تغيرت كثيراً كما يعتقد كثير من المؤرخين ، فإن موته فى هذه اللحظة الحرجة لاشك جناية جسيمة . إن جيزل نفسه يعتقد هذا الاعتقاد . لقد كتب فيما بعد لو أن هارتويج عاش إلى ما بعد « يومى ٢٥ و٢٦ من يوليو الحرجين » لما اشتعلت نار الحرب .

ويبدو — مع ذلك — أن فى هذا شيئاً من المبالغة . إن تعليمات فينا النهائية إلى جيزيل لم تترك له حرية التصرف . فقد جاء فيها أن على السفير النمسوى أن يقوم بزيارة البيت الأصفر (وزارة خارجية الصرب) فى الساعة السادسة مساء ٢٣ من يوليو — حدد اليوم والساعة لضمان وجود بوانكاريه وفيفيانى على ظهر السفينة المتجهة إلى عرض البحر — وأن يسلم مذكرة الدولة الثنائية إلى حكومة الصرب ، سواء أكان رئيس الحكومة بازيك حاضراً أم لا ، وفوق هذا كانت

التعليمات إلى جيزل تقضى بأن الجواب يجب أن يكون قبولا غير مشروط بأى شرط فى الوقت المحدد الذى لا يتجاوز ٤٨ ساعة . ولا يمنح أى تأخير لأى سبب من الأسباب .

وهذا الإنذار النهائى النمسوى إلى الصرب — الذى يعده اللورد جراى وزير الخارجية البريطانية أقوى إنذار وجهته دولة إلى دولة أخرى — وضع بكل دقائقه وبكل كلمة فيه فى وزارة الخارجية النمسوية . وأخيراً أقره مجلس الوزراء المزدوج فى ١٩ من يوليو . ولقد وصف سفير ألمانيا أهم ما كان يشغل الكونت برشتولد فى صراحة تامة فى رسالة له إلى برلين .

« لو قبل الصربيون كل المطالب فلن يكون هذا هو الحل الذى يرضيه (أى يرضى الكونت برشتولد) وهو يقلب فى رأسه المطالب ليختار منها ما يكون قبوله لدى الصرب مستحيلا استحالة تامة » .

وانتهى تفكير برشتولد إلى اختيار عدة شروط سيترتب على قبولها تقييح الدستور الصربى . والنقطتان الخامسة والسادسة بصفة خاصة اللتان تتطلبان اشتراك شرطة النمسا فى تحقيق الجريمة فى الأرض الصربية ، لا يمكن لأية دولة مستقلة قبولها ، حتى إنهما قوبلتا فى البرلمان النمسوى بابتسامات عريضة تدل على الرضا والتشفى . وتقرر نقط أخرى هى أن تستنكر الصرب « الدعاية المغرضة » التى تنطلق من الأراضى الصربية وتوجه إلى رعايا الدولة الثنائية ، ورفض الجمعيات التى تقوم بهذه الدعاية تحت إشراف موظفين نمسويين .

وكانت مملكة الصرب سنة ١٩١٤ تشبه من بعض الوجوه الشعوب نفسها، وآمنت بالاستقلال الرسمى التى تعودناه منذ الحرب العالمية الثانية . وكان عجزها عن مباشرة سيادتها الحقيقية على بعض موظفيها — أبيس مثلا — فى غاية الوضوح .

ولكن مهما نقص الدولة الصربية من مقومات الوحدة الإدارية عوضه الشعب الصربى بمحاولة السير قدماً فى طريق القومية الوطنية . وكانت المذكرة النمسوية ، مما لا يمكن أن يقبلها بنصوصها أى رئيس يحترم نفسه ، وليس من المؤكد — مع ذلك — أن برشتولد عند ما أقر الصيغة النهائية للانذار انضم إلى معسكر من يقول بالحرب مهما كانت الظروف فى فينا ، وربما كان يحول بخاطره بعض الأعمال البهلوانية الخطرة التى لا شبيه لها. ويظن ألبرتينى أنه بإظهار شيء من الصلابة فى القول فى أسلوب غامض ، يستطيع أن يزلزل الأرض تحت أقدام دعاة الحرب من النمسويين الذين يغريهم بها — فى غياب القيصر — قادة الجيوش الألمانية ، ووزارة الخارجية الألمانية . والقيصر الذى كان يجوب البحار الشمالية ، لم يكن واقفاً على ما كان يجرى بين فينا وبرلين ، ولكنه لم ينزعج من الإنذار النمسوى عند ما وصلته أخبار الإنذار ، وهو فى الهوهنزولرن يلعب الورق بعد الغداء ليلة الرابع والعشرين من يوليو . وقال لياوره البحرى الأميرال فون مولر وهو يتمشى على ظهر السفينة صباح اليوم التالى « إنها مؤامرة قوية — أليس كذلك ؟ » .

ولما كان رئيس وزراء الصرب خارج العاصمة مشغولا بالانتخاب فى ٢٣ من يوليو، تسلم وزير المالية الإنذار النهائى من يد البارون جيزل ، وقد لاحظ — فى شيء من الجزع — أن معظم الوزراء خارج العاصمة بسبب الانتخابات ، وأن اجتماع مجلس الوزراء مستحيل فى مثل هذا الوقت المحدد . فأسرع جيزل بالإجابة بأن العصر عصر سكك الحديد والمسرة ، وأنه إذا لم يتم قبول الصرب فى الساعة السادسة من يوم الأحد الخامس والعشرين من يوليو سيغادر بلغراد هو ورجاله .

وبعد ثمان وأربعين ساعة قبل الساعة السادسة ببضع دقائق ، كان رجل طويل

ذو لحية شائكة يتقدم نحو السفارة النمسوية . إنه كان بازيك رئيس وزراء الصرب ، يحمل تحت إبطه مظروفاً فيه رد الحكومة الصربية . ولم تكن الوثيقة أنيقة ، فإن المجلس ظل مجتمعاً دون توقف يغير ويبدل فيها إلى آخر وقت . ونظراً لما كان من إرهاق الكتاب واضطرابهم ، فلم يحسنوا كتابتها على الآلة وأكملوا كتابتها باليد . ولم تكن العادة أن يسلم الرسائل رئيس وزراء أصغر الدول وعلى قدميه مهما بلغ نشاطه : ولكن الحقيقة أن رئيس الوزراء عندما سأل منذ نصف ساعة من يتولى تسليم المذكرة ، أقنعته نظرة الأسى فى وجوه زملائه ، أن عليه هو أن يقوم ، بهذه المهمة وقد سلم الظرف للنمسوى المنتظر ، وقال فى لغة ألمانية ضعيفة « بعض مطالبكم قبلناها . . . وأما ما يختص بالباقى فنحن نضع آمالنا فى إخلاصك ومروءتك بوصفك قائداً نمسوياً » .

وكان جيزل فى الواقع ضابطاً سابقاً فى الجيش ، ويبدو أنه رجل طيب القلب ، ولكن التعليمات لم تترك مجالا لمروءته . والقبول المعلق بشرط أو القبول الجزئى يعتبر رفضاً للانذار . لقد كان يعرف رد الصرب المنتظر قبل قراءته . ووصلت الصرب أنباء مشجعة من سان بطرسبرج فى الصباح الباكر جعلت القادة الصربيين يشعرون أن رفضهم الشروط المذلة لا يعنى حتما الحكم بالموت على دولتهم الصغيرة . وعند المساء غادر بلغراد قطار به مستندات الدولة الهامة وماليتها . وعند ما وصل بازيك إلى المفوضية النمسوية استقبله جيزل بملابس السفر . وكانت كتب الشفرة الخاصة بالمفوضية عبارة عن كومة من الرماد ، وكانت الأمتعة معدة لنقلها فى السيارات المنتظرة .

وبعد ساعة من سفر رئيس الحكومة الصربية ، اجتاز جيزل الحدود هو وزوجته وحاشيته ، يبلغ وزارة الخارجية تليفونياً أنه قطع العلاقات السياسية مع الصرب .

وقبل الساعة السابعة ببضع دقائق من مساء الأحد ذاته ، أبلغت وزارة الحرب فى فينا الأنباء تليفونياً إلى باد إشل حيث يقيم الإمبراطور ، وتلقى الأنباء البارون مارجوتى أحد رجال حاشية الإمبراطور، وقرأها أمام الإمبراطور الذى كان يستمع إليه وهو شارد الذهن .

ثم قال « هكذا بعد كل ما حدث ! » وهو تعبير له معنى قليل وقد يدل على معنى كبير . وبعد أن عثر على منظاره بيد مرتعدة جلس الرجل العجوز إلى مكتبه ليدرس نص الرسالة ، وبينما كان يعبث بيده ويأتى بها حركات لا إرادية ، كأنما يبعد عنه حلماً ثقيلا ، أصاب الإمبراطور بيده حوضاً من الزجاج .

قال مارجوتى فيما بعد « إن هذا الصوت المزعج — كأنما هو صوت شىء قد كسر .. سوف لا أنساه » . ولكن فرانسيس يوسف لم يفقد الأمل ، فقال وهو يتنهد « حسناً . إن قطع العلاقات السياسية لا يعنى نشوب الحرب » . وحين حل المساء أقنعه برشتولد بأن يوقع أمراً بتحرك الجيش (وكانت الصرب قد أمرت بسير جيوشها قبل ذلك) .

وقد أحدث إعلان الإنذار النمسوى وما تلاه من أنباء الخلاف مع الصرب وتحرك الجيشين هزة عنيفة من الرعب فى أوربا، ولكنها لم تسبب الفزع السريع ، فبعض الأوربيين ومنهم فرانسيس يوسف حاولوا إقناع أنفسهم أن الخلاف وتحرك الجيوش لا يعنى الحرب حتما ، ولكن البعض أحسوا أن الحرب واقعة لا شك فيها، غير أنهم توقعوها محصورة فى حدود البلقان — حرباً لا تكاد تشتعل حتى تخمد فى الحال .

والحرب المحلية كانت فى الواقع على كل لسان فى برلين وفينا ، وكلما أسرعت فى نشوبها كانت خيرا كما يقول الخبراء .

قال الهرجوتليب فون ياجو وزير خارجية ألمانيا «كلما كانت النمسا أكثر جرأة وكان أملها فى المعونة أقوى، كان الأمل أقوى فى عدم دخول روسيا الحرب».

واستناداً إلى هذه النظرية، أخذ بتمان هولفيج — وهو سياسى من الوزن الخفيف فى مستوى أعلى قليلا من برشتولد — وياجو والمجلس الحربى الأعلى يحرضون النمسا على الاعتداء قبل تدخل أحد . والتدخل الذى يخشونه كثيراً هو فى الغالب أنباء تدخل سيدهم القيصر . وقد حرصوا على أن تكون أنباء تطور الأزمة التى وصلته على ظهر الهوهنزولرن قليلة ومتأخرة على قدر استطاعتهم . (وهذا دلالة جديدة على مقدار ما تخيله القيصر من وهم فى مسئوليته عن الحرب) ولم يكن لألمانيا مصالح مباشرة فى هذا النزاع بين النمسا والصرب ، وكانت الدوائر الرسمية الألمانية تحاول أن تدفع حلفاء ألمانيا النمسويين إلى الحرب لصالحهم الخاص ولتقوية التحالف . إن إمبراطورية الهابسبرج كانت تنهار بشكل واضح ، ومن رأى وزارة الخارجية أن الانتصار فى ميدان الحرب على الحركة السلافية الجنوبية تحول دون انهيارها ، وأن الوصول إلى هذه النتيجة ليبرر خوض هذه الحرب الأوربية العامة ، وقبول ما تتمخض عنه هذه الحرب .

وإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلا ، وجدنا أن سياسة جماعة الموظفين الألمان غير المسئولين تنطوى على الإجرام — ولكنه إجرام الإهمال وعدم المبالاة أكثر منه إجرام التدمير وسبق الإصرار ، وكان منطق زمرة الحرب أن النمسا إذا واجهت العالم بسياسة الأمر الواقع فى تصرفها الحربى مع الصرب فسيخفف تصرفها هذا من أخطار مضاعفات أوربية .

وقد تحتج روسيا وقد تزمجر فرنسا، ولكن عندما تبين ألمانيا أنها واقفة إلى جوار حليفتها فسيتراجعان كما فعلا من قبل فى سنة ١٩٠٩ . ولو ساءت الظروف فرضاً أكثر من ذلك ، فستبقى إنجلترا على الحياد ، بينما إيطاليا — تبعاً لالتزاماتها فى الحلف الثلاثى — وربما رومانيا المحايدة أيضاً — قد تنضمان إلى دول الوسط .

وقد برهنت الأحداث على أن كل المقدمات التى بنيت عليها سياسة ألمانيا الحربية المحدودة كانت خاطئة ، وكانت النمسا غير قادرة على السبق لتواجه العالم بالأمر الواقع، لأن قواتها كانت غير مستعدة ، وكان من رأى الجنرال كونراد أنه لا يستطيع أن يبدأ الهجوم قبل ١٢ من أغسطس كما طلب ألا تعلن الحرب رسمياً إلا فى ذلك الميعاد (كان برشتولد والألمان يحلمون بهجوم نمسوى خاطف قبل تحرك الجيوش) ، وروسيا — على لسان وزير خارجيتها سازونوف أعلنت فى سان بطرسبرج .

« أن روسيا لا يمكنها أن تسمح للنمسا أن تقضى على الصرب وتصبح هى صاحبة النفوذ فى البلقان » .

والرأى العام الفرنسى أخذ يقف موقفاً جريئاً ، والرأى العام الرومانى أصبح أميل إلى الحياد ، والإيطالى أكثر عزلة وبعداً .

وأسوأ ما فى الأمر أن إنجلترا — ابتداء من الرابع والعشرين من يوليو — أخذت تظهر اهتماماً بالموقف، جعل السفير الألمانى البرنس لخنوفسكى — وهو أحد القلائل الذين أحسنوا التصرف فى أزمة سنة ١٩١٤ — يبلغه بأمانة وسرعة إلى برلين .

والقيصر نفسه بدأ يظهر عليه الاضطراب ، وقلق وزارة الخارجية الألمانية المفاجىء الذى له ما يبرره جعله يقطع رحلته البحرية ، والتقرير الملتوى الذى وصله من المستشار ومافيه من تعليقات وإضافة وحذف ، وما انتهى إليه من أن الموقف السياسى غير واضح، جعل القيصر فى حالة نفسية مضطربة لدى وصوله إلى العاصمة فى السابع والعشرين من يوليو .

ولربما كان هذا يوماً حاسماً فى الأزمة، ففيه وصل نص الرد الصربى على الإنذار النمسوى إلى وزارة الخارجية الألمانية — التى لم تهتم بالسؤال عنه قبل ذلك — بعد ظهر ذلك اليوم ، مع وصف لوقع هذا الرد فى البلاد الأجنبية .

وقد سبب الرد شيئاً من الذهول ، وكذلك كان وقعه فى فينا ، حيث وصفه موظف بوزارة الخارجية الذى كتب بنفسه الإنذار النمسوى بأنه « أعظم مثل للكفاية الدبلوماسية » صادفه فى حياته . لقد قبل الصربيون فى عبارة معقولة ومعتدلة معظم المطالب النمسوية، وأبدوا تحفظات على بعضها، ولم يرفضوا إلا النقطة السادسة التى طلبت اشتراك الشرطة النمسوية فى التحقيق فى الأراضى الصربية . ومثل هذا التصرف الحكيم من جانب الصرب قد يكون له تأثير على القيصر . إذن فيجب ألا يطلع على مذكرة الصرب إلا بعد أطول مدة ممكنة . ولذلك أبطأ مجلس الوزراء فى الحصول على الرد — وقد مضى يومان على إرساله — فى بوتسدام، فلم يطلع عليه القيصر إلا فى صبيحة اليوم التالى — إنه تأخير قاتل .

وحدث تطور آخر هام فى لندن . كانت الحكومة البريطانية بطيئة فى تقدير خطورة الأزمة . فوزير الخارجية السير إدوارد جراى — ذلك الرجل الطويل الصامت الرقيق الإحساس العاكف على الوحدة الريفية — كان بطيئاً فى إدراك المآسى التى تجرها على إنجلترا سحب الحرب التى أخذت تتجمع فى سماء أوربا . وتقارير سفرائه فى القارة غير الوافية لم تحرك له ساكناً . ولم يهتم كثيراً بجعجعة الألمان حول وجوب منع الروس من حرية التصرف . أما الفرنسيون الذين كانت أعذارهم من أجل ارتباطات أكثر دقة ، فقد كانوا منزعجين لما يقرب من عشر سنوات . وكان من الواجب تحمل بهدوء .

ولكن التهديد الذى جد من جراء قطع العلاقات بين النمسا والصرب شىء آخر . ولئن كان من عادة الإنجليز أن يتجنبوا معالجة المشكلات قبل أن تتطلب البت السريع ، فإن حرج الموقف فى البلقان أصبح حقيقة مؤكدة ، والأمر يتطلب سرعة التصرف إذا أريد حفظ السلام . وكان جراى أعظم سياسى أوربى فى ذلك

الوقت يشغله حفظ السلام . ولم يكن من السهل العمل ، وهناك خلاف فى الوزارة والبرلمان على عدم وجود رأى عام مستنير للجهل بحقيقة الموقف ، وجهل الخصوم والحلفاء جميعاً لموقف إنجلترا من هذه الأزمة .

وفى هذه الظروف عمد جراى إلى ماظنه أعظم عمل ممكن تقضى به الشجاعة . لقد استدعى السفير الألمانى كارل لخنوفسكى وتحدث إليه بصراحة عما يقلقه . وطلب رسمياً أن تستخدم ألمانيا مكانتها فى فيينا لتسهل قبول الرد الصربى على الأقل كأساس لمفاوضات مقبلة . وكانت هذه الحادثة ، مضافاً إليها ما أذاعته الصحافة فى نفس اليوم من أن الإجازات ألغيت فى البحرية البريطانية — وهو عمل إيجابى شخصى قام به وزير البحرية ونستن تشرشل — أعظم تحذير صريح يدعو إلى عدم الاعتماد على حياد بريطانيا ، فما كان من لخنوفسكى كأى سياسى حازم يقدر الواجب إلا أن أدرك المغزى وأبرق إلى برلين .

ووصلت رسالة لخنوفسكى إلى وزارة الخارجية الألمانية ، فى نفس الوقت الذى وصلت فيه رسالة من فيينا تنبئ الحكومة الألمانية أن النمسا ستعلن الحرب على الصرب فى اليوم التالى أو فى يوم ٢٩ من يوليو على الأكثر . عند ذلك ارتكب بتمان هولفيج إما خطئاً لا يصدق وإما غشاً لا يصدق كذلك ، على ما يرى ألبرتينى وبعض المؤرخين الآخرين . فبناء على تعليمات من القيصر قدم إلى فيينا مقترحات السير إدوارد جراى الخاصة بمكانة ألمانيا ، ولكنه أغفل من تلقاء نفسه — جزءاً هاماً من الرسالة التى وصلت إليه من السفارة الألمانية فى لندن ، وهى التى تؤكد أهمية التحذير البريطانى ، كما فاته بيان أى تأييد ألمانى للاقتراح . ولم يزد على السؤال عن رأى النمسا فيه . بل لقد سمح لزميله ياجو أن يستدعى السفير النمسوى وينصحه بألا يهتم النمسويون بأية اقتراحات بريطانية ترى برلين

أنها ملزمة بتقديمها . (وما لبث السفير - بطبيعة الحال - أن نقل النصيحة إلى فينا) .

وخطورة محاولة المستشار الألمانى القضاء على اقتراح الوساطة البريطانية خفت حدتها فى اليوم التالى، عند ماوصل القيصر فى نفس الوقت التقرير الخاص بحادثة سفيره مع وزير الخارجية البريطانى ، ونص رد الصرب على الإنذار النمسوى . وكثيراً ما كان يتصرف غليوم دون مبالاة بالمسئولية - ولكنه ليس بالأحمق ولا بالمجنون - لقد أدرك فى غاية السرعة - خيراً من المستشار ووزارة الخارجية - مايهدد حلم الألمان والنمسويين فى قصر الحرب على البلقان بما أبداه البريطانيون من اهتمام بالموقف .

ولما كان غليوم يجهل ثلاثة أيام كاملة الجهد الذى كان يبذله مستشاره ووزارة خارجيته لدفع النمسا إلى إعلان الحرب على الصرب ، وضع منهجاً جديداً للسياسة الألمانية فى تعليقه على المذكرة الصربية :

« عمل باهر فى مدة لا تتجاوز ٤٨ ساعة ! إنه أكثر مما كان منتظراً » . إنه درس أدبى للنمسا حسب رأيه .

« لم يبق سبب للحرب، وكان على جيزل أن يبقى هادئاً فى بلغراد ! وبعد ذلك كان يجب على ألا آمر بالتعبئة » .

إن ذلك يخالف التعليقات الثائرة التى كانت تنص على القضاء على العصابات الصربية ، التى زين بها غليوم الرسائل التى وردت إليه على ظهر الهوهنزولرن . ويقول بيلوف عن القيصر - وكان يعرفه تماماً - « إن غليوم الثانى لا يريد الحرب. إنه كان يخشاها. إن مذكراته وتعليقاته الحربية لاتدل على شىء ». لقد فات الوقت ولا يمكن تغيير

الطريق. واستغلت وزارة الخارجية الألمانية غياب الإمبراطور ، كما لعب الدور نفسه صاحبهم برشتولد على الإمبراطور العجوز . لقد غادر المدينة منذ يومين — أى يوم ٢٧ من يوليو — ليتجنب لقاء السفير الروسي الذى كان لديه اقتراحات للتوفيق بين الطرفين.

ومما ذكره السفير الألمانى متحدثاً عن وزير خارجية النمسا ، كأنما يتحدث عن تلميذ نابه ، قال « إن الكونت برشتولد شخصية ممتازة . وهو فخور جداً بكثرة ماورد إليه من برقيات التهنئة من جميع أنحاء ألمانيا » .

وفى نفس يوم ٢٧ من يوليو المشئوم حصل برشتولد على توقيع فرانسيس جوزيف على إعلان الحرب على الصرب . وللتغلب على التردد الذى كان يلازم الإمبراطور البالغ من العمر ٨٤ عاما ، أرسل برقية إلى باد إشل يبلغه بهجوم صربى وهمى على فرقة الحدود النمسوية (ولم يتقرر بشكل قاطع ما إذا كان رئيس الوزراء تعمد اختراع هذا الحادث ليخدع الإمبراطور) . وهكذا ، فى صباح ٢٨ من يوليو استقبل برشتولد السفير البريطانى — فى نفس الوقت تقريباً الذى انتهى فيه القيصر فى بوتسدام إلى أن الحرب بين النمسا والصرب غير ضرورية فضلا عن خطورتها — ليبلغه أن الوقت قد فات لسوء الحظ ، فلا أمل فى بذل أى جهد للوساطة ، حيث إن صاحب الجلالة الإمبراطورية وصاحب الجلالة الملكية قد وقعا إعلان الحرب .

وأبرق إعلان الحرب إلى بلغراد بعد الساعة الأولى بعد الظهر بقليل فى نفس اليوم ، (وهذه أول مرة فى التاريخ تعلن فيها الحرب عن طريق البرق ،) وبعد مغادرة السفير النمسوى بلغراد ، كان برشتولد فى حيرة ، كيف يبلغ إعلان الحرب ولم تقبل برلين أن يقوم الوفد الألمانى بتبليغه ، « بحجة أن ذلك قد يؤدى إلى اعتقاد الشعب — وهو غير خبير بالأعمال الدبلوماسية — أننا دفعنا النمسا والمجر دفعاً إلى الحرب ») .

وامتلأت فينا ـ عاصمة العبث والمرح ـ بالهستيريا الوطنية ، عند ما ظهر على حوائط المدينة الإعلان الرسمى للحرب، ممهوراً بتوقيع الإمبراطور. وقد لاحظ أحد الأمريكيين « أن المدينة كلها رقصت طربا • واحتضن الناس بعضهم البعض من غير ذوى قرباهم . لقد نفضوا عن أنفسهم الخنوع والمذلة » .

ومع هذا ففى اللحظة التى عرض فيها إعلان الحرب على الإمبراطور لتوقيعه لم تعلن التعبئة . ولم تعد العمليات الحربية مدة أسبوعين كاملين . ولعل برشتولد كان يرجو أن تحول إحدى المعجزات فى اللحظة الأخيرة دون قيام الحرب . . ولكن الذى لايدركه برشتولد ووزارة الخارجية أنهم بإعلان الحرب — ولو فى هذه المنطقة النائية غير المهمة من أوربا — قد سلموا قيادة الأمور فى كل مكان إلى رجال الجيش، وهؤلاء سوف ينزلون الدمار بأيديهم الثقيلة على جميع ميادين أعمالهم السياسية .

ومع أن صليل السيوف ظل طيلة عشر سنوات أحد الفنون السياسية العالية ، إلا أن رجال الدولة فى سنة ١٩١٤ كانوا يجهلون إلى حد كبير معنى تعبئة الجيوش . والنمسويون — وهم فى حالة حرب، وعاجزون عن تحريك فصيلة واحدة ضد العدو — كانوا أول من اكتشف هذه الحقيقة ، ثم فهم الروس أنهم سوف لا يجنون أية ثمرة من خطط تعبئة الجيش .

وكان نقولا الثانى ـ كصاحبيه الحاكمين المطلقين ـ يخشى الحرب . قال مرة لأحد المقربين إليه بعد تسلمه برقية من القيصر « يجب أن يعمل كل ما يمكن لإنقاذ السلام . ولن أصبح مسئولاً عن مجزرة وحشية». ومن سوء الحظ — رغم أن القيصر كان حاكماً مطلقا أكثر من أى ملك آخر فى أوربا — لم تكن له سيطرة على الأحداث أكثر من أى واحد منهم. والرجعيون ومحبو الحرب وجماعة

الجامعة السلافية المتحمسون الذين يعتمد عليهم نقولا لحماية ملكه المطلق ، كانوا يضمون كثيراً من الضباط والموظفين ذوى النفوذ الذين كان من دأبهم دفعه إلى حرب طاحنة .

وأبرق إلى ابن عمه «ولى» يرجوه أن يثنى حليفه النمسوى عن الحرب. قال «إنى أتنبأ بما سيقع على قريباً من الضغط ، الذى يدفعنى إلى اتخاذ إجراءات مشددة تؤدى إلى الحرب » .

والواقع أن الضغط انهال عليه بسرعة مذهلة، فإنه بعد إعلان الحرب فى ٢٨ من يوليو لعبت الفوضى دوراً هاما فى توليده . وقد حدث من ذلك قدر غير يسير فى كثير من البلاد. والاستشارات بين الحلفاء والتنسيق بين الحكومات الوطنية أخذت وطأتها تثقل كلما زادت البرقيات العاجلة الهامة على مكاتب رجال السياسة فى أوربا . وأصبحت البيروقراطية فى الدنيا القديمة غارقة فيما تراكم عليها من الأنباء . ولم تقو أذكى العقول وأقواها منطقاً على هضم أو تمثيل المعلومات التى ترد إليها . وصارت الأحداث لا تتبعها القرارات اللازمة ، كما كانت كل حركة خاطئة فاشلة من أى جانب تزيد من الفوضى العامة . ولم تكن هذه الحالة ذات النتائج السيئة أكثر ظهوراً فى أى بلد منها فى سان بطرسبرج، حيث الإدارة الحكومية مختلة فى أحسن الظروف، وحيث كانت أظلم الأحكام وأسوأ الأخلاق ترى فى الغالب فى كل مكان .

وحتى قبل أن تصبح سرعة الأحداث المتلاحقة عبئاً غير محتمل ، ارتكب سازونوف — وهو رجل ضئيل الجسم بسيط الفكر حى الضمير، له لحية منظمة ووجه دقيق أشبه بوجه الثعلب، يوهم الناظر إليه أنه أمكر وأخبث من حقيقته — ارتكب غلطة جسيمة . إذ بعد الإنذار النمسوى إلى الصرب حصل على موافقة مجلس

الوزراء والقيصر على مبدأ التعبئة الجزئية للجيوش الروسية، التى تشمل ما يزيد قليلا على مليون جندى ، على طول الحدود النمسوية . وكان سازونوف يرى أن هذه الحركة ترعب النمسويين، فيحجمون عن غزو الصرب . ولكنها لن يكون فيها تهديد لألمانيا ، وعلى كل حال فإن مذكرة مهدئة إلى برلين يمكن أن تصحب إذاعة التعبئة .

وكان المفروض أن تنفذ أوامر التعبئة الجزئية فى أربع مناطق جنوبية فى ٢٩ من يوليو ، وهو اليوم التالى لإعلان النمسا الحرب على الصرب . ومع ذلك فالمجلس الأعلى الروسى كان له رأى آخر فى التعبئة الجزئية . إذ قال رئيس المجلس لسازانوف إن هذه الإجراءات المحدودة ستقضى على نظام العمليات الحربية الآلية ، وتؤثر على التعبئة العامة إذا اتضح فيما بعد أنها ضرورية . عند هذا كان يجب على سازانوف وهو رجل السلام أن يسحب اقتراحه الأصلى ويصمم على إلغاء التعبئة على أى وضع . ولا شك فى أن القيصر سيؤيده فى هذا . ولكنه بدلا من ذلك غير اتجاهه إلى وجهة النظر الحربية ، وانضم إلى القواد فى تحريض القيصر على إعلان التعبئة العامة فى الحال ، ووافق نقولا أول الأمر . وفى منتصف الساعة العاشرة من مساء ٢٩ من يوليو، عندما كانت آلات البرق تستعد لإبلاغ البرقيات التى تأمر بالتعبئة العامة إلى جميع مراكز رياسة الجيوش ، أرسل ضابطاً فى مكتب البرق الرئيسى لوقفها وإرسال الأمر الأول الذى ينص على التعبئة الجزئية .

وتلخيصاً للأحداث التاريخية فى ذلك اليوم — مع شىء من عدم التنسيق — كتب نقولا فى مذكرته عن يوم ٢٩ من يوليو ما يأتى :

« لعبنا التنس فى ذلك اليوم وكان الجو رائعاً . ولكن ساد اليوم اضطراب غريب . لقد استدعيت مراراً عديدة إلى المسرة . فضلا عن اتصالى المستمر

تی محادثات تليفونية مع عليوم : قرأت فى المساء ثم استقبلت تاتيشيف (قائد روسى ملحق بحاشية القيصر الشخصية) وسأوفده غداً إلى برلين » .

وقبل ذلك بيومين سجل وزير الحربية الروسية سوكوملينوف انطباعاته الشخصية لمقابلة له مع قيصر روسيا جاء فيها :

« استناداً إلى هدوء القيصر ، أو بعبارة أضبط ، استناداً إلى اطمئنانه الذى أبداه عند إنصاته إلى سرد الأحداث الجارية ، يمكن أن نستنتج أنه لا يوجد ما يكدر الحياة العامة فى روسيا . لقد أدهشنى هدوءه وقلة اهتمامه بما يقضى الواجب أن أقوله » .

ولا شك فى أن نقولا ليس له من الخلق ولا من العقل ما يتناسب مع هذه المسئوليات الجسيمة التى يواجهها . ولكن عزلته واشتغاله بتوافه الحياة العادية فى أثناء الأسبوع الأخير الحرج من شهر يوليو سنه ١٩١٤ وقاه من الاضطراب العصبى الذى أصاب معظم وزرائه وقواده . وفى أثناء الأسبوع الأخير من عهد السلام كان «نكى» «وولى» مشغولين بالتليفونات والتلغرافات التى لا علاقة لها بما تعمله حكومة كل منهما . وأخيراً قام نقولا بمحاولة أخيرة ليضطلع بعمل يحمل مسئوليته . وفى الهزيع الأخير من ليل ٢٩ من يوليو بعد أن أصدر أمره المسرحى بإلغاء التعبئة العامة ، أبرق قيصر ألمانيا إليه يحذره من عوامل الضغط التى كادت أن تطغى عليه ، واقترح إحالة النزاع النمسوى الصربى إلى مجلس لاهاى ، وكانت البرقية بتوقيع « محبك نكى » .

واقتراح إحالة النزاع إلى محكمة العدل لم يكن الموقف ليسمح به . وكان توقيع «ولى» على هامش الرسالة « كلام فارغ » . ولكن فى هذه اللحظة المعينة

فى تاريخ الأزمة الأوربية كان كل تصرف فيه أمل فى تأجيل النتيجة النهائية له أهميته .

وبرقية قيصر روسيا هذه جاءت فى أثر برقية وردت من لندن لم تهز كيان القيصر فحسب ، بل اهتز لها بتمان هولفيج ووزارة الخارجية جميعاً : لقد أبلغ جراى سفير ألمانيا « طالما بقى النزاع محصوراً بين النمسا وروسيا فى وسعنا أن نلتزم الحياد ، ولكن إذا تورطت فرنسا وألمانيا فى النزاع عند ذلك تكون إنجلترا مجبرة على التصرف السريع » . ولو كان قيصر روسيا قد استمسك بعدم تعدى التعبئة منطقة الجنوب ، فلربما أمكن استتباب السلام (ومع هذا فقد تعدى القادة الروسيون سراً أوامر القيصر) .

وبينما كان بتمان هولفيج فى برلين يكتب ما بين الثالثة والرابعة بعد ظهر يوم ٣٠ من يوليو تعليمات جديدة لسفيره فى النمسا ، ينبئه بأن ألمانيا « يجب ألا تساق بطيش إلى حرب عالمية دون أن تلقى بالا إلى نصائحنا » ، استقرت إرادة نقولا المتأرجحة فجأة .

وكان سازونوف هو الذى ارتكب هذه الغلطة القاتلة . لقد جاء مصحوباً بأحد ضباط مجلس الحرب إلى قصر بترهوف على بعد ١٧ ميلا من العاصمة ، ليقنع القيصر بأن التعبئة العامة لا يمكن تأخيرها ، ولبث أكثر من ساعة فى حديث يحاول فيه إقناع القيصر بضرورة التعبئة العامة . وكان له فى حديثه حجتان قويتان إحداهما تقرير غامض شيئاً ما بأن ألمانيا بدأت التعبئة ، والثانية لهجة الاستعلاء التى عبرت عنها برقية القيصر بأنه لا يستطيع التوسط فى فينا إذا بادرت روسيا إلى التعبئة الجزئية ضد النمسا .

ومع هذا فقد كان يبدو على نقولا أنه صلب لا يتزحزح . فبينما كان جالساً وراء مكتبه المزركش بالبرونز والمغطى بالمصورات الجغرافية فى حجرته فى الدور الأرضى بقصره المطل على خليج فنلندا لم يبد عليه أنه يستمع إلى حديث وزير خارجيته ، وكان وجهه الملتحى ، رغم شحوبه وإرهاقه ، لا ينبئ عن أى شعور .

وكانت عيناه الحالمتان لا تتحولان عن الأفق الأزرق البعيد .

وأخيراً قال « تصور عظم المسئولية التى تدعونى إلى تحملها إذا اتبعت نصيحتك ، . تصور نتيجة إرسال آلاف الآلاف من الرجال إلى حتفهم » .

ومن سوء الحظ أن الجنرال تاتيشيف زميل سازونوف اختار فى تلك اللحظة أن يتكلم .

قال تاتيشيف « نعم ، إن القرار الذى يصدر قرار خطير » .

فرد نقولا بصوت مرتفع « أنا الذى يقرر » .

ومنذ تلك اللحظة كان يبدو أنه منصت للحجج التى يدلى بها سازونوف ، واهتم بصفة خاصة برأى وزير خارجيته — وهو رأى خاطئ كما نعلم نحن الآن— أن ألمانيا كانت مصممة على الحرب وستبادر إلى الحرب، سواء عبأت روسيا جيوشها أو لم تفعل ، وأخيراً بعد ما يشبه الجدل الشديد بينه وبين نفسه سلم القيصر ، وقال « حسناً ! يا سرج ديمتريفتش ، أخبر رئيس مجلس الحرب الأعلى تليفونياً بأنى قررت التعبئة العامة » .

وكان سازونوف فى حجرة التليفون فى الدور الأرضى من قصر بترهوف حالما سمحت له قواعد الأتيكيت بذلك ، وهناك تحدث مع الجنرال عن الأخبار السارة ثم قال : « والآن أيها الجنرال .. اقطع صلة التليفون » .

ولكن النصيحة كانت غير ضرورية ، فإن القيصر بادر إلى محادثة ابن عمه «ولى» بأن جنوده لن تقوم بأعمال استفزازية، ويحبذ له استمرار المفاوضات« حفظاً للسلام العام المحبب إلى قلوبنا » . ولكنه لم يصدر أى أمر يلغى الأمر السابق ، وفى صبيحة يوم ٣١ من يوليو (هو يوم أغبر يتفق مع مزاجى) كما كتب نقولا فى مذكرته ، كانت إعلانات التعبئة العامة فى صحائف حمراء ملصقة على جدر المبانى العامة فى جميع أنحاء الإمبراطورية الروسية .

وهذه التعبئة الروسية قضت على آخر أمل لدى الدعاة فى مكاتب المستشارين الذين يريدون الوصول إلى أهدافهم السياسية بصلصلة السيوف ،أو عن طريق الحرب الحامية . ولقد ظل رجال السياسة يقنعون أنفسهم أو يقنع بعضهم بعضاً بأن التعبئة لا تعنى الحرب ، ولكن الجنود فى كل مكان يعلمون أنهم كانوا على خطأ .

إن التعبئة تقتضى تعبئة مضادة لها . فإذا تم ذلك على مستوى القارة فى أوربا ، المنقسمة حقبة طويلة من الزمان إلى معسكرين كل منهما فى عداء شديد مع المعسكر الآخر ، فإن عدم الاطمئنان المتبادل بينهما ، وهو ليس فى درجة واحدة فى المعسكرين ، يكفى وحده للانزلاق إلى حرب لامفر من قيامها بينهما . هذا فضلا عن أن الموسم كان ملائماً للحرب . وفى أوربا كلها كان موسم الحصاد قد انتهى . وكانت الجيوش فى تلك الأيام تعتمد على الخبز اعتمادها على المدافع ، وكان صوامع الغلال مملوءة بالغلال . وأخيراً هدأ إحساس رجال الحرب الذى كان يؤذيه أن تطأ الأقدام المحتذية النباتات الخضراء الضعيفة ، مهما حدث لأصحاب هذه الأقدام أو البلاد التى بدأت السير منها هذه الأقدام ، وانكشفت الحقول التى بها جذور النباتات من جبال الأورال إلى المحيط جرداء صفراء تحت أشعة

الشمس تدعو الجيوش إلى التقدم . ولما كانت الحرب ممكنة فقد أصبحت ضرورية .

والدولة التى تلى روسيا فى قوتها والتى يمكنها أن تأمر بالتعبئة العامة هى النمسا، وقد أعلنت فى ٣١ من يوليو ، بعد نشر الإعلانات على جدران المبانى ببضع دقائق . وصدر قرار التعبئة فى اليوم السابق رغم المحاولات الجنونية التى قام بها بتمان هولفيج فى برلين لتأييد اقتراح جديد لبريطانيا وافقت عليه روسيا بوقف الحرب بمجرد استيلاء النمسا على بلغراد (وهى فعلا على الحدود) . ولو كان لدى برشتولد أى شك فى صواب قرار التعبئة ، فقد زال عندما هرع رئيس المجلس الحربى الكونت كونراد يوم ٣١ من أكتوبر إلى وزارة الخارجية وبيده برقية وصلته من زميله الألمانى مولتكه يدعو النمسا إلى رفض الاقتراح البريطانى وتحرك جيوشها فوراً ضد روسيا . وجال فى خاطر الكونت الظريف « هذا عجيب . من الذى يدير دفة الحكم فى برلين بتمان هولفيج أم مولتكه ؟ » .

لقد كان السؤال ساذجاً . ففى روسيا وفى ألمانيا وفى النمسا كان القواد فى ذلك الوقت هم أصحاب السلطة . وكان عملهم الحروب ، والحروب فى أفضل الظروف ، وكان كل ما ترك لرجال السياسة هو أن يحسنوا الاعتذار عما تتمخض عنه الخطط الحربية .

والقيصر نفسه كان لايقطع برأى حاسم فى جميع أغراض العملية ، والتحذير الجاد الذى ورد من جراى فى ٢٩ من يوليو وأرهب وزارة الخارجية الألمانية، ملأغليوم بالغضب والثورة عندما قرأه فى اليوم التالى .

وعلى هامش البرقية التى ذكر فيها جراى خوفه من وقوع الحرب بأن الحرب

ستكون « أخطر نكبة مُنى بها العالم فى كل عهود التاريخ » . كتب القيصر « هذا يعنى أنهم سيقومون بالهجوم ضدنا » .

وكان اعتماد غليوم ومستشاره فى معونة النمسا أو تشجيعها — على فرض صبيانى — ناجم عن عقيدة خرافية لدى غليوم مبنية على فكرة وحدة الملوك . زادها قوة ملاحظة أبداها جورج الخامس على مائدة الغداء للبرنس جورج أخى غليوم ، مؤداها أنه فى حالة وقوع حرب أوربية ستبقى إنجلترا . فثار غليوم ودون فى آخر التقرير الذى بعث به إليه سفيره قال :

« تظهر لنا إنجلترا يدها عندما تظن أننا فى مركز حرج ، وبعبارة أخرى .. إننا انتهينا . إن هؤلاء الإنجليز الأخساء يحاولون أن يخدعونا بالولائم والخطب . إن أكبر خدعة لهم كانت رسالة الملك إلى موقعة باسم هنرى .... إنجلترا وحدها هى المسئولة عن الحرب أو السلم . لا نحن الآن » .

وفى آخر النهار صاح غليوم فى أحد أخصائه « لقد انتهى عملى » . ثم إن بتمان هولفيج الذى زاد اشتعال النار بسذاجته بما ارتكب من أخطاء سابقة ، اعترف اعترافاً مؤلماً بفشله فى كلمة ألقاها فى مجلس الوزراء الألمانى فى ٣٠ من يوليو ، قال « كل الحكومات بما فيها حكومة روسيا ومعظم شعوبها ميالون للسلم ، إلا أن الناس ضلوا الطريق ، والحجر ماض فى طريقه » .

وبينما كان بتمان هولفيج يلقى كلماته كانت الجموع الآدمية تموج فى ذهاب وإياب يرددون « ألمانيا فوق الجميع » يؤيدون بها كلماته . وكانت ملاحظته عميقة وبخاصة لأنها صدرت عن عقل بسيط ، إلا أنها كانت من أحد جوانبها على الأقل غير صحيحة . إن مؤيدى السلام فقدوا فى الواقع كل نفوذ ، وكان رجال الحرب

هم القابضون على النفوذ ، ولم يعد الشعور الجماهيرى عاملا من عوامل الموقف . ما هو إلا من علامات رغبة الموت الظاهرة التى تتضمنها خطط الحرب التى ترسمها مجالس الحرب المختلفة .

وخطط الألمان غير المرنة التى تواجه بها الأزمات السياسية الكبرى — التى هى صورة لنظرية السن بالسن البدائية بعكس مبدأ الانتقام الرادع — كانت تكفى للقضاء على كل أمل فى السلام فيما لو بقى أمل واحد بعد تحرك الجيوش الروسية . وكان الجنرال هلموت مولتكه ابن أخى مولتكه الكبير مريض بمرض عصبى ، ولكن أسلوب تفكيره كان بروسياً كما كان جسمه الضخم بروسياً كذلك . ولو كان له أعصاب هادئة والحرب على الأبواب لكان لواضعى الخطط الحربية فرصة للعمل فى هذا المجال . وقد أصبح واضحاً أن ألمانيا ليست لديها خطة للتعبئة ، ولكن لديها خطة للحرب العامة . إنها تستعد للهجوم على فرنسا عن طريق بلجيكا (التى ضمنت ألمانيا حيدتها فى معاهدات سابقة) لتضمن وقوف الجيش الألمانى على القنال الإنجليزى . وعلى هذا فعندما تأكدت برلين من التعبئة الروسية قبل ظهر يوم ٣١ من يوليو ، وبعد أن أعلن مولتكه حالة الطوارئ — وهى الحالة الأخيرة التى تسبق التعبئة وإعلان الأحكام العرفية — أشار على وزارة الخارجية أن ينشط رجالها لعمل ما يبعد عن ألمانيا تهمة التوسع والاعتداء . وأرسل إنذاران ألمانيان نهائيان بعد ظهر يوم ٣١ من يوليو ، أحدهما إلى روسيا يطلب منها وقف كل إجراءات ضد النمسا وألمانيا فى مدى اثنتى عشرة ساعة . والثانى إلى فرنسا يدعوها أن تلتزم الحياد إذا قامت الحرب بين روسيا وألمانيا . (والإنذار الذى أرسل إلى بلجيكا بطلب حق المرور للجيوش الألمانية سبق إرساله للسفير الألمانى فى بلجيكا على ألا يسلم إلا يوم ١٢ من أغسطس) . وكانت الإنذارات فى توقيتها وصياغتها أشبه بالمذكرة النمسوية إلى بلغراد — فى أسلوب

يجعل قبولها مستحيلا ، ويعطى لألمانيا العذر فى إعلان الحرب . وهكذا أخذت الآلة التى أعدت لتدمير أوربا تدور .

وفى اليوم الأول من أغسطس فى الساعة السابعة بعد الظهر دخل حجرة سازونوف — الذى كان وجهه متوتر الأعصاب بدرجة غير عادية — الكونت فردريك بورتاليس السفير الألمانى فى روسيا ووجهه محتقن بعد عمل مجهد استمر طيلة أسبوع لم يغمض له فيه جفن . وسأل الألمانى فجأة عما إذا كانت الحكومة الروسية مستعدة للرد على ألمانيا رداً مرضياً على إنذارها الذى وجهته فى اليوم السابق وحددت له ظهر اليوم . ولما كان الرد غير صريح أعاد السؤال بنبرات متقطعة . فرد سازونوف بأن روسيا لا يمكن أن تلغى أمر التعبئة ، ولكنها مستعدة كشأنها السابق أن تستأنف المفاوضات حتى تصل إلى حل سلمى . ثم وقف الرجلان وأخذ الكونت يبحث فى جيبه ، وأخرج إعلان الحرب الذى أصدرته ألمانيا ، وقرأه فى أنفاس لاهثة عندما وصل إلى الفقرة الأخيرة « إن صاحب الجلالة الإمبراطورية مليكى العظيم يقبل التحدى باسم الإمبراطورية ، ويعد نفسه فى حالة حرب مع روسيا » .

ثم جرى — بعد أن فقد أعصابه — إلى النافذة المطلة على القصر الشتوى الذى اصطبغ بلون الشفق الأحمر، وأدار ظهره لسازانوف وذرف الدموع . ولما ربت سازونوف على كتفه قال : « ما كنت أعتقد أنى سأترك سان بطرسبرج على هذه الصورة » واحتضن كل من الرجلين للمرة الأخيرة زميله الذى كان فى الوقت نفسه صديقاً له من زمن طويل .

وكان قيصر روسيا أقل تأثراً لقطع العلاقات مع ابن عمه « ولى » . ففى ساعة متأخرة من تلك الليلة بعد أن شرب الشاب وتحدث مع القيصرة، وكانت حينذاك

فى فراشها ، صم على الاستحمام ، وما كاد يدخل فى حوض الاستحمام حتى نقر رسول على باب الحمام وأنبأ القيصر أن قيصر ألمانيا أرسل إليه برقية هامة .

وفى حديث لاحق مع سفير فرنسا قص نقولا عليه القصة التالية قال : « لقد قرأت البرقية عدة مرات دون أن أستطيع فهم شىء . أما زال غليوم يدعى أن فى وسعى تجنب الحرب . ويرجونى ألا أسمح للجيش أن يتخطى الحدود . هل أصابنى مس من الجنون ؟ ألم يأت لى وزير البلاط — فردركس — منذ أقل من ست ساعات بإعلان الحرب الذى سلمه له سازونوف السفير الألمانى ؟ وعدت إلى القيصرة وقرأت لها برقية غليوم . وأرادت أن تقرأها هى لتتأكد من عبارته ، ثم قالت إنها لن ترد عليها . أليس كذلك ؟ . لن أردعليها . وعندماغادرت حجرتها أحسست أن كل ما بينى وبين غليوم قد انتهى إلى الأبد . ونمت نوماً عميقاً » .

ولم يكن من ناموا نوماً عميقاً فى تلك الليلة من رجال الحكومات فى أوربا إلا قلة من الناس . ولربما كان منهم فرانسيس يوسف لأنه كان مسناً ، وكان متعباً ، وليست المصائب بجديدة عليه ، ولأنه قام بواجبه كما يعتقد . وربما نام نوماً عميقاً جافريلو برنسيب قاتل ولى عهد النمسا فى زنزانته ، إن لم يكن لايزال متألماً مما أصابه من أذى على يد الشعب والشرطة عندالقبض عليه . لقد أدى ما كان عليه من عمل . وكذلك رئيسه العجيب الذى لم يره فى حياته الكولونيل أبيس . وصديق أبيس الملحق الحربى الروسى الكولونيل أرتمانوف ، وقد عاد إلى عمله بعد إجازة مدتها شهران ، وصديق إزفولسكى صاحب الدسائس تيوفيل دلكاسيه وزير الخارجية الفرنسية السابق .

كتب أبل فرى وكيل الخارجية الفرنسية فى مذكرته السرية بعد مقابلة له مع دلكاسيه عشية الإنذار الألمانى « ظننت أنى رأيت عمل العنكبوت الصغير

الذى ألقت ألمانيا بنفسها فى شباكه . لن تستطيع ألمانيا أن تعيش بعد ذلك فى الدنيا التى أعدها لها دلكاسيه، ولأول مرة فهمت ألا أحد بعد بسمارك يسيطر على الأحداث الأوربية مثل هذا الرجل الضئيل الذى لم ير فى حياته السفراء الفرنسيين ولم يهتم بالبرلمان ، ولم يشغله إلا عمله . لم يعد وزيراً ولكن الشبكة أعدت وسقطت فيها ألمانيا كما تسقط الذبابة السمينة » .

وكان غيره من غالبية أصحاب التيجان ورجال الدولة والدبلوماسيين فى أوربا الذين كانوا يعملون للحرب وهم لا يشعرون ، يتعثرن فى أثناء الساعات الأخيرة من عهد السلم فيما يشبه كابوس اليقظة. وفى ليلة ٣١ من يوليو صممت الحكومة الفرنسية على رفض الإنذار الألمانى الذى سلم إليها فى الساعة ٧ مساء، وأمرت بالتعبئة العامة . وبينما كان الوزراء وعلى رأسهم بوانكاريه يتدارسون حول المائدة المستديرة فى قصر الإليزيه ، وصل إليهم نبأ مقتل جان جوريه رئيس الاشتراكيين الفرنسيين والعدو المبين للحلف الفرنسى الروسى وآخر أمل لدعاة السلام الأوربيين ، أرداه وطنى متحمس. كان الموقف رهيباً حول مائدة الوزراء ، وأعقب ذلك صمت بليغ . ولو كانت المبادئ الاشتراكية عميقة الجذور فى عقول الطبقة العاملة فى أوربا كما كان يتخيل جوريه وأصحابه، لكان موته منجاة للسلام فى اللحظة الأخيرة . وقد كان يظن فى فترة وجيزة من الوقت أن كل شىء ممكن . وبناء على ما رواه أبل فرى ملأ مدير الشرطة قلوب الوزراء بالرعب عندما طلب من قصر الإليزيه أن يبلغ الوزراء أن الثورة ستقوم فى العاصمة بعد ثلاث ساعات .

ومع ذلك كان الإنذار الروسى لا أساس له . لقد كان فى الشوارع مثلا بعض العمال ، ولكن الناقمين على الحرب ابتلعهم العدد الأكبر المتحمس من الشعب ، الذى كان يصيح ويغنى . والصيحات القليلة التى يسمع منها فلتسقط

الحرب ، تحولت إلى نشيد المارسيليز ، وأخيراً . . إلى برلين . وفى اليوم التالى — أول أغسطس عندما علقت إعلانات التعبئة الصفراء وعليها العلم ذو الألوان الثلاثة على الحوائط فى جميع أنحاء فرنسا — فى نفس الوقت الذى أعلنت التعبئة العامة فى ألمانيا — كان عمال فرنسا وفلاحوها يلمعون أحذيتهم ويحملون متاعهم دون أية مبالاة كعادتهم دائماً . وكانت الجموع تحييهم بالهتاف وتلويح الأعلام، وإهداء الزهور وتندفع إلى المحطات لوداعهم ، ومن لم يستطيعوا فقدودعوهم فى نوافذ الدور التى كانت تكتظ بهم وهم يغنون ويلوحون .

ومثل هذه المناظر كانت ترى فى كل مكان تقريباً فى أوربا . إلا فى البلاد المحايدة وفى إيطاليا — التى رغم محالفتها الطويلة الأمدمع ألمانيا والنمسا صممت على أن تظل على الحياد .

وفى ألمانيا كانت تحية العاصمة البروسية للحرب حماساً منقطع النظير . وكان شعور الألمان « إن سنى الاستعداد التى قضوها قد أثمرت الآن » كما يقول السفير الأمريكى جيمس جيرارد .

ولم يشارك بتمان هلفيج ولا القيصر مواطنيهما أفراحهم .

سأل البرنس بيلوف المستشار السابق بتمان المستشار الحالى بعد نشوب الحرب ببضعة أيام « كيف حدث كل هذا ؟» .

فكان رد بتمان « آه لو كنا نعلم » قال ذلك وقذف بذراعيه إلى أعلى معبراً عما يشعر به من اليأس .

وقال فون نربتز « ما رأيت وجهاً أكثر حزناً وأشد إنهاكاً من وجه إمبراطورنا فى تلك الأيام » .

وفى أول أغسطس يوم إعلان التعبئة الفرنسية وعلى مسمع من هتاف الاستحسان المتزايد الصادر من الرعية، جلس غليوم الثانى فى حجرة النجم فى قصر برلين على مكتب مصنوع من أخشاب سفينة لورد نلسون ليوقع الأمر الذى يندفع بمقتضاه جنوده عبر لكسمبرج وبلجيكا ، التى لا تزال حيدتها مضمونة بمعاهدة دولية مرعية عبر عنها بتمان هولفيج بعد بضعة أيام بأنها قصاصة ورق . وعندما قام غليوم واقفاً قال — وكأنما يتكلم بما أوحى إليه كما يحدث عادة لمن كان فى موقفه — وقد حدق فى وجوه الرؤساء الحربيين والبحريين « أيها السادة : ستعيشون وتندمون على كل هذا » .

وبعد يومين وقف جراى مكتوف اليدين عند نافذة حجرته فى وزارة الخارجية بينما كان الظلام ينقذ لندن من الحر الشديد ، وقد عراه نفس شعور الوحشة الذى أخذ يحل بالقارة كلها والنظام الاجتماعى كله .

قال اللورد جراى ، « إن المصابيح أخذت تنطفىء فى جميع أوربا . ولن نراها موقدة ثانياً طوال حياتنا » .

وفى الحق لقد بدأت تنطفىء المصابيح قبل أن يدرك ذلك جراى أو غليوم أو أى معاصر بوقت طويل . وسيكون ظلام الدنيا القديمة أدهى وأمر مما يتصوره أكثر الناس غفلا وأشدهم خوفاً .

الفصل الثانى عشر

فشل الحروب

إذا قيست الحرب العالمية الأولى بمقاييس الوقت الحاضر، فإنها تبدو لنا معركة محلية ومعركة من الدرجة الثانية من الناحية الآلية الفنية . ولم يتأثر بها إلا المنطقة الغربية من أوراسيا ، أما من الناحية الطوبوغرافية ،فهي لم تكد تتأثر بها . ولكن نظراً لما أحدثته في أوربا من الناحية الإنسانية — ونظراً لمكانة أوربا في العالم — ستظل حرب سنة ١٩١٤ أعظم جرح في تاريخ الغرب منذ الحروب الدينية . وربما كانت المخاوف التي عبر عنها رئيس الولايات المتحدة وودرو ولسن عقب نشوبها « بأنها ستؤخر المدنية قرنين أو ثلاثة قرون » فيها مبالغة، ولكن لم يثبت أنها على غير أساس . لقد تسببت الحرب الأولى في موت عدد من الضحايا أقل من الحرب الثانية ، وهدمت من المباني أقل منها ، واجتثت ملايين لا عشرات الملايين ، ولكنها خلفت جروحاً أعمق في الفكر وعلى خريطة أوربا ، ولم يبرأ العالم القديم مطلقاً من أثر هذه الحرب .

وينسب بعض ما حل بالبلاد من خراب إلى الاضطرابات الثورية التي حدثت في أعقاب الحرب. وإمبراطوريات وسط أوربا وشرقها التي تحكمها الأسرات الملكية — التي أدى انهيارها الأدبي والسياسي إلى وقوع هذه الحرب — كانت — كما سنرى فيما بعد — أولى ضحايا هذه الحرب ، ولم يكن انهيارها إلا حدثاً هاماً خطيراً. ومع ذلك فقد كان هذا السبب هو نتيجة أيضاً . وهذه الحرب كانت طوفاناً بمعنى الكلمة غريباً على مسمع من رجال الحرب المحنكين القدامى في شاطئ أماها أو مونت كازينو أو ستالينجراد، أو لدى من بقي على قيد الحياة بعد قنبلة هيروشيما —

فإن حرب الخنادق سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ربما كانت أقسى تجربة كبرى احتملها عقل الإنسان وجسمه منذ العصر الجليدى .

والمعارك الأولى فى فرنسا وفى الجبهة الشرقية التى كانت أعظم مما اضطربت لها الجيوش فى جميع العصور ، كان فيها ما ينبئ عن المستقبل المظلم . كانت معارك بطولة ولكنها كانت قتلا وسفك دماء .

وفى بروسيا الشرقية — حيث كانت الجيوش الألمانية ثلث الجيوش الروسية — كان جنود المدافع الألمان يصفون مدافعهم متلاصقة فى كل ثغرة توجد بين البحيرات التى تحيط بها المستنقعات أو فى غابات البلوط المظلمة ، ويصوبونها على فصائل القوزاق المتراصة . ومع هذا فقد تقدمت الجيوش الروسية . وفيما بين تلال اللورين الألمانية — حيث اتخذ الفرنسيون خطة الهجوم — كان المشاة فى سراويلهم المنتفخة الحمراء يقودهم شبان حديثو التخرج من كلية سان سير ، وفى أيديهم قفازات بيضاء ، وعلى قبعاتهم ريش يتطاير فى الهواء ، قد ثبتوا الحراب فى بنادقهم واندفعوا مهاجمين .

وفى الشمال والغرب فى غابات الأرجن المتشابكة ، وفى سهول الشامبين المنحدرة ، حيث أشجار الكرم ذات الثمار الناضجة ، انتقم الفرنسيون — بما ألقوا من المفرقعات على الصفوف التى انحدرت إليهم من بلجيكا على طول الطرق التى تظللها أشجار الحور ، فى هجمات متوالية ، مزودين بالمدافع الفتاكة التى تبلغ فوهتها ٧٥ مليمترا .

ووقف مولتكه ، الذى عقدت له القيادة العليا — موقف المدافع فى بروسيا الشرقية . كما وقف بالمرصاد للفرنسيين فى اللورين ، واتبع خطة شليفن بتعديل بسيط ، فأرسل معظم قواته تخترق بلجيكا وبيكاردى لتلتف حول الجناح الفرنسى

من ناحية الشمال فى حركة التفاف كبيرة . وكانت خطته تقتضى حصر الجزء الأكبر من قوة العدو وهزيمتهم ـ وكانت عبارة عن ستة جيوش فرنسية وفرقة إنجليزية أرسلت على عجل عبر القناة ـ بين باريس والحدود الألمانية . وكاد مولتكه أن ينجح فى خطته . فبعد شهر واحد من إعلان الحرب — وقد كانت الطلائع الألمانية تستطلع المنطقة شمالى باريس أمام جيش مولتكه المتقدم — شدت أزمة الخيل وحدقت فى رهبة فى برج إيفل الذى انطبعت صورته فى السماء الزرقاء .

وكان أمل مولتكه أن يهزم فرنسا ويخرجها من الحرب بعد ستة أسابيع ، ثم يلقى بكل قوته وقوة النمسا ضد روسيا . ولكن سوء تقديره واختلال أعصابه ساعدا على ضياع النصر الذى كان فى يده ، بعد أن أضعف القوة الضاربة التى كانت لديه فى الغرب ليقوى الجبهة الشرقية التى زاد الضغط عليها . ثم إن الجنرال جوفر القائد العام الفرنسى — الذى كان كالثور فى بلادة شعوره وكاد ألا يمتاز عنه فى سعة الخيال — تقهقر بأسرع ما فى وسعه تحت ضربات العدو الشديدة ، ثم لما أحس بخفة الضغط طأطأ رأسه قليلا وانسحب . وكان الهجوم الفرنسى المضاد الذى استمر ثلاثة أيام (من ٦ ـ ٩ من سبتمبر) على نهر المارن وفى جبهة نانسى فردان الذى قام به القواد الذين تحت إمرته ، قد أرهب القوة المهاجمة الألمانية . وقبل ذلك بأسبوع استدعى الجنرال هندنبرج من الاستيداع ، وهو بروسى ذو أعصاب حديدية ، لأنه جدير بالاعتماد عليه فى الجبهة الشرقية ، كما سبق أن رد الروس فى الموقعة التى عرفت باسم تاننبرج .

أما الغزو النمسوى للصرب فقد بدأ بداية حسنة وانتهى بفشل مزر . (وفى إبان الحرب ـ بعد مدة ـ اجتاحت الدول المتحالفة الصرب جميعها ، واضطرت القوات

التى بقيت من جيشها إلى التقهقر تقهقراً مشهوداً إلى الشاطئ ثم ، أزموا بالجلاء) .

وعند ما حل الشتاء بوحله وضبابه فى الغرب وزوابعه وعواصفه فى الشرق وقفت الجيوش المتقاتلة عن الحرب من سويسرة إلى بحر الشمال ، ومن البحر البلطى إلى جبال الكربات . لقد بدأ وقت الترقب الرهيب .

وحاولت عبثاً الدبلوماسية عن طريق الدعاية والمؤامرات قلب ميزان القوى ، وانضم الى هذا المعسكر أو ذاك حلفاء جدد أغروا بمعاهدات سرية أو بمعونات سرية ، كما فتحت جبهات جديدة للقتال ، وامتدت جبهات القتال القديمة ، فدخل الجبل الأسود مع الصرب تقريباً منذ أول الحرب . وانضمت اليابان للدول الغربية فى أغسطس ، ولكنها اكتفت بالاستيلاء على الممتلكات الألمانية فى شاطئ الصين وفى المحيط الهادى . وانضمت تركيا الى دول الوسط فى نوفمبر . وأعلنت إيطاليا الحرب على حلفائها السابقين فى مايو سنة ١٩١٥ . وانحازت بلغاريا الى جانب ألمانيا والنمسا وتركيا فى أكتوبر من السنة نفسها ، وانضمت رومانيا إلى جانب الحلفاء سنة ١٩١٦ .

وكان التدخل الحاسم عند ما أعلنت الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا فى السادس من أبريل سنة ١٩١٧ نتيجة لحرب الغواصات التى حاولت بها ألمانيا اليائسة فك الحصار البحرى المضروب عليها من الحلفاء . وبدخول أمريكا الحرب احتشد معها إلى جانب الحلفاء عدد كبير من المحاربين — أغلبهم لنصرة المبدأ — تأييداً للحلفاء .

وكانت آخر دولة انضمت هندوراس — يوليه سنة ١٩١٨ . وفى هذا الوقت بلغ

عدد الدول التى دارت فى فلك الحلفاء ضد دول الوسط الأربعة ٢٧ دولة : منها اليونان والبرتغال والبرازيل والصين وسان مارينو، ودول كان دخولها اسمياً دون اشتراك فعلى فى الحرب مثل ليبيريا وسيام وبوليفيا .

وبلغ عدد القتلى لدى الدول المتحاربة الكبرى — من الجيوش المتقاتلة وحدها ١٨٦ر٤٩٤ر٣٧ وهو نصف عدد الجيوش المتحاربة، منهم أكثر من ٠٠٠ر٥٠٠ر٨ قتلوا أو ماتوا من أثر الجروح أو المرض . ومات واحد من كل عشرة جنود اشتركوا فى الحرب من جيوش فرنسا وإنجلترا وألمانيا وروسيا والنمسا وتركيا وإيطاليا . ولكن نسبة الإصابات فى الحوادث كانت بطبيعة الحال أعلى كثيراً منها فى خطوط القتال ، وبخاصة فى الجيوش الروسية والنمسوية . أما فرنسا وغيرها من البلاد الصناعية المتقدمة التى فيها للمواليد نسبة ضئيلة ، فقد أصاب ذكورها الأقوياء عقم لمدة جيل من الزمان . بينما تأثرت البلاد المتخلفة كثيراً بوفاة الصفوة المتعلمة من أبنائها .

وفى الحرب العالمية الثانية — ربما باستثناء الجيوش اليابانية والسوفيتية — كانت الروح المعنوية تتأثر كثيراً عند ما تفقد عشر عددها وعتادها فى الموقعة .

وفى الحرب العالمية الأولى كانت الكتائب بل والفرق تفقد — بعد تعرضها لنار العدو عدة أسابيع — ثلاثة أرباعها فى الساعات الأولى من هجومها، وينتظر منها الاستمرار فى القتال . ولما كانت عملية إلقاء القنابل من الجو لم تصل الكفاية فيها إلى مستوى رفيع لحداثتها . كانت إصابة جنود الميدان كالمدنيين من السكان فى الحرب العالمية الأولى أقل منها فى الحرب العالمية الثانية .

ولكن الحرب فى الصفوف الأمامية فى معركة هامة كانت أشد خطراً كما كانت أكثر ضرراً . وفى القطاع البريطانى من الجبهة الغربية بين يناير سنة ١٩١٥

وسبتمبر سنة ١٩١٨ كان يقدر للجندى فى مثل هذه الوحدة خمسة أشهر فى الخنادق، كما كان كل جرح يترتب عليه إعفاؤه من القتـال يسبب الوفاة فى ربع حالات الإصابة . وفرص الحياة كانت أكثر فى الجانب الألمانى إلا عند القيام بالهجوم الكبير . ولـكنها كانت قليـلة إلى حد مزعج فى الفرق الممتازة عند الروس والنمسويين .

وتفوق الهجوم على الدفاع الناتج غالباً من قوة إصابة المدافع لأهدافها أجبر المتحاربين على الـكف عن القتال، وعلى قدر المدة التى يقف فيهـا القتال بين الطرفين تتحسن وسائل الدفاع عندهم . وعلى كلا الجانبين فى الجبهة الأمامية تمتد صفوف متتالية من الخنادق العميقة تتصل بممرات جانبية، ويقوى جدرانها أكياس من الرمل، وأمام هذه الخنادق أسلاك شائـكة . وكانت المساحة المحايدة بين الفريقين المتحاربين لا تتجاوز ٥٠٠ ياردة، وكثيراً ما تـكون ١٠٠ ياردة أو مائتين، وأحياناً لا تزيد على سعة الشارع العادى . وكل فريق لا يسهل عليه مطلقاً أن ينزل للعدو عن قدم مربعة من الأرض التى كسبها بجهد عظيم أو حصنها بنصب كبير . وعلى العكس كانت المعارك الدموية الصغيرة قائمة بين الجانبين لـكسب بضع ياردات، أو لاحتلال موقع غير هام، يعد خسارة للعدو . وفيما بين هذه المعارك العقيمة كان كل من الفريقين — رغبة فى حفظ الروح المعنوية وعملا بمقتضى الأصول الحربية — يصب على الفريق الآخر النار آناء الليل وأطراف النهار بلا انقطاع، وهكذا ظهرت فى تاريخ الحروب ظاهرة من أسخف الفظائع وأفظع السخافات : ظاهرة القتـال المستمر الذى لا طائل تحته، الذى يشترك فيه ملايين من البشر بلا انقطاع حوالى ١٤٠٠ يوم .

والخنادق — كما وصفها الشاعر البريطانى روبرت جريفز — كانت أشبه بالمخابئ

التى تقام على عجل للوقاية من الغارات الجوية فى منطقة من الطين تحميها شبكة من الأسلاك الشائكة . معرضة لا للغارات الجوية القوية فحسب ، بل وللهجمات المستمرة المفاجئة من السفاحين المحترفين ، دون أية وقاية من مياه الأمطار الغزيرة .

والحياة فى هذه الجحور المعدة للموت التى يشارك فيها الإنسان الهوام والحشرات وجيوش الفيران السمينة بلغت « درجة الصفر فى الراحة » كما وصفها جريفز . فما أحط الحياة فيها وما أشقاها . « نحن نأكل كالخنازير ولنا رائحة الخنازير » .

ووصف حياة المحاربين الشاعر الشاب الأمريكى ألان سيجر الذى قتل فى سنة ١٩١٦ قائلا : « البرد والقذارة والتعاسة هى الحالة الدائمة . وحياة الجندى أصبحت تعنى بالنسبة له اختباراً فى أتعس ما يمكن أن تحتمله حياة الإنسان . . . إن مثل هذه الحرب حرب حقيرة . نحن لا نعيش كما يعيش الناس مطلقاً . بل نحيا حياة الحيوانات فى جحور فى الأرض ، ولا تظهر رءوسنا إلا للحرب والغذاء » .

وسيجر مؤلف المقطوعة الشعرية التى كانت ذات شهرة فى بعض العهود واسمها « لى موعد مع الموت » تطوع فى الجيش الفرنسى سنة ١٩١٤ .وآلاف أخرى من الشباب الأمريكى ، الذين جاءوا إلى فرنسا بعد سنة ١٩١٧ ، مع فرقة القائد برشنج الأمريكية ، لقوا نصيبهم من الصعاب والأخطار فى الحرب . ولكن قليلا منهم من وصل فى الوقت الذى كابد فيه الفرنسيون والبريطانيون ما كابدوا من حياة الخنادق ، أكثر من ثلاث سنوات كاملة .

وكانت الغازات السامة التى استعملها كلا الطرفين بعد أن جربها الألمان عند إيبر سنة

١٩١٥ أشنع جوانب حرب الخنادق . وأشنع من ذلك صعوبة نقل الموتى فى المنطقة الحايدة بين صفى الخنادق . ولقد ظلت الجثث المتعفنة أو القطع الممزقة من الأجسام الآدمية عالقة بين أسوار الخنادق أو الأسلاك الشائكة عدة أسابيع وأشهر ، وبخاصة بعد العمليات الحربية الثقيلة ، تسمم الجو وتملؤه برائحتها الكريهة . ولقد جاء فى إحدى الأغنيات الإنجليزية الجماعية الحربية الشعبية .

إذا أردت أن تجدى حبيبك ، سليني فإنى أعرف مكانه
ممزقاً معلقاً فى شائك الأسلاك

ولا شك فى أن أقسى ما يكابده الناس فى حرب الخنادق ، الاضطراب الذى يتزايد يومياً فى عقولهم ، والضغط الذى يرهق أعصابهم ، بينما تصب عليهم النيران جملة أياماً متوالية . وقد بلغ متوسط ما سقط على بعض القطاعات فى الجبهة الغربية طناً من الصلب والمفرقعات القوية لكل ياردة واحدة . وفى موقعة فردان ، ولعلها أشد الوقائع هولاً ، وأكثرها عدد قتلى ، أطلق الفرنسيون وحدهم أكثر من اثنى عشر مليون قنبلة من جميع الأحجام ما بين ٢١ من فبراير و١٦ من يونية سنة ١٩١٦ . وبعد مرور ثلاثة عشر عاماً من انتهاء الحرب — وقد كنت مراسلاً صحفياً شاباً فى فرنسا — تهيأت لى فرصة زيارة ميادين الحرب السابقة ، وكانت هناك مساحات كبيرة وبخاصة حول فردان وريمس ، فى أرضها حفر تشبه الحفر التى تشاهد على وجه القمر ، ومن جبالها زالت رءوسها ، وكأنما الأرض هيكل يكشف عما فى جسمه من جروح . ومع هذا فقد عرفت أن بعض هذه المنطقة القاحلة كانت يوماً ما مزدحمة بالسكان كأى شارع فى المدينة . إن الخيال ليعجز عن أن يتصور الحياة فى أثناء هذه الأحداث المركبة التى سببت هذا الدمار . إن تجربة وقوع القنابل الكبرى

فى الخطوط الأمامية تجربة قاسية ، وحتى الطلقات الذارية اليومية التى تتوهج من وقت إلى آخر فى الخطوط الأمامية هى أيضاً ذات تأثير شديد على أعصاب أى إنسان بعد أن عاش وقتاً يعانى وقع عدد كبير منها .

وقد سجل دوجلاس ريد ، وهو صحفى إنجليزى زار جبهة القتال وصفاً للحالة « وبلغنا حالة عصبية ، لقد شاطرت واحداً من فرقة الوورشستر النشطة الحازمة ما لقيه من جحيم ، واتسخ وجهى من غبار المعركة وأصيب أنفى بشظية ، وطلب منى هذا الجندى ألا أخاف ، ولم أكن حينئذ شديد الخوف . ثم قال : ما دمت شاباً وفى صحة جيدة ، ولم تضرب بالقنابل كثيراً ، فإن وجودك فى نار المعركة ليس أمراً صعباً» . ثم يقول الصحفى «إنى لمعجب بهؤلاء المحاربين إعجابى بهذا الجندى ، أولئك الذين يرون القنابل تتساقط من حولهم ولا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم» .

لقد كان توتر الأعصاب الذى لا ينقطع ، وتعاسة الحياة فى الخنادق، سبباً فى محاولة المشاة فى الحرب العالمية الأولى أن يتخطوا خنادقهم ويجتازوا المنقطة المحايدة التى أمامها بينما يدوى فى آذانهم قصف المدافع ،ويحيط بهم ستار مما يتناثر من المعادن التى تقذفها تلك المدافع . ويبدو أن سوء الحالة يستحق المضى بين صفوف الأعداء ومصارعة الموت ، إذا كانت هناك فرصة لاختراق هذه الصفوف ، الذى يعنى الخلاص ،إن لم يكن من الحرب فعلى الأقل من الحياة فى الخنادق .

وكان يبدو المرة بعد المرة أن الأمل أوشك أن يتحقق لهذا الجانب أو ذاك فى فردان وفى شبه جزيرة جاليبولى ، وفى غاليسيا النمسوية ، وفى منطقة شمبانيا ، وفى حوض الإيزونزو والسوم والإيزر . وفى كل مرة إلى فصل الربيع من سنة ١٩١٨ كان الهجوم يتلطخ بالوحل والدماء ، وربما كانت كبرى هذه المذابح التى لا طائل تحتها ،المعركة البريطانية فى الأراضى المنخفضة فى أثناء الصيف والخريف من سنة ١٩١٧ ، وهى تعرف أحياناً باسم باسشنديل ،وهى القرية التى وقعت عندها

الموقعة الأخيرة من ذلك الغزو . وقد فقد فيها الجانب المهاجم ٠٠٠ر٤٠٠ نفس ، ولم يحصل منها على أية نتيجة ذات أهمية .

وقد فشل الهجوم البريطاني فعلا في مبدأ الغزو تقريباً . فإن المدفعية التي رأت من الضروري تقطيع أسلاك العدو ، وتحطيم مواقع سياراته الأمامية ، أتلفت أيضاً نظام الصرف في سهول نهر إيزر ،وهكذا تحولت المنطقة كلها إلى مستنقع . وفي الظروف القليلة التي يستطيع فيها الجيش المهاجم أن يفتح ثغرة في جبهة العدو — وهو ما نجح فيه الروس مرتين في الجيوش النمسوية — فإن صعوبة سير المدفعية الثقيلة والمؤن في الوحل والحفر الناتجة عن سقوط القنابل في أرض الموقعة ، تعطل تقدم الجيش المهاجم وتسمح للدفاع أن يصلح من عيوب المنطقة وينشئ الخنادق الجديدة .

إن روح الهزيمة والرعب واليأس مما ترتب على الحرب على مثل هذا المستوى الكبير وفي مثل هذه الظروف، أخذت تتسع دائرتها، فانتقلت من ميدان المعركة حتى استولت على عقول سكان الغرب جميعاً في القرن العشرين ، كما أثرت حرب السنوات الثلاثين في العصر الذي وقعت فيه — ولم تكن الحرب في ذلك الحين حرباً على جميع مرافق الدولة — فأحداث كوفنتري ، وهامبورج ، وليديس ، وبوشنفالد ، وهيروشيما ، لم تزل في عالم المستقبل — ولكن الحاجة إلى تهيئة كل جهد في البلاد ، وإعداد المقاومة السرية يقوم بها السكان المدنيون في البلاد المحتلة ، وتشجيع الخيانة والتخريب ، كل هذا أوجد حالة من العنف والقسوة لم تشهدها أوربا منذ أكثر من ثلاثة قرون .وإن هذه الفظائع التي كانت ترتكبها الحكومات نفسها ، كانتهاك الألمان لحياد بلجيكا ، وقتلهم للرهائن المدنيين في بلجيكا وفرنسا المحتلة، والهجوم المستمر الذي قامت به الغواصات الألمانية على السفن غير الحربية بعيداً عن ساحة القتال ، وعدم رفع الحصار عن

الأهالى الألمـان والنمسويين المدنيين وهم واقعون تحت تأثير المجاعة العامة بعد إلقاء السلاح ووقف القتال . كل هذا ليدل دلالة سيئة على سرعة الانحدار عن المستوى الحضارى.

وفى مبدأ الحرب ، عندما كان هناك اعتقاد سائد بأن الحرب سوف تنتهى فى بضعة أسابيع كانت الحماسة الوطنية منتشرة فى كل مكان فى البلاد المحاربة . واشترك كل من فى البلاد من عناصر طيبة وشريرة فى النشوة التى كانت لدى عامة الشعب .

ومما كتبه أدولف هتلر « لا يخجلنى أن اعترف اليوم بأن حماسة تلك الآونة (إعلان الحرب) أثارت فى شعوراً قوياً ، وأنى ركعت على ركبتى وشكرت الله من صميم قلبى على أنه وهبنى نعمة الحياة فى مثل هذه الأوقات » .

وهذا الشعور الجنونى نفسه أصاب شارل بيجى أنبه الشعراء الفرنسيين الحديثين ودفع به إلى الموت فى موقعة المارن . وها هو ذا المنظر الذى يصفه واحد ممن بقى على قيد الحياة من الفصيلة التى يقودها هذا الشاعر المحارب قال :

« لقد انحنينا لنتمـكن من الإصابة ، وتعثرنا فى جذور البنجر وكتل الأرض واندفعنا للهجوم .

فصاح بيجى : اضرب وأطلق الرصاص . . وظل واقفاً يوجه الجند ناحية إطلاق النار ، ثم صحنا : انبطح أرضاً ، ولـكن هذا المجنون المفتون بشجاعته ظل واقفاً على قدميه . وإنا لنسمعه يصيح : أطلق النار .. وفى هذه اللحظة عينها أصابت رصاصة قاتلة ذلك الرأس النبيل » .

ولم يكن ألان سيجر أقل نشوة عندما ذهب للقتال لأول مرة — كتب لأمه من ميدان القتال فى أكتوبر سنة ١٩١٤ يقول : « إنى أتجه إلى الميدان وقلبى يطير فرحاً . . . وأعتقد أنك تعتمدين على رؤيتى فى الصيف القادم فى فيرلى . وسأعود بكل تأكيد بعد الحرب لأراكم وأعود إلى حالتى الطبيعية . أنا سعيد وقلبى مفعم بالسرور لما أتوقع من أيام بديعة قادمة » .

حتى إديث وارتون — تلك الروح الحساسة المتمدينة ، القصصية الأمريكية ، والتي كانت تعيش وقتذاك في فرنسا ، رأت في أول الأمر هذه النار المتأججة طريقاً إلى تنقية النفوس . كتبت تقول « إذا نظرنا إلى الماضي من أيامنا القاسية الحالية نرى تلك الأيام الخوالي في باريس وقد ازدهرت ازدهاراً مفاجئاً الحياة الوطنية، ومحت كل الأعمال الدنيئة التافهة ، ونقت الجو الأخلاقي كما تنقى الشوارع من أوضارها ،وجعلت الناظر إليها يشعر أنه يقرأ قصيدة بليغة من الشعر عن الحرب دون أن يعيش أيام الحرب ذاتها » .

ومع طول مدة الحرب وزيادة الوفيات الناجمة عنها وشلل وسائل المعيشة وزيادة نسبة الفقر والحرمان المتسببة عنها تغيرت الأحوال . ففي سنة ١٩١٥ نحت مؤلف روسي يدعى جريجوري ألكسنسكي في تقرير لناشر فرنسي عن دور دولته في النزاع — نحت تعبيراً جديداً يصف حالة أخذت تظهر في بطرسبرج وفي موسكو .

وهذا التعبير أسخط النحاة المعاصرين، ومع ذلك اتخذ سبيله إلى لغة الصحفيين في بلاد كثيرة . أما هذا التعبير فهو «دعوة الهزيمة » . وكانت دعوة الهزيمة كحركة منتظمة مقصورة في أول الأمر على روسيا والنمسا . ولكن في جميع البلاد المتحاربة تغيرت النظرة إلى الحرب من اعتبارها محاولة هادفة إلى بلوغ أمجاد بطولية إلى اعتبارها نكبة طبيعية عامة ، أو كما وصفها الشاعر الألماني رينر ماريا رلكه «القضاء المبرم على مصير الإنسانية » .

وقد ظل الجندي البريطاني بطلا إلى النهاية وكذلك الجندي الفرنسي والألماني . ولكنه أخيراً رأى وهو ساخط أنه بعض ما تحشى به آلة تقطيع اللحم التي تتغذى بأجساد الأحياء وتقذف بها جثثاً هامدة وهي لا تزال ثابتة في مكانها لا تريم.

وزاد كره جندي القتال للكسالى والنفعيين ، وغير هذا الكره نظرته إلى الحرب . هذا فضلاً عن أن إيمانه بالقيادة المدنية التي عجزت عن أن تبعد عنه

كارثة الحرب ، وإيمانه بالقيادة العسكرية التى عجزت عن كسبها ، قد تحول أولا إلى شك ثم إلى سخط ويأس . ثم تولدت خرافة «القبعة النحاسية» ، التى تقضى على الرجال دون شفقة أو رحمة . ثم بلغت الأمور ذروتها بعد الحرب فيما ألف من الكتب والمسرحيات مثل . « الوداع لكل هذا » لروبرت جريفز و « وداعاً للسلاح » « لهمينجواى . و« كل شىء هادئ فى الميدان الغربى » لإريش ماريا ريمارك و« ماثمن المجد » للورانس ستالنجز وما كسويل أندرسن . « ورحلة إلى نهاية الليل » للويس فرديناند سيلين . وكلها تمثل الانعدام الأدبى التام فى أقصى درجاته ، وخرافة القبعة النحاسية — ليست كغيرها من الخرافات من حيث إنها تعبر عمن يقتلون بالجملة — لها أساس فى الواقع . فبعض القواد أقل كفاية أو أشد قسوة من غيرهم — فالألمان كانوا أكفأ من غيرهم كما كانوا أحرص على حياة رجالهم — ولكن جميع طبقة رجال الحرب فى أوربا قبل سنة ١٩١٤ — مثل طبقة السياسيين وطبقة الحكام ، ليس لهم من الكفاية الفنية ولا من الكفاية العاطفية ما يمكنهم من احتمال مسئوليات الحرب الحديثة ، ولا بد من مرور بعض الوقت حتى يتكيف الناس مع الأحوال الجديدة ، علماً بأنه لم ير الناس أو يتخيلوا من قبل ما يشبه الحرب العالمية الأولى (عندما وقعت الحرب العالمية الثانية كانت القيادات الحربية فى معظم البلاد متمشية مع الزمن ، أو على أسوأ الفروض كانت متأخرة بالنسبة لحرب واحدة بدلا من حربين أو ثلاث حروب كما فى حرب سنة ١٩١٤) . وكان قصور عقول القيادات الحربية فى الحرب العالمية الأولى عن تفهم النواحى التكنيكية والسيكلوجية لحرب الخنادق مسألة أحسها جمهور من شهود الثقة المعاصرين من جميع المستويات .

ومن تعليق جريفز « وأغلب هؤلاء (القبعات النحاسية) على مايظهر أكفاء لارتكاب مالا نهاية له من الحماقات . أعرف واحداً منهم أمر بإطلاق الغاز من

خنادقنا « مهما ترتب على ذلك من نتائج » مع أن الرياح كانت تهب في وجوهنا. لم يجرب واحد منهم حياة الخنادق لحظة واحدة حتى يعلم الظروف التى يعيش فيها جنودهم » .

ولم تكن الأحوال بأفضل منها لدى الجيش الفرنسى . ويقول أبل فرى الوزير الفرنسى الشاب الذى هجر وظيفته فى كيه دور ساى ليعمل فى الخنادق « إن الخراب الذى حل بالجيش ، والذى نجم عن فشل هجوم ١٦ من أبريل . كان مخيفاً » ، مشيراً بذلك إلى الهجوم الذى قام به الجنرال نيفل فى شمبانيا فى سنة ١٩١٧ . ويستطرد أبل فرى قائلا « لقد ثارت فرق وكتائب بأجمعها . والأسباب التى أدت إلى هذه الحالة عديدة : منها الإفراط فى الشراب ، وقلة الغذاء أحياناً ورداءة مواطن الاستراحة خلف الخطوط ، وعدم إتاحة وقت كاف للراحة ، وأخيراً فشل الهجوم . ومن المحزن أن نتيجة سياستنا الحربية فى ثلاث سنوات كانت مائتى مليون قتيل . ولا شىء يحمى حياة الجندى الفرنسى من قواده الذين يتصرفون فيها تصرفاً سيئاً ، أو من حلفائه الذين يطمعون فى الكثير منه . لقد عرف ذلك وثار على هذه الأوضاع . إنا نسير نحو السلام عن طريق الثورة . وكل الأمم سواء المحاربة منها وغير المحاربة فى طريقها إلى الثورة، والشعوب تهدد بإجراء الصلح على غير إرادة حكوماتها » .

ويبدو أن فرى الذى قتل فى سنة ١٩١٨ من إصابته بقنبلة ألمانية كان على حق فى كلامه الخاص بفرنسا . فقد أخذت كتائب متمردة عديدة من جهة شمبانيا تسير متجهة إلى العاصمة وهى تنشد النشيد الاشتراكى «الإنترناسيونال» ولكنها أوقفت فى الوقت المناسب ، ورغبة فى إعادة النظام إلى الجيش الفرنسى المفكك أصدرت المحاكم العسكرية ٢٥٣ حكما بالإعدام — بعضها دون تحقيق دقيق — رغما عما قيل من أن الذى نفذ منها كان ٢٥ حكما . وفى سائر أنحاء أوربا كانت دعوة دعاة الهزيمة آخذة فى الانتشار كما تنبأ فرى بذلك .

وكان أن فقدت الجماهير الأوربية الثقة فى قيادتها ، وهى نتيجة حتمية لواقع الحال ، وتطلعت إلى السلام ، حتى إذا مضى جيل من الزمان ، نجحت دعوة النازية الماكرة إلى التعايش السلمى فى سنة ١٩٣٨ وشلت الدعوة المقاومة البريطانية والفرنسية للتوسع النازى فى سنة ١٩٣٩ . وقد تأثرت عواطف الأوروبيين حينذاك ، ولم تعد القيادات مناسبة للزمن ، كالأسرات التى كانت تتمسك بنظرية الحق الإلهى ومن يؤيدها من الحكومات الأرستقراطية . وقد أصبحت لاتقوى مطلقا على صد زوابع الشك والثورة التى كانت تهب عليها من ميادين القتال . وأمكن قليل من الملوك الحاكمين — وبخاصة اسكندر الأول ملك الصرب الشاب وألبرت الأول ملك بلجيكا — إنقاذ مكانة أسراتهم بمشاركتهم المآسى التى كانت تتجرعها شعوبهم . ولكن آل هابسبرج وآل هوهنزولرن وآل رومانوف لم يكن لهم صلة بالشعوب — إلى غير ذلك من العيوب .

ومنذ نشوب الحرب أجبر أصحاب الحكم المطلق على أن ينزلوا عن معظم سلطانهم إلى قواد الجيش الذين كانوا يعملون اسمياً مستشارين لهم . وانتقال السلطة كاد أن يكون تاما فى النمسا والمجر . ومما قاله فرانسيس يوسف إلى صاحب حاجة « لاأستطيع أن أعمل لك شيئا . ألا تعرف جاويشاً له نفوذ ؟ » .

ونزل الميدان قيصر ألمانيا قائدا أعلى للجيش عند بدء الحرب ، ولكن هذا لم يزد على انتقاله إلى مقر رياسة الجيش فى شارلفيل . وهى مكان آمن وراء الخطوط ، حيث شارك الجنود تقشفهم بأن اقتصر على أربع وجبات فى اليوم وعلى شرب البيرة بدلا من الشمبانيا . ولم ير إلا نادراً جداً فى منطقة الخنادق ، ولكن هذا يعد عملا طيباً من وجهة النظر الأدبية . وبعد أن ابيض شعر غليوم وظهرت التجاعيد عميقة فى وجهه مع ضعف الحركة فى ذراعه بعد سنة ١٩١٤ ، لم يعد شبيها

بالصورة العسكرية التى ظلت مسيطرة على خيال الشعب حقبة طويلة من الزمان . ولم يحاول محاولة جدية أن يقبض على أزمة الحرب ، وظل معظم أوقات الحرب قانعا بالاستماع إلى موجز أنبائها . وبعد سنة ١٩١٦ لم يكن القيصر إلا رمزاً للرياسة . وكان الحاكم المطلق الحقيقى لا فى الشئون العسكرية وحدها بل وفى الشئون المدنية كذلك هو الجنرال لودندورف — إلا فى الأمور السياسية — وكان رسول الحكم بالسيف الذى يتحكم فى رئيسه الأسمى القائد الأعلى الجنرال هندنبرج .

والصور الرسمية للودندورف فى أوج رفعته فى أثناء حياته العجيبة نماذج ممتازة تمثل حفريات التاريخ الأوربى . وهو يبدو منتفخاً كأنما يملؤه الإعجاب بنفسه . وسحنته سوقية دون أدنى شك . ولودندورف من القادة البروسيين القليلين الذين ينحدرون من عامة الشعب دون أن يكون فيه مسحة إنسانية . وإنا نرى فى عينيه الباردتين المنتفختين وفى فكيه البارزين وفى ذقنه السمينة التى تشبه ذقن المرأة وفمه الذى يشبه فم سمكة المحيط الكبيرة ، ما يدل على التطور الملحوظ فى أبناء جيل الدم والحديد أيام بسمارك ، أولئك الذين أسسوا الإمبراطورية الألمانية . ولودندورف الذى كان يبلغ التاسعة والأربعين عند نشوب الحرب يعد من أوائل من قضوا على المدنية الأوربية فى الجيل الذى وجد فيه . وقبل أن يخمد نشاطه ويدخل فى طور الشيخوخة فى أثناء الثلاثينيات من عام ١٩٣٠ ، كان عليه أن يدفع أسرة هوهنزولرن إلى مصيرها المحتوم ، بدعوة النازى للقيام بدورهم فى التحكم فى العالم وتأكيد انتصار البلشفية فى روسيا . والحرب لاشك هى التى هيأت له هذه الفرصة . فهو الذى وضع خطة الهجوم على حصن لييج ، كما كان رئيس الهيئة الحربية لهندنبرج ، ولكن صعوده السريع إلى ذروة النفوذ الذى لاحد له ولا مسئولية فيه يفسر مااعترى المجتمع فى عهد غليوم من تقوض ، والروح

الحربية الألمانية من فتور ، كما أنه يفسر النقائص التي كانت في أسرة هوهنزولرن .

وكان ابنا القيصر وكثير من أمراء الأسرة الذين يلونهما في المنزلة يتولون مراكز حربية . ولكن هذه المراكز أصبحت عبئاً على أسرتهم أكثر مما هي ميزة لها . وكانت حياة ولى العهد الحربية بخاصة مصدر شقاء ، وإن كانت قد بدأت بشيء من الأمل . فني بدء الحرب وضع ولى العهد في مركز قيادة الجيش الألماني الخامس في جبهة اللورين، وأكسبه نجاحه في عمله في أول الأمر تقدير القيصر الذي منحه نيشان الصليب الحديدي من الدرجة الأولى ، وبهذه المناسبة أرسل القيصر للقيصرة برقية تهنئة جاء فيها « أشاركك البهجة للنصر الأول الذي أحرزه غليوم . لقد كان الله معه » وبعد ثمانية عشر شهراً تخلى عنه حليفه السماوي. كان ولى العهد القائد الأسمى للجيوش التي كانت تحاول الاستيلاء على فردان . ورغم أنه انتقد بكفاية ممتازة خطة الهجوم التي وضعها رئيس للهيئة والتي كان مجبراً على إقرارها ، فقد علقت به مسئولية كبرى في إحدى الهزائم الباكرة للقوات الألمانية .

ومما كتبه ولى العهد بعد انتهاء الحرب « وقعت معارك قاسية وهجمات شديدة عدة أسابيع وعدة أشهر بعد هجوم فبراير الذي قمنا به بشجاعة ، ثم أعقب ذلك وقف الهجوم بسبب تفرق قواتنا . ثم تلت ذلك وقفتان لم تتقدم في أثنائهما قواتنا، وترتب عليهما انتزاع جزء كبير من ميدان الحرب الذي روته دماؤنا . ولأول مرة أحسست مرارة الهزيمة . وقد أثقل قلبي وأجهد عقلي عدم الثقة بالنفس وتوبيخ الضمير والإحساس بمرارة الفشل والأحكام الظالمة الموجهة للغير . ولم تعد إلى نفسي الطمأنينة والإيمان إلا بعد وقت طويل ».

ولم يعد الإيمان إلى الجيش الألمـانى ولا إلى الشعب الألمانى بعد ذلك .

ولم يكن الإيمان بالنصر النهائى فحسب هو الذى ضاع منا بل ضاع منا الإيمان فى النظام الاجتماعى وفى الأسرة التى كانت سببا فى مجازر كانت فى فردان .

أما بالنسبة للشعب الروسى والجيش الروسى الذى فقد حتى عام ١٩١٧ تسعة ملايين رجل بين قتيل وجريح وأسير ، فالمسألة ليست فى تفسير سبب ثورتهم آخر الأمر ، ولا فى الاتجاه الذى أخذته، بل فى السبب الذى أدى إلى تأخير قيام هذه الثورة .

الفصل الثالث عشر

انتحار الملكية فى روسيا

سارت معظم الشعوب التى اشتركت فى الحرب إلى ميدان القتال سكرى بالشعور الوطنى . ولكن روسيا القيصرية سارت إلى الحرب فى وعى تام وخطى ثابتة . والاحتفال الذى حدث بعد ظهر يوم ٢ من أغسطس كان جليلا ومؤثرا معاً، ولربما كان أهم لحظة فى تاريخ روسيا الحديث . وكان رجال الحكم الذين قاموا به جديرين بهذه المأساة التى لم يقوموا بها إلا مرة واحدة فى تاريخ البلاد . وهكذا كان المنظر الذى يبدو للعيان . وكان قلب بطرسبرج الإمبراطورى وهو فى أوج عظمته ، عليه جمال الشفق الغارب الذى ينذر بالفناء . كتب جورج كنان أحد كتاب الغرب الحديثين الذين تأثروا بسحرها قال « هذه المدينة من أغرب المراكز الريفية فى العالم ، ومن أجلها وأشدها رعبا وأعظمها سحراً . فسماؤها متسعة ودائرة الأفق فيها بعيدة وممتدة . وتحت مثل هذه السماء يبدو أن أصابع القدر تستطيع أن تصل من بعيد كما تصل أشعة الشمس لتجد الناس فتشكل حياتهم وأعمالهم، ومن شأن الأحداث أن تقع وأن تنتهى إلى مواقف لم يرسمها أو يخططها أحد ، ولكن يعترف بها بعد حدوثها كل الناس على أنها أمور واقعة لامحالة، وإلى حد مامعروفة معرفة غير دقيقة ».

ولقد كان المنظر الذى بدا للعيان فى عصر ذلك اليوم من أغسطس سنة ١٩١٤ فى قصر الشتاء وخارج هذا القصر يخالف تماما ما فى المؤامرة المبيتة . ولقد وصفه شاهد عيان فى الغرب كان فى وسعه الوقوف على مافيه من مظاهر وما ينطوى عليه من شعور .

وفى رأى السفير الفرنسى موريس باليولوج أن الإخراج المسرحى كان رائعاً .

قال : « اجتمع فى فناء كنيسة سان جورج المطلة على نهر النيفا حوالى ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ شخص ، وكان الجميع فى ملابس الاحتفالات الرسمية . وكل ضباط الحرس فى ملابس الميدان، وكان المذبح مقاما فى الوسط ، وأيقونة عذراء كازان العجيبة التى رفعت بضع ساعات من المزار الوطنى نقلت إلى هنا . . . وفى صمت دينى رهيب اخترق الركب الإمبراطورى المكان ووقف على يسار المذبح .

وبدأت الصلاة وسمعت معها الأناشيد الدينية الأرثوذكسية ، وأخذ نقولا الثانى يؤدى صلاته فى خشوع تام أضفى على وجهه الأصفر تعبيراً غريباً . ووقفت ألكسندرا فيدروفنا بجانبه منتصبة القامة مرفوعة الرأس داكنة الشفاه ثابتة النظرات براقة العينين ، وكانت تغمض عينيها من حين إلى حين ، وفى تلك الأثناء يبدو وجهها وكأنه مغطى بغطاء الموتى » .

وبعد ذلك أخذ القسيس يقرأ بيانا من القيصر ، ثم اقترب القيصر من المذبح ورفع يده نحو التوراة التى قدمت إليه . وفى نبرات هادئة بطيئة مؤكدا كل كلمة يلقيها قال « ياضباط الحرس الماثلين فى هذا المكان ، أحيى فى أشخاصكم كل الجيش وأباركه . وأقسم قسما عظيما أنى لن أوقع على صلح طالما بقى فى أرض الوطن فرد واحد من الأعداء » .

وهذا القسم هو نفسه الذى حلفه القيصر اسكندر الأول سنة ١٨١٢ عندما غزا نابليون روسيا . وبعد إلقاء القسم أمام جموع الشعب المتحمسة المهللة فى فناء كنيسة سان جورج، خرج القيصر إلى الشرفة المطلة على ميدان قصر الشتاء ، وهو نفسه المكان الذى فيه — فى يوم آخر من أيام الآحاد سنة ١٩٠٥ — أخذ جنوده يضربون المتظاهرين وهم عزل من أى سلاح . وفى هذه المرة ملأت الجماهير الميدان — وهو ثالث ميدان فى أوروبا من حيث سعته — يلوحون بأعلامهم

ويرفعون عالياً أيقوناتهم وصور إمبراطورهم — ولكن فى هذه المرة كان الإمبراطور وشعبه يشعران نفس الشعور الذى ينطوى على الفخار والاعتزاز، وعندما أعاد القيصر قسم أجداده التاريخى جثث الجماهير على ركبها وأنشدوا النشيد الإمبراطورى « حفظ الله القيصر » وأتبعوها بنشيدهم « ياإلهى احفظ الشعب، وبارك نعمتك عليه » ودعوا ربهم أن يقيهم شر الحروب » .

ثم يعلق باليولوج قائلا : «وفى هذه اللحظة كان القيصر لدى هذه لآلاف من المنطرحين على الأرض هو حقاً الحاكم المطلق الذى اختاره الله لهم ، وهو الرئيس الأعلى السياسى والدينى والحربى لشعبه ، كما كان هو الحاكم المطلق المتصرف فى الأبدان والأرواح » .

ولم تكن هذه الحماسة الوطنية المتقدة وهذا الولاء للأسرة الإمبراطورية الذى شهده باليولوج وغيره فى سان بطرسبرج هو الظاهرة الفريدة فيها . إنه كان متفقا مع الحالة التى كان عليها الشعب الروسى كله حين ذهب إلى ساحة الحرب (وكان بعض مظاهر هذه الحالة تغيير اسم العاصمة إلى بتروجراد ، وهو اسم سلافى لاعلاقة له مطلقاً بالروح الألمانية) .ولم يكن الأمر مقصوراً على الشعور الوطنى الفياض الذى وحد بين جميع الطبقات ماعدا قلة من أصحاب الرأى المتطرفين ، بل عاد الصفاء بين أسرة رومانوف والشعب الروسى . وكان يبدو فى تلك الفترة أن ذكرى أحداث سنة ١٩٠٥ قد محيت بقوة سحرية من العقل الروسى، وأن القدر الذى هيأ للحكومة الانتصار عل الثوريين قد أقر لها النصر . وأن التاريخ قد منح نقولا الثانى فضلا قلما يجود به — لقد منحه فرصة ثانية .

ومما جعل الموقف فريدا ، أنه منذ أن قتل ستوليبين سنة ١٩١١ كان حكم القيصر يسير من سيىء إلى أسوأ فى حمأة الرجعية ، بينما يزيد السخط العام زيادة

مستمرة . ولئن هدأ من عنف الحركة الثورية رخاء الطبقة المتوسطة بسبب ماجلبته حركة التصنيع المباركة لهم من الخير ، وظهور طبقة جديدة من أصحاب الأرض المزارعين نتيجة للقوانين الزراعية التى أصدرها ستوليبن ، إلا أن شعور عمال المصانع عاد إلى الناحية الثورية على أثر نسيانهم الإجراءات التى اتخذت لقمع ثورة سنة ١٩٠٥ . وفى السنة السابقة للحرب بلغ عدد الإضرابات والاضطرابات نسبة عالية . ولو تأخرت الحرب سنة واحدة لوقعت فى روسيا عدة اضطرابات جديدة .

ولقد قلبت سراجيفو الحالة الاجتماعية والوضع السياسى رأساً على عقب . وفى نظر متطرفى الطبقة الوسطى — فضلا عن كل العاملين فى الجيش والإدارة — كانت الحرب هى الفرصة المواتية لمحو عار الهزيمة التى منى بها الروس فى الحرب الروسية اليابانية ، ولتحقيق هدف الروس العتيد بالاستيلاء على الدردنيل . وفى نظر أصحاب الرأى فى البلاد ودعاة الجامعة السلافية كان الأمر أشبه بالجهاد المقدس لتحرير السلاف الذين هم فى البلقان . وفى نظر الأحرار كانت الحرب حرباً عادلة إذا كان الروس فى جانب فرنسا وإنجلترا . وهما الحليفتان المستنيرتين ، وهما القدوة التى تحتذى فى الإصلاح الجذرى فى روسيا عندما يتم النصر للدول الثلاثة المتحالفة . وفى نظر كثير من الثوريين اليساريين — باستثناء البلاشفة طبعاً — كانت الحرب حرباً تقدمية تقضى على الروح الألمانية العسكرية التى تؤيد الحكم المطلق الروسى ، وتمنح العمال والفلاحين كثيراً من المزايا الجديدة .

ولقد أظهرت الحرب بين رجال الحكم وفى أفراد الشعب كله كنوزاً من الولاء والبطولة والتعاون الاجتماعى ، لم تكن لتظهر من قبل بسبب الفساد والفوضى فى نظم الحكم المتداعية . ولقد تطور نقولا نفسه من جملة وجوه . ودرست

ألكسندرا منهجاً فى الحضانة .وانخرطت فى كثير من الأعمال الحربية . ومع أن الحرب قد أيقظت القوة الكامنة فى روسيا القيصرية ، إلا أنها أظهرت بجلاء مع الأسف الشديد عيوب نظام الحكم . ولم تكن المثل العليا نادرة فى روسيا ولكن التنفيذ هو الذى كان يعوزها . ولقد قضت على القيصر الروسى وعلى الأحرار الروس فضائلهم كما قضت عليهم نقائصهم . ولم يكن لدى المحافظين ولا المجددين فى روسيا من الآراء الصائبة ما يمكنهم من مواجهة تجربة الحرب الحديثة .

ولقد بعث جريجورى راسبوتين ـ وكان يوماً ما الملك الموكل برعاية الدولة لا شيطان الشر فيها ـ من سيبيريا إلى صديقته القيصرة الحميمة أنافيروبوفنا عند ماسمع بنبأ الأزمة قال : « ليتجنب بابا نقولا الحرب . فالحرب توصل روسيا إلى نهايتها . وأنتم كذلك إلى نهايتكم . وستحل بكم الخسارة إلى آخر فرد فيكم » .

وأخذت تظهر تدريجاً حالة الضعف المريعة فى نظام روسيا القيصرية من أثر ويلات الحرب . وكان يبدو فى أول الأمر أن الجيش الروسى استفاد من الدروس التى تعلمها من هزيمته فى الحرب اليابانية قبل ذلك بعشر سنوات ، وكانت روسيا لا تزال متأخرة فى قوة المدفعية الثقيلة والمدافع الآلية كسائر الدول المحاربة ، ولكن قوة المشاة كانت جيدة التدريب ، وقيادتها فى أيدى ضباط مقتدرين فى عملهم ذوى نصيب كبير من الشجاعة . والذى أدهش الأجانب بصفة خاصة تلك العلاقات الطيبة التى شاهدوها منذ بدء الحرب بين الفلاحين الذين كانت تتألف منهم معظم القوة المحاربة ، وبين الشبان الأرستقراطيين الذين تولوا قيادتهم . وفى الفرق المحاربة على الأقل ، لم يعد الضباط هم الشباب العابثون فى الملابس الرسمية كما كان الحال من قبل . ورغم نظام الجيش وقواعد الإتيكيت البالية التى كانت فى الجيش الروسى كان القادة على علم بجنودهم وكانوا موضع احترامهم .

وكان يمثل فضائل الطبقة الحربية الأرستقراطية وأخطارها عام ١٩١٤، القائد الأعلى للجيش الدوق نكولاس عم القيصر . وكان رجلا فارع الطول عريض الكتفين، يدل مظهره على صراحته ونشاطه ، ولو أنه لم يكن « الجندى العظيم وواضع الخطط الحربية الكفء » الذى أضفى عليه هذا الوصف لودندورف ، وإنما كان صاحب مهنة أتقن أصولها وواجباتها . وكان موهوباً فى القيادة وفى تقديره للواجب العسكرى وفى شجاعته الأدبية والخلقية . ولم يكن حديثاً فى أفكاره الفنية ، كما كان يرى فى أعماله العسكرية أموراً يمكن الرجوع فيها إلى رياسة أركان الحرب ، وفوق ذلك نسى أو لعله كان يجهل الأمور السياسية والاقتصادية والإدارية . وأكثر من كل ذلك كان كسائر الروس فى عصره — نظرياً متحمساً يخلط دائماً بين الآمال المرجوة والحقائق المطلقة . وعندما زاره باليولوج بناء على تعليمات جاءته من باريس بعد قيام الحرب ببضعة أيام يرجوه القيام بهجوم على الجبهة الشرقية ، هاله الحماسة العجيبة التى أجاب الدوق بها السفير .

لقد أجاب السفير المذهول بأن الله وجان دارك كانا معهم . « إن النصر سيكون من نصيبنا، أليس من رضا الله أن يكون للحرب هذا الهدف النبيل ؟ » إنه سوف يأمر بالهجوم ويستخدم كل ما لديه من قوة وقال « وقد لا أنتظر حتى يتم تجميع كل الجنود الذين تحت قيادتى . وبمجرد شعورى بكفاية القوة التى لدى سأقوم بالهجوم » .

ولم يرفض القيصر مطلقاً ولا الدوق أى طلب من حلفاء روسيا للتضحية بأرواح الجنود الروسيين لتخفيف ضغط الألمان على الجبهة الغربية . وكان هذا الهجوم الذى يؤمر به لتخفيف ضغط الألمان على الغرب ، يتم بكل قوة — وإن كان ينقصه الكفاية — بشكل انتحارى فى بعض الأحيان . ومن

الأمثلة العنيفة ما قام به الروس من هجوم فى قطاع البحر البلطى حول بحيرة ناروك شرقى ، وقلنا رغم قسوة الجو فقد أمر القيصر بالهجوم . يفسر باليولوج الموقف بأن القيصر أمر به « إرضاء للضمير العام » الذى أيقظه الدفاع الفرنسى المجيد عن فردان ، فبعد استعداد سريع للمدفعية قام المشاة الروس بإحدى هجماتها . ودون اهتمامه بما لحق الجيش من خسائر فادحة وصل إلى جميع أهدافه الأولية . ثم حدث ذوبان مفاجئ وسريع للثلوج حول ساحة القتال إلى مستنقع . ونزلت المدافع الروسية فى قراره . وبهذا حرم المشاة من معونة المدفعية ، وأصبح من غير الممكن نقل مطابخ الميدان مع الجنود المتقدمة ، وجاهد المشاة الروس فى التقدم تحت وابل من النيران ، وقد ابتلت ملابسهم وخلت أيديهم من الطعام والمؤن ، سائرين فى الوحل الذى غاصت سيقانهم فيه ، وكثيراً ما تلطخ فيه الجرحى بعد سقوطهم فيه . ثم هبت عليهم الرياح الباردة من جانب القطب الشمالى محملة بالثلوج . وكل من أمكنهم من الجرحى الهرب من الغرق فى الوحل وقعوا فى الثلوج وماتوا متجمدين فيها قبل تمكنهم من الإفلات . والقلة التى أمكنها النجاة بنفسها ذاقت مر العذاب من تأثير الثلوج فى أجسامها . وأخيراً فقد الروس فى آخر أبريل كل ما كسبوه من الأرض عندما خفت شدة القتال . ومن وجهة نظر الحلفاء يمكن أن يعد الهجوم الروسى الذى استمر خمسة أسابيع ذا أثر طيب ، فإنه تسبب فى تخفيف الهجوم الألمانى على فردان . وكانت خسارة الروس ٢٥٠٫٠٠٠ من القتلى والجرحى والمفقودين . وكان فى وسع الضمير العام الروسى أن يكون فى غاية الاطمئنان .

وعندما نستعرض تاريخ الأحلاف لا نلقى إلا قلة من الأمم أظهرت من الإخلاص لحلفائها ما أظهرته روسيا بإصرار ، من أغسطس عام ١٩١٤ إلى أكتوبر عام ١٩١٧ . وقلة من الأمم أيضاً لقيت من حلفائها من قلة التقدير ونكران

الجيل ما لقيه الروس من حلفائهم . وكان على الروس الفقراء فى آلات الحرب الثقيلة ، الأغنياء فيما لديهم من الرجال أن يستخدموا الأجساد البشرية فى كل ما يستخدم غيرهم من المحاربين والألمان بصفة خاصة الصلب والمفرقعات . وكان الروس يعوزهم السكك الحديدية . وكان على القواعد الصناعية أن تمد العمليات الهجومية المستمرة بما يلزمها من المؤن وكانت القوة الروسية فى كفاية أعدائهم النمسويين ، إذا وازنا بين الوحدات الحربية لدى كلتا الدولتين ، ولكنهم كانوا دون الألمان فى التنظيم والتدريب والإعداد وعمليات الهجوم .

ومع هذا فكان الأعضاء الغربيون من الحلف والفرنسيين بخاصة يلحون على الروس أن يتبعوا سياسة الهجوم ،سواء أكانوا فى وضع مناسب للهجوم أم لا، وأن يقوموا بالهجوم على أشد الأعداء بأساً وفى أشد قطاعات الحرب منعة وقوة . ولقد كانت مطالب الغرب الملحة هذه من إلى الجيش الروسى عاملا قوياً ،بل كانت هى العامل الأقوى الذى سبب أخيراً وقوع الثورة . وربما لم يكن لذلك هذا الأثر السيء لو أن العقل الحربى القيصرى — مع ما اختلط به من الحماسة ورعونة فرق الفرسان والشعور بالقبعة — لم يكن مستسلماً لعوامل الضغط . إن روسيا سنة ١٩١٤ كانت بلاداً متخلفة ، وكان هناك شعور بالرغبة فى التضحية لدى كثير من الروس إرضاء لحلفائهم الغربيين « المتفوقين » ،وكان هذا الشعور فى غاية الظهور فى عهد كرنسكى قال سازانوف وزير خارجية روسيا لباليولوج بعد موقعة تاننبرج « نحن مدينون بهذه التضحية لفرنسا » . وكانت هذة الموقعة نتيجة وعد الدوق أن يقوم بالهجوم دون تأخير فى بروسيا الشرقية ، وهو الهجوم الذى كلف روسيا ١١٠٠٠٠ رجل .

وزيادة على ما نتج عن القيادة الطائشة والحلفاء القصيرى النظر ، أصيب الجيش الروسى بخسارة فادحة بسبب ما لاقى من العقبات والصعاب ،

والتى منها ضعف القيادة، والعتاد وهو ما ذكرناه فيما سلف، وزاد فى شدة وقعه ما صاحبه من عوامل أخرى إضافية .

وكانت الجاسوسية الألمانية أحد هذه العوامل . واتهام ألمانيا بعد ثورة فبراير بأن لها عملاء بين الحاشية الإمبراطورية وفى الإدارة على مستوى الوزراء لم يكن ثابتاً ثبوتاً قاطعاً . ولكن الذى لا شك فيه أن شبكة جاسوسية كبيرة أساسها التوغل التجارى الألمانى أقيمت فى روسيا قبل نشوب الحرب ، وكانت الأنباء الحربية التى تقوم بإبلاغها فى غاية الأهمية . ولربما كانت من أهم العوامل القاطعة فى هزيمة روسيا فى موقعة تاننبرج .

وأشد من هذا خطراً ما كان يعاب على الروس من ضعف كفايتهم وانتشار الرشوة بينهم ، مما كان شائعاً فى القطاعات الهامة فى الإدارات القيصرية ، وترتب عليها حرمان الجبهة المحاربة من المؤن والعتاد الذى كانت روسيا قادرة على صناعته وتوريده . ولا شك أن من الخطأ الذريع أن يكون هناك نقص فى المدافع الثقيلة أو مدافع الميدان، بل كثيراً ما كان على رؤساء الكتائب أن يقوموا برد العدوان الموجه إليهم ، أو بهجوم على العدو دون أن يكون معهم قنابل لما فى أيديهم من آلات، أو خراطيش لما معهم من بنادق ، وأحياناً لم يكن لدى المشاة بنادق مساوية فى عددها للجنود المحاربين . ومما عرف عن الروس أن من بين كل ثلاثة جنود جنديان لا يحملان من الأسلحة إلا حربة مربوطة فى عصا. ولقد أعدم وزير الحربية الجنرال فلاديمير سوكولينوف ـ وكان من حاشية راسبوتين ـ أعدم سنة ١٩١٥ لأنه سمح بوجود هذه الحالة، ثم تحسنت حالة التموين بعد ذلك بعض الشيء ولكن بعد أن سبق السيف العزل . لقد فقد الجيش الروسى ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ رجل فى السنة الأولى من الحرب ، وكان مجموع خسارة روسيا فى الحرب ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ رجل ، أى ٧٦٪ من مجموع من اشتركوا فى الحرب من الجنود .

قال أحد المشاة الروس للمؤرخ البريطانى بيرز عند زيارته لجبهة الحرب سنة ١٩١٥ « لا يخفى عليك يا سيدى أنه ليس لدينا أسلحة إلا صدورنا » وقال له جندى آخر « ليست هذه حرباً يا سيدى ولكنها مجزرة » .

ومما كتبه هندنبرج فى مذكراته — ولم يكن له إحساس المشاهد المرهف — يصف المجازر التى روعته قال « فى بعض الحالات التى كنا نحارب فيها الروس كان علينا أن نزيل تلالا من الجثث الملقاة أمام خنادقنا حتى نتمكن من تصويب النيران إلى أعدائنا فى موجات الهجوم الجديدة » . وكثيراً ما تخلق الهزيمة فى الحرب الحلقة المفرغة من الظروف التى يجد الجيش المهزوم كل صعوبة فى التغلب عليها .

وهذا عين ما حدث للروس فى الحرب العالمية الأولى . فإن هزيمتهم فى عشرة الأشهر الأولى من الحرب قضت على جيل كامل من شباب الضباط ذوى الكفاية ، الذين كانوا ذخيرة روسيا الكبرى كما كانوا عمادها فى منع الثورة . وأعقب هذا انحطاط فى كفاية القيادة الروسية فنياً وأدبياً وفى كفايتها السياسية كذلك ، فضلا عن زيادة فى الخسائر ، مما كان من الممكن تجنبها ، وفقدان الثقة بين الجنود وضباطهم مع ضياع كل أمل عندهم فى بلوغ النصر . هذا إلى أن توالى الهجوم الألمانى فى ربيع سنة ١٩١٥ وصيف السنة نفسها — وهو الذى أجلى الروس عن معظم أنحاء بولندا وعن جزء من أوكرانيا وبعض مناطق البحر البلطى ، مما حرمهم من خير سككهم الحديدية — قد زاد من مصاعبهم وضاعف من سوء أحوالهم .

وكان من نتيجة محاولة الروس القضاء على المصاعب التى فى جبهة القتال أو تقليل حدتها ما جلبته القيادة الحربية الروسية على سائر أنحاء البلاد من الفوضى الخلقية والفوضى الإدارية . فقلت السكان المدنيين ومعظمهم من اليهود ، من إحدى المناطق المتسعة وراء خطوط القتال إلى مناطق داخلية مزدحمة جداً

بالسكان ، دون أى اهتمام بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية السيئة الناجمة عن ذلك ولا بالبؤس الذى خلقته بهذا التصرف . ودون أى تبصر بالعواقب كذلك زاد الجيش من استياء الشعب بإجبارهم على الرضى بما يخسرون من متاع أو حيوان معد للنقل . وكان أقسى نصيب من الخسارة ما وقع على كاهل الفلاحين الذين أصبحوا من ملاك الأراضى نتيجة لقانون الإصلاح الزراعى الذى صدر فى عهد ستولبين . وهؤلاء أصبحوا عاجزين عن العمل فى حقولهم بعد تشريد أبنائهم ، والاستيلاء على دوابهم ، وهكذا عطل الجيش — بلا تعقل — منهج الإصلاح الذى ربما كان حائلا دون ثورة البلاشفة — وتروتسكى — على الأقل — إن ذلك كان ممكناً .

· ·

إن أخطر خطأ ارتكبته القيادة القيصرية بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٧ عدم الحيلولة دون وقوع الحرب . وكل خطأ وقع بعد ذلك كان بطريقة أو بأخرى نتيجة لهذه الغلطة الكبرى . ومن الطبيعى أنه كلما زادت الآلام والمصائب زادت أخطاء القيادة وكبرت آثارها .

ولعل الحكومة الاستبدادية الروسية قد لاقت في محاولة التغلب عليها أكثر مالاقت أية حكومة أخرى فى التاريخ . وتذكرنا الأيام الأخيرة من عهد أسرة رومانوف ، ببعض حالات الانتحار الحتمية ، حين كان يبتلع فيها الضحية السم ويقطع شريان معصمه ، ويتسلق أسوار جسر النهر قبل أن يصوب الرصاص إلى رأسه . والدلائل التى لا يتطرق إليها الشك على انتهاء أيام أسرة رومانوف ، كانت واضحة فى الطبقة العليا من الحكومة الأتوقراطية . لقد مر بنا ذكر المسرحية السياسية السيكلوجية التى كان أبطالها القيصر والقيصرة ، ومن كان يدعى رجل الدين أو جريجورى راسبوتين . ولقد حانت المناسبة لرواية الفصل الأخير من هذه المسرحية .

هذا ولو أن نفوذ القديس ، كان آخذاً فى الزيادة منذ وفاة ستوليپن سنة ١٩١١ ، إلا أن حكم راسبوتين بدأ من سنة ١٩١٥ . وقد وقع حادثان فى وقت واحد فى سبتمبر من نفس السنة ، أكد سلطته كما مهد الطريق لتقويض أركان هذا العهد .

الحادث الأول نقض الهدنة السياسية القائمة المفهومة منذ بدء الحرب بين القيصر وبين الأحزاب الديمقراطية أو أحزاب الإصلاح فى البرلمان . ففى سبتمبر وحد قادة هذه الأحزاب نفوذهم لينشئوا ماعرف بعد بالكتلة التقدمية ، التى كانت أقوى جماعة متحدة فى البرلمان على أساس موحد ، يهدف إلى الإصلاح المتحرر المعتدل ، كما يهدف إلى زيادة المجهود الحربى . ولم يكن فى هذا المنهج أى اتجاه ثورى إذا نظرنا إليه من وجهة النظر الدستورية . ولكنه كان يتطلب من القيصر تعيين وزارة جديدة تثق فيها البلاد .

فلو أجاب نقولا هذا المطلب لكان مدعاة إلى زيادة حب البلاد له ، إلا أن هذا المطلب كان فى الوقت نفسه ضد مبدأ الحكم المطلق الذى كان يشعر فى قرارة نفسه أن عليه التمسك به وحمايته وكانت النتيجة الحتمية أنه تردد ولكن اسكندرا المشغوفة بالحكم المطلق لم يكن لديها أدنى شك فيما سوف يقرره رداً على هذا المطلب . وعندما حبذ أغلبية الوزراء قبول اقتراح الكتلة التقدمية ، وصفتهم اسكندرا لزوجها بأنهم شياطين من أعضاء الدوما . ثم إن راسبوتين الذى قد يكون رأيه فيهم أساسه الإخلاص كان مؤيداً لها . وتحت تأثيرهما رفض نقولا الالتماس الخاص بتعيين « وزارة الثقة » . وعطل انعقاد الدوما ، وهكذا خلق أزمة دستورية ظلت قائمة دون حل إلى مارس سنة ١٩١٧ .

والحادث الثانى لم يكن له أى علاج حدث فى سبتمبر سنة ١٩١٥ عندما

قرر القيصر إعفاء الدوق نقولا من مهام القيادة العليا، وهو رجل له مكانته وممن يمكن الاعتماد عليهم . وتولى هو قيادة الجيش فى الميدان . وكان القيصر يغار من الحب الذى يتمتع به عمه من جميع الناس ، واستطاعت اسكندرا بتحريض من راسبوتين إشعال نار الغيرة فى قلبه. وكان لها لدى الدوق قضيتان أرادت أن تنتهى فيهما معه: ظهوره بمظهر المتفوق على القيصر وعدم احترامه للقديس . (عندما أراد راسبوتين زيارة مركز القيادة العام ليعلق أيقونة كان قد نذرها ، أرسل إليه الدوق ـ وقد أصبح لا يثق فيه ـ هذه البرقية الشديدة اللهجة « أقدم إلى وسأشنقك » .

وإذا نظرنا إلى تغيير القيادة من وجهة النظر الحربية فالمسألة ليست بذات أهمية : فقد كان رئيس الهيئة الجنرال ميخائيل ألكسيف يتصرف تصرفاً حسناً نيابة عن القيصر ، وكان نقولا يبدى منتهى الحزم بعدم التدخل مطلقاً فى تصريف الأمور . والادعاء بأن القيصر كان فعلا يقوم بأعباء القيادة العامة ، وهو ما عمل ألكسيف المستحيل لتأكيده ، لم يكن من الأمور التى تزيد من منزلة الأسرة الحاكمة ، فإن أحوال الحرب سائرة من سيء إلى أسوأ ، والحروب التى قضت بالتغيير فى القيادة العليا أغضبت أو أيأست العناصر المستنيرة فى البلاد ، ووسعت شقة الخلاف بين القيصر والبرلمان . وفضلا عن ذلك كانت هذه القيادة الصورية سبباً فى تغيب القيصر بعيداً عن العاصمة مدة طويلة ، وفى أثناء غيابه تمكنت اسكندرا من أن تقيم ما يشبه الوصاية على القيصر ، وأن تجعل راسبوتين المستشار الحربى . ومما كتبه نقولا إلى اسكندرا فى أول خطاباته إليها وهو فى موجيليف على نهر الدنيبر، تلك الكلمة البعيدة عن الحكمة قال : « فكرى : يا زوجتى ألا تحضرين لمساعدة زوجك فى أثناء غيابه الآن ؟ » .

وكانت اسكندرا لا تنى أبداً عن مساعدته ، ويدل على ذلك ما جاء فى أحد خطاباتها

إليه (لا تهزأ من زوجك . إنها تلبس « البنطلون » الآن) . ثم إنها تركت الحكمة والتعقل جانباً ، ولم يكفها ما كانت تمطر به زوجها من النصائح وما تشير به من توظيف الموظفين حتى تدخلت فعلا فى أعمال الحكومة . بل لقد كانت تفخر فى لباقة فى أحد خطاباتها إلى نقولا بأنها أول إمبراطورة تستقبل الوزراء بانتظام بعد كاترين العظمى — التى استولت على عرش زوجها وخطيت بقاتله فى سرير نومها . ثم صار مكتب اسكندرا البنفسجى فى القصر القديم فى زارسكو هو مصدر الأوامر السرية فى الإمبراطورية .

وكان راسبوتين مثل نشاط الإمبراطورة ، ورغم معارضته للحرب فى أول الأمر فإنه أظهر الاهتمام بالشئون الحربية بعد ذلك كما يبدو من خطابات اسكندرا إلى زوجها .

١٠ من أكتوبر عام ١٩١٥ .. هو « راسبوتين » يقول إن عليك أن تصدر الأمر بعدم السماح بمرور العربات إلا ما كان منها محملا بالدقيق والزبد والسكر . ويجب ألا تسير قطارات السكة الحديد ثلاثة أيام . لقد رأى ذلك فى أحد أحلامه » .

٨ من نوفمبر « أبلغنى أمس أنه رأى المسيح يصلى من أجل رومانيا واليونان وأن جنودنا تخترق هذه البلاد » .

١٥ من نوفمبر .. « رأى راسبوتين حلماً حربياً فى أثناء الليل . وبناء عليه يأمر بالهجوم عند ريجا ، بناء على ما رآه ليلا » .

١٨ من نوفمبر .. تنقل اسكندرا أنباء جديدة من صديقنا . وتذكر أن هناك نبأ جديد « وهو لا يذكره للأسف الشديد » ، ومع ذلك فهى تختم حديثها بأن الواجب يقضى علينا « أن نفعل كل ما يشير به » .

ورغم عدم ارتياح القيصر والمجلس الحربى كان راسبوتين يصر على معرفة موعد كل حركة هجومية قادمة . وكان المبرر الذى يبديه رغبته فى الدعاء لنجاح الهجوم . ومع هذا فقد كان تشوقه لمعرفة الأنباء القادمة ناجما عن اعتبارات دنيوية ، كما يدل على ذلك الشهادة التى ادلى بها فوستوف وزير الداخلية السابق أمام لجنة التحقيق المركزية .

«ذهب راسبوتين إلى زارسكوسيلو وسأله روبنشتين (وهو مصرفى متهم بأنه جاسوس ألمانى) عما إذا كان الجيش سيقوم بهجوم قريب ، وقد أنبأ أصدقاءه أن رغبته فى المعرفة بسبب حاجته إلى شراء قطعة أرض فى مقاطعة منسك (وكان الألمان فى ذلك الوقت يحتلونها) ،وإذا كانت النية متجهة إلى القيام بهجوم هناك فإن ثمن الأرض سيرتفع ويكون من المصلحة الشراء. وقد علمت أن راسبوتين قام بمهمته وعند عودته روى ماقاله فى زاركوسيلو» .

وكان راسبوتين يلقى دائماً جزاء طيبا على الأنباء أو الخدمات التى يقدمها للانتهازيين من أصحابه ،ومنهم لاشك بعض الجواسيس الألمان .ومع أنه لم يكن ساذجا فى المسائل المالية كما يقال عنه أحياناً ، إلا أنه كان لايهتم بجمع المال لنفسه. وكلما زاد نفوذه زاد تبعا لذلك استخدام هذا النفوذ ، وكان معظم مايتقاضاه المقابل العينى من صاحبات المصالح اللاتى يرغبن فى إعفاء رجالهن من الخدمة العسكرية ، أو بعض المطالب الشخصية لهن . وكثيراً ما يتقابل راسبوتين مع إحدى العاهرات التى لا تتقاضى منه أجراً إلا توصية مكتوبة تتقدم بها إلى أحد الوزراء .

ومنذ نهاية عام ١٩١٥ كان فى تصرفات راسبوتين التى أسرف فيها شىء من الجنون ، الذى أخذ يقوى على مر الأيام . وظهرت بشكل جلى رغبته الجامحة فى الدل بسلطانه ، لا بإذلال خصومه فحسب ، بل بإذلال أصحابه كذلك . وكان

فى بعض الأحايين يبدو أنه يعمل على إلحاق الأذى بنفسه . فمرة أشاع فى أحد الأندية الليلية فى موسكو أنه قوى العلاقة بالقيصرة،وردد هذا القول فى عبارة توهم أنه شاركها فراش النوم . وسواء أكانت تصرفات راسبوتين الخارجة عن المألوف سببها عقدة العظمة أم اليأس أم الضمير الآثم أم مزيج روسى من كل ذلك ،فهو أمر جدير بالبحث والتفكير . وعلى كل حال كان يحميه من تصرفاته الجريئة عدد من الأوغاد الذين يرون فيه مصدرا لحمايتهم أو إعانتهم ،ولذلك لا يرضيهم أن يصيبه أى أذى . ومعظم هؤلاء كانوا على اتصال ما بهيئة الشرطة السرية الذين يهمهم أن يكون القديس فى مأمن من أى ضرر . وأحد أعضاء هذه الشرطة ــ وقد جعل من نفسه حارساً لراسبوتين ــ كان صعلوكا يسمى ماناسيفتش مانوبلوف،وهو أحد أعضاء الأخرانا أرسل مرة إلى روما ليؤسس شبكة للجاسوسية فى الفاتيكان ، ثم أرسل بعد ذلك إلى باريس لتوصيل بعض المال من الأخرانا بصفة سرية .

وكان فى ماناسيفتش هذا نقطة ضعف عجيبة . فقد كان مغرما بأن يفضح نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ،قال لأحد الصحفيين المعروفين وكان من المناوئين للقيصر « أنا رجل طالح . أنا أحب المال وأحب الحياة » . وكان فى شعره المرسل وعينيه البراقتين وخواتمه اللامعة وملابسه الأنيقة ما ينم عن الدور الذى اختار تأديته على مسرح الحياة . وكان يهودى المولد ،ثم أصبح من أتباع لوثر ،ثم أرثوذكسى العقيدة، وبدأ حياته تابعاً لأحد اليمينيين المتعصبين، وقام فعلا بجملة مذابح فى روسيا ثم اتضح أنه شديد العبث حتى بالنسبة للأخرانا أنفسهم فطرد من خدمتها . وكسب قوته بعد ذلك بأن عمل صحفياً يستغل الصحافة أسوأ استغلال . وكان يبتز المال أحياناً عن طريق التهديد ، وقد نجح فى عمله هذا ولكنه لم يتخل عن تعلقه بعمل الشرطة. وكان أمله فى الحياة أن ينشىء فى روسيا إدارة سرية عليا حديثة ،وأن يكون هو رئيساً لها . وسعياً وراء هذه الغاية أصبح أحد جماعة أنافيروبوفا ، كما اتصل

براسبوتين وعمل سكرتيراً سرياً له . وعمل ماناسيفتش على أن يصل إلى القديس نصيبه اليومى من الشراب والنساء، ولـكنه عرف كيف يخفى مجونه بحسن تصرفه . وحتى الأخرانا لم تـكن لتستطيع معرفة علاقاته الجنسية وأعماله المشبوهة . وأمكن سكرتيره السرى الجديد من باب الاحتياط أن يحصل لاستعماله الخاص على سيارة حربية قوية ، لا تقوى وسائل النقل لدى الأخرانا على اللحاق بهـا . وفى المحيط السياسى شجع ماناسيفتش راسبوتين على نزواته الجنونية وأعانه على تشكيلها بحيث ترى فى غاية الخطورة . وكان يبدو من وقت لآخر أنه على اتصال بالقيصرة كذلك . وبنفوذه فقدت القيصرة وراسبوتين تلك الصلة الضئيلة التى كانت لهما بالوجود السياسى ،وبدآ حياة لا تنطوى إلا على العبث والاستهتار .

وكل وزير وكل موظف كبير أبدى نقداً للقديس أو معارضة له أشير بطرده. ومن أوائل من طردوا الجنرال بوليفانوف وزير الحربية النشيط الـكفء الذى جاء بعد سوكوملينوف . بل لعله أولى جميع الناس بالبقاء فى وظيفته من وجهة نظر المجهود الحربى الذى اضطلع به. وعندما تردد نقولا فى أن يحرم الجيش من ذلك الموظف الـكفء الذى نجح لأول مرة منذ بدء الحرب فى أن يمد الجبهة المحاربة بالمؤن الـكافية، أخذت اسكندرا تطعن فيه فى خطابات متتالية حتى استسلم لها آخر الأمر. كتبت له فى التاسع من يناير سنة ١٩١٦ « تخلص من بوليفانوف » وبعد بضعة أسابيع كتبت له ثانية « ياحبيبى لا تحجم ولا تتأخر » .

وسازانوف وزير الخارجية الشريف الأمين الذى كان موضع ثقة حلفاء روسيا، سرعان ما طرد أيضاً كما طرد بوليفانوف من قبل. وفى اوائل سنة ١٩١٦ أقنعت اسكندرا نقولا أن يعين بوريس ستومر رئيسا للوزارة ، وهو رجل مغمور غير نابه محاط بشرذمة من الأصحاب الدنسين . وطلبت أن يضطلع بوزارة الخارجية

زيادة على رياسة الوزارة . وكان ماناسيفتش هو الذى عثر على ستورمر وأمكنه أن يوحد فى عمل له صلة شخصية بستومر لتسهل عليه مراقبته ، ولـكى يزيل راسبوتين ما قد يحدث من سوء التفاهم دعا ستورمر إلى اجتماع ليلى فى دار أحد أصحابه ، وألقى إلى رئيس الوزراء بأوامره « إياك أن تسمح لك نفسك بالتدخل فى خطط ماما (اسكندرا) . اعرف موضع خطوك . إذا وقعت فقد انتهيت » .

وكانت أعجب التعيينات الوزارية وأخطرها تعيين بروتوبوبوف وزيراً للداخلية ورئيساً عاماً لشرطة البلاد . وكان عضواً فى البرلمان ، ومن فضل القول إنه لم يحظ باحترام أحد من زملائه . كان مختالا أحمق عصبى المزاج جداً من أثر مرض خبيث . ومما زاد الطين بلة أنه اقحم نفسه فى محادثات غير مأمونة بل تـكاد تنطوى على الخيانة مع بعض الألمـان فى أمر الصلح بين البلدين . وفى نظر بعض أصحاب راسبوتين كان هذا أمرا محموداً . وسواء كان هذا ينطوى على مؤامرة للوصول إلى صلح منفرد دون علم القيصر لإخراج روسيا من الحرب كما يرى بعض المؤرخين فقد كان ذلك من عمل دعاة الهزيمة . ومن مزايا بروتوبوبوف فى أعين مريديه ولاؤه للقديس وولعه بإرضاء أصحابه وقدرته على الـكف عن توجيه الأسئلة السخيفة يقول پول مليوكوف السياسى والمؤرخ الحر فى وصفه إلى السير برناردبيرز « كان بروتوبوبوف نموذج الرجل النبيل المدين المستعد للقيام بأى عمل يطلب منه . وكان له تأثير طيب فى نفس القيصرة» . إنها كتبت مرة إلى القيصر فى سبتمبر عام ١٩١٦ تقول : « يرجوك جريجورى رجاء حاراً أن تعين بروتوبوبوف » . وعندما توقف نقولا قليلا على غير عادته وقال « إن أراء صديقنا فى الناس قد تـكون غريبة فى بعض الأحيان » ، أخذت تلح عليه حتى انتهى الأمر بالموافقة .

وكتبت مرة إلى نقولا مشيرة إلى مجلس البرلمان تقول « هم أجلاف غلاظ . لا بد من قيام الحرب بيننا وبينهم ولا بد من أن نكون أشداء معهم » . وعندما ظهر منه بعض التردد عادت إلى الهجوم قائلة « إن كل ثقتى فى صديقنا الذى لا يفكر إلا فيك وفى طفلنا وروسيا . ولا بد لنا بمعونته من أن نجتاز هذه المحنة . ستكون الحرب بيننا قاسية ، ولكن رجل الله أقدر على أن يقودك فى أمان بين العقبات ، والصغيرة (وهى تعنى الإمبراطورة) واقفة وراءك كالصخر لا تخضع ولا تلين » . ورغم هذا العرض المغرى آثر نقولا الصلح . وتخلى عن ستورمر واستبدل به أحد الوزراء المعارضين لراسبوتين (وزير المواصلات تريبتوف) وأنقذت إسكندرا بروتوبوبوف فى آخر لحظة بزيارة خاطفة إلى زوجها فى رياسة أركان الحرب . وفهمت ألا أمل فى الاتفاق مع البرلمان أو مع أحد أصحاب النفوذ السياسيين المستنيرين فى روسيا إذا أبقى القيصر وزير الداخلية ، فهو فضلاً عن تفاهة شخصيته يمثل كل ما تمقته المعارضة فى الحكومة . ولكن هذا لم يكن ليهمها . بل على العكس كانت تريد أن تكشف موقفها مع البرلمان وكان هدفها الأكبر كما وضعه أمامها راسبوتين ومانويلوف هو حل البرلمان وإلغاء دستور عام ١٩٠٥ وإقامة حكم مطلق جديد له مظاهر الحكم الشعبي ويبدو أنها لم تثق كل الثقة بزوجها ولكن نيتها تتضح من روح كتاباتها إليه فى ديسمبر من عام ١٩١٦

« ليكن حكمك مبنياً على العزم والقوة ... الخير قادم إليك لقد جاء دوره.. يجب أن نترك لابننا دولة قوية ولا يجوز أن نستسلم للضعف من أجله .. اقبض على أزمة الحكم بشدة فإنك تقبض عليها فى استرخاء . . . روسيا تود أن تذوق وقع السياط ... ما أشد رغبتى فى أن أصب إرادتى فى عروقك . إنى متألمة من أجلك كما آلم لطفل ضعيف برىء ... كن الإمبراطور . كن بطرس الأكبر . كن

إيفان الرهيب ... الإمبراطور پول . اسحقهم جميعاً تحت قدميك ... والآن لا تضحك يا شقي ... انف لقوف (البرنس جورج لقوف أحد أعضاء البرلمان الأحرار) إلى سيبيريا ... وكذلك مليوكوف وجوشلوف وپوليفانوف» .

فى أحد هذه الخطابات كان التوقيع « أم روسيا التى يباركها صديقنا » وفى أحد الخطابات يقول تقولا « أشكرك كثيراً على التأنيب الشديد . . . صديقك الصغير الضعيف »

وإذا نظرنا بعين المعاصرين من رجال الغرب إلى مسرح الأحداث الروسى مع شىء من التحامل جدير بالأحرار ومن خلال منظار متأثر بألوان الدعاية يبدو أن السياسة التى كانت تتبعها القيصرة ومن يتصل بها فيها القضاء على كل الجهود الحربية . ونحن اليوم نعتقد اعتقاداً تاماً أن القيصرة لم تكن عميلة ألمانية ولا كانت تؤيد ألمانيا بمعنى أنها كانت تتمنى فى سريرة نفسها النصر لألمانيا ويبدو أكثر احتمالا أن راسبوتين نفسه كان مخلصاً بطريقته الخاصة لقضية الوطن . ومع هذا فقد كان كلاهما يضع قضية روسيا فى كفة وقضية الأسرة الإمبراطورية فى الكفة الثانية . ومع أنهما كانا يدركان أن الهزيمة الحربية ستكون سيئة الأثر فى النظام الإمبراطورى إلا أن لديهما من الأسباب ما يقنعهما بأن النصر له نفس هذا الأثر .

وساسة الروس الذين كانوا أقوى من يعتمد عليهم فى سير الحرب كثيراً ما كانوا أقل من يعتمد عليهم فى تدعيم قوائم العرش . وكان كثير منهم فى الواقع يعملون بكل همة على إضعاف الإمبراطورية أو على الأقل إضعاف الحكم المطلق . وربما كان نفيهم إلى سيبيريا كما اقترحت القيصرة غير ممكن . ولكن لم يكن الحقد دون غيره — أو عقدة العظمة — هو الذى جعلها تفكر فى هذا الاقتراح . وكان الموقف فى رأى من يؤمنون بالحكم المطلق حرجا أيا كان الاتجاه الذى ينظرون

إليه — وربما كان هذا هو سبب مسلك راسبوتين الجنونى — وكان من المعقول البحث عن علاج ينقذ الموقف . ولكن كل علاج تخيلته إسكندرا أو راسبوتين أو بروتوبوبوف كان فيه القضاء عليهم حتى من وجهة النظر الأتوقراطية نفسها .

ولم يكن بعيداً عن الاحتمال مطلقاً أن إسكندرا كانت ترى أن آخر مرحلة فى الضربة التى توجهها إلى الدستور هى إقامة راسبوتين رئيساً للوزارة بصفة رسمية ، ولربما كان لدى راسبوتين — كما يعتقد مانويلوف — هدف أشد ثورية هو خلع نقولا وإقامة إسكندرا وصية عليه على نحو ما كانت كاترين العظمى من قبل . ولم يكن من المؤكد وجود مثل هذا الاقتراح إلا فى هذيان راسبوتين وهو مخمور ، ولو كان موجوداً فعلا فالذى اقترحه هو مانويلوف غالباً . ولكنه كان متوقعاً ، بل سرت إشاعة عنه فى ذلك الوقت . ولكنه كان ضربة قاضية موجهة إلى سلطان الحكومة الأدبى . ومن عجب أن الضربة الأخيرة هى التى وجهت إلى راسبوتين بقتله فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٩١٦ .

وكان لدى الروس كلهم على اختلاف صفاتهم ، من أزواج مطعونين فى شرفهم ، أو وطنيين غير ذوى أغراض خاصة ، الأسباب القوية للرغبة فى قتل القديس (وكثيرا ما كانت هناك مؤامرات غير متحمسة لارتكاب هذا القتل) وكانت الجماعة الصغيرة العدد التى نجحت أخيراً فى إنهاء حكمه غير الرسمى مكونة من ملكيين من أقصى اليمين ، وكان مثلهم الأعلى هو نفس المثل الأعلى الذى يدعيه ضحيتهم — أن تكون روسيا آمنة فى ظل الحكم المطلق . ولما كان راسبوتين يعمل على هدم دعائم الحكم المطلق ويقوض كيان الأمة نفسها كان لا بد من موته .

والذى تولى اغتياله فعلا هو البرنس فيلكس يوسوبوف ، وهو شاب من رجال الحاشية متزوج من ابنة أخت القيصر ، وقد نفذ مهمته الهائلة بأسلوب الهاوى الأرستقراطى . وكان موت راسبوتين لذلك — متفقاً مع حياته كلها المملوءة بالفوضى وسوء المصير . أغرى يوسوبوف راسبوتين بالذهاب إلى داره . ليحظى بالشراب أثناء الليل . وقدم اليه نبيذاً به سيانيد البوتاسيوم ، وانتظاراً لسريان السم وتأثيره ظل يلعب على الجيتار لتسلية الرجل الذى سيقضى عليه ، وكان سائر المتآمرين فى الطابق الأعلى يحاولون تهدئة أعصابهم بالرقص على نغمة الحاكى . وعندما اتضح أن السم لم يؤثر فيه استعمل يوسوبوف المسدس ، ووقع راسبوتين على ظهره كما لو كان قد مات . ثم تنبه أخيراً ، ولم يمت إلا بيد أحد زملاء البرنس بعد مشادة عنيفة . وحملت الجثة الملطخة بالدماء وأسقطت فى فتحة فى الثلج المتجمد فى نهر النيفا .

وكانت الآثار التى ترتبت على هذه الجريمة الشنيعة مختلفة إلى أبعد الحدود عن النتائج التى كان يهدف اليها أصحابها . لقد ثأروا لشرف الدولة بقتل أكبر مفسد فيها . ولكنهم بعملهم هذا قد قللوا من شأن ما فى أداة الحكم من فساد فى نظر الرأى العام . وكان ما أصاب الحكومة فى مكانتها الأدبية مما لا يمكن إصلاحه . إن قتل راسبوتين وسع الخلاف فى نفس الوقت بين رءوس الحكم فى الدولة ، ولقد كانت العناصر التقدمية فى البلاد وحدها فى المعارضة . أما الآن فقد اتضح أن المحافظين المعقولين والرجعيين الشرفاء أصبحوا يعدون جميعاً من أعداء الحكومة . قال الشاعر الثائر إسكندر بلوك الذى يؤيد قوله تروتسكى « إن الرصاصة التى أودت به (براسبوتين) أصابت صميم الأسرة المالكة » واتضح أن هذه الرصاصة أشد فتكا ، لأنها — على نحو ما — لم تصب الهدف الحقيقى . إنها بقتلها راسبوتين قد قوت الراسبوتينية وجعلتها أقوى شراً . لقد تعلقت القيصرة

أكثر من أى وقت مضى بفكرتها الانتحارية التى تقضى بمقاومة جديدة لدستور سنة ١٩٠٥ . وكان القيصر لا يزال مقيداً بآرائها ولم يكف رجال الحاشية عن الدس والانتهازية والاستفادة منها . وظل بروتوبوبوف باقياً فى مركزه وزيراً للداخلية وبفضله ظل راسبوتين بعد مماته يتحكم فى تسيير أمور الدولة من العالم الآخر . فإنه فى إبان الأزمات كان يستشير روح راسبوتين يعاونه وسيط محترف. لقد اتضح أن الأسرة لا مفر لها من لقاء مع الموت ، ولم يطل انتظارها لهذا اللقاء .

الفصل الرابع عشر

الثورة الضالة

أبلغ سفير بريطانيا فى بتروجراد حكومته فى التاسع من مارس سنة ١٩١٧ رسالة قال فيها « وقعت اليوم هنا بعض الاضطرابات ، ولكنها ليست خطيرة » وقد يرى من يكون أبعد منه نظراً أن أى اضطراب يحدث فى الشتاء الثالث من أيام الحرب المريرة فى العاصمة القيصرية لابد أن يكون ذا خطر جسيم . ولكن رسالة السفير البسيطة التى أعلنت دون تفكير عميق عن قيام أشد ثورة سياسية فى تاريخ الغرب منذ الثورة الفرنسية (والواقع بدأت الثورة فى اليوم السابق) لم تكن خرقاء كما تدل عبارتها . فلم تكن الاضطرابات أو الإضرابات أموراً جديدة فى بتروجراد طول مدة الحرب . ولكن فى آخر أكتوبر عام ١٩١٦ كانت عنيفة حتى إن الفرقتين من الحرس المحلى اللتين استدعيتا لإقرار النظام انضمتا إلى الثورة وأطلقتا النار على الشرطة بدلاً من إطلاقها على الغوغاء ، وحتى هذا الاصطدام الدموى لم يمنع ثورة عامة علما بأن ١٥٠ من الحرس الثائرين أعدموا رميا بالرصاص . ولم يدر بخلد السفير البريطانى أن هذه الاضطرابات البسيطة التى بدأت فى الثامن من مارس ستنتهى هذه النهاية . وحتى قادة الأحزاب السياسية أنفسهم لم يكونوا أقدر على كشف الأمور .

ويقول المؤرخ تروتسكى : كانت الحكومة وأعداؤها . كل منهما يستعد للثورة . ولكن كلا من الفريقين فاجأته الثورة حين وقعت الاضطرابات . ولا شك فى أن هذا المؤرخ البلشفى على حق حين يقول إن القيادة الحقيقية للثورة أتت من يد الشعب . ولكنه بعيد عن الإقناع عندما يحاول أن يثبت أن قادتها كانوا فى الغالب من الثوريين المحترفين وإن كانوا من الثوريين المغمورين غير

المعروفين . وربما كان المحترفون — سواء من الأحرار أو من الماركسيين — هم الذين فكروا فيها ولكن الظاهر أن الهواة هم الذين دبروها . وثورة مارس منذ بدايتها لم تسر وفق الطريق المرسوم لها سواء من حيث مبادئها أو وقائعها . وكانت علاقتها الجذرية بالمفهوم التاريخى ملتوية . بمعنى أن الملكية الروسية انهارت قبل أن توجه إليها الضربات التى تسقطها . وخنقتها الثورة تحت أنقاضها .

إن المأساة الخاصة التى يشعر بها الاشتراكيون الديمقراطيون مثل إسكندر كرنسكى . أو الملكيون الأحرار مثل پول مليوكوف أو المحافظون المستنيرون مثل إسكندر جوسكوف الذين ظلوا عدة أسابيع أو أشهر يتآمرون للقيام بانقلاب ضد الحكم المطلق هى أنهم قبل بدء العمل يجدون أنفسهم وقد عقدت لهم قيادة الشرف لثورات معدة لم يكن لهم يد فى إعدادها (دعا كرنسكى علناً فى فبراير لإزالة القيصر «بوسائل إرهابية إذا لزم الأمر») . وكان لدى رئيس أركان الجيش الجنرال الكسيف خطة للقبض على القيصرة وإجبار نقولا على تغيير الحكم المطلق تحت تهديده بإطلاق النار عليه . ويعتبر تروتسكى وغيره من المؤرخين البلاشفة أن زعماء المعارضة من البورجوازيين يستحقون اللوم لأنهم يمثلون الطبقة المقهورة وعجزها إبان الانقلاب الاجتماعى .

ولكن فى ضوء ماشهدناه فى نصف القرن الأخير يستحق هؤلاء الرجال العاجزون شيئاً من الصفح . وفضلاً عن ذلك لم يكونوا أقل فاعلية من الزعماء — أيا كان وسطهم الاجتماعى — الذين كانوا يقاومون النظام النازى فى عهد هتلر . ثم ماأجرأ وأشجع حكام روسيا السوفيتية الحاليين فى عهد ستالين الذى يشبه كاليجولا حاكم روما إبان سطوته . ثم أى قوة عجيبة أفقدت تروتسكى ذكرياته عن الثورة عندما أخذ الحزب يقص مخالب الأسد العجوز . إن الدرس

الصحيح الذى يلقنه لنا التاريخ أنه بينما لا ينجح الاستبداد أبداً فى القضاء التام على المعارضة القوية ، إلا أنه قادر دائماً على التنكيل بالمعارضين فى صورة ما . وإنه كلما زادت مقاومتهم للسلطة المطلقة كان التنكيل بهم أشد . ومن الطبيعى أن العبيد عندما يحاولون التخلص من ربقة الاستبداد وتكسير سلاسل الأسر فإنهم يلقون مقاومة أقل مما يلقاه من خلقوا أحرارا أو من هربوا إلى ميدان الحرية الفسيح ليعيشوا عيشة الطلقاء .

والآن ، فإحقاقاً للحق ، ومن باب الإنسانية ، يجب أن نقر أن الدور الذى قامت به الصفوة الروسية فى المعارضة ـ سواء من الضباط أو الأرستقراطيين أو أصحاب الرأى من الطبقة الوسطى ـ قبيل ثورة شهر مارس كان دوراً يستحق الرثاء . كما كان بعد ذلك .

وكان اضطرابهم عاملاً قويا فى شل حركة النظام القديم عندما قامت الثورة ولكنهم كانوا هم أنفسهم ضحية الفوضى التى كانوا هم جناتها .

وكان الارتباك الذى أصابهم أشبه شىء بحالة العروس غير الخبير الوجل الذى يفضى تردده السخيف إلى إثارة أحاسيس عروسه المراهقة إلى حد يدفعها إلى أول أفاق يدق بابها تاركة المتردد المسكين مسئولية تنشئة الثائر الصغير الذى تلده فيما بعد . ولقد كان الأفاق فى ثورة مارس وبخاصة فى إبان الفوضى التى جاءت فى أعقابها هو الجندى الذى فقد الروح المعنوية أو الجندى السابق الذى ابتعد عن ميدان القتال ، إما هروبا وإما بسبب المرض ، وهو مستعد ـ سواء عرف أو لم يعرف ـ لأن يمزق المجتمع إرباً ، بدلاً من أن يعود إلى ميدان القتال .

لقد حذر راسبوتين القيصر تحذيرا صائباً عندما حثه على وقف المذابح التى يقوم بها الجنرال برسيلوف فى خطته الهجومية على غاليسيا قال : « سيعود الجند

وهم كالحيوانات الضارية » . لقد أسر القائد فى هذا القتال الذى استمر من يونيه إلى سبتمبر سنة ١٩١٦ ٣٧٥٠٠٠ أسير وكانت الروس ٥٥٠٠٠٠ رجل دون أن يحصلوا على نتيجة حاسمة .

والجند — سواء أكانوا من الثائرين من وحدات حامية بترو جراد أم من المتخلفين والهاربين من جبهات القتال — كانوا الخميرة التى أثارت الحركة الثورية فى وسط الغوغاء الساخطين فى بتروجراد وسائر المراكز الصناعية . ومع أن الأجور زادت منذ قيام الحرب إلا أن أثمان الحاجيات زادت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، ومع أن إنتاج الطعام كان كافياً للشعب كله فقد كان يحدث هناك عجز فى حاجيات المعيشة فى بعض المناطق وفى بعض الظروف . (ولقد اقترح راسبوتين مرة أن تبيع المخابز خبزاً مقطعاً حتى لا يطول انتظار ربات البيوت فى صفوف طويلة منعاً للتذمر الجماعى وإشاعة السخط بين العامة) وكانت قلة الفحم والخشب مصدراً للسخط الشديد وبخاصة فى العاصمة التى يسبق البرد القارص فيها الرطوبة الشديدة والوحل الكثير . ومما يزيد وقع هذه الآلام الجسمانية المريرة كثرة القتلى فى ميدان القتال والربح الفاحش الذى يحصل عليه البعض بسبب ظروف الحرب وفضائح راسبوتين ، وإجراءات بروتوبوبوف التعسفية ضد العمل المنظم . ولقد جاء فى تقرير أحد رجال الشرطة ملحوظة لماحة فى نوفمبر سنة ١٩١٦ «إن أصحاب الأيدى العاملة فى العاصمة على حافة اليأس . ولا بد أن يؤدى أقل استياء بينهم إلى أشد الاضطرابات » .

وكانت الأسباب التى أدت إلى قيام الثورة كثيرة وغير واضحة . كان منها نزاع فى مصانع بوتيلوف للصلب انتهى بطرد ٣٠٠٠٠ عامل . ومنها عدم كفاية الخبز فى العاصمة مما نتج فى الغالب من تراكم الثلوج فى شهر مارس وتعطيل وصول

الوقود إلى المخابز (ويبدو أنه لم يكن هناك نقص فى الدقيق) . وسبب ثالث أدى إلى قيام الاضطراب هو الحرص على الاحتفال بيوم المرأة الدولى وهو تقليد حديث مستمد من فكرة اشتراكية غامضة . واستغل بعض أصحاب الحركات الثورية هذه المناسبة للقيام بمظاهرات ضد الحرب . وكان لشاب بلشفى فى منطقة فايبورج الصناعية يدعى كايدوف نشاط ملحوظ فى تنظيم صفوف عاملات النسيج والغزل وسيرهن فى الشوارع يرددن شعارات ثورية مثل « لتسقط الحرب » «وأمدونا بالخبز» • (معظم قادة البلاشفة كانوا فى هذا الوقت إما فى السجن وإما فى المنفى) . وقد حذر كايدوف المشتركات فى المظاهرة من حمل ما من شأنه أن يهيىء للشرطة الأسباب لإطلاق الرصاص عليهن . ولنفس هذا السبب كان معظم القادة اليساريين يعارضون الإضراب العام . وما إن بلغ الأسماع نبأ هذه المظاهرة فى منطقة فايبرج حتى صمم كثير من الرجال وكثير من النساء على أن يشتركوا فيها . وعندما كانوا فى الشوارع فى الثامن من مارس نسوا النصيحة الحكيمة التى وجهها إليهم كايدوف وغيره من الخبراء وأخذوا ينهبون المخابز وحوانيت الخبز ، وهكذا كانت الثورة الروسية فى أول أمرها اضطرابات متفرقة تتصل برغيف الخبز فى عاصمة البلاد .

وكان الحكومة بطبيعة الحال قلقة بشأن ما تتوقعه من المظاهرات القادمة . وكان جواسيس الشرطة قد بكروا فى الإبلاغ عن ذلك • ولكن رجال الحكم لم يقدروا خطر الموقف ولم يعبأ القيصر برجاء بروتوبوبوف — الذى لم يصبر عليه — فى أن يظل فى العاصمة . وسافر إلى موجيلف مبكراً صباح الثامن من مارس (وكتب يوم وصوله إلى القيصرة ينبئها بأنه سيقضى فراغه فى لعب الدومينو) • وكانت مسئولية حفظ النظام فى العاصمة ملقاة على كاهل بروتوبوبوف • وعلى قائد المنطقة الحربية ، وعلى رئيس المدينة وأخيراً على رئيس

الوزراء المتهدم البرنس نقولا جولتسين الذى عين رئيساً منذ بضعة أسابيع ، (ولم يكن البرنس المسن يرغب فى مركز الرياسة ولكنه قبلها ليكون له فى حياته « على ما ذكره تروتسكى » بعض الذكريات الطيبة) ، وكان حرس العاصمة مكوناً من ١٦٠٠٠٠ رجل غير ٣٥٠٠ شرطى مزودين بالسلاح الثقيل . ورغبة فى تقليل إراقة الدماء كانت الخطة الموضوعة تقضى بالاعتماد على الشرطة وحدهم لوقف أى اضطراب يحدث فى العاصمة ، فإذا عجزت الشرطة عن أن تقبض على أزمة الأمور أرسلت فى الحال فرقتان من فرسان القوزاق للقضاء على المظاهرات . وكان على المشاة ألا يقوموا بأى عمل إلا عند الضرورة القصوى وفى الحالات المستعصية . وكان قرار القائد منع الحرس من الاتصال بالغوغاء ، خوفاً من قيامهم بعصيان على نحو ما فعلوا فى أكتوبر الماضى قراراً معقولا ، ولكنه كان سيئ التصرف فى شدة التمسك به . وقد ارتكب فعلا خطأ خطيراً بمنعه القوزاق من وقف الثورة قبل استفحال الأمر وبعدم السماح لهم بحمل كرابيجهم العظيمة الفائدة عندما سمح لهم أخيراً بالعمل .

وفى نهاية اليوم التالى — التاسع من شهر مارس — أصبح واضحاً أن حشود الشعب الثائر أخذت تتجمع فى بتروجراد . ويمكن أن يقال ما قاله السفير البريطانى فى برقيته أن حدثاً هاماً لم يحدث ولم يستول أحد على المبانى الحكومية الكبرى ولم يقم الجند بأى عصيان . وبلغت الحوادث التى أحصتها الشرطة فى اليومين حوالى ثمانية وعشرين رجلا أصيبوا إصابات خفيفة من قطع الثلج والصخر التى كان المتظاهرون يقذفونها . وأخذت الجموع تزداد أعدادها شيئاً فشيئاً كما زاد توقع الشر منها . وبدأت أعلام سنة ١٩٠٥ الحمراء تظهر ثانياً وأخذت الصيحات تدوى فى الطرقات التى كانت الثلوج تكسوها مرددة « فلتسقط الحكومة المطلقة » و « لتسقط المرأة الألمانية » وأخذ الطلبة والعمال من ذوى البنيقات البيضاء ينضمون

إلى المتظاهرين أو إلى المتشاحنين مع الشرطة الذين لم يقتصر نشاطهم على المناطق الصناعية . وعند ما ظهرت هذه الروح الثورية بين الجماهير أخذت القيادات العليا للمنظمات اليسارية — الاشتراكيين الثوريين والبلاشفة والمنشفيك وجماعة الماركسيين الحربيين التى تدعى مزرايونكا — أخذ كل هؤلاء يصدرون البيانات الصاخبة ويؤلفون الجمعيات التى تعمل لتنسيق العمل بينها وأعلنوا الإضراب العام لمدة ثلاثة أيام . وقبض فوراً على عدد من القادة اليساريين ولكن كان نتيجة ذلك على ما رأى تروتسكى — إفساح المجال للضباط القادرين على النضال مثل كايروف على مستوى المنطقة أو المصنع . وأسهمت الهيئات البلشفية المحلية فى تنظيم الثورة فى بتروجراد ولكن لم يقم أى دليل على أنه كان لها الدور الرئيسى فى هذا التنظيم .

وكان يوم السبت العاشر من شهر مارس هو نقطة التحول فى الاضطرابات فهو الحد الفاصل بين الاضطراب والثورة ، ففى هذا اليوم تحولت الاضطرابات إلى ثورة . والتحول — إذا أوقف قبل أن يستفحل الأمر — لا يكون له مضاعفات سياسية دائماً ، وفى أول الأمر قد لا يزيد من العنف أو سلطان الغوغاء ، وأحيانا يصحبه هدوء خادع . وقد رأى معظم الصحفيين الذين وجدوا فى المناطق المضطربة من هذا العالم إبان نصف القرن الأخير هذه الظاهرة مرة على الأقل فى حياتهم ، وما شهدوه ليس من السهل نسيانه ، ولكن وصفه من الصعوبة بمكان . فالجو ثقيل حتى إنه أشد ثقلا وأقسى أثرا من جو المعركة الحربية . تتغير فيه مناظر الأشياء وتكبر أحجامها طلقات الرصاص وتكسير الزجاج وفرقعة كل شىء وتهدم كل شىء . وتختلط أصوات الناس وصهيل الخيل بما قر فى الآذان من دوى وغوغاء . وعندما تتداعى سلطة الدولة يختفى حكم العقل الذى يضبط وسائل الحياة ويمنع تعقيد الأمور . ويتحول العالم المعقول الذى نعيش فيه إلى خليط من المتناقضات .

ويصبح المنظر صورا متلاحقة متنافرة لايجمع بينها المكان ولا يؤلف بينها الزمان . فهذا ثورى فى قبعة من الفراء يخطب الجماهير بصوت جهورى وحركات بهلوانية وماأسرع ماتتفرق الجموع المحتشدة . ثم تتجمع الجموع مرة ثانية أو لعلها جموع أخرى غير الغوغاء السابقين . فهذه جماعات من النساء اللائى تغطى أجسامهن الشيلان وهؤلاء جماعة من الرجال فى سترات طويلة وسراويل منبعجة ، سائرون فى صفوف غير منتظمة ، وهؤلاء صف من الجنود قبعاتهم ذات حافة ضيقة وستراتهم رمادية اللون ، وفى أيديهم بنادق طويلة وقد اصطفوا ليسدوا الطريق . وها هو ضابط على كتفه شارات رتبته يهدد آلة التصوير . وتنفيذا لأمره يركع الجنود على إحدى ركبتيهم ويصوبون بنادقهم نحو القادمين من المتظاهرين . ولا يمكن أن نعرف إن كانوا أطلقوا بنادقهم أم لم يطلقوها . ثم نرى خايطا من الجنود والمدنيين ملتفين حول نار موقدة . على رءوسهم أو أكتافهم الثلج وقد حان وقت الشفق وبدء الظلام .

هذه بعض صور ثورة مارس التى بقيت لنا . وإن عدم الانسجام بينها ، مهما كان مرجعه إلى المصادفة ليعطينا فكرة قريبة الشبه بالحقيقة أكثر مما تستطيع أن تعبر عنها الألفاظ . والعالم العقلى عند الدهماء الثائرين — كما قال الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى جوستاف لوبون فى القرن التاسع عشر — لامنطق فيه . والعامة أنفسهم يمثلون مجتمعا عفى عليه الزمن ، أكثر مما يمثلون الفوضى الاجتماعية ، يسوده الكره والخوف وينقاد بدافع سحرى إلى الخضوع للقيادة وله قدرة كقدرة النمل على الانتظام ولديه موهبة الفن الحربى كموهبة حيوانات الصيد ، وهذه هى المزايا بين الجمهور السياسى العادى مهما كان سخطه ومهما كانت ثورته . ولكنها تظهر أحيانا فى مفاجأة عجيبة أثناء الفوضى المدنية الطويلة المدى عندما تزول عن الحكومة هيبتها من كثرة اصطدامها بالثائرين ومناوأتها لهم . إن هذه كانت الحالة

فى روسيا إبان اليوم الثالث فى الثورة الروسية عندما بلغ عدد المتظاهرين فى الشوارع ٢٤٠ ألف ثائر .

كتب تروتسكى رغم عدم مشاهدته هذه الوقائع لأنه كان يومئذ فى نيويورك يصف ذلك وصفاً دقيقاً رائعاً فيقول عنها :

« فى وقت الظهيرة (١٠ مارس) تدفق عشرات الآلاف من الناس إلى كاتدرائية كازان والشوارع المجاورة . ثم حدثت اصطدامات مع الشرطة . الخطباء يوجهون كلامهم إلى الجماهير المحتشدة حول تمثال اسكندر الثالث (وهذا يعنى أنهم وصلوا إلى صميم المنطقة الحكومية فى العاصمة) . يطلق فرسان الشرطة النار . يقع أحد الخطباء بعد إصابته . وطلقات الجماهير تقضى على أحد مفتشى الشرطة وتحدث جروحا فى جسم آخر من رؤساء الشرطة وتلقى الزجاجات وقنابل اليد على رجال الجيش . وهذا فن تعلمه المتظاهرون عن الحروب . والجيش لا يعبأ بما يحدث لرجال الشرطة وأحياناً يظهرون لهم العداوة . وأشيع فى شىء من الحماسة أنه عندما أخذت الشرطة تطلق النيران عند تمثال اسكندر الثالث أطلق القوازق نيراناً قوية على « الفراعنة » (وهو لقب الشرطة) واضطر هؤلاء إلى ترك الميدان .

والإشاعة المتعلقة بالقوازق قد تكون تصويرا لما يملأ قلوب الجماهير من الآمال والمخاوف . ولكن تروتسكى يعتقد أنها خبر صحيح . وعلى كل حال يروى حادثة صحيحة وقعت فى آخر النهار رواها كايروف الثائر البلشفى وهو من القادة الشعبيين القلائل الذى سجل مذكراته . ذلك أنه عندما فرق الشرطة الثائرين الذين كان كايروف يشجعهم مستخدمين فى ذلك السكرابيج على مرأى من إحدى فصائل القوزاق قصد هو وبعض رفاقه إلى القوزاق وخاطبوهم بتواضع بينما كانت

قبعاتهم فى أيديهم قائلين لهم «أخوانا القوزاق ساعدوا العمال فى محاولتهم الحصول على مطالبهم السلمية . إنكم ترون معاملة هؤلاء الفراعنة لنا نحن العمال الجياع . ساعدونا » . ذكر تروتسكى أن الجواب الذى ذكره كايروف نفسه هو أن القوزاق نظر بعضهم إلى بعض بطريقة خاصة « وما كدنا ننحرف عن طريقهم حتى اندفعوا إلى المعركة » .

لقد كان ذلك نصراً مبيناً للثورة . لقد كان القوزاق الذين كان ينعتهم تروتسكى بأنهم « هؤلاء الحاكون والمعاقبون » كانوا سند الحكومة الأخير . لقد أظهروا بعض السخط فى اليوم السابق وطاردوا الغوغاء تنفيذا للأوامر الصادرة إليهم . ولكنهم سمحوا للمتظاهرين أن ينجوا بأنفسهم تحت بطون خيولهم . إن تروتسكى كان محقاً عندما امتدح حسن تصرفات كايروف الثورية . وفى اعتقاده أن القوزاق ملوا الحرب وملوا مقاومة الثورة كغيرهم من الناس . ولكن قصة كايروف تؤيد أكثر من كل شئ استعداد الجماهير للعدوى من بعضها البعض دون نظر إلى الأسباب التى أدت إليها . إن هذه القوة السحرية — قوة كسب خصمك إلى جانبك — تبدت كثير امرة بعد مرة فى أثناء ثورة بتروجراد واعتمد عليها المتظاهرون كثيرا واستفادوا منها وقدموا التحية إلى نفس الجنود المتقدمين لمطاردتهم .

وكلما أتيحت للجنود الفرصة للاتصال المباشر بالجمهور عادوا إلى ثكناتهم ، وقد حملوا معهم روح التآخى والعطف على الجماهير ، وفى العاشر من شهر مارس أبرق نيقولا من موجليف « آمر أن يقضى غدا على الاضطراب » ولم يكن الأمر ينطوى على الحمق فحسب ، بل كان فى منتهى الخطورة . ففى سبيل تنفيذه نجح الجنرال كابالوف تقريباً فى تطهير الشوارع من الثورة ، ولكن الثورة اشتعلت فى ثكنات الجند . وبعد ظهر يوم الأحد الحادى عشر من مارس أبرقت

ألسكندرا إلى زوجها « كل شيء هادئ في المدينة » . وفي الوقت الذي أعلن فيه كايروف في شيء من الأسى أن الثورة آخذة في الهدوء ، أعلنت العصيان إحدى فرق الحرس الإمبراطوري الذي كان تحت قيادة بافلوفسكي عند ما علمت أن إحدى وحدات الفرق أطلقت النار على جمع من العمال . وفي تلك الليلة تعددت الاجتماعات الهائجة في جميع ثكنات المدينة . وأخذ المثيرون دون أن يكون لديهم أي فكرة سابقة عن الثورة — وهم السباقون إلى الثورة دائما والمجهولون دائما الذين يقدر تروتسكي دورهم الكبير فيها — أخذوا يشجعون زملاءهم ويرددون شعارات الإخاء التي كانت الجماهير ترددها طول النهار .

وهذه الظاهرة التي يسميها تروتسكي « المفاعل الذرى » للثورة كانت المرحلة الفاصلة في ثورة مارس التي مهما حاولنا أن نتفهم كيمياء التاريخ ستظل ظاهرة خافية غير مفهومة . ولا يوجد إلا دلالات قليلة على ما دار من المناقشات في برلمانات الثورة التي اجتمعت في ثكنات الجند تلك المناقشات التي كان لها هذه الآثار البعيدة في مستقبل العالم كله . ولكن بين سحب الطباق المعقودة في الثكنات ومن خلال رائحة أجسام الجند التي لم تغتسل نرى ومضات ضئيلة في الحوار الخالد الذي كان قائما حول الثورة نفسها . وكان جنود الحرس في بتروجراد معرضين لكثير من الدعايات المختلفة .التي منها دعاية الجماهير البدائية التي لا يمكن إنكار شأنها — ولكن يبدو أن الجنود لم يتأثروا بأية دعاية منها . لقد كانوا يقلبون آراء بعضهم البعض لا كالآلات ولا كالمفكرين ولكن كالذين وقعوا في إحدى المآزق الإنسانية .وفي النهاية تغلب عاملان سيكولوجيان كان لهما الحكم الأخير .

كان العامل الأول الشعور بالإخاء الإنساني: الامتناع عن قتل الأخ لأخيه. ومعظم الجنود في ثكنات بتروجراد — حتى جنود الحرس — كانوا مدنيين

والتحقوا بالجندية حديثا . ومهما كان رأيهم فى القيصر أو فى الحكومة أو فى الجيش — والواقع أنهم لم يكونوا ذوى غيرة عليهم جميعا — فقد كان يؤلمهم أن يؤمروا بالنزول إلى الشوارع ليطلقوا النار على غيرهم من المدنيين الذين معظمهم لا سلاح فى أيديهم فضلا عن الصداقة التى تجمع بينهم وبين جنود الحرس. وبينهم كثير من النساء والأطفال . لقد كان شعورهم هذا شعوراً صادقاً وطبيعيا وواضحا ، وكان من الضرورى أن ينتهى الأمر إلى رأى صريح فى بضع ساعات .

وكان للفراعنة — الشرطة — خبرة طيبة فى تنفيذ أوامر القتل ولكنهم كانوا قليلى العدد لا يكفون . فإذا جاء الصباح وقامت الاضطرابات حل الجنود محلهم ومعنى هذا ضرب النار لا فى الهواء ولكن فى أجسام المتظاهرين لقتلهم .

وهنا يأتى العامل الثانى : الفكرة المقابلة للنجاة . وغريزة الجندى التى توحى إليه بالابتعاد عن الخطر العام . وقد يكون من الخطر الامتناع عن طاعة الأمر ولكن قد لا تقل الطاعة عن ذلك خطراً . وهذه الفرقة مستعدة لإطلاق النار على المتخلفين والعصاة. ولكن للجماهير وسائل أقوى فى إنزال العقوبة بأعدائهم — وهو ما تبينه الفراعنة — . وقد يكون من السهل أن يخرج الجندى على طاعة ضباطه ولكن بعض الضباط ظهرت فى أعينهم نظرات متقدة جنونية . فإن اختيار أحد الخطرين شاق عليهم ، وهم فى موقف دقيق ، فإنه سواء طال الأمد أو قصر وسواء قام الجنود بواجبهم أو لم يقوموا به فإن الضرورة وحدها سوف تدعو إلى إرسالهم إلى ساحة القتال .

وهكذا اعترك فى نفوس الجند الشيطان والملاك . وخرجا من المعركة — كالعادة — على وفاق . وتغلب الحب والكره والإخاء والأنانية والشجاعة والجبن على حكم العادة الاجتماعية . وفى السابعة من اليوم الثانى عشر من مارس بعد ليلة صاخبة

من المناقشات والمجادلات . خرجت فرقة فولنسك تحت قيادة جاويش يدعى كربسكنيكوف وضابط تحت التمرين يدعى استاكوف — ولم يظهر أحدهما بعد ذلك مرة على مسرح التاريخ — خرجت من ثكناتها مسلحة بينما كانت موسيقاها تصدح « المارسييز » . وأما ما جرى لضباط الفرقة فلا يدرى به أحد . ورأى العصاة أن فى زيادة عددهم منجاة لهم فقصدوا ثكنات فرقتين قريبتين ونادوا زملاءهم. ومنذ تلك اللحظة أصبح من العسير وقف الثورة . لقد تفكك الجيش الإمبراطورى فى بتروجراد . وخرجت فرقة وراء فرقة على ضباطها — وأحيانا قتلت ضباطها — أو خرج الجند أفرادا حتى لم يبق للفرقة بعدذلك أثر . والقوزاق وبعض العناصر فى الحصن ظلوا فى معزل عن الحركة . مترددين فى الانضمام إلى الثوار ولكن غير راغبين فى إطلاق النار على زملائهم .

والجنود سواء أكانوا عصاة أم متخلفين انضموا للمدنيين للاستيلاء على مراكز الشرطة المحلية حيث تحصن الفراعنة بمدافع الميدان فى معظم الأحوال . ثم أخذوا بعد ذلك يكرون على غيرها من المبانى الحكومية . وفى صباح اليوم الثانى عشر من مارس قاموا بهجوم ناجح على دار الصناعة ومنذ تلك اللحظة كان فى إمكان كل ثائر أن يحصل على بندقية إذا ما أراد . وفى مساء اليوم نفسه نهب الثوار المركز العام للأخرانا وأشعلوا النار فى مبنى المحكمة المركزية . وأخيرا استولوا على الجزيرة المنيعة التى بها حصن سانت بيتروسانت پول ، وكانت باستيل الدولة الروسية واقتحمت معظم السجون وأفرج عن المسجونين . وفى نهاية اليوم لم يبق تحت إمرة الجنرال كابالوف من الجند الموالين إلا حوالى ألفين . جعل مقرهم حول قصر الشتاء ودار البحرية .

وهذا منظر للشارع فى العاصمة القيصرية فى هذه اللحظة الخيالية كما وصفه وصفاً

موضوعياً شاهد عيان هو الأستاذ جرانديج الهولندى فى صحيفة إلليستراسيون الفرنسية قال : « فى الساعة الرابعة بعد الظهر أصل إلى شارع نفسكى الذى يبدأ فى ميدان البحرية بجانب النهر. أسمع صوت إطلاق النار فى كل مكان. وفى اللحظة التى أخذت أرقى فيها الدرج الذى يتصل بجسر النهر يتفرق الجند الذين كانوا هناك وما كدنا نلوى رءوسنا حتى سمعنا طلقات النيران . والجمهور ساكن سكونا عجيباً . وما تكاد تسكت المدافع حتى تندفع الجماهير لترى .

« ثم يمر رجال الإسعاف حاملين جثة ورجلاً جريحاً ويحيى الجميع سيارة الصليب الأحمر وتطل من السيارة إحدى الممرضات وتلوح فى حماسة بمنديلها الأحمر .

« والجمع المحتشد مكون من عمال وطلبة من الطبقة المتوسطة وعدد من الناس لا يعلم إلا الله من أين قدموا . وعلى مسافة من هنا يشجع الخطباء الجماهير الذين على جسر أنيشكوف .

« ويظهر الجنود فى شارع لينينى بروبسكى (وهو الذى يقطع شارع نفسكى) ويبدو عليهم التعب والقلق ولكن يبدو عليهم الجد كذلك . ويتبع هؤلاء عمال وطلبة فى سن الشباب فى أيديهم المسدسات والسيوف والحراب والبنادق . ولم يكن فيهم من يتولى القيادة. ولكنهم كانوا يسيرون فى نظام يمليه عليهم وحدة الهدف وقوة العقيدة . وعندما يسمع صوت اصطدام قطعة من الصلب فى شىء من الخشب عند محاولة بعض الرعاع فتح حانوت لبيع الطباق بالقوة توجه إليهم الأسلحة ويصيح فيهم كبار العمال « أيها الإخوة لا تفعلوا ذلك . سيروا إلى الأمام أيها الإخوة »

« والمقاهى كلها مغلقة منذ الصباح ولهذا فقد قصدت مقصفاً للشاى فى شارع

كازانسكايا . والمكان مملوء بالجنود والعمال وأصحاب الحوانيت الصغيرة ، وكلهم يتحدثون فى أحداث اليوم فى هدوء عجيب .

وفى تلك اللحظة لا يوجد أى كره للقيصر ويبدو أن هناك رغبة عامة فى الاستمرار فى الحرب ولا يشغل عامة الناس إلا أمور الحياة اليومية لا تشغلهم المبادىء ولا النظم السياسية . إنهم فى حاجة إلى الخبز . ويتهمون الوزير الحالى بالإهمال الشنيع ، ويرون أن العلاج هو نوع الحكومة فلا شأن لهم بالثورة فليقم بالثورة غيرهم . أما الجنود الذين يجوسون خلال المدينة فى جماعات قليلة العدد ويعرفون مدى قوتهم فهم نواة الحركة الآخذة فى الازدياد » .

وعندما عاد الأستاذ الهولندى إلى الفندق فى مساء الثانى عشر من مارس كانت العربات المصفحة التى يركبها الثائرون تسير فى المدينة ومنها تطلق النيران على غير هدف معين . وكانت الطلقات تسمع فى جميع أنحاء المدينة واحمر لون السماء بسبب الحرائق التى أشعلت فى المبانى وكان الموقف ينذر بالاضطراب العام .

والواقع أن هيئة ثورية ناشئة أخذت فى الظهور بل أخذت تفرض نفسها على الأحداث على نحو ما . وكان مركزها قصر توريد الذى بناه بوتمكين عشيق كاترين فى الشمال الشرقى من العاصمة وهو حسن الموقع بين الثكنات التى بها فرق الجيش الثائرة من جانب وعمال فايبرج عند نهر نيفا المتجمد من الجانب الآخر . وكان هذا المبنى الغريب بقبته وأعمدته الرخامية مقراً للبرلمان قبل اتخاذه المركز الرئيسى للثورة . ولقد انضم البرلمان أو على الأقل كبار أعضائه إلى الثورة فى الحادى عشر من مارس متحدين بذلك القرار الإمبراطورى بحل المجلس. وبدلاً من أن يتفرق الأعضاء شكلوا مجلس الطوارئ وعلى رأسه رئيس المجلس نفسه رودزيانكو من

المحافظين . ويتألف من زعماء الكتلة التقدمية : مايوكوف ولفرف وجوشكوف وباسيل شولجين والثائر الاشتراكى السابق اسكندر كرنسكى . وهو رجل ضئيل الجسم عصبى ذكاؤه وقاد عظيم النشاط ثابت الجنان . وهو أعظم خطيب فى روسيا .

واتجهت الجماهير الثائرة بوحى من غريزتها إلى البرلمان وهو أجدر ما يمثل المعارضة فى روسيا القيصرية ، لتنسم الأخبار وتستمد منه النصح والتعليمات وكان لدى كرنسكى الكثير منها جميعاً . وهو الوحيد فى البرلمان الذى كانت له المقدرة على أن يستقبل وفود الجنود القادمين من جبهة القتال أو العمال ذوى الوجوه الصارمة أو الطلبة الخياليين المتسكعين حول قصر توريد يصيحون ويتحمسون ويعرقون ويشهرون سلاحهم ويبصقون ، وهو - أى كرنسكى - الذى يستطيع عند احتدام الأمور أن يخترق الجماهير ليتفقد بيديه أحد قواد الجيش المسنين أو إحدى الكونتات أو أحد الوزراء السابقين وقد استولى عليهم الرعب وجرفتهم الثورة وعضتهم بنواجذها كما تقبض القطة على عصفور صغير بفمها فتشل حركته . (وقد أنقذ كرنسكى مرة بروتوبوبوف وهو مختبىء ، عند صانع الملابس وقد كاد ألا يفلت من الموت) .

وفى نفس الزمان وفى نفس المكان الذى كانت لجنة البرلمان تعمل على أساس أنها الهيئة التنفيذية العليا للثورة كانت العبقرية الروسية تدبر الفوضى بإقامة هيئة عليا منافسة لها مكونة من مجلس العمال الذى كان موجوداً سنة ١٩٠٥ . وبعض الأعضاء الاشتراكيين من ذوى الرأى الذين اجتمعوا فى إحدى حجرات قصر توريد وأقاموا من أنفسهم الهيئة المركزية وطلبوا من المنظمات الثورية تعيين ممثليهم .

وتلبية لهذا الطلب قدم فى الثانى عشر من مارس إلى قصر توريد حوالى ٥٠ عاملا اختيروا فى شىء من العجلة وحوالى عشرين جندياً كذلك . وبينما كانت لجنة الطوارئ بمجلس الدوما مجتمعة فى أحد أجنحة المبنى كان « مندوبو » العمال والشرطة مجتمعين فى جناح آخر وكونوا لجنة مركزية من جميع المندوبين لم يتم انتخاب إلا قلة منهم وهذه الهيئة كانت مكونة فى أول الأمر من عشرين عضواً ثم زادت تدريجياً بالانتخاب حتى بلغ الأعضاء حوالى المائة . وكان رئيسها القائد المنشفيكى نيكولاس شكدز وكان لونها السياسى أميل إلى المنشفيك (وهم الديمقراطيون الاشتراكيون الأورثوذكس) ولكنها كانت تشمل الاشتراكيين الثوريين البلاشفة الذين منهم شخصيات عرفت فيما بعد مثل مولوتوف وشليابنيكوف وحفنة من المحافظين والتقدميين . وكان منهم كرنسكى الذى كان له مكان فى كلا المعسكرين .

وكانت اللجنة التنفيذية من الوجهة النظرية تمثل ثورة الطبقة العاملة . ولكنها كانت قرنفلية ولم تكن حمراء ، وكانت تعمل من أجل الاشتراكية كما كان سانت أوجستين يعمل أيام شبابه من أجل ضبط الشهوات . ووفق المبادئ الماركسية الأصيلة كانت ترى أن على الطبقة الوسطى أن تتم ثورتها قبل أن يتسلم العمال الحكم .

لذلك كانت قانعة بأن تترك مسؤوليات الحكم إلى لجنة البرلمان أو إلى اللجنة التى حلت محلها — الحكومة المؤقتة — ولكنها كانت من أول الأمر فى تنافس مع سلطة الطبقة المتوسطة حيث كانت تصدر الأوامر المباشرة إلى العمال وإلى الجنود الثائرين . . لقد ولدت الديمقراطية الروسية مخلوقاً بشعاً ذا رأسين . وكانت فرصة بقائه على قيد الحياة غير موجودة فى بادئ الأمر .

ومع ذلك وفى الثانى عشر من مارس سنة ١٩١٧ رغم أن أعداء النظام الحكومى القائم كانوا على علم بالصعاب الطويلة المدى التى ستواجههم كان لديهم مايشغلهم فى ذلك الوقت . فما زال للحكومة الإمبراطورية استحكامات إدارية فى قلب العاصمة . مازالت التكنات الموالية للحكومة المطلقة من الناحية النظرية محيطة بالمدينة — وكانت القيصرة فى أمان فى زادكوسيلو .

وفى ١٢ من مارس كانت فى شغل شاغل بأبنائها الذين أصابتهم الحصبة فلم يكن لديها الوقت الكافى لإخماد الثورة ولكن الثوار لم يكونوا على علم بذلك .

وكان القيصر فى مقر القيادة العامة يتولى القيادة الإسمية للجيوش وكان من العسير أن يدرك أى إنسان بعد خمسة أيام من الاضطرابات المتقطعة فى بتروجراد أن استبداد أسرة رومانوف الحديدى أخذ يترنح وأن أساسه فى الواقع قد تقوض . وفى أثناء هذا النزاع الثورى الذى لم يتقرر مصيره فى ظاهر الأمر كان للجنة الإدارية المزدوجة الرأس مزاياها . فلجنة البرلمان كانت مبعث اطمئنان للمترددين فى الجيش أو فى الحكومة كما أنها كانت ذات معنى خاص فى الرأى العام . وكان للجنة التنفيذية السوفيتية نفوذ أقوى على العمال الثائرين والجنود المتمردين فى العاصمة . وبتعاون الهيئتين فى الثالث عشر من مارس نجحا فى تدعيم انتصارهما وإعادة شىء من النظام فى العاصمة — لقد سقطت الحكومة وغادر كابالوف وزارة البحرية . ولم يبق فى المقاومة إلا شرزمة من الضباط كانوا متحصنين فى فندق استوريا وظل هؤلاء بعض الوقت يقاومون قوى الثورة .

وآخر أمل كان فى الرابع عشر من مارس عندما قدمت قوة بأمر من القيصر بالسكة الحديدية من موجيليف منذ ثلاثة أيام وعسكرت عند مشارف بتروجراد

فدلت على أن الثورة لم تكن مقصورة على منطقة واحدة . ولقد دعى الجنرال نقولا ايفانوف — الجندى القديم الذى ظل مدة طويلة مهانا لاتهامه بعدم احترام راسبوتين — ليعود بأربع فرق من الجبهة للقضاء على الثورة فى العاصمة . فقدم من جبهة القتال مع رجاله وفرقة غير كاملة من صفوة الجنود إلا أن الرحلة التى كانت تستغرق فى العادة ٢٤ ساعة كانت أبطأ وأشد اضطراباً مما كان يتوقع . ولما قيل له فى إحدى المحطات ، إن كل من كان يقلهم القطار فى اليوم السابق من الجنود القادمين من العاصمة أعلنوا العصيان يوم ١١ مارس فى المحطة واستولوا على أسلحة الضباط فرر أن تخفر الشرطة القطارات كلما وجد الفرصة المواتية لذلك. وجاءت الفرصة على عجل ٠ قدم أحد القطارات مملوءا بالجند يشهر بعضهم أسلحتهم ويزهو بعضهم بملابسهم المدنية الجديدة التى نهبوها على ما يبدو من الحوانيت .

وفى أثناء تفتيش القطار وجد القائد نفسه بغتة أمام جندى معه سيف أحد الضباط معلقاً إلى وسطه بينما تقبض كلتا يديه على سيفين آخرين . فصاح به آمراً بصوت مرتفع واضعاً يده على كتف الجندى ومشيراً بإحدى يديه إلى أسفل « اركع على ركبتيك » لقد استطاع بهذا التصرف نفسه أن يشيع الاضطراب بين الجنود والبحارة منذ عدة سنوات ولكن الظروف قد تغيرت . وخر الجندى على ركبتين كما أمر وفى الوقت نفسه غرز أسنانه فى يد الجنرال . وكان فى استطاعة ايفانوف أن يقتله رمياً بالرصاص ولكن الرأى الذى أدلى به بعد إلى إحدى لجان التحقيق أنه لو فعل ذلك فلربما كان كمن يصب الزيت على النار المشتعلة .

وبينما كان هذا الجندى مسجوناً فى حجرة الأمتعة فى القطار وصل قطار آخر من بتروجراد ولما نظر إليه رأى عدداً من الجنود يطلون من النوافذ ويقذفون بقبعاتهم فى الهواء . وقال فى شهادته : عندما وصلت إليهم سمعتهم يصيحون

« الحرية » . الآن كل الناس متساوون « لا رؤساء بعد اليوم » « لا تحكم بعد اليوم » ولقد رأيت كثيراً من الضباط يحيط بهم الجنود العاديون فقلت لهم « يا سادة ماذا دهاكم ولما رأيت الخجل بادياً فى زجوهم أصدرت نفس الأمر وقلت « اركعوا على ركبكم » وركع الجميع فى الحال .

وبعد أن سجن كثيراً من المحرضين واسترد كثيراً من المسروقات استأنف الجنرال ايفانوف رحلته ولكن كانت الأمور تزداد تعقيداً كلما قرب من العاصمة. وفى مكان ما فى الطريق سلبت الثورة منه الفرق الأربعة التى وعد بها فى موجيليف وعند وصوله إلى زادكوسيلو وجد أن فرقة الحرس قد تركته وعلم أن وزراء القيصر قد ألقى القبض عليهم فى بتروجراد . فرأى أنه لو دخل العاصمة عنوة بفرقته المهزيلة فإن ذلك يدعو إلى إراقة الدماء وعلى هذا فقد أبلغ الحالة لمقر القيادة العام . وبعد مشاروات غير مرضية مع القيصرة التى كانت مضطربة بسبب ما يبديه رعية زوجها من عدم الولاء كان يبدو أن ايفانوف — شأنه شأن كثير من أرباب المناصب الكبرى من الضباط — مجبول على الطاعة . ولكنه غير غيور على الدفاع عن نظام الحكم القائم . فعمد أن يتجول بقطاره فى الضواحى المجاورة ولأمر ما لم ير من الضرورى أن يمد حرس الأسرة الإمبراطورى فى قصر اسكندرا بأية قوة .

وفى اليوم التالى انضمت إلى الثورة فرقة الحرس الإمبراطورى المكلفة بحماية الأسرة إلا أن لجنة البرلمان أرسلت مندوبين ليؤكدوا للأسرة أنها موضع حمايتها .

وفى الخامس عشر من مارس — أى بعد أسبوع من بدء الثورة فى بتروجراد — التى لم تؤد رغم شدة الاصطدام إلا إلى ١٥٠٠ قتيل أقامت لجنة الطوارىء فى مجلس البرلمان من نفسها حكومة مؤقتة وعين البرنس لفوف

رئيساً لمجلس الوزراء . ومليوكوف وزيراً للخارجية وكرنسكى وزيراً للعدل . ودعت الحكومة الجديدة كل موظفى الدولة من مدنيين وعسكريين إلى احترام أوامرها . وكان من أوائل من أطاع الأمر الدوق سيريل ابن عم القيصر فقد قصد على رأس حرسه البحرى إلى قصر توريد وأعلن الولاء .

وفى نفس اليوم أذاعت اللجنة التنفيذية الحمراء — كأنما كان ذلك رداً على الأمر السابق — أذاعت الأمر « الأول » إلى القوات المسلحة معلنة أن الأمة فى كل الأمور السياسية خاضعة للسوفيت فى بتروجراد — أو للجان الجنود المحلية التى أخذت تتكون وتطالب الجنود ألا يطيعوا إلا أوامر البرلمان التى لا تتعارض مع أوامر السوفيت . وألغى الأمر تحية الجنود للضباط وقرر أن تكون الأسلحة لدى لجان الجنود لا لجان الضباط وهكذا أصبحت الفوضى نظاماً معترفاً به .

واتفقت الحكومة المؤقتة واللجنة التنفيذية على وجوب استقالة نقولا . ولكن بينما كانت اللجنة التنفيذية وكل مجالس السوفيت مصممة على إلغاء الحكومة القيصرية فوراً كان معظم الوزراء الجدد يرون الإبقاء عليها مع تعديل فى نظام الحكم وتحت حكم قيصر جديد . ولذلك أعد ميليوكوف صورة استقالة منه وإقامة ابنه وسنه وقتذاك ١٢ عاماً قيصراً تحت وصاية عمه الدوق ميخائيل . وقبل أن يحصل على موافقة زملائه أو الحكومة المؤقتة حتى يمكن إعلان ذلك بصفة رسمية قامت لجنة من وزير الحربية الجديد وأحد الوكلاء المحافظين إلى بتروجراد فى صباح يوم ١٥ مارس للحصول على توقيع القيصر على هذه الوثيقة .

ولم يكن فى التاريخ الروسى ولا فى تاريخ العالم أجمع مايدل على أن هذه المحاولة لإنقاذ الملكية كانت مما يمكن توقعه ولكن فى الظروف القائمة كانت المحاولة أمراً بالغ الدقة .

وقد كان من الجائز نجاحها لو أن الملكيين الروس كانوا على اتفاق فيما يجب عمله وأظهروا شيئاً من الصلابة والمهارة السياسية فى القيام بها . وكان يعوزهم شىء من التعاون من الأسرة المالكة وبخاصة من نقولا . ولكن شيئاً من كل ذلك لم يحدث فى تلك الظروف .

ولقد قابل نقولا هذه المرة أقسى أزمة فى حياته إذا قيست هذه بما قابله من الأزمات البسيطة فيما مضى، قابلها بمزيج من العظمة والشجاعة وعدم الاهتمام . لقد خرج مع حاشيته من موجيلوف إلى زاركوسيلو بعد مغادرة الجنرال ايفانوف بوقت قصير وأوقف قطاره الخاص عند محطة بسكوت فى منتصف المسافة إلى العاصمة . وفى عربة النوم استقبل المبعوثين القادمين من العاصمة فى ليل الخامس عشر من مارس . وحياهما بما اعتاد من المجاملة والهدوء وجلس معهما إلى مائدة مستديرة بينما كان سكرتيره الخاص يسجل مايدور بينهم من الحديث . وأخذ جوشكوف فى أدب جم يشرح الظروف التى تجعل الاستقالة أمراً لا مفر منه . وربما كان جديراً به ألا يجهد نفسه فى أداء هذه المهمة فقد وصل القيصر من قبل برقيات متفق عليها من معظم قادة الجيش بما فيهم عمه الدوق نقولا قائد منطقة القوقاز يلحون فيها عليه بالاستقالة بل لقد رد عليهم ببرقية بالموافقة، وبناء على إلحاح من كانوا فى معيته أوقف إرسال البرقية أو على الأقل حدثت محاولة لوقف إرسالها . ولكن هذه الحادثة تظهر ما اعتاد عليه من التردد قبل اتخاذه أى قرار . وعندما قرر جوشكوف الانسحاب وكان نقولا يقلب وحده وجوه الرأى قبل أن يدلى بقراره قال «إنى فكرت من قبل فى الموضوع وقررت الاستقالة» .

وقد أدهش الرسولين القرار الذى اتخذه القيصر وعدم الاهتمام الذى أظهره فى موضوع يتعلق بمصيره ولم يصدقا أنه كان على وعى تام بما ينطوى عليه قراره .

ومما ذكره جوشكوف فيما بعد « كان الأمر فى غاية البساطة وعادياً إلى أبعد حد . ويبدو أن الإمبراطور لم يكن ليدرك المأساة الماثلة أمام عينيه » .

وإنما كان فى صوت الإمبراطور ماينم عن تأثره عندما ذكر مستقبل ولى العهد . وفى هذا المجال وحده وضع بعض العراقيل . فلم يوافق على أن يمنح الطفل لقب القيصر فإن هذا يقتضى بعد والديه عنه دائماً وهو ضعيف الصحة ، وهذا الموقف طبيعى من والد محب لولده ومع ذلك ففيه دلالة مؤلمة على شعور الأسرة الذى يزيد الارتباك بين أنصار الملكية .

وكان جوشكوف وزميله يدركان أن أى تغيير فى نص الوثيقة خطير ولكنهما رضخا أخيراً إلى إصرار الأمبراطور الذى عبر عنه بأسلوبه الرقيق .

وكان النص الأخير للاستقالة بعد أن أصلحها نقولا « نزولا على رأى مجلس الدوما الإمبراطورى نرى من الأوفق التنازل عن عرش الدولة الروسية والتخلى عن السلطة العليا ، ورغبة فى عدم فراق ولدنا العزيز ننزل عن تراثنا لأخينا الدوق ميخائيل الكساندروفتش وندعو له بمناسبة ارتقائه عرش الدولة الروسية » .

وعندما عاد جوشكوف وزميله إلى بتروجراد فى صبيحة السادس عشر من مارس كان مضمون الرسالة قد عرف فى العاصمة . وكان رأى السوفيت صلباً لا يتزعزع ضد بقاء الحكومة المطلقة ، وكان الرأى لدى الحكومة المؤقتة المعارضة التامة لهذه الفكرة وفى تلك الأثناء كان فى قصر الدوق مؤتمر عقد ليقرر قبول الدوق للعرض أو يقرر عدم قبوله . وكان كل الوزراء حاضرين وكذلك كان رئيس مجلس البرلمان حاضراً كذلك ، وبعد انتهاء جوشكوف وشلجين من مهمتهما قصدا تواً للانضمام إليهم . وكان كرنسكى يرأس الحزب الذى يؤيد ميخائيل فى رفض العرش وكان من رأى مليوكوف وجوشكوف قبول العرش بشروط خاصة . وكان من رأى جوشكوف أن يقبل ميخائيل العرش إلى أن يتم

انتخاب مجلس تأسيسى يقرر نوع الحكم الذى يصلح للبلاد . كان هذا الاتجاه — على الأقل — مزية طيبة حقيقية . إنه سوف يدعو الضباط وكبار رجال الصناعة ومعظم النبلاء إلى تأييد الحكومة المؤقتة وربما منحها مزيدا من الإكبار فى أعين عامة الفلاحين ومعظم الأحرار الذين كانوا يؤيدون مثل هذا الرأى وأصبحوا يعارضونه لأنهم كانوا يخشون وقوع خلاف صريح — وربما نزاع مسلح — مع مجالس السوفييت . واحتدم الجدل عدة ساعات وكان الحديث مرتبكا أحياناً وعاطفياً أحياناً وربما كان خيالياً أيضاً فى بعض الأحايين . بينما جلس الدوق — وكان فارع الطول ضعيف البنية متمتعاً بمنظر الشباب معروفا فى أوقات الفراغ بحبه للخيل — فى كرسى مريح يصغى إلى الحديث باهتمام ويسأل سؤالا بين الفينة والفينة وقلما يبدى أى رأى وأخيراً طلب إعفاءه من الاشتراك فى الحديث وآوى إلى حجرة مجاورة ليحظى بالتفكير الهادىء . ولحق به على وجه السرعة رودريانكو والبرنس لفوف ورأى كل منهما تأييد التنازل. وكان أثر تبادل الرأى الذى أعقب هذا فاصلا فى تقرير مستقبل أسرة رومانوف — على الأقل من الناحية الشكلية . وبعد بضع دقائق عاد الدوق إلى حجرة الاستقبال . وكان متزناً ولكن يعلو وجهه مسحة من الحزن وأعلن قراره . إنه يقبل العرش إذا ما عرضه عليه مجلس تأسيسى ولكنه يرى فى الوقت الحاضر أن يبتعد عن العرش .

وهكذا انتهت السنين الثلاثمائه التى قضتها أسرة رومانوف فى الحكم . وعلى النقيض من ذلك الاحتفال الذى تم فى اليوم السابق فى عربة السكة الحديد فى بسكوف كان فى احتفال اليوم شىء من مظاهر الإنسانية. وعندما أعلن الدوق رغبته فى التنازل عن العرش صاح كرنسكى قائلا « ياسيدى أنت أشرف الناس » وحذر جوسكوف زملاءه قائلا « لا أستطيع أن أتبعكم فى الطريق الذى اخترته »

ثم خانه اتزانه وأردف قائلا « إنكم تسوقون البلاد إلى الدمار » .

ولا يزال غير الشيوعيين من المؤرخين الروس يجادلون فيما إذا كان اليوم المشئوم — اليوم الثالث من مارس — ١٦ مارس حسب التقويم الحديث فى رأى ماكلاكوف — هو الذى حدث فيه التوقيع على وثيقة الموت للديمقراطية الروسية الحديثة . ولكلا الطرفين — الملكيين وغير الملكيين — بعض الحجج التى يستندون إليها. ولعل الحقيقة ليست بينهما بل تجاوزت الطرفين جميعاً . إن الثورة الروسية بعد مارس سنة ١٩١٧ قد تأثرت بعوامل خارجية كما تأثرت بمثل ذلك على الأقل بمن كانوا يعملون على توجيهها فى الداخل. انها كانت تستمد مقوماتها من أزمة المدنية العنيفة العميقة الواسعة الانتشار التى فكت عقالها الحرب ذاتها .

الفصل الخامس عشر

عصر الطبيبة الساحرة

لقد عقد بجوار فينا فى الثالث والعشرين من شهر مارس سنة ١٩١٧ أى بعد أسبوع واحد من مؤتمر بتروجراد الذى دعا الدوق ميخائيل إلى رفض عرش روسيا ، اجتماع — سرى وأعضاؤه أوثق اتصالاً — ليس له علاقة مباشرة بالحالة فى روسيا ولكن كان له أثر حاسم فى سير أحداثها . وكان مقر الاجتماع إحدى الحجرات فى حصن لاكسنبرج الذى كان لآل هابسبرج ، على بعد بضعة أميال جنوبى العاصمة النمسوية فى الساعة السادسة التى لا تناسب عادة عقد اجتماعات فى صباح يوم مظلم شديد البرودة . وبدأ الاجتماع بأربعة أعضاء فقط — الإمبراطور كارل — توفى الامبراطور فرانسيس يوسف منذ أربعة أشهر — وهو رجل طويل نحيف الجسم فى التاسعة والعشرين من عمره ذو شوارب منسقة تدل دائماً ملامحه الجميلة على الجد الممزوج بالحياء . وزوجته الامبراطورة زيتا تصغره بأربع سنوات ذات عينين سوداوين جميلتين تنمان عن قوة العقل . وأخواها الأمير سكستوس وزافير من أسرة بوربون ويدل مظهرها على حقيقة أمرهما — كأنهما شابان أنيقان من صلب زوجين من أبناء باريس — ولم تكن زيتا قد شاهدت أخويها اللذين تكن لهما حباً عظيماً منذ سنة ١٩١٤ لأن البلاد التى تنسب إليها بحكم زواجها وبلاد أخويها كانت كل منها فى حرب مع الأخرى . وأسرة بوربون بارما إحدى الأسر الملكية الأوربية المختلطة النسب بشكل واضح . فزيتا أميرة إيطالية اكتسبت الجنسية النمسوية المجرية (إن صح هذا التعبير) بينما كان سكستوس وزافير يعيشان فى فرنسا ويعدان نفسيهما من الفرنسيين . ونظراً إلى أنهما كانا ممنوعين بحكم قانون الجمهورية الثالثة — لما فيهما من الدم البوربونى — من الخدمة فى الجيش

الفرنسى انضما إلى جيش ابن عمهما ألبرت ملك بلجيكا ليعملا فى فرقة الإسعاف ورقيا إلى رتبة ملازم ثان . وكان اللقاء الذى يبدو فيه روح المؤامرة إبان شربه برميل القهوة فى ذلك البرد الشديد فى حصن لكسنبرج لقاء عائلياً . وفى الظروف المحيطة بتلك الأيام لا بد أن يكون لقاء مثيراً للشعور حتى لو لم يكن له غرض آخر . وفى الواقع إنه كان لقاء بحثت فيه الأمور بطريقة الأسلوب السياسى القديم ، ولا شك أنه كان آخر لقاء من نوعه لدرس أمور الدنيا التى لم تكن فى شر صورها .

ولم يكن إمبراطور النمسا الجديد ملكاً فيلسوفاً ولا رجلاً حديدياً . لقد كان شاباً مهذباً معقولاً متمديناً من طراز رجال أوربا الوسطى . محتفظاً بمظهر أجداده ولكنه تخلى عن كثير من روح الإقطاع الذى كان يصبغ الأسرة إبان حكم عمه الكبير فرانسيس يوسف . وكان كارل مثل عمه فرانسيس فرديناند فى ولائه الشديد لأسرته وإمبراطوريته . وكان يشبهه كذلك فى ذكائه حيث أدرك أن حبه لأسرته يقتضى تنوير بلاده . وعلى النقيض من عميه لم يكن من رجال الحرب . لقد كان يكره الحرب وكان يرى أنه إذا لم تنته فى أسرع وقت هذه الخصومات الدامية تلك الخصومات التى جلبها حمق الحكومة النمسوية نفسها فإن نهاية الإمبراطورية آتية لا ريب فيها . وكانت المشكلة هى كيف يكون انسحاب النمسا من الحرب . وكثيراً ما كان يبحث هذا الأمر عندما كان ولياً للعهد بينما كان يدفع عربة أحد أبنائه أمامه فى نزهته المفضلة فى حديقة شونبرون . وكل محاولة نمسوية تهدف إلى معرفة الوسائل التى تؤدى إلى اتفاق على الصلح بالطرق الدبلوماسية أو أشباهها لا بد فاشلة حيث تقضى عليها حليفتها الألمانية . وكان كارل يعلم ذلك . فالسلم إذن لا يمكن الوصول إليه من الطريق الشريف المستقيم . إن المؤامرة هى الطريق الموصل إلى السلام .

وما إن انتهت مراسم تتويج كارل حتى شرع فى إعداد مؤامرة السلام . وقد لا يكون مسلكه فيها شريفاً بالنسبة إلى حلفائه — رغم أنه لم يفكر على ما يبدو فى صلح منفرد يؤدى إلى ترك ألمانيا تحت رحمة القدر فضلاً عن أن مثل هذا الصلح عظيم الخطورة سياسياً بل وشخصياً كذلك . ومع هذا صمم الإمبراطور الشاب الذى كانت زوجته تشجعه بل وتدفعه دفعاً وهى واقعة تحت نفوذ الفاتيكان على القيام بهذه المحاولة . وعقد العزم على استخدام صهريه نائبين غير رسميين عنه ليسبرا غور رؤساء حكومات الحلفاء ، واتصلا فعلا بالحلفاء عن طريق العلاقات العائلية . وفى أثناء قيامهما بما كلفا به أعطيت لهما أوراق مزورة هربت من سويسرا إلى النمسا ونقلت سراً إلى لكسنبرج . ولم تكن المهمة التى كلفا بها سهلة ولا آمنة وهو ما بلغاه إلى أختهما ولكنهما قبلا القيام بها أخيراً نزولاً على رجائها العاطفى : « فكرا فى آلاف الرجال المساكين المقيمين فى جحيم الخنادق والذين يقتلون بالمئات كل يوم وارجعا إلى » .

وكانت المهمة طريفة ليس لها لون سياسى ولكنها لم تكن خالية من المسئولية .

وصمم سكستوس وزافير على أن يستوضحا الحكومة الفرنسية عن المهمة الملقاة عليهما قبل البت فى القيام بها وتقابلا عدة مرات مع الرئيس بوانكاريه ورئيس الحكومة المسيو بريانـد الذى شجعهما فى صراحة تامة . وكان الإمبراطور يثق فى وزير خارجيته الكونت زرنين (ثقة لسوء الحظ غير تامة) وكان زرنين هذا رجلا طويلا نحيفاً شاحب اللون ينم مظهره على أنه حانوتى جاء ليلقى نظرة على الجثة . وقد انضم للشابين الذين يعملان لإقرار السلم عندما انتهيا من حديثهما الخاص ولفت نظرهما إلى مواطن الخطر التى قد يجدانها فى طريقهما . وكان الحديث مثبطاً للهمة ولكنه كان مفيداً . وفى نهاية الاجتماع الثانى الذى تم فى نهاية اليوم نفسه سلم زرنين الأميرين مذكرة أعدها بمنتهى العناية ولذلك كانت قاصرة

على الأمور المألوفة يبين فيهـا موقف الحكومة النمسوية ، الذى يكون أساساً لمفاوضات السلم الرسمية .

ودس كارل فى أيديهما — دون أن يبلغ زرنين — خطاباً مكتوباً باليد إلى بوانـكاريه كان صريحاً إلى حد بعيد. وفى هذا الخطاب الذى كان مكتوبا بخط أنيق — وان كان غير خال من الأخطاء اللغوية الفرنسية — عرض الإمبراطور الشاب استعمال كل نفوذه الشخصى لإقناع حلفائه الألمان بالاعتراف « بحقوق الفرنسيين العادلة » فى الألزاس واللورين — وهو عرض مثير فى هذه الظروف ، واقترح كأساس آخر للسلام العام الجلاء عن بلجيكا وإعادة استقلال الصرب عل أن تتعهد الصرب بالقضاء على أى دعاية فى بلادها للجامعة الصربية . بل إن كارل أثار إمكان منح الصرب ثغراً على البحر الأدرياتى .

وكان للخطاب وقع فى باريس وأسرع اسكندر ريبو الذى خلف المسيو برياند فى رياسة الوزارة إلى إبلاغ البريطانيين عن التطور الجديد . وكان تعليق رئيس الوزراء البريطانى دافيد لويد جورج بعد حديث بينه وبين ريبو فى أبريل « هذا صلح » · كان هذا الأمل يهز العواطف .

ولم يكن لدى الحلفاء كرة بلورية يستطيع ساستهم أن يقرأوا فيها المستقبل ، حتى أبعد الناس نظراً كان لا يستطع التنبؤ بما للصلح الذى يعرضه كارل من أثر إذا تم فى منع سلسلة من الـكوارث كبلشفة روسيا وبلقنة أوربا الوسطى وهتلرة ألمـانيا ونشوب الحرب والثورة فى أوربا مرة أخرى واغتصاب دول وإقامة ستار حديدى يقسم قلب أوربا إلى قسمين مستقلين . ومع هذا فإنهاء الحياة فى الخنادق كان عملا مثيراً فى حد ذاته . ومع أن قادة الغرب كانوا لا يستطيعون أن يتنبئوا بأحداث روسيا العارمة إلا أنهم كانوا فى غاية القلق لمـا قد يحدث هناك ،

وبعضهم — ومنهم بريان — كان يساورهم الجزع مما عساه أن يحدث إذا ما اتسعت الإمبراطورية النمسوية . ومن هنا كانت استجابة الفرنسيين والانجليز لفكرة الصلح مع شيء من الحيطة. وتقرر جس نبض الدول المتحالفة — إيطاليا ورومانيا (وكانت روسيا مشغولة بثورتها الداخلية بحيث لم تكن تعد عند ذاك من الدول المعنية بالأمر) دون إفشاء كل ظروف بعثة اميرى بوربون بارما . وأبدى كارل الدليل على إخلاصه فى الاقتراح الذى يعرضه بمحاولته تليين الألمان وبخاصة فى مسألة الألزاس واللورين . وأكد كارل حاجة النمسا الملحة إلى الصلح دون أن يفشى سر اتصاله بالدول المتحالفة وحذر حلفاءه بأن اشتراك أمريكا فى الحرب سيكون له أوخم العواقب بالنسبة لدول أوربا الوسطى . ولذلك كان الصلح دون إحراز النصر أفضل من الهزيمة . وأشير على زرنين بالتلميح عن إمكان التنازل عن شطر من غاليسيا النمسوية إلى ألمانيا إذا قبلت التنازل عن الألزاس واللورين أو عن جزء منها للوصول إلى اتفاق عام .

وقد ساد الاعتقاد حوالى شهر كامل بأن هناك أملا فى أن لحديث الصلح بعض النتائج ، ثم أخذت العقبات تتجمع . فالألمان كانوا يرفضون رفضاً باتاً ما عرضه عليهم إمبراطور النمسا وقال له إمبراطورهم فى شيء من السخرية فى حديث خاص بينهما فى بادهومبرج «إنك كنت دائماً تصغى إلى كلام نسائك » ثم إن ريبو قلت حماسته لمفاوضات الصلح عندما سمع هذا الحديث . وكان الرومانيون والإيطاليون بخاصة يعارضون فى المفاوضات معارضة أشد. وحلفاء ألمانيا هؤلاء (أو عملاؤها) أمكن إغراؤهم بالدخول فى الحرب مع الحلفاء بما وعدوا فى اتفاقات سرية بمغانم كثيرة من الدولة النمسوية (وكانت هناك معاهدات سرية أخرى على حساب تركيا بمنح الدردنيل إلى روسيا وفلسطين لليهود . وسوريا للفرنسيين) وكان فى غاية السخاء فيا يتعلق بالألزاس واللورين التى لم تكن تابعة له وكان

أقل سخاء فيما يتعلق برومانيا وإيطاليا فلم يعدهما بما يروى ظمأهما بشىء مما يملكه .

وأخيراً تبخر كل أمل فى الصلح بعد أن كان يقوى فى فترات متقطعة فى أواخر سنة ١٩١٧ . ثم ساد التفاؤل عندما أظهرت ألمانيا اهتماماً بمقترحات الصلح التى قدمها البابا بندكت الخامس عشر . ولكن لم يكن لهذه الحركة أية نتيجة . وكانت النتيجة لرغبة كارل الطيبة فى إنقاذ أوربا هى الإسراع فى سقوط الدولة النمسوية على ما سنراه فى فصل لاحق . ويعزو بعض المؤرخين فشل الإمبراطور الشاب رغم نواياه الطيبة إلى افتقاره إلى قوة العزيمة — ويعزوه بعضهم إلى جشع إيطاليا أو تلاعب فرنسا أو روح ألمانيا الحربية ، بل قد يوجه الاتهام إلى الرئيس ولسن على أنه أحد كبار المذنبين بتخلفه . والواقع لو كانت لديه أنباء صحيحة عن الموقف أو كان أحسن فهما للموقف السياسى فى كل من النمسا وروسيا لضمن الديمقراطية للعالم بثمن أقل مما دفعه شعب الولايات المتحدة بتأييد مسعى الصلح بنفوذه الأدبى وبقوته الحربية سنة ١٩١٧ (وقد اقترح ولسن فى ديسمبر سنة ١٩١٦ على المتحاربين أن يبينوا أهدافهم السلمية لتكون أساساً للمفاوضات . وكان خطاب كارل يتفق مع روح هذا الاقتراح) .

والحقيقة أنه بمجىء ربيع عام ١٩١٧ لم يكن هناك قائد بعينه مسئولا أو دولة بعينها مسئولة عن إضاعة الفرصة السانحة للصلح والسلام . لأن زمام الأعمال الحربية قد أفلت من جميع الأيدى . ومع أن كل الأمم المتحاربة — باستثناء أمريكا التى لم تدخل الحرب إلا من مدة وجيزة وروسيا التى كانت شبه خارجة منها — أصبحت ديكتاتوريات ، إلا أن الحكم فيها لم يكن فى يد دكتاتور أو حتى فى يد أوليجاركية حربية . وبعبارة أخرى لم يكن فى أيدى حفنة قليلة من الرجال . بل كان فى يد الأجهزة الإدارية التى كانت موجودة — أو التى أنشئت — لتوجيه القوى

القومية العامة إلى إحراز النصر . ولعب بعض هذه الأجهزة دوراً كبيراً فى محادثات السلام سنة ١٩١٧ وكان قيمة هامة من وجهة النظر الخاصة بموضوع هذا الكتاب. فإنها كانت تعمل على نطاق واسع ، وكان لها أثر كبير فى إشتعال الثورات التى حدثت فى السنتين الأخيرتين فى الحرب وكذلك التى حدثت بعد الهدنة .

لقد أصبحت الطرق المختلفة التى تلجأ إليها الأمم معالجة الأمور بينها مألوفة لدينا من جراء الحرب الباردة بين الغرب وأمم الكتلة الشيوعية فى السنوات العشر التى أعقبت الحرب العالمية الثانية .

وقد أحسنت الصحف التعبير عن ذلك تحت عنوان « الحرب النفسية السيكلوجية » أو « الحرب الباردة » (والعبارتان — من الناحية السياسية على الأقل — لهما معنى واحد تقريباً ، ويفضل التعبير الأول فى الولايات المتحدة والثانى فى بريطانيا . ولهما مدلول عام يشمل مجموعة كبيرة من أنواع النشاط الذى يتراوح بين أعمال الدعاية وإثارة الحركات الثورية والقيام بحرب العصابات) . وهذه الألفاظ حديثة نسبياً وكذلك بعض الأساليب التى تتبع فى الحروب النفسية . ولكن نماط الأعمال الحربية النفسية ترجع إلى فجر التاريخ الإنسانى . بل ربما رجعت إلى ماقبل ذلك . فإن حفيف الأفعى وصياح القرد هما بعض أنواع الأساليب الحربية النفسية وشبيه بها صيحات الحرب التى يرسلها الهندى الأمريكى ، وعبارات الفخار التى كان الإغريقى فى عصر هوميروس يتشدق بها ، والسحر والشعوذة التى تقوم بها الطبيبة الساحرة فى العصور البدائية . وفى جميع العصور ما يسمى خيانة سانت جورج أى

رشوة جنود الأعداء أو ضباطهم ليخونوا قضيتهم بالأساليب التى كان يستخدمها معظم أصحاب الفتوحات العظيمة من القواد . ولقد كانت الأسلحة النفسية لهذه الكتيبة الأسطورية هى التى يعزى إليها النصر فى موقعة فالمى أول نصر حربى أحرزته الثورة الفرنسية ، أكثر مما يعزى إلى شجاعة جنودها • وقبل أن يقوم جبلز وزير الدعاية الألمانى بحملته فى عهد هتلر بزمن طويل استخدم نابليون نشرات الدعاية المطبوعة كسلاح من الأسلحة الحربية • وكان الطابور الخامس الذى نظمه جون بول جونز من أهل البلاد ، هو الذى مهد لاستيلاء جنود بحرية الولايات المتحدة على شواطئ طرابلس ، كما أن استخدام الرئيس جيمس بولك لأمثال هذه الأساليب الحربية النفسية هو الذى أعانه على الوصول إلى تحقيق أهدافه .

ومع ذلك فقد استخدمت هذه الحيل السوداء فى الحرب (والسياسة أيضاً) فى الحرب العالمية الأولى بانتظام وعلى نطاق واسع لم يسبق له مثيل حتى أصبحت إحدى الوسائل الحديثة فى الحرب ولأول مرة فى التاريخ • أنشئت حينذاك أجهزة ماهرة متخصصة فى كافة الطرق الدعائية غير الشريفة التى تسند الجيوش فى ميادين الحرب ، وتؤازر الشرطة فى الداخل . وهكذا نشأت تلك الظاهرة الحديثة العجيبة — ظاهرة المحارب النفسى (أو السياسى) .

وفى مبدأ الحرب كان الاهتمام — على الأقل فى ميدان الدعاية — فى مجال الدفاع أكثر منه فى مجال الهجوم ، ومسلطاً على الجبهة الداخلية فى البلد المحارب (وهذه نفسها من المفاهيم الحديثة) وكان لذلك أسباب كثيرة أحدها الأهمية المتزايدة للعامل الاقتصادى فى العملية الحربية وهو ما جعل الروح المعنوية للفلاح

والعامل الصناعى موضع اهتمام لدى القائمين بالحرب، والثانى — وهو ما سبقت الإشارة إليه — كان الضغط الشديد الذى يقع على أعصاب المحارب فى جبهة القتال . ويدخل فى موضوع الروح المعنوية — مدنياً أو حربياً — الفكرة التى أخذت تظهر منذ القرن الثامن عشر من تأكيد حق الفرد فى الحياة والحرية والجرى وراء السعادة .

ويقول الأستاذ هارولد لاسول كتابه « طرق الدعاية فى الحرب العالمية » إن الدعاية « هى تسليم بما يسود العصر من صلابة فى الرأى » . ومنذ القرن العشرين — أو على الأقل منذ العشرة الأعوام الأولى منه — لم يعد فى الإمكان أمر الناس بالنزول عن حبهم فى الحياة الهانئة إذا عن لحاكم أن يصدر أمره بذلك . إنما الأمر الآن يقتضى الاقتناع . ولقد سهل مهمة الإقناع انتشار التعليم وسهولة المواصلات ، ومن الطبيعى (وإن كان يبدو عجيباً عند النظرة الأولى) أن تكون أسوأ الدعايات وأشدها غلواً ، تلك التى كانت فى البلاد الغربية الديمقراطية ، حيث كان الرجل العادى — على حد تعبير لاسول — أشد الناس عناداً .

وكان من أنماط الدعاية الغربية التى قصد منها إذكاء الروح المعنوية والتى كانت أدعى للهزيمة وأقسى وقعاً على النفوس الاعتماد الخاطئ على إذكاء مشاعر الجماهير بما يذاع عليها من شعارات مثل « إلى الحرب للقضاء على الحرب » (والذى أوحى بهذا ج . ه . ولز) ومثل (أعدوا العالم للديمقراطية) المقتبسة من رسالة للرئيس ولسن إلى المؤتمر الثانى فى أبريل سنة ١٩١٧ . ولا شك فى أن الساسة الذين أرادوا استغلال آمال الجماهير بهذه العبارات الرنانة كانوا الضحية الأولى لدعاياتهم .

ومن العجب العجاب — إذا نظرنا إلى تلك الدعاية — أن نرى رجالا أذكياء من ذوى الرأى — وفيهم المؤرخ النابه — قد خدعوا وظنوا أن من الممكن بهذه المجازر أن تنشئ عالماً أفضل . وقد أيقظ شكوك الجماهير فى البلاد الغربية فى حياة أفضل التهديد الذى ألقاه هتلر يهدد فيه بما بقى لهم من الحريات الأساسية .

ولقد كانت دعاية الكراهية أشد فتكا فى نتائجها النهائية من الدعاية المبنية على المثل العليا التى أسىء توجيهها . والخطأ الأكبر فى هذا المجال أيضاً كان من ناحية الديمقراطية . ففى فرنسا كان مصنع التزييف الذى تموله الحكومة سراً ، ينتج الصور الفوتوغرافية الزائفة لأطفال رضع بلجيكيين قطعت أذرعتهم أو لنساء مزقت صدورهن حراب الألمان وسيوفهم أو لمصانع لعمل الصابون من الجثث الآدمية . وكان البريطانيون أقرب إلى الحكمة قليلا ولكنهم قلما يتورعون عن ذكر وحشية « الهون » (وهذا وصف مقتبس من خطاب وجهه القيصر إلى رجال بحريته عند قيام ثورة البوكسير فى الصين) وبعد عشرين سنة كانت الآثار التى خلفتها دعاية الوحشية الحربية فى عقول الشعوب — والتى ظهرت حقيقتها بعد انتهاء الحرب — كانت لا تزال قائمة حتى إن مكاتبى الصحف الأمريكيين لقوا صعوبات عظيمة فى إقناع أصحاب الصحف بإعادة طبع الأنباء الصحيحة للفظائع النازية .

ومع تقدم الحرب أخذت وسائل الدعاية لدى كبرى البلاد المحاربة تزداد شدة وتتفوق تنظيما حتى إن البريطانيين نشئوا وزارة مستكملة للاعلام تحت إشراف

أحد كبار رجال الصحافة — لورد بيفربروك — وكانت الدعاية الموجهة للبلاد المعادية إدارة شبه مستقلة تحت إشراف منافس بيفربروك — هو لورد نورثكليف . وبعد دخول أمريكا الحرب ببضعة أيام أسس الرئيس ولسون لجنة الأنباء العامة تحت رياسة جورج كريل الصحفى الأمريكى المعروف مع منحه حرية التصرف المطلقة فى الدعاية الداخلية والخارجية مع قيامه بالرقابة على الصحف كذلك . وقد أنشأ الفرنسيون والألمان والإيطاليون أجهزة للدعاية لاتقل نشاطاً عن ذلك . وفى جميع البلاد التى اشتركت فى الحرب كانت إدارة الدعاية على اتصال وثيق بالهيئة العليا الحربية وبالمراقبين الحربيين وبالشرطة السرية وإدارة المخابرات . ومن ذلك شبكة كبيرة متطوعة (وأحيانا مأجورة بصفة سرية) من الصحفيين والكتاب والساسة — وكانت النتيجة لهذا قيام سلسلة قوية من الهيئات التى كان شعارها انتقال الحرب إلى نهايتها الأليمة . ولعل ضغط هذه الهيئات المحبة للحرب على الألمان والحلفاء كان هو العامل القوى فى وأد فكرة الصلح التى كان الإمبراطور كارل فى مارس سنة ١٩١٧ يأمل تحقيقها .

وربما كان النشاط السياسى الذى قامت به الدول المحاربة لإضعاف الروح المعنوية لدى أعدائها أو إيجاد الفرقة بينهم . أكبر عامل يحول دون مفاوضات الصلح . والهدوء فى الخنادق يسهل نشر الدعاية ضد الحرب بأساليب بدائية كإلقاء المطبوعات على خطوط الأعداء من الطائرات القليلة الارتفاع . ويدعو كذلك إلى البحث عن حل سياسى بدلا من الانتصار الحربى . وكلما طال أمد الهدوء فى ميدان الحرب قويت المحاولة لإثارة الاضطراب فى صفوف الأعداء وأصبحت كل أقلية عنصرية أو دينية ، وكل جماعة ساخطة هدفاً للاثارة والدعاية . وكذلك كان يستغل كل ماتشعر به أى جماعة من كراهية أو خوف أو طمع

وكذلك كان يشجع كل أمل لاسترداد الأقاليم التى فقدت . وعادة كان لايقبل العمل مع أعداء الوطن إلا غلاة المتطرفين من زعماء الأقليات . ومع ذلك فأحياناً كانت شدة الدكتاتوريات إبان الحرب أو شدة الحرب نفسها تدفع قادة الأقليات المسئولين أو المعتدلين إلى العمل مع الأعداء ، وفي مثل هذه الظروف ينقلب اعتدالهم إلى تطرف وينجحون أحياناً فى مطالبة حليفهم الجديد بمطالب جديدة لم تخطر لهم من قبل على بال .

وقصة حياة توماس مازاريك — ابن حوذى بوهيمى — الذى أصبح مؤسس الجمهورية التشيكوسلوفاكية وأول رئيس لها تمثل جانباً من حياة قادة الأقليات وأعمالهم . فقبل الحرب كان وجه مازاريك الريفى الذى يدل على ما كابد من جهد والذى تزينه لحية الأستاذية الإجبارية منظراً مألوفاً فى الأوساط السياسية والثقافية في الإمبراطورية النمسوية . وكان أستاذاً للفلسفة فى جامعتى براج وفينا . واضعاً لعدة مؤلفات ممتازة فى نواحى الفكر المختلفة . كما كان الرئيسى السياسى البارز للأقلية التشيكية وممثلها القوى فى البرلمان النمسوى . وقد كانت خطبه الرصينة الأسلوب ، القوية الحجة ، المبنية على الوثائق ، ضربات يوجهها إلى الإمبراطور دون رحمة ، وكان ناقداً مراً لسياسة الدولة الثنائية الخارجية معدداً ماتقوم به من إخلال بالشرف أو تقرير للظلم فى معاملتها للشعوب الخاضعة لها . وكان مازاريك الذى اقترن بأمريكية تدعى شارلوت جاريك ديمقراطياً صميماً كما كان وطنياً تشيكياً . ولكنه ظل إلى قيام الحرب يخدم الإمبراطور رئيسا للمعارضة التى تدين له بالولاء .

وعندما قامت الحرب واستدعى الشعب التشيكى للحرب تحت العلم الهابسبرجى ضد الأخوة السلاف فى الصرب وروسيا كان وقع ذلك على أعصاب

أشد الوطنيين التشيك اعتدالا شديدا إلى أبعد الحدود ، فقامت حركة سرية للمقاومة فى براج، واختير مازاريك رئيساً لها فى الخارج . وفى ديسمبر سنة ١٩١٤ هرب هذا السياسى الفيلسوف المبجل وهو فى الخامسة والستين من عمره إلى سويسرة وبدأ حياة الثائر المتآمر الجديدة . وسرعان ماانضم إليه زميله الشاب الذى يمتاز بوطنيته المتطرفة إدوارد بنيس ، وهو أستاذ علم الاجتماع فى جامعة براج فى الثلاثين من عمره، الذى اقترن اسمه بأمجد أحداث التاريخ التشيكى وأشد مآسيه وقعاً .

ونتيجة لأعمال الضغط التىوحدت صفوف التشيك ، وتبعاً لمقتضيات النضال صارت حركة التشيك القومية حركة الاستقلال التشيكى ، ثم صارت أخيراً حركة الاستقلال التشيكى السلوفاكى . ثم أخذت تشتد حتى لم تكن لتقبل أى تفاهم مع صاحب السلطان المغتصب . وأخيراً أصبح تفتيت الإمبراطورية النمسوية المجرية هو الهدف الصريح الذى لايتغير، لجماعة المهاجرين التى يرأسهاما زاريك وبنيس . وفى سنة ١٩١٥ انتقلوا إلى باريس وأسسوا بمعرفة الحلفاء جمعية قومية تشيكية ، وعملوا بنصيحة كثير من المؤرخين والصحفيين الفرنسيين والبريطانيين بغيرة عظيمة على تأليب الجنود النمسويين المجريين . وأمطروا المجندين من بوهيميا ومن سلوفاكيا ، التى كانت تحت حكم المجر بالمنشورات المطبوعة . ونظموا أعمال الجاسوسية السرية ومنظمات المقاومة السرية ، وبثوا الدعاية والثقافة بين أسرى الحرب التشيك . وكان نجاحهم واضحا وبخاصة فى الجبهة الروسية . ويزعمون أنهم نجحوا عند نهاية الحرب فى إقناع ٤٠٠٠٠٠ جندى فى الجيش النمسوى المجرى من التشيك والسلوفاك والسلاف بترك الجيش ، وأن ١٢٠٠٠ جندى فى جيش الدوق فردريك وحده شنقوا لمحاولة ترك الخدمة . وكثير ممن هجروا الجيش من التشيك والسلوفاك ومن الأسرى خدموا فى الكتائب التشيكية التى نظمت للحرب

فى جانب الحلفاء ،سواء فى الغرب أو فى الجبهة لروسية ، وكانت الفرقة التشيكية فى الجبهة الروسية عظيمة الأهميــة بوجه خاص ، حيث بلغت عند قيام الثورة الروسية حوالى ٤٠٠٠٠٠ من الجنود المدربين . وكان عليها أن تقوم بدور فى الحرب الأهلية الروسية .

وما أبداه مازاريك وبنيس من الـكفاية الممتازة فى النضال السياسى لم يكن موجها ضد دول وسط أوربا دون غيرها .

ومما قاله لبعض مؤيديه فى توضيح رسالته « لا يمكن الحصول على الاستقلال بالتحدث عن الاستقلال . يجب أن نحمل حكومات الدول المتحالفة وذوى النفوذ من السياسيين والنواب والصحفيين على العطف على مطالبنا . يجب أن تقتنع أوربا السياسية أن قيام الدولة التشيكية أمر ضرورى ، أى أنها ضرورية للحلفاء كذلك» . وفى فصل الربيع من سنة ١٩١٧ عندما بدأ الإمبراطور كارل يجس النبض لعقد الصلح لم تـكن دول الغرب مقتنعة كل الاقتناع بأن دولة تشيكية مستقلة ضرورية أو مفيدة. ورأى لويد جورج فى يناير سنة ١٩١٨ أنه من المستحسن أن يعلن بصراحة أن تفتيت النمسا والمجر لم يكن من أهداف الإنجليز الحربية، وردد الرئيس ولسن نفس المعنى فى رسالته إلى مؤتمر الثامن من يناير سنة ١٩١٨ (نفس المؤتمر الذى أعلن شروط ولسن الأربعة عشر)[١] وحتى فى الوقت الذى كان ريبوت ولويد

(١) وشروط ولسن الأربعة عشر أمدت محاربى الحلفاء السياسيين بقدر من أعظم ذخائرهم، ولـكن من الخطأ ومن الظلم أن يكون لها المقام الأول فى هذا المجال . إن هذه الشروط من أهم النصوص الأساسية فى هذا القرن . وزيادة على ذلك فرغم تحررها وتأكيدها لحق تقرير المصير لكافة الشعوب ــ وبخاصة الشعب البولونى وشعوب الإمبراطورية النمسوية المجرية ــ فإنها لم تـكن متعارضة مع مبادئ الأسرية (العائلية) والمبادئ الإمبراطوية . وكلتـا الأسرتين الهابسبورج والهوهنزولرن حاولتا الحصول على صلح على أساس شروط ولسن الأربعة عشر ولـكنهما ارتـكبتا خطأ الانتظار حتى تداعت عروشهما .

جورج يقلبان الرأى فى خطاب كارل، عطل نشاطهما فى بحث الصلح مع النمسا التزامات الحلفاء الضمنية إلى اللجنة القومية التشكية .

وفى المدة الباقية من سنة ١٩١٧ خففت الحركة لجملة أسباب ليس أقلها شأناً قدرة التشيك على الدعاية والسياسة السرية ، ولعل النصر الأخير للحرب السياسية على الحكمة والمرونة السياسية كان فى انعقاد ما يدعى مؤتمر الشعوب المظلومة فى النمسا والمجر فى روما فى أبريل سنة ١٩١٨ ، وقد حضره مندوبون عن المنظمات التشيكية واليوجوسلافية، وممثلون عن الترانسلفانيين البولنديين والرومانيين (كانت ترانسلفانيا التى منحت رومانيا معظمها بعد الحرب — إقليم على حدود المجر وتابعة لها ، وسكانها من أجناس مختلفة) وأقر المؤتمر قيام «جبهة مشتركة» للشعوب المظلومة مهمتها تقويض الدولة الثنائية وتفتيتها .

ومع أن المؤتمر لم يكن انعقاده رسمياً ، فقد نظمته هيئة مقاومة الهابسبرج فى الإدارات الحربية السياسية للحلفاء ، وأذيعت قراراتها فى جميع الأنحاء بأمر من إدارات الدعاية بها (وكان أحد الصحفيين الذى أعان على إقناع الرأى العام فى بلاده بأن بلقنة وادى الدانوب كله يخدم قضية الحرية والمدنية، شاب إيطالى نابه يدعى بنيتو موسولينى أحد الاشتراكيين المتحمسين السابقين وكانت الإعانات المالية العديدة التى تقاضاها من الهيئة الفرنسية السرية هى التى سهلت تحوله إلى قضية الحرب لتصبح الدنيا مهداً للديمقراطية . (وهى عملية تدل — فى ضوء التاريخ اللاحق — على انتصارات الطيبات المزيفات الوضيعات)

ومع أن إمبراطورية الهابسبرج كان مقدراً لها أن تكون من أتعس ضحايا الحرب السياسية التى صحبت وأطالت الحرب من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ ، إلا

أنها لم تكن ضحية بريئة . فقد رأينا من قبل الدولة الثنائية تبدأ حربها السياسية الهجومية فى أوكرانيا وفى بولندا الروسية قبل حادث القتل فى سراجيفو .

وعندما بدأ إطلاق الرصاص كانت إحدى فرق الحرية البولندية التى أعد النمسويون تسليحها مستعدة للانضمام إلى طليعة الجيش الألمانى النمسوى الذى يقوم بالهجوم على غاليسيا الروسية .

وكان قائد الفرقة البولندية يوسف بلسودسكى — الذى صار فيما بعد أول رئيس لبولندة المستقلة — لا يقل كفاية فى المؤامرات عن قرينيه (وعدويه) مازاريك وبنيس، ولكنه كان يخالفهما فى جميع الأمور الأخرى . وهذا الرجل الغامض الضئيل الجسم ذو الرأس الصغير والعينين الخضراويين الحساستين . كان فيه ما ينم عن أنه فنان وحالم، ولكن أحلامه كانت أشبه بالأحلام المزعجة التى يراها غيره من الناس . وقد بدأ يشتغل بالدسائس والمؤامرات تقريباً منذ بدأ فى التنفس، ويعد — حتى بالقياس إلى مستوى الثوريين الروس — إرهابياً عنيفاً .

وفى أثناء الحرب الروسية اليابانية عمل على الحصول على عون من اليابان للقيام بثورة بولندية — وسواء حصل على هذا العون أم لم يحصل عليه فإن ذلك موضع خلاف — وأعماله فى قيادة حرب العصابات فى أثناء ثورة سنة ١٩٠٥ لم تكن أقل من أعمال ستالين مع جماعته القوقازية . ولكن كل جهود الهيئة الحربية السياسية الألمانية والنمسوية فى شد أزره وتقويته لتتخذ منه عميلا لدولتى الوسط تعتمدان عليه، لم تأت كما كان متوقعاً بأية نتيجة .

وبعد البيان الألمانى النمسوى الذى اعترف باستقلال بولندة سنة ١٩١٦، الذى اقتضى تحرير كل بولندة الروسية ، هدأت حماسة بلسودسكى فى محاربة جيوش القيصر، وأصبح كما يرى من وجهة النظر الألمانية والنمسوية حليفاً شرساً. وعلى أساس

كثير من المبررات اتصل بالبولنديين فى روسيا وفرنسا . وأخذ يظهر الود للغرب بأسلوبه السرى . وأخيراً تضايق منه الألمان مما دفع لودندورف إلى أن يقوم بسجنه فى إحدى القلاع .

ولم يكن بلسودسكى المنغص الوحيد للودندورف فى مجال الحرب السياسية، فإن الأطباء الألمان السحرة بمعونة لودندروف نفسه، ينبغى أن ينسب إليهم أمجد عملية وأفشل عملية فى الوقت نفسه فى تاريخ الحرب السياسية ، وهى تشجيع الثورة البلشفية ومعونتها .

وعند ما عثر جيش الولايات المتحدة المنتصر فى عام ١٩٤٥ على المخبأ الذى كانت فيه وثائق وزارة الخارجية الألمانية ، كان من بينها كثير من الوثائق التى تتعلق بالحرب العالمية الأولى ، والتى يدفع أحلافنا الروس كثيراً لو تمكنوا من الحصول عليها قبل غيرهم .

وكانت إحدى الأوراق التى لها أهمية خاصة مذكرة بتاريخ ٩ من مارس سنة ١٩١٥ فيها برنامج مفصل عن الحرب السياسية الألمانية الموجهة ضد روسيا القيصرية . وفى هذه الورقة الاقتراحات المألوفة من نسف الجسور والدعاية بالهزيمة بين الجنود الروس .

وفيها حث على الاتصال بالمعارضة الاشتراكية ومساعدتهم ماديا ، وكذلك منظمات الأقليات السياسية (ما عدا اليهود الصهيونيين الذين يرى واضع الخطة أنهم عاجزون عن القيام بأى عمل سياسى) . ويلفت النظر فى هذه الورقة الوهمية الكبرى تعلقها على العمل مع زعماء المهاجرين من البلاشفة الروس الذين كانوا يعدون فى الغرب فى ذلك الوقت من المنشقين العقائديين المتطرفين .

وكانت التوصية الأولى من بين التوصيات الإحدى عشرة التى تحويها المذكرة لتنفيذ الخطة ، تنص على « المساعدة المالية لفريق الديمقراطيين الاشتراكيين (البلاشفة) الذين يقاومون الحكومة القيصرية بكل الوسائل الممكنة » وكان الاتجاه العام للمذكرة عجيب كذلك .

وتتضمن فقرة أخرى هذه العبارة « وهكذا ستدمر جيوش دولتنا الوسط والثورة الروسية المركزية السياسة الهائلة التى هى عماد الإمبراطوريه القيصرية ، والتى ستكون خطراً على السلم العالمى ما بقيت ، وستدك قلاع الرجعية السياسية فى أوربا » .

ومثل هذه اللغة غريبة فى ورقة رسمية للحكومة الإمبراطورية الألمانية ، التى لم تكن حينذاك حصناً للحرية السياسية أو نصيراً للسلام العالمى . ويبدو أن العقل الذى أعدها واسع المعرفة مقتدر على الإبداع . وليس فى هذا شك ، فإن واضع المذكرة كان هو د . اسكندر هلفاند الملقب بارفوس ، الذى كانت آخر أخباره التى عرفناها أنه كان اليد اليمنى لتروتسكى فى سوفييت بطرسبرج سنة ١٩٠٥ . وكان لبارفوس كثير من النقاد ، ولكن أحداً لم ينتقده لنقص فى سعة معرفته وأصالته . وقبل أن نبين كيف اتخذت كتابة بارفوس السبيل إلى ملفات وزارة الخارجية الألمانية ، وقبل ذكر ما ترتب على مقترحاته يحسن أن نوجز صورة لهذه الشخصية غير المستقيمة وحياة هذا الممثل القدير .

كان بارفوس يهودياً روسياً ولد سنة ١٨٦٩ ، ودرس فى ألمانيا وانضم فى وقت باكر إلى الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى . وكان من متطرفى الجناح اليسارى الذى يرأسه روزالكسنبرج ، ومع أنه اشترك فى تحرير « إسكرا » صحيفة لينين ، إلا أنه ظل بعيداً عن النزاع الذى كان بين البلشفيك والمنشفيك ، الذى شطر

المهاجرين الروس إلى شطرين . وكان أقرب صديق إليه من بين الثوار الروس تروتسكى ، صاحب نظرية استمرار الثورة التى كان بارفوس يؤيدها . وكان تروتسكى من جانبه يقدره تقديراً عظيماً من حيث هو ثائر ومفكر . وفى سنة ١٩٠٤ أقام تروتسكى وزوجته فى منزله فى ميونيخ وهما فى طريقهما إلى روسيا . وفى هذا الوقت كتب مقدمة لكتاب ألفه تروتسكى . وتروتسكى يصف صاحبه بأن له رأساً ضخماً سميناً كرأس الكلب. وفى هذا الوقت الباكر كانت ملابسه أنيقة، تزعج أناقتها الأوساط الثورية الجادة، وكان له عيب عجيب منتقد، وهو أنه كان يريد أن يجمع قدراً كبيراً من المال — من أجل الثورة طبعاً . كان صاحب دار للنشر نجحت أولا ثم منيت بالخسارة بعد ذلك . ولكنه كان يفكر فى مشروع أكثر طموحا وهو إصدار صحيفة ماركسية كبرى يومية تحرر بلغات ثلاث . وكان لابد له أن يكون واسع الثراء حتى يستطيع أن يقوم بهذا العمل، ونظراً إلى أن الثورة ليس لها أن تنتظر فلا بد أن يحصل على الثراء بخطى سريعة. وفى ثورة سنة ١٩٠٥ ساعده اهتمامه بالمسائل المالية على القيام بمشروع جرىء ، ولكنه صحيح من الناحية الفنية، يقتضى التصرف فى احتياطى الذهب لدى الحكومة القيصرية الذى كاد أن يؤدى إلى تدهور الروبل الروسى . واشترك بارفوس بمعونة تروتسكى فى تحرير صحيفة يومية يسارية فى سانت بطرسبرج ، وربما أوحى بكثير من الخطط الثورية إلى السوفييت . وكان لديه الوقت فى الفترات التى يخلو فيها من الدسائس والمؤامرات للقيام ببعض النشاط الدولى . وعندما قبضت عليه الشرطة أخيراً حيرهم وجود دفتر به خمسون تذكرة لأحد المسارح فى جيبه . وظنوا أنه يعد لأحد الاضطرابات . والواقع أنها كانت لدعوة بعض أصحابه لاجتماع برىء . وحظى بارفوس بالسجن ثم بالنفى مع تروتسكى، وأمكنه أن يهرب مثله إلى الغرب. وفى صيف سنة ١٩٠٧ صحب تروتسكى وأسرته فى رحلة إلى ساكسونيا .

ويبدو أن اهتمامه بالثورة أخذ يفتر شيئاً فشيئاً بينما قويت لديه الرغبة فى الثراء. وترك ألمانيا — بتشجيع من الشرطة الألمانية — واشتغل بالأمور المالية والصحفية فى البلقان. وعند قيام الحرب كان فى القسطنطينية ، وقد كاد أن يحقق أحلامه فى الغنى بما حصل عليه من تعهدات للجيش الألمانى. ولما أغضبه موقف بعض أصدقائه السابقين غير الوطنى من متطرفى الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى — عد نفسه ألمانياً — رغم أصله الروسى — فقد انفصل عنهم ، وصار أصدقاءه الجناح الأيمن من الحزب. ثم إنه عرض خدماته على السفير الألمانى فى القسطنطينية ، وسرعان ماروج الدعاية الانفصالية سراً فى أوكرانيا ، وأصدر صحيفة للدعاية الألمانية فى بوخارست ، كما قام بأعمال أخرى. وأدى نجاحه فى هذه الأعمال إلى اهتمام وزارة الخارجية الألمانية به عندما وصل إليها عن طريق السفارة اقتراحاته بقيام أعمال ثورية هجومية ضد الروس ، واستدعى إلى برلين لحضور أحد المؤتمرات . وكانت المذكرة التى جاء ذكرها فيما سبق إحدى نتائج هذا المؤتمر .

وأعقب ذلك أعمال أخرى . فالقسم الخاص فى الإدارة الأجنبية الألمانية التى كان يرأسه د. دجوبرجن (الذى عمل فيما بعد سفيراً لألمانيا لدى الفاتيكان من قبل جمهورية فيمار وهتلر) لتنسيق العمليات الحربية السياسية ضد روسيا ، أعطى پارفوس جواز سفر ألمانيا ومبلغا مبدئيا من المال مقداره ٢٥٠٠٠٠ ريال لينفق منه (وما أسرع ماطلب خمسة ملايين ريال) ، وتقرر أن يكون مقره فى كوبنهاجن تحت ستار تأسيس معهد للدراسة هناك .

وقبل سفره إلى هناك زار سويسرة وحادث كثيراً من المهاجرين الروس ، وكان منهم لينين . وكان يعامله بشىء من الحيطة لأنه — فى رأى البعض — كان يرى فيه منافساً له ، ولكنه لم يمتنع عن أن يتعاون معه . بل قد شجع لينين

أحد أصدقائه على قبول العمل بأجر فى معهد كوبنهاجن الذى قدمه بارفوس إليه . ومن المصادفات العجيبة أن ظهر أن هذا الصديق هو جاكوب فورستنبرج الملقب بجانتسكى الديمقراطى الاشتراكى البولندى النمسوى ، الذى استطاع أن يحصل قبل الحرب على تصريح من الشرطة ليقيم لينين فى غاليسيا . ومن أصدقاء لينين الموثوق بهم والذى عمل معه فى كوبنهاجن، الصحفى الماركسى المعروف كارل رادك ، وهو من رعايا الإمبراطور فرانسيس جوزيف ، ولكنه مثل فورستنبرج رجل دولى فى ظاهره وبلشفى فى حقيقته . وكل من الرجلين كان يعرف الكثير عن أعمال بارفوس فى روسيا ، وظلا يطلعان لينين على نشاطهما . وكان لينين بوسائل أخرى على اتصال مؤقت بعميل سرى ألمانى فى استكهلم يدعى كسكويلا . وهو مهاجر أستونى وثائر ماركسى سابق . وكان قد أسس شبكة سرية يسارية لا علاقة لها ببارفوس ونشاطه . ومن هنا ندخل إلى لب الجدل الذى ظل قائماً حوالى نصف قرن ، وهو هل كان لينين نفسه « عميلا » ألمانيا ؟ .

وكان الجدل يدور حول معرفة ما إذا كان صاحبا لينين فورستنبرج ورادك يعلمان أنهما بعملهما مع بارفوس إنما يعملان من أجل القيصر ، وإن كان ذلك كذلك ، فهل يعملان بموافقة لينين . ولم تقم أية دلالة تاريخية لإثبات أحد هذين السؤالين أو نفيه . والدليل المستمد من ملفات وزارة الخارجية الألمانية يقوى الاعتقاد بأن المساعدين النمسويين لبارفوس يعلمان الجهة التى تمده بالمال ، كما يعلمان السبب الذى من أجله تمده بهذا المال الكثير .

وإذا لم يكونا يعلمان فلابد أنهما يفرضان أن العصفورة هى التى أتت بالمال ، وعلى هذا فقد كان فورستنبرج ورادك عميلين ألمانيين على نحو ما ، ولكن لم يكن من المحتمل أن يكونا العميلين اللذين يمكن للحكومة الألمانية أن تعتمد عليهما

فى إطاعة أوامرها . (وحتى بافورس وكسكويلا وهما أكثر اتصالا وارتباطاً بالألمان ، لم يكونا الآلة المسخرة دائماً فى أيدى الألمان) وكانا فى صميم شعورهما يعملان لنصرة لينين لا لنصرة القيصر .

وبعد نجاح البلاشفة فى روسيا أصبح رادك أحد عملاء السوفييت الكبار الذى حاول إذكاء الثورة بعد الحرب ، بينما خدم فويرستنبرج الحكومة السوفييتية بإخلاص فى عدة مراكز ذات مسئولية . ومن الجائز أن كلا الرجلين لم يعترفا للينين بأنهما يأخذان المال من الحكومة الألمانية ، وأنهما يعملان بالاشتراك مع الجهاز الحربى السياسى الألمانى لخدمة قضية الثورة . ولكن لو لم يكونا صريحين كل الصراحة معه فمن العسير أن نصدق أنه يثق فيهما بالقدر الذى ظهر فيهما من الثقة .

والواقع أن كثرة الأدلة وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية حول علاقة حكومة القيصر والبلشفيك فى أثناء النزاع الباكر ، تجعل الجدل حول الدور الذى لعبه لينين جدلا عقيا . فإذا ما وافق على التعاون بين بعض مساعديه البارزين وبين أعداء بلاده — وهو ما يبدو محتملا وإن لم يكن من الأمور المؤكدة — فقد عمل ذلك عن طريق غير مباشر، ولم يجعل للألمان حجة عليه، وهكذا لم يكن عميلا للألمان بل كان عميلاً حراً غير خاضع لهم . ومن جهة أخرى كان الألمان يمدون منظماته السرية فى روسيا بالمال عن طريق بارفوس وكسكويلا ، سواء أكان يعرف ذلك أم كان يجهله . وكانوا يهربون وسائل الدعاية سراً إلى روسيا . كما قدموا للثائرين المؤن والذخائر . وأعطوا لهم مساعدات مالية عن طريق أعمال تجارية متسعة قام بها بارفوس . ولئن أفاد الثوريون الاشتراكيون والمنشفيك وكثير من منظمات الأقليات من المعونات السرية الألمانية، فإن كثيراً منها وصل إلى أيدى البلاشفة . ثم إن الألمان نشروا الدعاية بين أسرى الحرب الروس إلى مدى متسع، وكان

أحد القائمين بها رومان مالينوفسكى أحد زملاء لينين القدامى وأحد العاملين فى الأخرانا .

وفى مقابل ما أدته ألمانيا للبلاشفة، فقدقدمواهم للألمان — سواء بعلم لينين أم بدون علمه — كثيراً من الأسرار الهامة (وهناك إشارة واضحة إلى هذا العمل فىوزارة الخارجية الألمانية) .

وكانت المعونة الصادقة الألمانية لقضية البلاشفة السماح للينين بعد ثورة مارس بالعودة إلى روسيا عن طريق ألمانيا . إذ لم يكن له أى طريق آخر يمكن الإطمئنان إليه غير ذلك . ونشأت الفكرة — كما عرف فيما بعد — لدىالمهاجرين البلاشفةفى سويسرة ، وقام بالاتصال بالألمان بطريق غيررسمى أحد قادةالاشتراكيين السويسريين ، والحكومة السويسرية . وربما كانهناك اتصال قبل ذلك بين بعض المهاجرين والعملاء الألمان متعلق بهذا الموضوع ، ولكن ليس علىهذا أىدليل فى ملفات وزارة الخارجية الألمانية .

وجاء أول ذكر رسمى ألمانى لهذا الموضوع فى البرقية التى أرسلها السفير الألمانى فى برن فى ٢٣من مارسسنة ١٩١٧ — وبناءعلىالمعلومات التى وصلته من وزارة الخارجية السويسرية — مبينة رغبة قادة الثوار الروسيين فى سويسرة فى العودة إلى وطنهم عن طريق ألمانيا .

ويظهر أن الجانب الروسى والجانب الألمانى فى بادئ الأمر كانا يقدران كل التقدير ما لهذا العمل من أثر فى الحرب السياسية . وكان لينين فعلا على علم بأن ظهور أى تواطؤ مع حكومة القيصر سوف يسقطه من أعينالشعب الروسى،

ويعرضه عند وصوله إلى بلاده إلى المحاكمة للتجسس لصالح العدو . وامتنع عن القيام بأى اتصال مباشر بممثلى الحكومة الألمانية فى سويسرة، وتفاهم على ترتيب الرحلة عن طريق وسيط محايد ،هو الاشتراكى السويسرى فرتز بلاتن .

وكان فى تعليماته إلى بلاتن أن يتمسك بالشروط الآتية: — أن تكون العربة التى يجتاز بها المهاجرون الأرض لألمانية فوق القانون المحلى ، وألا يقبل فى العربة من غير المهاجرين ألا من يسمح لهم بلاتن بذلك . وأن يكون ثمن تذاكر السفر هو الثمن العادى . وألا يحصل تفتيش على تصريحات السفر عند دخول الأرض الألمانية وعند مغادرتها . وأن يقبل المهاجرون الروس حسنو النية فى هذه الرحلة دون نظر إلى أنهم من أنصار الحرب أو من المعارضين لها . ثم إن بلاتن أصر على ضرورة الاحتفاظ بسرية هذه المسألة ، وعلى عدم إشارة الصحف الألمانية إليها حتى لايتعرض المهاجرون للخطر .

وأظهر الألمان فهما صحيحاً للموضوع ، وأبدوا أنهم متعاونون فى جميع هذه النقط ، وظهر تقديرهم لضرورة حماية سمعة المسافرين فى كثير من الوثائق التى فى وزارة الخارجية الألمانية ، ولم تثر السلطات الحربية أو البوليسية أى اعتراض على حمايتهم ، وكان توكيد هذه الحماية هو الذى يقلقها ، وأحيل القرار النهائى للسماح بالرحلة إلى أعلى السلطات الحكومية والحربية فى البلاد بما فى ذلك لودندورف والقيصر .

ونستدل من إحدى المذكرات التى فى ملفات وزارة الخارجية أن غليوم اهتم اهتماماً كبيراً بل اهتماماً غير معقول إلى حد ما بهذا الموضوع . ففيها أن « صاحب الجلالة القيصر اقترح اليوم فى أثناء تناوله طعام الإفطار ضرورة إعطاء الاشتراكيين الروس المسافرين عبر البلاد الألمانية الكتب البيضاء وغيرها من الكتب كرسالة

عيد القيامة وخطاب المستشار ، وذلك لتنوير غيرهم فى وطنهم . وفيما لو لم يسمح المهاجرين بدخول السويد فإن القيادة العليا للجيش ستكون مستعدة لإدخالهم إلى روسيا عن طريق المواصلات الألمانية » .

وأخيراً غادرت جماعة لينين ومعهم بلاتن زيوريخ فى التاسع من أبريل بعد اشتباك قوى وقع بين المعارضين والمؤيدين من المتظاهرين الذى قدموا لوداعهم . وكانوا ٣٢ منهم ١٩ من البلاشفة بما فيهم لينين ، وثلاثة من المنشفيك اليساريين وستة من جماعة اليهود ، وأربعة غير مشتغلين بالسياسة ، منهم طفل فى الرابعة من من عمره ، وانضم راداك للقطار عند الحدود الألمانية .

ويقول ونستون تشرشل « لقد نقلوا لينين فى عربة مقفلة — كجرثومة الطاعون — من سويسرا إلى روسيا » . وكما استعمل لفظ الجرثومة هنا على سبيل المجاز فقد استعملت العربة المقفلة أيضاً على سبيل المجاز . وكان مرور القطار فى ألمانيا غير ملفت للنظر ، وكان للروس عربة خاصة ظلت مقفلة باتفاق الطرفين وكانت تلحق بالقطارات المختلفة فى أثناء الرحلة ، وكان معهم بعض الأطعمة ، وأمدهم الألمان بمساعدة بلاتن بشىء من الأغذية ، كما أمدوهم باللبن لغذاء الأطفال ، وجاء فى إحدى المحطات ضابط فى لباس مدنى — وكانت تعليمات القيادة العليا تقضى بأن يكون الضابط من الضباط « ذوى الدراية » — وزار العربة وتحدث مع بلاتن ، وأكد له السويسرى أن الروس شاكرون للمعونة التى قدمتها لهم الحكومة الألمانية . وعند مدينة فرانكفورت انفصلت العربة عن القطار وتأخر السفر بضع ساعات ، وتعطلت كذلك فى برلين وقتاً طويلا . وبلغت مدة الرحلة كلها يومين ، وقد قضت الليلة الثانية فى ساسنتز وهى ميناء صغيرة على البحر البلطى حيث بقى الروس معزولين فيما أسمته وزارة الخارجية الألمانية المكان الطيب الذى أعد لهم .

ومن ساسنتز عبرت الجماعة البحر إلى مالمو فى السويد ، وأعطتهم الحكومة السويدية بناء على طلب الألمان حق الدخول إلى فنلندا . ثم لبثوا مدة فى استوكهولم حيث تحدث لينين مع جانتسكى وغيره من البلاشفة المقيمين فى السويد ، ورفض مقابلة بارفس مع أنه كان على مقربة منه. ثم حملهم قطار سويدى إلى حدود فنلندا حيث تركهم بلاتن وانتقل المهاجرون فى زحافات إلى الأرض الروسية (وفنلندا كانت لا تزال خاضعة للحكم الروسى) ثم ركبوا القطار إلى بتروجراد .

وكان وصول لينين إلى المحطة الفنلندية فى بتروجراد فى مساء السادس عشر من أبريل . وكان يتوقع القبض عليه . ولكن بدلا من ذلك كان هناك حشد كبير — جزاء ما كان يستمتع به من شهرته بالاستقامة فى قيادته الثورية — وجماعة من البلاشفة ترفرف فوقهم أعلام النصر، وفى أيديهم باقة ضخمة من الزهور لتحية المهاجرين العائدين من المنفى . بل كان فى الاستقبال رئيس المنشفيك شيدز ورئيس اللجنة السرية لتحيته رسمياً باسم سوفييت بتروجراد وباسم الثورة . وفى الخطاب الذى أعده شيدز إعداداً خاصاً للترحيب بهم أكد تأكيداً قوياً أهمية التعاون التام بين سائر الجماعات الديمقراطية فى روسيا والحاجة الملحة إلى تأييد الثورة ضد أعدائها « من الداخل ومن الخارج » ويقول شاهد عيان (الكاتب المنشفيكى ومؤرخ الثورة سوخانوف » إن لينين — وهو فى قبعته المستديرة المصنوعة من الفراء — لم يلحظ شيدز ورداً على التحية صرف نظره عن المندوبين الرسميين وخاطب الجماهير « أيها الرفاق الأعزاء والجنود ورجال البحرية والعمال.. إنه ليسعدنى أن أحيى فى أشخاصكم الثورة الروسية المنتصرة . كما أحيى فيكم طليعة الجيش الجماهيرى العالمى . إن الحرب الاستعمارية التى تقوم على النهب والسلب هى بداية الحرب الأهلية فى أوربا كلها . ومن اليوم ستنهار الرأسمالية .. فلتحيا الثورة الاشتراكية العالمية » وفى خطاب آخر عند مغادرته للمحطة استنكر « المذبحة الإمبريالية الشائنة » .

وفى هذا المجال كان كلامه إعلان الحرب على الحكومة المحلية ، ونداء صريحاً لتنظيم الخروج على الحكومة . وكان البلاشفة المحليون الحاضرون — وفيهم كامينوف وستالين — غير راضين ، وكان ممثلو الأحزاب الثورية الأخرى ساخطين . . بل لقد سمع سوكانوف فى آخر النهار جنديا يعلن « يجب أن تنفذ حرابنا فى مثل هذا الرجل » . ومن وجهة النظر الألمانية سار كل شىء على ما يرام . تقول برقية السفير الألمانى فى استوكهلم فى ١٧ من أبريل « دخول لينين روسيا ناجح إنه يتصرف كما نود تماماً » .

ولو أن المحاربين السياسيين الألمان رأوا النصوص الصحيحة لخطب لينين فى محطة فنلندا ، فلربما شاب الإعجاب الذى أبدوه لمهارتهم بعض القلق لما يتوقع حدوثه فى المستقبل البعيد .

الفصل السابع عشر

إلى النهاية المرة

كان الحكم الذى أصدره القدر على الأسرة الإمبراطورية الروسية بعد استقالة نقولا الثانى من بعض الوجوه حكماً فريداً فى تاريخ الأسرات الملكية المهدومة . فلا القيصر ولا زوجته ماتا ميتة الشهداء فى سبيل الحكم المطلق، ولا هما ماتا ميتة كبش الفداء الرسمى نظير جرائمه . فبعد مدة قضياها فى حبس مؤلم مرهق للأعصاب ذبحا مع أطفالها لأسباب واهية قضت بها ظروف الثورة القاسية ، التى تذكرنا بأفران الغازات السامة فى ألمانيا الهتلرية أكثر مما تذكرنا العربات الفرنسية فى القرن الثامن عشر أو مشانق إنجلترا فى القرن السابع عشر، ولم تكن التجربة القاسية التى حلت بهما إلا حاشية للمأساة الهائلة التى مثلتها الثورة الروسية. ومع ذلك فهذه الحاشية من النوع الذى يلقى ضوءاً قوياً على سائر أجزاء الموضوع الغامض . وإذا ما تتبعنا حياة نقولا رومانوف الطويلة وأسرته فى ظل الحكومة المؤقتة، ثم فى ظل البلاشفة إلى نهايتها المؤلمة فى الدار التى فى إيكاتزنبرج فإن ذلك ليذكرنا بالحقيقة البشرية — الحقيقة البشرية التى تستحق الرثاء غالباً — التى تكمن وراء البريق المعدنى للتصميمات التاريخية التى تحجبها عن الأنظار ، ولكنها تكشف أمام الأنظار فى الوقت نفسه أكثر من أى تحليل صريح بعض النظم الأساسية السياسية أو النفسية التى عطلت تجربة روسيا القصيرة فى الحكم الديمقراطى، ومهدت السبيل إلى قيام نظام استبدادى جديد لا يضعف ولا يلين .

ويبدو أن أحداً لم يفكر تفكيراً جدياً فى أمر مستقبل نقولا فى الأيام القليلة التى تلت استقالته. وقد دلت سرعة استعداده للتنازل عن العرش لأخيه — وقد

تخلى فى الوقت نفسه عن القيادة العامة للجيش — على إخلاصه فى التنازل . وقد تعقد الموقف بعض الشىء من الناحية القانونية بامتناع الدوق ميخائيل مؤقتاً عن قبول العرش، ولكن لم يكن هناك أى دليل على أنه كان لدى نقولا أقل فكرة فى استرداد العرش لنفسه أو لولده بعد تنازله (حقاً إن اسكندرا سمعت مرة وهى تتمتم « سيغير الشعب رأيه يوماً ما ويدعو ألكسيس وعند ذلك يعود كل شىء إلى مجراه الطبيعى). وعلى النقيض من ذلك تخلى القيصر السابق عن الطريق تأييداً للحكومة المؤقتة . وفى رسالة الوداع التى وجهها للجيش من موجيليف فى ٢٠ من مارس سنة ١٩١٧ تبرأ من نظرية الحكم المطلق واعترف بالنظام الجمهورى الذى اختارته روسيا فى انتظار الجمعية التأسيسية . ومما كتبه نقولا « بعد تنازلى عن عرش روسيا بالنسبة لشخصى ولابنى إلى الحكومة المؤقتة القائمة بموافقة البرلمان ، إنى أدعو الله أن يعين روسيا على السير فى طريق المجد والرخاء » .

ولا شك أن القيصر السابق كتب رسالته الآتية على أمل حث الجيش على الاستمرار فى القتال إلى أن يتم له النصر : « إن الذى يفكر فى الصلح الآن ، وكل من يسعى إلى الصلح، يخون بلاد آبائه وأجداده » وكانت توصيته الأخيرة بقبول سلطة الحكومة المؤقتة ، مقرونة بالاضطلاع بالدفاع عن « وطننا المجيد وطاعة أولى الأمر منكم » . وسلطة المجلس الأعلى للجيش التى يظهر فى ثناياها خشية مجالس السوفييت تظهر فى نص الرسالة ، ولكن ليس فيها ما يتعارض مع الثورة من وجهة نظر الحكومة الجديدة . وبينما كانت حماسة كرنسكى للاستمرار فى الحرب فاترة فى بداية الحرب ، إلا أن أغلبية الوزراء كانوا متحمسين ومصممين على بقاء روسيا محاربة إلى جانب حلفائها كما كان نقولا ومعظم قادة الجيش .

وعندما غادر نقولا موجيليف فى الرابع والعشرين من مارس فى حراسة ثلاثة رسل أرسلوا من العاصمة ، كان التفاهم قائماً على نحو ما بين الجيش والحكومة

المؤقتة ، على أن يعيش فى عزلة فى زارسكوسيلو ، حتى يتم إعداد الترتيب اللازم لسفر الأسرة الإمبراطورية كلها إلى انجلترا عن طريق مورمانسك . وعندما ركب القطار ، أديت له التحية العسكرية ، ولكن فى نفس هذه اللحظة تقريباً ، تقدم الجنرال كورنيلوف قائد منطقة بتروجراد من اسكندرا فى سارسكوسيلو ، وقال : « يا صاحبة الجلالة . إن واجبى الثقيل فى أن أنبئك بقرار الحكومة المؤقتة. وهو أن تعتبرى نفسك مقبوضاً عليك من الآن » ، وأصبح مركز القيصر السابق مؤلماً عند وصوله فى اليوم التالى . ففى محطة البلد الصغير نزل من القطار عدد كبير من الحاشية ، أو رجال الحرس الخاص به ، الذين كانوا يرافقونه فى موجيليف ، واختفوا وتركوا سيدهم السابق إلى مصيره المحتوم . وعندما قام بتحية الحرس عند باب قصر اسكندر لم يرد عليه التحية أحد .

وكان المسجونون الرسميون أو المحجوزون هم نقولا واسكندرا وابنتهما الكبرى أولجا ، وهى بنت طويلة مليئة الجسم فى الثانية والعشرين . وتاتيانا فى العشرين ، ومارى فى الثامنة عشرة ، وأناستاسيا فى السادسة عشرة ، وألكسيس ولى العهد السابق فى الثالثة عشرة ، وكان يميل للمرح والعبث . وكان يبدو على نقولا أثر السنين الطويلة ، والأثر الثقيل لما حل به فى الأشهر القليلة الماضية . وأخذ شعر رأسه ولحيته يتغير لونه ، كما أخذت التجاعيد العميقة تظهر فى وجهه ، وربما كان التغيير الذى بدا فى وجه اسكندرا التى كانت تتمتع بالجمال الرائع أشد وقعاً . ومع أنها لم تتجاوز حينذاك الخامسة والأربعين ، فقد بدت امرأة ضعيفة مسنة يقعدها المرض الذى أصابها فى أرجلها وقلبها .

وكان يشارك الأسرة الإمبراطورية السابقة السجن ، وإن كانوا أحراراً فى الخروج إذا رغبوا فيه، ثلاثة من الحاشية ، الكونت بنشندورف ، والبرنس دلجوركى ومدام ناريشكينا ، وهى آخر من عملت سيدة ملابس القصر ،

والدكتور بوتكين طبيب الأسرة ، ومربيات البنات ومساعداتهن ومعلم ولى العهد السابق ، ومعلمة للغة الانجليزية ، وعدد من الخدم الأمناء (وكانت أنا فيروبوفا تعيش فى القصر فى أثناء الثورة فمرضت، بالحصبة التى أخذتها من الأطفال المرضى بها ونقلت إلى السجن بناء على أمر كرنسكى لأنها أعانت اسكندرا على حرق بعض المستندات الهامة . وكانت مسئولية الإشراف والمحافظة على جميع هؤلاء مقسمة بين الكولونيل كورفتشنكو ، ويعمل مديراً للقصر ، والكولونيل كوبيلنسكى رئيس حامية زارسكوسيلو ، وهو ضابط شهم رقيق القلب ذو ميول ملكية .

واتخذ قرار القبض على الأسرة الإمبراطورية السابقة فى العشرين من مارس بناء على طلب كرنسكى ، بوصفه وزيراً للعدل . وكان المظنون فى أول الأمر أنه إجراء مؤقت . وقد أوحى بهذا القرار عوامل متناقضة شأن كثير من أعمال الحكومة المؤقتة . كان أحدها الرغبة الخالصة فى سلامة الملكين السابقين . وكان كرنسكى مصمماً على ألا يعمل ما عمله مارا فى الثورة الفرنسية ، وهو ما أبلغه إلى الاجتماع الذى عقده السوفييت فى بتروجراد ، وطالبوا بإعدام نقولا ، ثم كان الاقتراح الثانى بتقديم الإمبراطور السابق للمحاكمة أمام هيئة محايدة ، وسيلة إلى وقف اندفاع المتطرفين إلى اتخاذ إجراءات سريعة . وهناك ما يحمل على الظن أن الضغط الواقع على الحكومة المؤقتة من اليسار ، كان من الممكن الصمود له ، وأن هناك سبباً آخر لتوقيع أمر القبض الذى تحول إلى حكم بالإعدام على أسرة رومانوف . ويقول كرنسكى فيما بعد : « بينما كان العمال والفلاحون فى مجموعهم لا يعبأون كثيراً بسياسة القيصر الخارجية ، أو سياسة حكومته ، فإن أولى الرأى والطبقة الوسطى ، وبعض كبار الضباط كانوا يرون فى سياسة القيصر الخارجية والداخلية ، وفى دسائس القيصرة بصفة خاصة ، جنوحاً واضحاً إلى دفع البلاد إلى الهاوية ، لا لشىء إلا للحصول على صلح منفرد ، والتحالف مع ألمانيا » ، ومن

المشكوك فيه كثيراً، أنه حتى من كانوا يتهمون اسكندرا بأنها عميلة ألمانية ، كانوا يعتقدون تغاضى نقولا عما قيل من تعويق الجهود الحربية . إن التهم الشنيعة التى وجهت للحكام السابقين ، أدت بعض الأغراض من وجهة نظر الحكام الحاليين . فقد ساعدت على أن تبدو الحرب وكأنها حرب الشعب ، وجعلت استمرارها واجباً ثورياً ووطنياً معاً . بل شارك بعض الملكيين فيما وجه للامبراطور السابق من نقد . وفهم الحلفاء الموقف على وجه السرعة . ورغم احتجاج الملك جورج الخامس الشديد — وقد يكون آخر رجل شريف وأول رجل شريف فى الدول المتحالفة ، فقد استردت الحكومة البريطانية ما سبق أن عرضته من إيوائها للأسرة الحاكمة السابقة ، وكذلك الحكومة الفرنسية ، وكانت تحت رياسة كليمنصو الوريث الصحيح لتقاليد اليعقوبيين — لم تكن مهتمة بمصير الرجل الذى كان أصدق حليف لبلاده . لم تكن دكتاتوريات الحرب القائمة تريد التفاهم مع حاكم مطلق سابق يستمد حكمه من الحق الإلهى .

وشكلت لجنة خاصة للتحقيق فى بتروجراد فى ١٨ من مارس لتنظر « فى المخالفات التى قد يكون الوزراء السابقون وكبار الموظفين ارتكبوها فى أثناء قيامهم بمهام وظائفهم » . وقد وسع كرنسكى اختصاصها حتى تشمل التحقيق فى تصرفات الإمبراطور والإمبراطورة ، وبخاصة من حيث إخلاصهما للأمة التى يحكمانها ، وتحولت اللجنة من الناحية العملية إلى هيئة تبحث عما عسى أن يكون أساساً لتهمة الخيانة العظمى ضد نقولا واسكندرا . وقام كرنسكى نفسه بعمل المدعى العام فى بعض المناسبات ، ووجه للزوجين عدة استجوابات . وكانت اللجنة لا تزال توالى عملها فى التحقيق عندما جاء البلاشفة إلى الحكم . وكان كل بحث قامت به اللجنة يدل تماماً على عدم إمكان إثبات التهمة الكبرى ، ومع أن عملها كان

سيهيئ مادة طيبة لمؤرخي المستقبل، إلا أنها لم تقم بأى مجهود للكشف عن مسئولية القيصر الشخصية فى بعض الجرائم الذى ارتكبها ضد الإنسانية بعض الموظفين بإسم القيصر نفسه، واللجنة لم تصدر حكماً ولكنها وقعت العقوبه على نحو ما. فإن تصرفاتها أذاقت نقولا واسكندرا طعم سوء المعاملة التى أذاقها حكم القيصر للرعية كثيراً، وإلى هنا روعيت العدالة تماماً — عدالة القصاص التى تقرر العين بالعين والروح بالروح.

وبحجة منع الاتفاق السرى بين الزوجين أصدر ترتسكى أمراً بعدم الجمع بين نقولا واسكندرا إلا فى وجبات الطعام، حيث يصرح للأسرة بالاجتماع مع المراقبة الشديدة. على أن يقتصر الحديث على المسائل التافهة (وهذا الأمر ليس عسيراً بين وسط الرومانوف العائلى) وكان لا يسمح بالزيارة لأحد إلا بتصريح من ترتسكى. وكان التنزه فى الحديقة مقصوراً على بعض ساعات النهار، وكان نقولا وأولاده يحاطون بمن يلاحظهم كلما خطوا أية خطوة بينما كانت اسكندرا تلازم مقعدها المزود بعجلتين ولا تغادره عادة. وظل هذا النظام الدقيق سارياً لمدة شهر من الزمان. وبعد أن حقق كرنسكى مع الحكام السابقين ثمانى أو عشر مرات، انتهى إلى أنه من الحماقة اتهامهم بالخيانة العظمى. وكان لقاؤه بهم بارداً فى مبدأ الأمر، ثم أخذ يتغير أمام حالة نقولا المحزنة.

وأعاد لهم حرية الحركة داخل القصر، وحاول أن يصرفهم عن التفكير المرهق فى أمر مستقبلهم. وأكد لنقولا أن المفاوضات جارية فى أمر التجائهم إلى إنجلترا أو فرنسا. وأن اعتقال الأسرة ليس إلا إجراء مؤقتاً لحمايتها، وليس هناك مطلقاً ما يدعو للخوف. وقد استبعدت الحكومة المؤقتة بناء على مشورة كرنسكى الحكم بالإعدام.

وسرعان ماتضح لنقولا ومن يحيط به أن هذه التأكيدات لايوثق بها .

وبينما كان موقف الحكومة المؤقتة من حيرتها فى معاملة الحكام السابقين زادت معاملة الجنود المكلفين بحراستهم شدة وقسوة . وحتى صغار الضباط انتهجوا هذه الحالة العدائية أو ظنوا أن الواجب يقتضى أن يكونوا كذلك . حدث مرة عند تغيير الحرس أن مد نقولا يده كعادته ليصافح الضابط الذى انتهت مدة عمله فأبى أن يمد يده إليه ، وعندما سأله القيصر السابق وقد وضع يده على كتف الضابط « لم هذا ياصاحبى ؟ » أجاب الضابط وقد رجع خطوة إلى الوراء : « عندما مد الشعب يده إليك لم ترد التحية ، والآن لا أمد يدى اليك » .

ومثل هذه الحوادث تعكس كغيرها أثر الدعاية اليسارية فى الجيش ، وهى ليست من عمل البلاشفة والحكومة المؤقتة فحسب ، بل عمل السوفييت وهم متعاونون فى الظاهر مع الحكومة المؤقتة ، بينما يعملون سرا على تقويض نفوذها ، وأحياناً دون أى اكتراث بالتزام السرية . وعقب قيام الثورة مباشرة تأسس فى سارسكو سيلو مجلس السوفييت مثل مجلس بتروجراد ، وسيراً على سياسية النفوذ الثنائى ألحق بالحرس المحلى ضابط سياسى من قبلهم . واستطاع كوبلنسكى أن يبعد هذا الشخص وهو ضابط له ميول ثورية عن القصر ، ولكن لم يستطع من منعه إثارة الجنود ، رغبة فى إذكاء نار حقدهم على الأسرة الإمبراطورية ، إثارة الشك لدى الحكومة المحليـة . واتهم الضابط الذى ألحق بالحرس أسرة روماتوف بالمؤامرة على الجمهورية ، كما اتهم رجال الحكم فى بتروجراد بالتساهل مع هؤلاء المتآمرين . وعلى هذا فواجب الجنود والعمال فى سارسكوسيلو أن يضاعفوا نشاطهم ويقظتهم وأن يقبضوا على القانون بأيديهم إذا لزم الحال . ولا شك أن هـذه الإثارة قد سممت عقول الجنود ضد هؤلاء السجناء ، الذين يحرسونهم . وأخذوا ينظرون إلى القيصر السابق وأسرته على أنهم مجرمون خطرون وعاملوهم معاملة المجرمين . وأخذ النظام يختل شيئاً فشيئاً ، والحراس الذين

كانوا فى أول الأمر موضع الثقة من وجهة نظر الحكومة المؤقتة أخذوا يظهرون دلائل السخط ، ولا شك أنه كانت هناك عوامل تدعو إلى فتور الهمة بين الجنود الذين كان مقرهم فى زارسكوسيلو . وهذه الظاهرة أصبحت فعلا منتشرة فى البلاد كلها فى ربيع سنة ١٩١٧ وصيفها . وأخذ الوثاق يضيق حول أعناق الحكام الجدد فى بتروجراد كما كان يضيق حول أعناق الحكام فى سارسكوسيلو ولربما كان علينا عند هذه النقطة أن نقطع الحديث عن أيام الأسرة الإمبراطورية الأخيرة ، لنلقى نظرة سريعة على الموقف فى روسيا فى أثناء الأشهر الأولى من الحكم الديمقراطى .

كان أكثر مايدعو للألم فى العهد الذى أعقب ثورة مارس فى روسيا مباشرة أنه كان عهداً للأمل . ولقد شنق عدد من رجال الشرطة وعدد من الضباط إبان ثورة بتروجراد أو بعدها مباشرة . ولكن الشعب الروسى برهن على أنه لايضمر أى شعور بالانتقام ممن ظلمه فى العهد السابق ، ولم تبق الحكومة للنبلاء حياتهم فحسب ، بل أبقت لهم أملاكهم كذلك . وكانت حوادث الحريق العمد والنهب أندر إلى حد بعيد فى الريف الروسى منها فى أثناء الاضطرابات الثورية فى سنة ١٩٠٥ • وكانت الاضطرابات التى نقصد بها الخروج على النظام والعبث الإدارى عامة — وبخاصة فى الجيش — ولكنها قلما كانت مصحوبة بالعنف . وأساء الروس استخدام الحرية التى عثروا عليها حديثاً بكل الطرق الممكنة إلا فيما يتصل بالتمتع بها. هذا التمتع جعلهم راضين وسط هذه الفوضى . ولقد كانت المغالاة فى حرية الكلام أخطر مامنحته الثورة للبلاد . فبعد الرقابة والتجسس اللذين كانا مفروضين عليها فى العهد القيصرى ، كان من دواعى السرور عند كل روسى أن يعبر عن رأيه بكل حرية. واستسلم الروس كلية لهذه المتعة دون الشعور بأية مسئولية. وكان العهد هو العهد الذهبى للدهماء . وكانت روسيا

الديمقراطية مسرحاً للخطباء . ففي كل مدينة كبيرة كانت جميع المصانع والمكاتب والشوارع منبراً للخطابة والكلام .

ومما لاحظه أحد الزوار الغربيين فى بترو جراد فى أواخر أبريل أن « الجماهير تحتشد فى الشوارع لأية مناسبة . فإذا وقف رجل ليتحدث مع رجل آخر انضم إليهما كل من يمر بهما ليستمعوا إليهما، وما أسرع ما تجد الرجل الأول يلقى خطاباً يشرح فيه مذهبه والمعترضون على خطابه يردون عليه ويفندون كلامه » .

ومن عجب أن البلاشفة ، رغم كثرة من لديهم من المثيرين المدربين بالنسبة إلى غيرهم من الأحزاب الأخرى ، لم ينجحوا فى المعارك التى تكون ميادينها فى الشوارع والتى تتصارع فيها الآراء والمبادئ ولا تراق فيها الدماء ، وبخاصة إذا كانت الجماهير هى الهدف الأول من المعركة . وكان هدف الفلاح الروسى والعامل الروسى والجندى الروسى فى سنة ١٩١٧ لقمة العيش والسلام ، ولكنهم جميعاً لا يرضون بالمذابح الأهلية ولا بالدعاية للهزيمة وسيلة للحصول على أهدافهم . وكان سعى لينين الحثيث للحصول على السلطان ومنهجه فى الدكتاتورية الثورية ودعوته للصلح السريع بأى ثمن ، كل ذلك أثار نفوس الروس اليساريين وبعض أتباعه وعندما أعان فى يونيو أمام مؤتمر السوفييت الروس أن البلاشفة على استعداد للقبض على أزمة الحكم فى أية لحظة، وأن أول عمل يقومون به سيكون شنق خمسين أو مائة من الرأسماليين ، رد عليه ترتسكى حانقاً « أنتم أيها البلاشفة . من أنتم ؟ هل أنتم اشتراكيون أم فى شرطة العهد الماضى ؟ » . ولم يكن المؤتمر وحده هو الذى هلل لهذا التأنيب . بل كان معظم الشعب الروسى .

ومع ذلك فالبلاشفة الذين أثر فيهم لينين بجرأته ودفعهم دفعاً بإرادته ساروا فى طريقه دون تردد . وكان كثير من جهودهم — كما فى العهد القيصرى — موجهاً

إلى التنظيمات السرية وبث الروح الثورية، ولكن كانت أعمالهم فى بعض المستويات ظاهرة. ولم يعنوا كثيراً بالمثقفين، وعجزوا عن كسب الجماهير — وحتى بعد حصولهم على الحكم . كان ترتيبهم فى الانتخابات الأخيرة الحرة (أو شبه الحرة) بعد الثوريين الاشتراكيين — حزب الفلاحين القديم — ولكنهم نجحوا أكثر من أى حزب آخر فى أن ضموا إليهم ما يسمى العمود الفقرى لكل ثورة — الجنود والعمال الذين يؤلفون أقوى دعامة الانقلاب والثورة.

والكسب الجديد الذى حصل عليه لينين، كان تروتسكى الذى وصل من أمريكا فى مايو وانضم رسمياً إلى البلاشفة فى يوليو . وكان له اسم مدو فى دوائر الثورة الروسية بسبب الدور الذى قام به فى ثورة ١٩٠٥، وهو الآن وهو فى الثانية والثلاثين فى أوج قوته الثورية . وتروتسكى بعينيه القاتمتين البراقتين وراء منظاره، وخصلة شعره النافرة التى تخالها تقذف فى سكونها بالشرر الكهربى وشواربه الكثة التى تملأ الإنسان رهبة — كان المنافس الوحيد لكرنسكى — أو المتفوق الوحيد عليه كخطيب الجماهير . وأهم من ذلك من وجهة نظر البلاشفة أنه من رجال المؤامرات المحنكين ، ومن منظمى الثورات المقتدرين ، وهو وعبقرى فى وضع التنظيمات والخطط فى الحرب الثورية . وبينما كان لينين يمثل قوة الدفع التى لا تقهر لدى البلاشفة، والقلب النابض بينهم، كان تروتسكى هو الذى يصنع النصر. إنها لشركة هائلة — روبسبير مع نابليون — ولاشك فى أن نظام يهدده مثل هذا المزيج المريع من الكفايات القاتلة يكون مهموماً ، وربما لم تحظ أية حركة ثورية فى التاريخ بما حظيت به ثورة البلاشفة فى سنة ١٩١٧ من قيادة ممتازة ناجحة فى أسمى المستويات. ولا شك أنها كانت أحد أسباب نصرهم النهائى — ولكنها لم تكن السبب الوحيد .

جاء فى مذكرات السير بروس لوكهارت أن اللورد بيفربروك الناشر البريطانى سأل كرنسكى مرة عندما قدمه سير بروس لوكهارت إليه فى أحد نوادى لندن « هل كنتم تتغلبون على البلاشفة لو وقعتم صلحاً منفرداً ؟ » وكان رد كرنسكى « لا شك فى ذلك ويجب أن نكون فى موسكو الآن » .

وكان المجال يسمح بشىء من الشك بسبب المعارضة التى واجهها كرنسكى، والضعف الملازم لازدواج نظام الحكم فى روسيا الذى ساعد على بنائه . وفضلا عن ذلك فقد أضاع كرنسكى آمال الروس فى مستقبل ديمقراطى لفشله فى الوصول إلى حل واضح لمشكلتين من أعمق مشكلات البلاد . إحداهما تعطش الفلاحين الشديد لامتلاك الأرض ، الذى استغله اليساريون بأن أخذوا يطالبون بالإسراع فى توزيع المزارع الخاصة . والثانية أمانى الشعوب التى كانت فى الإمبراطورية الروسية من بولنديين وفنلنديين وأوكرانيين وشعوب البحر البلطى ، والأقليات من الأجناس الأخرى . وكل هذه الشعوب المضطهدة أخذت تتحرك بعد ثورة مارس ، ولو وضعت خطة لنظام فيدرالى قوى لهذه الشعوب لخففت من حدة نزعتها الانفصالية ولكانت عاملا على كسب طبقاتها الوسطى حلفاء للديمقراطية الروسية ضد تهديد البلاشفة . ولكن بدلا من ذلك حدث ما ذكره المؤرخ الألمانى جورج فون روخ إذ يقول « بقيت الحكومة المؤقتة كما كانت من قبل ، أسيرة للتفكير المركزى الضيق القومى لحكم القيصر المنصرم » وزاد تباعد الأقليات .

ولا شك أن الحكومة المؤقتة بمحاولتها استمرار الحرب أضاعت الفرصه البسيطة التى كانت أمامها فى البقاء . ويدلل جورج كنان بالحجج القوية على أن الصلح العام هو الملجأ الوحيد الذى كان فى إمكانه حماية الحكم الديمقراطى فى روسيا .

ثم إن الرئيس ولسن الذى كان يدعو فى خطابه الذى ألقاه فى الثانى من أبريل سنة ١٩١٧ إلى إعلان الحرب على دول الوسط ، وحيا الأمور المدهشة الجريئة التى حدثت فى الأسابيع الأخيرة فى روسيا، لم يخط أية خطوة نحو السلام — بل فعل العكس — وكان شأنه شأن جميع قواد الحلفاء، وبدلا من ذلك طلبوا من الروس الاستمرار فى الحرب إلى بلوغ النصر . وعندما وعد مليوكوف فى أوائل مايو أن روسيا ستلتزم بهذه السياسة — وكان الوعد الذى تقيد به قد سجله فى مذكرة بعث بها إلى الحلفاء — أثار بعمله هذا أول أزمة سياسية فى العهد الحديث .

وهددت الجيوش الفنلندية بالعصيان، وقامت الاضطرابات فى العاصمة، ولتهدية النفوس استقال مليوكوف وجوشكوف ، وأدخل البرنس لفوف عدداً من الاشتراكيين المعتدلين فى الوزارة، وصار كرنسكى وزيراً للحربية .

ولم يكن الإنذار كافيا ، فالحلفاء لم يضغطوا على الحكومة المؤقتة للبقاء فى الحرب فحسب — وهذا وزير الدولة إليهوروت يبلغ الروس فى صراحة وإيجاز « إن لم تحاربوا فلا قروض » ، وذلك عندما وصل على رأس بعثة أمريكية فى يونية — بل أخذوا يلحون فى وجوب قيام الجيوش الروسية المنهوكة القوة بالهجوم .

ورغم شكوك كرنسكى من قبل استجاب على وجه السرعة وبحماسة بالغة لهذا المطلب الانتحارى . وطاف بالخنادق فى لباس الفلاحين وقبعة الجنـد وأخذ يتحدث إلى الجيوش. واستبدل بالجنرال ألكسيف القائد العام مع الجنرال بروسيلوف أعظم القواد الروس وأشهرهم ميلا للاشتراكية . وأخذ يعمل على إقناع السوفييت الحربيين بالتعاون مع هيئة الضباط فى إعادة النظام . وفى الجبهة الداخلية بدأ حملة قوية ضد دعاة الهزيمة، ثم إن اللجنة التنفيذية لسوفييت بتروجراد تعاونت وأذاعت

نداء إلى الجنود بأنهم الآن لايحاربون من أجل القيصر ، ولا من أجل بروتوبوبوف أو راسبوتين أو الأغنياء ، ولكنهم يحاربون من أجل حرية روسيا ومن أجل الثورة .

وكانت استجابة الجيش لذلك عجيبة . وفى ليلة واحدة بدا كأنه عاد من جديد قوة محاربة فعالة . وفى أول يوليو بعد أن قضت المدفعية يومين فى الاستعداد، تقدمت ٣١ كتيبة من بين الخنادق عند جبهة غاليسيا واندفعت نحو العدو فى حماستها المعهودة، وتقدموا تقدماً طيباً خلال يومين ، ثم هدأ الهجوم. وعندما أصبح جنود الصاعقة الروس وكذلك الجنود الاحتياطيون منهوكى القوى ، قام الألمان بهجوم مدمر ،وانهارت الجبهة الروسية. وقع هذا عندما أخذ الجندى الروسى يستعمل حقه الانتخابى بقدمه كما عبر عن ذلك لينين فيما بعد .

وفى اليوم الذى بدأ الهجوم الألمانى المضاد قامت ثورة يسارية ضد الحكومة المؤقتة فى بتروجراد، وكان فى مقدمتها بحارة فوضويون من قاعدة كرونستاد البحرية ، يؤيدهم سراً — وربما يحرضهم — البلاشفة . ولبث الشك يحوم حول النتيجة بعض الوقت ، ثم جمعت الحكومة قوة كافية من القوزاق وغيرهم من الجنود الموالين وقضت على العصيان بعد مطاردة استمرت ثلاثة أيام فى الشوارع ، واختبأ لينين ثم هرب أخيراً إلى فنلندا . أما تروتسكى وعدة من قادة البلاشفة الذين لم يرتضوا ما فى الهرب من ضعة فقد سجنوا ، وأغلقت مراكز رياسة البلاشفة فى قصر الراقص كرزنسكايا ، كما أغلقت برافدا صحيفة الحزب .

وهذا الفشل الذى منى به اليساريون فى يوليو أنقذ إلى حين الحكومة المؤقتة من نتائج الكارثة التى أصابت الجبهة الحربية ، وجاء بكرنسكى

إلى رياسة الحكومة ، محل البرنس لفوف فى ٢٠ من يوليو وقضى دور البلاشفة فى الاضطرابات على ما قد كان يعتقده كرنسكى من أن لينين وتروتسكى ورفقاءهما قادة اشتراكيون «معتدلون» ، وربما أكثر تطرفاً بعض الشيء من غيرهم ولقد تحقق كرنسكى من أن البلاشفة كانوا من المتآمرين الخطرين الذين لا سبيل إلى إصلاحهم — والأدلة التى جمعتها إدارة الجاسوسية الحربية على أن لينين كان عميلا ألمانياً مأجوراً لعبت دوراً هاماً فيما اكتسبه كرنسكى من الخبرة السياسية ، واستغل كفايته الممتازة فى الدعاية ضد البلاشفة ، واتخذ الأدلة غير المؤكدة أساساً لحملة قاسية من الطعن فى البلاشفة . من بين التهم التى وجهها إليهم — بأنهم أثاروا عمداً ثورة يوليو بوحى من الألمان لتقوية الهجوم المضاد على جبهة الحرب فى غاليسيا ، والأدلة التى حصل عليها كرنسكى سنة ١٩١٧ ولو أنها قريبة من الصدق لم تكن أدلة صادقة ، لقد دفعته إلى الحط من شأن خصومه — فلو كان زعماء البلاشفة عملاء لدى الألمان ومن المغامرين لمجرد كسب المال لما كانوا من الخطورة فى المنزلة التى وصلوا إليها فيما بعد ، وهذا يفسر كيف أن الحملة التى عملت على تشويه سمعة الحزب بعد أن أثارت زوبعة من السخط عليه هدأت ولم تعد تهم الشعب الروسى (١) .

---

(١) زاد الألمان معونتهم المالية للبلاشفة بعد ثورة مارس ولكنهم لم يكونوا فى حاجة إلى أى أوامر تأتيهم من الخارج لمناوأة الحكومة الموقتة ، والبرقية التى أرسلت من وزارة الخارجية الألمانية إلى مركز رياسة الجيش تضع الأمر فى نصابه . « يبدو أن روسيا أضعف حلقة فى سلسلة الأعداء والمصلحة تقضى إضعافها أو إزالتها إن أمكن ، وهذا هو هدف النشاط السرى الذى نريد تنفيذه فى روسيا ، والذى يقضى تقوية السياسة الانفصالية ومساعدة البلاشفة ، ولم يكن البلاشفة بقادرين على إصدار صحيفتهم إلا بالمعونة التى يحصلون عليها منا ، وقد صاروا الآن هم أصحاب السلطه فى روسيا » ثم إن البرقيه بعد ذلك تدعو إلى استمرار المعونه على أساس أن مصلحة الألمان بقاء الباشفيك فى الحكم ، ولا يمكن أن يقال إن هناك تأثيراً عليهم ، لكن الذى يقال إن معونة ألمانيا المالية لهم ساعدت على فوزهم .

وما إن حل منتصف أغسطس حتى كان البلاشفة قد استردوا خسائرهم السياسية التى خسروها فى يوليو ، رغم أن زعماءهم كانو لايزالون فى المنفى أو مقبوضاً عليهم . والتاريخ فى كثير من الأحايين سريع المغفرة لمن كان كبير الإقدام ، وعادت الاضطرابات فى المصانع وبين صفوف الجيش المنحل . ومجلس السوفييت فى بتروجراد — الذى كان فى أول الأمر يظهر تألمه لظلم البلاشفة — أخذ يبتعد عن الحكومة مرة أخرى ، وفى الوقت نفسه أخذت العناصر المحافظة فى روسيا التى هللت لسياسة كرنسكى فى قمع نشاط البلاشفة تفقد الثقة فيه كحصن يعتمد عليه ضد الثورة ، وأخذت الأرض تهتز تحت أقدام كرنسكى. ورغبة منه فى وقف الكارثة ، قام بجملة إجراءات ملتوية ماكرة — ولعلها وحشية — على مسرح الأحداث السياسية التى تجلت بوقوعها ، وكان أحد البؤساء الذين لحقهم سوء الحظ هو القيصر السابق .

وقد اطمأن أفراد أسرة رومانوف ككثير من رجال العهد السابق للحالة التى كانت عليها البلاد فى شهر يوليو ، واستردوا الثقة فى قدرة الحكومة المؤقتة على إنقاذ روسيا من المأساة . ومما كتبه نقولا عندما سمع بالمعارك التى حدثت فى شوارع بتروجراد « يا لها من فوضى ، ومن حسن الحظ ظل الجنود موالين للحكومة واستتب النظام » .

وكان جنود قلعة تسارسكوسيلو ممن بقوا موالين للحكومة ، ولكن ولاءهم كان ككل شىء فى روسيا مؤقتاً ، فمالبث أن تبدل ، وكان السجناء فى القصر يعرفون سوء الظروف السياسية من شدة قسوة الحراس ، وفى نفس الوقت كانت مجالس السوفييت فى تسارسكوسيلو وفى بتروجراد توجه النقد للحكومة لتدليلها الأسرة الإمبراطورية السابقة .

وكان القرار بنقل القيصر السابق وأسرته بعيدا عن منطقة العاصمة قبل

اضطرابات يوليو ، وأخبر به نقولا ، ولم يدهشه أو يقلقه ما أنبأه به كرنسكى فى أغسطس من وجوب تنفيذ القرار دون أى تأخير جديد ، وقد صحب الانتقال الذى تم فى الصباح الباكر من ١٤ من أغسطس شىء من الصخب . فقد كان الحرس ناقمين للسماح للمسجونين بأن يأخذوا من متاعهم ما يشتهون ، ولأنهم كانوا لا يودون أن يتركوا السجن مطلقاً . فقد كان المنطق يقضى فى رأيهم « بأن يحاكموا فى السجن لا فى بتروجراد ، إذ لا أمل فى هربهم هنا ، وعلى كل حال كان الأفضل أن يتم كل شىء دون أية محاكمة » . واستعمل كرنسكى كل وسائل الإقناع حتى أمكنه أن ينقل الأسرة وحاشيتها فى أمان إلى القطار الخاص الذى كان معداً لهم ، وخاطب فى صرامة حرس القطار قائلا « اذكروا أن الإنسان لا يضرب الخصم الميت » .

وكان اعتقاد أسرة رومانوف إلى آخر لحظة أنهم فى طريقهم إلى ضيعتهم فى القرم . ويقال إن نقولا لم يعرف — حتى غادر القطار تسارسكوسيلو — أن وجهته توبلسك فى غرب سيبريا ، واختيار هذا المكان الريفى السحيق — وهو ليس على الخط الحديدى إلى فلاد يفستك وآخر جزء فى الرحلة يقتضى ركوب باخرة نهرية — يدل على تعقد الظروف السياسية فى روسيا وتعقد أخلاق كرنسكى .

وقد يكون آمن للأسرة أن تكون فى الجنوب حيث يسود بعض الملكيين أو على الأقل بعض المحافظين ، ولكن الرحلة بالقطار قد تستدعى حرساً قوياً ، وإرسال هذا الحرس قد يحدث أزمة سياسية ، وتوبلسك فى الواقع لم تلفحها رياح الثورة التى اجتاحت روسيا الأوربية ، فهى آمن للأسرة وستكون بعيدة عن أعين سواد الشعب . وقد يكون من الممكن نقلهم يوماً ما إلى اليابان ، وتوبلسك إحدى مدن سيبيريا التى ينفى إليها عادة السياسيون وغيرهم من ذوى الجرائم ، وهى معروفة بأن فيها

سجناً ومنجم ملح ، ولا يستطيع أحد أن يتهم كرنسكى بعدم الولاء للثورة بإرسال أسرة رومانوف إلى سيبيريا ، بل فيها الدليل على أنه الابن البار بالثورة ، وأنه صادق الولاء لحزب اليسار .

وكان هذا الدليل مفيد من وجهة نظر كرنسكى لأنه كان يقترب فى ذلك الوقت من اليمين ، وقد وافق على إعادة عقوبة الإعدام فى الجيش ، وعين الجنرال كورنيلوف وهو إدارى حازم قائداً عاماً للجيش .

وربما كان نقل الأسرة الإمبراطورية إلى هذا المنفى إجراءً ماهراً . ولكن مهارة الإجراء ليست أهم ما يتطلبه موقف كرنسكى . وكان هم كرنسكى أن يحظى بثقة واحترام العناصر الحكومية العديدة من اليمين واليسار ، وهى لا تحجم عن السير وراءه وقبول رياسته إذا وثقت أنه يعرف الطريق الذى يسير فيه . ولم يطمئن أحد لخفة يده التى نقل بها أسرة رومانوف إلى توبالسك، بل لعل مهارته زادت ما لدى الروس من عدم الثقة به . ومن الجائز أن تصرفه فى هذا الموضوع كان فى ذاته عاملاً هاماً فيما نشأ بينه وبين الجنرال كورنيلوف من سوء التفاهم . وقد كان على كل حال دليلاً على تخاذله وعدم إخلاصه، مما أدى إلى القطيعة التامة بين الرجلين .

ولم يكن كرنسكى بطبيعة الحال هو وحده المسئول عما حدث . فقد كان كورنيلوف يعوزه النضج السياسى ، فضلاً عن أنه كان عجولاً شديد الطموح ، وكلها عوامل لها نصيب فيما حدث ، وكذلك الدسائس أو الضغوط التى قام بها حلفاء روسيا : فبينما كان الملحقان الإنجليزى والفرنسى يدفعان كورنيلوف ، كانت سفارة الولايات المتحدة تحضه على عدم الإذعان لمطالبهما . لقد كان الرجلان فى أول الأمر متفقين ، أو ظنا أنهما على اتفاق على الحاجة إلى اليد القوية فى الجيش

وفى الحكومة على السواء ، ثم بدأ كورنيلوف يشعر بأن كرنسكى يحاول التخلص من الاتفاق الذى بينهما ، بينما أخذ كرنسكى ينظر إلى كورنيلوف كمنافس قوى ، وعامل خطير يهدد الديمقراطية الروسية . وزاد من هذه المخاوف التأييد الصارخ الذى جاءه من اليمين ، والذى سرعان ما عرف « بالكورنيلوفية » . وكورنيلوف ابن رجل من قوزاق سيبيريا ، لم يكن ملكياً ، ولكنه كان يؤمن بأنه لا ينقذ الأمة من الفوضى إلا نوع من الحكم يكون أشد بأساً من الحكومة المؤقتة . وكان فعلاً يستعد للقيام بانقلاب حربى ضد مجلس سوفييت بتروجراد ومؤيديه اليساريين . وأوهم كرنسكى صاحبه المشاكس أنه يوافقه على ما اعتزم القيام به ، ولكنه قد لا يكون لديه إلمام تام بمداه الكامل . وكانت المسألة كلها مبنية على تبادل انعدام الثقة بين الرجلين ، مما أدى إلى أن كلا منهما كان يعمل من وراء الآخر ، وبذلك زاد سوء ظن الواحد منهما فى الآخر . وأخيراً عندما زحف كورنيلوف بفرقته فى ٩ من سبتمبر على بتروجراد أوقعه كرنسكى فى بعض الاتهامات وأقاله من عمله :

وكان رد كورنيلوف على ذلك إصدار بيان ضد الحكومة المؤقتة ، وأمر إلى الفرسان بقيادة كريموف أن تحتل العاصمة ، فاستنجد كرنسكى بسوفييت بتروجراد ودعا العمال إلى حمل السلاح . وحرض تروتسكى البلاشفة — وهو فى سجنه — على الالتفاف حول الحكومة ، وهكذا ظهرت جبهة غير رسمية من الأهالى ، وأخذ أتباع لينين الأسلحة التى ألقيت إليهم بلهفة عظيمة . ويبدو أن أتباع كورنيلوف لم يكونوا يتوقعون المقاومة الجماهيرية ، ثم إن خطر الحرب الأهلية أوهن من عزيمتهم ، فاستسلم الجنرال كريموف دون مقاومة ، ثم قضى على نفسه بالانتحار ، وقبض على كورنيلوف وأركان حربه دون مقاومة كذلك .

وكانت هذه نهاية المحاولة الثورية ، كما كانت بطبيعة الحال خاتمة لموقف كرنسكى

العدائى من البلاشفة . الذين كانوا يجمعون منذ يوليو الماضى بين أكثر العناصر اليسارية مسئولية ، وبين أكثر العناصر اليمينية ذكاء . وأطلق سراح تروتسكى ومعظم من كان مسجوناً من قادة البلاشفة ، وأعلن كرنسكى الجمهورية محتفظاً لنفسه بمركز رياسة الجمهورية ، والقيادة العليا للقوات المسلحة ، وأقام حكومة جديدة فيها كثير من اليساريين ، ومنهم وزير الحربية الجديد الجنرال فركوفسكى الذى كان ملحقاً عسكرياً فى بلغراد عند وقوع حادث سراجيفو ، واعتمدت فى تأييدها السياسى على العناصر الساذجة من اليساريين غير الشيوعيين من المنشفيك والثوريين الاجتماعيين ، وبعض المنشقين المتحالفين .

ولقد كانت ثورة كورنيلوف حدثاً يجمع بين الغرابة والهلاك فى التاريخ الروسى ، وكان هذا القائد الضئيل ذو العينين المغوليتين ، والفم الجامد يتصرف إذا حزب الأمر ، كما يتصرف كرنسكى . وكان هذا المحامى الاشتراكى السابق الذى أصبح اسمه شعاراً للحرية الضعيفة الرخوة يقوم بدور ينطوى على الميوعة والاستهتار . وكان انتقاله من حليف لليمين المعتدل فى سرعة البرق إلى اليسار المعتدل مجرد خفة يد ، بل كان أشبه بالألعاب البهلوانية الخطيرة ، واللعب على العقلة العالية دون أى وقاية تقيه من أثر السقوط ، ولم يكن مرجع هذه الأعمال الانتحارية إلى القنوط وإنما إلى الإفراط فى الثقة . وكان كرنسكى يعتقد أنه متى فرغ من القضاء على حركة كورنيلوف التى سبق أن شجعها يكون قد انتصر انتصاراً عظيماً على اليمينيين واليساريين جميعاً . وبينما كان لا يثق كل الثقة فى إخلاص البلاشفة من حيث إنهم ثوريون، كان على علم تام بأنه لا يمكن الاطمئنان إليهم من حيث إنهم حلفاء . وكان كل اعتماده على مهارته وقدرته على التفوق عليهم . وعلى قدر ما أثرت العوامل الأيديولوجية فى أخطائه الحربية ، كان فشله الذى يتجلى عادة فى عجز العقل الأدبى عن فهم الوسط الاجتماعى الذى يعمل فيه . وكان كرنسكى

يظن أنه هو منقذ الديمقراطية ، كما كان يفترض أن الرأى العام الديمقراطى فى صفه . وإذا كان على حق — وهو أمر مشكوك فيه — فهو رأى غير مسلح وغير منظم ، ومن النوع الذى لا يفوز فى أى انتخاب ، فضلاً عن الثورة . وكان الأحرار الروس مستعدين للتغاضى عن التفاصيل ، لا لأن الحرية والواقعية أمران متعارضان ، بل لأن التعليم الذى تلقته الطبقة الروسية الراقية القديمة ، والذى غذى الأنماط المختلفة من الحرية لم يبال كثيراً بالواقع الاجتماعى والسياسى الحديث .

وهناك عامل — أقوى بكثير من غيره — يساعد على توضيح عجز معظم القيادات الروسية المعارضة للبلاشفة — سواء أكانت من الأحرار أم من المحافظين — وبخاصة ضعف الخلق الذى كان أهم صفة مشتركة فيها . وهو أن الحكومة المؤقتة — رغم أنها إلى حد ما — ملأت الفراغ الذى نتج عن انهيار الحكم المطلق ، إلا أنها عجزت عن أن توحى بالهيبة اللازمة لسلطان الحكم . إذ أن اختفاء القيصر المفاجئ — وكان يمثل الأبوة العميقة — ترك الشعب الروسى ، وبخاصة الطبقة الحاكمة منه بلا قيادة ، ولم يكن الشعور بهذا النقص وليد العاطفة ، بل كان شعوراً مستمداً من واقع الحياة . وكانت روسيا القديمة أشد مجتمعات العالم الحديث بيروقراطية ، وأعظمها تدرجا فيها فى الرتب ، وحتى مراتب الشرف فيها كان مرجعها إلى الألقاب التى نالها أصحابها فى أثناء الخدمة العامة . وكانت عملية إصدار القرارات فى روسيا تجرى من الموظف الكبير إلى الموظف الصغير ، وكان التنسيق — حينما يكون — يأتى من السلطة العليا . وكانت القطارات تسير فى مواعيدها — إذا قدر لها ذلك باسم القيصر ، فلا بد إذن من إرادة قوية مستبدة تحل محل الإرادة السابقة المستبدة . ويبدو أنه لم يكن لأحد مثل له هذه الإرادة المستبدة غير لينين ، وأما خصومه وقد انقطع ما بينهم وبين أية سلطة مركزية يحترمونها ، مع عدم تعودهم على المبادأة ، وخوفهم من تحمل المسئولية ، وافتقارهم إلى التعاون الذى

نراه لدى جميع الشعوب الغربية ،فلم يستطيعوا أن يعملوا معاً أو حتى يتفقوا . وكانوا أحياناً يترددون وينكمشون . وأحيانا يندفعون إلى العمل دون تردد فى غير الوقت المناسب ، وفى بعض المناسبات كانوا يضحون بحياتهم فى قضايا خاسرة ، وفى مناسبات أخرى كانوا يستسلمون إذا عرض لهم أقل الأخطار وأبسط الصعاب. وكانوا يتنازعون فيما بينهم لأوهى الأسباب ، وفى الظروف النادرة التى كانوا يتفقون فيها على هدف معين لم يكن فى استطاعتهم بذل الجهود لتحقيقه ، وكان يبدو أن أنصار القيصر — بعد تنازله عن العرش — أصبحوا لا يستطيعون حتى ضبط مواعيد العمل حسب الساعات المحددة .

إن الفشل الجماعى الذى منيت به الصفوة المختارة من الروس لمواجهة تحدى الثورة — كما فى ثورة كورنيلوف الفاشلة وغيرها — يدل على قصور تدريبهم على القيادة، كما يدل أيضاً على أن المجتمع الروسى — لا الحكومة لروسية وحدها أصبح منهاراً ، وهذا يصدق فى توبلسك رغم مظاهر الهدوء الوقتى فيها ، كما يصدق فى بتروجراد وفى الجبهة الغربية .

وجرت الحياة لفترة وجيزة فى سهولة ويسر لآل رومانوف فى توبلسك أكثر مما كانت فى تسارسكوسيلو، وأعدت لهم دار الحاكم السابق للمنطقة مسكناً مريحاً بل فاخراً ، وكان معهم من الحاشية والخدم حوالى أربعين شخصاً ، وكانت الأغذية لديهم كافية . ولئن انقطع نقولا عن نزهاته الطويلة فى تسارسكوسيلو فقد أخذ ينشر الأخشاب طلباً للرياضة . إلا أن الأسرة لم تحس بضيق أكثر من ذى قبل إذ سمح لها بالذهاب إلى الكنيسة فى البلد مرة كل يوم ، وكانت الكنيسة مباحة للمواطنين، وكان سكان المدينة لا يخشون الحرس الذى كان يرافق الأسرة ، وكانوا يحيون حكامهم السابقين باحترام كلما شاهدوهم . ولقد جعل جو المدينة

المريح ، والذى لم يكن متأثراً بروح الثورة، الجنود أنفسهم أكثر تأدباً فى معاملة مسجونيهم ، وكان الحرس الآن تحت قيادة الكولونيل كوبانسكى وحده ،الذى لم تتبدل مشاعره الملكية — وكان الحرس هو الهيئة العسكرية الوحيدة فى المنطقة ، ولهذا كان النظام بطبيعة الحال حسناً .

وجاء أول إنذار بالخطر المحدق — من وجهة نظر المنفيين الملكيين — وهو قدوم مندوبين سياسيين إلى توبلسك فى ، سبتمبر أرسلهما كرفسكى لمراقبتهم ، وهذه المهمة فيها دلالة على زيادة نفوذ اليساريين على الحكومة المؤقتة بعد ثورة كورنيلوف، وكلا المندوبين كانا من الثوريين الاشتراكيين ذوى العقائد المتطرفة ، وكلاهما خدما فى سيبيريا أيام الحكم المطلق . ومع أن المبعوث الأول ، وهو من الثوريين المثاليين من الطراز القديم ، كان يعامل أعداءه المقهورين بحنان ظاهر ، إلا أن وجود مبعوثين زاد من برودة الجو الذى كان معتدلا إلى هذا الوقت فى سيبيريا ، ولم يكونا فى نظر أسرة رومانوف وبخاصة فى نظر اسكندر أفضل من البلاشفة ، وكان كوبانسكى أبعد نظراً ، ولكنه كان يلوم المندوبين لإفسادهما النظام ، والولاء بين رجال الحرس نتيجة لتوجيهاتهما ، ولا شك أن موقف الجنود قد تغير من منتصف سبتمبر، ولكن قد يكون ذلك منبعثاً من فقد الثقة فى حكم كرنسكى ، وربما كان لذلك سبب آخر هو عجز الحكومة عن الوفاء بوعدها بزيادة الأجور أكثر مما هو راجع إلى عوامل أيديولوجية .

وفى نوفمبر وصلت الأنباء إلى غرب سيبيريا بنجاح حركة البلاشفة فى العاصمة، وعم الحزن والقلق كثيراً من الدوائر، وحتى فى محيط القيصر السابق لم يكن لها الأثر الهائل الذى كان ينتظر « وعشرة الأيام التى هزت العالم » (والعبارة عنوان أول تقرير من جون ريد عن ثورة نوفمبر فى بتروجراد) لم تهز توبلسك فى أول الأمر .إن لهذا الهدوء النسبى أسباباً شائقة .

السبب الأول أن أتباع لينين لم يبعثوا فى ذلك الوقت الإعجاب أو الكراهية أو الرعب الذى بعثوه فى النفس فيما بعد إذا كانوا شيوعيين . فقد كان كل الماركسيين نظريا كذلك ، وكانوا أيضاً متعجلين الوصول إلى منتهى أهدافهم، ولهذا لم يحجموا عن اتباع الوسائل المتطرفة،ولكن كان فى روسيا من هم أكثر تطرفا منهم كالفوضويين وبعض الثوريين الاشتراكيين اليساريين . ولم تكن قد ظهرت بعد الصورة المنحرفة الساخرة التى كانت للبلشفية فى عهد ستالين . وكل ما كان فى فكر ستالين أو مسلكه من المبادئ التى كانت تشير إلى الأحداث المريعة القادمة ، لم يقدرها خصومه . وفى نظر كل جميع الروس الرجعيين كالقيصر ، كان كل الثوريين بما فيهم الثوريون الديمقراطيون سفاحين ، وكانوا مكروهين إلا من حيث اعترافهم بضرورة الحرب من أجل روسيا وطنهم . ومع أن نقولا نفسه كثيراً ما نظر إلى روسيا على أنها ضيعة أسرته الخاصة إلا أنه كان فى قرارة نفسه قوماً وطنياً على طريقته . ويبدو أن أشد ما آله من حيث سير الأمور فى بتروجراد أن الذين قضوا على أزمة الحكم رجال يعدهم هو دوليين ومن أنصار السلام . وكان هذا رأى كثير من البلاشفة أنفسهم . وكان شعور نقولا نحو البلاشفة يشبه من بعض النواحى شعور بنت الثورة الأمريكية نحو اليونسكو . وعادة النظر إلى الأمور فى شىء من الرعب والفزع ، تميت مراكز الإدراك التى يتوقف عليها مصير الإنسان .

والسبب الثانى أن الظروف التى مكنت البلاشفة من القبض على أزمة الحكم أوحت بالعقيدة التى انتشرت بين الشعب بأن الأحداث سوف تنتزع الحكم منهم فى أمد غير بعيد . وحلم الشيوعية كما فسره البلاشفة وحلفاؤهم المتطرفون قد استهوى بلا ريب عقول العمال الروس وأثار حماستهم ، ولكن لم يستهو الشعب بصفة عامة . وفى بتروجراد نفسها لم يغز البلاشفة إلا بأغلبية ضئيلة فى الانتخابات الأخيرة لمجلس السوفييت المحلى . والثورة التى قامت ضد الحكومه المؤقتة — على

ما وصفها جون ريد وهو شاهد عيان ، وكان أحد المؤمنين بها إيماناً صادقاً — لم تثر تلك الحماسة العارمة التى ميزت ثورة مارس . وقد كانت كما نعرف ثورة مدبرة أوحى بها لينين (وكان قائدها فيما بعد) . وكان النصيب الأوفر تنظيما لتروتسكى الذى استخدم فى براعة كل إمكانيات رياسة مجلس السوفييت فى بتروجراد التى شغلها أخيراً . وأخفيت الاستعدادات للثورة بالقول بأنها إجراءات دفاعية ضد هجوم جديد من أنصار كورنيلوف ، وأن الحكومة لابد أن تبدأ بالجولة الأولى فى المعركة . وفى ليل ٦ — ٧ من نوفمبر قام جنود البلاشفة — ولا سيما جنود الحرس الأحمر الذين أمدهم كرنسكى دون تفكير بالأسلحة فى نزاعه مع كورنيلوف — واحتلوا عدداً من الأماكن الرئيسية فى المدينة ، وانضم إلى البلاشفة بحارة السفينة أورورا التى كان كرنسكى قد أمر أن ترسو فى العاصمة فى سبتمبر ، وكذلك انضم إليهم بعض وحدات مدافع الميدان وغيرهم من الجنود الثائرين . ومعظم من كانوا مقيمين على الولاء من وحدات الجيش القوية التى كان من الممكن أن تستخدمها الحكومة فى قمع الثورة كما فعلت فى ثورة يوليو ، نقلت من العاصمة خوفاً من ثورة يمينية ثانية . وكانت القوات الموالية فى بتروجراد فى ذلك الوقت غير كافية . وبعد أربع وعشرين ساعة تحت نيران المدافع من « أورورا » اضطرت الحكومة إلى التسليم . ولعله كان من حسن حظ البلاشفة . أنه بينما قبض على معظم الوزراء كان كرنسكى يدبر أمر هروبه إلى مقر القيادة فى بسكوف ، وألح إلحاحاً شديداً فى طرد المغتصبين من العاصمة ، فأعد هجوماً مضاداً لم يلبث أن فشل قبل أن يبدأ . وامتنع كثير من القواد الذين كانت السلطة لا تزال فى أيديهم عن معونة الرجل الذى كان فى رأيهم سبب ما حل بالبلاد من بلاء ، بينما خشى بعض القواد العمل خوفاً من مجالس السوفييت العسكرية . وأخيراً أقنع كرنسكى القائد القوزاقى كرازنوف أن يتقدم نحو العاصمة ومعه حوالى ٧٠٠ جندى مجهزين ببعض الأسلحة . ومهما كانت

قدرته على الاستيلاء على العاصمة فقد فشلت مهمته لتأخر القيام بها بسبب إضراب دعا إليه عمال سكة الحديد ،على اعتقاد منهم بأن الإضراب احتجاج مفيدعلى ثورة البلاشفة . وبعد مناوشات مع بعض الجنود الحمر فى تسارسكوسيلو أظهر القوازق شيئاً من السخط والتذمر، فكف كرنسكى عن القتال وهرب مختفياً (وأخيراً هرب بمعونة عميل بريطانى يدعى بروس لكهارت إلى فنلندا واختفى فى طيات التاريخ). وفى موسكو قام البلاشفة بثورة تأييداً للثورة فى العاصمة، وتمكنت من النجاح لعدم تنسيق المقاومة ضدها .

جاء النصر السياسى إلى البلاشفة — كالنصر الحربى — غيابياً . فعندما كان مندوبو جميع السوفييت فى روسيا يتأهبون لعقد مؤتمر فى بتروجراد قام البلاشفة بثورتهم ضد الحكومة المحلية . (وعمد تروتسكى إلى تحديد قيام الثورة بوقت افتتاح المؤتمر) وحتى فى هذا المؤتمر الذى يمثل العناصر الثورية فى الجماهير الروسية لم يكن للبلاشفة أغلبية مطلقة . وإنما حصلوا على الأغلبية الاسمية عندما خرج معارضوهم المنشفيك والثوريون الاشتراكيون المعتدلون احتجاجاًعلى الثورة، بدلا من بقائهم فى المجلس، ومنع البلشفيك من محاولة إضفاء الصفةالقانونيةعلى الاجتماع، وعلى هذا فقد كان مؤتمراً أبتر لا يشمل إلا مندوبى البلاشفة والجانب المنشق من الثوريين الاشتراكيين، الذين أقروا فى اليوم التالى نظام هيئة الحكم الجديدة ــ مجلس مندوبى الشعب ــ الذى أسسه ورأسه لينين . وثورة نوفمبر التى أتت بتلك النتائج الخطيرة لم يكن مظهرها يدل على عظم وقعها فى أثناء قيامها إلا فى نفوس الموالين لها، وكذلك كان سلطان السوفييت الذى انبعث عن هذه الثورة واهياً فى نظر خصومهم. ولا شك أن السوفييت لو أنهم تصرفوا تصرف من سبقوهم لما وصلوا إلى هذه النتيجة .

أما من ناحية توبلسك فإن ضعف الحكم الجديد فى بتروجراد يظهر فى فشله فى إثبات سطوته المحلية . ففى الأسابيع الأولى التى تلت قيام الثورة لم تكن منطقة توبلسك بيضاء ولا حمراء ، بل كانت كمعظم المناطق الريفية البعيدة عن مراكز الصناعة محتفظة بلونها القديم، وتدل الخطابات التى كانت اسكندرا تبعث بها إلى أنافيروبوفا وسائر صديقاتها فى عام ١٩١٨ على زيادة القلق الشخصى والألم العميق على أحوال روسيا لا على دفع مأساة واحدة نزلت بهم دون التمكن من دفعها . وكانت تتحدث عن استسلام زوجها « وبروده » فى احتمال ما يلقاه من محن فى لهجة يمتزج فيها الإعجاب والحنق الشديد .

وأصبح المندوبان السياسيان اللذان بعث بهما كرنسكى إلى توبلسك من رجال لينين — لا على وجه التأكيد — وبقيا حيث كانا . وأعجب من هذا أنه لا الكولونيل كوبلنسكى قبض عليهما باسم الثورة التى أخذت ترفع رأسها فى الجنوب، ولا هما قبضا عليه بوصفه ملكيا لم يتحول . ولم تصل الأوامر لا بإعدام الأسرة الإمبراطورية السابقة ولا بعودتهم إلى العاصمة للمحاكمة . وإنما خفض البلاشفة ما كانت تجريه عليهم الحكومة المؤقتة من النفقات، حتى بلغت بهم الحالة المحزنة إلى انعدام الثقة فيهم لدى حوانيت المنطقة. وعند انتهاء العام كان يشغل اسكندرا رتق ملابس زوجها وأولادها ،ونسج جوارب من الصوف بدلا من آخر جورب كان لابنها الضعيف . لقد زادت وطأة قسوة الأيام عليهم فى توبلسك مما يتجلى فى مذكرة نقولا فى آخر يوم من سنة ١٩١٧ (وهو أيضاً آخر يوم كتب فيه مذكراته) « بعد تناول الشاى افترقنا لننام ولم ننتظر بدء العام الجديد . يا إلهى يا رب أنقذ روسيا » .

ورغم هذه الحالة السيئة المحفوفة بالأخطار ، لم يفقد نقولا وأسرته شجاعتهم .

وبعض خطط إنقاذهم كانت قريبة التحقيق — أو هذا ما تصوروه — والقصة بديعة على نحو ما ولكنها — كمعظم التاريخ الروسى — أشبه بالقصص التى يضعها كاتب من الدرجة الثالثة فى جهد كبير خالية من جمال المناظر العاطفية ، وحبكة التأليف . والرجل الذى وضع فيه آل رومانوف ثقتهم ، شاب مغامر وسيم المنظر حلو الحديث يدعى سولوفيف ، وكان ضابطاً سابقاً على صلة بأحد القواد الذين يميلون إلى اليسار . ومن المصادفات أيضاً أنه صهر لجريجورى راسبوتين ، فقد اقترن بابنته ماترونا سنة ١٩١٧ فى توبلسك ، وبعد أيام من قرانه أصبح على صلة بالقيصرة السابقة وزوجها . وعرفهم سولوفيف بنفسه على أنه عضو موثوق به فى جمعية سرية إمبراطورية تدعى « أخاء سانت جون » فى توبلسك . وأنبأهم أنه أرسل إلى سيبيريا لنجاتهم . ولم يصعب عليه — بطبيعة الحال — إقناعهم أن خلاصهم قريب ، وأقنعهم بألا يكون لهم علاقة بأية جماعة أخرى قد تعرض عليهم معونتها حتى لا تفشل خطط أخاء سان جون فى إنقاذهم . وأبلغهم سولوفيف أن هذه الجماعة مقرها فى تيومن أقرب محطة على سكة الحديد السيبيرية ، وسينزل فيها ، ويجىء من حين إلى حين إلى توبلسك لينبئ سادته بسير الأمور فى خطة إنقاذهم ، ومع أن هذا الأخاء كان من وحى الخيال إلى حد كبير فإنه لم يكن من عمل رجل واحد . لقد كان لسولوفيف عملاء فى روسيا الأوربية أثبتوا وجودهم بجمعهم المعونات الكبيرة ممن يعطفون على الحكم الإمبراطورى . ولما عاد أحد شباب الكشافة من رحلته التى أرسلته إليها إحدى جماعات بتروجراد التى تضم أنافيروبوفا ، عاد يحمل نبأ اضطلاع صهر راسبوتين بإنقاذ الأسرة الإمبراطورية . وأقنعت أنا زملاءها المتآمرين معها أن يمتنعوا عن الإشارة إلى عمل سولوفيف ، وأن يقصروا نشاطهم

على جمع التبرعات لنجاح مهمته ، وبعملها هذا أعانت دون وعى منها على تقرير مصير أصحابها الذين فى النفى . وحذر سولوفيف رسولا لإحدى الجمعيات القيصرية الأخرى قدم إلى تيومين بألا يكون له علاقة مباشرة بالأسرى الذين فى توبلسك .

وهذه الثقة فى نبل سلولوفيف وكفايته هى التى أعانت أسرة رومانوف على تحمل شدة وطأة الشتاء القارس فى سيبيريا ، وكانت الصعاب التى يلاقونها فى الأسر تزداد يوماً بعد يوم، وساءت معاملة الحرس لهم ــ الذين أبوا أن يتلقوا الأوامر من أى إنسان ، ولم تضعف الثقة التى كانت فى قلب اسكندرا حتى آخر مارس سنة ١٩١٧، عندما مرت كتيبة من الجيش الأحمر قادمة من أو مسك تحت القيادة البلشفية واخترقت شوارع توبلسك . كانت القيصرة السابقة مقتنعة بأن هؤلاء ليسوا إلا جماعة أخاء سولوفيف مختفين فى ثياب الجنود الحمر . وقالت لإحدى البنات « هاهم أولاء بعض الروس الطيبين » .

وفى أثناء الحرب الأهلية انضم سولوفيف للجيش الأحمر فى سيبريا . وقبض عليه البيض فيما بعد هو وزوجته . ونجح فى الهرب بشكل ما إلى برلين ، وعاد فى العشرينات من القرن العشرين. وما زال أمر هذا الرجل غير معروف: أكان عميلا لألمانيا أم عميلا للبلاشفة. أم رجلاً جريئاً ، أم مجرد رجل مغامر غير مسئول . وعلى كل حال، لقد كان كصهره المتوفى إحدى وسائل القدر العجيبة المميتة ، إنه لم يقم بأية محاولة جدية لإنقاذ أسرة رومانوف من توبلسك ، ولكن كان وجوده فى تيومن معوقاً لكل محاولات إنقاذهم فى وقت كانت فيه فرصة الإنقاذ سانحة .

ولقد كان من الجائز تغير الظروف لولا انقسام الملكيين الروس على أنفسهم بسبب فضيحة راسبوتين ، تلك الفضيحة التى سوأت سمعة الحكومة الملكية حتى فى عقول الكثير ممن كانوا من قبل من أنصارها . مما قاله الجنرال ألكسيف وهو من أكبر منظمى الحركة المناوئة للبلاشفة لصديق له من الملكيين « إن ما أعلمه عن حقيقة الحكم المطلق السابق هو ما يدعونى الآن إلى الامتناع عن أى عمل لصالحه » . كما أن بعض زعماء الحركة البيضاء التى أخذت تتبلور فى جنوب روسيا ، وفيما بعد فى سيبريا فى أثناء شتاء سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨ ، ملكيون وبعضهم اشتراكيون . ولم تكن الحركة تهدف مطلقاً إلى عودة أسرة رومانوف إلى العرش . ويبدو أن إنقاذ حياة الأسرة الإمبراطورية السابق لم يكن له المكانه الأولى فى عقول أنصار الحكم السابق .

ومن المحتمل أن حدثت محاولة لإنقاذ القيصر السابق وأسرته أو بعض أسرته ، بعد اختفاء سولوفيف من الميدان ، ولكن لهذا قصة عجيبة . وقبل الدخول فى تفاصيل هذه القصة قد يكون من المفيد ذكر موجز للأحداث التى وقعت على المسرح السياسى فى أثناء الأشهر القليلة لحكم السوفييت الجديد .

أصبح لينين فى الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ رئيساً لمجلس نواب الشعب ، وهو المجلس الذى حل محل الحكومة المؤقتة ، وكان يبدو أن الأمل فى بقائه فى الحكم أكثر من بضعة أسابيع ضئيل جداً . إذ لم يكن للدكتاتورية البلشفية أى أساس قانونى متين ، وليس لها قوة حربية تستند إليها ، وكانت موضع الكراهية والازدراء من أفراد الشعب الذين يؤدون الأعمال الحكومية الرسمية ، فضلا عن أن الرأى العام كان لا يؤيدها . وفى انتخابات المجلس التأسيسى فى

اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر — والتاريخ محدد من قبل ثورة البلاشفة — كان مجموع الأصوات التى نالوها أقل من ربع أصوات الناجحين . وحصل الثوريون الاشتراكيون على أغلبية المقاعد ، إذ حصلوا على ٣٧٠ مقعداً من ٧٠٧ ، بينما حصل البلاشفة على ١٧٥ مقعداً ، وحصل حلفاؤهم السياسيون الثوريون الاشتراكيون اليساريون على أربعين مقعداً — ولقد صوت أكثر من نصف الشعب فى جانب الاشتراكية ، ولكن ضد البلشفية ، كما لاحظ ليونارد شابيرو ، وأمام هذه النتيجة شرع لينين فى إظهار الفرق بين البلاشفة وسائر الاشتراكيين : وهو احتقار البلاشفة لمبادئ الديمقراطية . وعندما اجتمع المجلس التأسيسى فى ١٨ من يناير سنة ١٩١٨ ورفض اقتراحاً بلشفياً يؤيده الثوريون الاشتراكيون ، أمر لينين الحرس الأحمر باحتلال المجلس وطرد الأعضاء ، وكان هذا خاتمة الديمقراطية الروسية . وأعلن لينين فى صراحته الفظيعة المعروفة أن حل المجلس التأسيسى يعنى إنكار الديمقراطية إنكاراً كاملاً ، وإقرار المفاهيم الدكتاتورية . ومنذ ذلك الوقت كانت كل مقاومة أو معارضة للحكم المطلق الجديد تعتبر عملا ضد الثورة . ورغبة من البلاشفة فى وقف كل «معارضة للثورة» شهروا سلاح الإرهاب الثورى فى صورة « لجان الأمن » التى عرفت باسم الشيكا ، وكان تصريح أول رئيس للشيكا — فلكس دزر شنشكى الذى أصبح فيما بعد كبير قضاة التحقيق فى الحكم البلشفى « لا تعتقدوا أنى أعنى بالعدالة الشكلية .. إنى سأعمل على صنع السيف الثورى الذى يقضى على جميع الثورات المعارضة ».

وكان لينين من الذكاء بحيث لا يعتمد على الإرهاب وحده . فبينما كان يتأهب للقضاء على منافسيه اليساريين بالقوة ، اعتنق أحد مبادئ الثوريين

الاشتراكيين التى كان البلاشفة يعيبونها فى أول عهدهم بوصفها بالسوقية . وبدلاً من تأميم الأرض التى يمتلكها الأفراد وفقاً للمبادئ البلشفية الصحيحة ، أصدر لينين أمراً يسمح للجان القروية بأن تستولى على الأرض وأن توزعها على الفلاحين ، وهو ما سبق لها أن قامت به قبل استيلاء البلاشفة على الحكم . واعتمد لينين قبل أى شىء آخر على مافى لفظ «السلام» من قوة سحرية . وفى أول خطاب ألقاه فى مؤتمر السوفييت فى الثامن من نوفمبر وجه نداء إلى جميع البلاد المحاربة أن تشرع فى المفاوضات على أساس « سلام عادل ديمقراطى » ، دون الاستيلاء على أى إقليم أو دفع أية تعويضات ، ونشرت الحكومة الروسية مرسوم السلام المتفق مع هذه المبادئ ، ووضعت نصوصه فى مذكرة سياسية قام بإرسالها إلى الدول المشتبكة فى الحرب تروتسكى ، بوصفه مندوب الشعب للشئون الخارجية .

واقترحت المذكرة بصفة خاصة القيام بمفاوضات للوصول إلى هدنة عامة ؛ وعندما أغفل حلفاؤها هذا الاقتراح ، وقعت الحكومة السوفييتية فى ١٥ من ديسمبر هدنة مستقلة مدتها أربعة أسابيع مع ألمانيا والنمسا والمجر . وتمت مفاوضات الصلح بين روسيا ودولتى الوسط فى برست ليتوفسك إحدى مدن روسيا الغربية ، التى احتلها الألمان فيما بعد فى ٢٢ من ديسمبر ، وكان من نتائجها أنها تركت أثراً سيئاً فى الدولة الروسية الناشئة ، كما أعانت على نقل جراثيم الثورة إلى شرايين الإمبراطورية الألمانية .

وكان يرأس الجانب الروسى جوف ثم تروتسكى نفسه . ورغم أنه ولينين كانا ممن يهتمون بالحقائق كما يدعيان ، فقد وقعا فى الفخ الذى نصب لهما . فقد كانا يعتقدان أن البروليتاريا فى البلاد الغربية سينهجون منهج الروس الثورى فى مدى أشهر أو أسابيع ، واعتمدا على ماقد يكون لضغط العمال الألمان على قادة الحرب وساسة

البلاد . ثم إن الاتصالات السرية التى تمت بين الألمان وبعض زملائهم أعطتهم فكرة خاطئة عن شروط الصلح التى كانت ستعرضها ألمانيا أو توافق عليها .

وعندما استيقظ البلاشفة وجدوا أمامهم مأساة مريعة ، فقد طلبت دولتا الوسط أولا تنازل الروسيا عن بولندا ومناطق البحر البلطى . ثم أضيف إلى الشروط الاعتراف باستقلال فنلندا . ثم جاءت الطامة الكبرى : يجب على روسيا أن تعترف باستقلال أوكرانيا الذى سبق للحكومة المعارضة للبلاشفة والموالية للألمان الاعتراف به فى كييف فى أول يناير ، وأحس بعض المندوبين النمسويين بل والألمان أيضاً أن الحكم السوفييتى المزعزع فى مأزق ، إلا أن ذلك لم يقلق لودندورف دكتاتور ألمانيا فى ذلك الحين . وكان أهم هدف لديه تقسيم روسيا ، ومع أن هذا يتضمن القضاء على أسرة رومانوف ، إلا أنه يبدو أن إمبراطور ألمانيا وافق عليه . والواقع أنه قامت منافسات شديدة بين الأسر الحاكمة الألمانية الصغيرة حول توزيع الغنائم التى سوف يصيبونها من الدولة الشرقية . فدوق ورتمبرج مثلا كان يطلب لتوانيا وأمير هيس فنلندا ، كما كان غليوم يعتزم الاحتفاظ بلقب دوق كورلاند لنفسه وهى جزء من لاتفيا .

ولقد قضى حكم البلاشفة على وحدة الجيش الروسى من حيث هو أحد عوامل القوة ، وأصبحت الحكومة السوفيتية فى الواقع تحت رحمة الألمان المنتصرين ، ورغبة منها فى القيام بضغط على الألمان لمقاومة ضغطهم عليها ، عمدت إلى الدعاية المثيرة بين الأسرى النمسويين والألمان لديها ، مما قد يكون له أثر إذا طالت مدة الدعاية والإثارة بينهم ، ولكنه لا ترجى منه فائدة سريعة . واستعمل تروتسكى كل مالديه من مكر ليطيل أمد المفاوضات . ولكن عندما استأنف الألمان تقدمهم الهجومى نحو العاصمة فى أول مارس ، قبلت حكومة البلاشفة الصلح الذى أملاه لودندورف ،

الذى تنازلت فيه روسيا عن ربع مساحتها ، وعن حوالى ثلاثة أرباع مصانع الحديد والصلب فيها . واستقال الثوريون الاشتراكيون من الحكومة احتجاجاً على قبول هذه الشروط ، وأعقب هذا انقسام البلاشفة على أنفسهم ، ولقى لينين عنتاً كبيراً فى إقناع تروتسكى بالتخلى عن أحلامه فى مقاومة الجيش الألمانى عن طريق التخريب وحرب العصابات ، وشجع الروس البيض فى الجنوب ، ما تضح من ضعف البلاشفة ، وأحنقهم ماعدوه إهداراً للصالح الوطنى ، فرفعوا علم الثورة المعارضة بمعونة البريطانيين والفرنسيين .

وفى ربيع سنة ١٩١٨ تقدمت قوى كبيرة يقودها أليكسيف وكورنيلوف ثم كرازنوف ودنكين ، من شمال القوقاز إلى حوض نهر الدون ، كما تدخلت اليابان عسكريا منضمة إلى حركة مقاومة البلاشفة فى الولايات الشرقية . وظهرت بعض القوات البريطانية الروسية فى المنطقة الشمالية عند مارمانسك . وهكذا قامت الحرب الأهلية فى البلاد الروسية — وهى أشد الحروب الفاصلة أثرا ، بل أعظم الحروب ضراوة وقسوة فى التاريخ الحديث — وانتشرت فى جميع الأنحاء ، وفى بعض البلاد المجاورة حتى سنة ١٩٢١ ، تجر وراءها الفقر والحرمان والمرض .

وعندما رأى لينين أن حزبه يعارضه وحلفاءه ينكرونه وأعداءه الثوريين يوجهون إليه الهجمات المسلحة ، تحقق — بعد أن نقل مقر الحكومة إلى موسكو فى مارس سنة ١٩١٨ — أن إقراره لصلح برست ليتوفسك يجعل روسيا وديعة فى يد ألمانيا الإمبراطورية ، كما أدرك أن الحكم البلشفى سوف يبقى ما أرادت ألمانيا له البقاء ، وعلى هذا فلا بد من انتهاج سياسة التعاون ، بل سياسة المشاركة إلى أجل قصير . أما السياسة الضرورية الطويلة المدى فيجب أن يكون أساسها الاستعداد لاستئناف الحرب مع الدولة الظالمة — ربما بمعونة الحلفاء — والتخلص

من أغلال معاهدة برست ليتوفسك الجائرة . وربما كان موقف الألمان إزاء البلاشفة أكثر تعقيداً . كان أشبه بموقفها إزاء الشعوب « المتحررة » من الاتحاد السوفييتى فى الحرب العالمية الثانية بعد أربع وعشرين سنة ، كان خليطاً من الخداع والمكر والطمع وعدم الانسجام . ورغبة من ألمانيا فى سحب أكثر ماتستطيع من الجنود لتحشرهم فى الميدان الغربى وفى ضمان وصول مايلزمها من الغلال والمواد الخام ، لم تعمل على إرهاق روسيا لئلا يدفعها ذلك إلى إلغاء معاهدة برست ليتوفسك . بل الواقع أنها كانت ترى مد السوفييت بالمعونة الاقتصادية والمالية (وهذا مافعله الألمان فعلا فى صيف سنة ١٩١٨) لئلا يخلف السوفييت حكومة أشد عداوة للألمان منهم . والبرقية التى أرسلها سفير ألمانيا فى روسيا إلى وزير خارجية ألمانيا فى مايو سنة ١٩١٨ جاء فيها « أرسلوا مبالغ أكبر ، فإن فى صالحنا أن يظل السوفييت فى الحكم . وفى نفس الوقت كان لوذندورف مصمما على بقاء روسيا فى حالة ضعف حتى يسهل استغلالها بعد انتصار ألمانيا فى الحرب ، كما كان يود أن يستنزف كل نقطة من دمائها . وكانت سياسة لودندورف هى الصورة المكبرة لبعض آكلى لحوم البشر ، الذين كانوا يبقون أسراهم على قيد الحياة ، ويقتطعون أجزاء من لحومهم على مدى الأيام . وهكذا بينما كان الوفد الألمانى الذى قدم إلى موسكو مقر الحكومة من مارس سنة ١٩١٨ يؤيد البلاشفة ضد الحركات الثورية فى الجنوب ، التى كان الحلفاء يؤيدونها ، كان الألمان يؤيدون القوات المناوئة للبلاشفة فى أوكرانيا فى محاربة الحمر الموالين للحكومة المركزية .

وزاد المعركة سوءاً بعض العوامل الأيديولوجية ، إذ كان بعض القادة البيض يميلون إلى الحلفاء ، ولكن البعض الآخر كانوا مستعدين للحصول على المعونة من أية جهة ، بل كان منهم من كان مواليا للألمان ، وكان من رأى الألمان إعداد

مايشبه الفريق الثانى فى الألعاب الرياضية ليتولى الحكم إذا ماعجز البلاشفة عن العمل أو غلبوا على أمرهم . ولكن البيض الموالين للألمان كانت أغلبيتهم ملكيين. وإعادة أسرة رمانوف قد تعوق خطة الألمان فى تفتيت روسيا .

ومما كتبه رئيس البعثة الألمانية فى أوائل يونية « إن المجاعة فى طريقها إلى روسيا وهم يحاولون القضاء عليها فى رعب شديد . والناس يقتلون بالمئات . وليس هذا هو الخطر الأكبر، ولكن الإمكانيات المادية التى يستطيع البلاشفة بها أن يحتفظوا بالحكم قاربت النفاد. ولتسهيل عودة الروسيا ، وبالتالى عودة الإمبريالية إلى روسيا ليس بالأمر المرغوب فيه . ولكن قد لايكون هناك مفر من التطور ، وهو بين مايعانيه البلاشفة من صعاب ، ويشير إلى ضرورة الاتفاق مع خلفائهم المحتمل مجيئهم .

وكان من رأى لودندورف نفسه أن الواجب يقضى بالاتصال بغير البلاشفة . فقد كتب فى ٩ من يونيه قال :«ولو أننا نتفاوض الآن مع البلاشفة وحدهم ، فإن علينا أن نتصل بجماعات البيض الملكيين حتى تكون حركاتهم خاضعة لميولنا إذا ما قبضوا على السلطة » .

هذا هو المنظر الخلفى المعقد حتى نهاية الفصل الأخير من مأساة أسرة رومانوف .

ومع أن نهر توبول السريع الجريان كان لا يزال متجمداً والثلوج متراكمة تحت أشجار البلوط القائمة ، والربيع فى طريقه إلى توبلسك يحمل معه الشعور بعودة الحياة فى نهاية الشتاء ، إلا أن أنباء سيئة قد وصلت إلى مسامع القيصر السابق وأسرته . ففى الثانى والعشرين من أبريل سنة ١٩١٨ قدم مندوب خاص

من حكومة موسكو واخترق شوارع توبلسك على رأس ١٥٠ من الجنود الحمر ، وكانت المدينة خاضعة لنفوذ البلاشفة الكامل أكثر من شهر . والواقع أن فرقتين متنافستين كانتا تحتلانها معاً ، إحداها من أمسك والثانية من إكاترنبرج فى جبال الأورال ، وفوق ذلك كان للحرس القائم على حراسة الأسرة الإمبراطورية مجلسه السوفيتى الخاص ، وطرد المندوبين اللذين أرسلهما كرنسكى (وكان الجنود متفاهمين تفاهماً شفهياً مع قائدهم الاسمى الكولونيل كوبيلنسكى) . والحاكم الجديد واسمه فاسيلى ياكوفليف قوبل بتحفظ شديد من الجميع ، ولكنه كان يحمل عدة أوامر هامة ممهورة بتوقيع اللجنة البلشفية المركزية فيها ، وكانت موجهة إلى رجال الحكم المحلى لمعونته معونة تامة فى أداء مهمته الخاصة ، وكانت تبيح له أن يقتل فوراً كل من يخالف أمره . والمهمة التى كانت منوطة به هى — كما أخبر كوبيلنسكى — نقل الأسرة الإمبراطورية السابقة إلى مكان آخر رفض أن يسميه . وأنبأ ياكوفليف نفس النبأ إلى مجلس سوفييت توبلسك ، وجنود الحرس الخاص . ورغم رفضه ذكر البلد الذى سينقل إليه أسرة رومانوف فقد فهم من حديثه أنه موسكو حيث تكون المحاكمة .

وفى مقابلته الخاصة بنقولا واسكندرا فى ٢٥ من أبريل ألقى إليهما بتلميحات فهما منها شيئاً آخر . وعلى أساس ما دار بينهم من حديث يبدو أن نقولا فهم أنه ياكوفليف عميل ألمانى فى زى مندوب بلشفى ، وأن مهمته الحقيقية تسليم الأسرة إلى الألمان لغرض سياسى سيىء ، بل كانت اسكندرا أكثر صراحة فى تشاؤمها . كانت تعتقد أن الألمان يريدون أن يمسكوا بزوجها ليحصلوا على التوقيع على معاهدة برست ليتوفسك . ومما قالته إلى معلم ابنها السويسرى « يجب ألا أترك نقولا وحده فى مثل هذه الظروف . إنهم يريدون منه التوقيع على مايخل بالشرف بما يوجهونه من التهديد لأسرته ، وإن من واجبى أن أمنع ذلك » . وكان شعور

اسكندرا بالخطر قوياً ، لا على حياة زوجها بل على شرفه ، حتى إنها قررت السفر فى اليوم التالى ٢٦ من أبريل معه ومع يا كوفليف، تاركة أولادها وألكسيس المريض الذى كان فى حالة خطرة بسبب سقوطه من مدة وجيزة — حتى يعود إليهم يا كوفليف . وأخيراً انضمت ابنتها مارى وستة من التابعين إلى المسافرين .

وكانت الرحلة أشبه بالقصص الخيالية مشحونة بالأحداث المحيرة .

وكان يبدو أن يا كوفليف يهمه جداً ألا يمر يا كاترنبرج التى كان مجلسها السوفييتى يطلب سحق أسرة رومانوف ، وحاول الوصول إلى روسيا الأوربية بطريق ملتو ماراً بأمسك ، ولكن القطار الذى اختاره أوقفه الحرس الأحمر قبل أن يصل ، وعندما أبرق إلى موسكو يطلب منها التعليمات أمر أن يتصد إلى إكاترنبرج ، وعندما وصل إليها قبض على جميع أفراد الجماعة ، ونزع السلاح من جنود يا كوفليف ثم سجنوا ، بينما وضع آل رومانوف كلهم تحت الحراسة المشددة فى دار أحد التجار المحليين . وأظهر يا كوفليف الأوامر التى لديه أمام سوفييت إكاترنبرج ولكن ذلك لم يجد شيئا، وأخيراً سافر إلى موسكو بعد أن هدد بتوقيع العقاب على من وقف فى طريق الأوامر التى لديه . ولم يسمع عنه أى نبأ إلا ما أبرق به فيما بعد إلى رجال كتيبته الذين ظلوا فى إكاترنبرج ، وكان نص برقيته . « اجمعوا أفراد الفصيلة وعودوا . أنا استقلت ولست مسئولاً عن النتائج » .

ولم يقم أى دليل على أن يا كوفليف كان فعلاً أحد عملاء ألمانيا ، ولا أثر مطلقاً لأية محاولة ألمانية جدية لضمان سلامة القيصر السابق وأسرته ولا إنقاذهم . ولكن من المحتمل أن كل هذه القصة المشوشة الخاصة بيا كوفليف ومهمته الفاشلة ، لها علاقة ببعض المناقشات الحزبية أو الخلافات السياسية على أعلى مستوى بلشفى ، وبالمؤامرات السرية الألمانية فى روسيا .

ومن حيث مصير أسرة رومانوف كان البيت الذى نزلوا فيه فى إكاترنبرج هو الذى انتهت عنده قصتهم . فهو بناء أبيض كبير من طابقين ، رطب وفيه مظاهر الفخامة ، أشبه بالملابس الداخلية القذرة تحت قميص منشى ، وهو مقام على منحدر أحد التلال، حتى إن الطابق الأرضى فيه يتخذ مخزناً للأمتعة ، وفى الطابق الثانى من الدار شرفة طويلة ، وردهة صغيرة لها سور من الخشب يؤدى فيها نقولا حركاته الرياضية البدنية ، وكثيراً ما كان يرى وهو يسير حاملاً ابنه المريض على ذراعيه (وسائر أبنائه قدموا إلى إكاترنبرج فى ٢٣ من مايو) ، ونظراً إلى أن معظم ملابسه التى جاء بها إلى سيبيريا بليت أو فقدت ، ومنعاً من أن يسخر منه الحرس، اعتاد أن يلبس سراويل عادية ، وسترة خالية من الشارات العسكرية على أكتافها، وأياً كان لباسه فقد كان مظهره أنيقاً ومحترماً .

وكان نقولا واسكندرا وابنهما ينامون فى حجرة واحدة، والبنات فى حجرة أخرى. وشارك الأسرة فى هذا الأسر الدكتور بوتكين وخمسة من الخدم . وكان السادة والخدم يأكلون معا من وعاء واحد فى حجرة طعام التاجر . وكان الحراس الذين يروحون ويجيئون فى الحجرة ببطء شديد يأكلون على مرأى من الأسرة . وكثيراً ما سكر الحراس وضايقوا المسجونين بأغنياتهم الثورية أو القذرة ، أو ساروا وراء البنات فى طريقهن إلى دورات المياه ، ملقين على أسماعهن النكات التى لا تليق ، ولكن معاملتهم للأسرة كانت غير شاذة . وظل أحد القساوسة يقوم بالفروض الدينية إلى أواخر سبتمبر ، وكانت الأعمال اليومية فى إكاترنبرج فى غاية البساطة . كان كل الأفراد يستيقظون فى الثامنة ثم يجتمعون للصلاة ، وكان غداؤهم فى الثالثة ، وبعد نزهة قصيرة يتناولون عشاءهم فى التاسعة ، ثم يتأهبون للراحة فى أثناء الليل . وكان نقولا يقرأ كثيراً ، بينما اسكندرا وبناتها يمضين وقتهن فى أشغال الإبرة ، وكان الجميع يغنون معا فى بعض الأحايين .

وجميع الشهود — بما فيهم الخدم والحراس أو رجال الهيئات المحلية البلشفية الذين استجوبهم البيض — أجمعوا على أن نقولا واسكندرا لم يكونا محتفظين بكرامتهما فحسب ، بل كانا هادئين كذلك . وهدوء حياتهما العائلية ظل ملازماً لهما لم يكدره الضيق الذى يترتب على وجودهما فى السجن . وكان اهتمامهما بالواجبات المنزلية دون الواجبات الرسمية — وهو من أكبر أخطائهما أيام الحكم — قد صار الآن سبباً للسمو بحياتهما بدلا من أن يكون فى الأعمال التافهة فيها . ولم يكن لنقولا من الفضائل الجديرة بالرجال إلا الجلد إلى حد كبير على احتمال الآلام ، وكانت ألزم صفة له فى إكاترنبرج . وكانت اسكندرا سيدة بيت ذات سلطان مطلق فيه ، وعندما تحطمت أحلامها — وكان زوجها وأولادها تحت رحمة الغير — أصبح اهتمامها الأموى فوق اهتمامها بنفسها وآمالها .

وهذه التجربة التى عاشها آل رومانوف كانت شديدة الوقع على أعصابهم ، لأن خلاصهم كان قريباً جداً ، ولكن كلما اقتربوا منه زاد خطره عليهم . لقد كانت القوات البيضاء تتقدم تحت قيادة دينكين إلى المنطقة التى لم يكن لها بعد لون سياسى ثابت ، بين نهر الفولجا وجبال أورال . وفى أواخر مايو انقلبت القوة التشيكوسلافية وقوامها ٤٠٠٠٠ جندى على البلاشفة وانسحبت نحو فلاديفستك بعد صلح برست ليتوفسك وقاموا بهجوم نحو الغرب ، وبعد قليل قامت الاضطرابات ضد البلاشفة فى سيبيريا وشرقى روسيا . وأخذ التشيكيون يقتربون من إكاترنبرج ومعهم من انضم إليهم من البيض . وأدرك لينين ألا مندوحة من استيلاء البيض على المدينة . ويبدو أنه خشى ما يترتب على نجاة الأسرة الإمبراطورية السابقة وبخاصة ألكسيس ، الذى يعده كثير من الملكيين الوارث الشرعى للعرش ، إذ ربما أدى ذلك إلى اتحاد القائمين بالحركات الثورية ضد البلاشفة (وفى الواقع قد تؤدى إلى عكس ذلك) ، وفضلا عن ذلك أخذت

العلاقات بين البلاشفة والألمان تسوء لزيادة الصلة بين الألمان والملكيين اليمينيين . وعلى هذا فلم يعد مهما كيف يتصرف القيصر عند سماعه بمقتل ابن عمه اواسكندرا الألمانية المولد بيد البلاشفة . وربما كان الاهتمام بهذه المسألة هو السبب الهام فى عدم قتلهما قبل ذلك .

ومن عجب أن ما قرر مصير أسرة رومانوف كان ثورة ضد البلاشفة ، قام بها الثوريون الاشتراكيون الأعداء الأقدمون للملكية ، والأعداء الحاليون للبلاشفة ، وقد امتلأوا بالحماسة الوطنية والمشاعر التحررية .

وقد نظم الثورة الإرهابى الكبير بوريس سافنكوف الذى ساعد فى تنفيذ اغتيال الدوق سرجيوس سنة ١٩٠٥ ، بمعونة الأموال الفرنسية وبعض الجماعات التحررية . وقامت فى موسكو فى السادس من شهر يوليو ، وبدأت بمقتل الكونت مرباخ سفير ألمانيا (وكان هدف الثوار القطيعة بين الألمان وحكومة السوفييت) . وسرعان ما انتشرت الثورة إلى ٢٣ مركزا آخر ، وكانت خطرا على البلاشفة مدة من الزمان . وربما كانت قسوة لينين وسرعة إجراءاته من أسباب إنقاذ حكمه . فهو لم يقض على الثورة أينما وجدت فحسب ، بل طهر الأرض التى تحيط بها ، وأمر بسلسلة من الأعمال الإرهابية القاسية ، يرهب بها كل من حدثته نفسه بالقيام بثورة مضادة للبلاشفة فى أى مكان . وعلى مدى ما تصل إليه أيدى لجان الأمن فى البلاد الروسية ، كانت تسوق أمامها أثرياء الريف والنبلاء والكهنة والضباط السابقين والطبقة المتوسطة من كل لون وترميهم بالرصاص بأمر من لينين ، بالمئات أولا ثم بالألوف . وربما كانت أسرة رومانوف وخاصة القيصر السابق ، أخف من قاسى من استبداد البلاشفة . ولكنهم كانوا مثلا بارزا للارهاب فى عقول الجماهير . وكان قتلهم وصمة تصم العهد بشارة ملونة بالدماء .

وعملية الذبح (وهذا أنسب لفظ لما حدث) قام بها فريق من لجان الأمن برياسة ضابط يدعى يوروفسكى ، الذى حل بأمر من موسكو محل الحرس المحلى فى يوليو .

وفى منتصف ليلة ١٦ — ١٧ من يوليو أيقظ يوروفسكى نقولا وأسرته وأمرهم بارتداء ملابسهم والانتقال إلى أحد المخازن فى الطابق الأرضى ، بحجة أن الحرب فى شوارع المدينة قريبة من المكان (والواقع أن البلاشفة والبيض استولوا فعلا على المدينة فى ٢٥ من يوليو) . وعندما اجتمع نقولا وابنه بين يديه واسكندرا والبنات الأربع والطبيب والخدم الثلاثة فى إحدى الحجر الصغيرة ، قرأ يوروفسكى عليهم على عجل حكم الإعدام ، ودون أى إنذار آخر صوب مسدسه إلى نقولا ، وعندما نفذ الإعدام على ألكسيس وعلى إحدى أخواته ، كان لايزال فيهما رمق ، فقضى عليهما الحراس بحرابهم . ثم قتلوا الكلب الصغير الذى كان معهم ، وبعد ذلك فتشوا القتلى بحثا عن أية مجوهرات أو وثائق ، ثم وضعوا الجثث على عربة نقلتها إلى مكان مهجور ، وهناك صب عليها بعض البترول وأشعلت فيها النار . ثم دفنت البقايا المحترقة فى حفرة ، وعند الانتهاء أرسلت برقية إلى موسكو وفيها (أبلغوا سفردلوف أن كل الأسرة كان مصيرها مصير كبيرها) .

وفى الليلة التالية ١٨ من يوليو أعدم خمسة دوقات من الأسرة ، ودوقتان إحداهما إليزابيث أخت اسكندرا ، فى ظروف مماثلة وعلى مقربة من إكاترنبرج . أما الدوق ميخائيل الذى تنازل نقولا له عن العرش ، فقد هرب ثم اختطف قبل عدة أيام من ذلك الفندق فى برم غربى إكاترنبرج الذى كان معتقلا فيه ، ويبدو أنه قتل أيضا . ونجا اثنان من الأسرة بقيا حتى قادا الحركة الملكية — وأحدثا الانقسام فيها — وهما عم القيصر السابق الدوق نقولا والدوق سيرل ابن عم القيصر المخلوع .

وعلم الشعب الروسى بمقتل الإمبراطور السابق من نشرة رسمية صدرت فى موسكو فى التاسع عشر من يوليو ، معلنة أن حكم الإعدام قد صدر ضد نقولا رومانوف ونفذه السوفييت فى إكاترنبرج . والمعروف الآن حتى فى البلاد الروسة أن لينين هو الذى أمر بالإعدام ، بينما أحد أعضاء الحكومة المركزية ويدعى جاكوب سفردلوف هو المسئول عن وضع التفاصيل مع الحكام المحليين فى إكاترنبرج . ولم ينشر أى شىء من الجهات الرسمية عن مقتل القيصرة وأولادها. وعندما قدم مستشار البعثة السياسية الألمانية احتجاجا قصيرا على مقتل نقولا ثم سأل عن مصير بقية الأسرة، أفهم أنهم نقلوا إلى مكان أكثر أمنا من إكاترنبرج ، ثم أطلقت الإشاعات والأنباء التى تحمل هذا المعنى ، ثم جرت محاولات لتحمل على الاعتقاد بأن الدوقات فى أسرة رومانوف الذين قتلوا فى برم أو قريباً منها قد فروا واختفوا فى فوضى الحروب الأهلية .

ولا داعى إلى أن نذرف الدمع على أى فرد من أسرة رومانوف على أساس أنهم شهداء قضية خاسرة (وبشعة بطبعها) ، وإن كان جديرا بنا أن نحترم ذكرى نقولا واسكندرا على أنهما ممثلان يمثلان العصر الفيكتورى فى رباطة جأشهما . وعلى كل حال لقد كانا اثنين من ركاب باخرة احتفظا بخلقهما الكريمة ، ولم يهرعا إلى زوارق النجاة عندما أخذت سفينة حياتهم تغرق بركابها ولم تكن أسرة رومانوف هى الأسرة الوحيدة التى قتلت فى أثناء الحرب الأهلية الروسية . وكما يحدث فى كل المعارك دائما كان لكل طرف فظائعه وشهداؤه وسفاحوه . ولم يكن القتل الذى حدث فى إكاترنبرج وبرم هو الأمر البارز الذى يلفت النظر ، ولا شخصية القتلى — إذ من وجهة نظر النتيجة السياسية فى روسيا لا يهم كثيراً موت معظم أسرة رومانوف أو بقاؤهم — ولكن المهم هو أسلوب القتل . فقد كان السفاحون يتميزون بطابع القرن العشرين

فى نزعته الاستبدادية ،أو بعبارة أدق كانوا يتميزون بما اشتهرت به سطوة الجماهير من مناهضة مقومات الحضارة .

لم يكن ماحدث فى روسيا عابراً ولا مجرد رمز ، ذلك لأن الأنظمة الحكومية — شأنها شأن الأفراد — لاتتكون شخصيتها بفعل البيئة وحدها ، بل لنظام الحكم دخل فى تكوين هذه الشخصية ،وكان ما حدث فى إكاترنبرج وبرم من قتل رد فعل طبيعى للأحداث ، وبقى هذا الطابع الدموى يسيطر على الحكم السوفييتى لجيلين متتاليين ، وعلى غرار السذاجة الشعبية القديمة أله الشعب السوفييتى حكامه الجدد وجعلهم الخلفاء الحقيقيين للأسرة البائدة ، والورثة الشرعيين لتقاليد آل رومانوف من حيث الشنق وقطع الرءوس واستعمال السموم .

الفصل السابع عشر

نهاية آل هوهنزلرن

يقول مثل ألمانى إن من يشعل النار فى دار جاره لا يستطيع الشكوى إذا سقط الشرر على داره . وليس من المحقق أن هذا المثل الألمانى ذكره أحد الأطباء الحربيين أو المدنيين المشعوذين، الذين دبروا عودة لينين إلى روسيا فى القطار المقفل الشهير فى أبريل سنة ١٩١٧ . وكانت لديهم المناسبات العديدة لتذكره بعد سنة واحدة ، عندما وصل صاحب السعادة سفير اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية الرفيق أدولف جوف إلى برلين ليستولى على دار السفارة الحالية رقم ٧ بشارع أنتردن ليندن . وكان اختياره لهذه المهمة منطقياً ، إذ أنه كان رئيس الوفد الذى قام بمفاوضات الصلح مع ألمانيا قبل ستة أسابيع ، وانتهت بمعاهدة برست ليتوفسك . وكما كان أول سفير للسوفييت لدى بلاط القيصر وحكومته كان أيضاً سفيراً ممتازاً من وجهة نظر السوفييت . وهذا السفير الذى له وجه الساميين الرقيق الإحساس ذو اللحية السوداء والمنظار الذهبى ، والذى يرتدى معطفاً ياقته من الفراء وقبعة رياضية ، والذى بعثته الثورة العمالية ، كان له ملامح البورجوازيين ، إلا أن المظاهر لا يمكن أن تكون أكثر خداعاً .

وكان جوف صديقاً حميماً لتروتسكى منذ كان فى فيينا ، وكان معه تلك الفئة من المثقفين، الذين سبق أن لعبوا دوراً هاماً فى تنظيم ثورة أكتوبر، وكان – كالمندوب الأحمر الشهير – من مدبرى المؤامرات المحترفين البارعين ، وظلت عنقه تقترب من المشنقة وتبتعد عنها مدة طويلة . وفى الواقع كان تروتسكى هو الذى أنقذه من السجن فى سيبيريا ليتولى مفاوضات الصلح .

وكان مع السفير ثلاثمائة موظف من رجاله . وكان أول عمل رسمى له أن علق على مبنى السفارة المطرقة والمنجل ، وأبى أن يقدم بنفسه أوراق اعتماده إلى القيصر . وكان فى عداد ضيوفه الذين دعاهم لأول غداء رسمى ألمانيان يساريان قضيا مدة فى السجن ، لارتكابهما جريمة الخيانة وإثارة الفتن، وهما كارل ليبنخت وروزا لوكسمبرج. وسرعان ماصارت السفارة السوفييتية المركز الرئيسى للاشتراكيين المستقلين وغيرهم من الثوريين ، الذين أسسوا فيما بعد أول حزب ألمانى شيوعى .

وكانت « خطابات سبارتاكوس » السرية التى أذاعها هذا الحزب وسيلة لنشر دعاية ضد الحرب منذ سنة ١٩١٦، وزاد انتشار هذه الدعاية كثيراً حتى إن أكثر من سبع صحف للاشتراكيين المستقلين ، كانت تتلقى المعونة المالية التى كان جوف قد خصصها لشئون الدعاية . وكان كثير من ملحقى السفارة الذين لا يدل مظهرهم على أنهم من الهيئة السياسية ، يترددون ذهاباً وإيابا بين موسكو وبرلين محتمين بالحصانة الدبلوماسية ، ومع هذا فلم تمنع التقاليد الدبلوماسية موظفى السفارة من الحضور إلى الاجتماعات الألمانية اليسارية ، وإلقاء الخطب الحماسية. وأقلقت كمية الأمتعة التى تنقل من موسكو إلى برلين فى « الحقيبة الدبلوماسية » الحكومة الألمانية ، التى كانت على علم بأن نشرات خطيرة وأسلحة توزعها السفارة الروسية على اليساريين المتطرفين .

وقلما أخفى جوف الدور الذى كان يقوم به للحض على الثورة . ومما كتبه هو نفسه فيما بعد « من الضرورى أن أؤكد أنه فى الاستعداد للثورة الألمانية كانت السفارة الروسية تعمل طول الوقت مع الاشتراكيين الألمان» .

ولقد أبدى لودندورف وهوفمان مخاوفهما فى مبدأ الأمر من دخول « حصان

طرواده » البلشفى إلى العاصمة الألمانية . حتى إن وزارة الخارجية الألمانية والمستشار الإمبراطورى والاشتراكيين المعتدلين أجمعوا على إنه كان من الخطأ السماح للبلاشفة بأن تكون لهم بعثة دبلوماسية فى ألمانيا قبل التوقيع على معاهدة الصلح العام. ونظراً إلى أن التقاليد الدبلوماسية كانت تحول دون الحصول على دليل يؤدى إلى قطع العلاقات ، لجأ الألمان أخيراً إلى فكرة ذكية ولكنها جريئة ، إذ جاء الشرطة بربطة مملوءة بنشرات خطيرة مزورة ووضعوها فى «الحقيبة الروسية» ودبروا إسقاطها عمداً فى محطة سكة الحديد مما أدى إلى فتحها .

وطرد جوف ورجاله كلهم فى ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٨ . وفى هذا التاريخ كانوا قد أتموا رسالتهم . ولا بد أن السفير الروسى قد ذكر وهو فى قطاره المغلق وعلى فمه ابتسامة الرضى حفلة الغداء التى أقامها منذ بضعة أيام . لقد كان حاضراً فيها كارل ليبنخت وروزا لوكسمبرج بعد خروجهما من السجن ، وشرب الجماعة نخب العصيان البحرى الذى حدث فى كيل . ويقول المؤرخ البريطانى جون هويلر بنت « حتى فى هذا التاريخ المبكر أصبح للدبلوماسيين البلاشفة شهرة عظيمة فى جودة صنعهم لشراب الشمبانيا » وكان كارل ليبنخت لا يرى الفرصة مناسبة لقيام الثورة ، وعلى النقيض من ذلك كان جوف قد قال « فى مدى أسبوع واحد سيرفرف العلم الأحمر على دور الحكومة الألمانية » .

ولاشك أن نشاط جوف السرى الهدام لم يكن إلا أحد العوامل فى انهيار ألمانيا . وكان لكفايته فى نسج خيوط المؤامرات نصيب كبير فى الثورة الألمانية . إلا أن أثر البلشفية الروسية فى وسط أوربا وفى غربها بعد سنة ١٩١٧ لا يمكن أن يعزى إلى الدعاية فحسب مهما اتسع مداها وحسن توجيهها ، وإنما هذه القارة التى دمرتها أقسى الحروب فتكا رأت نور الثورة المضىء فى أفق الشرق ، نور

الأمل للانسانية المعذبة . وقد أكسبت لينين معارضته القوية للحروب والتى كان يؤيدها رغبة حكومة السوفييت فى الصلح بلا ضم ولا تعويضات — أكسبته شهرة عظيمة فى أعين مفكرى الغرب، وإن كان منهم من كان يمقت الاتجاهات الاستبدادية التى ينطوى عليها الحكم البلشفى الاستبدادى — ومن هؤلاء روزا لوكسمبرج .

وكان النجاح السياسي للمثل العليا البلشفية يقاس بنوع الطبقة التى كانت تعطف على لينين أو تؤيده فى خارج روسيا • وفى أكثر الحالات كان أكثر الناس اقتناعاً هم صفوة المنتمين إلى الحركات العمالية والحركات الاشتراكية . وكذلك ساعد أسرى الحرب الذين عادوا إلى ألمانيا بعد معاهدة برست ليتوفسك فى نشر سموم الثورة والدعاية لوقف القتال ، وكان يصحبها الدعاية البلشفية ، أو ماقاساه الأسرى من ألم الأسر أو مايرجونه من قيام الثورة . وكان أثرهم فى المدنيين وفى الجنود الذين خاضوا المعارك الدموية الأخيرة فى الغرب كبيرا جداً . كما أن بعض الشعارات مثل « السلام والطعام» كان لها سحر عجيب فى استسلام كتائب كاملة للحلفاء دون أية مقاومة فى أغسطس سنة ١٩١٨ . وكان الجنود المنسحبون من الميدان يسخرون فى مرح من الجنود الصامدين للقتال .

ومع هذا فلم يكن الإعياء الشديد من الحرب ولا الدمار الذى حل بالبلاد ولا الخيانة هى التى أدت إلى انهيار ألمانيا فى نوفمبر سنة ١٩١٨ . وإنما عندما اندحرت ألمانيا حربياً فى ميدان القتال، وعندما أعلنت القيادة العليا الهزيمة علانية بطلبها توقيع الهدنة، عندذلك فقط فقد الأمل فى النصر وفى الحكومة الأهالى الذين أنهكتهم الحرب، والذين قضوا أربع سنوات فى الحرمان وشظف العيش، مما أدى إلى إغماء العمال فى المصانع . فى تلك اللحظة دون غيرها خانتهم عادات الطاعة المشربة بها نفوسهم تحت تأثير الدعاية الثورية .

وفى مارس سنة ١٩١٨ وقد خرجت روسيا من الحرب وجنود أمريكا لا يزالون يواصلون التدريب فى المعسكرات تخلت القيادة العليا الألمانية عن « معركة القيصر » التى كان يراد بها أن تكون المعركة الهجومية الأخيرة والقاضية ضد الحلفاء فى الغرب. واتضح فيما بعد أن هذا اللقب الضخم الذى منح لهذه المعركة أو بعبارة أخرى لسلسلة المعارك لم يكن إلا تحية غير «للسيد الأكبر» ولم تكن أية ضربة موجهة للحلفاء من الضربات القاضية. وفى يوليو أخذ المد يتحول إلى الجانب الآخر، ورأى الجنرال لودندورف الجيوش الأمريكية وهى تتدفق إلى الميدان فى زيادة مستمرة ، عدا ١٩ كتيبة كانت من أغسطس الماضى لدى الجنرال پرشنج فى جانب ، وفى الجانب الآخر انضمار الاحتياطى الألمانى، فلم يبق لدى الألمان أى أمل فى النصر فى ميدان القتال . ولكنه أبى أن يقوم بأى عمل فى سبيل الصلح ، كما أبى أن يبلغ الحكومة ، وقال « إن وزارة الخارجية يكفيها الآن ماتشعر به من فزع، وإنها لكارثة لو عرفت حقيقة الموقف الحربى . ثم إن القيادة العليا التى كانت تملى إرادتها على الحكومة بل وعلى القيصر كانت موقنة بأنه لا أساس للشك فى أن النصر مكفول لنا » . وما إن حل شهر سبتمبر حتى كانت جميع انتصارات الربيع قد تبخرت ، وكل دعائم دولتى الوسط قد تقوضت ، وكانت النمسا على وشك الانهيار . وفى ٢٦ من سبتمبر خرجت بلغاريا من الحرب .

ثم خارت أعصاب لودندورف فجأة، إذ كان رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألمانى يستشفى فى سبا بمياهها المعدنية . وفى مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سكنت فجأة همهمة الحديث الخافتة وصدام كعوب الأحذية وصليل المهاميز المعدنية ، التى حلت محل صوت فناجين الشاى فى ظل أشجار النخيل فى فناء فندق بريطانيا فى عهد السلام ، عندما قدم الجنرال لودندورف يحيط به

مساعدوه ووجهه أكثر احتقاناً مما لو كان مصاباً بالحمى ، ودخل مكتب المارشال هندنبرج ، وأخبره وهو يلهث ، والمارشال أشبه شيء بتمثال من خشب لأحد كلاب سانت برنارد ، بأن المدنة يجب أن توقع دون أدنى تأخير ، وأن تشكل فى الحال حكومة ألمانية جديدة فى وسعها أن تحصل على شروط طيبة للصلح ، على أساس شروط ولسن الأربعة عشر .

وفى اليوم التالى قصد رئيس هيئة أركان الحرب والقائد العام وفى عنقهما مهمة ممضة إلى فيلا القيصر ، وهى بناء كبير فى أعلاه برج مرتفع وله شرفة وسقف مبنيان على النمط النورمندى الحديث الذى يشاهد إلى الآن فى مبانى جزيرة لونج ، تقع وسط أكثر من مائة فدان من الأرض المعتنى بها على منحدر التل الواقع خارج مدينة سبا ، وسبق الاستيلاء عليه من أحد الشيوخ البلجيكيين .

وكان كثير من أثاث القصر الملكى البلجيكى فى لاخن . وهناك مخبأ للوقاية من القنابل يمكن الدخول إليه عبر أحد مخازن الأمتعة ، وله باب للخروج يستعمل عند الخطر عبر سرداب تحت الأرض ينتهى بأجمة من الأشجار بنى للسيد الأكبر . وأحس غليوم بنصيب أكبر من السعادة هنا فى سبا أكثر منه فى برلين ، حيث — كما قيل — كانت « الأرض تحرق جلد قدميه » . وكان يتمسك بخرافة أنه السيد الأكبر للحرب على رأس جيوشه الألمانية . وكانت الصحف تنشر صورته بين الحين والحين ، وهو يزور الخنادق مرتديا سترة الميدان الرمادية ، وعلى رأسه القبعة المعدنية المدببة المشهورة ، المحببة إلى محررى صحف الحلفاء ، وكان معظم هذه الصور مأخوذا على مقربة من الفيلا ، حيث حفر خندق ووضعت أكياس من الرمل لتظهر المكان فى شكل ميدان القتال(١) . ولقد

---

(١) قبل الاستقالة بوقت قليل كان المظنون أن القيصر ربما حظى بنصيب أكبر من حب الشعب لو أنه زار أحد ميادين القتال المكشوفة . وكان يوافق بشىء من الفتور . =

أسر مرة لأحد زائريه فى مركز قيادة الحرب بإحساس العارف بنصيبه من أعباء الحرب قال : «إن القيادة العامة لا تخبرنى بشىء ، ولا تكلفنى بشىء . ولو ظن أحد فى ألمانيا أنى أقود الجيش فهو مخطئ . إنى أشرب الشاى وأقطع الخشب وأقوم بنزهتى ومن وقت إلى آخر ـ إذا شاءت القيادة ـ أسمع أن كيت وكيت قد حصل» .

وقد أجمعت الروايات على أن القيصر تلقى الأنباء بهزيمة الجيوش الألمانية وأن الهدنة لابد من السعى للحصول عليها بسرعة برباطة جأش نادرة . وتلقى فى سهولة ويسر قرار إعلان الحكم النيابى وتشكيل حكومة جديدة، نظراً إلى أن القيادة العليا للجيش قد قررت ضرورة ذلك الأمر . ولو أن القيصر قابل حجج لودندورف للاسراع بالتنفيذ بشىء من الغلظة . وقال له : « كان فى إمكانك إبلاغى ذلك منذ أسبوعين . أنا لاأستطيع صنع المعجزات » .

ويقول المؤرخ السويسرى فون ساليس : « لم يقاوم غليوم مطلقاً رغبات القيادة العليا وكذلك لم يعارضها عندما أرادت أن تعزو للغير أسباب الهزيمة، وأن تلقى على أحزاب البرلمان عار تخفيف وقع الهزيمة على الشعب ، وعقد صلح مزر مع الأعداء » . وعلى العكس عندما هبت رياح الرعب من سبا ، واعترض المستشار الجديد البرنس ماكس فون بادن على العجلة على أنها منافية للدبلوماسية ، اعتماداً على أن الموقف الحربى قد لايكون سيئاً إلى هذا الحد ، رد القيصر بحدة قائلا :

= وعندما يعود كان يحكى قصة الزيارة المؤلمة . وكثيراً ما سقطت القنابل على مقربة من القطار الامبراطورى .

وكثيراً ما كان يترنم أمام حاشيته بقوله :

إن الجبان يموت قبل موته ألف مرة
ولكن الشجاع لايموت إلا مرة

والواقع أنه لم يتعد فى زيارة الميدان المواقع الخلفية من ساحة الحرب .

«إنك لم تستدع إلى هنا لتضع العراقيل أمام القيادة العليا» .

وكان البرنس ماكس — وهو أحد أبناء عمومة القيصر وحفيد نقولا الأول قيصر روسيا وولى العهد التالى لإمارة بادن الألمانية — رجلا مؤدباً وصاحب آراء حرة متزنة . وفى الرابع من أكتوبر لجأت حكومته — وهى أول حكومة فى تاريخ ألمانيا تتألف من رؤساء مسئولين ، وتضم قادة اشتراكيين، أمثال فيليب شيدمان وجوستاف باور — إلى الرئيس ولسن تطلب الهدنة على أساس شروطه الأربعة عشر عن طريق الحكومة السويسرية . وبذلك أعلن الشعب الألمانى كله والعالم أجمع أن ألمانيا خسرت الحرب ومنيت بالهزيمة . ومن المحتمل أن لودندروف وهندنبرج لم يطلعا على خطب الرئيس ولسن . وكانت هناك حاجة ماسة إلى الهدنة لإنقاذ الجيش الألمانى من الفناء ، وكان من رأيهما أن السلام لاوصول إليه إلا عن طريق المفاوضات . ولكن الأرض التى كانت تحت أقدامهما الآن أصبحت غير ثابتة . والتأخير قضى على الروح المعنوية لدى الشعب الألمانى . والجنود الذين فى الخنادق والذين أصيبوا بأفدح الهزائم منذ إعلان الحرب لايرون أى مبرر للتأخير . ثم ماذا يحول درن السلام ؟ . إن مذكرة الرئيس ولسن فى الرابع عشر من أكتوبر كان فيها الإجابة عن هذا السؤال ، إذ لفت النظر إلى أحد شروطه ، وهو «القضاء على كل سلطة أينما كانت تحاول منفردة وبطريقة سرية وبناء على رغبتها الخاصة تعكير السلام العالمى» .

وكان واضحاً أن هذا الشرط يشير أولا وبالذات إلى الحكومة الألمانية. وساد الاعتقاد بأن تنازل الإمبراطور عن العرش قد يؤدى إلى صلح أفضل. وكان تنازل غليوم محور حديث الجميع فى كل الأوساط : فى مكاتب الحكومة وفى صالونات البيوت والمجتمعات السياسية وفى سيارات الركوب ماعدا الصحف ، فإن كل ذكر للتنازل كان موضع رقابة شديدة . أما فى المجتمعات اليسارية

المتطرفة فكانت الصيحات المدوية التى تنادى بسقوط الإمبراطور عالية كالصيحات التى تنشد السلام .

وكان من رأى البرنس ماكس — ضماناً للمحافظة على أسرة هوهنزولرن — أن يتنازل القيصر فوراً عن العرش لا لولى العهد المسئول عن الهزيمة الشائنة فى معركة فردن إلى غير ذلك من الأمور التى تدينه — بل إلى ابن ولى العهد البرنس غليوم الذى بلغ من العمر اثنتى عشرة سنة ، إلا أن القيصر لم يوافق على ذلك . ولكى يتجنب الضغط الشديد على كاهله فى برلين عاد إلى سبا حيث كانت القيادة العليا لا تزال مؤيدة له . وكان البرنس ماكس يوفد إليه رسولا بعد آخر يلح عليه فى التنازل عن العرش . وفى إحدى المرات سأل القيصر غاضباً أحد الرسل ـ وكان وزيرا بروسيا قدم إليه فى أول نوفمبر ـ « كيف تستطيع التوفيق بين هذه المهمة وبين يمين الولاء التى أديته لمليكك ؟ » . ولم يدر القيصر أن الوقت قد فات .

ففى ٢٨ من أكتوبر حدث تمرد بين رجال البحرية فى ولمسهافن . وفى أول نوفمبر امتد العصيان إلى أسطول البحار العليا فى كيل . وفى الرابع من نوفمبر نشبت ثورة عنيفة فى كل ألمانيا الشمالية .

وتقع مدينة كيل على حافة خليج جميل فى البحر البلطى، وتشرف على منطقة من أجمل المناطق البحرية العميقة الغور فى أوربا . وقبل الحرب كانت السفينة هوهنزولرن ذات الألوان الذهبية والبيضاء الساحرة موضع إعجاب السواح وهى راسية فى انتظار قدوم القيصر وحاشيته . وكان يقضى وقتاً غير قصير فى كيل ، حيث يحلو له أن يستضيف العظماء والأثرياء . محاطا برمز عظمة ألمانيا ، ولعبته الباهرة — الأسطول الألمانى . ولكن الصورة تغيرت فى الرابع من نوفمبر سنة ١٩١٨ . والقوة البحرية هناك فى الميناء لم يلحقها ضرر . وقد ظلت منزوية

فى الميناء منذ موقعة جوتلاند فى يونية سنة ١٩١٦ . وكان عمل البحارة طيلة سنتين كاملتين تنظيف السفن وتلميع النحاس وتحية الضباط الحادى الطباع ، أما اليوم فإن الأعلام الحمراء ترفرف فوق أعالى السفن الحربية الداكنة ، ويسير الآلاف من البحارة العصاة فى شوارع المدينة، ينشدون المارسيليز ويحملون الأعلام ذات اللون الأحمر كذلك . وفى هذه الصورة يرى بعض الضباط وكانوا لا يحملون سلاحا ويضعون على صدورهم الشارات الحمراء . وكان بالميناء عدة غواصات موالية للقيصر، ولكنها هربت من الميناء ، أما بحارة الغواصات الأخرى فقد أقاموا أول منظمة للثورة الألمانية التى عمت فى اليومين التاليين جميع المدن الساحلية فى شمال ألمانيا .

وكان العصيان قد بدأ قبل ذلك بأسبوع أى فى ٢٨ من أكتوبر، عندما صدر الأمر إلى الأسطول الألمانى بأن يذهب إلى بحر الشمال لتخفيف الضغط على الجيوش الألمانية المتراجعة على طول سواحل بلجيكا . وسرعان ما انتشرت الإشاعة من سفينة إلى سفينة — وللبحارة منذ زمن طويل طريقة خاصة فى نقل الأنباء فيما بينهم بالإشارة — بأنه قد تقرر التضحية بالأسطول فى معركة كبيرة أخيرة ضد الأسطول البريطانى الهائل ، على أساس أن ذلك خير من الاستسلام . ونظراً إلى بقاء عدد من دعاة الجامعة الألمانية المتحمسين الذين كانوا ينادون باتباع هذه الخطة فقد كان الخطر فيما يبدو حقيقياً ويقتضى التصرف السريع . وأطفئت النيران المشتعلة فى عدة سفن ، وامتنع البحارة فى عدة سفن أخرى عن الإقلاع . وبقى الأسطول فى الميناء ، ولكن قبض على المتمردين وسجنوا . ولم تؤد محاولات إعادة النظام إلا إلى زيادة ثورة البحارة اشتعالا . وأصبح البحارة أبطال الساعة . وكان يكفى ظهور عدد من البحارة لقيام الثورة فى مدينة بعد مدينة فى شمال ألمانيا .

وفى السابع من نوفمبر قطعت السكة الحديدية الموصلة إلى برلين لحماية

العاصمة . ولكن العدوى كانت قد امتدت إلى جنوب ألمانيا ، وزعزعت أسس الدولة الفيدرالية ، إذ قامت الثورة فى ذلك اليوم فى ميونيخ. وكان رئيس الثوار أحد البافاريين فى الحادية والخمسين من عمره ويدعى كورت أيزنر .. وهو صحفى سبق أن تولى توجيه حملة ضد الحرب قبل قيامها ، وأيده جماعة قليلو العدد ولكنهم مخلصون من العمال وأصحاب الرأى ، وكانت آراؤه سبباً فى انفصاله عن الأغلبية الاشتراكية ، كما كانت سبباً فى الحكم عليه بتهمة الخيانة ، ثم أفرج عنه فى الوقت المناسب لتنظيم اجتماع جماهيرى أدى إلى ثورة ميونيخ . وكان الاجتماع على أرض سوق ميونيخ، وفى حماسة بالغة طالب اثنا عشر من الخطباء أحدهم بعد الآخر القيصر بالتنازل عن العرش . ولما زادت حماسة الجماهير انتظم الجنود الذين كانوا يستمعون إلى الخطب فى صفوف، وساروا وراء إيزنر إلى أقرب الثكنات، حيث أمكن بسهولة إقناع الجنود بالانضمام إليهم . ثم زاد عدد الجنود فى أثناء اختراق المدينة ، كما انضمت إليهم إحدى الفرق الموسيقية . وسرعان ما احتل الفدائيون الثائرون مبانى الحكومة ومحطات السكة الحديد ومكاتب البريد ، وفى المساء أنشئ مجلس سوفييت من العمال والجنود برياسة أيزنر ، واتخذ مقراً له مصنع البيرة وأعلن بافاريا دولة اشتراكية .

وعندما اشتعلت الثورة — كان لودفيج ملك بافاريا — ذلك الرجل الرزين، أحد ذرية لودفيج الأول العظيم — يسير مع بناته فى الحديقة الإنجليزية وهى متنزه مستطيل قليل العرض، تمتد مروجه المعتنى بها وبحيراته الصناعية وشلالاته وأكشاكه إلى شمال المقر الرسمى للملك فى الجانب الآخر من المدينة المواجه للسوق، وفى هذا المكان قابله أحد أفراد رعيته ونصح له فى شىء من التجلة الممزوجة بالاهتمام بالعودة إلى قصره .

وهناك أبلغه وزراؤه أن الجمهورية قد أعلنت . فحمل هو وأسرته قليلا من الأمتعة فى أيديهم وغادروا المدينة فى سيارة غير مصحوبين بالحرس ولم يتعرض لهم أحد ، ونزلوا فى برختسجادن .

وفى ١٣ من نوفمبر تنازل لودفيج رسمياً عن العرش، وأحل جميع الموظفين والجنود البافاريين من يمين الولاء الذى أقسموه . وهكذا كانت أسرة برختسجادن هى الأسرة الأولى التى استسلمت للنظام الجديد فى ألمانيا . ويقول كورت أيزنر فى هذا الشأن « حكمت أسرة برختسجادن بافاريا سبعمائة عام ، وأنا تخلصت منهم فى سبع ساعات بمعونة سبعة رجال » .

وما إن حل أول نوفمبر حتى انهارت جميع العروش الألمانية . ويقول رالف هازول لوتس فى مؤلفه القيم (الثورة الألمانية).. وأخذت الأعلام الحمراء ترفرف فوق القصور الملكية ، واختفت الشعارات الملكية من المحاكم والصحف ومن عالم التجارة » .

ومع أن بيوت أمراء ألمانيا كانت تمثل الدعائم التقليدية لولاء الولايات للامبراطورية ، إلا أن انهيارها أدى إلى قيام حركة قوية تطالب بالانفصال عن الإمبراطورية ، وكان أحد شعارات بافاريا فى أثناء الثورة «البعد عن الإمبراطورية الانفصال عن بروسيا » بينما سبق لنواب الولايات البولندية والدانمركية ونواب الإلزاس واللورين ، أن أعلنوا انفصالهم فى جلسة علنية للبرلمان .

وهكذا كانت ألمانيا مهددة فى وقت واحد بالشيوعية وبتقويض وحدتها القومية . وكان من الضرورى لتجنب هذين الخطرين أن تتولى الحكومة المركزية نفسها قيادة الحركة الثورية ، والسير بها فى طرق قومية بعيدة عن مواطن

الخطر . ويبدو أن هذه الفكرة مرت فى وقت واحد فى خاطر البرنس ماكس فون بادن وقادة الديمقراطيين الاشتراكيين المحافظين وبخاصة فردريك إبرت . ولقد وجه المستشار السؤال التالى إلى إبرت « هل إذا ذهبت إلى سبا وحصلت على تنازل من القيصر ، أيمكننى أن أعتمد على معونتك فى مقاومة الثورة الاجتماعية » ؟ فأجاب إبرت وهو من رجال الجيش القدامى ، وألبسته استقامته الاحترام الكثير « لست فى حاجة إلى الثورة الاجتماعية . إنى أمقتها كما أمقت الإثم » .

وكان المستشار وإبرت يعرفان شدة تعلق الألمان بالنظام الملكى ، ولذلك بذلا كل جهد لإنقاذ الأسرة الإمبراطورية بتضحية كبير الأسرة ، ولكن القيصر لم يتعاون معهما . لذلك يئس البرنس ماكس وبعث باستقالته ، وكان مريضاً بالأنفلونزا التى كانت منتشرة حينذاك فى جميع أنحاء أوربا ، إلا أنه لم يقبلها ورفض طلب التنازل، وفشل كل رجاء قدم إلى هندنبرج للتدخل فى هذا الشأن كذلك . إذ أن هذا الجندى القديم لا يستطيع حتى أن يفكر فيما يسىء إلى مليكه الذى أقسم له يمين الولاء .

وفى ٨ من نوفمبر انتهت الحرب من وجهة النظر الألمانية . ففى هذا اليوم فى مكان خلا من غابة كبين ، وفى إحدى العربات التى أعدت لتكون مطعما وألحقت بقطار المارشال فوش ، أجابت لجنة الهدنة الألمانية التى يرأسها وزير الدولة ماتياس إرزبرجر « بنعم » عن سؤال المارشال فوش الموجز « هل تطلبون هدنة؟ » . ثم أخذت اللجنة تستمع إلى الشروط التى فرضت على ألمانيا مادة مادة ، وقد تليت بالفرنسية أولا ثم بالألمانية . وأخذت وجوه أعضاء اللجنة تصفر وتجمد . وأجهش بالبكاء بصوت مسموع المترجم الألمانى الشاب ، لأن الهدنة أريد بها أن تضع ألمانيا تحت رحمة المنتصرين ، وهو ما كان يرمى إليه فوش . ولم يكن

القيصر يدرى حتى مساء ٨ من نوفمبر ماسوف تتمخض عنه مأساة غابة كمبين . وكان فى أول النهار قد أمر باتباع خطة ترمى إلى أن يعيد الجيش السلام إلى الدولة ، ولم يتحول مطلقاً عن الاعتقاد بأن الجيش الذى أقسم يمين الولاء لأوامر القيصر كان كالدرع بين الثورة وبين الأسرة الحاكمة . وظلت القيادة العليا إلى هذه اللاحظة ترى من غير المناسب أن تكشف له حقيقة الحالة . وعندما وقف على حقيقة الأمر كان يرى أن واجب الجيش يقضى عليه بطاعة الأمر ، وأن واجبه أن يتولى قيادة الجيش . ولقد تحدث بهذا المعنى إلى البرنس ماكس الذى ظل يحادثه تليفونياً حوالى نصف ساعة بحديث صادر من القلب ، بوصفه أميراً ألمانياً ومن ذوى قرابته، ليوافق على التنازل السريع عن العرش ، وأمام إصرار القيصر على الامتناع عن التنازل رجاه المستشار أن يعفيه من العمل ، ولكن غليوم رفض إخلاء سبيله وقال له فى سخرية : « إنك طلبت الهدنة فلابد أن تبقى لتنفذ شروطها » .

وكانت هذه هى آخر ليلة فى تاريخ الإمبراطورية . فى هذه الليلة ذهب آخر قيصر إلى فراشه دون أن ينبئه رجاله بأن خطته أضغاث أحلام ، وألا شىء مطلقاً فى وسعه أن يصد الثورة التى تقرر قيامها فى برلين فى اليوم التالى .

وأرسل أمر غليوم بأن توضع خطة مقاومة الثورة إلى القائد الجديد الجنرال ولهلم جرونر (كان لودندورف قد تنحى عن مكانه بسبب المرض العصبى الذى أصابه، وبسبب مطالبة حكومة برلين برأسه)، وهذا الضابط ابن ضابط سابق من جنوب ألمانيا معروف بسداد رأيه وكفايته الإدارية . وكان منافساً للودندورف، ولكنه أغفل لأنه لم يكن لاينتمى إلى طبقة رجال الحرب . ولما بلغته تعليمات القيصر قرر أن إخفاء الحقائق لم يعد مناسباً للظروف ، وفى حديث يفيض بالشعور والإخلاص وضع الحقائق واضحة أمام رئيسه هندنبرج الذى كان مركزه فى القيادة العليا يوصف بمركز الصفر العظيم الاحترام .

وأبلغ — وهو أبعد مايكون عن الولاء المطلق للامبراطور — المارشال العجوز أن الجيش هو فى طليعة الثورة ، وأن مجالس الجنود العمال استولت على مراكز السكة الحديد ومستودعات الذخيرة وعلى كل الجسور التى على نهر الراين . ولا يمكن تنفيذ الخطة التى أمر بها الإمبراطور ، فبكى هندنبرج وبكى فون بلسن ، وهو فى السابعة والسبعين من عمره . وكان أركان حرب الإمبراطور غليوم الأول، وكان شعاره « يجب ألا يبلغ القيصر إلا الأنباء السارة » ، إلا أن أحداً لم يذهب ليرى غليوم فى برجه العاجى . وأبلغ البرنس ماكس فون بادن القيادة الحربية العامة تليفونياً أنه إذا لم تنشر أنباء التنازل فى الصفحات الأولى من صحف الصباح لتطلع عليها الجماهير وقت الإفطار ، فسيحتشد العمال فى الشوارع بعد استراحة منتصف الصباح بناء على تعليمات القيادة الاشتراكية .

وقدمت إلى القيصر مع وجبة الإفطار التحذيرات وتوسلات التنازل التى وردت من برلين . إلا أن ذلك لم يمنعه من القيام بما اعتاد — أن يقوم به علية القوم — من المشى الهادئ وعصاه فى يده والوقوف أحياناً والحديث الجاد فى أثناء المسير . وأبلغ الحراس الذين كانوا عند الأبواب أنه سوف يبقى على مقربة منهم، وأمر أن يستدعى إذا ماقدم هندنبرج. وكان الصباح مليئاً بالضباب، وقطرات الندا تتساقط من فروع الأشجار الجافة . ولكن يبدو أن البرد نشط الإمبراطور ، فأخذ يطيل التحدث عن أخطار البلشفية إلى الضابط المرافق له . وأنبأه وهما يمران بجوار أحواض الزهور القائمة من أثر الصقيع أن الحمقاء لابد عاجزون عن رؤية الخطر الذى تتعرض له ألمانيا من جرائها. وكان من رأيه أن هذه الحركات الثورية ـ ولو أنها متعبة ـ يمكن القضاء عليها. وأخيراً قال « فى إمكاننا التغلب على هذه الصعاب بعمل حربى سريع » . ولكن ساعة الجد كانت آتية . لقد جاء أحد الحراس مسرعاً يعلن قدوم المارشال .

وفى الحجرة التى أسدلت فيها الستائر بإحكام، وكانت النار تشتعل فى الموقد، كان ستة رجال فى ملابس الميدان الرسمية واقفين يعضون شفاههم ويحركون أقدامهم قدماً بعد أخرى فى اضطراب وقلق . وشرع هندنبرج فى الكلام بعد أن بذل جهداً كبيراً فى ضبط أعصابه، بينما كان القيصر يمد يديه ليدفئهما على النار .

كان هذا الجندى العجوز ذو الرأس الكبير الأشيب يرجو القيصر قبول استقالته والدموع تملأ عينيه، وقال إنه لا يستطيع بوصفه ضابطاً بروسيا ولم يستطع تكملة الحديث ، فأشار إلى جرونر أن يتمم الحديث الذى بدأه وأن يبلغ الإمبراطور أن نهايته قد حلت . فالموقف كما يراه لا أمل فيه . والجيش قد هزم، وألمانيا فى قبضة رجال الثورة، وأصبح من المستحيل أن تجمع ألمانيا بين حرب الأعداء وحرب أهلية . والجيش لا يمكن الاعتماد عليه ، وخطة الإمبراطور لا يمكن تنفيذها، والموقف يقتضى طلب الهدنة السريعة غير المعلقة على أى شرط . ومع أن جرونر لم يشارك سائر الضباط البروسيين شعورهم الغريب فى تقديسهم للسيد الأعلى إلا أنه تجنب ذكر لفظ « التنازل » . وكان يأمل أن يعفيهم جميعاً من هذا العبء الثقيل، وأن يستنتج بنفسه الخاتمة التى لا مفر منها .

وقطع السكون الرهيب أحد الضباط الموجودين الذين استمعوا إلى البيان الذى أوضحه جرونر بصبر نافد . وكان يبدو دون أن ينبس بكلمة واحدة أنه يستأذن القيصر فى الكلام . وكان الكونت فردريك شولنبرج — الذى وصف فى معظم المذكرات بأنه ضابط بروسى من المدرسة القديمة وعلى خلق عظيم — كبير ياوران ولى العهد(ووالد ضابط بروسى أعدم بعد اتهامه بالاشتراك فى مؤامرة ضد هتلر سنة ١٩٤٤) وقد نفى بكل حماسة أن الجيش لا يعتمد عليه. وقال : « أعطوا الجيش وقتاً كافياً للنوم وللتخلص من قملهم . فبعد ثمانية أيام أو عشرة سيكون

كل شىء على ما يرام وسيكون الجيش تواقا لمحاربة أشرار اليهود وتجار الحرب الذين خانوه » ....

وانضم إلى الرأى الجنرال فون بلسن فى حماسة عظيمة، ثم أعقب ذلك مناقشة الموضوع . وبعد أن استمع غليوم إلى رأى الطرفين جنح إلى رأى جديد ، وهو أن يتولى على الأقل قيادة الجيش فى عودته إلى وطنه فى نظام تام بعد التوقيع على الهدنة.

وتنهد جرونر متضايقاً لأن القيصر لم يفهم للآن حقيقة الموقف . وصمم على مصارحته بكل شىء فقال : «سيعود الجيش إلى أرض الوطن فى نظام تام تحت إمرة قواده لا تحت إمرة جلالتك. لم يعد الجيش موالياً لجلالتك» . وأصابت هذه الكلمات القيصر فى الصميم ، فالتفت إلى جرونر وقال : « أريد ياصاحب السعادة أن تثبت صحة ما تقول » . ثم نظر إلى هندنبرج نظرة استيضاح للأمر فلفظ ببعض الكلمات المهدئة ، ولكنه قال إنه يعترف أنه لا يمكن الإعتماد على ولاء الجنود . وعند ذلك أصبح الموقف دقيقاً للغاية .

وفى هذا السكون المربك أصبح صوت المسرة والصوت المزعج الذى يتولى الرد على أسئلة براين لا يحتملان . وأجل القيصر الاجتماع ، وفتحت نوافذ الحجرة، وأبلغ أحد الضباط أن المستشار على التليفون يود التحدث مع جلالته . ثم ذهب المجتمعون إلى الحديقة ، وعاد جرونر الذى تحداه القيصر أن يثبت صحة ما يقول إلى الفندق البريطانى حيث كان عدد من ضباط الجيش مجتمعين ، وكانوا قد أتوا من ميدان القتال ساعة الفجر بناء على طلب القيادة. وكانوا فى شدة البرد والتعب والجوع ، ولم يعد لهم أحد طعام الإفطار نظراً للفوضى السائدة ، ولم يعرفوا سبب دعوتهم إلا ما استنتجوه من الوجوه المكفهرة والعيون المحتقنة وتجنب القيادة

الإجابة عن أسئلتهم. وقبيل الساعة العاشرة وصل المارشال محمر العينين شاحب اللون ، وعرف منهم صورة مريعة للموقف فى أرض الوطن وفى جبهة القتال ، وأعقب ذلك سكون يشبه سكون أهل القبور ، لا يقطعه إلا ما يتفوه به رئيس أركان حرب القيصر الذى حضر الاجتماع مصادفة . وبعد أن سألهم هندنبرج بعض الأسئلة أمر أحد الضباط أن يوجه أسئلة إلى التسعة والثلاثين ضابطاً كل منهم على انفراد .

وكان عليه أن يسأل سؤالين أحدهما: هل يستطيع القيصر أن يسترد سلطانه على ألمانيا بمعونة جيشه؟ فرد واحد فقط: «بنعم» — و٢٣ «بلا» — و١٥ ردوا ردوداً مبهمة .

وكان السؤال الثانى: هل يتقدم الجيش لمحاربة البلاشفة فى ألمانيا ؟ . فكان جواب ٨ « بنعم » — و ١٩ «بلا» — وأجاب ١٢ « غير محقق » .

وعاد جرونر إلى الفيلا حوالى الساعة الواحدة . وكان القيصر لا يزال فى الحديقة واقفاً بين عدد من الضباط ، يتحدث بصوت جهورى ويشير بيده اليمنى ، وكان هناك أيضاً ولى العهد الذى وصل حوالى الظهر ، وكان حزيناً لمنظر والده . وجاء فى مذكراته عن القيصر فى هذه اللحظة « كان وجهه شاحباً وتدل ملامحه على الإجهاد . إنى حزين من أجله » .

وفى أثناء النقاش الذى جرى فى الحديقة كان الضباط الذين فى بيت القيصر الحربى — شولنبرج وولى العهد — الجميع يتقدمون بالنصيحة إلى الرجل السيء الحظ الذى سوف يتقرر مصيره . إنه الآن يمسك بالقشة التى مدت إليه . إنه مستعد أن يضحى لمنع الحرب الأهلية (لقد حكم طويلا وعرف أن الحكم عمل غير مشكور ، فليتركه لغيره علّه يكون خيراً منه) ، ومستعد أن يتنازل بصفته إمبراطور ألمانيا لا كملك بروسيا . ويجب أن يبقى ملكا على بروسيا وعلى رأس جنوده البروسيين .

وكان الرجال الذين أخذوا يسيرون ذهاباً وإياباً فوق حصى الممشى الجميل مشغولين بالموقف ، بحيث لم يعد لحديثهم أى معنى إزاء زحمة أحداث التاريخ . وكانت البرقيات ترد متوالية بأن الثورة قامت فى ميعادها المقرر ، وأن بعض الكتائب العظيمة الولاء للامبراطور قد رفعت العلم الأحمر ، وظل التليفون يدق فى الفيلا ، إذ كان مكتب المستشار فى برلين يريد معرفة ما تم فى موضوع التنازل عن العرش . وكان جواب المكتب فى سبا أن القرار موضع التفكير الآن .

وعندما رأى الإمبراطور جرونر سأله عما وصل إليه من بيانات عن الحالة . فما كان من جرونر ـ وهو أشبه بناظر مدرسة عليا فى الريف لولا حلته الرسمية ـ إلا أن أومأ برأسه ، فقرأ الضابط الذى كان يرافقه نتيجة الاستفتاء الذى أجرى بين الضباط ، ثم لخص الإحصاء فى صوت مرتفع : « إن الجيش مخلص لجلالتكم . ولكنه مجهد وفقد حماسته . ولا يريد إلا أمراً واحداً الراحة والسلام ، ولا يرضى أن يتصدى للبلاد حتى تحت قيادة جلالتكم » .

ثم أعقب ذلك فترة سكون أخرى قطعها شولنبرج بكلمة حماسية عن قسم الضباط للعلم ، والرئيس الأعلى للحرب .

ثم نطق جرونر — وهو الوحيد الذى كانت كلماته مناسبة لمقتضى الحال — بالحكم الذى ختم به العهد : « يمين الولاء للعلم ؟ الرئيس الأعلى للحرب ؟ ما هذه إلا مجرد ألفاظ » .

ويبدو أنه لم يكن هناك ما يقال بعد ذلك إلا القليل ، وفعلا كان ما قيل جد قليل . لقد جاء رسول يجرى من البيت يحمل أخباراً جديدة من برلين : « لقد أفلت زمام الموقف من أيدينا ، وفرق الجيش تنضم الواحدة بعد الأخرى إلى

البلاشفة » . وظل غليوم صامتاً بعض الوقت ، ثم أصدر قراره الأخير بوصفه قيصر ألمانيا .. إنه يقبل التنازل بصفته إمبراطوراً لا باعتباره ملكاً لبروسيا » ولابد من قبول الهدنة ، وأن يكون هندنبرج الرئيس الأعلى للجيش .

ثم أذن للضباط أن ينصرفوا ، وذهب للغداء ، ثم اجتمعت لجنة لصياغة عبارة التنازل . وكان هذا جهداً ضائعاً كما تبين بعد قليل ، فإن القرار لم يعد من اختصاص غليوم .

وكان الغداء الذى أعد فى حجرة الطعام فى الفيلا على مائدة مزدانة بالزهور المقطوفة حديثاً من الحديقة ، من الذكريات المؤلمة التى يذكرها ولى العهد . وكان القيصر غارقاً فى تفكير عميق يقضم شفته العليا بعصبية ظاهرة . ولم يعن أى فرد بقطع هذا السكون ، وظل الطعام فى الأطباق . ولما انتهى الغداء وانسل غليوم فى وجوم هو وابنه وشولنبرج وبعض الضباط المخلصين إلى حجرة الجلوس لتناول القهوة ، إذا بالباب قد فتح ، وسمع صوت مخنوق من الحجرة المجاورة : « أتسمح جلالتك أن تتفضل بالقدوم إلينا لحظة واحدة » وكان الأميرال هنتز مندوب وزارة الخارجية فى سبا لا يزال قابضاً بيد مرتعدة على سماعة التليفون ، وكانت الساعة الثانية عند ما طلب برلين ليبلغها نص التنازل . وقاطعه المتكلم من لدن المستشار فى مبدأ الحديث فى شىء من الغلظة قائلا : « أهو التنازل أخيراً ؟ » . وعندما تلا هنتز الفقرة المتعلقة بتنازل القيصر بصفته إمبراطور ألمانيا لا بصفته ملك بروسيا صاح المتحدث فى برلين قائلا : « هـذا جنون » . وقبل أن ينتهى هنتز من البيان قاطعه ثانياً : « إن صورة التنازل قد طبعت ، وتباع الآن فى الشوارع ، وهى معى الآن . وسأقرؤها لتعلم ما بها » .

كان المتكلم باسم البرنس ماكس على التليفون طوال الصباح ، ليحصل على

النص النهائى للتنازل من سبا . ولذلك لم يعرف أن المستشار فى منتصف الساعة الثانية عشرة (لاعتقاده أن التنازل قد أعد ولشدة الاضطرابات فى الشوارع) قد بعث ببيان لوكالة و اف ، يعلن فيه قرار الإمبراطور بالتنازل عن العرش بالإصالة عن نفسه ، وبالنيابة عن ابنه ولى العهد . وفى منتصف الساعة الأولى ، بينما أعلن جميع الحراس العصيان ، بما فيهم فرقة الإمبراطور اسكندر وهى مفخرة غليوم ، تنازل البرنس ماكس عن سلطته إلى إبرت .

وإذا كانت النشرة ذات العناوين الضخمة الخاصة بالتنازل مفاجأة لمندوب المستشار (وهو الآن المستشار السابق) فى برلين ، فإن نص التنازل الذى أعلنته وكالة الأنباء كان مفاجأة مذهلة لهتز المسكين فى سبا . وقد أنبأ بها القيصر الذى وقف مشدوهاً وهو يشرح له الموقف .

كانت هذه الإهانة التى وجهت إلى الإمبراطور هى التى أذهلته هو وضيوفه وأطلقت ألسنتهم : « لم نسمع بمثل هذا من قبل . . . قرار ينتزع من يدى . . . خيانة » . ثم تلى ذلك كتابة عدة برقيات ، وأوامر بإحضار الأسلحة إلى الفيلا ، وأوامر بحضور هندنبرج وجرونر فوراً . وما بدا من تصميم غليوم على المقاومة ، شجع ولى العهد على أن يستأذن للخروج . فقد كانت الحاجة ماسة إلى وجوده فى ساحة القتال . ووصلت شروط الهدنة إلى سبا ولكن أحداً لم يدرسها ، وكان القتال لا يزال دائراً فى جميع الخطوط . ومما قاله ولى العهد : « لم أكن أتصور عند ما سلمت عليه أنى سأراه (القيصر) ثانية بعد مضى سنة فى هولندا » .

وعاد إلى مركز القيادة هندنبرج وجرونر ومستشاروهم يعقدون مؤتمراً لتقرير ما يجب عمله مع مليكهم وقائد جيشهم المطرود . لقد أوضح جرونر من

قبل رأيه فى حديث غير رسمى له مع هندنبرج وبلسن . لقد كان رأيه أن يقصد الإمبراطور إلى جبهة القتال ويعمل على أن يلقى فيها مصرعه، وهو ماأفزع القائدين الآخرين ، ولم يقره غليوم (لاعتبارات إنسانية دينية سامية) علماً بأن هذا الرأى لم يبلغ إليه رسمياً .

ومما جاء فى مذكرات القيصر السابق « يرى البعض أنه كان على الإمبراطور أن يقصد إلى إحدى الفرق فى جبهة القتال ، وأن يهجم بنفسه بها على العدو وأن يعمل على أن يلقى مصرعه فى هذا الهجوم . إن مثل هذا العمل لا يؤدى إلا إلى منع الوصول إلى اتفاق على الهدنة فحسب بل يترتب عليه التضحية بأرواح الكثير من الجنود » .

ثم إن غليوم يذكر فى مذكراته أيضاً أن « موت البطل » فى جبهة القتال فيه انتهاك لمبادئ المسيحية ، ولا يتفق مع مركزه الشرفى ككبير أساقفة الكنيسة الإنجيلية الألمانية . ويبدو أن رأى رئيسهم السابق كان معروفاً لدى المجتمعين فى الفندق البريطانى . وعلى كل حال فإن رأى جرونر الذى كان من الممكن أن ينقذ الملكية لو أنه نفذ فى الوقت المناسب ، أصبح لا يمكن تنفيذه فى التاسع من نوفمبر ، وكان من المستحيل أن يعود القيصر إلى وطنه . إذ كانت الطرق المؤدية إلى ألمانيا مملوءة بالثوريين الحمر ، ولم تعد سبا نفسها آمنة ، وأخذت مجالس الجنود تتجمع فى الظهور . وكانت وجوه الناس تعلوها الكآبة ، ولا أحد يؤدى التحية العسكرية للضباط ، إذا ما ظهروا فى شوارع البلدة الصغيرة ، مما قابله البلجيكيون بالسرور والسخرية . ولم يكن من المحقق أن الكتيبة المنوط بها حراسة الإمبراطور قد بقيت على ولائها . ولما ذكر هندنبرج قتل قيصر روسيا وأسرته فى إكاترنبرج صمم على وجوب رحيل الإمبراطور فوراً

قبل فوات الفرصة ليلجأ إلى بلد محايد . ووافق على الرأى أخيراً جرونر وسائر الرجال .

وعادوا فى الساعة الرابعة بعد الظهر لينبئوا القيصر بقرارهم ، فلما رآهم صاح قائلا لهم « يا إلهى أنتم تجتمعون ثانياً » . ثم التفت إلى جرونر وقال له فى حنق شديد « لم يعد لكم رئيس أعلى للحرب الآن » . وكان واضحاً أنه فى حالة لا تمكنه من التعاون معهم . ولاحظ أحد الضباط الموجودين أن لا بد من مرور بعض الوقت حتى يصدر الإمبراطور قراره ، وأخيراً سمح غليوم بأن تتخذ « الإجراءات التحضيرية » للهجرة إلى هولندا .

وكانت هذه الإجراءات قد أعدت من قبل سواء أرضى بها أم لم يرض . ويذكر شهود ذلك العهد أن ضابطاً هولندياً مضى فى البلد عدة ساعات فى صباح ذلك اليوم وأديت بعض التمرينات الحربية من أجله . وكان أداء هذه التمرينات فى ذلك اليوم لا معنى له ، مما أدهش المراقبين المحليين لخروجها عن المألوف ، وكان اختيار هولندا وتفضيلها على سويسرة ليلجأ إليها القيصر لا لأنها على مسيرة أربعين ميلا فحسب من سبا ، بل لأنها أيضاً كانت ملكية .

ولم يكن من السهل على غليوم ، وقد قضى هذه الأعوام الكثيرة من حياته وهو يخفى ما لديه من الشك والتردد — أن ينتهى إلى رأى فى موضوع هجرته . وقد راقت لديه فترة ما فكرة التضحية بحياته بثمن غال ، محاطاً بأتباعه المخلصين فى فيلته المحاصرة ، حتى كاد أن يأمر بإحضار الأسلحة إلى مقر إقامته . ولكنه عندما انتهى النهار وأخذ الظلام يرخى سدوله على الكون ، اقتنع بالعودة إلى قطاره الخاص الذى كان يستخدمه مقراً متنقلا للقيادة ، وكان دائماً مستعداً تحت تصرفه .

وحتى هذه اللحظة كان غير موافق على فكرة الهجرة . وعندما وصل

إلى القطار ، وجد رسالة من القيصرة التى كانت فى بوتسدام تنبئه فيها أنها على ما يرام ، وترجو أن يكون بخير . وهنا صاح الإمبراطور « يريدون منى الرحيل إلى هولندا وزوجتى باقية هنا ... إن هذا يزعجنى » .

ورآه ضابطان بحريان وهو فى طريقه إلى عربة الأكل فى القطار مصمماً على البقاء ، وقد رجاه الضابطان إعفاءهما من الخدمة فقال لهما « لا .. يجب أن تبقيا فإنى باق » . ثم طرق المائدة بيده فى عنف وقال : « لا . لا . أنا باق هنا ولن أسافر » . ولم يقرر الموافقة على السفر إلا بعد العاشرة مساء ، وقال فى تصميم « ولكن لن يكون ذلك إلا غداً » . وبينما كان هندنبرج يدلف إلى فراشه ، جاء إليه بلسن لينبئه أن سيده وافق أخيراً على السفر إلى هولندا صباح الغد . ورغم ما كان يقاسيه من الإجهاد قرر المارشال العجوز الإسراع إلى القطار ، إلا أن بلسن نصحه بألا يفعل ذلك قائلا « يجب عدم إقلاق القيصر مرة أخرى فى هذه الليلة ، وفى الغد متسع للمقابلة » .

وبينما كانت نعمة النسيان قد حلت برأس القائد العام العجوز كان رئيس أركان حربه يعمل طوال الليل . لقد كان حل مسألة الأسرة أمرا هينا ، وقد لا يكون جرونر متفقا مع الاشتراكى الألمانى الذى قال « إن خير خدمة يؤديها غليوم لبلاده بعد أن حكمها مدى ٣١ عاماً هى مغادرة البلاد » . ولكن مما يخفف الأمور على كاهل الإنسان قدرته على الاهتمام بالمسائل الخطيرة .

وكان أهم ما يشغله عودة الجيش الألمانى إلى البلاد فى نظام تام وإنقاذ ألمانيا من الثورة البلشفية . وقد أبلغت شروط الهدنة إلى سبا فى نفس اليوم ، ومن شروطها جلاء الجيش الألمانى عن بلجيكا وعن الألزاس واللورين فى مدى خمسة عشر يوماً ، حتى تتمكن قوات الحلفاء من احتلال الضفة اليسرى لنهر الراين ، ويتسلم المنتصرون كل الأسلحة الألمانية . وكان من الضرورى أن يكون لدى

ألمانيا حكومة قوية تستطيع المساومة فى هذه المطالب ، وكان مفتاح الموقف فى برلين . وأمسك جرونر بالتليفون الذى يربط القيادة العليا مباشرة بمكتب المستشار وقال البرنس ماكس لإبرت بعد الظهر قبل سفره إلى بادن حيث كانت هنالك ثورة صغيرة « اعمل كل مافى وسعك للبلاد » ، وأجاب إبرت حزيناً « لقد أعطيت الدولة اثنين من أبنائى » ، ولكنه ما كان يدرى تماما خدماته المقبلة لبلاده . كانت الهزيمة مضافة إلى الحرب الأهلية تفزعه وليس أمامه من يستطيع الاعتماد عليه ، لقد جلس حزينا يستمع إلى ضجيج الجماهير تحت نوافذ حجرة المستشار .

ثم دق جرس التليفون وأمسك بالسماعة فى عصبية ظاهرة ، وسرى عنه كثيراً صوت جرونر ، إذ أن كلا من الرجلين يعرف الآخر ويجله ، ودخل إلى لب الموضوع من أقصر الطرق وسأل « هل إبرت يرغب فى إعادة النظام؟ » فقال إبرت بكل حماسة « نعم » ، وانتهى الرجلان إلى اتفاق سريع : يعمل جرونر على استتباب النظام فى الجيش وإعادته إلى البلاد فى نظام تام . ويعاون إبرت ضباط الجيش فى القضاء على البلشفية ، ويعمل على ألا يحول أى شىء دون انتظام حركة المواصلات . وكان من المتفق عليه بقاء هندنبرج على رأس الجيش .

ولقد حدد هذا الحديث التليفونى مستقبل الجمهورية الألمانية . سيؤيد الجيش الحكومة الثورية ، وعلى هذا الأساس سوف تكون قادرة على تحمل مسئولية المدنة . وربما لم يدرك إبرت أنه كان يسلم الحكم الجديد للجيش إلا أن جرونر الماهر فى تدبير الخطط الحربية كان لديه مما يبرر استسلامه لنوم هادئ عميق : لقد أديت الأعمال الهامة التى يتطلبها ذلك اليوم .

وفى هذه الأثناء كان غليوم مهتما بمسألة خاصة له . ففى منتصف الساعة

الخامسة من صباح يوم الأحد العاشر من نوفمبر غادر قطاره محطة سبا إلى جوف الليل الملىء بالضباب . وكان من بين من لم يعلموا بسفره قبل الفجر رئيس وزارته المدنية المعين حديثاً كلمنزفون دلبروك، ومع أنه سارع بمغادرة برلين فى الليلة السابقة ليموت بجوار سيده ، تمكن من اجتياز الحصار الثورى ، إلا أنه عقب وصوله إلى سبا بعد شروق الشمس بمدة وجيزة عرف والأسى يملأ جوانحه أنه قد تأخر بضع ساعات عن موعد لقائه مع الموت .

ولم يحدث أى خطأ فيما اتخذ من ترتيب لنجاة القيصر . وقد خرج سائقه من المدينة فى أثناء الليل فى سيارة جردت من أية إشارة تشير إلى صاحبها، على أن ينتظر على مقربة من سكة الحديد على بعد بضعة أميال من الحدود الهولندية . وانضمت إليه عشر سيارات أخرى فى الطريق فى المكان المعين، وكان الضوء الصادر منها خافتا بسبب الضباب الكثيف الذى ملأ الجو عند وصول القطار الذى يقل الإمبراطور . وكان الظلام ما يزال مخيما فى المكان . وسار غليوم وقد التف بمعطفه إلى سيارته التى فى المقدمة ودلف إليها، وركب من معه السيارات الأخرى .

ووصل الركب إلى إحدى نقط الحدود عند أيدن فى الساعة ٧٫٣٠ صباحا قبل وصول أى موظف هولندى ذى مكانة يستطيع التصرف فى مثل هذا الموقف . ولما جاء الموظفون عاملوا اللاجئين بأدب جم ، ولكنهم صمموا على مراعاة بعض الرسميات .

فقد أعيد بعض أفراد الجماعة من ضباط الجيش على أساس أنهم من رجال الحرب ، كما طلب من غليوم أن يودع سيفه لدى إدارة الجمرك لحفظه بها . وبعد قليل وصل إلى قلعة أمرنجن فى هولندا التى سوف يقضى بها الأشهر الأولى من منفاه المريح . وقال لمضيفه بعد أن مد رجليه أمام الموقد طلبا للدفء « والآن

ياعزيزى الـكونت «أود أن أشرب فنجانا من الشاى الإنجليزى الساخن» .

وبعد يومين وصل إلى هولندا ولى العهد، مع أنه وعد قواد فرقته وعداً أكيداً بأنه باق فى الجيش . ولربما سجل التاريخ من حوادث الهجرة ما كان آلم أو أبعد عن اللياقة من هذه الهجرة، ولـكن قل ما كان أكثر ضعة منها .

ومن الناحية الرسمية البحتة لم تنته مدة حكم الهوهنزولرن البالغة ٢٥٠ سنة إلا فى الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٩١٨، عندما وقع غليوم وهو فى منفاه وثيقة التنازل عن العرش بوصفه ملك بروسيا وإمبراطور ألمانيا (وتنازل ولى العهد عن حقوقه فى العرشين فى أول ديسمبر). وهكذا انتقل واجب رعاية حياة ستين مليونا من الألمان الذين أنهكتهم الحرب وكذلك عبء قبول شروط الهدنة الجائرة التى أملاها الأعداء المنتصرون — إلى رجال الحـكم الجديد فى برلين . فهم الذين عليهم رأب الصدع ولم الأشلاء المبعثرة .

ولم يكن فردريك إبرت وزملاؤه من دعاة الثورة . فقد ظلوا منذ سنة ١٩١٤ يؤدون جلائل الأعمال التى يتطلبها تقوية الجيش الألمانى، واكتسبوا بذلك لقب الاشتراكيين الصالحين، ولبى إبرت رجاء البرنس ماكس فون بادن، وقبل أن يكون مستشار الدولة لبس السترة الرسمية والياقة المنشاة، ولم تـكن آراؤه أشد تطرفا من الدوق الذى حل محله . وقد كان يؤيد مثل البرنس ماكس حكومة حرة نيابية شبيهة بالحـكومة البريطانية، وكان يود إقامة نظام الوصـاية فى شخص أصغر أبناء غليوم البرنس أو جست ولهلم . والواقع أن نظام الحكم فى ألمانيا قد تقرر دون أن يشترك إبرت فيه . فبينما كان يتناول غداءه مع زميله شيدمان فى مطعم الريشتاج بعد ظهر يوم ٩ من نوفمبر، اقتحم المبنى وفد من العمال لإلقاء كلمة . فترك شيدمان غداءه، ولما أطل من الشرفة أنبأه أحد أتباعه أن ليبنخت يعتزم

أن يعلن قيام حكومة جمهورية سوفيتية من القصر الإمبراطوى . فألقى شيدمان خطابا قصيرا على الجموع الثائرة وختمه بفضل سرعة بديهته بهذه العبارة « لقد تقوضت الملكية البالية الفاسدة . فلتحيا الحكومة الجديدة ، ولتحيا الجمهورية الألمانية » وهكذا قامت الديمقراطية ارتجالا لتمنع قيام ثورة جماهيرية .

وقد احتدم غضب إبرت لإعلان صاحبه الذى صارت له الغلبة ، ولكنه أدرك أنه ألقى خطابه فى الوقت المناسب . فلقد كانت الجموع ذات الوجوه الكالحة والملابس الرثة تتدفق من الضواحى إلى قلب المدينة ترفرف فوق رءوسها الأعلام الحمر ، ومعها من أطلق سراحهم من المسجونين وأسرى الحرب فى هرج شديد . وعندما أطل فون بيلوف — وهو رجل عجوز — من النافذة فى فندق ألدون رأى أن دنياه قد زالت قال « قلما رأيت من قبل مثل هذه البشاعة . لقد رأيت عدداً من الشبان وعلى أذرعتهم شارات الديمقراطية الاشتراكية ، وكانوا لا يسيرون فرادى وينقضون على أى ضابط يلبس الصليب الحديدى أو شارة التقدير ، ثم يوثقون ذراعيه إلى جانبيه ويمزقون الشارة على كتفه » .

وكان يبدو للمراقب السريع التأثر أن أول يوم فى حياة الجمهورية الألمانية — ١٠ نوفمبر — هو آخر يوم فى حياتها .

وكان فى عناوين الصحف الكبيرة التى نشرت نبأ رحيل القيصر بعض ما أقلق أهالى العاصمة عندما كانوا يقرءون الصحف ويتناولون طعام الإفطار . والصحف نفسها فى كثير من الأحوال لبست أثوابا جديدة ، فمثلا صحيفة لوكال انتسايجر صارت (العلم الأحمر) ، ولكن إبرت كان — مع ذلك — يعتقد أن الأمور لم تسؤ إلى الحد التى تدل عليه الظواهر : واعتمادا على اتفاقه التليفونى مع جرونر شرع يعمل فى الحال على إقامة حكومة مؤقتة — وهى من مستلزمات اتفاق الهدنة ، وليضطلع بأعباء الحكم إلى أن يتم انتخاب الجمعية

التأسيسية ،وأخذ يغرى الاشتراكيين المستقلين على الانفصال عن جناحهم البلشفى المتطرف ، بأن عرض عليهم الاشتراك معه فى الحكومة . وبعد أن قضى يوماً كاملا وطرفاً من الليل فى جدال عنيف وتهديد خطير أمكنه أن يصل إلى هدفه بإقامة حكومة مؤقتة ، لكنها قانونية وقوية ، تستطيع أن تتكلم باسم الجمهورية الألمانية الجديدة .

وفى الساعة ٢٫١٥ صباحا من يوم ١١ من نوفمبر أبلغ إرزبرجر هذه الأنباء السارة إلى مندوب الحلفاء الخاص بالهدنة فى ريتوند . وبلغت محادثات الهدنة آخر مرحلة فيها (وإلى هذه اللحظة لم يكن لدى إرزبرجر ما يمكنه من القول بأنه يمثل أولا يمثل حكومة ألمانية مختصة بقبول شروط الهدنة من الحلفاء . وكان الفرنسيون أكثر ارتباكا لجهلهم بسير الأمور فى برلين ، وحاول إرزبرجر مرة فى تلك الظروف أن يفسر برقية وردت إليه تنتهى بهذه الكلمات « المستشار الإمبراطورى شلوس » إذ لم يتبين ما إذا كانت البرقيـة تدل على ظهور قائد جديد للثورة فى برلين أم لا ، لأن شلوس معناها فى الألمانية «قف» . وبعد ثلاث ساعات وخمس دقائق انتهى التوقيع الرسمى على اتفاقية الهدنة التى أنهت أعظم حرب حدثت فى العالم حتى هذه اللحظة .

والسرور الذى أخرج الناس عن وقارهم والذى حيوا به أنباء وقف القتال فى باريس ولندن وفى الولايات المتحدة لم يكن له إلا صدى ضعيف فى برلين ، التى كانت لا تزال تردد صدى انهيار الملكية . وبالنسبة إلى الألمان غطى على سكون الخنادق زمجرة الجماهير الثائرة فى الشوارع ، وكان وقف القتال فى الغرب نذيراً بقرب نشوب حرب أهلية فى ألمانيا .

الفصل الثامن عشر

سقوط بيت هابسبرج

عند غسق اليوم الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وبينما كانت الجماهير السكرى من الفرح تهتف وتغنى فى ميدان التايمز والشانزليزيه وبيكادلى احتفالا بانتهاء الحرب ومولد الأمل ، مرت سيارتان بجانب الحراس ذوى الملابس الرثة الواقفين عند الباب الخلفى لقصر شونبرون ، وهم بعض الحرس الوطنى النمسوى المنشأ حديثاً ، ومع أن السائقين كانا من رجال الحاشية الإمبراطورية الموثوق بهما، إلا أن السيارتين كانتا من سيارات الأجرة العادية .

وفى تلك اللحظة كان عمال مصنع فلورسدورف للصلب قد قاموا بمظاهرة عند مدخل القصر الرئيسى ، فخرج السائقان لاستعارة سيارتين لكيلا يلفتا النظر إلى ركابهما العظام . وكانوا: زوجين شابين يبدو عليهما الإجهاد، ومعهما عدة أطفال بيض البشرة مأمورين بالتزام السكون . وهم كارل إمبراطور النمسا ، وملك المجر وزوجته الإمبراطورة زيتا وأولادها الخمسة ، ومعهم ما اتسعت له السيارتان من متاع فى طريقهم إلى المنفى . وكان المكان الذى يقصدون الالتجاء إليه مؤقتاً قلعة إكارتساو الباردة، على بعد خمسة عشر ميلا من المدينة التى كانت تابعة فى ذلك الوقت لمملكة المجر .

وقد كانت الثورة قد نشبت فى فيينا ، وزادها اشتعالا أنباء الانقلاب الذى حدث فى ألمانيا . ومع أن كارل كان قد تنحى عن الحكم راضياً ، وكان وزراؤه السابقون فى تلك الآونة يجلسون جنباً إلى جنب مع الوزراء الاشتراكيين الذين خلفوهم فى الوزارات الإمبراطورية الملكية ، يبصرونهم فى يسر وسهولة بأعبائهم الجديدة ، ويتبادلون معهم النكات القديمة على الموقف ، إلا أن حالة الجماهير

الجائعة فى المدينة كانت غير مستقرة . وكان يبدو أن من الحكمة من جميع الوجوه أن يغادر الملك المخلوع وأسرته المدينة فوراً دون أن يلفت النظر إلى خروجه .

ويبدو لذوى النظرة السطحية أن فرار آخر أباطرة بيت هابسبرج من عاصمة أجداده يفتقر إلى شيء من الطرافة الدرامية ، رغم ما تتطلبه الظروف من عجلة . وكان يبدو على كارل التأثر أكثر من الأسى . ولم يكن من الواضح تماماً معرفة الأثر السريع لهذا الحادث، شأنه شأن كثير من الأحداث الفاصلة فى تاريخ هذه الأسرة التى ظلت تحكم ثلاثمائة سنة كاملة .

ومع أن كارل كان فى الواقع قد غادر البلاد نهائياً ولن يسترد أى تاج من التيجان الكبيرة التى أجبر على التخلى عنها ، إلا أنه لم يدرك أن القصة وصلت إلى نهايتها . وقبل كل شيء لم تكن هذه أول مرة يجبر فيها أحد أفراد أسرة هابسبرج على مغادرة فيينا نتيجة للثورة . ولكن حادث سنة ١٨٤٨ يعتبر سابقة يمكن الاستناد عليها فى احتمال عودة كارل . وعند ما نزل عن عرشه حرص على ألا ينزل عن حقوقه . وقد كان لا يزال من الوجهة الفنية ملكا على المجر . ورغم أنه لن يحكم بوصفه إمبراطوراً ، فقد كان من العسير عليه — وعلى أى واحد غيره — أن يلم إلماماً تاماً بحدود الإمبراطورية التى نزل عنها . ولم تكن الخلجات الأخيرة لهذه الدولة الثنائية أقل غموضاً من الحالة القانونية لهذه الدولة . وزاد من ميوعة الموقف والجو الذى ساد نهايته غير الحاسمة إلى حد ما، اختيار ميعاد رحيل الأسرة الإمبراطورية . فلو أن ذلك قد تم قبل موعده بيومين لكان أكثر خطورة ، ولو أنه تم بعد بضع ساعات فلربما عد عملا بطولياً .

إلا أن كارل فشل فى اختيار وقت رحيله ، كما فشل فى معظم أعماله إبان حكمه القصير .

ومن العسير أن نجعل من الخطوب التى تعكر صفو الحياة مأساة عظمى ، ولكن رغم البساطة السطحية أو تنافر الأحداث ، كان انهيار أسرة هابسبرج مأساة حقيقية ، لا من حيث نتائجها التاريخية النهائية فحسب ، بل من حيث طريقة حدوثها . ولقد ورث كارل تقاليد الهزيمة من الأسرة ، ومع أنه كان لا يحسن التصرف فى أى أمر حتى فى المصائب ، إلا أنه أيد ذلك التقليد إلى أقصى حد . وإذا كانت القصة يعوزها الجانب الدرامى ، فإنها جمعت فى شكل عجيب واضح بين حتمية القدر وبين الشعور بإمكان تجنب وقوع الكارثة. وهى تذكر المرء بطائرة أفلت قيادها من السائق عند الهبوط ، وقد تغلبت على عدة صعاب صغيرة ونثرت قطعاً من الحطام الملتهب على مدى ميل كامل من مكان الهبوط ، ثم تنتهى الرحلة باصطدامها وتحطيمها . وكان كارل هو ربانها التعس الذى جاهد بكل شجاعة دون جدوى إلى اللحظة الأخيرة مع القدر الذى لا يرحم ، ومع أخطائه هو .

ومن عجب أن فشله ظل مثيراً لدى رجال الفكر إلى الوقت الحاضر، فهو لم يكن وحشاً جباراً مثل عبد الحميد ، ولا قزماً عاجزاً مثل نقولا ، ولا مخادعاً مثل غليوم . كان من الممكن أن يكون كأى واحد منا لولا أنه حسن النية أكثر من معظم الناس ، وأقل اكتراثاً بالشدائد ، وأكثر صبراً لأحداث الأيام .

إن هذا الوريث لأمجاد ستة قرون ، وفروسية القرون الوسطى ، يكاد أن يتقمص شخصية من يتوق لأن يكون بطلا جديداً فى العصر الحديث : « الابن الصغير فى قبضة الظروف الجبارة » إن مأساة هذا الرجل جديرة بأن تروى .

إن كارل — كما ذكرنا من قبل — خلف عمه العظيم فرانسيس جوزيف فى الحادى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩١٦ ، الذى كان ينتظر قضاءه المحتوم بما

جبل عليه من وقار عادى خالص . لقد كان مصاباً بالتهاب رئوى ، ولذلك طلب إليه أن يغادر مكتبه مبكراً فى الليلة السابقة ، ولـكنه ترك تعليمات بأنه على استعداد للمقابلات فى الصباح كعادته . غير أنه فارق الحياة قبل طلوع النهار . ولم تـكن كاترينا شرات صديقته الوحيدة حاضرة . فقد رأى أن يجنبها رؤيته فى أثناء مرضه . وأرسلها إلى كوخه الحديدى فى صحبة كارل وهو فى التاسعة والعشرين . وكان عمه يدعوه بالرجل الطيب . وبعد أسبوع — عندما انتهت الصلاة على الميت ، وأقيمت الشعائر الدينية التى لاتؤدى فى الوقت الحاضر إلا عند دفن البابوات ، وسار الإمبراطور الشاب على رأس موكب الجنازة فى شوارع فيينا — اعتقد بعض المشاهدين أنهم رأوا آية استئناف العلاقة بين شعب فيينا الجائع الذى أنهكته الحرب وبين الأسرة الحاكمة ، إذ أن الشعب لم ير الإمبراطور السابق منذ أمد طويل ، وقد أصبح أسطورة فى خيالهم . وهاهوذا شاب متواضع ، تبدو عليه مظاهر الشباب فى ملابس الميدان عارى الرأس ، ويمشى بينه وبين زوجته ذات الجسم الضئيل المجلل بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها ، ابنه أوتو فى سترته وجوربه البيضاء وشعره الذهبى والملابس العادية المهندمة لطفل فى الرابعة من عمره فى تلك الأيام . وفى هذا العالم الذى يسير قدماً نحو التفكك كان هذا دليلا قاطعاً على اطمئنان الطبقة الوسطى الذى لن تراه فيينا ولا الإمبراطورية مطلقاً فى الأيام القادمة . لقد كانت الجنازة ذاتها شيئاً آخر : كانت آخر تأكيد قوى للتقاليد العظيمة . وبينما كان جثمان الإمبراطور السابق يرقد رقدته الأبدية ، كانت كل ساعة تمر تتقاضى ضريبة باهظة من أرواح الشباب التى كانت أجسادهم المتعفنة تتحول إلى تراب فى ميادين القتال فى فردن ونهر السوم وإيزونزو حيث يحاصر النمسويون والإيطاليون للمرة التاسعة فى معركة هائلة غير حاسمة . وقليل جداً ممن كانوا على جانبى الطريق فى فيينا هم الذين لم يدركوا أن مايشهدون إنما هو مجدهم الغابر الذى يشيع إلى مقره الأخير .

شهد أمريكى الفخامة التى صاحبت موكب الجثمان قبل أن يسمح بوضعها مع أمثالها فى كنيسة كابوشين . ومما روى أنه عندما اقترب الموكب من المدفن تقدم فارس مدجج بالسلاح ، وطرق الباب المغلق ، وعند ذلك أطل راهب ملتف فى عباءة من نافذة صغيرة ثم سأل « من بالباب ؟». فـكان الجواب « جثمان صاحب الجلالة المعظم إمبراطور النمسا وملك المجر فى حاجة إلى أن يلج المدفن » .

فأجاب الراهب « لا علم لنا بمثل هذا الشخص هنا ، وهأنذا أكرر من بالباب؟ » .

عندئذ قال الفارس وهو ينحنى فى تواضع « أخ مسكين مخاوق مثلنا يرجو الدخول ليرتاح الراحة الأبدية » .

فقال الراهب « ادخل » ، وعند ذلك فتحت الأبواب ، وحمل اللحادون الصندوق الثقيل وأودعوه المدفن المظلم .

لقد مات فرانسيس جوزيف ، ودفن وفقاً للقوانين القديمة قدم الأسرة الحاكمة ، ولـكن لم تـكن هناك قوانين لموت الأسرة ذاتها، ولفناء الإمبراطورية التى كانت تحكمها . وكان الشاب الضعيف الذى كان عليه أن يؤدى الدور الأخير لا علم له بتلك القوانين — لأنه لم تـكن هناك قوانين — ولم يزد صوته على المستوى العادى .

وكان كارل ابن أوتو المشهور « أكثر الدوقات أناقة » الذى مات فى عام سنة ١٩٠٦ بسبب الإفراط الشديد فى الأكل والشرب ، وكان الوريث بعد موت عمه فرانسيس فرديناند الذى حرم أولاده من وراثة العرش ، وأشرف على تعليمه أمه البسيطة وقساوسة الجزويت ، وكان مستوى تعليمه متوسطاً كما كان

العرف وقتئذ بالنسبة لأبناء الأسر الملكية . وانتهت مرحلة تعليمه بدخوله جامعة براج حيث عرف — مالم يعرف أحد من آبائه — آمال الأقليات دون أن يبصر بمشكلة حكمهم المعقدة . ولقد قضى كارل السنتين الأوليين من الحرب فى كثير من المدن المحصنة ، وعلى رأس بعض فرق الجيش فى الجبهة الإيطالية حيث كان محبوباً من رجاله لبساطته .

ونظراً لأنه كان إمبراطوراً من أسرة هابسبرج أو فى الواقع أحد أفراد هذه الأسرة — كان رجلا ذا شذوذ عجيب ، فمع أنه أكثر أعضاء الأسرة تمشياً مع العصر الحديث، وأكثرهم استنارة فى الشئون السياسية والاجتماعية منذ عهد الإمبراطور المستبد الطيب جوزيف الثانى — وكان له ثلاثة تليفونات على مكتبه ويحب قيادة السيارات بسرعة فائقة — فقد كانت له فى كثير من الوجوه شخصية القرون الوسطى . ومع أن فضائله كانت بورجوازية أكثر منها بطولية إلا أنه يذكر أحياناً الأبطال الدينيين مثل سانت لويس ، وإدوارد المعترف (يبدو أن أسرته رغم شدة تدينها أحياناً لم تنجب حاكما أكثر منه تديناً) ، ونظراً إلى أنه جاد فى طباعه متمتع بنشاط الشباب وحماسته ، عظيم الثقة بسائر الناس ، لم يكن محبباً للمطبوعين على السخرية من قدامى رجال الحاشية الذين لا شك كانوا يهزأون بحبه الفطرى لفعل الخير أحياناً .

ولم يكن لكارل معتقدات دينية قوية فحسب ، بل كان يعبر عنها ملتزمة نصوصها الدقيقة مما كان يربك حاشيته ، سواء فى الناحية السياسية أو فى الحياة الخاصة . ولئن عد عدم احتساء الخمر شيئاً غريباً لا ضرر منه فإن عدم الموافقة على إلقاء القنابل على مدن الأعداء وتدمير ما لديهم من كنوز الفن كان مما يعده الكثيرون من الخلل العقلى الخطير .

فى الواقع كان كارل عدواً لدوداً لـكل ضروب العنف سواء أكان قانونياً أم غير قانونى ، وكان يعده منافياً للمسيحية . كان يتحدث مرة مع الـكونت إردودى ، وهو أحد أصدقاء الطفولة وأحد أعضاء المجلس الحربى ، فجرى الحديث بينهما سهلا ، حتى إن الـكونت بدأ يفخر بأنه يستطيع تقليد توقيع الإمبراطور تقليداً دقيقاً ، فضحك كارل ببساطة ، ثم أربدوجهه فجأة . وبأسلوب أشد صرامة من أسلوبه المعروف رجا إردودى ألا يستخدم كفايته الآثمة فى إعدام أى شخص بتوقيع إمبراطورى مزور . وفى مناسبة أخرى متصلة ببعثة أمراء بوربون بارما السرية روى إردودى أنه اضطر إلى إلقاء أحد الجواسيس فى بئر السلم ، فصاح الإمبراطور « أرجو ألا يكون الشاب المسكين قد كسر عنقه » ، وحدث مرة فى إحدى ليالى شهر فبراير سنة ١٩١٨ أنه بينما كان كارل مسافراً إلى بودابست ، وصلت إلى القطار الإمبراطورى برقية تلتمس العفو عن أربعة عصاة كان اليوم موعد إعدامهم ، ولم ير رئيس الحرس الإمبراطورى أن من المناسب إقلاق سيده وهو نائم بمثل هذه المسائل التافهة ، ونفذ الإعدام فى موعده . وعندما استيقظ الإمبراطور وعلم بأمر البرقية احتد مع مساعده وخاطبه بعنف قائلا « كان عليك أن توقظنى ، ما أنا إلا رجل كسائر الرجال » .

وطالما حاول عبثاً أن يطبق المثل العليا المسيحية فى الأعمال السياسية . ولـكن محاولاته فى هذا الشأن كان يعوزها الإصرار القوى . وكان من السهل أن يثنيه عن فـكرته من يحيطون به من رجاله مع أنه لم يكن فى ضعف قيصر روسيا ولا فى تردد قيصر ألمانيا وعدم ثباته .

وكانت زيتا التى اقترن بها سنة ١٩١١ قد قوت لديه الاعتداد بالهدف ، ولو أن حكمها على الأمور كان أبعد عن الصواب من حكمه ، وكانت امرأة نشيطة

راغبة فى أن يكون لها دور فى سياسة الدولة ،وكانت تميل بلا شك إلى التحكم والتسلط فى بعض الأحايين . وكما كان زوجها أقوى خلقا من نقولا ، كانت زيتا أحسن صحة وأقوى عقلا من اسكندرا ، ولـكن لم يكن لديها من الوقت مايسمح لها بالتدخل ،فبين سنة ١٩١١ وسنة ١٩٢٢ أتحفت الأسرة بثمانية أطفال، وكانت شديدة الاهتمام بالقيام بواجبات الأمومة كلها ، وكانت من الناحية السياسية أشد رجعية من زوجها ، وبينما كان كارل يبغى تطبيق المبدأ الفيدرالى للدولة ، وهو المبدأ الذى تمخضت عنه عقول أشجع رجال فرانسيس فرديناند وأغروه بقبوله قبل مقتله، كانت زيتا — كما يقول بعض النقاد — ترى فى النظام الفيدرالى المقترح مجموعة من الدوقيات والممالك التى يرأس كل منها أمير من أسرة بوربون بارما ، ولم يكن كارل — رغم ديمقراطيته ونظرته الحرة للأمور مما دعا برلمانياً متحمساً لها وصفه بأنه إمبراطور الشعب — يتحدث فى المسائل الشعبية . لقد كان يعتقد فى رسالة الأسرة ، وكان اهتمامه بحماية الأسرة هو الذى جعله يريد تحرير شعوب الإمبراطورية .

وفى الوقت الذى ارتقى فيه كارل العرش كانت القوى الطاردة التى تعمل على تمزيق الإمبراطورية فى أوج قوتها.وفى أوائل الحرب أجل الـكونت شتورج رئيس الوزراء انعقاد البرلمان، ومما قاله (ماالبرلمان إلا وسيلة لغاية ، فإذا فشل فى مهمته فلا بد من استخراج وسيلة أخرى) .

وفى أكتوبر سنة ١٩١٦ أمام إصرار شتورج على رفض إلغاء القرار، أطلق عليه الرصاص شاب اشتراكى يدعى فردريك أدلر — الذى سيقوم فيما بعد بدور هام فى الحركة الشيوعية — ابن الزعيم الديمقراطى الاشتراكى فكتور أدلر فى أثناء تناول غدائه فى أحد المطاعم العصرية ،وأراد كارل أن يثبت ميله إلى الإصلاح

التحررى بدعوة البرلمان إلى الانعقاد فى ربيع سنة ١٩١٣ ، وصار البرلمان حينذاك المنبر العام لمطالبة الأقليات بالاستقلال .

وفى أثناء وزارة الكونت شتورج التى اتسمت « بالصمت والضغط » زاد الفساد الذى كان يسير بخطى سريعة لهدم أسس الإمبراطورية ، وكانت الأقليات قبل سنة ١٩١٤ لا تطمع إلا فى مساواتها بالعناصر التى كان لها الغلبة فى الإمبراطورية — الألمان والمجر — ولكن الألمان فى الإمبراطورية النمسوية الذين كانوا يحاربون مع الألمان فى ألمانيا جنباً إلى جنب لم يكونوا مستعدين للنزول عن شيء مما يستأثرون به من الحقوق، كما أن المجر كانوا يحتلون مركز الحراس على خيرات الإمبراطورية ، وهذه الأقليات التى يزيد عددها مجتمعة على عدد الألمان والمجر، الذين لهم السيادة السياسية فى البلاد، قد حولها الضغط فى أثناء قيام الحرب من فئات ناقمة ولكنها مخلصة ،إلى فئات منشقة متآمرة .

وأمام الحركات القومية التى كان أدنى ما تهدف إليه الاستقلال التام لم تكن آمالة فى قيام دولة فيدرالية بعيدة عن التحقيق فحسب ، بل كانت مبنية على الأوهام . والواقع أن كارل لم يكن لديه ما يهبه لها . وقد ترك نفسه يقع فى الفخ الذى وضعه له رئيس وزراء المجر الكونت تيزا بأن حثه على أن يذهب إلى بودابست ليتوج ملكا على المجر (وهو احتفال تجنبه فرانسيس جوزيف من قبل) ، وهناك أقسم على أن يحمى الدستور المجرى « وأن يحافظ على سلامة الأرض التى يحميها تاج سانت ستيفن » . وهذا القسم لم يحل دون تأييد حقوق الأقليات التى تظلمها المجر فحسب ، بل منعه من احترام الحياة النيابية فى بوهيميا، وهو ما وعد به عند اعتلائه العرش، وهى من البلاد التى تخضع جزئياً لسلطان المجر .

توجد صورة لحفلة التتويج بها كارل وزيتا وأوتو ولى العهد وهم يجلسون فى

جمود على كراسى مذهبة من طراز القصور الملكية القديمة التى انتهى عهدها. وعلى رأس كارل تاج سانت ستيفن وهو أكبر مما يليق برأسه، وبيده صولجان يمسك به بأسلوب غير لائق كأنه أحد التلاميذ. وكان عنق زيتا جامداً من أثر ما يحمله رأسها من الحلية الذهبية التى يعلوها صليب والتى يضغط على شعرها الأسود، وكان أوتو الصغير يبدو بشعره المجعد وعباءته المبطنة بجلد السنجاب والريش الذى عل رأسه، كأنه أمير سرك، ويدل مظهرهم جميعاً على أنهم قد لبسوا ما لبسوا لعمل استعراضى.

وقد أدرك كارل وزيتا معاً أن هذا الوضع كان لا أثر له ما داما مرتبطين بالمجر من ناحية وبألمانيا من ناحية أخرى، ولقد رأينا أن مفاوضات كارل السرية مع الحلفاء ليحصل لرعيته على السلام الذى تتوق إليه انتهت بالفشل. وفى نهاية سنة ١٩١٧ رأينا كيف أبدى جميع المتحاربين عزمهم على استمرار الحرب إلى النهاية إحقاقاً لقضيتهم العادلة. وفى السابع من أكتوبر أرسلت سبع فرق ألمانية لتقوية النمسويين فى جبهة إزونزو، وكان الشعور السائد فى ألمانيا أنه لا بد من نصر باهر ليزيل عن النمسويين الإحساس باليأس الذى استولى على نفوسهم، وقد رفعت روح النمسويين المعنوية الهزيمة المنكرة التى منى بها الإيطاليون الممقوتون فى كاپورتو، وهى التى أوحت إلى همنجواى بقصته « وداعاً للسلاح »، كما أنها جعلت النمسا أكثر تعلقاً ببرلين واعتماداً عليها.

وعندما أعلنت الحكومة الألمانية فى أكتوبر أن « ألمانيا لن تتنازل مطلقاً عن الألزاس واللورين » ردد صدى هذه العبارة فى خضوع تام وزير خارجية النمسا الكونت كزرنين وقال « نحن نحارب من أجل الألزاس واللورين كما يحارب الألمان من أجل تريستا »

ولقد كان الكونت سيئ الحظ الذى كشف دون وعى منه قصة أمراء البوربون هو الذى ألصق بالحكومة الفضيحة التى أدت إلى المحاولة الأخيرة. وكانت الأمور فى الربيع من سنة ١٩١٨ تجرى على ما تود النمسا، أكثر منها منذ بضعة شهور. لقد خرجت روسيا ورومانيا من الحرب وأصبح الجيش الإيطالى فى حالة عجز مؤقت، وأصبح أهالى دولتى الوسط بفضل معاهدة برست ليتوفسك أكثر أملا فى الحصول على قدر أكبر من موادالتموين، بل كانوا أكثر أملا فى تحسن الحالة عموماً.

وكان الهجوم الألمانى الكبير فى أثناء الربيع الذى أريد به ضرب الحلفاء ضربة قاطعة قد بدأ فى بيكاردى.

ورأى الكونت كزرنين وهو يتظاهر بالعظمة على مسرح اتفاقية برست ليتوفسك — أن الأمر يتطلب شيئاً من السيكلوجية الحربية، وقد أكد فى إحدى خطبه فى بلدية فيينا فى ٢ من أبريل أنه رفض أخيراً عرضاً فرنسياً لمفاوضات الصلح، لأن الشروط المقترحة صممت على إعادة الألزاس واللورين إلى فرنسا. (كان كزرنين يشير إلى محادثات جديدة سرية هى التى دعت إليها سويسرا من مندوبين فرنسيين ونمسويين، كانت النمسا على ما يبدو هى التى دعت إليها). وكان يريد بهذه العبارة الخالية من الفطنة تحية الفريق النمسوى بتقرير أن فرنسا هى التى تسعى للخروج من الحرب، رغم سياسة كلنصو التى أعلنها على رءوس الأشهاد بأن فرنسا ستحارب إلى أن تحصل على النصر.

وكان رد النمر موجزاً وقاسياً ونشرته الصحف، قال: «إن الكونت كزرنين يكذب»، ولم ير كزرنين أن تنتهى المسألة عند هذا الحد واشتبك مع كلنصو فى جدل

عنيف ، رغم أن مركزه كان ضعيفاً ، لأنه لم يكن على علم بالخطاب الذى أرسله الإمبراطور إلى پوانكاريه ، رغم أنه وافق على بعثة أمراء البوربون السرية منذ سنة مضت . ولكى يخرس كزرنين أذاع كلمنصو فى باريس أن لديه خطاباً من الإمبراطور بخصوص الصلح ، فأسرع كارل بإرسال برقية إلى القيصر يكذب ذلك ، فما كان من كلمنصو الذى لم يكن الصبر أقوى فضائله إلا أن نشر صورة الخطاب ليكون تحت نظر جميع الناس .

وكانت المسألة فى الموضوعات المعقدة التى تكون أحياناً حاسمة أكثر من المعارك العظمى أو الأفعال السياسية الخطيرة . كما كان فيها العنصر الهام فى مأساة حياة كارل نفسه . إذ بإجرائه مفاوضات للصلح وراء ظهر حليفه ضحى بأحد واجباته الخلقية من أجل واجب آخر ، واتبع وسيلة دنيئة للوصول إلى غرض شريف ، لقد اعتبر السلام فوق الشرف . ومع أنه تصرف وفق ظروف معينة فإنه لم يخضع لهذه الظروف خضوعاً تاماً . فقد وقف عندما كاد أن يصل إلى حافة الباطل . وبهذه البرقية إلى غليوم وقع فى الباطل . ولابد أن شعوره الشخصى بمعنى الشرف وضميره غير المتأثر بعرض الحياة الدنيا والذى ورثه عن أحد أسلافه فى القرون الوسطى كان فى نزاع مرير مع تقاليد الدبلوماسية المترنيخية . انتصر مترنيخ لأن سانت لويس أثبت أنه أصدق نصحاً .

وظهر إمبراطور النمسا كاذباً أمام العالم . ولم تكن أوربا قد وصلت فى تلك الأيام حتى إبان خلجات الموت التى كانت تعانيها إلى الحالة التى تستطيع أن تنتهك حرمة الآداب العامة . كان السفراء يكذبون — على أن الكذب أمر عادى لديهم — وكان رؤساء الوزارة لايتحرون الحقيقة فى أقوالهم وأعمالهم ، وربما عدوا المعاهدات كما فعل بتمان هولفيج قصاصات ورق . وكان الملوك أنفسهم يغشون

ويخدعون فى بعض المناسبات ، ولكنهم لم يوقعوا على أكذوبة رسمية ولا سيما فى كتاب يوجهونه إلى ملك زميل .

ولم يكن نشر برقية كارل إلى القيصر طعنة دامية إلى مكانته الشخصية بوصفه ملكاً فحسب ، ولكنها لوثت وطمست معالم السحر التى كانت تحيط بعرش أسرة هابسبرج ، الذى كان الصلة الوحيدة الباقية التى تربط بين شعوب الإمبراطورية . ولعل أخطر حلقة فى سلسلة الكوارث التى نتجت عن غلطة كزرنين التى ارتكبها بحسن نية (لقد خسر وظيفته بسببها ، ولكنه كوفئ بصليب سان ستيفان المرصع بالماس) أن كان على كارل أن يذهب إلى كانوسا ليتفاهم مع حلفائه البروسيين الذين كان يكرههم ويخشاهم حينئذ أكثر من أى وقت مضى . وكانت كانوسا فى ذلك الوقت مقر قيادة الجيش الألمانى فى سبا التى ذهب إليها كارل فى مايو . وكان ثمن العفو عنه — كما تقول أحد المصادر — الوحدة التامة الحربية والسياسية والاقتصادية بين الإمبراطوريتين ، وهى أوثق وحدة تمت بينهما فى أى زمن من الأزمان ، ولقد فقد كارل بذلك آخر فرصة لديه لأى عمل مستقل .

وإزاء هذا التطور سكت آخر المدافعين الأشداء عن آل هابسبرج فى معسكر الحلفاء ، وأصبح لايمكن الدفاع عن السياسة التى تقضى ببقاء الدولة الثنائية حتى لايختل ميزان القوى فى أوربا بسبب ألمانيا ، كما أصبح نداء بنيس بسقوط النمسا هو سياسة الحلفاء . وأيدت الأحداث التى كانت تقع داخل هذه الإمبراطورية المتداعية سياسة الحلفاء وقرارهم . ولم يكن الإمبراطور ولا وزارته المتعاقبة قادرين على عمل أى شىء إزاء موقف الأقليات العدائى ، وبلغت

الجلبة فى برلمان فيينا حيث كانت الأقليات تعلن حقوقها فى عنف شديد جداً لم يسبق له مثيل من قبل .

وأعلن أحد نواب التشيك فى يوليو سنة ١٩١٨ فى البرلمان « أننا نعتبر النمسا جريمة قديمة للقرون ضد الإنسانية . ومن أسمى واجبتنا القومية ألا نرعى لها عهداً كلما وأينما استطعنا . سنمقتها وسنحارب ضدها وسنحطمها بإذن الله تحطيماً » . وفى أكتوبر صرح نائب تشيكى آخر يدعى ستانك : « مع أن الشعب التشيكى لم يرق قطرة من دمه راضياً من أجل دولتى الوسط ، إلا أنه ضحى مسروراً بكل ما يمكنه ، إنهم قد عملوا كل مافى وسعهم لانتصار الحلفاء » ثم صاح قائلا : « إن يوم الحساب قريب » ولقد قوبل كلامه بالاستحسان من بعض النواب والصياح ورفع أغطية المكاتب من البعض الآخر . هذا وكانت الأقليات تقابل صيحات النمسويين الألمان « خيانة » بقذف ملفات الأوراق والمحابر .

وأخذت الدعاية للهزيمة والانفصال تقوى كلما وهنت آمال الربيع ، وأظلمت الدنيا فى نظر دولتى الوسط . ثم إن نجاح هجوم الحلفاء فى الغرب وافق هجومهم فى بلاد البلقان ، الذى بدأه من سالونيكا جيش الحلفاء بقيادة فرانشت القائد الفرنسى ، ولم يكن الكسب الذى حصلت عليه النمسا بمعاهدة برست ليتوفسك ليعدل الخسارة الاقتصادية التى منيت بها نتيجة لحصار الحلفاء .

ولم تكن النمسا فى أواخر صيف سنة ١٩١٨ قد تحولت إلى عدة قوميات متنافسة فحسب ، بل أصبحت جزرا مستقلة استقلالا اقتصادياً ، وتعادى الواحدة منها الأخرى . ومنعت المجر ما لديها من القمح عن سائر المناطق ، كما احتفظت كل منها بما لديها من مواد الغذاء . وأصبحت أسباب

المعيشة غير محتملة فى المدن وبخاصة فى فيينا . وصار ضغط الجماهير فى طلب الخبز والسلام أمراً لايمكن مقاومته .

وفى ٤ من أكتوبر انضمت الحكومة النمسوية إلى الألمان فى طلب هدنة من الرئيس ولسن مبنية على شروطه الأربعة عشر.

وفى السادس من أكتوبر دون انتظار الرد من ولسن بذل كارل دون جدوى آخر ما فى وسعه ليحتفظ لأسرته بشىء من المكانة فى خضم الأحداث حينذاك ، فأصدر بياناً اعترف فيه للمنطقة غير المجرية من الإمبراطورية بأن تكون دولة فيدرالية ذات استقلال ذاتى لشعوبها . ولقد أصر الإمبراطور على استثناء المجر فى هذا البيان تحت تهديد رئيس وزراء المجر بألا يمد البلاد بما يلزمها من مواد التموين إذا امتنع الإمبراطور عن الموافقة . وكانت النتيجة بطبيعة الحال أن فقد البيان ما كان يحتمل أن يكون له من أثر فى القوميات الثائرة، وفى استدرار عطف الرئيس ولسن .

وظلت الطبقة المجرية الحاكمة عاجزة كل العجز عن تناول مسألة الأقليات إلا من زاوية الجانب المجرى الطامع فى التسلط . وحاول كارل قبل إصدار البيان أن يضم المجر إلى جانبه ، وأرسل إليهم الكونت تيزا رئيس مجلس الوزراء المجرى من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩١٧ ليبحث معهم الوسائل التى تؤدى إلى العيش بسلام مع السلاف فى جنوب المجر . وقد بلغ سخط ذلك الكونت المسن على مهمته فى سراجيفو أنه عندما وصل إلى سراجيفو كشر عن أنيابه للأعيان الذين كانوا يدلون إليه بشكاواهم ، وعندما قالوا له : « ليس مستحيلا أن نغلب على أمرنا . ولكن لابد أن نقطعك إرباً قبل ذلك » .

وقاطع التشيك اللجنة التى وكل إليها تطبيق البيان · وغادر الاجتماع سلاف الجنوب ، وأبى الألمان أن يتدخلوا ، ورفض الأوكرانيون المشروع ، ولم يحضر البولنديون ، ولم تر الأقلية الإيطالية أن البيان يطبق عليها . وعد الأهالى بصفة عامة ، أن البيان يحمل الاعتراف بالفشل ، ولما أحست الحكومة الإمبراطورية باهتزاز الأرض تحت أقدامها انحطت روحها المعنوية .

وبدلا من أن يكون البيان دعامة لتقوية بنيان الحكومة المشيد من الورق ، كان هو معول هدمها وانهيارها ، وأصبحت المجالس النيابية بمقتضى النظام الفيدرالى الجديد برلمانات معدة من قبل للدول الجديدة التى تنشأ فى أقل من شهر من بقايا الدولة الثنائية العتيدة .

ووصل رد الرئيس ولسن على طلب الصلح فى ٢١ من أكتوبر ، وقد وصفه وزير الخارجية الجديد الكونت بوريان ، بأنه « القنبلة التى مزقت هيكل الدولة » وكانت النقط الأربع عشرة لا تطلب أكثر من « أوسع مجال للحكم الذاتى » للأقليات ، وهو مطلب أقره البيان الذى أصدره الإمبراطور · ولكن الرئيس الأمريكى فى مذكرته الأخيرة — وقد اعترف بالمجلس الوطنى التشيكوسلوفاكى حكومة الأمر الواقع — قرر أنه لم يعد حراً فى قبول مجرد الحكم الذاتى للتشيكوسلافاكيين واليوغسلافيين أساساً للصلح · وأصر على أن هؤلاء « هم الذين يقررون — دونه — ما يرونه محققاً لآمالهم » ، وهذه المذكرة مضافاً إليها سرعة تقدم جيوش الجنرال فرانشت قوت عزيمة القائمين بالثورة التى قسمت الإمبراطورية إلى أجزاء مختلفة ، وقضت على سلطان الحكم الإمبراطورى .

وكان التشيك أول من أفلتوا من الحكم الإمبراطورى · وقد سبق أن اعترف الحلفاء باشتراكهم فى الحرب معهم فى صيف سنة ١٩١٨ ، وفى ١٨ من أكتوبر

أعان مازاريك رسمياً استقلال تشيكوسلوفاكيا فى واشنجتون . ورفع العلم الجديد بألوانه الثلاثة على داره . وقدأراد بذلك أن يسبق تصرفه بيان كارل ، ويؤثر على الرئيس ولسن التأثير الصالح . وكان البيان الذى أذاعه فى هذا الشأن على حد تعبيره « مصوغاً فى عبارة تذكر الأمريكيين بإعلان استقلالهم » . وهذه التذكرة أفادت فعلا . وفى الواقع نبه الرئيس ولسن الإمبراطور كارل إلى أن الاعتراف باستقلال التشيك هو ثمن الصلح بل جزء من الثمن . وأملا فى حمل التشيك على الإبقاءعلى شىءمن العلاقة بالعرش النمسوى ولو اسمية — أبلغ كارل نص المذكرة الأمريكية إلى كبار القانونيين فى الأحزاب التشيكية ، وسمح لهم بالسفر إلى جنيف لإجراء محادثات مع بنيس الذى أصبح وزير خارجية الدولة التشيكية المؤقتة فى الخارج .

ولقد قضى أى أمل فى الاتفاق على بقاء العلاقة بين تشيكوسلوفاكيا والإمبراطورية نتيجة لما كان لمذكرة ولسن من أثر على الجماهير التشيكية عندما نشرت رسمياً فى براج فى ٢٨ من أكتوبر . وعلت صيحات الفرح من الجماهير التى كانت واقفة فى انتظار آخر الأخبار أمام إدارات الصحف ، عندما نشرت المذكرة . ثم أخذت الجماهير تملأ الشوارع وتتلف جميع الشارات الهابسبرجية من حوانيت الطباق والمبانى العامة . وحمل هذا الشعور الفياض الذى تجلى فى المظاهرات الوطنية الشعبية لجنة براج القومية على أن تقبض بيدها على أزمة الحكم . فى هذا الوقت كان الجوع والحرمان مخيمين على البلاد . فكان أول مبنى استولت عليه الجماهير مخزن الغلال الذى كان مقر هيئة التموين العامة . ولم يقاوم الموظفون النمسويون . وبناء على أوامر من فيينا سحب الحاكم العسكرى الجنود المجريين الذين كانوا يعملون فى الشوارع ، وحمل الموظفون النمسويون أمتعتهم وغادروا مستسلمين . وعندما حل المساء ورأى أهالى براج شباب النوادى الرياضية يحفظون

النظام فى شوارع المدينة فهموا أنهم حصلوا فعلا عن الاستقلال . وبعد يومين أعلن المجلس الوطنى التشيكى تأييده للاتحاد مع المناطق التشيكية فى بوهيميا ومورافيا وسليزيا (لم ينضم السلوفاك الذى كانوا خاضعين للحكم المجرى إلى الجمهورية إلا بعد طرد سادتهم القدامى سنة ١٩٢٠ ، وكذلك منطقة روثنيا التى تجاور الكربات التى نص الدستور على استقلالها الرسمى). وفى ١٤ من نوفمبر أعلن المجلس الوطنى فى أول جلساته حرمان أسرة هابسبرج من كل حق فى أراضى بوهيميا ، وأعلنت الجمهورية فى البلاد واختارت توماس مازاريك أول رئيس لها .

وكانت الشعوب السلافية الجنوبية ثانى من انفصل عن الإمبراطورية . ولقد حاربوا من أجل استقلالهم فى ظروف قاسية بوجه خاص . وقد تلقوا أول طعنة من آل هابسبرج ، وهى التى سببت للصرب أن تقاسى أربع سنوات من الموت والدماء . ومع أن الصربيين استطاعوا بعد أربعة أشهر من الهجوم النمسوى فى أغسطس سنة ١٩١٤ رد الجنرال بوتيورك وجيشه إلى الحدود ، إلا أنهم وقعوا فريسة للتيفوس سنة ١٩١٥ ، الذى قضى على ٣٠٠٠٠٠ نفس منهم كما تعرضوا لهجمات شديدة قام بها الألمان والنمسويون والبلغار . وفى شتاء ١٩١٥ — ١٩١٦ انسحب ما بقى من الجيش الصربى ، وانسحبت الحكومة والوصى البرنس اسكندر ووالده المريض الملك بطرس عبر جبال ألبانيا والجبل الأسود إلى ساحل البحر الإدرياتى ، وبعد هذا الانسحاب الذى لم يعرف له مثيل فى شدته فى جميع عهود التاريخ انتشل من بقى منهم ونقلوا إلى جزيرة كورفو فى سفن الحلفاء ، حيث قابل قادة سلاف جنوب الإمبراطورية المهاجرون ، الحكومة الصربية المنفية ، ووقعوا معاً فى ٢٠ من يوليو سنة ١٩١٧ عهداً مشتركاً بائتلاف الصربيين والكروات والسلافيين وعزمهم على إنشاء حكومة ملكية نيابية ديمقراطية تحت حكم أسرة كاراجورجفيك

وفى السادس من أكتوبر عقد مجلس وطنى من الصربيين والكروات والسلافيين فى زغرب ، وهى أكبر مدينة للسلاف فى جنوب الإمبراطورية، وسلم حاكم كرواتيا إلى المجلس بناء على تعليمات واردة من كارل أزمة الحكم فى ٢٩ من أكتوبر . وأعلن المجلس الوحدة مع الصرب، وقطع كل العلاقات بالمناطق النمسوية والمجرية . وفى ٤ من ديسمبر أعلن قيام دولة الصربيين والكروات والسلافيين والتى عرفت فيما بعد باسم يوغوسلافيا تحت وصاية البرنس اسكندر، الذى صار فيما بعد الملك اسكندر الأول . وهكذا تمت الوحدة بين سلاف الجنوب تحت القيادة الصربية التى من أجلها تآمر المتآمرون فى سراجيفو ، ومات من أجلها الشبان الثلاثة برنسيب وكابرينوفيك وجرابز الذين أفلتوا من حكم الإعدام لصغر سنهم، ماتوا بعد أن مرضوا بالسل فى السجن إبان الحرب ، ونقلت جثثهم سنة ١٩٢٠ إلى سراجيفو ، ودفنوا فى مقابر المدينة بجوار شركائهم الذى دفعوا حياتهم فى سبيل حرية بلادهم .

أما التلميذان اللذان حكم عليهما بالسجن .فقد أطلق سراحهما بعد سقوط الإمبراطورية، وحتى الأقلية البولندية فى الدولة الثنائية خرجت عليها . ولا يزال عالقاً بالأذهان أن طمع آل هوهنزولرن وآل هابسبرج وآل رومانوف إبان القرن الثامن عشر دعا إلى تقسيم بولندا وإزالة اسمها من الصور الجغرافى . وكان للنمسا الجزء الأصغر منها، وحظى البولنديون فى هذه المنطقة بمنزلة مرموقة ،وبلغ من القوة العددية للنواب البولنديين فى برلمان فينا أنه لم تؤلف وزارة إلا دخلوا فيها . وكان معظم البولنديين يعدون الألمان والروس هم المغتصبون لحقوقهم ، وكانت عداوتهم للنمسويين بسيطة . وتحول النواب البولنديون فى البرلمان النمسوى إلى صفوف المعارضة بعد معاهدة برست ليتوفسك ، والثورة الروسية . وفى الخامس عشر من

أكتوبر أبلغوا المجلس أنهم أصبحوا لا يعدون أنفسهم من رعايا الدولة الثنائية ـ وإنما هم مواطنون فى الدولة البولندية التى استردت كيانها .

وأثبت عازف البيان — أجناس بادروفسكى الذى كان على رأس جمعية المهاجرين الوطنية فى باريس —أنه فى دعايته لبولندا فى الولايات المتحدة لا يقل عن مازاريك فى دعايته لتشيكوسلوفاكيا ، وإليه يرجع الفضل فى أن يكون ضمن شروط ولسن الشرط الثالث عشر الذى يقضى بوجوب قيام دولة بولندا المستقلة بعد الحرب واتصالها بالبحر . وفى آخر أكتوبر أخذ النمسويون يجلون عن غاليسيا . وفى ١٤ من نوفمبر سنة ١٩١٨ قبض على أزمة الحكم فى وارسو بلسودسكى الذى أطلقته الثورة الديمقراطية الاشتراكية من السجون الألمانية ، وأخيراً توحدت الحركات الاستقلالية الثورية البولندية المختلفة .

وفى يناير سنة ١٩١٩ ألف بادروفسكى وزارة ائتلافية ، وأقيم بلسودسكى رئيساً للدولة .

وهكذا — حتى قبل قيام الثورة فى فيينا التى كلفت كارل عرشه — انفض عن أسرة هابسبرج كل الأقليات التى كانت تحكمها (وزيادة على من انضم إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا ويوغوسلافيا انضمت ترانسلفانيا إلى رومانيا واستردت إيطاليا المنطقة التى يغلب فيها العنصر الإيطالى) وبقى قلب الإمبراطورية : الدولتان الكبيرتان النمسا والمجر .

وبقى لدى كارل ولدى كل من يرى أن بقاء أسرة هابسبرج أهم من بقاء الإمبراطورية شىء من الأمل . وكانت النمسا — المجر حتى بعد أن أصبحت مقصورة على عنصريها الكبيرين دولة متوسطة السعة . ولم يكن هناك ما يمنع — من الناحية النظرية — من بقائها واحتفاظها بالملكية . ولكن كثيراً من العوامل

كانت من الناحية العملية لا تؤيد بقاءها ، مثل المبادئ الولسنية التى كانت تجتاح أوربا ، وكثرة أخطاء كارل ، وحالة القلق الاجتماعى الذى نشأ عن المجاعات فى المجر ، وتدهور الروح المعنوية لما تتوقعه النمسا من الهزيمة ، وضياع هيبتها وعدم قدرتها على مجرد البقاء لضياع معظم أجزائها ، وربما كان أكثر فاعلية من كل ذلك عامل التفتيت الذى أصيبت به .

كانت الكارثة النهائية التى منيت بها الإمبراطورية هى عندما بلغت سلسلة الحركات الثورية أقصى مداها فى المركز الألمانى المجرى فى الإمبراطورية ، وزاد اشتعالها اقتطاع أجزاء كبيرة من المناطق السلافية . وبينما كانت الثورات الوطنية فى الشعوب التابعة تنطوى على انتقال سلمى للسلطة من حكومة منهارة لا يعدو أن يكون اعترافاً لما سبق أن تم فى الواقع ، كان تفتيت قلب الدولة لابد أن يؤدى إلى انطلاق القوى المدمرة المتفجرة ، وكان فى نفس الوقت النهاية الاجتماعية والسياسية والوطنية ، النهاية الملكية والملكية الإمبراطورية . لقد بدأت هذه النهاية فى وقت واحد تقريباً فى عاصمتى أسرة هابسبرج ، وفى جبهة القتال .

وفى الرابع والعشرين من أكتوبر قام الحلفاء بهجوم شديد فى الجبهة الإيطالية عند نهر بياف ، وظل الجيش النمسوى يقاوم يومين كاملين ، يستمد القوة من تقاليده القديمة ومما امتاز به من تدريب طيب ، رغم أن الجنود كانوا فى ثياب رثة ، منهوكى القوى من الجوع والأنفلونزا والملاريا .

ويقول الكاتب الاجتماعى أتوباور فى هذا الشأن « فى جبهة القتال يبدو أن الإمبراطورية تعتمد فى بقائها على الوحدة الشاملة لجميع الشعب التى هى شعار الجيش » . ومع هذا فمن قلب الجيش ومن داخل الثكنات نشأت الثورة النمسوية .

ولم يكن العصيان نابعاً — أول ما نبع — من فرق العمال الصناعيين أو من

الأسرى الذين أطلق الروس سراحهم ، بل كان من أكثر جنود الإمبراطورية حماسة وأعظمهم بأساً من المجريين .

وبعد يومين من بدء هجوم الحلفاء أبلغ قائد أحد الفرق المجرية أنه بعد أن اصطف جنود إحدى الفصائل أمامه فى نظامها المعتاد ، تقدم منها أحد الجنود وأدى التحية وأنبأه أن الفصيلة ترفض أن تحتل المكان المعد لها ، وعندما صدر الأمر بالقبض على هذا الجندى صاحت الفصيلة كلها كما لو كانت ذات صلات واحدة « لانسمح بذلك » ، وكانوا لا يزالون واقفين فى نظام . وعندما سئلوا على انفراد أقسموا أنهم مستعدون للقتال إلى آخر نفس من حياتهم — ولكن دفاعاً عن حدود بلادهم — ونظراً إلى أن البرلمان المجرى كان قد طالب من قبل بعودة الجنود المجريين ، أصبح لا مفر من عودتهم مع جميع الفرق التى انتشرت فيها هذه الحركة . ومن الطبيعى أن من دعوا من الجنود ليحلوا محل جنود المجر — وقد سمعوا غناءهم وهتافاتهم لعودتهم إلى وطنهم — قد أصابتهم العدوى بعد قليل . وأعقب هذا عصيان فرقة البترول الشهيرة لما أصابها من الهزيمة والتقهقر ، وسار الجنود نحو وطنهم للدفاع عن أموالهم وأهليهم مما عسى أن يصيبهم ، وكل ماحدث فى الجيش من مآخذ فردية أو جماعية نشر الفوضى فى شتى الإمبراطورية .

وفى تلك الأثناء حدث اضطراب من نوع عجيب فى بودابست فمنذ عهد كوست انقسمت القومية المجرية بين حب عنيف للوطن وحماسة بطولية فى الجهاد ضد ظلم النمسويين ، وبين العزم الأكيد فى اضطهاد الأجناس الخاضعة لحكم المجر (يشاهد اليوم مثل هذا الازدواج فى قومية جنوب إفريقية وغيرها من القوميات التى كانت خاضعة للاستعمار) . وبلغ هذا الشعور أقصاه بسبب الهزيمة ومبادىء الرئيس ولسن .

وكلما زاد الشعور بحقوق الأقليات الوطنية زاد إقتناع المجر بأنهم جديرون بأن يشعروا هذا الشعور ، وطالما كانوا قادرين على مقاومة حركة التحرر بين الأقليات التي يحكمونها ، قاوموها بكل شدة . وعندما أصبحت المقاومة متعذرة عليهم انضموا للحركة كما ينضم حراس السجون إلى ثورة المسجونين الذين هم في حراستهم . وزيادة على هذه العدوى العاطفية أحس كثير من أصحاب الأملاك بأن خير وسيلة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في هذا الاضطراب العام أن يكونوا ديمقراطيين — وكانوا يشعرون في قرارة أنفسهم أن كل عظماء الرجال ولدوا أحراراً ومتساويين — ويعتنقوا مبدأ ولسن الظافر الذي ينص على حق تقرير المصير (الذي قد يجنب المجر ضرراً بليغاً لوطبق بأمانة) .

وكان قائد حركة المجر الوطنية أرستقراطيا ، وأصبح من المصلحين المتطرفين ، ويدعى ميخائيل كارولى ، ولئن كان من الغلو أن يقال إن زملاءه من كبار الملاك قد بهرتهم مبادئه فقد أحجموا لبعد نظرهم عن الانضمام إليه ، ثم أخذوا يدركون أن هذا الرجل الضال قد يكون يوماً ما نافعاً ، واتضحت فائدته فعلا عندما كان الجنرال فرانشت يقترب من حدود المجر ، لأنه كان من أنصار الفرنسيين ، فقد كان مبعداً في فرنسا عند قيام الحرب الأولى ، ولكن أفرج عنه بعد ذلك ليعمل — كما قيل — عند وصوله إلى وطنه على إنهاء الحرب .

وبدأ انفصال المجر عن الإمبراطورية وسط كثير من مناظر الإرهاب والعنف ، ففي ٢٤ من أكتوبر في بوادبست هجمت جماهير الدهماء على البرلمان ذي الأبراج والمبنى على الطراز القوطي على ضفاف الدانوب ، وحطموا المقاعد . وقامت اضطرابات عنيفة تحت صورة تتويج فرانسيس جوزيف لم تهدأ إلا بعد أن قدم رئيس الوزراء استقالته .

وهيأت الفوضى الناجمة عن هذا الموقف لكارولى فرصة التصرف ، فأعلن تكوين المجلس الوطنى المجرى تحت رياسته لتنظيم الانفصال عن النمسا ومنح حق الانتخاب لجميع الشعب ، والإصلاح الزراعى ، وسرعة الاتفاق على الصلح ، ورغم كراهية أعيان البلاد لعبارة الإصلاح الزراعى فإنهم لم يقاوموه ، وتركوا كارولى ينظم المجلس الثائر الذى أقامه لأنه منحهم خير فرصة للحياة . وفى البرلمان أعلن كارولى أنه صديق لفرنسا . (ومن الأسف أن فرانشت لم يؤثر فيه هذا هذا القول وفرض على المجر شروطاً صارمة للهدنة أجبرت بمقتضاها على الجلاء عن جميع المنطقة الجنوبية الشرقية من المجر) .

ورغبة من كارل فى إقرار ما لا يستطيع منعه ، عين — وهو لا يزال ملك المجر — كارولى رئيساً للوزارة تليفونياً من فيينا فى ٣١ من أكتوبر . وفى نفس الليلة لقى الـكونت ستيفن تزاحتفه ، وهو أكبر منافس لكارولى ، حيث اقتحم القتلة داره وقتلوه .

وأقسم كارولى يمين الولاء للملك ، ولـكن المظاهرات الشعبية امتلأت بها شوارع بودابست بعد أن رجع الجنود من جبهة القتال ، مما أجبره على الاستقالة بعد بضعة أيام ، فقد كان الرأى الذى أبداه مؤيدوه من الاشتراكيين أنهم « يريدون رئيساً للوزارة من قبل الشعب لا بناء على أمر ملكى » .

وزاد شعور الكراهية لدى العمال والفلاحين الألمان والنمسويين لما قاسوه من الويلات فى أثناء الحرب .

ومما نشرته إحدى الصحف النمسوية فى ٣ من نوفمبر أن الجنود الألمان الذين كان لا بد لهم أن يعبروا المجر فى طريقهم إلى بلادهم ، وصلوا إلى الحدود عراة ، وقد انتزعت منهم ملابسهم بما فيها الملابس الداخلية جميعها .

وكان التناقض العجيب — والمميت — فى انهيار إمبراطورية آل هابسبرج ما اكتشفه أخيراً الشعب النمسوى — وهو من الجنس الألمانى صاحب النفوذ فيما بقى من النمسا — أنه قومية مغمورة ، (وربما مقهورة على أمرها) فيها . ولقد ظل مشغولا ستمائة سنة كاملة يساعد الأسرة الحاكمة فى إدارة إمبراطورية متعددة القوميات إلى حد لم يكن لديه من الوقت ما يسمح بتنمية قومية خاصة به، وكانت القومية فى نظر النمسويين حتى أكتوبر سنة ١٩١٨ تبدو اضطراباً صبيانياً تصاب به معظم الأقليات القومية فى طور معين من أطوار تطورها . وأحسوا بصدمة عند ما تنبهوا إلى ذلك ، لأنهم كانوا أيضاً إحدى الأقليات دون أن يدركوا ذلك .

وعلى هذا فلهم أيضاً حق تقرير المصير الذى تحدث عنه ولسن ، والذى وعد إمبراطورهم الطيب كل شعوب إمبراطوريته به . واعتماداً على تصريح الإمبراطور الصادر فى ١٦ من أكتوبر، اعتبر النواب النمسويون فى مجلس الريخسترات أنفسهم « المجلس النيابى » الذى نص عليه التصريح تحت عنوان « المجلس الوطنى المؤقت للدولة الألمانية النمسوية » ، ولكى تكتسب قوميتهم التى عثروا عليها ، بل ليكتسب استقلالهم الصبغة الرسمية ،رأى النواب أن يجتمعوا فى الهرنجاسه حيث أعلنت ثورة سنة ١٨٤٨ . وتحت قيادة الأحزاب الثلاثة تكون مجلس لحكم الدولة الجديدة . وإن هذا التصرف ليعد انفصالا لو كانت هناك إمبراطورية باقية يمكن الانفصال منها . ولكنه لم يكن من قبيل الثورة الصريحة على أسرة هابسبرج . وأبدى الحزب الاشتراكى المسيحى ، وهو أحد الأحزاب الكبيرة ، فى صراحة تامة رأيه فى أن تكون أسرة هابسبرج حاكمة لدولة ملكية نيابية . وكان الديمقراطيون الاشتراكيون يرون من حيث المبدأ أن تكون النمسا جمهورية، إلا أن كثيراً من رجال الحزب كانوا متعلقين — كما تنبأ ستالين بهذا قبل

الحرب فى سخرية — بالأسرة التى كانوا يعارضانها فى ولاء تام . وقد اقترح أحد النواب الاشتراكيين للخروج من هذا المأزق قيام حكومة جمهورية بالنمسا يكون الإمبراطور كارل أول رئيس لها .

وعلاوة على أن المجلس ترك للتطورات المقبلة تحديد نوع الحكم فى النمسا الجديدة ، فإنه أغفل تعيين الحدود الجغرافية للدولة . ولذلك اشتكى المستشار الاشتراكى الجديد كارل رنر « إننا لانستطيع أن نحصل الضرائب حتى نعرف حدود المنطقة التى نحصلها منها » .

وقد أحجمت الحكومة الجديدة — انتظاراً لجلاء الأمور — عن طرد الوزارة الإمبراطورية الأخيرة برياسة هينريش لاماش أستاذ كارل القديم . وظل الوزراء الاشتراكيون الجدد ثلاثة أسابيع يجلسون فى مبنى الوزارة مع الوزراء القدامى يتعلمون منهم أوليات المسائل الإدارية .

ولم يقاوم رجال الحكم الإمبراطورى النظام الجديد . ومما أسر به كارل إلى أحد خلصائه « كل ما أتمناه هو أن تصفى الأمور فى سهولة ويسر » . وأحست حكومة رنر أن عبء التصرف مع الأسرة الحاكمة لا يقع على النمسا وحدها . وكانت الأحداث تقترب بسرعة من أزمة فاصلة .

وفى ٢٧ من أكتوبر تقدم كارل تحت شدة ضغط المجلس الحربى بطلب الاتفاق على الهدنة ، وتم الاتفاق على الهدنة فى ٣ من نوفمبر . وأدى عدم التحقق من موعد الهدنة ، إلى أن ألقى النمسويون السلاح قبل الإيطاليين . ويقول أحد الجنود — كورت فون شوشنج : « قوبلت أنباء الهدنة بارتياح . وأعقب هذا تجمع الجنود وهو أمر لم نفقه له معنى ... لأننا كنا نؤمن بأن أنباء الهدنة صحيحة ... إذ صدر إلينا الأمر بالسير فى نظام إلى الجسر المقام على نهر تاجليامنتو عند دنيانو ، وما إن

وصلنا إلى النهر حتى فوجئنا بالجنود الاسكتلنديين يأمروننا بإلقاء أسلحتنا . . .
وسألنا ونحن فى بالغ الأسى عن تفسير للأمر ، فكان الجواب أن الإمبراطور
والحكومة أرادا خديعتنا بإعلان الهدنة قبل موعدها لمنع الجنود من الرجوع
إلى وطنهم » .

وقد ترتب على هذه الهدنة الكاذبة أسر حوالى ١٠٠ر٠٠٠ نمسوى
حسنى النية فى أيدى الإيطاليين . وانطلق كثير من الجنود عائدين إلى بلادهم
بأية وسيلة من وسائل النقل استطاعوا أن يستخدموها تاركين أسلحتهم . واحتلوا
محطات سكة الحديد بعد أن داسوا على ضباطهم ، ثم امتطوا ظهور العربات
عند ما عجزوا عن العثور على غيرها من وسائل النقل .

ومما نشرته إحدى صحف فيينا فى ٧ من نوفمبر أن جثث ٢٩٧ جندياً وجدت فى
بضعة الأيام القليلة الأخيرة فى أنفاق السكة الحديد الجنوبية . ونظراً إلى أن معظم
الطرق الحديدية تتجه إلى فيينا ، فقد جاء إليها آلاف من الجنود ، وعمد الكثيرون
منهم وبخاصة من ينتمون إلى القوميات المحكومة إلى السلب .

وكان فى المدينة كذلك حوالى ٦٠٠٠٠٠ عامل لا عمل لهم بعد وقف
الصناعات الحربية ، كلهم جائعون وفى ثياب رثة . ولم تكن معسكرات
الأسرى خارج فيينا فى حراسة محكمة . وفى وسط هذه الظروف زاد الخوف من
إطلاق سراح المسجونين جملة فى العاصمة ، حيث كان الجنود ينزعون الشارات
الإمبراطورية من ملابسهم ومن ملابس ضباطهم فى كثير من الأحوال .

وأخذت الصورة الرهيبة لتدفق الجماهير على شونبرون حيث تقيم الأسرة
الإمبراطورية ، تتضح أكثر فأكثر فى عقول أعضاء وزارة لاماش . وانتهت

جلسة الوزارة الأخيرة إلى احتدام الجدل حول تفضيل اقتراح التنازل عن العرش أو انتظار خلع الإمبراطور . وظل يتمسك إلى تلك اللحظة الحزب المسيحى الاشتراكى والأحزاب الوطنية الألمانية بفكرة قيام حكومة ملكية نيابية ، ولرجال السياسة النمسويين كفاية ممتازة فى المساومات التى يمكن أن تأتى بنتيجة عند المفاوضة مع الحلفاء وإقناعهم بفائدة بقاء النظام الملكى ، ولكن هرب قيصر ألمانيا فى ١٠ من نوفمبر وقيام جمهورية ديمقراطية اشتراكية فى ألمانيا ، والخوف من عدوى الثورة ، كل ذلك نبه الوزراء الإمبراطوريين إلى ضرورة إعلان تنازل الإمبراطور عن العرش ، وإلا أصبح الموقف غير محتمل .

وفى صباح يوم السبت ١٠ من نوفمبر حوالى الساعة التى اجتاز فيها غليوم حدود هولندا لاجئاً ، كانت الصلاة تقام فى الكنيسة الملكية فى شونبرون ، وبينما كانت تتلى الصلاة بين بكاء المصلين وتنهداتهم اتجهت الأنظار جميعاً بعيون غرقى بالدموع إلى الشاب المتهدم الراكع بجوار مدفن فرانسيس جوزيف ، وكان هذا آخر العهد برؤية كارل فى مكان عام . وفى يوم الاثنين حضر وزراؤه إلى القصر مبكرين ، وكانت أيديهم فعلا متقلصة من شدة التأثر ، ورجوه وهم فى هذه الحال أن يستمع إلى نصيحة فيينا ، فيوقع على الأقل على التنازل عن العرش مؤقتاً ، وهناك صاح رئيس الوزراء قائلا « الآن يا صاحب الجلالة . الآن » وأخذ يكرر هذه العبارة فى عصبية شديدة .

ولم يكن كارل يتخذ أى قرار هام دون استشارة زيتا . وهذا ما فعله فى هذه اللحظة . لقد ألقت نظرة على النص المقترح للتنازل ، وصاحت فى هياج شديد « إن الملك لا يمكن أن يتنازل . ولكن يمكن أن يخلع . إنى أفضل أن أموت معك هنا وعند ذلك يخلفنا أوتو ، وإذا ما خلع هو أيضاً فالأسرة أعضاؤها كثيرون » .

ولم تكن فى الواقع الورقة المعروضة على كارل لتوقيعها وثيقة للتنازل ، وهو ما بينه الوزير لاماش للامبراطورة عندما هدأت أعصابها . والحقيقة أنه لم يكن فى الموقف خيار . لقد قال الوزير بعد ذلك إن البلاد لا تحتمل حرباً أهلية . ثم وقع الإمبراطور .

وقد تضمن البيان الذى أذيع فى مساء هذا اليوم التنازل : « إنى لا أزال كما كنت دائماً أشعر بالحب القوى نحو أمتى . ولن أضع من شخصى عقبة فى سبيل تقدم الشعب . وإنى أعترف مقدماً بالقرار الذى تحدد فيه النمسا الألمانية نوع الحكومة القادمة . لقد قبل الشعب الحكومة التى اختارها ممثلوه ، وإنى متنازل عن نصيبى فى حكم البلاد » .

(لم يتنازل كارل عن العرش باسمه مطلقاً . كما لم يتنازل عن حقوق أسرته، ولا يزال ابنه أوتو يدعى لنفسه الحق فى عرش النمسا) .

وكان كارل متردداً فى مغادرة البلاد ، ولم يكن هناك ما يخشاه من أصحاب رنر الاشتراكيين الطيبين بعد أن تنازل عن العرش ، ومع ذلك فلم يكن سلطان العهد الجديد مستقراً تماماً ، وكان الجيش الذى كونه الشعب على عجل لا يمكن الاعتماد عليه ، وكثرت الاضطرابات والاصطدامات فى هذه المدينة الجائعة وبخاصة بعد عودة الأسرى النمسويين بعد اعتناقهم المبادئ البلشفية فى روسيا . وقد أخذت حرارة الثورة تزداد بانتظام طول النهار ، وقد كانت إنذاراً بالانفجار الرهيب الذى حدث بعد ذلك . وعند آخر النهار ، وقد انضم للثوار عمال مصانع فلورسدورف للصلب — لم تعد تشعر الأسرة — بل لم تكن الأسرة — فى أمان . وأخيراً أذعن كارل وهو حزين لنصيحة إردودى ، وسمح له بإحضار السيارات للسفر ، بينما كانت الحقائب تملأ على عجل بالحاجيات الضرورية والنفائس الثمينة .

ومع ذلك صمم كارل قبل أن يقصد إلى منفاه على إقامة احتفال جنائزى بسيط ، وذهب أولاً هو وزيتا والأطفال إلى الكنيسة للصلاة . ثم اجتمع كل أفراد الحاشية الذين سيبقون فى فيينا والقليلون الذين سيرافقونه إلى المنفى فى حجرة الاستقبال الكبرى فى القصر ، وشد على يد كل منهم بعناية كبيرة متحدثاً إليه بكلمة أو كلمتين بأسلوبه البسيط . وعلى كل لم يكن حادث الخروج ثقيل الوطأة على النفس . وفى اليوم التالى — ١٢ من نوفمبر أطلق مائة مدفع تحية لمولد الجمهورية النمسوية . لم تكن ولادة سهلة ، ولابد أن كثيراً من أهالى فيينا قد ابتسموا فى شىء من الأسى للكلمات التى ختم بها المستشار رنر خطابه عندما قال « إن الديمقراطية اليوم قد صارت هى قانون العالم أجمع ، ونحن لا نستطيع أن نخالف العالم ، ولا نريد أن نخالف العالم ، ويجب ألا نحيد عن الطريق الذى رسمه العالم للمدنية الحديثة » ، وبينما كانت الجماهير تقوم بتحية الجمهورية الجديدة حدث تباطؤ غير مفهوم فى رفع العلم الأحمر والأبيض للجمهورية النمسوية ، ذلك أن عدداً من الجماهير البلشفية اقتحموا مبنى البرلمان واستولوا على العلم وحاولوا انتزاع جزئه الأبيض قبل تفريقهم، وانجلت المعركة عن قتيلين ، ولم يسمع للاستقلال أية تحية .

ولم يكن يخطر ببال النمسويين الذين كانوا يقيمون فى دولة تعدادها ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة تشغل معظم أوربا الوسطى ، أن النمسا الألمانية — الحديثة النشأة الجغرافية ، وعلى رأسها مدينة فيينا تستطيع أن تعيش معتمدة على نفسها . وزيادة على ذلك فإن قيام الثورة الديمقراطية فى ألمانيا أزالت مؤقتاً أى تفكير فى القومية النمسوية التى نشأت حديثاً . (وهى لن تكون إلا بعد تجربة طويلة مدى السنين العديدة) ، وأحس النمسويون الديمقراطيون الاشتراكيون الذين كانوا يسيطرون على الحكومة الجديدة أنهم على صلة قوية بإخوانهم الألمان ، وعلى هذا الأساس ، بينما تنص المادة الأولى من القانون الأساسى الذى يحدد نوع الحكم الذى

أقره المجلس التأسيسى المؤقت بعد كثير من البحث والفوضى على أنه النظام الجمهورى، تنص المادة الثانية على «أن النمسويين الألمان جزء لا يتجزأ من الجمهورية الألمانية». وعندما قضى النواب النمسويون على آخر أثر للسلطة الإمبراطورية عمدوا أن يضعوا الأساس الإدارى لمزيج من وطن آل هابسبرج وألمانيا الديمقراطية الحديثة. لقد انتهوا إلى إيجاد أمة دون أن يقصدوا إلى ذلك. وهكذا كان التناقض هو قانون الإمبراطورية الهابسبرجية حتى فى حالة الموت، وسنبحث فيما يلى ما ترتب على هذا عندما امتنع الحلفاء عن الموافقة على الاتحاد بين ألمانيا والنمسا. ويكفى فى هذا المقام أن نقرر أنه عند إعلان الجمهورية النمسوية أسدل الستار على الفصل الأخير من مأساة آل هابسبرج.

وبقى ملحق للمأساة قبل أن يخيم الظلام على المسرح إلى الأبد (عدا محاولتين متوترتين يائستين لعودة الملكية). وقد وقع هذا فى اليوم التالى يوم ١٣ من نوفمبر عند إيكارتساو. حيث كان كارل وزيتا يعملان فى إعداد عملية إطعام وتدفئة الأسرة — تلك العملية العادية الثقيلة. فقد وصل مندوب أرسله كارولى من بودابست — وهو فى الثورة المجرية أشبه بكرنسكى فى الثورة الروسية — ومعه تعليمات مؤداها أن يتنازل كارل عن التاج الثانى — تاج المجر. واستقبل الإمبراطور السابق الثوار المجريين كما استقبل من قبل الثوار النمسويين ووافق فوراً على مطلبهم موافقة مقرونة بالشرط الوحيد الذى اشترطه وصمم عليه فى فيينا.

فهو لا يتنازل عن حق أسرته فى المجر كما لا يتنازل عنه فى النمسا، وإنما يتنحى عن الاشتراك فى حكومتها. ورضى مندوبو المجر بهذا، ووقع على التنازل فوراً فى نفس المكان الذى انتصر فيه رودولف آل هابسبرج جد كارل الأعلى منذ

٦٥٠ سنة على البوهيميين فى السهول القريبة من إرتساو ، وبدأ تاريخ الأسرة المجيد .

ومما كتبه أحد خلفاء كارل الجمهوريين — ويدعى كورت فون شوشنج وهو مستشار سابق ساء حظه فى آخر أيامه :

« لم يسؤ حظ أحد من الحكام كما ساء حظ كارل . وليس الأمر الذى يعنينى الآن هو هل كان ملكاً عظيماً ، وهل كان يحظى بالنصيحة الطيبة دائماً وهل يفعل ما يجب عمله دائماً ، ولكن الحقيقة أنه كان رجلاً طيباً وشجاعاً وشريفاً ، ونمسوياً صادقاً ، لا يريد إلا الخير ، وأنه يحتمل فى الشدائد ما لا يحتمله كثير من الناس . ولقد ظلت هذه الحقيقة سراً مجهولاً مدة غير وجيزة » .

إنه لمن العسير أن يكتب رثاء لأسرة هابسبرج وإمبراطورية هابسبرج أصدق من هذا القول (فى إيجازه وصحته) . ويقول كاتب من أذكى الكتاب الحاليين وهو الصحفى البريطانى جوردون شبرد « لعل أعدل حكم على الإمبراطورية النمسوية القديمة أنها وجدت قبل وبعد أوانها . لقد كانت الإمبراطورية النمسوية والنمسويون دوليين قبل الوقت المناسب وقوميين بعد الوقت المناسب » .

وذلك لأن الفكرة القومية القوية التى قامت على أساسها الدول التى كانت تتكون منها الإمبراطورية النمسوية سنة ١٩١٨ خمدت بمجرد انتصارها . وليس من المؤكد لو أن إمبراطورية النمسا والمجر ظلت قائمة بعد الحرب العالمية الأولى على أساس انتصارها فى الحرب أو على أساس عقد هدنة بينها وبين أعدائها ، ماقامت الحرب العالمية الثانية ، ومن المعقول فى هذه الحالة أن الإمبراطورية النمسوية لابد أن تساير الزمن مثل الإمبراطورية البريطانية .

ولكن الكارثة التى أصابت الإمبراطورية النمسوية هى أنها لم تبق قائمة بعد الحرب بعد أن حاربت حتى نهايتها الأليمة ، وأنها تعجزت من قبل عن أن تساير الزمن الذى مهد الطريق لقيام الحرب . وقد يكفى — عند قراءة تاريخ أسرة هابسبرج —أن ندرك أن التاريخ مثل سائر التجارب الإنسانية الأخرى ما هو إلا قصة محزنة . وتنطبق هذه النظرة على محاولة ولسن فى أن يقيم عالماً جديداً على أنقاض العالم القديم . إن ميزة أسرة هابسبرج الحقيقية — إن كانت لهم ميزة ما — على من وكل إليهم تصفية تراثهم، هى أن عظمة الدور الذى كانوا يؤدونه لم تنسهم حقيقة المأساة التى كانوا يعيشونها . لقد كان لديهم بشكل واضح جداً ما كان ينقص صانعى السلام فى فرساى — الشعور بالمأساة .

الفصل التاسع عشر

عصر الاضطرابات

إن العالم القديم الذى وجده ونستون تشرشل ذا جمال فاتن إبان عظمته الغاربة كان ذا منظر موحش عندما خيم الظلام على ما فيه من الخرائب ، ولم تكن ميادين القتال هى وحدها الأماكن الخربة فيه ، بل شمل الخراب أنظمة المجتمع وعقول الناس ، إذ أن الصدمة العنيفة التى صاحبت الهزيمة أو الثورة ، والاختفاء المفاجىء للرموز التقليدية للسلطة عملا بين عشية وضحاها تقريباً على إيجاد جيل من السياسيين مرضى العقول . وكان أدولف هتلر — الممثل الجهنمى لهذا الجيل — فى دور النقاهة من عمى مؤقت أصيب به من غاز سام فى معركة نهر إيبر الرابعة ، عندما حمل إلية رجل الدين الملحق بالمستشفى أنباء الهزيمة ، وهرب القيصر وانتهاء الحكم القيصرى . كتب هتلر عن ذلك فيما بعد فقال « لقد أظلم كل شىء ثانية أمام ناظرى . وعدت مترنحاً متعثراً إلى حجرة نومى ، وألقيت بنفسى على السرير ودفنت رأسى الملتهب فى الوسادة » ، والذى نعلمه الآن أن الشيطان كان يحرسه فى أثناء اليأس الذى خيم عليه .

والفوضى التى أعقبت انهيار الإمبراطوريات الثلاث التى كانت الدعامات المتينة لنظام الحكم القديم فى أوربا لم تكن مع ذلك فوضى خلقية أو عاطفية . . لقد كانت الحكومات المنهارة مسئولة عن أمور كثيرة أولها الحرب — ولكنها أدت على كل حال الدور الذى كان لابد من أدائه . وأمكنها أن تقى العالم ويلات ما فى القلوب من عداوة ومخاوف وأطماع ظلت تتجمع فيها أجيالا عدة . وأطلق انهيار هذه السلطات الدولية — أو على الأقل المحلية — وزوال تلك الارتباطات الإمبراطوريه التى كان الناس راضين بها عدة قرون أطلق على أوربا سيلا شنيعاً من

الأطماع القومية المتعارضة ، وحزازات الأقليات الملتهبة والمطالبة بالأقاليم المغتصبة في العصور التاريخية (وقبل التاريخية) ، والآمال الاجتماعية التي لا يمكن تحقيقها والتعصبات السياسية المتنافسة . ثم قام نزاع عنيف ثلاثي بين القومية الولسونية والباشفية والملكية الفاسدة الرجعية التي كانت تواقة إلى التجديد عن طريق العودة إلى الجذور القبلية للحكم المطلق . وبينما كان مؤتمر السلام يعقد أولى جلساته في باريس في ١٨ من يناير سنة ١٩١٩ وأمامه تلك المهمة الثقيلة — مهمة تصفية مشكلات العالم القديم ، كانت في أوربا شرقي نهر الراين في بعض أنحاء آسيا تغلي مراجل الحرب الأهلية والمحلية ، وفي بعض هذه المناطق ظلت نار الحرب مشتعلة وظل الاضطراب سائداً مع ما صحبه من الجوع والطاعون مدة أربع سنوات كاملة ، بعد أن أعلن نفير السلام اتفاق الهدنة من ريتوند .

ولقد بلغ من استمرار الاضطرابات وانتشارها من أوربا إلى الشرق الأدنى ووسط آسيا أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من عمل مؤتمر السلام . ولقد أدى ذلك إلى زيادة المشكلات أمام ساسة الحلفاء المجتمعين في باريس لوضع الخطط اللازمة لقيام نظام عالمي جديد ، وضاعفه ما ارتكبه الساسة من أخطاء أو ظلم . ولم تتولد جميع ما أصاب أوربا من نكبات بعد ذلك من معاهدة فرساي على ما قيل في بعض الأوقات . ولكن فرساي لم تكن إلا أول الحلول التي وضعت بعد الحرب (كانت معاهدة لوزان آخر حل ولم يوقع عليها حتى يوليو ١٩٢٣) . وفضلا عن الوثائق السياسية الرسمية كان هناك كثير من القرارات الإدارية والحربية مما يقرره ممثلو الحلفاء المقيمون في باريس المندوبون عن البلاد المنتصرة . (ولعل أسوأ قرار اتخذوه كان ذلك القرار غير الإنساني الذي يقضي باستمرار حصار العدو الذي يعاني الجوع حتى يتم التوقيع على أول معاهدة للصلح) . وكانت نتيجة التفاعل بين الاضطرابات التي نتجت عن الظلم المفروض من أعلى والظلم الملازم للاضطرابات التي نشأت تلقائياً

من تحت الطبقة الدنيا زيادة القوة فى أنياب المارد التى أحس جيلنا بأثرها بعد عشرين سنة . وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال إن الحرب الثانية بدأت فى أعقاب الحرب الأهلية . وعلى هذا فهذه القصة ليست داخلة فى بحثنا الحاضر . وما دامت الفترة الفاصلة بين الحرب الشاملة والسلم الشامل من نوفمبر ١٩١٨ إلى ديسمبر ١٩٢٣ تقريباً لم تقدر أهميتها الكبرى ، فيكفى أن نسجل بعض الاتجاهات العريضة والأحداث الفاصلة التى لها تأثير مباشر على المرحلة الأخيرة فى تاريخ أوربا فى عهد الأسرات الملكية ، وهو عهد التصفية .

والنمط الغالب فى هذا العهد كان نمط الثورة ، والثورة المضادة . وكما حدث فى روسيا قبل ذلك بعام ، أدت الثورات الديمقراطية فى وسط أوربا فى آخر ١٩١٨ إلى محاولات شيوعية لإقامة دكتاتوريات يسارية ، أدت بدورها إلى عودة أشد قوى الرجعية المتصلة بالحكم المطلق البائد فى صورة أكثر ضرراً . وكانت ألمانيا والنمسا والمجر بصفة خاصة ميادين حرب للمتطرفين من الجانبين . وكان للحركات الشيوعية فى هذه الدول جذور محلية عميقة ، إلا أن عدوى البلشفية فى روسيا التى انتشرت فى الغالب عند عودة أسرى الحرب وتحريض المحرضين الثوريين الذين بعثت بهم حكومة السوفييت ليؤلبوا العمال ضد حكوماتهم الديمقراطية ، كانا لهما الأثر الأكبر .

ولقد كانت سنة ١٩١٩ نوعا من التمرين لعام ١٩٤٥ أكثر بكثير مما يدرك الناس بصفة عامة . لقد حاول لينين محاولة طموحة — وتقريباً ناجحة — أن يستخدم أسلحة الجيش الأحمر — وهو ما حاول ستالين أن يعمله بعد جيل واحد ليفرض البلشفية على أوربا الوسطى وأوربا الشرقية . ولا يدل تحليل الاضطراب الذى

كان فى أوربا فى الوقت الذى كانت تجرى فيه مفاوضات الصلح إلا على أن الحرب الأهلية الروسية كانت فى طريقها إلى الغرب .

وفى الوقت الذى استسلم فيه الجيش الألمانى للحلفاء فى فرنسا كانت الحرب الأهلية الروسية مشتعلة منذ سنة تقريباً . وكانت الصفة الغالبة على النزاع وهى التى بينها بوضوح باسترناك فى الدكتور زفاجو ، ترجع فى الغالب إلى الفوضى المنتشرة فى كثير من أنحاء الريف الروسى فيما وراء جبهات القتال المائعة . وزاد الحالة سوءاً ماقامت به جماعات حرب العصابات والجنود غير النظاميين والمغامرين والمجرمين ، علاوة على الإرهاب المنظم فى البلاد الذى يمثله مذبحة آل رومانوف والقوات الحمراء والبيضاء المعارضة . ومع ذلك أصبحت الحرب حرباً كبرى وأصبحت الجيوش الرئيسية المعادية لبعضها البعض ذات خبرة فنية فى الحروب .

وكان البيض (ونعنى بهم كل القوى المناوئة للبلشفية من صفوة الاشتراكيين أو الفلاحين السذج إلى الملكيين) ضعافا بصفة عامة فى القيام بأى عمل ، ولكن الحلفاء كانوا يمدونهم بالعتاد الحربى كما كانوا يؤازرونهم أحياناً ببعض الكتائب المحاربة . (وفى أثناء الحرب الأهلية الروسية تدخلت القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية والألمانية واليونانية والصربية والتشيكية والبولندية واليابانية بشكل ما تأييداً لقضية القوات البيضاء) .

وفى صيف سنة ١٩١٨ كادت القوات البيضاء أن تنجح فى هزيمة القوات الحمراء . ولو لم يقم الألمان بمساعدة الحكومة البلشفية المتداعية لكان فى وسعها أن تحرز النصر . وفى كل من السنتين التاليتين كانت القوات البيضاء تحت قيادات مختلفة ، وبمعونة من البلاد المختلفة ، قاب قوسين أو أدنى من النصر النهائى لها ، وكان

سبب الهزيمة عدم التنسيق بين القوات المحاربة للبلشفية فى روسيا وعدم الاتفاق بين الحلفاء على الوقت المناسب والمكان الملائم لشد أزرها .

وإذا اتجهنا إلى الجانب البلشفى نجد أن ضغط الحرب الأهلية لم يزد من قسوة البلاشفة وعدوانهم للعالم البورجوازى جميعه — على أنه يمثل أصحاب النفوذ الإمبريالى — فحسب، بل إنه جعل من الجيش الأحمر الحديث التكوين مصدراً عظيما للنفوذ . ولقد كان الجيش الأحمر من عمل تروتسكى إلى حد كبير . وقد استعان فى إعداده لكى يكون عاملا حربياً صالحاً بوسائل كانت فى بعض الأحيان سيئة فى نظر الماركسيين . سأل تروتسكى لينين بمناسبة ماأبداه لينين مرة من الاهتمام بوجود ضباط الحكم السابق فى الجيش « هل تعرف عدد الضباط السابقين الذين يحاربون الآن فى جيشنا ؟ . » فأجاب لينين قائلا « لا » .

فقال تروتسكى « ثلاثون ألفاً ، (والواقع أنهم قرابة أربعين ألفاً) .

وكان تروتسكى يعتمد أيضاً اعتماداً كبيراً على كتائب أجنبية مرتزقة من المجر والصين وغيرها ، وكان لوجود هؤلاء المحترفين أو شبه المحترفين أثر فى تعليم شباب العمال والفلاحين المتحمسين ، ولكن غير المدربين الذين فى الجيش. وتقوية روحهم المعنوية .

ثم إن نشاطه الشخصى وحكمه الصحيح على الأمور وشجاعته هيأت العناصر الجوهرية للنصر . ولقد أقام أشهراً متواصلة فى قطاره المصفح يتنقل من جبهة مهددة إلى جبهة أخرى مهددة ،وربما قاد بنفسه هجوماً فاصلا أو وقف تحت وابل من النيران لتقوية جيوشه المدافعة .

وما كادت هجمات الجيش الأبيض سنة ١٩١٨ تبوء بالفشل حتى أخذ

الألمان ينسحبون من المناطق الروسية أو المناطق التى كانت روسية من قبل ، والتى كانوا يحتلونها بحكم معاهدة برست ليتوفسك، وانقض البلاشفة على المناطق الخالية من الجيوش وغيروا نظم الحكم القومى المحلى التى كان الألمان يؤيدونها، وألحقوا المناطق المحررة بجمهوريات الاتحاد السوفييتى، وأسرع الحلفاء بالمعونة الحربية إلى بولندا وإلى من بقى من القوات المناوئة للشيوعيين فى أوكرانيا الغربية ، ونشأ موقف معقد فى مناطق الباطيق بين قوات الحلفاء وجيش روسيا البيضاء المتجه إلى بتروجراد ، وفرق غير نظامية من الألمان ، وعدد من الوطنيين المحليين الذين كانوا يعدون كل من عداهم من الغزاة الفاتحين وحاول السوفييت إعادة غزو فنلندا إلا أن الفنلنديين بمعونة حربية غير رسمية من الألمان استطاعوا صدهم .

ووقف المد البلشفى الأحمر سنة ١٩١٩ عندما كاد الهجوم المضاد للقوات البيضاء يستولى على بتروجراد ويهدد موسكو . وفى سنة ١٩٢٠ وقع الجيش البلشفى ثانية فى الخطر عندما حاصرته قوتان : جيش القرم الذى يقوده الجنرال رانجل آخر وأقوى قادة الجيش الأبيض ، والجيش البولندى بمعونة الفرنسيين الزاحف من الشمال (كان البولنديون — بعد أن قضوا على الشيوعيين المحليين — يقاتلون فى حرب قومية للغزو الإقليمى) . ولقد كان نجاح الجيش الأحمر فى رفع هذا الحصار هو الذى كاد أن يفتح أبواب أوربا الوسطى للبلشفية . ورجع رانجل إلى القرم وأصبح محصوراً فيها (واضطر أخيراً إلى إجلاء ما بقى من جيشه بحرا فى نوفمبر سنة ١٩٢٠) ثم تحولت الجيوش الحمراء بقيادة الجنرال توكاشفسكى — وهو ضابط قيصرى سابق اعتنق الشيوعية — إلى محاربة البولنديين . وكان توكاشفسكى الذى أصبح فيما بعد أحد ضحايا ستالين البارزة صاحب مبدأ استراتيجى جديد وهو : الثورة من الخارج ، وبعبارة أخرى استخدام الجيش الأحمر لحمل الشيوعية إلى كل أوربا ، كما حملت جيوش نابليون مبادئ الثورة الفرنسية إليها .

وهيأت له الحرب مع بولندا الفرصة لتطبيق نظريته . ويبدو فيما لاقاه من السهولة فى تحطيم الجيوش البولندية وسرعة زحفه فى بولندا ، دليلا على صحة نظريته .

ولقد نجح البولنديون أخيراً بمعونة الفرنسيين المادية وإرشاداتهم فى وقف التقدم الروسى عند نهر الفستولا على مسافة من وارسو فى ١٤ من أغسطس سنة ١٩٢٠ . وهذا التاريخ من التواريخ التى تستحق الذكر فى الغرب . ويقول لينين فيما بعد فى هذا الموقف : « لو أن بولندا صارت سوفييتية لتحطم النظام الدولى الذى وضع بمناسبة الانتصار على ألمانيا . ولم يكن لفرنسا دولة حاجزة تستطيع بها أن تقى ألمانيا من روسيا السوفييتية » والدولة الحاجزة التى يشير إليها لينين كانت بلا شك بولندا الضالعة مع الغرب المعادية للشيوعية ، ولعله كان مخطئاً فى مازعم أن الفرنسيين فى ذلك الحين يهمهم وقاية ألمانيا من البلشفية ببقاء بولندا حاجزاً بين الدولتين ، ولكنه كان مصيباً فى قوله إنه فى حالة إذا ماقضى على هذا الحاجز فإن ألمانيا المنهوكة القوى سوف تكون لقمة سائغة أمام الضغط البلشفى ، وسوف تنمحى من أوربا سيادة الحلفاء الجديدة . ومع ذلك فنحن نغفل بعض جوانب القصة . إذ ليس سبب إنقاذ أوربا من البلشفية راجعاً إلى صد توكاشفسكى عند وارسو ، ولكنه راجع إلى فشل لينين منذ سنة أو سنتين فى محاولة نشر الثورة فى أوربا الوسطى بالوسائل السياسية والمؤامرات . وإذا أردنا الدقة فإن ذلك راجع إلى رءوس الجسر الثورية التى نجح فى إقامتها ، أزيلت سنة ١٩٢٠ . وعلى هذا فيحسن بنا أن نعود إلى سنة ١٩١٨ لنمسك بخيوط هذه المؤامرة .

وبفضل تعضيد السفير الروسى جوف أصبح الألمان الاشتراكيون اليساريون المجتمعون فى مؤتمر سبارتاكوس برياسة ليبنخت وروزا لوكسمبرج

الحلفاء المذهبين للبلشفية الروسية فى الوقت الذى تنازل فيه القيصر عن عرشه . وكما سبق القول لعبوا دوراً كبيراً فى ثورة برلين فى نوفمبر ، وكانوا متألمين لأن المستشار إبرت والاشتراكيين المعتدلين منعوها فى اللحظة الأخيرة من أن تكون كالثورة الروسية . لقد كانوا يمقتون كثيراً الجمهورية الديمقراطية البرجوازية كما يمقتون أصحاب إبرت وشيدمان وسائر « الخونة » ألقوا بثورة العمال فى النهر بإنشائهم هـذه الجمهورية . وكانوا مستعدين للثورة ضد الحـكومة الألمـانية الجديدة إذا ماسنحت لهم فرصة النصر . وفى ضوء مافهموا من النظرية الماركسية كانوا على ثقة من أن الفرصة لابد ستتاح لها عاجلا .

وكان أصحاب القيادة الفـكرية من البلاشفة يتبعون سير الثورة الألمـانية من موسكو بقدر مايستطيعون وبشغف شديد . فقد كان لألمـانيا ، وهى وطن كارل ماركس ، منزلة خاصة ، وأهمية كبرى فى عقول كل الاشتراكيين الأوربيين فى ذلك الوقت . ولم يكن البلاشفة أقل اقتناعا من ألمـان مؤتمر سبارتاكوس ، بل لعلهم كانوا أكثر اقتناعاً منهم بأن الوقت قد حان ليحطم العمال فى جميع أنحاء العالم سلاسلهم ويمدوا أيديهم إلى إخوانهم الروس لنصرة قضيتهم الثورية . وعلى هذا الأساس وبهـذه العقيدة قام لينين وتروتسكى بالمغامرة الخطيرة — مغامرة الثورة والدكتاتورية فى روسيا . ولو كان تقديرهما للموقف العالمى خاطئاً لـكانت مغامرتهما حسب وجهة النظر المـاركسية الصحيحة فاشلة . وكان المظنون حينذاك أن الثورة الاشتراكية لاتنجح إذا قامت فى دولة واحدة ، لأن الرأسمالية الدولية سوف تتحد للقضاء عليها .

وكان يبدو فى الأيام الأولى السوداء من الحرب الأهلية أن هذا هو مايحدث فى روسيا السوفيتية ومن الواضح الآن أن التاريخ — كعادته دائمـاً مع أبنائه

المخلصين ، يقدم لنا البرهان على أنهم دائماً غير مخطئين . وكان الموقف لا يتطلب إلا دفعة خفيفة ، وكانت ألمانيا هى التى قامت بهذه الدفعة . ولكى يحصل لينين عليها بعث بالصحفى النمسوى البولندى السابق كارل رادك ، كلبه الحارس الأمين أيام الحرب، وأحد جماعة بارفس ،إلى برلين مزوداً بالتعليمات السرية لتنظيم الثورة الشيوعية الألمانية والقيام بها. وكان عليه أن يمد ليبنخت بالمعونة المالية والنصيحة الفنية وبالأسلحة كذلك . وكان عليه أيضاً تنظيم جماعة سبارتاكوس المفككة إلى حد ما ، وتأليف حزب شيوعى على النمط الروسى النائم على تدبير المؤامرات . ولقد ظهر هذا الحزب البلشفى الألمانى فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩١٨ .

وبينما كان الجيش الأحمر يتقدم فى مناطق البحر البلطى متجهاً نحو حدود بروسيا الشرقية ،ويقيم حكومات سوفييتية اسمية فى أثناء تقدمه، بدأت مجالس العمال والجنود تتكون فى مدن شمال ألمانيا ، وأصبحت المعارك أحداثاً عادية فى شوارع برلين .

وقبل حلول عيد الميلاد بيومين سارت فرقة من البحارة كانت تحتل الاسطبلات الإمبراطورية منذ قدمت من كيل فى ٨ من نوفمبر وقد أثارها تأخير المرتبات وتحريض الإسبارتاكيين لها (وهو اسم البلاشفة حينذاك) إلى دار المستشارية واحتلتها . وقطعت جميع أسلاك التليفون ماعدا السلك الذى يصل بين المستشار إبرت ومركز القيادة العام للجنرال جرونر . وطلب المستشار فى مرح مركز النجدة ، وفى الوقت الذى وصل فيه الجنود والذين بعث بهم جرونر غادر البحارة المكان، وقد أخذوا أحد المندوبين الاشتراكيين رهينة معهم . وتحولت محاولة إجلائهم عن الإسطبلات فى اليوم التالى إلى معركة حربية ، ومع أن الجنود كانوا مزودين بالمدافع إلا أنهم منوا بخسارة كبيرة فى الأرواح . وظل المحتلون

فى أماكنهم (ولم يتم إجلاؤهم إلا بعد مفاوضات مع الحكومة انتهت بأن يصرف لهم مرتباتهم المتأخرة) .

وكان هذا نصراً للبلاشفة ولكنه نصر قرر مصيرهم ، إذ أصبح إبرت ، وقد أزعجته الأحداث الدامية فى ليلة عيد الميلاد، على استعداد لتلقى العون من أى مصدر . وكان كلامه الصريح عن الرغبة فى التخلص من الإسبارتاكيين ، ومن مجالس السوفييت العسكرية والعمالية ، بل ومن أعضاء الحكومة الاشتراكيين اليساريين، ينطوى على اتهامهم ،الأمر الذى لم يسمع من قبل،فقرر أن القوة لابد أن تقابل بالقوة ، وأقام جوستاف نوسكه وزيراً للدفاع الوطنى ، وهو رجل الجمهورية القوى الذى حظى بتقدير القيادة العليا منذ أحسن التصرف فى ثورة كيل . وكان جزاراً سابقاً ،واشتغل بالسياسة عن طريق نقابات العمال حتى صار خبير الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى المسائل الحربية . وليس لديه مالدى إبرت من الشعور بالحرج عند سفك الدماء . ومما قاله : « لابد أن يكون أحد الناس شارب الدماء».وقد كان مستعداً كل الاستعداد لمحو البلاشفة ، ولكن بأى شىء؟

وكان الجيش النظامى منهوك القوى فضلا عن انحطاط روحه المعنوية ، ولم يكن الجنود أكثر رغبة فى القتال فى حرب أهلية فى جانب الحكومة الاشتراكية منهم فى جانب القيصر . وكان الذى يداعب عقولهم «ماأحلى العودة إلى دورنا لنقضى عيد الميلاد مع أهلينا » . وكانت خير طريقة لمنع هرب الجنود منحهم أجازات ، ولم يبق فى برلين إلا عدة مئات من الجنود ، ولكن عند محاربة اليساريين المتطرفين كان لدى إبرت ونوسكه من الحلفاء أكثر مما يخطر لهما على بال . ففى الثامن من يناير دعاهما أحد الضباط لزيارة معسكر حربى بجوار برلين حيث رأيا قوة عدتها أربعة آلاف رجل ، دربوا وسلحوا بطريقة سرية . وكانت رؤيتهما لهذه القوة مفاجأة لهما .

وكان هؤلاء المتطوعون — الذين قال عنهم أحد ضباط الهيئة العامة ويدعى كورت فون شليشر إنهم « لا يعرفون جمعيات الجنود السوفييتية ، ولا يعرفون إلا بنادقهم وضباطهم » — الطليعة لكثير من الكتائب الحرة التى تكونت فى جميع أنحاء ألمانيا . وكانت هذه الجيوش الخاصة — كما فى حرب الثلاثين — لا تدين بالولاء إلا للضابط الذى كان يدربها ويقودها ويمدها بالسلاح والعتاد .

وعندما رأى نوسكه ذلك — وكان صف ضابط وقت الحرب — سره ما رأى وقال لإبرت « كن مطمئناً . كل شىء سيكون على ما يرام » . (وسرعان ما انتشرت حركة الجيوش الحرة فى الجهات البلطيقية والبولندية حيث امتنعت فرق بأكملها عن الموافقة على شروط الهدنة . وظل الجنود وأسلحتهم تحت تصرف ضباطها وزاد عدد الجيوش الخاصة . وحاربت هذه القوات غير النظامية ببسالة عظيمة ضد البلاشفة وضد البولنديين غير الشيوعيين الذين كانوا يتسللون إلى سيليزيا الألمانية) .

ولم يمض شهران على هزيمة المحافظين الألمان حتى عرفوا اعتدال حكومة إبرت . وأخذ الموظفون فى الإدارات الإمبراطورية السابقة الذين دعتهم الحكومة المؤقتة للبقاء فى وظائفهم — لعدم وجود من يحل محلهم — فى الوزارات والمصارف والمحاكم يحسون بالراحة والاطمئنان ، ويعدون العدة لإقامة نظام حكومى وفق إرادتهم . وبدأ الساخطون فى الجيش يعملون سراً ضد الحكومة التى كان رؤساؤهم يؤيدونها . وبعد مضى ستة أسابيع من الهدنة أسست جمعيتان سريتان من الضباط لحماية طبقة القادة السابقين .

وبعد قليل عاد الجنرال لودندورف إلى برلين ، وكان قد غادر البلاد سراً بعد الهدنة يلبس نظارة سوداء ، وأخذ يستقبل زواراً متنكرين فى جناح منفصل فى فندق

أدلون . وبينما كانت الحكومة تحاول أن تسير بالبلاد فى أمان فى أثناء القيام بانتخاب جمعية تأسيسية ، كانت الدلائل تنذر بقرب وقوع حرب أهلية فيها . وظهر على جدران المدينة ليلا نشرات كتب فيها « اقتلوا اليهود . واقتلوا ليبنخت » . وكانت الشوارع فى النهار ملأى بالمظاهرات الشيوعية، وكان القادة البلشفيون فى يأس تام . فلقد خرجت الثورة من أيدى الطبقات العاملة . وعاد للضباط نفوذهم . وأخذت جماهير الشعب تبحث عن قيادة جديدة لها . وأيد المؤتمر الذى ضم مندوبين عن مجالس العمال ومجالس الجنود فى ألمانيا دعوة الجمعية التأسيسية رغم اعتراض الشيوعيين ، وحدد يوم ١٩ من يناير سنة ١٩١٩ للانتخاب، وكان الأمر يتطلب معرفة قوة كل فريق قبل ذلك .

وفى ٦ من يناير سنة ١٩١٩ حاول فريق من الجنود الشيوعيين فى سيارات مصفحة بتحريض صريح من رادك اقتحام المستشارية . بينما كان أكثر من ١٠٠,٠٠٠ من المؤيدين محتشدين عند إنتردن ليندن . واحتلت فرق أخرى دار الطباعة الحكومية ومحطات السكة الحديد وعدداً من الثكنات . وغزا ثلاثمائة من الشيوعيين بقيادة أحد البحارة وزارة الحرب ، وأعلن ليبنخت قيام حكومة مؤقتة. وظلت برلين فى قبضة الحمر ثلاثة أيام ، وقام نوسكه بحركة مضادة فى ٩ من ينـاير ومعه عدد من الجنود النظاميين والمتطوعين مزودين بالمدافع ، وفى ١١ من يناير اقتحم حوالى ٣٠٠٠ من الجنود المدربين مجلس النواب وفى ١٥ يناير كانت برلين ثانية فى يد الحكومة .

وكان القصاص قاسياً وأكسب وزير الحرب لقب (نوسكه السفاح) . وقبض ضباط من فرسان الحرس على القائدين البلشفيين كارل ليبنخت وروزا لوكسمبرج فى الضواحى وجاءوا بهما إلى رياسة الجيش فى فندق عدن فى برلين .

وقد سحب الضباط روزا لوكسمبرج الشمطاء الهزيلة إلى تير جارتن حيث ضربت بالرصاص بعد ما لقيت من سوء المعاملة الشيء الكثير، وألقيت جثتها فى قناة لاندفير . وأطلق الرصاص على ليبنخت وهو يحاول الهرب . لقد بدأ المستقبل المؤلم يتضح للعيان .

واستمر البلاشفة يقاتلون رغم أنهم كانوا بلا قيادة ، وكانت الأحداث التى وقعت فى ألمانيا فى الفترة من يناير إلى مايو سنة ١٩١٩ أشبه بالأحداث التى قضت على الحكومة فى باريس فى ربيع سنة ١٨٧١ . وبأمر من الحكومة كانت فرق الجنود الموالية والمتطوعين يقضون على الثورة الشعبية بكل عنف ، وحينما كان الحكم للجماهير كان الجيش يعمل على تقويضه . وهكذا كان الألمان يقتلون الألمان بقسوة شنيعة .

كتب أحد جنود الفرقة الحرة إلى أسرته يقول « لا تسامح ولا عفو، نحن نطلق الرصاص حتى على الجرحى . إن الحماسة شديدة إلى درجة غير معقولة » . وفى السادس من فبراير اجتمعت الجمعية الوطنية لإصدار نظام الحكم النيابى، لا فى برلين حيث كان الشيوعيون فى أوج قوتهم ، ولكن فى فيمار برعاية جيته وفى حمى « قناصة » الجنرال ميركر ، وهم بعض الفرق الحرة التى اعترفت بها الحكومة المؤقتة . (أظهرت انتخابات يناير تجدد قوة اليمينيين وتنبأت بعودة الطبقة الوسطى)، ثم فشلت محاولة البلاشفة للتقدم نحو فيمار وتفرقة الجمعية الوطنية ، ولكن إضراب موظفى سكة الحديد منع الاتصال بين فيمار وسائر أنحاء ألمانيا .

وفى مارس شب القتال المرير ثانية فى برلين، وزادت الدعاية الروسية حماسة العمال إلى حد مخيف، حيث كانوا يعتقدون أن ألمانيا ستكون أول ميدان تنتصر فيه الثورة العالمية ، نتيجة للنقص المريع فى الأغذية (لا يزال الحلفاء حتى هذه

اللحظة يحاصرونها) وبسبب إجراءات القمع الشديدة التى يقوم بها الجيش ، وفيما بين الإضراب العام الذى ناء بكلكله على برلين فى ٣ ، مارس واسترداد نوسكه للضواحى الشرقية فى ١٤ من مارس ، تسببت المدافع وحوادث القتل من كلا الجانبين فى موت ١٢٠٠ نسمة وجرح ١٠٫٠٠٠ ، ولما انتهى « أسبوع برلين الدامى » لم يكن العمال بدون قيادة فحسب ، بل خلت أيديهم مما كان يصل إليهم من الذخيرة بسبب كثرة من ترك الجيش من الجنود بعد الهدنة .

وكانت ميونيخ المسرح الثانى للحرب الأهلية ، وقامت جمهورية سوفييتية فى بافاريا فى ٧ من أبريل وأبدت رغبتها فى الاتحاد مع روسيا والمجر بعد خمسة أسابيع من الفوضى ، جاءت على أثر وفاة كورت أيزنر المثالى اليسارى الذى كان على رأس ثورة نوفمبر فى ميونيخ . وكان نتيجة تبنيه لحقوق بافاريا وتصريحه بمسئولية ألمانيا فى الحرب أن عد العدو الأول للوطنيين . وفى ٢١ من فبراير أطلق عليه الرصاص فى أحد الشوارع شاب من النبلاء يدعى الكونت أركو فالى (وفى نفس اليوم قتل شيوعى أحد الأعضاء الاشتراكيين الديمقراطيين فى حكومة أيزنر) . وقد حملت الاضطرابات التى جاءت نتيجة لذلك الوزارة البافارية على مغادرة ميونيخ التى استولى عليها مجلس العمال ومجلس الجنود .

واستطاع بحار من كيل وبعض ذوى النشاط من البلاشفة بتوجيه أحد عملاء البلاشفة فى موسكو أن يؤسسوا حكومة إرهابية فيها ، بينما كان مندوبو الشعب فى الجمهورية السوفييتية الجديدة مشغولين فى شئونهم الخاصة الغريبة . وأعلن من يدعى دكتور تب — الذى كان يشرف على الشئون الخارجية — الحرب على سويسرة وورتمبرج ، وكان السبب الذى أبداه « أن الكلاب لم يوافقوا على إعارته ٦٠ قاطرة . وإنى متأكد من الانتصار عليهما » .

وفى أول مايو بعد معركة حربية حامية بأمر من نوسكه احتلت القوات الحكومية ميونخ وثأرت فرق الجنود الحرة لمن قتل من الرهائن على يد الشيوعيين وتركت جثثهم الممزقة فى ساحة الألعاب الرياضية فى لويتبولد وخلال هذه الفوضى السياسية التى كانت تسود ميونيخ فى ذلك الوقت كان أى فرد يستطيع إذا لم يكن قائداً لعدد من الرجال أن يكون جاسوساً أو سفاحاً. فى تلك البيئة الرهيبة، بيئة البطش والانحلال، بدأت حياة هتلر السياسية. لقد قدم إلى ميونيخ فى أوائل عام ١٩١٩ بعد مدة قضاها حارساً فى أحد معسكرات السجن، ثم صار مخبراً من مجلس الجيش لاصطياد مرتكبى الجرائم الشنيعة من الحمر. وكعميل سرى للجيش قابل لأول مرة جماعة سياسية صغيرة — حزب العمل الألمانى (وكان لفظ « عمل » فى رأى رؤسائه يضمن له الاتصال عن قرب بهذا الحزب) الذى كان الوسيلة لوصوله إلى الحكم.

وعند حلول شهر مايو سنة ١٩١٩ أى بعد ستة أشهر من نهاية الحرب وهنت قوة الثورة التى قامت بها الطبقات العاملة، ولكن حكومة إبرت عجزت عن معرفة صديقها من عدوها.

وكانت الحكومة فى رأى اليساريين المتطرفين مكونة من « الخونة الاشتراكيين » الذين أخرجوا الجماهير الألمانية من الثورة الشعبية التى كانت تهدف إلى إقامة عالم جديد حر. وكانت فى رأى الوطنيين تتكون من « مجرمى نوفمبر » الذين طعنوا ألمانيا — التى لم تقهر — فى ظهرها بمؤامراتهم الماركسية. والنظام النيابى الجديد لم يكن قد نفذ بعد، والمجلس التأسيسى كان لا يزال يوالى اجتماعاته فى قيمار عندما قدم الحلفاء إلى ألمانيا صك الحرب. إن شروط معاهدة فرساى التى نشرت

فى برلين فى ٧ من مايو كانت أشبه بالضربة القاضية . كيف كان ردهم عليها ؟ ذلك ما سنراه بعد قليل .

وفى جميع أنحاء النمسا وبخاصة فيينا حيث كانت الأوراق القذرة مبعثرة على الحشائش التى تحيط بالتماثيل ، وحيث النوافذ المحكمة الإغلاق لا تستطيع رد البرد القارس طيلة شتاء سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ ، اتبع الهجوم البلشفى الشيوعى على النظام الديمقراطى ، نفس الطريقة التى اتبعت فى ألمانيا . ومع ذلك كانت قيادته أقل بغياً مما كان فى ألمانيا . ولم يحقق للعمال من العون ما تحقق لهم فى ألمانيا .

وقد بدأ الشيوعيون النمسويون بوحى من موسكو ، ولكن دون أن يكون وراءهم محرض ملهم مثل رادك — ينظمون قبل نهاية سنة ١٩١٨ فرقاً محاربة تسمى بالحرس الأحمر ، قوامها الفارون من الجيش والعاطلون من العمال . وكان يدرب هؤلاء عادة أسرى الحرب المسرحين بعد أن تبلشفوا فى روسيا . وكانت المعارك تنشب فى شوارع المدينة من وقت لآخر فى يونية سنة ١٩١٩ ، وحاول البلاشفة القيام بانقلاب ضد الحكومة . ومع أن الاشتراكيين النمسويين كانوا مثل الاشتراكيين الألمان فى اعتدالهم وإن كانوا أشد تعلقاً بمبادئهم منهم إلا أنهم يختلفون عنهم فى أنهم رفضوا العون من الجيوش الخاصة اليمينية التى بدأت تظهر فى النمسا كذلك وقاوموا تهديد الشيوعيين بما كان للدولة من القوات دون غيرها ، أى بشرطة بلدية فيينا والحرس الأهلى . وكانت الهيئة الأولى تحت رياسة رئيس الشرطة الإمبراطورى السابق شوبر ، وكان ولا يزال مخلصاً وكفؤا وكانت الهيئة الثانية على الأقل مخلصة (رغم أن بها عدداً كبيراً من الضباط القدامى الذين كانوا فى الجيش الامبراطورى فقد كانت رياستها للجنة ، كما كان الحال فى روسيا أيام كرنسكى) ، وبعد قتال عنيف فى شوارع العاصمة لم يستمر طويلا

فى البلاشفة وصارت الحكومة الديمقراطية الاشتراكية حاكمة البلاد بصفة اسمية ، على الأقل ، وكان الحاكم الحقيقى فى ذلك الوقت هو الجوع . وكانت الاضطرابات أو المنازعات التى تعكر الأمن فى الجمهورية فى أولى سنواتها راجعة إلى نقص الأغذية أكثر من رجوعها إلى أسباب سياسية .

وكثيراً ما حدث التصادم بين الحرس الأهلى وجمعيات أصحاب الأملاك عندما يقومون — بناء على أمر الحكومة — بتفتيش البيوت والمزارع والفنادق وحتى الملاجئ والأديرة ، للبحث عما عسى أن يكون بها من أغذية مكدسة مختزنة . ولم يكن فى وسع الحرس الأهلى دائماً أن يحول دون النهب والسلب ، فكثيراً ما كان الإغراء قوياً فيشترك فى عملية النهب . ففى فبراير سنة ١٩١٩ بينما كان بعض مندوبى العمال يسيرون فى شوارع لنز فى طريقهم إلى إحدى المصالح الحكومية الرئيسية للاحتجاج على نقص الألبان واللحوم ، تحولوا فجأة إلى فئة من الناهبين على نحو ما كان يفعله بعض الصبية ، وانقضوا معهم على أحد المطاعم من أجل الطعام . وامتدت نشوة النهب والسلب إلى جميع الحوانيت والمطاعم فى المدينة .

وفى أبريل عام ١٩١٩ حدثت اضطرابات فى فيينا بسبب الجوع مات فيها بعض خيول الشرطة . ومما ذكره أوتوباور الزعيم الاشتراكى « إن المتظاهرين انقضوا على الخيل التى سقطت على الأرض ، وانتزعوا قطع اللحم من الجثث التى لا تزال ساخنة ، وحملوها إلى دورهم كأشياء لذيذة حرموا منها مدة طويلة من الزمان » وفى الحركة فى ألمانيا والنمسا — واجهت البلاد انفجارات للقوات الاشتراكية التى كانت محتبسة مدة الحرب ، وتدخلت الحكومة السوفيتية فى موسكو لتقوية الحركة أملا فى نشر الثورة فى أوربا لاعتقادها أن سلامتها تتوقف على ذلك .

ولم يكن الكونت كارولى — وهو رجل مهذب من رجال الصالونات — بالرجل القدير على مواجهة الموقف . رغم أنه أظهر إدراكه لأعظم مشكلة فى المجر بتوزيع أملاكه على الفلاحين . ولكن المجريين الذين كانوا قد حاربوا فى جميع جبهات القتال المترامية الأطراف فى الإمبراطورية الثنائية — رغم ما هم فيه من رخاء نسبى — رأوا الآن بلادهم التاريخية أصبحت معرضة للغزو من نواح عدة . وعندما عاد الجنود من الميدان جردهم كارولى من السلاح ليؤكد ميوله السلمية وليقضى على عناصر الثورة . ورأى — وهو مستسلم — استيلاء يوغوسلافيا على الجزء الجنوبى من المجر ، والجيش الرومانى يجتاز حدود ترانسلفانيا ، والجنود التشيك يدخلون سلوفاكيا . وفى مارس سنة ١٩١٩ ، أمر ممثل الحلفاء فى بودابست جنود المجر بالانسحاب إلى داخل المجر قائلا إن الحدود الحربية الجديدة هى الحدود السياسية القادمة الناشئة .

وكان لهذا وقع ثقيل على الكونت كارولى الذى كان قومياً أكثر منه ديموقراطياً ، فاستقال ، وهكذا أفسح المجال للثورة الاشتراكية الكامنة تحت النظام الإقطاعى الجائر ، الذى زاد من وطأته فى السنوات الأربع الأخيرة ما جناه تجار الحروب من الأرباح الفاحشة .

وظلت الباشفية تحكم المجر خمسة الأشهر التالية . وكان حاكمها وهو صحفى يهودى يدعى بيلا كون أسيراً عند الروس الذين دربوه وأمدوه بمستندات مزورة وزودوه بقدر من المال وأعادوه إلى المجر على أساس أنه من خير عملائهم . وكان يبدو بوجهه العريض التتارى ورأسه الحليق وقسوته الوحشية وسوقيته المتأهبة ، كأنما هو الصورة المجسمة للارهاب الأحمر . ولم يكن فى مبدأ الأمر مؤيداً من الديمقراطيين الاشتراكيين فحسب ، بل كان مؤيداً كذلك من كثير من الطبقة

المتوسطة والدوائر الحربية ، آملا فى أن تساعد روسيا المجر على استرداد أملاكها الضائعة. ثم توطدت العلاقة بين المجر وموسكو وبين الجمهورية السوفييتية فى ميونيخ، ولكن المعونة الأجنبية التى طالما تغنى بها بيلا كون لم تتحقق مطلقاً. وقد وصل إلى علم الحلفاء .ما تم فى عهد بيلا كون الاستبدادى القصير من مصادرة للأملاك وحرق للمساكن وزج فى السجون ومحاكمات ظالمة . وكانت مطالب الحلفاء غير المعقولة هى التى ساقت المجر إلى البلشفية . وكثيراً ما تردد على الألسن فى تلك الظروف « أن الحلفاء يستحقون هذا الجزاء » .

ويصف سير هارولد نيكلسن أحد أعضاء الوفد البريطانى فى مؤتمر فى باريس، والذى صحب الجنرال سمتس إلى بودابست فى أبريل سنة ١٩١٩ باعتباره عضواً فى اللجنة الدولية، حفلة الشاى المحزنة التى أقيمت فى فندق هنغاريا للزائرين ، لقد أدهش نيكلسن وجود الردهة غاصة بالمجريين الأرستقراطيين الذين يحتسون شراب الليمون على أنغام أوركسترا غجرية. ولم يدرك إلا بعد وقت طويل أن فيما يشهده أمراً غير عادى وسجل شعوره فى مذكراته فقال « لقد تنبهت فجأة إلى أن كل مائدة فى صمت تام . ولم ينبس أحد ببنت شفه فى أثناء احتساء شراب الليمون . فإذا ما رجع أحد البصر بغتة فإنه يرى عيونا كثيرة وجلة ، ويرى وراء هذه العيون استغاثة صامتة مؤثرة واسعة، واستمر هذا السكون المخيف مع نواح الكمان ، وعلى مرأى من الحراس الذين يرقبون كل محاولة للخروج . لقد اتضح أن كل هذا الجمع المحتشد الصامت من الناس إنما خرجوا من السجن هذا الأصيل » .

وبسبب مغامراته العسكرية قدم بيلا كون الضربة القاضية للبلاد ولحكمه . فقد قامت فرق الجيش الأحمر التى أنشأها بمعونة ضباط من الجيش الإمبراطورى بهجوم على التشيك والرومانيين. ولكن النجاح الذى صادفه فى أول الأمر لم يدم

طويلا . ففى يوليو سنة ١٩١٩ قام الرومانيون بهجوم مضاد واحتلوا بودابست . وبقيت موسكو فى معزل عن هذه الحرب لانشغالها بحربها الأهلية. وفر بيلا كون وصحبه إلى فيينا . وجلا الرومانيون أخيراً فى نوفمبر بعد إلحاح كثير من الحلفاء ، ورحلوا يحملون كل ما يمكن حمله معهم .

وبعد رحيل هؤلاء دخل بودابست جيش معارض للثورة بقيادة أمير البحرية السابق فى الدولة الثنائية ميكلوس فون ناجيبانيا هورتى وأخذ يربط مؤيدى بيلا كون فى أعمدة النور ويذبح اليهود فى كثرة مريعة . وعلى الجملة فرض على البلاد حكماً إرهابياً أبيض يدل على أنه لم يتعلم شيئاً من العهد الأحمر السابق ومن الغلو فى تصرفاته. وأخيراً فى يناير سنة ١٩١٠ أجريت الانتخابات بأمر الحلفاء لانتخاب أعضاء المجلس التأسيسى بالاقتراع السرى ..وأظهرت الانتخاب أغلبية ملكية ذلك،لأن أحزاب اليسار قاطعت الانتخاب احتجاجا على ظلم البيض ..وسرعان ما ألغى المجلس كل القوانين التى أصدرتها حكومة كارولى وبيلا كون . وعادت المجر إلى الملكية . وأقيم هورتى وصياً على العرش .وهكذا كانت المجر مملكة بلا ملك يحكمها أمير البحار بلا أسطول .

وانتخابات المجر لم تدل على قوة الاتجاه المعارض للشيوعية فحسب ، ذلك الاتجاه الذى أخذ يقوى فى أواسط أوربا وبخاصة فى المناطق الزراعية — بل دلت بما لا مجال للشك فيه على الانصراف عن الاتجاه الجمهورى الذى كان قد عم القارة الأوربية منذ سقوط الملكية الروسية سنة ١٩١٧ . وكان من الطبيعى أن حاول كارل إمبراطور النمسا السابق الذى لم يتخل رسمياً عن ألقابه الملكية استغلال الموقف . فغادر منفاه الآمن المريح فى سويسرة (طردته نهائياً الحكومة النمسوية ،

وصادرت أملاكه فى مارس سنة ١٩١٩) وحاول مرتين أن يتسلل عائداً إلى المجر مطالباً بعرشه الخالى .

وفى المحاولة الثانية — وكانت أكثر طرافة من المحاولة الأولى — فى أكتوبر سنة ١٩٢١ نزل من طيارة خاصة — تصحبه زيتا وهى حامل — فى إحدى مناطق الحدود التى كان الإرهابيون المجر يحاولون منع إعادتها إلى النمسا .

وكما هى العادة كانت النصيحة التى أسديت اليه غير سديدة ، وكان فشله فى المحاولة الأولى قد زاد الشعور العدائى ضد آل هابسبرج مؤقتا على الأقل . ورفض هورتى وهو ذلك الذى لا يعرف إلا الجد ، الاعتراف به ملكا شرعياً للبلاد . . بل أرسل شرذمة من الجنود للقضاء بسرعة على هذه المغامرة المهلهلة . وكانت مهمة سهلة ، إذ كانت أشبه شىء بانقضاض الشرطة على جماعة وهم يسكرون فى إحدى الضواحى وكانوا قد أفلتوا من يد العدالة . وعند ذلك ترك أنصاره ما فى أيديهم من بنادق وتفرقوا . وقبض على كارل وزيتا ونفيا إلى الأبد من المجر ، وأصدر البرلمان المجرى قراراً رسمياً بحرمان أسرة هابسبرج من كل الحقوق فى المجر (ومن عجب أن ذلك لم يحصل من قبل) وأعاد للشعب حقه القديم فى أن يكون له اختيار الملك .

وكانت هنالك عدة عوامل تحول دون عودة أسرة هابسبرج إلى المجر علاوة على حظ كارل السيء ورفض هورتى والتخلى عن الدور الذى قام به . وكان أحدها الموقف الدولى . إذ كانت عودة الأسرة إلى أية بقعة فى البلاد التى سبق أن حكمتها كابوساً كثير الحدوث فى براج وبخارست وبلجراد . فلو تمكن كارل من العودة إلى العرش المجرى فقد كان من المحتمل أن يؤدى ذلك إلى

تدخل الحلفاء عسكرياً . وحتى المحاولة المزيلة التى قام بها كانت سبباً فى تعبئة الجيوش فى البلاد المجاورة للمجر . ورغبة فى منع أية أزمة فى منطقة الدانوب نفى كارل بناء على إلحاح من إنجلترا إلى جزيرة ماديرا حيث قد هجره الجميع ما عدا زيتا وأولاده . ومات فى أول أبريل سنة ١٩٢٢ مصدوراً ويائساً .

ومع ذلك فليس هذا كل القصة. لقد كان لدى كارل من الشفقة ومن التدين ومن المدنية ماحال دون نجاحه فى بلورة الرجعية لمقاومة الديمقراطية فى أوربا . لقد انتهى عهد الملكية لا لأن عهد الاستبداد قد ولى ، ولكن لأن أنماطا منه أشد وأقوى أخذت فى الظهور . وفوق هذا لم تعد الأسرات القديمة تحظى بتقدير رعاياها القدامى ، لأنها صارت دولية أكثر منها محلية مثل آل هابسبرج. ومع أن المبادىء الولسنية قد وهنت باعتبارها ديمقراطية، إلا أن الشعور الوطنى الذى أثارته مبادىء ولسن الأربعة عشر كان أقوى ما يكون فى أوربا ، وأقوى من ذلك فى الإمبراطورية النمسوية بوجه خاص .

ولقد كانت الحرب الأهلية الروسية أكبر معركة فى أوربا ولكنها لم تكن المعركة الوحيدة فيها . وكانت الحرب بين روسيا وبولندا حرباً قومية كما كانت مذهبية . أما المعارك فى منطقة البلطيق فقد كانت إلى حد ما حروبا للتحرر القومى أثارتها القوميات الجديدة فى لاتفيا وليثونيا وإستونيا . ولقد حدث نزاع شديد بين البولنديين والتشيك فى أوائل عام ١٩١٩ على منطقة تيشن فى الجنوب الشرقى من سيليزيا كل منهما يدعى ملكيتها . وبعد سنتين قامت حرب غير معلنة بين ألمانيا وبولندا بسبب مايدعيه كل منهما فى سيليزيا. وقام خلاف شديد كذلك بين إيطاليا ويوغسلافيا على الساحل الدلماشى . وفى سنة ١٩٢٠ قامت معركة ظلت متأججه ثلاث سنوات كاملة فى هضبة الأناضول وهى المنطقة التركية الآسيوية.

وكانت المعركة مزيجاً من الثورة الديمقراطية ضد بقايا الحكم التركى المستبد ومن الحرب الوطنية للمطالبة بالاستقلال القومى وطرد المستعمرين . وكانت هذه الحرب التركية — كسائر الحروب المحلية فى ذلك الوقت — هى التى أظهرت فى شكل واضح فشل صانعى السلام — أو صانعى العالم — المجتمعين فى باريس الذين أرادوا تصفية الأسرات الساقطة دون (على حد تعبير ولسن) « أن يأتوا بعناصر جديدة . أو يذكروا العناصر القديمة للخلافات والعداوات » وسيكون البحث عن كيفية هذا الفشل وسببه وأثره فى العالم فى الفصل الأخير الذى لا تقل مآسيه عن غيره من الفصول .

الفصل العشرون

السلام الذي ولد ميتاً

لن يجد أى إنسان شهد — ولو على شاشة التليفزيون — مؤتمر سان فرانسسكو سنة ١٩٤٥ الذى تولدت عنه الأمم المتحدة أية ، صعوبة فى أن يتخيل الجو الذى بدأ فيه مؤتمر الصلح فى باريس يباشر عمله سنة ١٩١٩ ، لقد كان بادياً فيه نفس الشعور بالارتياح لإنشاء مرحلة جديدة ، ونفس الأمل الباسم فى مستقبل الإنسانية، ونفس الاهتمام الصادق بقضية الإنسان ، ونفس الإيمان القوى بقدرة الخبراء — إذا أطلق الحكام لهم والشعوب حرية العمل — على القضاء على المشكلات الكثيرة الناشئة عن حماقات البشر وآمالهم وانحرافاتهم . ومع ذلك فبين المؤتمرين فرق واحد شاسع . ففى سنة ١٩١٩ كانت هذه الصورة من التفاؤلات غير ظاهرة فى عقول الناس. ولذلك لم تؤد مطلقاً إلى العمل على إزالة ما ترتب عليها من آمال كاذبة . وهكذا كانت مثالية صانعى السلام فى باريس فى بعض جوانبها أقوى حماسة وأكثر قابلية للعطب من مثالية بناة العالم فى مؤتمر سان فرانسسكو.

ولقد أبدع سير هارولد نيكلسن فى وصف حالة المؤتمر فى مبدأ وجوده فى كتابه «بناء السلام» (الذى ألفه سنة فى ١٩١٩) ،وهو أفضل وثيقة كتبت عن المؤتمر ومن أعظم الاعترافات السياسية فى العصر الحاضر .

وإذ يقارن بين نظرة الجيل الذى عاش فيه والنظرة الساحرة التى كانت لبناة السلام فى مؤتمر فيينا الذين أجهدوا أنفسهم لإعادة بناء أوربا الملكية بعد أن أنهكتها الثورات والحروب، يروى ذكرياته الشخصية فى أثناء سفره إلى باريس فى أوائل يناير سنة ١٩١٩ ليضطلع بأعباء العمل الذى كلف به فى المؤتمر « لقد شعرت

عندما اقترب القطار من سانت دنيس بأنى على علم تام بالأخطاء التى ارتكبها الأرستقراطيون الذين مثلوا إنجلترا سنة ١٩١٤ ، سواء منهم الذين ضلوا طريق العمل والرجعيون والعاطفيون .

« لقد كانوا يعملون فى سرية تامة ولكنا — من ناحية أخرى كنا نحصل على القرارات الصريحة التى يصلون إليها ، وكانت شعوب العالم تشاركنا فى كل ما يتعلق بالمفاوضات .

« وفى فينا كانوا يؤمنون بمبدأ « التعويضات » ولكنا كنا نؤمن بالقومية وبحق الشعوب فى تقرير المصير . . . فالشعوب والأقاليم — كما تنص المبادئ الأربعة (للرئيس ولسن) ويجب ألا تكون مادة للمقايضة تتغير بين الحكومات كأنها قطع من الأثاث أو قطع من الشطرنج .

« وفوق ذلك فقد كنا مسافرين إلى باريس لا لإنهاء حرب فحسب، بل لبناء نظام جديد للحكم فى أوربا . ولم نكن نخطط للسلام فقط ، بل كنا نخطط للسلام الدائم الخالد . لقد كنا نحس بأن لنا رسالة سماوية عليا . . »

وباستثناء ولسن ، لم يكن المندبون الرسميون بالمؤتمر (وعددهم ٧٠ مندوبا يمثلون ٢٧ دولة) كبيرى الأمل . ويبدو أن معظمهم فى نظر نيكلسن وزملائه كانوا مهتمين بالغنائم ، وكان فى حاجة إلى المعلومات التاريخية والجغرافية المفصلة عن أوربا التى كانت تمكن الخبراء الشبان من بيان حدود الدولة المثالية ، ولم يبد على رؤساء الوفود تلك النظرة البلهاء عند ذكر بعض الأماكن فحسب ، بل إن لويد جورج أخذ يستهزئ مرة بالمتخصصين بادعائه علناً أنه لم يسمع قط فى حياته عن تيشن (١)

---

(١) فى الجنوب الشرقى من سيليزيا .

ويبدو أن الرأى العام فى أوربا كلها كان مختلفاً إلى حد ما ، وكان الشعور بالأمل عاماً فى كل مكان تقريباً . فبعد هذا الليل الطويل من سفك الدماء والظلم كان هناك ظمأ شديد لدى كل الناس لا للسلام وحده ولكن للعدالة والإخاء . إلا أن شعور الكراهية والخوف الذى نشرته أبواق الدعاية بكل قسوة بين الناس كان ما يزال مخيماً على عقول المنتصرين والمنهزمين على السواء ، وزاد حدة الشعور ماجرى به العرف والتقاليد من نهب المغلوبين وأسرهم . فإذا كانت هناك مسألة واحدة يتفق عليها المثاليون والساخرون والخبراء والأشخاص العاديون والمنتصرون والمهزومون فهى وقوع مسئولية الآلام والمآسى الأوربية على كاهل الحكومات المستبدة البائدة . وكانت الحرب هى الثمرة الملعونة للاستبداد والظلم والفساد ، وكان الغرض من مؤتمر السلام فى باريس أن يكون نصراً وتدعيا للديموقراطية العالمية .

وكان الرائد الأول بلا شك لهذه العقيدة الجديدة وودرو ولسن نفسه . الذى كان نيكلس يسميه « نبيا » ولم يكن ولسن (٦٣ سنة) بحذائه العالى وملابسه العادية ومنظاره الذى يدل على أستاذيته ورأسه الكبير ولونه الشاحب وأسنانه القبيحة التى توحى بحصان من أكلة اللحوم ، ملفتاً للنظر ، بل كان أقل شبهاً بالنبى منه بالجراح العصرى ، الذى يقف دون أن يبدو عليه التأثر بجوار أصحاب الملايين وهم على فراش الموت ، ويؤيد تشخيص المرض . ومع أن الفرق بينه وبين القيصر اسكندر الشاب المندفع فى مؤتمر فيينا لاحد له ، إلاأن ولسن كان أعظم سلطاناً فى مؤتمر باريس . . سياسياً وفكرياً من اسكندر فى المؤتمر السياسى فى فيينا . ورغم تحذير أخلص نصحائه صمم الرئيس ولسن على أن يرأس شخصياً وفد الولايات المتحدة ووصل فى ديسمبر . وقبل افتتاح المؤتمر قام بجولة زار فيها عواصم دول الحلفاء فى الغرب ،

وأينما حل كانت تهرع إليه الجماهير لتحيته . وكانت رياسته للمؤتمر على ما يبدو أولا لا نزاع فيها . فزيادة على منزلته بصفته حائزاً على جائزة نوبل للسلام التى منحت له سنة ١٩١٩ ، كان يملك أقوى جيش فى العالم (لأنه كان الجيش الوحيد الذى لم تنهك قوته) ، والأغذية التى كانت أوربا الجائعة فى حاجة إليها ، والذهب الذى يحول دون إفلاسها . وكان عنده أيضاً الإيمان القوى .

وخلاصة المبادئ الولسنية تتضمنها ثلاثة نصوص أساسية هى : النقط الأربع عشرة التى أعلنت فى ٨ من يناير سنة ١٩١٨ . والمبادئ الأربعة التى أعلنت فى ١١ من فبراير سنة ١٩١٨ . والنقاط الخاصة الخمس التى أعلنت فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩١٨. والنصان الأولان هما أساساً وثيقتان تستحقان التقدير ، وهما واقعيتان وعلى مستوى رفيع من التفكير الإنسانى فى العصر الذى أعلنتا فيه . (والنقاط الخمس زيادة على أنها قابلة للجدل متعلقة بإنشاء عصبة الأمم) ولما كانت محاولة أولية لإزالة ما تهدم من نظام الحكم القديم المنهار فى أوربا وإقامة أسس قوية لنظام جديد، فإنها لا تستحق ماوجه إليها من ازدراء منذ إعلانها ، بل إن كثيراً من الشروط التى تشملها مايزال صحيحاً فى هذه الأيام ، والواقع أنها زادت على مر الزمن قوة حجة ورسوخ قدم .

وجدير بنا أن نتلوها فى هذا المقام ، وها هى ذى النقط الأربع عشرة موجزة فيما يلى : —

١ — اتفاقيات الصلح تكون علنية ، والمفاوضات التى توصل إليها علنية كذلك . وبعد تمام الصلح لايجوز الاتفاق دولياً على أى شىء ، بل يجب أن تعمل الدبلوماسية فى صراحة دائماً ، وفى وضح النهار (أو على مرأى من الجميع) .

٢ — حرية الملاحة المطلقة فى جميع البحار ماعدا « المياه الإقليمية فى السلم وفى الحرب على السواء » .

٣ — إزالة جميع الحواجز الاقتصادية بقدر الإمكان .

٤ — أخذ وإعطاء الضمانات الكافية لتخفيض التسليح إلى أقل مستوى يتفق مع الأمن المحلى .

٥ — تسوية جميع الدعاوى الاستعمارية تسوية حرة صادقة منزهة عن الغرض ، على أساس أن تكون مراعاة مصلحة الشعوب المحكومة مماثلة لمراعاة المطالب العادلة التى تطالب بها الدولة الحاكمة .

٦ — الجلاء عن جميع البلاد الروسية ــ ومنح روسيا الفرصة العاجلة لتقرير نظامها السياسى وسياستها الوطنية ، وعصبة الأمم ترحب بعضويتها وتقدم أكثر من الترحيب ، مع احتفاظها بالنظام الذى ترتضيه فى حرية تامة ، ومنحها كل مساعدة ممكنة .

٧ — الجلاء عن بلجيكا وإعادة كيانها .

٨ — الجلاء عن فرنسا ورد المناطق المحتلة إليها ، وإعادة الألزاس واللورين إليها .

٩ — إعادة تعيين الحدود الإيطالية بحيث تتفق مع التخطيط القومى المعروف .

١٠ — منح شعوب النمسا والمجر أكبر فرصة للحصول على الاستقلال الذاتى . (ملحوظة : هذه النقطة عدلت فيما بعد ونصت على الاستقلال التام بدلا من الحكم الذاتى) .

١١ — الجلاء عن رومانيا والصرب والجبل الأسود . ومنح الصرب طريقاً إلى البحر .

١٢ — ضمان السيادة للمنطقة التركية من الإمبراطورية العثمانية . ويتقرر للقوميات التابعة الأمن التام والفرصة الكاملة للحصول على الاستقلال الذاتى . فتقرر حرية الملاحة فى المضايق .

١٣ — إقامة دولة بولندية مستقلة تمثل جميع المناطق التى يسكنها البولنديون ولا ينازعهم فيها أحد، ومنحها حق الوصول إلى البحر .

١٤ — إنشاء جمعية عامة للشعوب بناء على اتفاق ، بقصد منح الضمانات المشتركة للاستقلال السياسى والوحدة الإقليمية للدول الكبيرة والدول الصغيرة على السواء .

والمبادئ الأربعة ملخصة فيما يلى :

١ — كل جزء من التسوية النهائية لأى موضوع يجب أن يكون مبنياً على عدالة هذا الموضوع .

٢ — يجب ألا تنقل الشعوب والبلاد من دولة إلى أخرى كأنها سلع منقولة أو أدوات للعب .

٣ — كل اتفاق إقليمى يجب أن يكون لمصلحة سكان الإقليم ، لا تسوية للدعاوى المختلفة التى تدعيها الدولة المتنافسة .

٤ — كل العناصر الوطنية المحددة يجب أن تمنح كل وسائل البقاء الممكنة دون إدخال عناصر جديدة . أو بعث عناصر قديمة للخلاف والحزازات .

وهناك عبارة قدم بها ولسن للمبادئ الأربعة فأصبحت فى حكم مبدأ خامس، وهى أن معاهدة الصلح النهائية يجب ألا تشمل تقريراً بضم أية منطقة أو منح أية إعانة، أو دفع أى تعويض.

وإذا كان فى شروط ولسن الأربعة عشر والمبادئ الأربعة أى عيب خطير، فإنه يكمن فى إيمانها الساذج بالدبلوماسية المكشوفة، وفى افتراضها الضمنى أن أكبر عيب فى الدبلوماسية العالمية القديمة كان فى سريتها أكثر مما كان فى عدم تحملها المسئولية. لقد كان فى تنظيم المؤتمر وفى نماذج عمله مايدل على قراءة التاريخ المعاصر قراءة خاطئة. لقد عقدت جلسات المؤتمر بكامل أعضائه فى حجرة الساعة فى قصر كيه دورساى، الذى لم يذكرنا ما فيه من نجف بلورى وكراسى مذهبة وستائر حريرية بمظاهر الدبلوماسية القديمة فحسب، بل كان يذكرنا بقصة من أسوأ قصصها — قصة التآمر بين فرنسا وروسيا القيصرية — الذى جعل قيام الحرب أمراً لا يمكن تجنبه. وفضلا عن ذلك، فإن الأسلوب الذى اتبعه الرؤساء الثلاثة فى المؤتمر — ولسن وكلمنصو ولويد جورج — فى إصلاح العالم كان يذكرنا أحياناً بالتجارب غير الموفقة فى الدبلوماسية الشخصية التى كان يقوم بها « ولى » و « نكى ». بل مرت بنا فترات فى هذا المؤتمر ذكرتنا فى ألم شديد بالملوك فى مؤتمر فيينا حيث كانوا ينقلون الشعوب فى البلاد من دولة إلى أخرى كأنها سلع أو أدوات للعب (وكانت النتيجة النهائية ذلك الصلح الذى كان أقل حوراً وأكثر إنسانية من صلح باريس). ولقد قيل عن كلمنصو — وكان فى الثامنة والسبعين من عمره، وهو (كما يقول نيكلسن) أشبه بالغوريلا المصنوعة من العاج الأصفر، بحواجبه الكثيفة البيضاء وشواربه التتارية المدلاة — إن لديه فكرة واحدة تخدعه هى فرنسا وفكرة واحدة لا تخدعه هى الجنس البشرى بما فيهم الفرنسيون.

أما لويد جورج بعرفه الكثيف الأبيض، ونشاطه العظيم، وعاطفته المتأججة، فكان أقل واقعية، ولكن أقدر على أداء أعمال متنوعة. وليس له مثيل فى سرعة البت فى الأمور. قال عنه ابنه « إنه رجل لا يمكن إلا أن تعجب به ولا يمكن إلا أن تحبه، وإن كان من الجائز ألا تعفو عن أخطائه ». ويرسم نيكلسن صورة لا تنسى لرؤساء المؤتمر الثلاثة وهم منكبون على خريطة جغرافية كبيرة على أرض مكتب الرئيس، يقطعون أوصال الإمبراطورية العثمانية فى سرور (يجب طرد تركيا من أوربا ومن أرمينيا، ويجب أن تحصل اليونان على منطقة أزيد، وتعطى إيطاليا الوصاية على جنوب آسيا الصغرى ... وتأخذ فرنسا ما بقى).

وهذه القصة تمثل الاتجاهين المختلفين لرؤساء المؤتمر، اللذين يكملان بعضهما البعض، والمسئولين عن ضياع أمل أوربا. فأما الأول فقد كان عدم إدراك — أو الامتناع عن الاعتراف — أن الإمبراطوريات التى كانت تحكمها الأسرات القديمة — رغم شرورها وآثامها — قد حققت إلى حد ما التعايش السلمى لمجموعات من الناس، قضت عليهم ظروف الزمان والمكان أن يعيشوا فى صعيد واحد، وبهذا قامت فعلا بدور حيوى وبخاصة من الناحية الاقتصادية. وكما يبدو لم يدرك من قادة الحلفاء إلا مازاريك وبنس أنه لا بد من بديل ولسنى يقوم مقام حكومة آل هابسبرج فى وسط أوربا. (ومن سوء الحظ أن لفكرتهما — وسط أوربا تحت حكم السلاف — مساوئها). أما الخطأ الثانى الشنيع فهو عدم مراعاة مبادئ ولسون، وبخاصة النص الذى يحذر من « إدخال عناصر جديدة تدعو للخلاف والعداوة » عند بحث بعض الحالات.

وبعد هذا التدهور فى باريس انتشرت فى الولايات المتحدة أسطورة مؤداها أن طمع الحلفاء وفساد الناس ونفاقهم تغلب على مثالية العالم الجديد وأدى إلى إفساد الصلح.

وهذه الحكاية تتفق مع ماهو معروف عن سذاجة الأمريكيين الفطرية وحبث الأوربيين ، ولكنها أغفلت أن ولسن نفسه كان أكبر خائن للمبادئ الولسنية وبعض أصحاب الرأى يلومون مستشاريه أو خصومه السياسيين فى بلاده، وبعضهم يلقى التبعة على عيوبه هو: ضيق عقله وغروره واستقامته وتعصبه ومافى طبعه من التردد الممزوج بالصرامة. ويصفه الكولونيل هاوس بقوله: « إذا نزل الرئيس من مقعده السامى واحتدم فى النقاش مع ساسة الدول الأخرى على قدم المساواة ، فإنه يصير رجلا عاديا كسائر الرجال ». وسجل كل من لويد جورج — وكان يحس بأنه أقرب إلى نفس ولسن من سائر ساسة البلاد الحليفة — وونستن تشرشل — الذى كان لا يطيقه — رأيهما فى شخصيته. فكتب عنه لويد جورج فى مذكراته عن المؤتمر « أن ولسن هو أوضح مثل رأيته فى حياتى لازدواج الشخصية ، والشخصيتان التى يتكون هو منهما لا يتقابلان مطلقاً ولا يمتزجان ... فهو يتكون من الذهب الخالص ومن الطين، وكلا العنصرين باد للعين المجردة . وهو أعجب من رأيت ممن يمتزج فيه الرجل الشريف بالرجل العابث، والرجل المثالى الممتاز بالرجل المملوء بالحزازات الدنيئة ».

وهو فى رأى تشرشل يمثل جيكل وهايد فى التباين بين ولسن المثالى العالمى وولسن رئيس الحزب الديموقراطى فى جبروته وقوة نزعته . وقد كتب عنه فى « أزمة العالم » . قال : « كانت نظرته إلى مستقبل العالم جدية مثل نظرته إلى مصالح أفراد حزبه . كان يهتم بالسلام لجميع الشعوب ، ولكن لا يهتم بالتفاهم مع الحزب الجمهورى فى وطنه. كان ذلك بطاقة المرور فى يده ، ولكن كان فيها القضاء عليه وعلى أمور كثيرة أخرى » .

والواقع أن خيانة ولسن لمبادئه ترجع - كما يوضح نيكلسن فى مذكرته عن مؤتمر السلام - إلى الاختيار المتعمدين مظهرى الشخصية الولسنية . ففى أثناء البحث فى كثير من المسائل التمهيدية مع زملائه أعضاء المؤتمر ضحى الرئيس مراراً بالنقط الأربع عشرة (بل وبالمبادئ الأربعة) فى مقابل الموافقة على حل عصبة الأمم . علماً بأن ولسن لم يكن هو الذى ابتدع الفكرة، فهى خلاصة جملة مقترحات ترجع إلى القرن السادس عشر ، ولم يكن هو المسئول عن كتابة النص الابتدائى لعصبة الأمم الذى كان الخبراء البريطانيون والفرنسيون أعدوا بحوثاً تمهيدية له قبل دخول أمريكا الحرب . ولكنه أضفى على الفكرة من الأهمية أكثر من زملائه . وأيدها بحماسة أقوى من سائر الناس . وكان أكثر دراية بالدور الذى سوف تضطلع به . ومهما كانت أخطاؤه بوصفه سياسياً عالمياً فإنه كان من أعظم أصحاب الرسالات السياسية فى جيلنا الحاضر ، وفى أى جيل آخر . وكان الحلم الذى يراوده عظيما فى موضوعه كحلم لينين . وقد تخيل ولسن عصبة الأمم فى صورة قريبة جداً من صورة الحكومه العالمية الحقيقية - وكانت إحدى نقاطه الخاصة الخمس المتعلقة بها تنص على منع كل المحالفات وحتى التجمعات الاقتصادية بين أعضائها - ولا شك أن منطقه أوهمه هو أن سلطتها ستكون قادرة على حماية المصالح الشرعية للأقليات ، التى عمد صانعو السلام إلى قيامها .

ولم يكن ذا أهمية أن تظهر فى أوربا مواطن جديدة للظلم ، أو تبقى بعض المواطن القديمة فيها، مادامت قد اخترعت آلة لاصطناع العدالة وهى عصبة الأمم . ولا شك أن من الممكن التغاضى عن بعض الشر إذا أمكن إنشاء جهاز لعمل الخير . وهذا هو الخطأ .

ومن الأسباب الكثيرة التى أدت إلى فشل عصبة الأمم آخر الأمر أنها لم تشيد على صخرة العدالة ، وإنما أقيمت على أسس واهية دعت إليها الظروف المسيطرة على المؤتمر .

وأخذت الحقيقة تتضح قبل أن ينتهى المؤتمر من عمله . ولم تكن نتيجة محاولة استبدال الدبلوماسية الصريحة بالدبلوماسية السرية إلا اجتماع مساوئ النظامين، مع عدم الاحتفاظ بمحاسن أى نظام منهما . وإذا تم الاتفاق بشأن بعض الأقاليم بصفة سرية وكاد لا يتفق مع قواعد العدالة ، نشبت المشاحنات العنيفة بين المندوبين . وكم من مرة اصطدم ولسن مع كلمنصو الذى نشب أظافره فى وادى السار ومنطقة الراين ، واشتد النزاع كثيراً لتخليصهما من براثنه — كما اصطدم مع المندوبين الإيطاليين — مع رئيس الوزراء فيتوريو إمانويل وأولاندو ووزير الخارجية سدنى سونينو . لقد كان فى معاهدة لندن السرية (أبريل سنة ١٩١٥) نص يمنح إيطاليا جنوب التيرول وشمال دلماشيا ومعظم الجزائر الدلماشية وجزائر الدوديكانيز الآهلة بالسكان اليونانيين . ولا شك أن مطالب إيطاليا كانت تقابل بالرفض من جميع الجهات ، وبخاصة من قبل يوغوسلافيا الدولة الحديثة .

ولما كانت كل من بريطانيا وفرنسا لا تستطيع أن تسحب وعدها مع حليفتها وشريكتها فى الحرب ، فقد أصبح على عاتق ولسن أن ينكر على إيطاليا جزاءها الذى تستحقه فى مقابل نصف مليون إيطالى فقدتهم فى الحرب . ولقد أدى ذلك إلى غضب الحكومة الإيطالية والرأى العام الإيطالى . وغادر المؤتمر أورلاندو وسونينو ، وأخيراً أمكن الوصول إلى اتفاق أعرج لم يرض الطرفين المتنازعين

وإيطاليا بصفة خاصة ، فضلا عن خروجه على مبدأ ولسن الخاص بحق تقرير المصير .

(لم تبلغ إيطاليا سن الرشد بوصفها دولة مستقلة ذات سيادة إلا أخيراً ، ولم تصبح لها مطامع إمبراطورية إلا بعد أن استولى منافسوها الأقوياء على أثمن الغنائم الاستعمارية . ولذلك فرغم النضج الفكرى لدى الصفوة الإيطالية فى معظم النواحى الأخرى ،فإن القومية الإيطالية أظهرت آيات روما نسية المراهقة المتأخرة. ولقد كانت الانتهازية غير المسئولة فى السياسة الخارجية الإيطالية عاملا فى إعداد مسرح الحرب العالمية الأولى — عاملا أهم بكثير مما يستطيع حيز محدود فى هذا الكتاب أن يستوعبه — ثم إنها لعبت دورا أشد خطورة لإشعال نار الحرب العالمية الثانية . وكان قادة البلاد الغربية فى فرساى وبعد فرساى مترددين بين عدم الاهتمام بمطالب إيطاليا وبين الاستجابة لمطالبها السياسية) .

وكانت أسوأ المظالم الإقليمية أو الحماقات الإقليمية التى تضمنتها معاهدات الصلح — مع أنها كانت سيئة للغاية — روح الانتقام التى سادتها وبخاصة فى المعاهدة الألمانية ، فقد اشترط ولسن عدم فرض تعويضات تأديبية ، إلا أن العقلية الحقيقية المسيطرة على المؤتمر الذى يتألف من زعماء غير مسئولين فى البلاد المنتصرة ،أجاد وصفها سير إريك جدس أحد وزراء لويد جورج فى وعد له فى أثناء جولة انتخابية له فى ديسمبر سنة ١٩١٨ قال (سأعصرها « يعنى ألمانيا »، حتى تسمع أنينها) .

وأجبرت الصورة النهائية للمعاهدة المندوبين الألمان على الاعتراف بمسئولية

بلادهم وحدها عن قيام الحرب . ولعل هذا أسوأ اجتراء على التاريخ ارتكبته الحكومات المتمدينة . وطالبت بمحاكمة القيصر وغيره من القادة الألمان بصفتهم مجرمى الحرب، ودعت ألمانيا إلى دفع تعويضات عن كل مالحق الحلفاء من إضرار فى أثناء الحرب، وبعد انتظار تقدير ما يجب عليها دفعه حدد أخيراً هذا المبلغ الخيالى وهو ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ، تدفع منه فى مايو سنة ١٩٢١ قسطا قدره ٥٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار . وربما كان النص على أن ألمانيا هى المسئولة عن الحرب وجسامة التعويضات الخيالية من العوامل الرئيسية لظهور هتلر بعد ذلك .

ورغم أن النص على تجريد ألمانيا من السلاح كان معقولا إلى حد ما ، فإنه لم يكن أقل وقعا من فداحة التعويضات فى جرح الكرامة الوطنية الألمانية . لقد حدد الجيش الألمانى بمائة ألف مقاتل، وحرمت وسائل الدفاع الثقيلة بما فيها الطائرات الحربية ، واقتصرت السفن الحربية على ست سفن ، وحرمت حيازة الغواصات . وأبيح للحلفاء احتلال منطقة الراين مدة خمس عشرة سنة (أو تزيد إذا لزم الأمر)، وجعلت منطقة الجانب الأيمن من نهر الراين بعرض ٣٠ ميلا منطقة محايدة ، واعتبرت الأنهار الألمانية دولية ، كما تقرر فتح قناة كيل لسائر الدول .

وحتى وصول الوفد الألمانى للصلح فى ٢٩ من أبريل، لم تدر أية مناقشة بين الحلفاء وبين خصمهم فى شروط الصلح المنتظر . وكان رئيس الجانب الألمانى الكونت بروكدورف رانتساو بصفته وزير الخارجية — رجلا ضخم العنق يدل مظهره على نبالة عنصره . (قال مرة إننا فى أسرتنا نعتبر البوربون أولاد سفاح).وقد نبه إلى ما يحتمل أن يصادفه فى مؤتمر الصلح ولكنه أبى أن يصدق ما نبه إليه . . .

وظهر استياؤه الشديد فى تعليقاته الرسمية على شروط الحلفاء التى وضعت فى أثناء أحد الاجتماعات القصيرة بين المنتصرين والمهزومين فى فندق تريانو فى فرساى ،فيقول فى صوت مختنق « نحن نعرف قوة الكراهية التى نقابل بها هنا . وقد سمعنا ذلك المطلب القاسى الذى يجبرنا المنتصرون على قبوله بسبب هزيمتنا ، وعقابا لنا كمجرمين يطلبون منا الاعتراف بأننا وحدنا المجرمون دونهم ، إن مثل هـذا الاعتراف سيكون أكذوبة إذا نطق بها لسانى » .

وكان الجواب الألمانى كريما معتدلا ومؤثرا إلى حد ما ، ولـكن لويد جورج الذى أحس باعتدال عبارته يذكر أن تأثيره فى نفوس مندوبى الحلفاء أتلفه بقاء رانتساو جالسا عند قراءته ، بينما وقف كلمنصو عند إعلان افتتاح جلسة المؤتمر . وعد تصرف رانتساو متفقا مع صلف الألمان ، وهو ما جعل الرئيس ولسن ينهى الموضوع فجأة . ويقول لويد جورج فى مذكراته تعليقا على هذا الموقف « لقد التفت إلى قائلا : أليس هذا صورة من أخلاقهم ؟ » .

ولم يدرك الألمـان على العموم الألم العميق الذى تركته أهوال الحرب وفظائع الغواصات فى عقول أعدائهم . ولم يقدروا كذلك فداحة الهزيمة التى حلت بهم ، كما أنهم لم يدركوا أن الهدنة كانت ملجأهم الأخير فى موقفهم الحربى اليائس ، وأن القيادة العليا هى التى سعت إلى الهدنة فى إلحاح شديد . وكان الألمان بصفة عامة يظنون أن الهدنة ليست إلا إجراء دعت إليه ظروف الحرب وأنها سوف تؤدى إلى السـلام العادل الذى يتوق إليه الجميع والذى وعدهم به ولسن . والآن وقد تخلصوا من القيصر وانتصروا على الثورة وأصدروا لأنفسهم دستورا نموذجيا للديمقراطية ، فقد توقعوا أن تقبل دولتهم عضوا له مكانته فى هيئة الأمم الجديدة . وكانت هذه الهيئة الدولية الجديدة محل تقدير بخاصة لدى ذلك الجيل من الألمـان الذى نشأ ، فى ظل الظروف القاسية . ويقول المؤرخ لودفيج دهيو

« لقد وعدهم ولسن فى مبادئه بالتحرر من قيودهم وتخليصهم من النظام القديم الخانق... وإقامة نظام محايد سلمى . ولكنه جاءهم بحل تجيب لكل المشكلة الألمانية ».

وأثار إعلان شروط المعاهدة حنقاً عاماً ويأساً ذريعاً فى جميع أنحاء ألمانيا . وعمق الإحساس بالظلم الذى سببته هذه الشروط فى نفوس الألمان ، تلك المعاملة المزرية التى عومل بها المندوبون الألمان فى مؤتمر السلام ، إذ وضعوا فيما يشبه قفص المجرمين . ونسى الألمان حربهم لأهلية بضعة أسابيع ،وكان لصيحة المستشار شيدمان « ألا فلتذبل كل يد تمتد للتوقيع على مثل هذه المعاهدة » صدى فى صدر كل ألمانى. وفى جميع الاجتماعات التى عقدت فى أنحاء ألمانيا عموماً كانت الصيحة المدوية الغاضبة تطالب بالامتناع عن توقيع معاهدة فرساى . وأحست الحكومة أن نتيجة هذا سوف تكون بعث الحرب من جديد ، ولم يكن الحلفاء وبخاصة الفرنسيين فى حالة تسمح بالتساهل، ودللوا على سلطتهم بأن سمحوا بقيام الجمهورية القصيرة الأجل فى حوض نهر الراين فى أول يونيو سنة ١٩١٩ . وكان حصار الحلفاء مازال قائماً ، والألمان على حافة الموت جوعاً . وأبلغت القيادة العليا الألمانية الحكومة وهى مشمئزة ، أن استئناف الحرب مسألة لا شك فيها . وفى الرابع والعشرين من يونيو وافقت الوزارة الألمانية على إنذار الحلفاء النهائى ، وأبلغت كلمنصو قبولها شروط الصلح بلا أى قيد .

وتم التوقيع على الصلح مع ألمانيا فى ٢٨ من يونيو سنة ١٩١٩ فى فرساى ، وسمى فى سجلات التاريخ بمعاهدة فرساى ، وأقيمت حفلة التوقيع فى صالة المرايا الفخمة التى فى القصر الملكى ،والتى تشبه الآثار الفرعونية، إرضاء لجنون العظمة الذى كان من صفات لويس الرابع عشر ،الذى تهتز لذكرى عظمته أعطاف أكثر الفرنسيين تقديراً للجمهورية . وجلس على رأس المائدة التى على شكل حدوة حصان كرئيس للدولة كلمنصو، ذلك الجمهورى القح والوطنى الصميم . وكان ولسن على يمينه ولويد

جورج على يساره، وكان اليوم يوم مجده — يوم النمر . وهذا الرجل العظيم الذى قاد أمة متهالكة إلى النصر والذى كان يسىء إلى مندوبى الصلح باعتداده الشديد بعظمته، عرف طريق السجن والنفى فى شبابه . ولكن الحصار الألمانى لباريس سنة ١٨٧١ هو الذى يذكره ولا ينساه . وكان حفل توقيع المعاهدة فى فرساى هو انتقام كلمنصو من ألمانيا لإذلالها فرنسا عندما أعلن بسمارك قيام الإمبراطورية الألمانية فى صالة المرايا نفسها منذ نصف قرن . وقد اشتملت المعاهدة على تصميمه الظاهر على أن تظل ألمانيا فى حالة ضعف دائم لا تستطيع معه محاولة غزو فرنسا مرة ثانية .

وبينما كانت طلقات المدافع خارج القصر تؤدى التحية والشعب يهلل تهليلا يسمع على مسافات بعيدة ، كان المندوبان الألمانيان الدكتور مولر والدكتور بل — فى حالة من الغم اصفرت لها وجوههما وجمدت لها أجسامهما — يوقعان باسميهما الوثيقة الطويلة التى سوف تربط على الدوام الديموقراطية الألمانية الناشئة بيوم العار القومى .

ولقد سمع نكلسون رد كلمنصو على تهنئة أحد زملائه بينما كانت عيناه تفيض بدموع الغبطة وهو يقول « نعم ، إنه يوم جميل » . ولم يكن كل من شهدوه متفقين فى الرأى . فيقول الكولونيل هاوس ، وهو أكثر المندوبين الأمريكيين حكمة « إنه لشديد الشبه بما كان يحدث فى الأيام الخالية عند ما كان المنتصر يربط المنهزم بعجلات عرشه » . وكانت آخر الكلمات التى سجلها نكلسون تعليقاً على ذلك اليوم التاريخى « إلى فراشى ، لقد سئمت الحياة » .

وباستثناء العبارة المتعلقة بجريمة الحرب بالتعويضات الخيالية التى لم يدفع منها إلا قسط واحد ، لم تكن المعاهدة الألمانية بالقسوة التى صورتها الدعايات فيما بعد . وإنه لخطأ يدعو للأسى أن تكون الأداة الدبلوماسية التى عاقبت ألمانيا لهزيمتها فى الحرب هى نفسها التى كانت سبباً فى إنشاء عصبة الأمم التى سوف تكون دعامة النظام العام فى أوربا . ولم يتحسن الموقف بالمعاهدات الأخرى التى

انضمت إليها — وكلها أعدت فى مؤتمر باريس — معاهدة السلام النمسوية التى وقعت فى سان جرمان (بجوار باريس) فى ١٠ من سبتمبر سنة ١٩١٩ ، والمعاهدة التى وقعت فى نيولى إحدى ضواحى العاصمة الفرنسية فى ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٩ ، والمعاهدة المجرية التى وقعت فى قصر تريانو بفرساى فى ٢٤ من يونيو سنة ١٩٢٠ ، ومعاهدة سيفر التى نهشت جسم الدولة العثمانية والتى وقعت فى ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٢٠ ، واستبدلت بها فيما بعد معاهدة لوزان المعتدلة لأسباب سوف نذكرها فيما بعد .

وكانت أوربا الجديدة بوجه عام من عمل مؤتمر السلام فى باريس مع شىء من التعديل نتيجة للاستفتاءات المحلية التى جرت بعد ذلك على أساس شروط المعاهدات المختلفة . ولكن بنيت حدود بعض البلاد الشرقية والشمالية الشرقية فى أوربا على أساس اتفاقات أخرى . جاء بعضها نتيجة غير مباشرة لمعاهدة برست ليتوفسك ، وبعضها لفوضى الحرب الأهلية فى روسيا (لم تدع روسيا السوفييتية للمؤتمر رغم أنه قرر فصل بعض الأقاليم عنها) .

وظهرت تسعة بلاد مستقلة وهى فنلندا ولاتفيا ولتوانيا وإستونيا ، وكانت من قبل مقاطعات روسية ، واستردت بولندا كيانها وكانت مقسمة بين روسيا والنمسا وألمانيا ، وكذلك تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وانفصلت النمسا عن المجر لأول مرة وأصبحت كل منهما دولة مستقلة ذات سيادة . واختفت ثلاثة بلاد كانت قائمة قبل الحرب ، وهى المملكة الثنائية والصرب والجبل الأسود (انضم الأخيران إلى يوغوسلافيا الجديده التى تحكمها أسرة كراجيرجفيك وهى الأسرة الحاكمة فى الصرب) . أما التغيير الذى طرأ على خريطة آسيا الصغرى فسأتناوله بالبحث على انفراد .

وفقدت روسيا نتيجة للثورة الروسية والحرب فنلندا والولايات التى على البحر البلطى ، والولايات البولندية السابقه وبعض المناطق فى أوكرانيا وبسارابيا (التى ضمت إلى رومانيا) .

وسلخت عن ألمانيا جميع مستعمراتها بمقتضى معاهدة فرساى ، وقسمت بين فرنسا والكومنولث البريطانى وبلجيكا واليابان ، وأعادت الألزاس واللورين إلى فرنسا ، وعهدت بحقول الفحم الغنية فى منطقة السار للادارة الفرنسية ، وتنازلت عن مقاطعتى يوپن وماليدى إلى بلجيكا ، وأعادت شمال شلزويج إلى الدانيمارك .

وكانت أفدح خسارتها فى الشرق . فزيادة على المنطقة البولندية السابقة كان عليها أن ترد إلى بولندا منطقة كبيرة من سيليزيا ، كانت دائما منطقة خلاف مع طريق موصل إلى البحر البلطى —أغلب سكانه من البولنديين— يفصل بروسيا الشرقية عن بقية الإمبراطورية الألمانية . وانتزعت من ألمانيا ميناء دانزيج القديمة التى كان معظم سكانها من الألمان وأصبحت ميناء حراً تحت إشراف إدارة دولية . (وضمت ميمل ، وهى مدينة ألمانية أخرى إلى ليتوانيا) . وكان وضع دانزيج والممر البولندى فيما بعد الأساس الذى بنى عليه هتلر دعواه فى إشعال نار الحرب العالمية الثانية .

وحرمت بلغاريا من مينائها على البحر الإيجى ، وسلمت أجزاء كبيرة من أملاكها إلى اليونان ورومانيا (وحصلت رومانيا على أكبر كسب من وراء معاهدات الصلح ، وحصلت أيضاً على ترانسلفانيا المجرية) ، وحصلت إيطاليا من النمسا على التيرول الجنوبى وترنتينو وميناء تريست العظيمة ، ولكنها أجبرت على التخلى عن دعواها فى الجزر الدلماشية وفى ألبانيا .

وكانت النمسا والمجر أكبر ضحايا معاهدات السلام . إذ كانت خسارة المجر ١٩٢٠٠٠ كيلو متر من مجموع مساحتها البالغ قدرها ٢٨٣٠٠٠ كيلو متراً وفقدت من سكانها ١٠٦٤٩٤١٦ من مجموع السكان البالغ عددهم ١٨٢٦٤٥٣٣ نسمة وزيادة على المناطق التى يغلب فيها العنصر السلافى فى الإمبراطورية القديمة التى أعلنت استقلالها فى يوغوسلافيا

وبولندا وتشيكوسلوفاكيا خسرت الإمبراطورية عدداً من الأقليات الألمانية أو المجرية ، وأصبحت تابعة للدول التى استقلت عنها وإلى إيطاليا ورومانيا ، فأصبح حوالى ٠٠٠ ٠٠٠ ٣ مجرى تابعين لغير وطنهم .

ورغم احتجاج النمسا فقد انتقل أكثر من ٠٠٠ ٠٠٠ ٣ ألمانى نمسوى إلى تشيكوسلوفاكيا ، وأكثر من ٢٥٠٠٠٠ إلى إيطاليا (فى جنوب التيرول) بناء على معاهدات الصلح .

وكان من أشق المسائل فى شرق أوربا ووسطها تعيين حدود وطنية تتفق ولو على وجه التقريب مع حدود الجنسيات واللغات . وحتى إذا نجح الرئيس ولسن فى التمسك بحق تقرير المصير فى كل مكان متنازع عليه ، فلم يكن هناك بد من أن تشمل الدول الجديدة التى ورثت الدول القديمة أعداداً كبيرة من الأقليات داخل حدودها . وفى حوض الدانوب وفى البلقان خليط من الأجناس لا يمكن التخلص منه إلا بالقتل الجماعى أو بالجلاء الجماعى . وفى كثير من الظروف أغفل ساسة باريس نظرية تقرير المصير إغفالاً تاماً واعتمدوا فى تعيين الحدود على أسس حربية أو على أثر إقطاعى قديم . وهذه تشيكوسلوفاكيا ، إنها صورة جديدة من صور القرن العشرين لدولة بوهيميا التى كانت فى القرون الوسطى . وهى تمثل هذه المشكلة على أوسع نطاق . لقد كان تعداد سكانها فى سنة ١٩٢١ — ٣٦٤و٣٧٤و١٣ منهم ٤٣١ ٧٤٥ مجرياً و٥٦٨و١٢٣و٣ ألمانياً — ويعرفون باسم ألمان السوديت ، وكان لهم فيما بعد دور فى الأزمة الدولية التى أدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية — مقابل التشيك والسلوفاك البالغ عددهم ٨٫٧٦٠٫٩٣٧ نسمة .

والحقوق التى تتمتع بها الأقليات الجديدة فى شرق أوربا ووسطها تختلف من جماعة إلى جماعة ومن دولة إلى دولة . ولقد كانت معاملة الألمان فى تشيكوسلوفاكيا

طيبة، ولكنهم كانوا مع ذلك غير راضين ،ويمكن أن يقال مثل هذا القول عن التشيك فى الدول الثنائية .

أما المجريون فى رومانيا ويوغوسلافيا فكانت معاملتهم معاملة السلاف أيام كانوا فى المجر ، فهم بطبيعة الحال ساخطين وناقمين . وعلى العموم يبدو أن حال الأقليات العنصرية كان أفضل قليلا فى دول بعد الحرب مما كان فى إمبراطوريات قبل الحرب .

ولعل الاضطراب الاقتصادى الناجم عن معاهدة الصلح كان أشد خطراً . وكان وقعه فى النمسا أيضاً أشد مما فى غيرها . لقد كانت الإمبراطورية النمسوية سوقاً عاماً لحوالى خمسين مليوناً من العملاء ، ووضعت الدول التى ورثتها قيوداً جمركية بعضها ضد بعض منذ اللحظة الأولى التى رفعت فيها أعلامها . ولم تعد النمسا وحدة اقتصادية قوية فى أوربا ذات الحماسة الوطنية الشديدة بعد الحرب بعد أن أصبح سكانها ٦٥٠٠٠٠٠، أكثر من ثلثهم محتشدون فى العاصمة كأنها رأس ضخم فى جسد ضئيل منكمش على حد تعبير جون جنتر . وكان النمسويون يقدرون مشكلتهم هذه، وكانوا يودون أن يتحدوا مع الجمهورية الألمانية الحديثة ، ولكن معاهدات الصلح منعت الاتحاد بقرار من الدول المنتصرة لخوفها من ازدياد قوة ألمانيا . وهكذا فرض على النمسا الاستقلال الذى كان النمسويون يرهبونه .

وقد كفر صانعوا السلام من الحلفاء عما اقترفوه من أخطاء ومظالم وخيانات بإقامة ما يعد مفخرة لهم . إذ شيدوا فى جنيف فى ١٠ من يناير سنة ١٩٢٠ عصبة الأمم التى هى أول برلمان للانسان فى تاريخ البشرية . وربما — عند استعراض تاريخ الإنسان وهو يتعثر فى سيره نحو إنشاء دولة عالمية واحدة — سوف يعد إنشاء عصبة الأمم أهم ما نتج عن مؤتمر السلام فى باريس ، أو ما نتج عن الحرب العالمية

الأولى ، ولم تكن إمكانيات هذه المنظمة لإصلاح الأخطاء أو ملء الثغرات التي نتجت عن معاهدات الصلح تتناسب مع المهمة الملقاة على عاتقها حتى ولو اشتركت روسيا السوفييتية والولايات المتحدة فيها منذ البداية . إذا الواقع أن روسيا ظلت بمعزل عنها، كما قرر مجلس الشيوخ الأمريكي في ١٩ من مارس سنة ١٩٢٠ عدم الموافقة على معاهدة فرساي وبالتالي عدم الموافقة على الانضمام إلى عصبة الأمم . (وفي نفس اليوم رفض الموافقة على معاهدة الأمن مع إنجلترا وفرنسا) . وكانت هذه لطمة لم تفق منها أوربا — وفي الواقع العالم كله — إفاقة كاملة .

وكما هي العادة دائماً في الشئون الإنسانية كانت الدوافع لدى « تلك الجماعة الصغيرة من الرجال العنيدين » (وهو ما أطلقه ولسن على خصومه في مجلس الشيوخ في مناسبة سابقة) الذين حالوا دون اشتراك أمريكا في عصبة الأمم — معقدة ومركبة . إذ كانت فكرة عصبة الأمم في نظر الساسة الأمريكيين الذين نشأوا في ظل مبدأ منرو — وما يزالون يرون العزلة مبدأ قويماً — لهم فكرة مخيفة بل فكرة مرعبة . فهي لم تكن تمثل عندهم تطور فكرة معرفة العالم لنفسه فحسب، وهي الفكرة التي أخذت تتبلور في أمريكا وفي غيرها من البلاد ، بل رأوا فيها انتقالا ثورياً نحو المستقبل . ولابد أن نذكر في هذا المقام أن ميثاق عصبة الأمم كان وثيقة أكبر جرأة بالنسبة إلى الجو السياسي في سنة ١٩١٩ من ميثاق الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ . والواقع أننا إذا نظرنا إلى الموضوع من بعض الزوايا الخاصة نجد أن عصبة الأمم تجربة أكثر جرأة من الناحية الدولية من الأمم المتحدة ، حتى في الوقت الحاضر . ومع ذلك فالذي قضى على عصبة الأمم بصفة نهائية ليس على وجه التحديد ما تراءى للأنظار من صور الحكومة العالمية ، بل العلاقة المميتة بين نصوص التعويضات والعقوبات التي فرضتها معاهدة فرساي ، وبين ميثاق عصبة الأمم . ولقد انضم كثير من الأمريكيين الأحرار إلى المؤيدين للعزلة الأمريكية

فى عدم تأييد الهيئة التى رأوا فيها عاملاً على بقاء الظلم والتسلط . وفوق هذا كانت حزبية ولسن الساذجة تمنعه من استجداء تأييد كبار الجمهوريين الذين كان كثير منهم يؤيدون عصبة الأمم أو أية منظمة دولية أخرى . وسواء فى واشنجتون أو فى باريس فإن ولسن رئيس الحزب هو الذى قضى على ولسن مصلح العالم .

ولقد كان عدم تعضيد النواب الأمريكيين له معطلا للعصبة عند بدء تكوينها ، كما أنه شجع العناصر الأوربية التى كانت تحاول تقويض دعائم السلام بالعنف ، وأغضب الذين كانوا يريدون الإبقاء عليها بالقوة إلى أجل غير مسمى . ولم يقع فيما بين الحربين العالميتين أى شىء أكثر من هذا ليجعل قيام الحرب الثانية أمراً محتماً . وبالإضافة إلى جراح الحرب وجراح الثورة جاءت طعنات هذا الصلح المشوه . إن هذه الجراح الثلاثة الدامية التى أصابت التاريخ هى التى قضت على النظم السياسية والاجتماعية والثقافية فى الحياة الأوربية التى استمرت من سنة ١٩١٩ إلى ١٩٣٩ .

وأعلن دستور فيمار فى ألمانيا فى ١١ من أغسطس سنة ١٩١٩ ، ونظراً إلى أنه انبثق فى أثناء قيام الثورة الفاشلة التى عاصرت إقرار معاهدة فرساى (يوليو ١٩١٩) ، ونظراً إلى أنه كان مؤيداً من كبار الديمقراطيين الذين استسلموا للمعاهدة ، فإن جمهورية فيمار كانت الهدف الأول لضربات الوطنيين المتطرفين الذين دأبوا حتى ذلك الحين على معاداة الشيوعيين ومقاومة الاعتداء البولندى فى المنطقة الشرقية . ولم يكن بين الوطنيين الألمان من يؤمن بالمبادىء الديموقراطية إلا القليل . والآن أصبحت موضع كراهيتهم . ورغبة فى تخليص ألمانيا من القيود التى فرضتها فرساى عليها كان من الضرورى — كما قال أحد العلماء الألمان إلى المراسلة الأمريكية سيجريد شولتز — حماية الألمان من أن يكونوا « ديموقراطيين مستضعفين » . وسألت

المراسلة الأمريكية « ومن هو فى رأيك الديموقراطى المستضعف ؟» ، فكان رده المملوء بالاحتقار والسخرية . ماذا ؟ هو أى ألمانى ينسى أن الواجب الأول عليه هو الحرب من أجل ألمانيا العظمى » . ولم يكن أدولف هتلر هو الذى ألقى هذا القول ولا أحد من عامة الشعب الذين يهرعون تحت العلم الذى يرفعه . كان شاباً بروسيا مثقفاً من أسرة طيبة · هو الكاتب إرنست فون سالومون . ومع أنه كان ضمن من اتهموا بغيل رجل الصناعة السياسى اليهودى وولتر ثناو (وهو رجل وطنى عظيم كفاتليه) إلا أنه لم يكن صعلوكا ولا متعصباً به جنة . إنه لم يكن إلا واحداً من آلاف الألمان الذين نشئوا على عبادة القيصر والوطن، وتحول مؤقتاً إلى مجرم مجنون من أثر الانحلال المتعدد . وآخر عمل جنونى اشترك فيه فون سالومون ما يدعى ثورة كاب فى مارس سنة ١٩٢٠ التى كانت تهدف إلى تقويض الجمهورية وإعادة الملكية آخر الأمر .

وفى الثالث عشر من مارس سنة ١٩٢٠ أعلنت الثورة ضد الحكومة فرقة إيرهارد إحدى فرق الجيش الأهلى (التى أمرت لجنة المراقبة التابعة للحلفاء بحلها) تحت قيادة الجنرال فرايهر وولترفون لوتفتز، وهو أرستقراطى من المدرسة القديمة . وتقدم العصاة يرفرف فوقهم العلم الإمبراطورى، وتعزف لهم موسيقى الجيش إلى حيث استقبلهم الجنرال لودندورف الذى كان العقل المدبر لهذا العصيان . وقبل ساعة واحدة من مطلع النهار وبعد إعلان الإضراب العام هرب أعضاء الحكومة من برلين فى السيارات .

وأبت القيادة العليا للحكومة أن ترفع إصبعاً واحدة دفاعاً عن الجمهورية بحجة أن الجنود الذين كانوا يحاربون كل منهم بجوار الآخر من مدة وجيزة لا ينتظر أن يطلق بعضهم الرصاص على البعض الآخر، إلا أن الثورة فشلت بعد أيام ثلاثة نتيجة لعجزها وبسبب الإضراب العام . وهرب رئيسها الأسمى الذى كان أمريكيا

ألمانيا ويدعى ولف جانج كاب في سيارة أجرة لابساً قبعة عالية رثة غطى بها وجهه. ونقل لودندورف إدارة المؤامرات التى يشرف عليها إلى ميونيخ وعادت الحكومة. وطمعاً فى أن يسود السلام، سمح لفرقة إيرهارد أن تغادر المدينة فى نظام عسكرى. وتذكر سيجريدشولتز المراسلة الأمريكية وهى تطل من نافذة فندق أدلون « إنه عندما سار الجنود إلى إنتردن ليندن رفعوا بنادقهم وصوبوها إلى مئات المدنيين العزل من السلاح على جانبى الطريق، وكانت نتيجة هذا الإجراء الذى لم يستغرق إلا بضع دقائق، أن امتلأت ساحة الفندق بالكثير من القتلى والجرحى. »

وكان فشل ثورة كاب هزيمة للقومية الملكية التى كان ينادى بها اليونكرز ولكنه لم يكن نصراً حقيقياً للديمقراطية الألمانية. وانتقل مركز الثورة ضد الجمهورية وضد قرارات فرساى، كما انتقلت قيادة الحركة الوطنية من أيدى القواد البروسيين إلى أيدى هتلر الجاويش السابق المولود فى النمسا، وزميله فى الحزب الكابتن إرنست روم.

وفى مارس سنة ١٩٢٤ أعاد هتلر تنظيم حزب العمال الألمانى الذى ينتمى إليه على أساس منهج أميل إلى منهج المحافظين. ثم أسماه فى الشهر التالى « حزب العمال الألمانى الاشتراكى الوطنى »، ثم اتخذ أعضاء الحزب لهم شارة على الأذرع، رأى « الفوهرر » أن تكون حمراء. كما اتخذوا شعاراً لهم الصليب المعكوف: لن تعمر الديموقراطية فى ألمانيا ولا فى العالم طويلا...

لقد كانت الاشتراكية القومية الألمانية نتيجة للحالة الصعبة التى جاءت على

أثر الهزيمة الحربية وتنازل القيصر ، وفداحة نصوص معاهدة فرساى ، والخوف من البلشفية . وكانت ألفاظها وأساطيرها مستمدة إلى حد كبير من دعاية الوحدة الألمانية فى عهد ولهلمين ، ومما كان يجرى على ألسنة النمسويين والروس من كلام ضد الصهيونية . وكانت لهذه الاشتراكية من المبادئ ما استمدته من الفاشية الإيطالية التى كان رئيسها وكبير مفكريها الجاويش السابق بنيتو موسولينى ، الذى كان أول زعيم شعبى فى الغرب ينجح فى القيام بحركة جماهيرية أساسها إلباس الحكم المطلق ثوباً جديداً براقاً تزينه الشعارات الشعبية أو الاشتراكية ، ويقترن بفكرة التعصب الشديد للقومية . وكما كان الحال فى ألمانيا تماماً فقد خلقت قسوة شروط الصلح وما تسبب عنها من ألم ممض والخوف من البلشفية فى إيطاليا الظرف المناسب لمناهضة اليمينيين للديموقراطية الولسنية وللقيادة التقليدية التى كانت للكنيسة والعرش . وكان موسولينى وهو الرجل الذى له من القوة والجبروت أكثر مما يظن عادة — قد أسس حزبه فى مارس سنة ١٩١٩ . وفى أكتوبر سنة ١٩٢٢ بعد ثلاث سنوات من النزاع الاجتماعى والاضطراب السياسى الذى عمل الفاشيون أصحاب القمصان السود ما فى وسعهم لإذكائه ، أمر (ومن الحكمة أنه لم يشترك فيه) مائة ألف من أنصاره بالزحف على روما ، وكان بعضهم يحملون الأسلحة معهم .

ونجحت هذه الحيلة الكبرى ، وأقام فكتور إمانويل الثالث (ما أسف له فيما بعد) الصحفى الاشتراكى السابق رئيساً لحكومة إيطاليا . وبعد شهر منحه الملك والبرلمان السلطة الدكتاتورية « لإعادة النظام » ، وظل موسولينى يحتفظ بمظهر التمسك بالحكم النيابى (الحكم النيابى المحاط بالسياط لكل من راودته نفسه باستعمال المعارضة ، ثم أخذ سلطانه يزيد شيئاً فشيئاً حتى أتم تشييد الصرح الجديد للاستبداد . وبعد فترة وجيزة كان السائحون الأجانب يقرأون الشعارات الدالة على جنون العظمة معلقة على جدران القصور « إن الدوتشى لا يخطئ » .

وكان للفاشية الألمانية والإيطالية تأثير على الجماهير الأوربية على أساس أنها صور للمثل العليا الديموقراطية . ولكنها كانت زيادة على ذلك معبرة عن إحساس الجماهير بالحاجة إلى الأبوة التى حرموا منها بعد أن كانت موجودة لدى الحكومات الملكية . لقد قام مارد الحكم المطلق فى لباسه البراق وسلاحه الجديد من أكوام الرماد التى خلفتها الحروب .

ومن قبل ظهر فى الأفق حكم مطلق جديد — أو على الأقل — حاكم مطلق جديد على أنقاض إمبراطورية عبد الحميد . فقد بدا للعيان موقف غريب فى العاصمة العثمانية فى نهاية الحرب . فمع أن الهزيمة سواء أكانت كلية أم جزئية — أسقطت كلا من نقولا الثانى وغليوم الثانى والإمبراطور كارل . إلا أنها وطدت مركز محمد السادس ابن أخى عبد الحميد على عرشه . وكان الحاكم الحقيقى للامبراطورية العثمانية إبان الحرب هو القائد الشاب السابق أنور باشا ، ولم يكن محمد الخامس الذى أجلسه الأتراك على العرش عندما خلعوا عبد الحميد ، إلا تمثالا خالياً من الروح ، ولو لم يسمح لولى العهد محمد وحيد الدين أن يخلف محمداً عند وفاته سنة ١٩١٨ ، إلا لأنه أوهم كل الناس مدى أربعين سنة كاملة أنه غر لا إرادة له . والحقيقة أن محمداً السادس كانت له أخلاق عمه المتوفى (مات عبد الحميد مطمئناً راضى النفس ، فى أحضان إحدى الجوارى ، منذ بضعة أشهر) . كما كان له أيضاً ما فيه من خداع ، واشتهاء إلى الحكم ، وما فى طباعه من جبن .

وعندما كانت تركيا تسعى لعقد الصلح ، غادر البلاد أنور باشا ليبدأ حياة المغامرة ، ومات فى موقعة حربية مجهولة الاسم فى وسط آسيا ، واسترد محمد شيئاً من النفوذ الذى كان يسعى إليه ويطمع فيه . وقد كان على علم بأن الحلفاء المنتصرين فى الحرب يفضلون السلطان الوديع على القائد الشاب المتعصب ، كما قدر

بحق أن تأييد الحلفاء سوف يضمن له البقاء على العرش ، مادام خاضعاً لهم . وكان يدرك أن الحلفاء الآن لابد أن يختلفوا فيما بينهم — وبخاصة إذا استخدم السم كما فعل عمه من قبل — وعند ذلك يسترد حريته . وهذه السياسة إذا نظرنا إليها من حيث الإبقاء على حقوق الأسرة ، هى سياسة عملية ، ولكنها فى نظر من لم ينشأ بين الحريم ، سياسة فيها كثير من المهانة إذا أريد تنفيذها .

ومنذ معاهدة مودروس للهدنة فى ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩١٨ التى ألقت تركيا على أساسها السلاح ، أصبحت القسطنطينية محتلة احتلالاً حربياً مقنعاً بجنود الحلفاء ، الذى كانت السيطرة فيه للقوة البريطانية ، وتمزق القناع عندما دخل الجنرال فرانشيه دسبيرى العاصمة العثمانية ممتطياً جواداً أبيض قدمته له الجالية اليونانية على رأس فصيلة من الجنود الفرنسيين ، وكان فى إجرائه هذا إشارة ساخرة إلى دخول محمد الثانى القسطنطينية فاتحاً ومنتصراً سنة ١٤٥٣ . وكان من بين من شهدوا هذا التحدى بعيون متقدة وشفاه مطبقة مصطفى كمال أحد الشباب الأتراك الذى أصبح فى رتبة الجنرال والذى له أمجد تاريخ فى الجيش التركى . وإلى هذا القائد يرجع الفضل فى فشل إنزال جنود الحلفاء فى جاليبولى ، وبعد الحرب عاد إلى ما كان يشغله قبل الحرب بهمة لا تعرف الملل ، أعنى أنه عاد إلى النشاط السياسى السرى .

وفى أبريل سنة ١٩١٩ أرادت الحكومة أن تنفيه نفياً أدبياً فعينته مفتشاً عاماً للقوات التركية فى مجاهل الأناضول الشرقية ، وعلم قبل رحيله بأن فرقتين يونانيتين نزلتا فى أزمير على الساحل الإيجى من تركيا ، كما نزلت بعض القوات الإيطالية فى أضاليا جنوبيها ، تمهيداً لتنفيذ خطة الحلفاء فى أقصى أطراف الإمبراطورية التركية (وكان من ضمن مظاهر هذه الخطة استقلال أرمينية واستقلال البلاد العربية ،

وإعلان الحماية البريطانية على فلسطين والحماية الفرنسية على سوريا) . ويقول إرفان أورجا أحد كتاب تاريخ حياة مصطفى كمال « عندما نزل مصطفى كمال فى شهر مايو فى ميناء سامسون على البحر الأسود ، فتح ذراعيه متجهاً نحو سماء الأناضول الفسيحة وبدأ أوقع وأحزن زحف فى التاريخ التركى ». وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تبين جانباً من حياة كمال الدينية . إنها تمثل الروح التى بدأ بها كمال ثورته . إن هذا الضابط المولود فى سالونيكا من أسرة ألبانية فيها شىء من الدم الإسرائيلى قد ترك أوربا وراءه واتجه نفسياً وعاطفياً إلى الموطن الآسيوى لأجداده التورانيين، وأراد أن يعمل ما يجعل العالم كله — أو على الأقل — اليونانيين والفرنسيين والإنجليز يرتعدون . والثورة الكمالية التى اكتملت صورتها من روح منشئها وتعاليمه فيها الكثير من الفاشية الإيطالية والاشتراكية الوطنية الألمانية . وكانت الكمالية تشمل بعض العناصر الوطنية والحربية والاجتماعية بل العنصرية أيضاً . ومع أن الحكم كان مطلقاً إلا أنه لم يكن معرضاً لكره الديمقراطية ، التى كانت مصدر شقاء هتلر وموسولينى — وربما كان ذلك لأن المعاهدة التى عقدتها تركيا مع الحلفاء لم تقرر حكماً ديمقراطياً ، وإنما كان الحكم فيها للسلطان الذى يعاونه عدد من الباشوات الخاضعين لسلطة الحلفاء .

ولقد أبدى كمال بعض الألم عندما لفت نظره إلى مقال فى صحيفة أجنبية توازن بينه وبين موسولينى ، وقال « أليس من المؤلم أن أقارن بذلك العملاق الراضى كل الرضى عن نفسه بحذائه الطويل الذى يستطيع أن يقضى به على أى إنسان دون أن يشعر بالألم لحظة واحدة» والكمالية — ولو أن هذا اللفظ لم يعم استعماله بعد — هى حركة مضادة للاستعمار تؤيد الحرب التى تهدف إلى الحصول على الاستقلال . وهى الرائد الأول ، والملهم لكثير من الثورات القومية التى نجحت

فى رفع النير الغربى عن كاهل السكان فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

وكانت البداية الرائعة للثورة الكمالية فى ١٩ من يونيو سنة ١٩١٩ فى سبواس وهى مدينة شرقى أنقره يوم أعلن مصطفى كمال أن الحكومة التى فى القسطنطينية واقعة تحت نفوذ الأجانب، وطالب باجتماع مؤتمر يمثل البلاد فى الأناضول . وكان نمو الحركة داعياً إلى تغيير الحكومة فى القسطنطينية، والدعوة إلى إجراء الانتخابات التى نال فيها الكماليون أغلبية عظمى . واجتمع النواب المنتخبون فى أنقرة ، ووافقوا بالأغلبية على إعلان الاستقلال التركى .

وكان أن رد الحلفاء على هذا باحتلال المبانى الحكومية فى عاصمة السلطان، وبحل البرلمان، وبالقبض على عدد من الوطنيين ونفيهم، ففر بعض أعضاء برلمان مصطفى كمال، ولكن معظمهم كانوا طلقاء فى أنقره ، وهناك اجتمعوا فى ٢٣ من أبريل سنة ١٩٢٠ على هيئة مجلس قومى وأعلنوا عدم الاعتراف بالحكومة الصورية فى القسطنطينية وانتخبوا مصطفى كمال رئيساً للجمهورية .

ولقد اعتدنا كثيراً أن نرى انتصار الحركات القومية فى المناطق الخاضعة للنفوذ الأجنبى، حتى إننا نجد صعوبة فى أن ندرك على بعد عظم الثورة الكمالية أو نقدر قيادة كمال الباهرة . ولقد كانت القومية التركية قوية ولكنها فى سنة ١٩٢٠ ، كانت ماتزال فى مستهل ظهورها ، وكانت لا تزال خامدة . وكان الشبان قوميين من نوع ما ، ولكن رغم تقبهم لم يكونوا جميعاً من الأتراك . ثم إن حركة الإصلاح فى عهد أنور قد وقفت ولم تتقدم أية خطوة . ولكن كمال أذكى نار المثل الثورية لعام ١٩٠٨ . وربط أهدافه بمصلحة الأتراك دون غيرهم من رعايا الإمبراطورية التركية . وكثيراً ما كان يردد القول بوجوب إنقاذ الأمة

التركية من الهلاك، ولكن كثيراً من المستمعين إلى كلامه ما كانوا يدركون تمام الإدراك أن أمة بهذا الاسم فى حيز الوجود. إنهم لم يصبحوا أتراكاً إلا من أثر ماسمعوه من أحاديثه. ولم يكن التحول سهلا ولا سريعاً، ووجد صعوبة كبيرة فى إقناع زملائه الضباط بأن الولاء لهذا الغرض السامى وهو الولاء للأمة التركية يسبق الولاء للسلطان ، وربما كانت الصعوبة الكبرى فى إقناع الفلاحين الأناضوليين أولئك بذلك ، الذين عاشوا تحت ضغط الحرمان والحروب ، إن الوقت قد حان لعودتهم إلى الميدان تحت قيادته وهو أمر كانوا يظنون ألا فائدة منه وأنه قضية خاسرة .

ولم تكن القضية التى تشغل هذا الجندى الطموح من القضايا التى لا يأمل فى نجاحها ، ولكنها كانت تتطلب النضال ضد كثير من العقبات . ومع أن عبقريته الحربية كانت عاملا كبيراً فى النصر النهائى إلا أن السر الحقيقى فى قدرته القيادية يكمن فى شىء آخر . فكانت له — مثل لينين موهبة القيادة ، وكان يمثل القومية التركية كما كان لينين يمثل الثورة البلشفية الروسية ، وقداندمج فى التاريخ اندماجاً كاملا حتىصار أسيراً للقضية التى يتولىالدفاع عنها . وحتى عيوبه الشخصية صارت جزءاً من حياته التاريخية ، وكان يقضى السويعات القليلة التى كان يبيحها لنفسه فى مجون وعربدة كأنما يرى أن كل شىء لا يستحق التفكير إلا عندما يكون الأمر مؤدياً إلى النهضة الوطنية .

وأرسل محمد السادس مرة أخرى إلى الأناضول — مقلداً فى هذا عبدالحميد — جماعة من المسلمين المتعصبين ليثيروا الرجعيين ضد كمال ، وهكذا كانت أمامه حرب أهليه زيادة على ما كان يشغله من المشكلات. كما أن الحلفاء كانوا يحرضون ضده الأرمن وسائر الأقليات على الثورة من جديد، ثم إن اليونانيين بدأوا الزحف

فى قوة عظيمة — ولكنها مشوبة بالاندفاع الأهوج — نحو أنقرة من الساحل.
وظلت الحرب المريرة مشتعلة فى آسيا الصغرى زهاء سنتين. ولكن كمالا استطاع بما لديه من قوة عزيمة وشدة شكيمة أن يقضى على كل مقاومة، وأن يرد الغزاة الأجانب على أعقابهم. وتم جلاء اليونانيين بعد هزيمة منكرة أعقبها خروج جماعى للوطنيين المسيحيين، وارتكب الطرفان كثيراً من الفظائع، فالنساء اعتدى عليهن وصلبن. والرجال ضربوا حتى فارقوا الحياة، والأولاد طعنوا بالحراب. وحرقت المبانى وسممت الآبار. وفى سبتمبر سنة ١٩٢٢ جلا آخر ما بقى من الجنود والمهاجرين اليونانيين من أزمير بحراً. وأتلف كل مالا يمكن نقله حتى لا يقع فى أيدى الأتراك المكروهين. واستخدمت كل وسائل النقل فى الجلاء. وقد ألهمت مناظر الحرب فى المنطقة خيال إيرنست همنجواى وقد كان يجوس خلال المنطقة كلها مراسلا لإحدى الصحف وقد أوحت إليه بوصف رائع. وكمال نفسه راعه منظر أزمير، ولكن الذى ملك عليه حواسه إنما هى النيران التى اشتعلت عقب الجلاء.

ولقد روى الكاتب الفرنسى بنواميشان قول كمال لبعض الضباط وقد استولى عليهم الرعب بمناسبة الحريق « إن هذا معناه أن بلادنا قد تخلصت من الخونة والنفعيين وأنها من الآن أصبحت محررة ومخصصة للأتراك دون غيرهم ».

ويروى بنواميشان أن مصطفى كمال ترك النيران مشتعلة ثلاثة أيام دون أية محاولة لإطفائها.

وجلا الحلفاء من القسطنطينية فى أغسطس سنة ١٩٢٣ يصحبون السلطان الإسمى معهم. وأعلنت الحكومة التركية رسمياً فى أنقره لا فى دار الخلافة

العثمانية — فى ٢٩ من أكتوبر . ونزعت من محمد السادس كل الحقوق الزمنية وسمح لابن أخيه أن يخلفه فى الخلافة الإسلامية كظل الله فى الأرض . ولقب كمال بالغازى تكريماً له ، وفى اللقب إشارة إلى (إبادته للكفار) وفيه شىء من السخرية لأنه ملحد — وانتخب رئيساً للجمهورية . وبعد خمسة أشهر ألغى الخلافة وهى وظيفة السلطان الدينية ، ونفى جميع أفراد الأسرة العثمانية من الأرض التركية .

وهكذا أنهى حكم الأسرة العثمانية . ولقد كان تحطيم هذه التماثيل الدينية بداية لأعنف ثورة فى العالم جاءت من عل منذ عصر بطرس الأكبر فى روسيا .

ولئن قص بطرس لحى الروس ، فإن كمال رغبة منه فى أن يجعل تركية دولة حديثة قوية أمر بألا يلبس الباشوات الطرابيش الحمراء التقليدية . بل لطم أحد الوزراء المصريين مرة على وجهه لأنه حضر اجتماعاً رسمياً مرتدياً غطاء رأسه الممنوع ، وكان أشد عنفاً مع الأتراك إذا ماحاول أن يجبرهم على تنفيذ أوامره .

ويقول عنه جون جنثر : « إن هتلر بالنسبة إليه رجل لين وموسولينى بالنسبة إليه رجل متألق معطر » وعلى النقيض من سائر أصحاب السلطان الحديثين لم يشيد دكتاتوريته من أجل شخصه وإنما من أجل شعبه . وبعد أن قضى على المعارضة فى البلاد خطا الخطوة التى لم يقم بها أحد غيره — لقد خلق المعارضة بمرسوم أصدره . وهكذا أصبحت تركيا بلاداً ديموقراطية على الأقل من حيث الشكل . وكان من إصلاحاته فرضه الألقاب لأسماء الأعلام تشبهاً بالغرب واختار لنفسه لقب أتاتورك — أبو الأتراك — وهو جدير بهذا اللقب فى حياته الخاصة وحياته العامة جميعاً .

وعندما انتهى القتال بين الحلفاء وبين تركيا الحديثة أمكن تصفية المشكلات

الأخيرة الباقية من تراث الإمبراطورية العثمانية القديمة ، كما أمكن وضع حدود الشرق الأدنى بعد الحرب، وأعيد النظر فى معاهدة سيفر ، وأمكن تعديل بعض نصوصها وإن كان بعضها قد نفذ من قبل . لقد احتفظت تركيا بالقسطنطينية وتراقيا الشرقية ، كما احتفظت بالمضيقين وبقى لها شاطئ آسيا الصغرى والأناضول ومرتفعات أرمينيا ، ونزلت عن قبرص لبريطانيا التى كانت تحتلها من قبل ، كما نزلت عن جزر الدوديكانيز إلى إيطاليا . وحصل العرب الذين اختارهم لورنس للقيام بحرب العصابات فى صف بريطانيا على حريتهم . ووضعت المناطق الخصيبة من البلاد العربية والمناطق التى كان يحتمل وجود البترول فيها تحت الانتداب الفرنسى والبريطانى . ووضعت فرنسا يدها بعد حرب قصيرة على الإقليمين الموضوعين تحت وصايتها سوريا ولبنان رغم وعد لورنس بأن تكون دمشق ذات النخيل السامق والمساجد العديدة لأصدقائه العرب . وحصلت بريطانيا على العراق وفلطسين ، ومع أن العرب قد وعدوا بفلسطين إلا أن بريطانيا مالأت الصهيونيين ، ومهدت لهم إقامة وطن لهم فيها .

وشيئاً فشيئاً أخذت ثورة الجماهير المتشاحنة تهدأ وأصوات المدافع تخفت فى أوربا، رغم أن بعض الاضطرابات البلشفية أو الفاشية كانت تحدث من وقت إلى آخر فى أوائل العشرينات من القرن العشرين . وبدأت تبرأ الجراح التى خلفتها الحرب . ولكن الجراح السياسية والاقتصادية والاجتماعية ظلت دامية . ولم يؤد سقوط الملكيات الاستبدادية فى وسط أوربا وشرقها وجنوبها الشرقى إلى زيادة الحريات الشخصية بدرجة ملحوظة فى تلك المناطق . وقامت بعض الدكتاتوريات على نحو ما فى معظم البلاد (وكانت تشيكوسلوفاكيا تحت رياسة مازاريك من الاستثناءات السعيدة) على أن بعض الظروف خففت إلى حد ما وطأة هذه الدكتاتوريات : ففى روسيا الحديثة كان الاستبداد يصحبه الأمل بأن

التضحيات التى يحتملها الشعب مؤدية إلى سعادة قادمة . وفى البلاد التى نشأت من تفكك الإمبراطورية النمسوية كان من موجبات رضى الناس فيها أن الشرطة الذين يسيئون إليهم كانوا من ذوى قرابتهم ودينهم ومن نفس الطبقة الاجتماعية التى ينتمون إليها . ولئن رأى البعض فى هذا شيئاً من السلوى فإن غيرهم ، كالكروات ، رآه فى يوغوسلافيا مثلا سلوى غير واضحة .

ومما لاشك فيه أن المساواة أصبحت أكثر انتشاراً فى أوربا الحديثة عما كانت عليه من قبل ، ولكن بعض الجماعات وبعض الأفراد كانوا أكثر مساواة من غيرهم .

ومما لاحظه ج . ر .فون ساليس السويسرى أن الحزازات بين الحاكين والمحكومين وبين من يملكون ومن لا يملكون ظهرت فى صورة أقوى منها قبل الحرب . ومما كتبه : « يبدو أن التقاليد المقدسة القديمة والعلاقات المبنية على الاحترام المتبادل بين الحاكم والمحكومين قد اختفت ، وأنه لم تقم علاقة سياسية جديدة ولا رابطة أدبية تسترشد بها الجماعات والأفراد فى علاقتهم بالدولة » .

وبمثل هذا التطاحن — كما يقول فون ساليس — كانت تقوم العلاقات بين الدول رغم وجود عصبة الأمم . لقد حاول ولسن — وبريان من بعده — أن يجعل من الإخاء الذى داعب خيالهم حقيقة سياسية ، حتى إن الكتاب مثل رومان رولان وولز حاولوا نشره فى الغرب ، كما حاول ماكسيم جوركى وغيره من كتاب السوفييت نشره فى الشرق ، إلا أن هذا الحلم تبدد أمام حقيقة سياسية أقدم من حقيقة القومية التى كانت — على حد تعبير فون ساليس — « أقوى وأبقى من فكرة الأمن الجماعى الذى كان من اختصاص عصبة الأمم » — حتى إن عصبة الأمم نفسها أصبحت بمضى الوقت منبراً للدعايات القومية . ومبدأ السوفييت الذى يقضى بالقوة

العالمية لا بالإقناع ولا بالاقتداء ولكن بالقوة والإلزام ، كان أيضاً قاضياً على المبادئ الولسنية) .

وكانت الحالة الاقتصادية بعد الحرب ومفاوضات الصلح سيئة فى البلاد الأوربية التى انهارت حكوماتها الملكية . وفعلا عانت كل البلاد المتحاربة ماعدا الجمهورية الروسية التى كانت لها مشكلاتها الخاصة من التضخم المالى وما صحبه من نزول قيمة النقد فى أوائل العشرينات من القرن العشرين، وكانت الكارثة المالية شديدة فى النمسا وألمانيا ، وأشد فى ألمانيا بصفة خاصة .

وفى النمسا حيث حدث التضخم المالى قبل ألمانيا ولم يصل إلى النسبة المروعة التى وصل إليها فى ألمانيا ، حل بها « موسم عجيب للسياحة » استمر بها بعض الوقت . إذ كان فى وسع الرجل الإنجليزى الفقير أن يقيم فى فندق فاخر بأجر أزهد مما ينفقه فى مسكنه فى بلده . وقدم ألوف من البافاريين إلى سالزبرج يشترون الملابس والأدوية ويعالجون أسنانهم . وأخيراً نظم إشراف دقيق على الجمارك عند الحدود وأمكن منع التهريب إلا تهريب البيرة التى كان البافاريون يهربونها فى أمعائهم . ويقول الكاتب ستيفان زفايج وكان يقيم فى سالزبرج فى ذلك الحين « المحطة فى كل ليلة مكان صاخب حقاً مملوءا بالسكارى الذين يصخبون ويعربدون ويتشاجرون . وكان بعض هؤلاء يصيبهم الإعياء من الإفراط فى الشراب ، فينقلون على نقالات إلى القطارات ويعادون إلى بلادهم فى صخب وغناء لايصدران إلا عن المخمورين » . ثم ثار النمسويون لأنفسهم عندما ثبتت قيمة الكرون النمسوى وانحط المارك الألمانى، وتكررت القصة عبر الحدود ولكنها فى هذه المرة كانت من الجانب الآخر .

وصف زفايج الحالة فقال : « ستبقى بيرة الحرب هذه التى بين فترتى التضخم من أعمق ذكرياتى ، ذلك لأنها كانت تعكس بجلاء — فى صورة دقيقة ساخرة — الشخصيه العامة المهزوزة لإنسان ذلك العصر » .

ولقد فقد المارك الألمانى ربع قيمته فى أثناء الحرب ، وزادت التعويضات — وكانت حوالى ثمن الدخل السنوى من الانهيار الذى أصيبت به ألمانيا بعد الحرب. (ولكيلا ننسى الصورة التى علقت بأذهاننا يجدر بنا أن نذكر أنه بعد وقف التعويضات — بناء على الموافقة الرسمية على تأجيلها — وبعد عجزها عن دفع ديونها الأجنبية استهلكت ميزانية هتلر الحربية سدس الدخل القومى) ، وفى نوفمبر سنة ١٩٢١ أصبح كل ٢٠٠ مارك لاتساوى إلا دولاراً واحداً . وفى نوفمبر سنة ١٩٢٣ قفز الدولار إلى ٤ بلايين من الماركات . وفى أوج التضخم كان ثمن الصحيفة اليومية ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مارك ، وكان ثمن طابع البريد اثنى عشر بليون مارك .

ثم أصبحت عقود التأمين وودائع الادخار وسندات الحكومة لاقيمة. لها وكل من كان يدخر وكل من كان يقتصد فى أمور معاشه أصبح من المعدمين، وبين عشية أو ضحاها أصبح من كانوا يغامرون ويسرفون فى الإنفاق أو يستدينون من الأغنياء .

وكانت الصدمة الاقتصادية التى أصابت الألمان والطبقة المتوسطة فى أوربا بسبب التضخم المالى مريعة . بل كانت الصدمة النفسية والأدبية أدهى وأمر . وعندما تضعضع إيمانهم بقيمة النقد وبالفضائل المتصلة بالتعامل المالى، فقدت الطبقات الوسطى ثقتها لا فى الحكومة فحسب، بل فى المجتمع كله وفى الله وفى القيم الإنسانية نفسها. وكان الألم النفسى أشد وقعاً بسبب حدوثه عقب الصدمة التى أصابت الناس

بانهيار رمز سلطان الحكم . ثم إن هذه الحالة قد صحبها هلع قاتل : فقد لا يموت الألمان الفقراء من الطبقة الوسطى جوعاً — على أن بعضهم مات فعلا من الجوع — ولكنهم كانوا مهددين بفقدان احترامهم الشخصى بهذا الانتقال إلى طبقة المعدمين أو الطبقة الدنيا على أحسن الفروض ، فلم يكن عجباً أنهم انقادوا لمشيئة هتلر الذى حول ثورته الجنونية إلى تهديد ثورى .

وفيما عدا روسيا كانت الطبقة الأرستقراطية أقل تأثراً بنتائج الحرب والثورات من الطبقة المتوسطة . فلقد كان أغلب ثروتهم فى الأرض التى لم تنزل قيمتها كثيراً إبان التضخم المالى . ولو كانت مرهونة فى مقابل مبلغ كبير ففيها لمالكها فائدة كبيرة ، ولم يكن من طبع الطبقة الأرستقراطية — على عكس الطبقة المتوسطة — جعل القدرة على إيفاء الدين مساوية للاحترام ، أو اعتبار كثرة المكاسب المادية دليلا على الحياة التقية وجزاء لها . ومع ذلك حرمها انهيار النظام الملكى — الذى كانت خدمته مهمتهم الوراثية — من سبب بقائهم الاجتماعى . واستمر بعض النبلاء فى خدمة المجتمع فى الأعمال التقليدية التى كانوا يباشرونها ، كضباط فى الجيش أو سياسيين — وقلما عينوا وزراء أو محافظين — وأصبحت فرصهم لملء هذه الوظائف أقل مما كانت قبل الحرب وبخاصة فى الدول الحديثة التى كانوا يمثلون فيها قبلا الطبقة الحاكمة الأجنبية . وقبل بعضهم بشجاعة أعمالا يدوية أو أعمالا حقيرة كقيادة السيارات الأجرة ، وحراسة بعض الأندية الليلية ، أو الخدمة فى مطاعم باريس . واشتغل بعضهم فى الأعمال التجارية .

ومع ذلك أخذ الكثيرون منهم يقومون بأعمال فضولية مستترة ، وسرعان ما انحطت أقدارهم كما يحدث عادة لجميع الفضوليين الاجتماعيين . واختفت الحدود بين الطبقات التى كانت تلاحظ قبلا بكل دقة ، وإن بقيت فى العواصم فترة

أطول . ويقول دوق وندسور فى مذكراته « قصة ملك » ... « إن عوامل التبديل فى أوائل العشرينات لم تتعمق بعد كثيراً فى نظام المجتمع البريطانى بحيث تقضى على الأناقة المعتادة . ففى أثناء ما يدعى بالموسم اللندنى يستمر الرقص فى وست إند من منتصف الليل إلى الصباح . . ويمكن قضاء الأمسيات فى أحد النوادى البائسة ، وقد أصبحت عصرية ومحترمة لدى الجميع » .

ومن بين من نحى عن الحكم من الأسرات الملكية أسرة هابسبرج أشد الأسرات تمسكا بتقاليد الدنيا القديمة . ولقد قام بتربية الدوق أوتو ابن الإمبراطور كارل أمه الإمبراطورة السابقة زيتا على أساس احتمال عودته إلى عرش آبائه . وكان الاحتمال معقولا إلى سنة ١٩٣٨ أن تعود الملكية — على الأقل فى النمسا — ورغم أن الأمل أخذ يضعف ، فإن أوتو كان يعنى عناية خاصة بأن يسلك فى حياته العامة وحياته الخاصة المسلك الذى يتناسب مع من يحتمل جلوسه على العرش . وكان كثير من أعضاء أسرة هوهنزولرن أقل تأنقاً أو أقل سوء حظ، رغم أن الفرص التى تهيأت لعودتهم إلى ألمانيا كانت أكثر مما فى النمسا . وعاش غليوم عيشة متواضعة لا بأس بها (وامتنعت الحكومة الهولندية أن تخرجه من البلاد ليحاكمه الحلفاء فى جريمة الحرب) حتى توفى سنة ١٩٥١ . أما ولى العهد السابق الأمير فردريك ولهلم فلم تكن حياته بعد الحرب مفيدة من أية ناحية . فكان يقضى وقته فى المقهى ،وكان فى وقت ما مؤيداً لهتلر ، ومات فى عام ١٩٥١ .

وأخذت الأساطير ترسم العشرينات من القرن العشرين فى صورة المرح الشديد والغليان الخلاق . وفى الواقع كانت عصر الشباب المتقد . عصر البنات والرقص . إنه عصر همنجواى وسنكلار لويس وسكوت فتزجيرالد و د . ه . لورنس وجيمس جويس ، وعصر السيريالية فى الفن . وانتهت حشمة النساء التى

كانت واضحة قبل الحرب . وعندما نزلت قيمة النقد ارتفعت ذيول ملابس النساء . ففي عام ١٩١٩ كانت على بعد ست بوصات من الأرض ، فأصبحت سنة ١٩٢٥ فوق الركبة عند تثبيت الأثمان .

وكان يصحب هذه الحرية فى الملبس ثورة ضد كل قيد على العقل والجسم وبخاصة عند الشباب . وكانت البنت الأمريكية التى تمثلها كلارا بو بشعرها الذهبى فى أفلام السينما تعد بنتاً مثالية بالنسبة إلى أختها الأوربية عند بلوغها سن الرشد وسط الأصنام المحطمة فى الإمبراطوريات الهاوية . ويقول الكاتب زفايج « إن جيل ما بعد الحرب فى وسط أوربا ثار على كل قاعدة حباً فى الثورة ، حتى على قواعد الطبيعة ، وقواعد الجنس الأزلية . وصار الشذوذ الجنسى والانغماس فى الشهوات هما القاعدة لديه ، لا بدافع من الغريزة ، ولكنه نوع من الثورة على مظاهر الحب التقليدية والعادية . وظهر التطرف الثورى فى الفن كذلك . ولاشك أن كل عنصر مفهوم فى كل شىء قد قضى عليه : كالإيقاع والموسيقى والمماثلة فى الصور ، والوضوح فى اللغة . ألا ما أعظم فوضى هذه الأيام وما أبعدها عن الحقيقة » .

والواقع أن هذه السنوات كانت خيالية . ومع أنها كانت كلها طيشاً ، إلا أنها لم تكن مرحة كما يحب من بلغ منا منتصف العمر أن يذكرها . وحتى فى الجرى وراء ما يرضى الحواس كان هناك شىء من فقدان الحس الروحى والعاطفى ، ففى غمرة ويلات الحرب وصدمات الثورة وخداع المعاهدات فقد الأوربيون الثقة فى مستقبل مشرق ، وهو ما كان يضىء حياة آبائهم وأجدادهم . وقد تتقدم الصناعات ، ولكن لم يعد هناك أى أمل فى أن يؤدى تقدمها إلى حياة أهنأ . إن الصباح المشرق فى عصر الطيران — ولقد تقدم الطيران تقدماً

محسوساً بسبب الحرب — لم تتفتح له قلوب الناس على الأقل فى أوربا — ولا الصباح المشرق فى عصر الراديو — (افتتحت أول محطة لإذاعة الولايات المتحدة فى بتسبرج سنة ١٩٢٠) وبما قاله جـ . ك . تشسترتون . «من العجب أن تخترع البشرية آلة تحدث كل العالم فى الوقت الذى لا يجد فيه الإنسان أى كلام يوجهه للناس » . ولكن بعض الناس وجدوا ما يتحدثون به — شبنجلر فى التاريخ مثلا وهمنجواى وهكسلى وإفلين وو فى الأدب ، ولكنها لم تكن رسالة سارة . فنظرية شبنجلر فى حتمية انحطاط المدنية الأوربية أخذ وقعاً على النفس من نظرية همنجواى فى انحطاط العلاقات الإنسانية . وإذا كانت منتبرناس مكاناً كئيباً فى رأى الكاتبة لادى برت ، فإن فينا بعد الحرب — وقد صارت خاوية على عروشها بعد أن دار التاريخ دورته — كانت أكثر كآبة وحزناً . ولكن برلين وهى بابل عصر الجاز كانت أتعس البلاد جميعاً .

يقول زفايج ثانية عن برلين فى سنة ١٩٢٠ « لدى خبرة تامة بالتاريخ، ولكن لم يكن بها من آيات الجنون ما بها الآن بهذه النسبة المريعة ، وما كان فى النمسا ليس إلا بعض ما نراه الآن فى برلين . وحتى روما فى عصر سوتونيوس لم تشهد مثل هذا المجون الذى نراه فى مراقص برلين ، ولكن كان أشد ما تأباه النفس فى العلاقات الغرامية أنها كانت غير صادقة . وكل من عاش هذه الأيام وهذه السنوات كان يشعر بالألم والحسرة ويحس بالكارثة القادمة » .

والكارثة التى يشير إليها زفايج كانت — بالطبع — هى ظهور هتلر واستيلائه على الحكم ومحاولة سيادته العالم . ولم تكن الثورة النازية الفاشستية لتدل على تبدل الأمور بعد الثورة بالنسبة للقيم التقليدية أكثر مما تدل على فقد هذه القيم . ولقد كان يكمن تحت ما تلى الحرب من صخب وغضب تكرار

لفشل القيادات على نطاق أوسع، الأمر الذى كان أساس انهيار أوربا القديمة. وكان إفلاس الحكام الجدد — سياسياً وروحياً واجتماعياً — أولئك الذين خلفوا الملوك والأسرات الأرستقراطية والمتوسطة أظهر للعيان من إفلاس من سبقوهم من رجال الحكم . وفى هذا العهد لم يكن فشل القيادة مقصوراً على قارة بعينها أو على طبقة دون طبقة . وعندما تنكرت أمريكا للمبادئ الولسنية لم تعمل أى شىء لبقية أنحاء العالم . ومما صادفته أمريكا من المشكلات أيام وارين هاردنج وكالفن كولدج ، اتضح أنها لا تكاد تقل تخلفاً عن النمسا فى عهد فرانسيس جوزيف. وحتى تحول مركز الحكم والسلطان فى أوربا من الإمبراطوريات الوسطى إلى الديموقراطيات الغربية ، وتبدل مناط الحكم فى الدول المنهارة من طبقة الحكام التقليدية إلى العناصر الاجتماعية الجديدة ، لم يهيأ للعالم الغربى طريقاً أفضل من الاتجاه القديم، فبالدون وبنس كرر أخطاء إيرنتال وجراى. وسياسة ستالين الخارجية فيها من التعقيد ما كان فى سياسة نقولا . ومنذ سنة ١٩١٤ أخذت الأمور تتغير بسرعة لا مثيل لها فى كل مجال، مما جعل محاولة الحياة الفردية والجماعية فيها فى غاية الصعوبة . لقد صار التاريخ قاطرة أفلتت من قائدها وجرت بمنتهى السرعة .

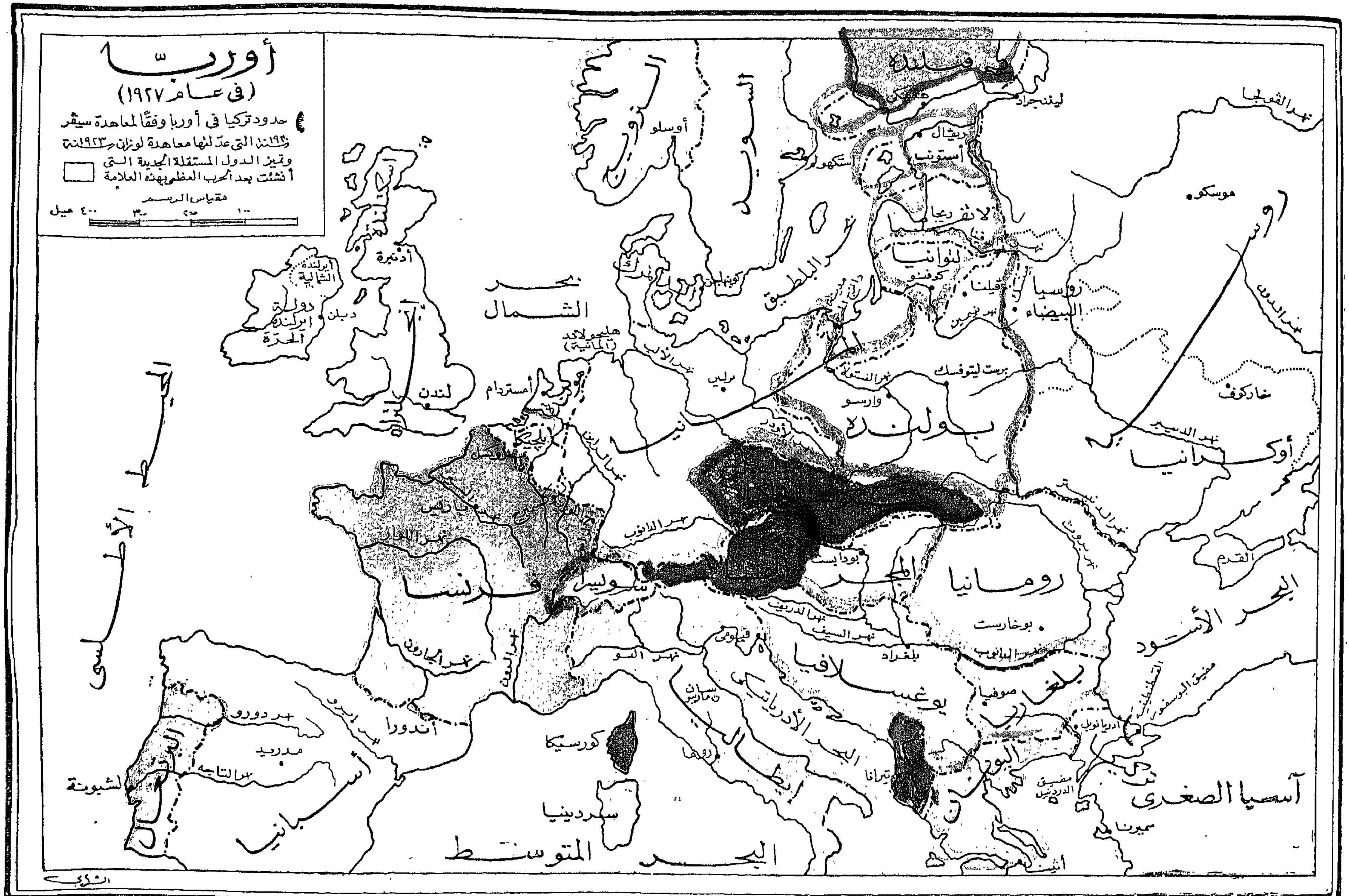
وفى ثنايا المعركة الأخلاقية التى قامت فى أوربا بعد الحرب ، بين الطبقات المنهارة، برز أمل واحد للانسانية ،وهو أمل ما يزال ماثلا أمامنا فى الوقت الحاضر ذلك الطراز المؤثر الحديث من التماثيل — التى تقيمها البلاد المتحاربة تمجيداً لذكرى من استشهدوا فى الحرب. إن قبر الجندى المجهول فى مدافن أرلنجتون الوطنية وقبر المحارب المجهول ونصبه فى لندن واللوح الرخامى الذى لا يشير إلى اسم بعينه، والشعلة المقدسة التى تحت قوس النصر فى باريس، تعكس معنى أكثر مما تدل عليه من اتجاه جديد فى فن العمارة الجنائزية . لقد كرم كل مجتمع بعد كل حرب

موتاه من الأبطال ، ولـكن مجتمعنا الحاضر كان أول من اختار بطلا مجهولا . ولو سمع هذا الـكلام منذ خمسين عاماً لبدا فيه تناقض كبير .

ومع ذلك فلم يكن تـكريم الجنـدى المجهول مهما كان بسيطاً — أمراً جائز الوقوع فى النمسا والمجر فى عهد فرانسيس جوزيف أو فى روسيا فى عهد نقولا أو فى ألمـانيا فى عهد غليوم . وإنما هذه الحرب الحديثة وهذا الأسلوب الحديث من التفـكير والإحساس نحو الحرب — هو الذى جعل هذا الاتجاه ذا معنى خاص ، كما جعل لهذا التمثال وقعاً خاصاً فى النفس . إن تغييراً عميقاً اجتماعيا من نوع ما ، وقد يكون تغييراً تاريخياً ، هو الذى دفع إلى هذه الرمزية . وربما كان ذلك لأن مجتمعنا لا معالم له ، كما أنه مجتمع جماهيرى ، فنحن لذلك نستطيع اختيار البطل الذى لا اسم له .

وربما كان لذلك دلالة أخرى . فقد تـكون هذه القبور الغامضة ليست نصبا مقامة « لشعبية » الرجل العادى فحسب بل هى أضرحة مقامة لإنسانيته . وربما تدل على تطور بسيط ولـكنه هام فى أنماط عقولنا ، لا من حيث المساواة ، ولـكن من حيث سعة الظروف الإنسانية والمـكانة المتعلقة بها ، فى كل زمان وفى كل مكان ، فى أحرج الظروف ... فى أسوأ الظروف . وهناك دلائل أخرى على تطور وجهات النظر الفردية التى صحبت تقدم العالم بعد الحربين العالميتين فى إنشاء المؤسسات التى تهدف إلى التعاون العالمى .

والآن وقد تضاءل شعور الفخر بالأمجاد البسيطة للقبيلة التى ينتمى إليها الفرد ، فأيسر لنا أن نشيد بانتمائنا للقبيلة الـكبرى التى ينتمى إليها الإنسان ، والتغير الذى حدث هو من العمق والدقة بحيث إننا لسنا على يقين بأنه حدث ، ولـكن من المحتمل أنه حدث فعلا . وعلى هذا فلنا أن نقرر مطمئنين حقيقة



أوربا
(في عام ١٩٢٧)
حدود تركيا في أوربا وفقًا لمعاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ التي عدلتها معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣
وتميز الدول المستقلة الجديدة التي أنشئت بعد الحرب العظمى بهذه العلامة
مقياس الرسم
١٠٠
٢٠٠
٣٠٠
٤٠٠ ميل
فنلندة
لينينجراد
أوسلو
استكهولم
السويد
ريفال
استونيا
لاتفيا
لتوانيا
كوفنو
فلنا
روسيا البيضاء
موسكو
روسيا
أوكرانيا
خاركوف
بحر الشمال
بحر البلطيق
كوبنهاجن
أدنبرة
أيرلندة الشمالية
دولة أيرلندة الحرة
دبلن
لندن
أمستردام
برلين
وارسو
بولندة
برست ليتوفسك
فرنسا
باريس
سويسرا
بودابست
المجر
رومانيا
بوخارست
بلغراد
يوغسلافيا
صوفيا
بلغاريا
البحر الأسود
أدريانوبل
القسطنطينية
مضيق البوسفور
آسيا الصغرى
سميرنا
اليونان
أثينا
تيرانا
البحر الأدرياتيكي
إيطاليا
روما
كورسيكا
سردينيا
البحر المتوسط
أندورا
مدريد
أسبانيا
لشبونة
البرتغال
المحيط الأطلسي

نختم بها هذه القصة — قصة سقوط وانهيار وبعث الاستبداد . قصة القادة الذين لا يبصرون والجماهير المخدوعة . قصة الأخطاء القديمة التى لا تنسى والأخطاء الجديدة التى تفرض . والثورات التى تؤدى إلى الحرب والحروب التى تؤدى إلى الثورات . والسلام الذى يتقرر ، والآمال التى تبدو أمام الأعين ثم تختفى ، وخطوات القهرى الواسعة والخطوة الضيقة إلى الأمام .

وقد يكون التقدم أقل مما يكفى للتعويض عن التأخر المؤلم ، ولكن هذه الحقيقة يمكن أن تقال عن خطوة خطاها الإنسان فى تقدمه من الحضيض إلى ذروة المجد .